شعراء الرسول ﷺ

في ضوء الواقع والقريض

قدم له

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

(رحمه الله)

تأليف

سعيد الأعظمي الندوي

رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي



أشرف عليه

سعادة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء العام - لكنهؤ (الهند)

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م

مكتبة الصفاء
أبوظبي - ص.ب ٥٢٦٦
هاتف: ٦٤٤٥٠٥٢ - فاكس: ٦٤٤٥٦٢٥
الإمارات العربية المتحدة

شُعَرَاءُ الرَّسُولِ
ﷺ
فِي ضَوْءِ الوَاقِعِ وَالقَرِيْض

كتابٌ يتضمَّن حياة أربعة من شُعراءِ الرّسول ﷺ ، الشِّعريَّة ، وهم :

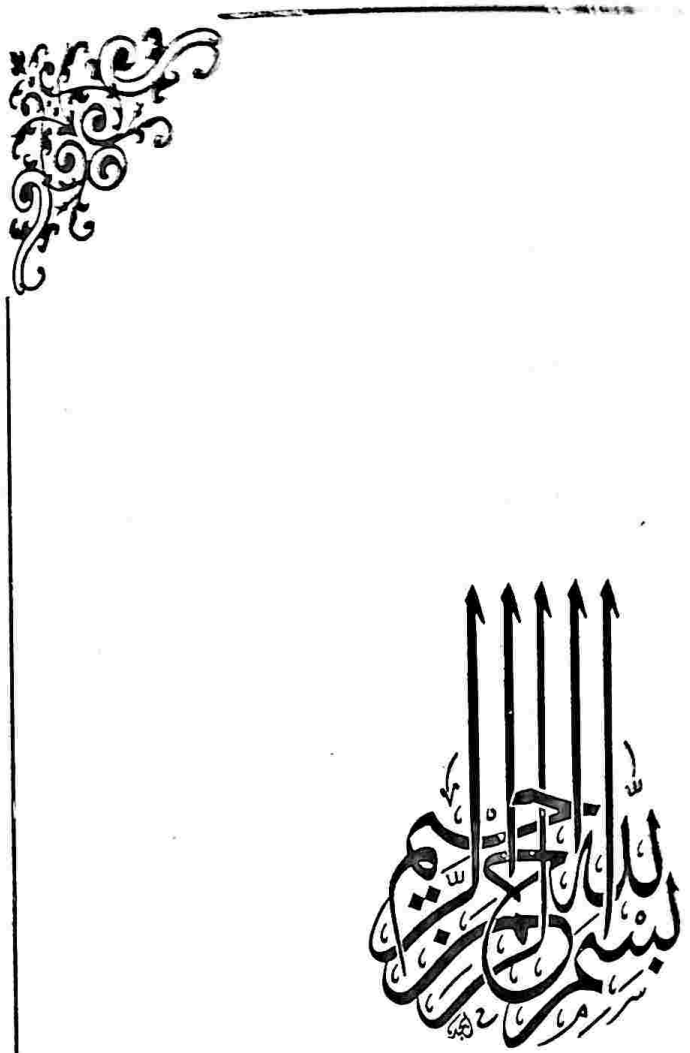
١ ـ كعب بن مالك الأنصاري
٢ ـ حسان بن ثابت الأنصاري
٣ ـ عبد الله بن رواحة

ويضاف إليهم : ٤ ـ كعب بن زهير بن أبي سُلمى
طبعة مزيدة منقحة

قَدَّم له :
سماحة الشَّيخ السيد أبي الحسن علي الحسني النَّدوي (رحمه الله)

تأليف :
سعيد الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي»

أشرف عليه :
سعادة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي
رئيس ندوة العلماء العام ـ لكنهؤ (الهند)


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم: سماحة العلامة الشَّيخ

السيد أبي الحسن علي الحسني النَّدوي

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيين محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أمَّا بعد! فقد كان الشِّعر الذي قيل في مدح الرَّسول ـ ﷺ ـ والدِّفاع عن الإسلام ، والرَّد على بعض الشُّعراء الجاهليين ، والمنافسين من قريش والقبائل العربية ، شعراً قوياً ، غنياً بالمادة الكلامية ، والمفاهيم الهادفة العالية ، زاخراً بالجوانب الفنية ، استخدم أصحابه كلامهم الشِّعري كسلاح كبير في المعركة الدائرة بين التقاليد الجاهلية والتعاليم الإسلامية ، دفاعاً عن رسول الله ﷺ ، ولإعطائه بعض ما يستحق من الإنصاف والاعتراف ، والمدح والثناء ، والحب والوفاء .

وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء الذَّابّين عن الإسلام ، والمادحين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الشعراء الأربعة :

١ ـ كعب بن مالك الأنصاري .

٢ ـ حسان بن ثابت الأنصاري .

٣ ـ عبد الله بن رواحة الأنصاري .

٤ ـ كعب بن زهير بن أبي سُلمى (وقد انضم إليهم في الأخير) .

رضي الله عنهم وجزاهم عن الإسلام ، والإنسانية ، والإنصاف ، والأدب والشعر أحسن الجزاء وأفضله .

وقد قاموا بالواجب الديني والخلقي ، والإنساني والأدبي ، في الدفاع عن سيد المرسلين وخاتم النبيين رسول الإنسانية ونبي الرحمة ، ومفتتح عهد سعيد ـ للسعادتين الدنيوية والأخروية ـ ووفقوا لمدحه ، وقالوا الشعر البليغ الصادق الذي أصبح ثروة أدبية ، زيادة على ثروة دينية وإيمانية ـ وأصبح من حقهم عملاً بالكلمة المأثورة الحكيمة المنصفة : «الجزاء من جنس العمل» أن تلقى الأضواء القوية المنيرة على سيرتهم ومكانتهم الأدبية والشعرية ، وما كان يحيط بهم من بيئة جاهلية واتجاه جاهلي للشعر ، ومناوأة قريش وجبهات محاربة للإسلام ورسوله ﷺ الذي بُعث للهداية والقضاء على الحياة الجاهلية ، وافتتاح عهد جديد خالد للإسلام ومثله العالية ، وتعاليمه الفاضلة ، المنقذة للعالم والإنسانية ، من عذاب الله في الآخرة ، والشقاء في الدنيا .

ولكن في الواقع التاريخي والتأليفي أن شعراء الإسلام في العصر النبوي ـ وفي طليعتهم ومن أبرزهم هؤلاء الأربعة الذين تقدمت أسماؤهم ـ لم يُوَفَّوا حقهم من التعريف والاعتراف ، وإلقاء الأضواء على خصائصهم الشعرية ، ومكانتهم الأدبية وقيمة مغامرتهم الإيمانية والخلقية ، وتأثير شعرهم في البيئة المناوئة الجاهلية ، وما له من فضل في تاريخ المدائح النبوية ، السائرة مع الزمان والمكان والباقية إلى آخر الزمان .

وقد وفّق الله الأستاذ الفاضل سعيد الأعظمي الندوي أستاذ الأدب العربي في دار العلوم ، ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» الصادرة من ندوة العلماء ، لتأليف كتاب مستقل أسماه بـ«شعراء الرسول ـ ﷺ ـ في ضوء الواقع والقريض» وقد كمل الكتاب في مدة طويلة ، نظراً إلى أشغاله ومسؤولياته المتعددة ، بحث فيه في حياة كل شاعر من هؤلاء الأربعة ، وشعره المخضرم ، وإثبات نماذج منه ، وشرح الغامض من كلمات ، وبيان المناسبات التي قالوا فيها هذا الشعر . واعتمد في الحديث عن هؤلاء الشعراء على كتب التاريخ والتراجم ، والأدب والسيرة ،

مع بحث مقارن مع الشعر الجاهلي ، وحديث عن مكانة الشعر في الإسلام ، وما زاد الإيمان بالله ، واتباع تعاليمه الخلقية ، والاحتفال بجانب النفع والهداية ، وتفضيله على إشباع الرغبة البشرية والمادية والعاطفية من قيمته ، وما أحدثت تلك الميزة والطابع من تطور ثوري وبنائي في الملكة الشعرية ، والقريحة الأدبية ، وزاد الثروة الأدبية ، والمكتبة الشعرية قيمةً وقامةً .

واستعرض المؤلف مكانة هؤلاء الشعراء الذّابّين عن الإسلام والرسول ـ ﷺ ـ تاريخياً ونقدياً ، وتناول جوانب أدبية وشعرية بالتحليل والمقارنة ، وإبراز الجوانب الفنية ، كباحث في تاريخ الشعر وتاريخ الأدب العربي ، وذكر البيئات والمواقع التي قيل فيها هذا الشعر الإسلامي الهادف الفني والعاطفي ، والعوامل التي دفعت إليه وحملت عليه ، ومن تلقى هذا الشِّعر أو ما قيل فيه ، من مقاومات وردود فعل ، وكان في ذلك مؤرخاً أميناً ، يصور ما كان حول هذا الشِّعر وقائليه من تجاوب وتقدير ، ودعاء الرَّسول ـ ﷺ ـ وإثارة للمناوئين وشعراء الجاهلية وأعداء الإسلام ، للرد والاستنكار ، إنصافاً للتاريخ وتصويراً للواقع .

لذلك كان الكتاب كتاب تاريخ ونقد أدبي ، واستعراض للواقع فكانت له قيمةٌ علميةٌ تاريخيةٌ ونقديةٌ لا يُستهانُ بها . وللكتاب فهرس طويل للمراجع يدلُّ على رحابة صدر المؤلف وتجشّمه للعناء والعناية بالموضوع الذي يرجو منه الأجر من الله ، واعترافاً من المعنيين بالأدب والشعر ، والمنصفين من المؤرخين والناقدين ، ويستحق بكل ذلك ـ وأقل ما يستحقه ـ أن ينال درجة «الدكتوراه» من جامعة ندوة العلماء .

وقد قدم الكتاب الأستاذ الأديب الباحث محمد الرابع الحسني الندوي مدير دار العلوم التابعة لندوة العلماء ، ونائب الرئيس لرابطة الأدب الإسلامي العالمية بمقال تحليلي ضافٍ ، جاء فيه كل ما يحتاج إليه هذا الكتاب من تقديم ، وما يستحق مؤلفه من اعتراف وتقدير .

وهذه كلمة قصيرة ، يتقدم بها كاتب هذه السطور ، اعترافاً بالواقع ، وتقديراً للمؤلف العزيز الذي هو عضوٌ عاملٌ مساعدٌ للكاتب في مجال الدعوة والكتابة ،

والمحيط التعليمي والتربوي في دار العلوم التابعة لندوة العلماء ، التي يتقلَّد كاتب هذه السطور جزءاً كبيراً من مسؤوليته وواجباته نحوها .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله تعالى وسلم على نبيه المصطفى ، وجزى مادحيه والذابين عنه ، والمنوهين بهم أحسن الجزاء .

١٤١٦/٣/١٦هـ
١٤/٨/١٩٩٥م

أبو الحسن علي الحسني الندوي
رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية
وأمين عام ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

تقديم الكتاب

إن جامعة ندوة العلماء تضم في مرحلة التعليم العليا ، قسم التكميل ، وهو بمثابة الدكتوراه في الجامعات الأخرى ، وقد التحق به بعض المكمّلين للدراسات العليا من ندوة العلماء ، وأعد بحثاً لنيل درجة التكميل وفاز بها ، وكان عدد هؤلاء قليلاً ، لأن الالتحاق بالجامعات الأخرى ، وطلب درجة الدكتوراه فيها كان سهلاً ، وينال فيها الطالب من العطف الحكومي ، ما لا يناله في جامعة شعبية أخرى ، مع أن المتخرج من جامعة ندوة العلماء ينال لدى أصحاب الخبرة التعليمية تقديراً أكثر لبراعته في اللغة العربية وآدابها أكثر من الجامعات الرسمية .

لقد أراد أخونا في الله وزميلنا في هيئة التدريس بندوة العلماء الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» العربية ، أن يعد بحثاً للدكتوراه ويقدمه إلى جامعة الأزهر بمصر وكان حائزاً لشهادة الفضيلة (ماجستير) في الأدب العربي من جامعة ندوة العلماء ، ولكن مسؤولياته الضخمة في رئاسة مجلة «البعث الإسلامي» العربية وأعمال التدريس وغيرها لم تسمح له بالغياب عن ندوة العلماء لمدة طويلة ، فاكتفى بزيارة الأزهر والإقامة في رحابه لمدة قصيرة ، وأما طلبه لنيل درجة الدكتوراه فقدمه إلى قسم التكميل من ندوة العلماء ، ودرست الإدارة المختصة بهذا الأمر طلبه وسجل اسمه وسمح له بالقيام بالعمل حسب النظام ، وكان عليه أن يكمل بحثه في سنتين أو ثلاث سنوات ، ولكن زحمة أشغاله العلمية والتعليمية لم تترك له مجالاً للإسراع ، فاستمر في العمل حتى طالت المدة ، ولكنه لم يسأم ولم يكِلَّ ، بل أتم العمل بصورة حسنة .

لقد أعدَّ الأخُ الكريمُ الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي رسالته حول شعراء الرسول الكريم ـ ﷺ ـ ، ومع أن عمله في هذه الرسالة استغرق مدةً أطولَ مما كان يُقَدَّرُ

ويُرجى بسبب زحمة مسؤولياته العلمية والعملية في المجالات التي هو مُكَلَّفٌ بأداء الواجب فيها ، ولكنَّ عملهُ جاء أوسعَ وأحسنَ ، لأن طول الوقت الذي بذله فيه زاد من صقله وتحسينه لبحثه .

إن الشعر بالنسبة إلى الحياة الدينية ، وبالنسبة إلى الرسول الكريم ـ ﷺ ـ الداعي إلى الله تعالى والناصح باختيار التقوى والعبادة ربما يعد غريباً بل وبعيداً عن مجالات العمل الأدبي ؛ لأنه قيل قديماً: إن أحسن الشعر أكذبه ، ولأن وصف الشعراء في كتاب الله تعالى جاء بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦] فظنَّ كثيرٌ من الناس أن الشعر بناءً على هذه الإشارات الواضحة لا يمكن أن يستقيم أو يبقى على حالة القوة والجمال مع الإسلام ، ولكن الشعر ـ على عكس مما سبق ـ استقام مع الإسلام حتى في عهده الأول النموذجي ، ولعب دوره في البلاغة والروعة ، وإن كانت روعته قد خفيت على عدد ممن مارسوا النقد والتعليق على قيمة الشعر وتاريخه ، فوصفوا الشعراء بصفات لا يتفق بعضها مع الإسلام ، ولكن ثبت من الرسول ـ ﷺ ـ أنه طلب إنشاد الشعر وشجعه ، وحث الشعراء على قرضه للحق والخير ، وبذلك أفسح للشعر المجال في الإسلام ، ولكن حَدَّدَتْ حُدُودَه شريعةُ الإسلام وهو إطار غير ضيق للحياة ، بخلاف ما زعمه عدد من زعماء الأدب وظنوه ، من أن الامتناع عن الكذب ، هو تضييق للشعر ، والامتناع عن الفسوق والكفر هو قصّ لجناحه المرفرف في السماء .

إن هذا التصور عن الشعر قد أتى من الغفلة عن روائع الأدب الإسلامي ، بأصنافه المختلفة وأبعاده الواسعة في مجالات الحياة ، فكان من الضروري أن يتناول أدباؤنا ونقادنا البحث في هذا المجال ، وأن يسوقوا أمثلةً جميلةً لأصنافه ، ويَعْرضوا على الرَّاغبين إلى معرفة روائعه نماذجَه العاليةَ ، مستلهمين من قول رسول الله ـ ﷺ ـ «إن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحراً» ، ولقد مدحَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ورثاه شعراؤه ودافعوا عن الدين الإسلامي وعن دعاته والمجاهدين في سبيله ، وأبدعوا في أصناف أخرى معروفة في زمنهم أيضاً مثل الحماسة والفخر والهجاء والنسيب ، مهتمين بألا يقولوا إلا الحق ، وألّا يحيدوا عن الصواب ، إلا البعض الذين لم

يتربوا في البيئة الإسلامية ، انظروا إليهم حينما يمدحونه ـ ﷺ ـ مدحاً لا يجاوزون فيه مع رفع مكانته صفة البشر ، ولا يخلطونها بالذات الإلٰهية ، وبعكس ما فعله النصارى مع رسولهم ، وتظهر براعتهم في ذلك بخاصة في رثائهم على أثـر وفاته ـ ﷺ ـ ، رغم شدة وطأة الحادث عليهم ، ومنتهى حبهم له .

وكان الشعراء في الجاهلية قد تعودوا ألا يفصلوا بين الممدوح وقبيلته ، فكانوا يخلطون بين مدحيهما ، وكان ذلك أسلوباً جرى عليه الشعر في الجاهلية ، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ لم تكن شخصيتُه ذائبةً في قبيلة قريش ، وأسرته الهاشمية بسبب وجود فارق الإسلام بينهما ، وبذلك كان أمرُ مدحِه وحده وتجريده عن قبيلته أمراً صعباً ، ولذلك سأل الرسول ﷺ شاعرَهُ حسانَ بن ثابت الأنصاري: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: أَسُلُّكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين ، وقد فعل ذلك ، وأجاد ، فلم يمدحه مدحاً يصل نفعه إلى أعدائه من أبناء قبيلته ، ولم يهج قريشاً هجاءً تصل شرارتُه إلى شخصيةِ الرسول ـ ﷺ ـ ، مع انتسابه إليها .

وبهذا الاحتياط العجيب الذي قام به شعراء الإسلام من عدم خروجهم من جادة التوحيد الخالص ، وعدم خلطهم بين الفرد وقبيلته ، وعدم اختيارهم لِكاذب القول ، أثبتوا قدرتهم وبراعتهم الفنية لأنهم جاؤوا رغم ذلك بروائع من الشعر وجيده ، وبذلك ضربوا مثالاً للشعر الملتزم بالإسلام .

فكان من الضروري أن ينال هذا الموضوع عناية الباحثين ، فطرقه أخونا الأستاذ الأعظمي وأفاض فيه ، وأتى ببحث قيِّم في صورة رسالة يعدها لنيل درجة الدكتوراه من قسم التكميل من جامعة ندوة العلماء .

ويسرني كمشرف متواضع على بحثه ، أن أصادق على هذا البحث ، وأحيله إلى الإدارة لإجراء اللازم ، ويظهر من نية صاحب البحث أنه سوف يقدم البحث بعد نيله النجاح إلى المطبعة كذلك ليعم به النفع ، ويطلع عليه عدد أكبر من أصحاب الاختصاصات الأدبية .

أدعو الله تعالى لعمله بالقبول ، وأن يزيد من نفعه .

المخلص

محمد الرابع الحسني الندوي

١٢/ من ربيع الأول/ ١٤١٦هـ

١٠/ ٨/ ١٩٩٥م

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين والمتقين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فهذا جهد أدبي متواضع وفقني الله سبحانه إلى القيام به حول شعراء الرسول ـ ﷺ ـ من المخضرمين الذين جمعوا بين حياتَيْ الجاهلية والإسلام، وأحرزوا مكانةً أدبيةً بشعرهم المخضرم، فزادوا إلى ثروة هذا النوع من الشعر، زيادة قيمة لا يكتمل الشعر العربي بدونها، وقد سجلوا مواقف جريئة في خدمة الإسلام والدفاع عن النبي ـ ﷺ ـ وعن الدعوة الإسلامية بشعرهم القوي، الغني بالمادة الكلامية والمفاهيم الهادفة العالية، والزاخر بالجوانب الفنية، واستخدموا كلامهم الشعري كسلاح كبير في المعركة الدائرة بين التقاليد الجاهلية والتعاليم الإسلامية، وقد كان صمودهم على هذه الجبهة الكلامية ـ التي كانت تعتبر أهم من جبهات القتال في بعض الأحيان ـ عاملاً قوياً لدحض الباطل، خصوصاً وقد كان شعراء الجاهلية ممن يعارضون النبي ﷺ ودعوته إلى الإسلام، يصبّون جلّ طاقتهم الشعرية في الهجوم على الإسلام ونبي الإسلام بشتى أساليب الشعر، وبالتغني بمفاخر الجاهلية، وأمجادها، ورفض الدين الجديد الذي جاء به النبيُّ ﷺ.

كان الشاعر كعب بن مالك الأنصاري قد وضع نفسه ومواهبه الشعرية في الدفاع عن شخصية النبي ﷺ وعن حوزة الدين، حينما كان من كبار شعراء الجاهلية قبل الإسلام، يستخدم مواهبه الكلامية في الأغراض التافهة، فلما اهتدى إلى الإسلام أسلم شعره معه، ووقف من خدمة الدعوة الإسلامية والثناء على ما حدث من التحول الكبير في الحياة الإنسانية بنعمة الإسلام، وتربية النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ موقفاً عظيماً، يشهد به شعره الإسلامي.

وكذلك كلٌّ من حسان بن ثابت الأنصاري ، وعبد الله بن رواحة ، جنّدا طاقاتهما الكلامية على جبهة الإسلام ومدح النبي ﷺ والرد على شعراء المشركين ، وإثارة عواطف المسلمين في الغزوات والمناسبات الجهادية ، ورزقهما الله سبحانه وتعالى الاقتناع الكامل بما جاء به النبي ﷺ وأكرمهما بالتوفيق لخدمة الدعوة ، ومدح النبي ﷺ ودعم مواقفه الدعوية الحكيمة ، فكان هؤلاء الثلاثة بذلك أحق بأن يُدْعَوا: شعراء الرسول ﷺ ، ويضاف إلى هؤلاء الثلاثة كعب بن زهير الذي انضم إلى هذه الجماعة المؤمنة في الأخير ، وبدأ حياته الإيمانية بمدح النبي ﷺ بـ «لاميته» المعروفة التي تعد مثالاً فنياً رائعاً بين قصائد المديح .

أما قصة هذا الكتاب المتواضع فيرجع تاريخها إلى عام ١٩٧٨م (١٣٩٨هـ) حينما قرر سماحة أستاذنا ومربينا الجليل العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي لي ولأخي الكبير الأستاذ السيد واضح رشيد الحسني الندوي (رئيس تحرير صحيفة «الرائد» الصادرة من جامعة ندوة العلماء) رحلة علمية إلى بعض الدول العربية وبالأخص جمهورية مصر العربية حيث كنا نود أن نسجل للدكتوراه في جامعة الأزهر ، ولكن الظروف لم تسمح لنا بذلك وقضينا هناك وقتاً مشغولاً باللقاءات والزيارات العلمية والاتصالات برجالات العلم والأدب ، وكان الغرض منها الاستفادة العلمية والأدبية ، وقد تحقق لنا ما قدر الله تعالى من الاستفادة طيلة المدة التي عشناها في القاهرة وبضيافة جامعة الأزهر .

ثم بدا لي بعد العودة من مصر أن أحقق بمشيئة الله تعالى أمنية إعداد كتاب أدبي يكون بمثابة رسالة للدكتوراه ، عرضت هذه الفكرة على سعادة أستاذنا الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي ، مدير جامعة ندوة العلماء اليوم ، فرحب بها كل الترحيب ، وأشار عليّ أن أقوم بهذا العمل في جامعتنا العريقة نفسها: ندوة العلماء ، وطلبت منه أن يقبل الإشراف على إعداد هذا الكتاب ، وقد كان هو عميد كلية اللغة العربية وآدابها بجامعة ندوة العلماء فقبل ذلك مشكوراً ، وقمت بالإجراءات الإدارية في الموضوع فوافقت عمادة دار العلوم يوم ذاك على تسجيل اسمي كطالب للدكتوراه ، بإشراف سعادة عميد كلية اللغة العربية وآدابها .

ومنذ ذلك اليوم بدأت أعمل لإكمال عملي هذا وكنت أقدر أن أكمله في ظرف

عامين أو ثلاثة ، إلا أن طبيعة الأعمال التي كانت تقع مسؤوليتها عليّ ، من التدريس في كلية اللغة العربية وتحرير مجلة «البعث الإسلامي» وإدارتها ، وغيرها من مسؤوليات أخرى ، لم تترك لي وقتاً فارغاً أستطيع أن أنجز فيه العمل في خلال المدة المطلوبة ، وكانت الأيام تنقضي بسرعة فلم أتمكن من تقديم عملي هذا بصورة هذا الكتاب الذي سميته : «شعراء الرسول ﷺ في ضوء الواقع والقريض» إلا بعد (١٤) عاماً من يوم التسجيل والموافقة عليه .

أرجو أن أكون موفقاً بعض التوفيق في إعطاء الموضوع حقه ، فقد بحثت في حياة كل شاعر من الشعراء الأربعة وشعره المخضرم وإثبات نماذج منه ، وشرح الغموض من الكلمات ، وبيان المناسبات التي قرضوا فيها الشعر ، وقد التجأت إلى تكرار بعض الأبيات والقصائد نظراً إلى حاجة أدبية أو مناسبة دراسية ، كما أنني اعتمدت في الحديث عن هؤلاء الشعراء الكرام على كتب التاريخ والتراجم والأدب والسيرة ، واستفدت بوجه خاص في ذكر نماذج كعب بن زهير الشعرية في الجاهلية والإسلام ، من ديوان كعب بن زهير الذي قامت بإصداره دار الكتب العلمية - بيروت ، بتحقيق وشرح الأستاذ علي فاعور .

وقد بدأت الكتاب بمقدمة وجيزة حول الشعر المخضرم في تاريخ آداب اللغة العربية ، بحثت فيها عن جوانب عدة للموضوع ، عسى أن يكون تمهيداً مناسباً للموضوع .

وأخيراً فليس هذا الجهد المتواضع إلا لفتة من توجيهات سماحة أستاذنا ومربينا الجليل العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، رئيس (ندوة العلماء العام) ، الذي أكرمني الله تعالى بالعيش في ظلال تربيته الوارفة منذ أكثر من ثلاثة وأربعين عاماً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد يلمس الأديب الباحث الناقد خلال اطلاعه على هذا البحث ، قلة اهتمام بدراسة فنية دقيقة ، ولكنه سيلتمس العذر لصاحب البحث الذي لم تتيسر له الظروف لإعطاء هذا الجانب حقه من التدقيق الكبير ، وكذلك أعتذر إلى القارئ

الكريم عما إذا كانت القصائد خالية من ضبط الشكل ، لعدم توافر الوسائل لذلك[1] .

وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع ويجعله في ميزان العمل الذي يسبب رضاه ، وأدعوه سبحانه أن يعمَّ نفعه بين أوساط طلابنا الذين يَتَوخُّونَ نماذج الشعر المخضرم من خلال دراساتهم الأدبية ، ولا يخفى عليهم دور أدب الشعر الإسلامي الأول في بناء المجتمع الإسلامي وخدمة الدين ونشر الدعوة الإسلامية العالمية .

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلّم تسليماً كثيراً .

جامعة ندوة العلماء ـ لكنهؤ (الهند)
٢٠/٩/١٤١٥هـ
٢١/٢/١٩٩٥م

سعيد الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي»
ومدير جامعة ندوة العلماء

(١) قمنا بضبط الشكل ضبطاً كاملاً لجميع الأشعار الواردة في الكتاب ؛ لحرصنا الشديد على فهم مراد الشعراء ، وللقيمة البالغة للكتاب . [الناشر] .

بسم الله الرحمن الرحيم

أدب المخضرمين في تاريخ آداب اللغة العربية

هذا النوع من الأدب العربي له أهمية تاريخية وقيمة فنية كبيرة ، فإنه عاش الحياة الجاهلية وصوَّرها تصويراً دقيقاً ، ثم قُدر له أن ينتقل من جاهلية الحياة إلى إسلاميتها ، ويعيشها كذلك ، فيصورها بأشكالها المختلفة وألوانها المتغيرة ، لذلك فإن الشعر العربي الذي نشأ في الجاهلية ومارس ألوان الحياة فيها واستطاع أن يمدها بأفكاره الأدبية واتجاهاته الشعرية في تقوية أواصر الحياة القبلية والاعتزاز بالتقاليد القومية والافتخار بأمجاد الآباء ، والدفاع عن شرف النسب ، والتغني بفضل القبيلة ، نقله إسلامه إلى حياة تختلف عن حياته السابقة كل الاختلاف ، فبينما كان الشاعر العربي في الجاهلية يتغنى بأمجاده القبلية ويدافع بشعره عن حوزة قومه ، ويرفع به ناساً ويخفض به آخرين ، وبينما كان يتخذ شعره ذريعة لتسلية العواطف وإشباع الغرائز وتحريك المشاعر وإيقاظ الشعور القومي والرد على الأعداء ، إذا هو يرعوي عن غيه ويعود إلى رشده ، فيجعل أدبه الشعري وسيلة للتربية الدينية وخدمة الإنسانية ، والدعوة إلى الفضائل والمكارم الخلقية ، والتوجيه إلى الإيمان بالله ورسوله والدار الآخرة ، والتفكير في غاية الحياة ورسالتها في الحياة الفردية والجماعية ، وفي الحب الطاهر الذي يقوم بدوره العظيم في بناء الوحدة وبثِّ روح التعاون والأخوة الصادقة .

ويأتي المخضرمون في الدرجة الثانية من الناحية الزمنية ، وأدب المخضرمين في الطبقة الثانية من طبقات الشعر العربي ، الذي ينقسم على النحو التالي :

١ ـ الشعر الجاهلي .

٢ ـ الشعر المخضرم .

٣ـ الشعر الإسلامي.

٤ـ الشعر المحدث.

الشعر الجاهلي:

أما الشعر الجاهلي فذلك هو الأدب الذي اعتمد عليه الجاهليون قبل الإسلام، وتنافس فيه المتنافسون، ولم يعتنوا بنوع آخر من آداب لغتهم وإنما ركزوا على الشعر وصبوا فيه كل طاقاتهم البيانية والأدبية حتى بلغوا به إلى ذروة البلاغة والتعبير، ولم يتركوا أي منهج من المناهج البيانية إلا وقد اختاروه ولا أسلوباً من الأساليب البلاغية إلا وانتهزوه، فكان شعرهم نموذجاً عالياً من نماذج الأدب وروائع الكلام، ونشأ فيهم الفحول من الشعراء الذين كانوا لا يقيمون أي قيمة لأدب أو شعر أو كلام، وكانوا يعتبرون الدنيا كلها عجماء بإزاء شعرهم البليغ وكلامهم المعجز، ولما بلغ بهم الإعجاب بالشعر الجاهلي إلى آخر المدى ولم يعد أي أمل لاعترافهم بأدب قوم أو شعر أمة، نظراً إلى ما كانوا يتمتعون به من مؤهلات أدبية عظيمة ومزايا شعرية ضخمة، جاء الإسلام بأدب القرآن وهم بين نشوة أدبية وسُكْر بياني، لا يصمد أمامهم أدب أو أسلوب من الكلام، وقد أعرضوا عنه بادئ ذي بدء، ولم يروه صالحاً للتفكير فيه والالتفات إليه، ولكن القرآن كان لا بد من أن يغلب عليهم بأدبه وأسلوبه المعجز، وقد انتهج القرآن في عدة مواضع منهج الأسلوب الشعري الذي كانوا قد ألفوه، ذلك لكي لا يتهموه بالحيد عن الخط الذي كانوا يسلكونه، وبأنه ليس مما عرفوه، فكان ذلك ضمن معجزات القرآن الكريم التي احتاروا أمامها، ولكنهم لم يظهروا عجزهم وضآلة شأنهم فيه حيال التحديات القرآنية، رغم أنهم كانوا مأخوذين بسحر الأسلوب القوي الحكيم والإعجاز البياني الذي لمسوه فيه، وظلوا رافضين كل دليل، ومتعنتين بإزاء كل برهان، ولم يطأطئوا رؤوسهم إلا بعد ما خذلهم العون الأدبي، وفضحهم الادّعاء البياني في قارعة الطريق.

ولقد تناول الباحثون الشعر الجاهلي وأصحابه بشيء كثير من الدقة والبحث، في بيان مكانته وقيمته وتفصيل طبقات الفحول من شعرائه، وعرض نماذجه وشرحها، وإن كان هناك بعض النقاد ينكرون الأدب الجاهلي بتاتاً، ويؤكدون أنه

منحول مدسوس، ولكن ذلك ليس إلا تكذيباً لأعظم واقع تاريخي، وادّعاءً كاذباً اختلقه الأدعياء استكباراً منهم وتظاهراً بحقدهم على الأدب القرآني المعجز.

الشعر المخضرم:

وأمَّا الشعرُ المخضرمُ، فهو الذي أدرك العهدين الجاهلي والإسلامي وعاشهما على السواء، وقد وُجِدَ عدد وجيه من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وقرضوا في كل عهد من الشعر ما يتحلى به تاريخ الأدب العربي، وقد سجل مؤرخو الأدب العربي قيمته الأدبية وبحثوا فيه وتحدثوا عنه.

وقد قال بعض مؤرخي الأدب العربي عن الشعر المخضرم: إنه جاهلي في أصله، حيث إنه يتحد معه في الإيجاز وقوة التعبير وطريقة النظم، وتعدد الموضوعات وبراعة الوصف، ولكنه يمتاز بالروح الدينية التي أضفاها عليه الإسلام.

«فلا ترى فيه يأساً من الحياة وتبرماً بمصيرها، شأن الشعر الجاهلي، بل تلمس فيه ارتياحاً شديداً إلى نعيم الآخرة، إلى الجنة التي وعد بها القرآن المتقين، واكتسب الشعر المخضرم خصوصاً، واللغة عموماً، تعابير جديدة من القرآن، وألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل، كالجنة والنار والكفر والإيمان، والصلاة والزكاة والركوع والوضوء... إلخ، وهذه الألفاظ كانت معروفة في الجاهلية ولكنها في أكثرها لم تكن تدل على معانيها المستحدثة في الإسلام، واكتسب الشعر أيضاً نوعاً جديداً وهو الهجاء السياسي، هجاءٌ مرٌّ مقذع أليم، كان بين شعراء النبي - ﷺ - وشعراء قريش والأحزاب[1]».

المخضرم لغة ومصطلحاً:

وقبل أن نتحدث عن أدب المخضرمين ونخوض في شرح حياتهم وآثارهم الشعرية نريد أن نُلْمِحَ إلى معنى «المُخَضْرَمِ» في ضوء اللغة والمصطلح، ففي «القاموس المحيط» لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، «المُخَضْرَمُ بفتح الراء، من لم يختتن، والماضي نصفُ عمره في الجاهلية ونصفُه في الإسلام، أو

(١) أدباء العرب لبطرس البستاني: ١/ ٢٦٥.

من أدركهما ، أو شاعر أدركهما ، كلَبيدٍ ، وأَسْوَدُ أبوهُ أَبْيَضُ ، والنَّاقِصُ الحَسَبِ ، والدَّعِيُّ ، ومَنْ لا يُعْرَفُ أَبُوهُ ، أو وَلَدتهُ السَّراري ، ولَحْمٌ لا يُدْرَى أَمِنْ ذكرٍ أو أنثى ، والطَّعام التَّافِهُ ، والماءُ بينَ الثَّقِيل والخَفيفِ»[1].

وجاء في «خزانة الأدب» لعبد القادر بن عمر البغدادي:

«المُخَضْرَم بالخاء والضاد المعجمتين على صيغة اسم المفعول ، ونقل السيوطي في «شرح تقريب النووي» عن بعض أهل اللغة كسر الراء أيضاً ، قال صاحب «القاموس»: هو الماضي نصفُ عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام ، وقيل: من أدركهما ، وهذان القولان يَعُمَّان الشاعرَ وغيرَه ، وقيل: الشاعر الذي أدركهما ، وهذا هو المشهور وعليه اقتصر صاحب «الصحاح» ، ثم توسع حتى أطلق على من أدرك دولتين كرؤبة بن العجاج وحماد عجرد فإنهما أدركا دولة بني أمية ودولة بني العباس ، وقال السيوطي في «شرح التقريب»: المخضرم في اصطلاح أهل اللغة: هو الذي عاش نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام سواء أدرك الصحبة أم لا ، فبين الاصطلاحين عمومٌ وخصوص من وجه ، فحكيم بن حزام مخضرم باصطلاح اللغة لا الحديث ، وبِشْرُ بن عَمْرٍو مخضرم باصطلاح الحديث لا اللغة. انتهى ، وفي تعريفه اصطلاح اللغة نظر وتأمل.

ثم قال: والمراد بإدراك الجاهلية ما قبل البعثة كما قال النووي في «شرح مسلم» ، قال العراقي: وفيه نظر ، والظاهر: أدرك قومه أو غيرهم على الكفر قبل فتح مكة ، فإن العرب بعده بادروا إلى الإسلام ، وزال أمر الجاهلية ، وخطب ـ ﷺ ـ في الفتح بإبطال أمرها ، وقد ذكر مسلم في المخضرمين بِشْر بن عمرو وإنما ولد بعد الهجرة ، قال ابن رشيق في «العمدة» ، قال أبو الحسن الأخفش: ماء خِضْرِم كَزِبْرِج إذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سُمِّيَ الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام مُخَضْرَماً كأنه استوفى الأمرين ، قال: ويقال: أذن مخضرمة إذا كانت مقطوعة ، فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام ، وحكى ابن قتيبة عن عبد الرحمن عن عمه[2] ، قال: أسلم قوم في الجاهلية على إبل قطعوا آذانها فسمي كل من أدرك

(١) القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، مادة: مخضرم.
(٢) هو الأصمعي.

الجاهلية والإسلام: مخضرماً ، وأنه لا يكون مخضرماً حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ وهذا عندي خطأ ، لأن النابغة الجعدي ولبيداً قد وقع عليهما هذا الاسم ، وحكى علي بن الحسن كراع: يقال شاعر محضرم بحاء غير معجمة مأخوذة من الحضرمة وهي الخلط لأنه خلط الجاهلية والإسلام ، وحكى ابن خلكان مع الحاء المهملة كسر الراء أيضاً»[1].

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي حيث يذكر طبقات الشعراء:

«وأصل المخضرم عندهم من أدرك الجاهلية والإسلام ، ثم أطلقوه على هذه الطبقة ، فقالوا: شاعر مخضرم ، قال ابن بري: أكثر أهل اللغة على أنه مُخَضْرِمٌ ـ بكسر الراء ـ لأن أهل الجاهلية لما دخلوا في الإسلام خضرموا آذان إبلهم: قطَعوا أطرافها. (وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم فلما جاء الإسلام أُمِرُوا أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم فيه أهل الجاهلية) لتكون علامة لإسلامهم إن أُغِيرَ عليها أو حوربوا ، ويقال لمن أدرك الجاهلية والإسلام: مخضرِم ـ بكسر الراء ـ وأما من قال: ومخضرَم ـ بفتح الراء ـ فتأويله عنده أنه قَطَعٌ عَن الكفر إلى الإسلام»[2].

وجاء في «لسان العرب» لابن منظور:

«وأصل الخضرمة أن يجعل الشيء بينَ بين ، فإذا قطع بعض الأذن فهي بين الوافرة والناقصة ، وقيل: هي المنتوجة بين النجائب والعكاظيات ، ومنه قيل لكل من أدرك الجاهلية والإسلام: مخضرَمٌ ـ بفتح الراء ـ لأنه أدرك الخضرمتين ، قال إبراهيم الحربي: خَضْرَمَ أهلُ الجاهليةِ نَعَمَهُم ، أي: قطعوا من آذانها في غير الموضع الذي خضرم فيه أهل الجاهلية ، فكانت خَضْرمةُ أهل الإسلام بائنةً من خضرمة أهل الجاهلية ، وقد جاء في الحديث أن قوماً من بني تميم بُيِّتُوا ليلاً وسيق نَعَمُهُم فادَّعوا أنهم خضرموا خضرمةَ الإسلام ، وأنهم مسلمون فردوا أموالهم عليهم ، فقيل ـ لهذا المعنى ـ لكل من أدرك الجاهلية والإسلام: مُخَضْرَمٌ ، لأنه أدرك الخَضْرَمَتَيْن ، خضرمةَ الجاهلية وخضرمة الإسلام ، ورجل مُخَضْرَمٌ: لم

(١) خزانة الأدب ، للبغدادي: ١/ ٢٤٥ـ٢٤٦.
(٢) تاج العروس: ٧/ ٢٨ ، نقلاً عن تاريخ آداب العرب ، للرافعي: ٣/ ٦٢.

يختتن ، ورجل مخضرم: إذا كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام ، وشاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، مثل لبيد وغيره ممن أدركهما ، قال الشاعر:

إلىٰ ابْنِ حَصَانٍ لَمْ تُخَضْرَمْ جُدُودُهُ كَثيرِ الثَّنا والخِيمِ والفَرْعِ والأَصْلِ

وقال ابن خالويه: خَضْرَمَ: خَلَطَ ، ومنه المخضرِم ـ بكسر الراء ـ الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، ورجل مخضرَم ـ بفتح الراء ـ أبوه أبيضُ وهو أسود ، ورجل مخضرم ناقص الحسب ، وقيل: هو الذي ليس بكريم النسب ، ورجلٌ مخضرمُ النسب ، أي: دَعِيٌّ ، وقد يُترَكُ ذكرُ النسب فيقال: المُخَضْرَمُ: الدَّعِيُّ ، وقيل: المخضرم في نسبه: المختلط من أطرافه ، وقيل: هو الذي لا يُعْرَفُ أبواه ، وقيل: هو الذي وَلَدَتْهُ السراري ، وقوله:

فقلتُ أَذَاكَ السَّهمُ أَهْوَنُ وَقْعَةً علىٰ الخَضْرِ أَمْ كَفُّ الهَجِيْنِ المُخَضْرَمِ

إنَّما هو أحد هذه الأشياء التي ذكرناها في الحَسَبِ والنَّسبِ»[1].

الشعر في الإسلام:

لم يفقدِ الشعرُ رواءَهُ وقوَّتَه في الإسلام بل إنه دخل بعد ذلك مجالاً شعرياً أوسع مما كان عليه في الجاهلية ، ذاك أن قريشاً لما حاربت النبيَّ ـ ﷺ ـ ودعوتَه بالسيف وباللسان كِليهما ، ونهض فرسانُها بقتال المسلمين وقام شعراؤُها بمحاربتهم وتثبيط هممهم بالهجاء ، أقبلَ شعراءُ المسلمين مع شجعانهم في الحرب ، على الدفاع عن حوزة الدين وعن شخصية النبي ـ ﷺ ـ ، وقابلوا الهجاءَ بالهجاءِ والكلامَ بالكلامِ ، بعد ما أذن لهم النبيُّ ـ ﷺ ـ بذلك ، فاكتسب الشعر نهضةً أدبية ، وغزرت مادته واتسع نطاقه ، وتشعبت طرقه.

كان ذلك عطاء الثورة التي جاء بها الإسلام ، للشعر العربي ، فاكتسب بها الشعر تأثيراً أبلغ في النفس ، ورقت معانيه الشعرية بعد ما استخدمه المسلمون بإيعاز من نبيهم ـ ﷺ ـ في صالح الدين ، ومن هناك نشأ نوع جديد من الشعر ، لم يكن جاهلياً في معناه وفي الهدف الذي توخاه ، ولكنه كان يمتاز عن الشعر الجاهلي

(١) لسان العرب ، لابن منظور: ج/ ١٥ ، مادة: خضرم.

في رصانة السبك ، وجودة الأسلوب ، وبلاغة التعبير ، وعذوبة النَّغَم ، كل ذلك جعل الشعر العربي يتطور ويتحسّن ، ويخرج من ضيق الفضاء إلى الجو الواسع ، ومن نطاق القبائل الضيق إلى ساحة الحياة الواسعة بطريق أشمل وأجمل.

وتلك هي المرحلة الجديدة للشعر ، التي عرفها الشاعر المسلم وانتقل إليها بخطوات حثيثة وقد كره المرحلة الجاهلية للشعر وسئم منها ، وأطلق عنان الخيال في هذا المجال الجديد ، وقرض فيه من الشعر ما تيسر له ، لخدمة أغراض دينية وخُلُقية ، وتمكن من الجمع بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي ، وهو الذي نعبر عنه بالشعر المخضرم.

ثلاثة من الشعراء المخضرمين:

ولقد أولى مؤرخو الأدب والمغازي عنايةً فائقة بثلاثة من الشعراء المخضرمين ، ممن كانوا في الدرجة الأولى ، واختارهم النبي ـ ﷺ ـ للدفاع عن الإسلام بشعرهم ، وهم كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، اختارهم للرد على مهاجاة شعراء قريش الخمسة الذين كانوا يعارضون النبي ـ ﷺ ـ ويقاومون شعراءه ، وهو عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب[1] وهُبَيْرة بن أبي وَهْبٍ.

إن هؤلاء الفئة الخمسة من قريش إنما كانوا من أشد مناوئي الرسول ـ ﷺ ـ ، وما كانوا يتركون فرصة إلا وينتهزونها لتوجيه ضربات كلامية قاسية نحو المسلمين.

أما عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس بن عَدِيّ بن سعد بن سهم ، فكان شديد الهجاء للمسلمين والأنصار ، وقد قال في يوم أُحُدٍ قصيدة يقول فيها:

كُلُّ بُؤْسٍ ونعيم زائلٌ وبَناتُ الدَّهْرِ يلعبنَ بِكُلْ

وقد هجا المسلمين في يوم أحد فقال:

يا غُرابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ إِنَّما تَنْطِقُ شَيْئاً قد فُعِلْ

(١) مستفاد من «أدباء العرب» لبطرس البستاني.

فَرَدّ عليه حسَّان بنُ ثابت الأنصاري - رضي الله عنه - بقصيدة مماثلة بحراً وقافيةً ، وهذا مطلعها:

ذَهَبَتْ يابنِ الزِّبَعْرَى وَقْعَةٌ كانَ منَّا الفَضْلُ فِيْها لَوْ عَدَلْ

كذلك له قصائدُ عدةٌ قالها في يوم أحد ، ورد عليها حسان بن ثابت الأنصاري وغيره من شعراء الإسلام ، ثم أسلم ابن الزبعرى ومدح النبي - ﷺ - بأبيات من الشعر ، واعتذر إليه فأحسن ، فقال فيها:

يا رسولَ المَلِيكِ إنَّ لِسَانِيْ رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ

ومدحه في قصيدة مطلعها:

مَنَعَ الرُّقَادَ بَلابِلٌ وهُمومُ واللَّيلُ مُعْتَلِجُ الرِّواقِ بَهِيمُ[1]

وكذلك لا يجهل أحد هجاء أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لرسول الله - ﷺ - وردَّ حسان - رضي الله عنه - على هجائه ، كما يقول:

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فأجَبْتُ عَنْهُ وعِنْدَ اللهِ في ذَاكَ الجَزَاءُ

أَتَهْجُوْهُ ولستَ لهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِداءُ

ويقول:

أَلا أبلِغْ أبا سُفْيَانَ عَنِّي فأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخْبٌ هَواءُ

وجاء في الخبر: أخبرنا محمد بن عثمان الجَعفريّ ، عن عبد الرحمن بن محمد ، عن الهيثم بن عدي ، عن مجالد ، عن الشعبي ، قال: أتى حسان بن ثابت إلى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله ، إن أبا سفيان بن الحارث هجاك ، وأسعدَهُ على ذلك نوفلُ بن الحارث وكفار قريش ، أفتأذنُ لي أهجوهم يا رسول الله؟ فقال النبي - ﷺ -: فكيف تصنع بي؟ فقال أسلُّك منهم كما تسلُّ الشعرة من العجين ، قال له: اهْجُهم وروح القدس معك ، واستعن بأبي بكر ، فإنه علاَّمة قريشٍ بأنساب العرب ، فقال حسان يهجو نوفل بن الحارث:

وإنَّ وُلاةَ المَجْدِ من آلِ هاشمٍ بَنُو بِنتِ مَخْزُومٍ ووالِدُكَ العَبْدُ

(١) انظر: السيرة لابن هشام ٢/١٣٦-١٣٧ ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١/٢٣٧-٢٤٢.

ومَا وَلَدتْ أبناءُ زُهْرَةَ منهمُ ضَمِيماً ولم يلحقْ عجائِزَكَ المَجْدُ

فَأَنْتَ لَئِيمٌ نِيْطَ في آلِ هَاشِمٍ كما نِيْطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

قال: فلما أسلم أبو سفيان بن الحارث قال له النبي - ﷺ -: أنتَ مني وأنا منك ، ولا سبيل إلى حسان[1].

وكان أبو سفيان في يومِ أحد يرد على حسان بن ثابت ، وكان أصحاب رسول الله - ﷺ - أصابوا في عقِبِ بدْرٍ عيراً لقريش فيها فِضَّةٌ فكانوا تنكبوا بَعْدُ طريق الشَّام وأخذوا طريق العراق ، فقال حسَّان:

دَعُوا فَلَجَاتِ الشَّامِ قَدْ حَالَ دُونَها جِلادٌ كأَفْواهِ المخَاضِ الأَوارِكِ

بِأَيْدِي رِجالٍ هاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ وأَنْصَارِهِ حَقّاً وأَيْدِي المَلائِكِ

إذا سَلَكَتْ حَوْرَانَ من أرضِ عَالِجٍ فقُولا لها: إنَّ الطَّريقَ هُنَالِكِ[2]

فلما كان يوم أحد قال أبو سفيان بن الحارثِ يرد عليه:

شَقِيتُمْ بها ، وغَيْرُكُمْ أَهْلُ ذِكْرِهَا فَوَارِسُ مِنْ أَبْنَاءِ فِهْرِ بنِ مالِكِ

حَسِبْتُمْ جِلادَ البِيضِ حَوْلَ بُيُوتِكُمْ كَأَخْذِكُمُ في العِيرِ أَرْطَالَ آنُكِ[3]

(١) جمهرة أشعار العرب ، لابن أبي الخطاب القرشي ، ص ٣٠-٣١ ، طبع دار صادر بيروت.

(٢) فَلَجة: بفتحتين المزرعة أو ما يشق في الأرض للديار ، وهي الأنهار الصغار تفجر في أرض الزرع كالقنوات.

الجِلادُ: التضارب بالسيوف في القتال ، ولكن الشاعر يعني هنا ضربات السيوف وطعنات الرماح.

المخاض: النوق الحوامل ، ليس لها واحد من لفظها.

الأوارك: جمع آركة ، الناقة التي ترعى شجر الأراك.

حوران: اسم جبل عن ميامن حرة ليلى القصوى ، وهو أدنى أعلام الشام.

عالج: رمل عالج فيما بين اليمامة والبصرة.

(٣) شقيتم بها: يعني بالحرب ، يشير إلى هذه الهزيمة التي ابتلى بها الله المسلمين في يوم أحد.

جلاد البيض: فيها إشارة إلى الفضة التي أصابوها في عير قريش.

الآنُكُ: الرصاص الأبيض ، على وزن أفعل بضم العين ، ما جاء على هذا الوزن مفرد غير هذا اللفظ.

فقال أبو سفيان بن حرب لأبي سفيان بن الحارث: يا ابن أخي ، لمَ جَعلتَها آنك ، إنْ كانت لَفِضَّةً بيضاءَ جيدة[1] .

أما عمرو بن العاصي القريشي فكان من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية ، وكان شاعراً حسن الشعر ، ومن شعره في أبيات له يخاطب عمارة بن الوليد بن المغيرة عند النجاشي:

إذا المَرْءُ لم يَتْرُكْ طَعاماً يُحِبُّهُ ... وَلَم يَنْهَ قَلْباً غاوياً حيثُ يَمَّما
قَضَى وَطَراً منهُ وغادَرَ سُبَّةً ... إذا ذُكِرَتْ أمثالُها تَمْلأُ الفَمَا[2]

وله قصائد هجائيةٌ في يوم أحد ، يقول وهو يهجو المسلمين والأنصار يوم أحد:

خَرَجْنا مِنَ الفَيْفا عليهِمْ كأَنَّنا ... مَعَ الصُّبْحِ من رَضْوَى الحَبيكُ المَنْطِقُ
تَمَنَّتْ بَنُو النَّجّارِ جَهْلاً لِقاءَنا ... لَدَى جَنْبِ سَلْعٍ والأَمانِيُّ تَصْدُقُ
فما رَاعَهُمْ بالشَّرِّ إلا فَجَاءَةً ... كَرَادِيسُ خَيْلٍ في الأزِقَّةِ تَمْرُقُ

فرد عليه كعب بن مالك بقوله:

ألا أَبْلِغا فِهْراً على نَأْيِ دَارِها ... وَعِندَهُمُ مِنْ عِلْمِنا اليومَ مَصْدَقُ
بِأَنَّا غَدَاةَ السَّفْحِ مِن بَطْنِ يَثْرِبٍ ... صَبَرْنا ورَايَاتُ المَنِيَّةِ تَخْفِقُ
لَنا حَوْمَةٌ لا تُسْتَطَاعُ يَقُودُها ... نَبِيٌّ أَتَى بالحَقِّ عَفٌّ مُصَدَّقُ

وله قصائد أخرى في هجو المسلمين رد عليها كعب بن مالك ، وقد كان شديد العداء للإسلام والمسلمين قبل أن يسلم ، فلما أسلم قبل الفتح انعكست القضية وأصبح من أحب وأقرب أصحاب النبي -ﷺ- إليه .

وكان ضرار بن الخطاب بن مرداس من فرسان قريش ، ولم يكن في قريش أشعر منه ، وله قصائد تَناولَ المسلمين فيها بالهجاءِ اللاَّذعِ يوم أحد ، وله في رثاء أبي جهل شعر كذلك ، رواه ابن هشام في «السيرة» .

«ولقي ضرارُ بنُ الخطَّاب يومَ أحدٍ عمرَ بن الخطاب في الجولة التي جَالَها المُسْلِمُون ، وكان قد آلى ألا يقتل يومئذٍ قريشياً فضربه بعارضة سيفه وقال: انْجُ

(١) طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام الجمحي ، ص ٢٠٨ .
(٢) كتاب الاستيعاب للذهبي: ٢/ ٤٣٦ .

يا ابن الخطاب ، فضربَ الدهرُ ما ضَرَبَ ، وولي عمر بن الخطاب ، فسَمِعَتْ أمُّ غيلان بِذكرِ ابنِ الخَطَّابِ فَظَنَّتْهُ ضراراً ، فقدِمَتْ عليه فقال لها قوم: قدمْتِ وهو غائِبٌ ، فأَتَتْ عُمرَ فأخبرته بالذي جاءَتْ له فأَثابها»[1] .

ومما قاله في يوم أُحُدٍ وهو يهجو المسلمين:

إنِّي وَجَدِّكِ لَوْلا مَقْدِمَي فَرَسِي ... إذْ جالَتِ الخَيْلُ بَيْنَ الجَزعِ والقَاعِ
ما زال مِنكُمْ بِجَنْبِ الجَزعِ من أُحُدٍ ... أَصْواتُ هامٍ تُزاقي أمرها شَاعِي
وفَارِسٌ قَدْ أصابَ السيفُ مَفْرِقَهُ ... أَفْلاقُ هامَتِهِ كَفَرْوَةِ الرَّاعِي[2]

أَمَّا هُبَيْرَةُ بنُ أبي وَهْبِ بن عامر بن عائذِ بن عمرانَ بن مخزوم فكان من شُعَراءِ قُرَيْشٍ كذلك ، وكان من أشدِّ النَّاس عَداوةً لله ولرسوله ﷺ فعاقبهُ اللهُ بالطردِ والخمول ، وذلك هو الذي يقول في يوم أحد:

قُدْنَا كِنَانَةَ من أكنافِ ذي يَمَنٍ ... عُرْضَ البِلادِ على ما كَانَ يُزْجِيها
قَالَتْ كنانةُ أَنَّى تَذْهَبُونَ بِنَا ... قُلْنَا النَّخيلَ فَأَمُّوهَا وما فِيها[3]

ومطلعها:

ما بالُ هَمِّ عَمِيدٍ باتَ يطرقُنِي ... بالوُدِّ مِنْ هِنْدَ إذ تَعْدُو عَوَادِيهَا

فأجابه حسان بن ثابت فقال:

سُقْتُمْ كِنانَةَ جَهْلاً مِنْ سَفَاهَتِكُمْ ... إلى الرَّسُولِ فَجُندُ اللهِ مُخْزِيها
أَوْرَدْتُمُوها حِيَاضَ المَوْتِ ضَاحِيَةً ... فَالنَّارُ مَوعِدُهَا والقَتْلُ لاَقِيها

كما وقد رد عليه كعب بن مالك ، بقصيدته الطويلة التي بدأها بقوله:

أَلا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا ودُونَهُمْ ... مِنَ الأَرضِ خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَنَعْنِعُ
صَحَارٍ وأَعْلامٌ كَأَنَّ قَتَامَهَا ... مِنَ البُعْدِ نَقْعٌ هامِدٌ مُتَقَطِّعُ[4]

(١) طبقات فحول الشعراء ، لابن الجمحي ، ص ٢١١ .
(٢) الجزع: منعطف الوادي ، القاع: المنخفض من الأرض ، تزاقي ، تصيح ، شاعي: أراد بها شائع ، ولكنه قلب ، فروة: ويروى مكانها: قروة: وهو إناء من خشب يحمله الراعي.
(٣) النخيل يريد بها مدينة الرسول -ﷺ- ، زعم البعض أنها النخيل بالتصغير ، بئر قرب المدينة (انظر طبقات فحول الشعراء).
(٤) ابن هشام (السيرة النبوية) ج / ٣ ، ص / ١٣٦ - ١٣٩ ، (متنعنع) معناه: مضطرب ، والمراد من (أعلام) الجبال المرتفعة.

موقف الإسلام من الشعر:

وبعد أن مررنا بهذه اللمحات من أحوال هؤلاء النَّفَر من شعراء قريش مِمَّن كانوا سبباً في الواقع لوجود الشعر الإسلامي في عهد النبي - ﷺ - ، وخاصة شعر الدفاع عن الإسلام وعن نبي الإسلام - ﷺ - الذي تولاه الشعراء الثلاثة بوجه عام ممن سبق ذكرهم: كعب بن مالك ، حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنهم - وقبل الحديث عن الشعراء المخضرمين ، أحب أن أوضح موقف النبي - ﷺ - من الشعر ، وصلتَهُ به وعلمه له ، واستحسانه إياه ، فقد يظن بعض من أغفل هذا الجانب الأدبي المهمَّ أن الإسلام لا يشجع الشعر ، ولا يراه ملائماً للاتجاه الديني.

ولولا أن النبي - ﷺ - أولى الشعر أهمية قصوى نظراً إلى ما كان له من جَولةٍ وصَولةٍ في حياة العرب ، وإلى ما كان له من دور مهم في حياتهم القبلية والاجتماعية لما وجد في الإسلام شعر ولا شاعر ، ولتوقف التاريخ عن تسجيل هذا الركن الأدبي المهم ، والاحتفاظ بهذا التراث الشعري الضخم ، وواجه تاريخ الأدب العربي نقصاً كبيراً يقطعه عن ماضيه الأدبي قطعاً باتاً ، وسقطت حلقة قيمة من الاستمرار التاريخي اللغوي والتسلسل الأدبي الشعري.

لذلك كان اعتناء النبي - ﷺ - بالشعر مقضياً له وراء حكمة دينية عظيمة ، فباعتنائه بالجانب الشعري في الإسلام تأكدت أهمية الشعر الجاهلي الذي كان منتهى العرب في الفصاحة والبلاغة ، وكان قمة عظمتهم الأدبية ومفاخرهم البيانية ، وفي خلال هذا المرح الأدبي والعلم البلاغي الذي كانوا يعيشونه ويتظاهرون به نزل القرآن الكريم الذي تحداهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، والنتيجة معلومة لا خفاء فيها.

فكيف يمكن رفض قيمة الشعر في الإسلام ، وإنكار مكانة الشعر الجاهلي الأدبية والبيانية بصرف النظر عن قيمته المعنوية التي لا تهم المؤرخ المسلم حينما يؤرِّخُ آدابَ اللغة العربية ويسجِّلُ ملاحظاتِه عن النواحي البلاغية والأدبية الخالصة للكلام العربي.

ثم إنه كان لابد مع ذلك من صرف عنايات الشعراء من سفسفة المعاني وركاكة

المفاهيم إلى نقاء المفاهيم وجودة المعاني ، وتجريد الشعر عما تعوَّد عليه الجاهليون من وصف مذموم وهَجْوٍ قبيح ، وتهجينٍ وتقبيحٍ وتعييرٍ ، وتركيز على سلبيات ، ومَدحٍ شائنٍ ، وفخرٍ واعتزازٍ واستعلاءٍ ومكابرةٍ على الحقائق ، ورفضٍ للقيم الخلقية ، وقول ما لا يفعلون ، وقد أشار إليه القرآن الكريم فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

كان لابُدّ من التأكيد على أن الشعر ليس أداةً للتسلية واللهو والفخر والمجون ، وليس مجالاً للتيه والغواية ، وإنما هو أدبٌ بريءٌ لم يخلق لمثل هذه الأغراض السافلة والغايات الخسيسة ، وقد نال الشعر العربي طريقه الواضح المستقيم نحو الأغراض النبيلة بعد ما تناوله الإسلام بالنقد ووضعه على مَحَكِّ الامتحان.

أما إذا أُهمل خَطْبُ الشعر العظيم ، وخُتم عليه بالتحريم أو بالكراهية والمقت على أقل تقدير فليس معنى ذلك إلا رفض الأساس الذي بَنَى عليه القرآنُ الكريمُ تَحدِّيه ، ودعا من أجله العرب الجاهليين إلى النظر في الإعجاز الذي ينطوي عليه ، ولذلك فقد كان الرسول الكريم - ﷺ - شديد الاعتناء بالشعر ، يأمر أصحابه الشعراء بالرد على شعر المشركين من قريش ، ويطالبهم بالإنشاد ، مع اطلاعه الواسع على ما فيه من حكم وسحر ، وما فيه من تأثيرٍ كتأثير السلاح وسيطرةٍ على النفس ونفوذٍ إلى الأعماق ، فقد روى الخطيب وابن عساكر عن حسان - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال له: «اُهْجُ المشركين وجبريلُ مَعَك ، إذا حارب أصحابي بالسلاح فحَارِبْ أنتَ باللسان» وجاء فيما رواه ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن محمد بن مسلمة بلفظ: «يا حسان ، أنشدني من شعر الجاهلية ، فإن الله قد وضع عنك آثامها في شعرِهَا وروايتِه» وقال لحسان - رضي الله عنه -: «قلْ وَرُوح القُدُسِ معك»[1].

وإذا كان هناك نفر من المستشرقين يزعمون أن الإسلام انتشر بين العرب انتشاراً جغرافياً سياسياً دون أن يجد الإسلام الثقافي طريقاً إلى قلوب المسلمين ، إلا في العصر العباسي فذاك زعم باطل لا يستند إلى حجة ، لأن الأدب العربي قد انصبغ بالصبغة الإسلامية منذ عناية الرسول - ﷺ - واهتمامه الكبير بالشعر.

(١) ولمزيد الاطلاع راجع مقدمة عبد القاهر الجرجاني على كتاب دلائل الإعجاز.

وفيما يتصل بموضوع اهتمام النبي - ﷺ - بالشعر أمراً وعلماً به ، واستحساناً وارتياحاً له ، فمجاله واسع ، سيتضمن بحثنا في أدب المخضرمين ودراستنا لحياتهم وآثارهم كل هذه الجوانب - بإذن الله تعالى - .

وسنؤسس هذا البحث - إن شاء الله تعالى - على أربعة أبواب رئيسية ، كل باب يشتمل على ذكر شاعر من الشعراء المخضرمين ودراسة شعره ، وتسجيل نماذج من كلامه وبيان الأهمية التي يحملها من النواحي الأدبية والتعبيرية ، مع الإشارة إلى الواقع الذي يقوم عليه ويفسره .

وسنبدأ الكلام - بمشيئة الله تعالى - في الباب الأول عن شاعر الإسلام الأول كعب بن مالك الأنصاري ، ويختص الباب الثاني - إن شاء الله تعالى - بشاعر الرسول الكريم - ﷺ - حسان بن ثابت الأنصاري الذي يليه عصراً وكلاماً ، وسيدور الحديث في الباب الثالث حول الشاعر الجليل عبد الله بن رواحة ، أما الباب الرابع الأخير فسيشمل الحديث عن الشاعر المخضرم كعب بن زهير بن أبي سلمى ، - بإذن الله تعالى - .

* * *

الباب الأول

كعب بن مالك الأنصاري

كعب بن مالك الأنصاري

النثر مع الشعر في الجاهلية:

كانت الطريقة السائدة للكلام المنثور في الجاهلية قاصرةَ الأغراض والأفكار، بعيدةً عن التفلسف والابتكار، لم تكن تعتمد على صنعةٍ أوفنٍّ، وإنما كان يَلجَأُ أهلها إلى منثورٍ من الكلام بِحُكْمِ الاضطرار، فكان جلُّ اعتمادهم على الشعر وأغلب أدبهم يدور حول الكلام الموزون، لذلك كانوا يفضِّلون الشاعر على الخطيب، وتتطلع كل قبيلة إلى بلاغة الشعر وتأثيره وتحرص على تدوين مفاخرها ومآثرها بلسان الشاعر الذي يكون حائزاً على درجة عالية من القبول، ولكن حظيت بعض القبائل بالجمع بين الشعر والخطابة ووجد فيها الشاعر الفحل والخطيب المصقع في وقت واحد، وقد تم ذلك الجمع لبعضها في رجل واحد حاز قصب البراعة في النوع الموزون من الكلام مع النوع المنثور منه، وتجلت خصائصه البيانية في كل من الشعر والنثر، وذلك كمن يأتي أسماؤهم على سبيل المثال:

بعض الجاهليين ممن جمعوا بين النثر والشعر:

١ ـ عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد، مِن قبيلة إياد، كان معاصراً للحارث الغساني (٥٢٥ ـ ٥٦٩م) عرف بالجمع بين الشعر والخطابة.

٢ ـ ذو الأصبع العدواني، واسمه حرثان، وهو من بني الظرب بن عمرو من بني يشكر بن عدوان، توفي قبل الهجرة بـ ٢٥ عاماً، وقد جمع بين الشعر الجميل والنثر الجيد.

٣ ـ قس بن ساعدة الإيادي من قبيلة إياد كذلك، توفي قبل الهجرة بـ ٢٢ عاماً، جرآه رسول الله ﷺ يخطب في سوق عكاظ خطبته المشهورة التي بدأها بقوله: «أيها

الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعُوْا ، من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت» جمع بين الشعر والنثر[1] .

كعب بن مالك ، من هو؟ :

أما كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري فقد أكرمه الله كذلك بالجمع بين النثر القوي غزير المادة والمعنى، والشعر الجيد السبك ، فصيح اللفظ ومتين التركيب ، وهو من بني سلمة من الخزرج ، ولد في يثرب قبل نحو ٢٥ عاماً قبل الهجرة[2] .

واسمه عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري ، وكنيته أبو عبد الله ، وقيل: أبو عبد الرحمن ، وقيل: أبو محمد ، وقيل: أبو بشير المدني الشاعر[3] .

«وقال البغوي: حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا هارون عن إسماعيل من ولد كعب بن مالك ، قال: كانت كنية كعب بن مالك في الجاهلية أبا بشير ، فكناه النبي الكريم ﷺ أبا عبد الله ، ولم يكن لمالك ولد غيرُ كعب الشاعر المشهور ، وشهد العقبة وبايع بها ، وتخلّف عن بدر ، وشهد أُحُداً وما بعدها، وتخلف في غزوة تبوك[4] .

وقال ابن الكلبي: شهد بدراً، كذا قال. وقد صح عن كعب أنه قال: تخلفت عن بدر ، قال ابن عون ، عن ابن سيرين: كان ثلاثة من الأنصار يهاجون عن رسول الله ﷺ ، حسان وابن رواحة وكعب بن مالك[5] .

«أمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة من بني سلمة أيضاً ، شهد العقبة الثانية واخْتُلِفَ في شهوده بدراً ، ولما قدم على رسول الله ﷺ المدينة آخى بين كعب وبين طلحة بن عبيد الله حين آخى بين المهاجرين والأنصار»[6] .

(١) اقرأ تاريخ الأدب العربي ، لعمر فروخ ، وغيره من مؤرخي الأدب العربي .
(٢) اقرأ تاريخ الأدب العربي ، لعمر فروخ ، وغيره من مؤرخي الأدب العربي .
(٣) تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، ترجمة كعب بن مالك .
(٤) تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، ترجمة كعب بن مالك .
(٥) تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، ترجمة كعب بن مالك .
(٦) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر ، القسم الثالث ، ترجمة كعب بن مالك .

«كان أحدَ شعراء رسول الله ﷺ الذين كانوا يردُّون الأذى عنه ، وكان مجوداً مطبوعاً ، قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر ، وعرف بهِ ، ثم أسلم وشهد العقبة ، ولم يشهد بدراً ، وشهد أُحُداً والمشاهد كلها حاشا تبوك فإنه تخلف عنها ، وقد قيل: إنه شهد بدراً فالله تعالى أعلم»[1] .

ولكعب بن مالك الأنصاري شعر قاله في الجاهلية يوم الحرب التي دارت بين قبيلتين من يهود المدينة ، وهما من آل الكاهنين:

فقد قال:

لَعَمْري لَقَدْ حَكَّتْ رَحَى الحرب بَعْدَما ... أطارتْ لُؤَيّاً قَبْلُ شَرْقاً وَمَغْرِباً[2]
بَقيَّةَ آل الكاهنينَ وعزَّهَا ... فعَادَ ذَليلاً بَعْدَ ما كان أغْلبا[3]
فَطَاحَ سَلامٌ وابنُ سَعْيَةَ عَنْوةً ... وقِيْدَ ذَليلاً للمنايا ابنُ أخطبا[4]
وأجْلبَ يَبْغي العِزَّ والذلَّ يَبْتَغي ... خِلافَ يَدَيْه ما جَنى حينَ أجلبا[5]
كتاركِ سَهلِ الأرض والحزْنُ هَمُّهُ ... وَقَدْ كانَ ذا في الناس أكْدَى وأغْلبا[6]
وَشَأْسٌ وَعَزّالٌ وقَدْ صُليَا بها ... وما غُيِّبا عن ذاكَ فيمَنْ تَغَيَّبا[7]
وَعَوفُ بنُ سَلْمى وابنُ عوفٍ كلاهما ... وكعْبٌ رئيسُ القَومِ حانَ وخُيِّبا[8]
فبُعْداً وَسُحْقاً للنَّضِير ومِثْلُها ... إنِ اعْقبَ فَتْحٌ أو إنِ الله أعْقَبَا[9]

(١) المصدر نفسه ، القسم الثالث ، ص ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤ .
(٢) لؤيّ: من آباء قريش ، حكّت: أصابت ، الرحى: حجر المطحنة شُبّهت بها الحرب لأنها تطحن المقاتلين .
(٣) آل الكاهنين: قبيلتان من يهود المدينة ، أغلب في القتال: كانت له الغلبة .
(٤) طاح: هلك ، مات ، سلام: هو سلام بن مشكم من سادة بني النضير ، ومعه مالهم الذي يجمعونه لنوائبهم وما يحصل معهم .
(٥) أجلب القوم: جمعهم للقتال ، جاء يبغي النصر فوقع في شرّ هزيمة .
(٦) الحزن: الأرض الغليظة ، أكدى: أجدب وقلّ خيره ، الأغلب: الأغلظ ، كان في نعيم فسعى إلى حال أفضل فلم ينجح في مسعاه .
(٧) شأس: هو شأس بن قيس أحد أسياد بني النضير ، عزّال: من يهود بني النضير ، صُليا بها: أي احترقا بنار الحرب .
(٨) كعب: كعب بن الأشرف ، حان: من الحين؛ أي الموت ، خُيّب: خاب مسعاه أي انهزم .
(٩) بعداً وسحقاً: دعاء عليهم .

وأجاب مرحباً اليهوديَّ يوم خيبر:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي كَعْبُ ... مفَرَّجُ الغَمِّ جَرِيءٌ صُلْبُ[1]
إِذَا شَبَتِ الحَرْبُ تَلَتْهَا الحَرْبُ ... مَعِي حُسَامٌ كَالعَقِيقِ عَضْبُ[2]
نَطْؤُكُمْ حَتَّى يَذِلَّ الصَّعْبُ

إسلامه:

أكرمه الله بالإسلام قبل أن يشهد العقبة وهو في يثرب وطنه فكان يفقه الدين ويعلمه من قومه، ولكنه انتهز فرصة خروج قومه من المشركين في الموسم كي يمنع رسول الله ﷺ على حمايته ومنعه مما يمنع منه عائلته، وذلك في شهر ذي الحجة قبل هجرة النبي الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة بشهرين، وقيل: بثلاثة أشهر[3].

ولندعه هو يتحدث عن قصة خروجه إلى مكة المكرمة وشهوده بيعة العقبة الثانية في أسلوبه القصصي الرائع، وأدبه المنثور البليغ، حتى لا يفوتنا كلامه المنثور الرفيع قبل الاطلاع على مكانته الشعرية العالية وعلى شعره القوي الذي تضمن معاني الحرب والمغازي، والذي كانت تخاف منه القبائل، فقد جاء فيما رواه ابن سيرين أن دوساً إنما أسلمت فَرَقاً من قول كعب بن مالك:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ وَطْرٍ ... وَخَيْبَرَ، ثُمَّ أَغْمَدْنَا السُّيُوفَا
تُخَبِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ دَوْساً أو ثَقِيفَا[4]

وفي هذه الرواية أن النبي الكريم ﷺ استنشد كعب بن مالك وهو راكب ناقته فأنشد البيتين وما بعدهما من القصيدة بكاملها، فقال النبي الكريم ﷺ: «والذي نفسي بيده لهي أشد عليهم من رشق النبل»، قال ابن سيرين: فثبت أن دوساً إنما أسلمت بكلمة كعب هذه[5].

(١) تشب: تشعل.
(٢) العقيق: خرز أحمر لماع، العضب: السيف القاطع.
(٣) اقرأ كتب السيرة النبوية، وإمتاع الأسماع للمقريزي، وقصة الهجرة بطولها، طبع قطر.
(٤) الإصابة في معرفة الصحابة، للعسقلاني، ترجمة كعب بن مالك.
(٥) اقرأ هامش دلائل الإعجاز، للجرجاني، ص ٤١ (طبع بيروت).

حديث خروجه إلى مكة مع البراء بن معرور:

جاء في «السيرة النبوية» لابن هشام أن كعب بن مالك قال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور[1]، سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا[2] لسفرنا، وخرجنا من المدينة، قال البراء لنا: يا هؤلاء، إني قد رأيت رأياً، فوالله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟ قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر، يعني الكعبة، وأن أصلّي إليها، قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا -ﷺ- يصلي إلا إلى الشام[3] وما نريد أن نخالفه، قال: فقال: إني لمصلٍّ إليها، قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل، قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلّى إلى الكعبة، حتى قدم مكة، قال: وقد كنا عِبْنَا عليه ما صنع، وأبى إلا الإقامة على ذلك.

فلما قدمنا مكة قال لي: يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله -ﷺ-، حتى نسأله عما صنعتُ في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء، لما رأيت من خلافكم إياي فيه، قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله -ﷺ-، وكنا لا نعرفه، ولم نره قبلَ ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله -ﷺ-، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قال: قلنا: نعم، قال: وقد كنا نعرف العباس، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس، ورسول الله -ﷺ- جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله -ﷺ- للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور، سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله

(١) يكنى البراء بن معرور، أبا بشر، بابنه بشر، وهو الذي أكل مع رسول الله -ﷺ- من الشاة المسمومة فمات، ومعرور اسم أبيه، ومعناه: مقصود، يقال عره واعتره: إذا قصده، والبراء هذا ممن صلى رسول الله -ﷺ- على قبره بعد موته.
(٢) وجهنا: اتجهنا.
(٣) يعني: بيت المقدس.

ﷺ: الشاعر؟ قال: نعم، «قال:»[1] فقال (له)[2] البراء بن معرور: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد»[3] كنت على قبلة لو صبرت[4] عليها، قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله -ﷺ-، وصلّى معنا إلى الشام.

ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله - ﷺ - العقبة من أوسط أيام التشريق، قال: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله -ﷺ- لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا[5]، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمْرَنا، فكلمناه وقلنا له: يا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه

(١) زيادة عن ١ - كناية عن النسخة المطبوعة في ألمانيا سنة ١٢٧٦هـ ط. - كناية عن النسخة الخطية بخط القاسم بن زيد المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم وقد فرغ من كتابتها سنة ١١٤٤هـ. وهي محفوظة بدار الكتب المصرية.

(٢) زيادة عن ١ - كناية عن النسخة المطبوعة في ألمانيا سنة ١٢٧٦هـ ط. - كناية عن النسخة الخطية بخط القاسم بن زيد المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم وقد فرغ من كتابتها سنة ١١٤٤هـ. وهي محفوظة بدار الكتب المصرية.

(٣) زيادة عن ١ - كناية عن النسخة المطبوعة في ألمانيا سنة ١٢٧٦هـ ط. - كناية عن النسخة الخطية بخط القاسم بن زيد المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم وقد فرغ من كتابتها سنة ١١٤٤هـ. وهي محفوظة بدار الكتب المصرية.

(٤) قال السهيلي في التعليق على هذا الحديث، «قوله: لو صبرت عليها، أنه لم يأمره بإعادة ما قد صلى لأنه كان متأولاً، وفي الحديث دليل على أن رسول الله - ﷺ - كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس، وقالت طائفة: ما صلى إلى بيت المقدس، إلا مذ قدم المدينة سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً، فعلى هذا يكون في القبلة نسخان: نسخ سنة بسنة، ونسخ سنة بقرآن، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة، فروي عنه من طريق صحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلما كان عليه السلام يتحرى القبلتين جميعاً لم يبن توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة».

(٥) العبارة: «وشريف من أشرافنا» ساقط في ١.

بميعاد رسول الله - ﷺ - إيانا عند العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً.

قال فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله - ﷺ - نتسلل تسلل القطا مستخفين. حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نسيبة[1] بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع.

العباس يتوثق للنبي الكريم -عليه الصلاة والسلام-:

قال فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله -ﷺ-، حتى جاءنا ومعه (عمه)[2] العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول[3] متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها -: إن محمداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

(١) هي امرأة زيد بن عاصم، وقد شهدت بيعة العقبة وبيعة الرضوان، كما شهدت يوم اليمامة وباشرت القتال بنفسها، وشاركت ابنها عبد الله في قتل مسيلمة، فقطعت يدها، وجرحت اثني عشر جرحاً، ثم عاشت بعد ذلك دهراً، ويروى أنها قالت لرسول الله -ﷺ-: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى للنساء شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

(٢) زيادة عن ١، ط.

(٣) في ١: أول من تكلم.

عهد الرسول ـ عليه السلام ـ على الأنصار:

قال: فتكلم رسولُ الله ـ ﷺ ـ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق (نبياً)، لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرَنا[1]، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء[2] الحروب، وأهل الحلقة[3] ورثناها كابراً (عن كابرٍ)[4]، قال: فاعترض القولَ، والبراء يكلم رسول الله ـ ﷺ ـ أبو الهيثم بن التيهان[5]، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنَّا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم[6]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب مَنْ حَاربتم، وأسالمُ من سالمتم.

قال ابن هشام: ويقال: الهدم[7] الهدم: (يعني الحرمة)[8] أي ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم[9].

---

(١) أزرنا، أي نساءنا، والمرأة قد يكنى عنها بالإزار، كما يكنى أيضاً بالإزار عن النفس، ويجعل الثوب عبارة عن لابسه، قال الشاعر:

رموها بأثواب خِفَافٍ فلا ترى ... لها شبهاً إلا النعام المنفرا

وعلى هذا يصح أن يحمل قول البراء على إرادة المعنيين جميعاً.

(٢) كذا في١، وسائر الأصول: «أهل».

(٣) الحلقة، أي السلاح.

(٤) زيادة عن ١، ط.

(٥) التيهان: يروى بتشديد الياء وتخفيفها.

(٦) قال ابن قتيبة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك، وهدمي هدمك، أي ما هدمت من الدماء هدمته أنا.
ويروى أيضاً: بل اللدم اللدم والهدم الهدم وأنشد:

ثم الحقي بهدمي ولدمي

فاللدم جمع لادم، وهم أهله الذين يلتدمون عليه إذا مات، وهو من لدمت صدرها، إذا ضربته.

(٧) الهدم (بالفتح): المصدر: (وبالتحريك) كل ما تهدم.

(٨) في١: «يقول: حرمتي حرمتك ودمي دمكم».

(٩) قال السهيلي: «وإنما كنَى ابنُ هشام عن حرمة الرجل وأهله» بالهدم، ؛لأنهم كانوا أهل نجعةٍ=

قال كعب (بن مالك):

وقد (كان) قال رسول الله ـ ﷺ ـ: أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

شعر كعب في حصر النقباء:

قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدون رفاعة، وقال كعب بن مالك يذكرهم، فيما أنشدني أبو زيد الأنصاري:

أَبْلِغْ أُبَيّاً أَنَّهُ فَالَ رَأْيُهُ ... وحَانَ غَداةَ الشِّعبِ والحَيْنُ واقِعُ[1]

أَبَى اللهُ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ أَنَّهُ ... بِمِرصَادِ أَمْرِ النَّاسِ رَاءٍ وسامِعُ

وأَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا ... بِأحمَدَ نورٌ من هُدَى اللهِ سَاطِعُ

فلا تَرْغَبَنْ[2] في حَشدِ أَمْرٍ تريدُهُ ... وأَلِّبْ وجَمِّعْ كُلَّ ما أَنتَ جَامِعُ

ودُونَكَ فاعْلَمْ أَنَّ نَقْضَ عهودِنا ... أَبَاهُ عليكَ الرَّهْطُ حين تَتَابَعُوا[3]

أَبَاهُ البِراءُ وابنُ عمرٍو كلاهُما ... وأَسْعَدُ يَأْبَاهُ عليكَ ورَافِعُ

وسَعْدٌ أَبَاهُ الساعِدِيُّ ومُنْذِرٌ ... لأَنفِكَ إنْ حاوَلْتَ ذلكَ جَادِعُ[4]

ومَا ابْنُ رَبِيْعٍ إنْ تَنَاوَلْتَ عَهْدَهُ ... بِمُسْلِمِهِ لا يَطْمَعَنْ ثَمَّ طَامِعُ

وأَيضاً فَلا يُعْطِيكَهُ ابنُ رَوَاحَةٍ ... وإخفَارُهُ مِنْ دُونِهِ السُّمُّ نَاقِعُ[5]

وَفَاءً بِهِ والقَوقَلِيُّ بنُ صَامِتٍ ... بِمَنْدُوحَةٍ عَمَّا تحاوِلُ يَافِعُ[6]

= وارتحالٍ، ولهم بيوت يستخفونها يوم ظعنهم، فكلما ظعنوا هدموها، والهدم: بمعنى الهدوم، ثم جعلوا الهدم.

(١) فال: بطل.

(٢) كذا في أكثر الأصول، وفي ط: «فلا ترعين» أي فلا تبقين، يقال: ما أرعى عليه، أي ما أبقى عليه.

(٣) كذا في١، ط، وفي سائر الأصول: «تبايعوا».

(٤) جادع: قاطع.

(٥) الإخفار: نقض العهد.

(٦) اليافع: الموضع المرتفع، ويروى: «باقع» أي بعيد.

أَبُــو هَيْثَــمٍ أيضــاً وَفِــيٌّ بمثْلِهَــا وَفاءً بما أَعطَى من العَهْدِ خَانِعُ[1]
ومَـا ابْـنُ حُضَيْـرٍ إنْ أَردتَ بَمَطْمَـعٍ فهَـلْ أنـتَ عـن أُحْمُـوقَـةِ الغَـيِّ نـازِعُ
وسَعـدٌ أخـو عَمْـرِو بـنِ عَـوْفٍ فـإنَّـهُ ضَرُوحٌ لِما حَاوَلْتَ مِلأَمْرِ مَانِعُ[2]
أَولاكَ نُجُــومٌ لا يغبُّــكَ مِنهــمُ عَلَيكَ بنَحْسٍ في دُجَى الليلِ طالِعُ

فذكر كعبٌ فيهم «أبا الهيثم بن التَّيهان» ولم يذكر «رفاعة»[3].

في غزوة أحد:

وحضر كعب بن مالك في غزوة أحد مع رسول الله ـ ﷺ ـ وخاض مأزق الحرب وأبلى فيها أحسن بلاء، ولم يفارق رسول الله ـ ﷺ ـ وظل معه حتى في أصعب أوقات الحرب وأشدها بلاءً، ولما انتقضت صفوف المسلمين في المعركة ووقعت الهزيمة انتهز الفرصة إبليسُ الذي نادى عند جبل عينين[4]: إن محمداً قد قُتِلَ، وصرخ ثلاث صرخات أدهشتِ المسلمين، وأفقدتهم الثقة بالنصر، واضطرب الأمر ووقع القتل والصياح، وقُتِلَ مصعبُ بن عمير وبيده اللواء، وتفرق المسلمون في كل وجه وأصعدوا في الجبل لما نادى الشيطان: قُتِلَ محمدٌ، فكان أول من بشرهم برسول الله ـ ﷺ ـ سالماً، كعبُ بنُ مالكٍ، فجعل يصيح ورسول الله ـ ﷺ ـ يشير إليه بأصبعه على فيه: أَنِ اسكُت، ودعا بلأْمةِ كعبٍ وكانت صفراءَ فلبسَهَا، ونزع لأْمتَهُ فلبسها كعب، وقاتل كعب حتى جرح سبعة عشر جرحاً لشدة قتاله[5].

إسهامه في حفر الخندق مع رسول الله ـ ﷺ ـ:

وفي غزوة الخندق لما وكَّلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بكلِّ جانبٍ من الخندق قوماً يحفرونه جعل لبني سلمة ناحية يحفرونها ويرتجزون وكان الحماس يغلب القوم بأجمعهم حتى إذا رأوا فتوراً من أَحَدٍ ضحكوا منه، وكان سلمان ـ رضي الله عنه ـ

(١) كذا في أكثر الأصول، والخانع: المقر المتذلل، وفي ط: «خالع».
(٢) ضروح: أي مانع ودافع عن نفسه، ملأمر: يعني، من الأمر.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، قصة العقبة الثانية، طبع مصر: ٢/ ٨١ـ٨٤ـ٨٧ـ٨٨.
(٤) أحد جبال أحد، عينين، ويقال ليوم أحد «يوم عينين».
(٥) إمتاع الأسماع للمقريزي، حديث غزوة أحد طبع قطر، ص ١٢٩.

قوياً عارفاً بحفر الخنادق فتنافس فيه المسلمون، وكان يعملُ عملَ عشرةِ رجال، فجعل له رسول الله ﷺ خمسة أذرع طولاً وخمسة في الأرض ففرغها وحدَهُ وهو يقول: اللهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة.

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحملُ التُّرابَ في المكاتِل، والقومُ يرتجزونَ، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول:

هَــذَا الجَمَــالُ لاَ جَمَــالَ خَيبَــرَ هَــذَا أَبَــرُّ رَبَّنَــا وَأَطْهَــرُ

وكان كعب بن مالك مع بني سلمة في ناحية يحفر ويرتجز فعزم رسول الله ـ ﷺ ـ على كعب بن مالك ألا يقول شيئاً، ولعل ذلك ليكون لمصلحة حربية تقتضي في ذلك الوقت ألا يرتجز هو[1].

ومع إسهامه في حفر الخندق عملياً وُفِّقَ إلى صنع قصائد من الشعر في هذه المناسبة، كان لها تأثير كبير في نفوس الناس العاملين في الخندق، وسنذكرها حيث نتحدث عن شعره بحول الله تعالى.

في فتح مكة:

لما أذن الرسول ـ ﷺ ـ بالرحيل إلى مكة للفتح صَحِبهُ كعب بن مالك وسار مع القوم حتى إذا نزل بالعَرْجِ في طريقه إلى مكة والناس لا يدرون أين يتوجه إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف؟ وأحبوا أن يعلموا، أتى كعب بن مالك رسول الله ـ ﷺ ـ وقد جلس في أصحابه وهو يتحدث ليعلم ذلك فأنشده شعراً، فتبسَّم ولم يزد على ذلك[2].

إسلام أبي سفيان بن الحارث:

ولما وصل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الأَبْواء في طريقه إلى فتح مكة جاءه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يريد الإسلام بعد ما عادى رسول الله ـ ﷺ ـ عشرين سنة وهجاه أقذع هجاء ولم يتخلف عن قتاله قط، فأعرض عنه رسول الله ـ ﷺ ـ وأعرض عنه الناس وتجهّموا له فجلس على باب منزل رسول الله ـ ﷺ ـ يلازمه

(١) المصدر السابق.
(٢) إمتاع الأسماع للمقريزي، حديث فتح مكة بطوله، ص ٣٦٥.

حتى فتح مكة وهو لا يكلمه ولا أحدٌ من المسلمين ، ولكنه في يوم هوازن أخذ بلجام بغلته ـ ﷺ ـ من جانب ومعه العباس بن عبد المطلب الذي شفع له وقال: أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث فَارْضَ عنه أيْ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: قد فعلت ، فغفر الله له كل عداوة عادانيها ، فقبَّل أبو سفيان رجله في الركاب.

موقف كعب بن مالك من هجاء أبي سفيان قبل إسلامه:

وهذا هو أبو سفيان بن الحارث الذي رد عليه شعراء الإسلام ، وواجهوا هجاءه بالهجاء والتعيير ، وهو الذي عيره حسان بن ثابت ، وقال:

أَتَهْجُـوهُ وَلَسْـتَ لَـهُ بِكُـفءٍ فَشَـرُّكُمَـا لِخَيْـرِكُمَـا الفِـدَاءُ[1]

ولما قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ: إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك يا رسول الله وطلب منه عبد الله بن رواحة أن يأذن له في الرد عليه ، وثب كعب بن مالك أمام رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقال: يا رسول الله ، إِئْذَنْ لي فيه[2].

غزوة تبوك وكعب بن مالك:

وجاء موعد غزوة تبوك في رجب سنة تسعٍ وقد بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ أن الروم جمعت جموعاً كثيرة لقتال المسلمين فأمر أصحابه بالتهيؤِ لغزوهم ، وذلك في زمان من عسرة الناس وشدة الحر ، وجدب البلاد ، وحين طابت الثمار وشق على الناس الخروج إلى غزوٍ أو قتال ، ولذلك فقد تخلف في هذه الغزوة رغم خطورتها كثير من الناس منهم البكّاؤون الذين قال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: لا أجد ما أحملكم عليه ، فولوا يبكون وهم سبعة ، ومنهم المنافقون ، وهم بضعة وثمانون رجلاً ، ومنهم من تخلفوا من غير شك ولا ارتياب بل قد أبطأت بهم النية ، وفي مقدمتهم كعب بن مالك الأنصاري ، ومعه هلال بن أمية الواقفي ، ومرارة بن الربيع العمري ، وقد تحدث عنهم القرآن فقال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾[3].

(١) انظر كتب السيرة وإمتاع الأسماع للمقريزي.
(٢) اقرأ ترجمة كعب بن مالك في الأغاني للأصفهاني: ج/ ١٥.
(٣) اقرأ كتب السيرة والمغازي، وسيرة ابن هشام.

وقد روى البخاري في «صحيحه» حديث كعب بن مالك وقد تحدث فيه عن تخلفه بلغة صريحة وأسلوب واضح قصصي جميل ، يقول:

«كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ـ ﷺ ـ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعَدْوَاً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ـ ﷺ ـ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ ؛ يريد «الديوان».

قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي وأنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركَهُم وليتني فعلت ، فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ـ ﷺ ـ فَطُفْتُ فيهم أحزنني أنني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.

فلما قيل: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ قادماً فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال: تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذرٍ ،

ولقد أُعْطِيْتُ جَدلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفوَ الله تعالى.

لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله -ﷺ-: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك ، فقمت وسار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله - ﷺ - بما اعتذر إليه المخلَّفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله -ﷺ- لك ، فو الله ما زالوا يؤنبونني (أي يلومونني أشد اللوم) حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت: ومَنْ هُما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلَين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوةٌ ، فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله -ﷺ- المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثةُ (بالرفع بمعنى الاختصاص أي متخصصين من بين سائر الناس) من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجْلَدَهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله -ﷺ- فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بالسلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورتُ جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأَحَبُ الناس إلي ، فسلَّمت عليه فو الله ما ردَّ عليَّ السلام ، فقلت: يا أبا قتادة ، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكتَ فعدْتُ له فنشدته فسكت ، فعدتُ فنشدته ، فقال: الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه:

«أما بعد ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالْحَقْ بنا نواسِك ، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء ، فيمَّمت بها التنور فسَجَرْتُه بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله -ﷺ- يأتيني فقال: إن رسول الله -ﷺ- يأمرك أن تعزل امرأتك ، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها.

فلبثت بعد ذلك عشرَ ليالٍ كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله -ﷺ- عن كلامنا ، فما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله «قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت» سمعت صوت صارخ أوفَى على جبل سلع بأعلى صوته:

يا كعب بن مالك أبشر ، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرجٌ ، وآذن رسول الله - ﷺ - بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبل صاحبيَّ مبشرون ، وركض إليَّ رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه ، و والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما.

وانطلقت إلى رسول الله - ﷺ - فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤنني بالتوبة يقولون: لتهنئك توبة الله عليك ، قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله -ﷺ- جالس حوله الناس فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله -ﷺ- ، قال رسول الله -ﷺ-: وهو يبرق وجهه من السرور ، أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ، قال: قلت: أمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله.

وأنزل الله على رسول الله -ﷺ-: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله -ﷺ- ألا أكون كذبته فأهلك كما

هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

هذا نموذج من كلامه يدل على علو كعبه في الأدب المنثور البليغ واقتداره على البيان المؤثر الأخاذ والأسلوب القصصي البديع ، مع ما كان له من مكانة عالية في الشعر لا يدانيه فيها كثير من شعراء العرب ، وقد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر وعرف به فلما أسلم كان شاعر الإسلام وشاعر النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

كعب بن مالك يسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن رأيه في الشعر:

وقد روي أن كعب بن مالك قال: يا رسول الله ، ماذا ترى في الشعر؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، قال أبو عمر: وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لكعب بن مالك: أترى الله عز وجل شكر لك قولك:

زَعَمَتْ سَخينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا ... فَلَيَغْلِبَنَّ مُغَالِبَ الغُلَّابِ

هذه رواية محمد بن سلام الجمحي ، وفي رواية ابن هشام ، قال لما قال كعب بن مالك:

جاءَتْ سخينةُ كي تغالبَ رَبَّها ... فَلَيَغْلِبَنَّ مَغَالِبَ الغُلَّابِ

قال رسول لله ـ ﷺ ـ: لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا[2].

ولكعب بن مالك شعر جيد ، وقصائد غراء قالها في الإسلام وفي مناسبات المغازي التي شهدها بوجه خاص.

كعب بن مالك الأنصاري ونموذج من شعره:

قدرته الفائقة على القريض:

لا غرابة فيما إذا كانت ملكتُهُ الشعريةُ قد نمت واتسعت بعد إسلامه ، فإن إيمانه القوي بالله ورسوله وصحبته مع النبي ـ ﷺ ـ في غزواته وأسفاره قد فتق قريحته ، ورقَّقَ شعورَه ، ولما رأى من شدة عداوة المشركين وقسوتهم في معارضة النبي ـ

(١) صحيح البخاري. كتاب المغازي، حديث كعب بن مالك.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: ٣/ ١٢٥.

ﷺ ـ ودحض دعوته ، اندفع إلى الانتصار للحق ، والرد على شنآنهم وبغضهم عن طريق الشعر والكلام المؤثر القوي الرقيق ، فقد كان يتمتع بالقدرة على القريض ، وهو يشتهر في هذا الجانب بالجودة والأصالة ، ويعرفه الناس بمكانته الشعرية أكثر من أي صفة أخرى ، حتى إن النبي ـ ﷺ ـ لما عرَّفه في مكة لأول مرة ، عرَّفه بالشاعر.

مؤهلاته الشعرية في الدفاع عن الإسلام:

وكعب بن مالك ثاني شعراء المدينة الفحول الخمسة ، وكان أولهم حسان بن ثابت[1] ، وهداه الله تعالى للإسلام فوضع كل مؤهلاته الشعرية في خدمة الدين وتأييد رسول الله ـ ﷺ ـ ، يدافع عنهما وينافح بأحسن شعر وأقوى كلام ، حتى أصبح من شعراء الإسلام المعدودين ، وقد بلغ في الأصالة الشعرية مبلغاً عالياً كما كان عالي الكعب في رواية الأحاديث الكثيرة عن النبي ـ ﷺ ـ ، يقول الإمام أبو الفرج الأصفهاني في أخبار كعب بن مالك: «ولكعب بن مالك أصل أصيل وفرع طويل في الشعر ، ابنه عبد الرحمن شاعر ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، ومعن بن عمر بن عبد الله بن كعب شاعر ، وعبد الرحمن بن عبد الله شاعر ، ومعن بن زهير بن كعب شاعر ، وكلهم مُجِيْدٌ مُقَدَّمٌ ، وعمّر كعب بن مالك ، وروى عن النبي ـ ﷺ ـ حديثاً كثيراً ، وكل بني كعب بن مالك قد روى عنه الحديث[2] ، ومما رواه ابن ابنه بشير عن أبيه عبد الرحمن بن كعب يحدث عن أبيه أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر»[3].

معارضته لقريش بمثل قولهم:

وقد روى الأصفهاني عن أبي عاصم عن ابن جريج عن هشام بن عروة عن أبيه

(١) ثالثهم عبد الله بن رواحة ، من الخزرج نفسها ، ورابعهم قيس بن الخطيم من الأوس ، وخامسهم أبو قيس بن الأسلت وهو من الأوس كذلك ، (انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي).
(٢) كتاب الأغاني: ١٥/ ٢٦.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣/ ٤٥٦٠.

قال: رجز راجز من قريش برسول الله -ﷺ- فقال:

لـم يَغْـذُهـا مُـدٌّ ولا نَصِيْـفُ ولا تُمَيْـــرَاتٌ وَلا تَعْجِيْـــفُ
لكِـنْ غَـذَاهَـا اللَّبَـنُ الحـريـفُ والمَحْـضُ والقَـارِصُ والصَّـرِيْـفُ

قال فأحفظت الأنصار حيث ذكر المد والتمر ، فقالوا لكعب بن مالك: انزل فنزل فقال:

لَـمْ يَغْـذُهَـا مُـدٌّ ولا نَصِيْـفُ لكِـنْ غَـذَاهـا الحَنْظَـلُ النَّظِيـفُ
ومَـــذْقَـــةٌ كنَظْـــرَةِ الخَنِيـــفِ يَنْبُـــتُ بَيْـــنَ الـــزَّربِ والكَنِيـــفِ

فقال رسول الله -ﷺ-: اركبا. وعن محمد بن سيرين(في حديث طويل) قال: يهجوهم؛ يعني قريشاً ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم: حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان حسان بن ثابت وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، وينسبهم إلى الكفر ، ويعلم أنه ليس فيه شر من الكفر فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب ، وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة[1].

وعن عبد الله بن أنيس عن أمه وهي بنت كعب بن مالك ، أن النبي -ﷺ- خرج على كعب وهو ينشد ، فلما رأه كأنه انقبض ، فقال: ما كنتم فيه؟ فقال كعب: كنت أنشد ، فقال رسول الله -ﷺ-: أنشد. فأنشد حتى أتى على قوله: «مقاتلنا عن حرمنا كل قحمة» فقال رسول الله -ﷺ-: لا تقل «مقاتلنا عن حرمنا..» ولكن قل «مقاتلنا عن بيتنا».

قال أبو زيد: وحدثني سعيد بن عامر ، قال حدثنا ابن عون عن ابن سيرين قال: وقف رسول الله -ﷺ- بباب كعب بن مالك فخرج فأنشده ، ثم قال له: إيه ، فأنشده ثلاث مرات ، فقال رسول الله -ﷺ-: «لَهذا أشد عليهم من وقع النبل»[2].

وعن عبد الأعلى القرشي قال: قال معاوية - رضي الله عنه - يوماً لجلسائه:

(١) الأغاني: ١٥/ ٢٨.
(٢) كتاب الأغاني: ١٥/ ٢٨-٢٩.

أخبروني بأشجع بيتٍ وصفَ به رجلٌ قومَه ، فقال له رَوْحُ بن زِنباع: قول كعب بن مالك:

نَصِـلُ السُّيـوفَ إذا قَصُـرْنَ بِخَطْـوِنَـا يـــومـــاً ونُلْحِقُهـــا إذا لَـــمْ تَلْحَـــقِ

فقال له معاوية: صدقت[1].

شعره في المغازي غزوة بدر:

ومعظم شعره في المغازي التي شهدها مع الرسول -ﷺ- ، وقد حضر غزوة بدر وقاتل المشركين مع المسلمين ، ولم يدخر وسعاً في محاربة أعداء الإسلام بالسيف والسنان ، ولما أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين وهلاك رؤوس قريش وأسر رجالها وهزيمتها النكراء ، أفاض الشعر من المسلمين بذكر ما أنعم الله به عليهم من النصر المبين ، وتصدى بعض شعراء مشركي قريش ، فقالوا أبياتاً من الشعر رثاءً لقتلاها وجمعاً لهمّة رجالها ، وإبداءً لدوافع النقمة والسخط ضد الإسلام بوجه خاص ، فهذا ضرار بن الخطاب بن مرداس يقول في يوم بدر ، وهو يهدد الأنصار بحرب يشفي فيها غليل الانتقام.

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الأَوْسِ ، والحَيْنُ[2] دَائِرٌ عَلَيْهِم غَـداً ، والـدَّهْـرُ فِيْـهِ بَصـائِـرُ
وفَخْـرُ بنـي النجَّـارِ أَنْ كـانَ مَعْشَـرٌ أُصِيْبُـوا بِبَـدْرٍ كلُّهُـم ثَـمَّ صَـابـرُ
فـإنْ تَـكُ قَتْلـى غُـودِرَتْ مـن رِجَالِنا فـإنّـا رجـالٌ بَعْـدَهُـم سَنُغَـادِرُ
وتَرْدَى بِنا الجُرْدُ العَناجِيْجُ وَسْطَكُمْ بني الأَوْسِ حتَّى يَشْفِيَ النَّفْسَ ثائِرُ[3]

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة مماثلة يتحدث فيها عن مصرع الرؤوس من قريش ، ويؤكد فيها قضاء الله القاهر الذي لا رادّ له ، ويعتز بوجود رسول الله -ﷺ- فيهم ، ويشير إلى الثقة التي يتمتع بها المسلمون فيما وعدهم الله به من نصر الحق ودحر الباطل ، يقول:

عجبْـــتُ لأمـــرِ الله ، واللهُ قـــادرُ علَـــى مـــا أرَادَ ، لَيْـــسَ للهِ قـــاهِـــرُ

(١) المصدر نفسه.
(٢) الحَين بالفتح: الموت.
(٣) تردى: تسرع ، الجرد: الخيل العتاق القصيرات الشعر ، العناجيج مفردها عنجوج: الطويل السريع ، ثائر: طالب بالثأر.

قَضَى يَومَ بَدْرٍ أن نُلاقيَ مَعْشَراً ... بَغَوْا ، وسَبِيْلُ البَغْيِ بالنَّاسِ جَائرُ[1]
وقَدْ حَشَدُوا واستَنْفَرُوا مَنْ يَلِيْهُمُ ... مِنَ الناسِ ، حتَّى جمعُهُمْ مُتَكاثرُ[2]
وفِينا رَسُولُ اللهِ والأوْسُ حَوْلَهُ ... لَه مَعْقِلٌ مِنْهُم عَزيزٌ ونَاصِرُ[3]
وجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تحتَ لِوَائِهِ ... يَمْشُونَ في المَاذِيِّ والنَّقْعُ ثائِرُ[4]
فلمَّا لقينَاهُمْ وكلٌّ مجُاهِدٌ ... لأصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابرُ
شَهِدْنَا بأنَّ اللهَ لا ربَّ غيرُهُ ... وأنَّ رسولَ الله بالْحَقِّ ظَاهِرُ
وقد عُرِّيَتْ بِيْضٌ خِفَافٌ كَأنَّهَا ... مَقَاييسُ يُزْهِيها بعَيْنَيكَ شَاهِرُ[5]
بهِنَّ أَبَدْنا جمعَهُمْ فتَبَدَّدوا ... وكانَ يُلاقي الحَيْنَ مَنْ هُو فَاجِرُ[6]
فكُبَّ أبو جَهْلٍ صَرِيعاً لوَجْهِهِ ... وعُتْبَةُ قد غَادَرْنَه وهْوَ عَائِرُ[7]
وشَيْبَةُ والتَّيميُّ غادَرْنَ فِي الوَغَى ... وما مِنهُمُ إلاَّ بِذِي العَرْشِ كَافِرُ
فأمْسَوا وقودَ النَّارِ في مُسْتَقَرِّها ... وكُلُّ كَفُورٍ في جهنَّمَ صائرُ
تلظَّى عليهِمْ وهْيَ قَدْ شُبَّ حَمْيُهَا ... بِزُبْرِ الحديدِ والحجَارةِ سَاجرُ[8]
وكانَ رسولُ الله قَدْ قالَ أقْبِلُوا ... فَوَلَّوْا وقالُوا: إنما أنتَ سَاحرُ
لأَمرٍ أرادَ اللهُ أَنْ يهلِكُوا به ... وليسَ لأمرٍ حَمَّهُ اللهُ زاجِرُ[9]

شعره في عبيدة بن الحارث:

وأصيب عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب يوم بدر في رجْلِه فقُطعت ، ولكن لم تُقَدَّرْ له الحياةُ بعد ذلك وتوفي بهذا المصاب ، وكانت مناسبةً حزينة هدّت المسلمين ، قال فيها كعب بن مالك شعراً جميلاً يبكيه فيه:

(١) بغى الرجل: عدل عن الحق ، جائر بالناس: مائل بهم عن الطريق.
(٢) استنفروا: طلبوا الخروج للقتال.
(٣) معقل: موضع الحصانة.
(٤) وفي رواية «يميسون» بمعنى يختالون ، الماذي: الدروع البيض اللينة.
(٥) يزهيها: يحركها ويستخفها ، شاهر: سالُّ السيف ورافعه.
(٦) أبدنا: من الإبادة ، أهلكنا ، تبددوا: تفرقوا.
(٧) عائر: ساقط من حيث لا يدري.
(٨) زبر الحديد: قطعه ، ساجر: موقد من النار ، من سجر التنور إذا أوقده ناراً.
(٩) حمّه: بمعنى قدره.

أيَا عينُ جُودِي ولا تبخَلِي ... بدَمعِكِ حقاً ولا تنزُري[1]
على سيِّدٍ هَدَّنا هُلْكُهُ ... كَريمِ المَشَاهِدِ والعُنْصُرِ
جَريءِ المَقْدَمِ شَاكِي السِّلاحِ ... كريمِ النَّثَا طيِّبِ المكْسِرِ[2]
عُبَيْدَةُ أَمسَى ولا نَرْتجِيهِ ... لعُرْفٍ عَرانا ولا مُنْكَرِ
وقَدْ كانَ يحْمِي غَدَاةَ القِتَا ... لِ حامِيَةَ الجَيشِ بالمِبْتَرِ[3]

يهدد أبا سفيان ويتنبأ بفتح مكة:

وفاضت قريحته بالشعر القوي الرصين ، الذي يدل على تصرفه في مناحي الكلام وقدرته الشعرية ، يخاطب فيه أبا سفيان ، يهدده ويتنبأ له بفتح مكة ، وقد سبقت نبوءَتُه بالفتح نبوءةَ حسان بن ثابت بأعوام عديدة ، يقول:

لَعَمْرُ أَبيْكُما يَا ابْنَيْ لُؤَيٍّ ... على زَهْوٍ لَدَيكُمْ وانتِخَاءِ[4]
لَمَا حَامَتْ فَوارِسُكُمْ بِبدْرٍ ... ولا صَبَرُوا بهِ عندَ اللقَاءِ[5]
وَرَدْنَاهُ بِنُورِ اللهِ يَجْلُوْ ... دُجَى الظَّلمَاءِ عَنَّا والغِطَاءِ
رسولُ اللهِ يقدُمُنَا بأمرٍ ... مِنَ اَمْرِ اللهِ أُحكِمَ بالقَضَاءِ
فمَا ظَفِرَتْ فَوارِسُكُمْ ببَدرٍ ... وما رَجَعُوا إليكُمْ بالسَّواءِ
فلا تَعجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وارْقُبْ ... جِيَادَ الخَيْلِ تطلعُ مِنْ كَداءِ[6]
بِنَصْرِ اللهِ ، روحُ القُدْسِ فيها ... ومِيْكالٌ ، فَيَا طِيْبَ المَلاءِ[7]

ويقول في يوم بدر وهو يشكو إلى غسان ما قد حدث في هذه المعركة من قِبَلِ

(١) لا تنزري: لا تقللي.
(٢) شاكي السلاح: حاد السلاح شائكه ، وشاكي مقلوب شائك ، النثا: ما يذكر عن الرجل من خير وشر ، طيب المكسر (بسكون الكاف وكسر السين) محمود عند الخبرة.
(٣) حامية: التاء للمبالغة ، الجماعة التي تحامي وتذب عن نفسها ، المبتر: آلة البتر ، والمراد بها السيف البتّار.
(٤) الزهو: الكبر ، انتخاء ، إعجاب بالنفس وتكبر.
(٥) حامت: امتنعت.
(٦) كداء: موضع في مكة في الثنية العليا.
(٧) الملاء: هو الملأ: رؤساء القوم وأشرافهم ، روح القدس: جبريل ، ميكال وميكائيل: أحد الملائكة المقربين.

قريش عداوة منها وبغضاً للمسلمين ، فلقيت مصيرها من الخزي والعار والهزيمة :

ألا هَلْ أَتَى غَسَّانَ في نَأْيِ دَارِهَا ... وأَخْبَرُ شيءٍ بالأمُوْرِ عَلِيْمُهَا
بِأَنْ قَدْ رَمَتْنَا عن قِسِيٍّ عداوةً ... مَعَدٌّ معاً جُهَّالُهَا وحَلِيْمُهَا[1]
لأَنَّا عَبَدْنَا اللهَ لَمْ نَرْجُ غَيْرَهُ ... رَجاءَ الجِنَانِ إذْ أَتَانَا زَعِيْمُهَا[2]
نَبِيٌّ لَهُ في قَوْمِهِ إرْثُ عِزَّةٍ ... وأعْرَاقُ صِدْقٍ هذَّبَتْهَا أَرُومُهَا[3]
فَسَارُوا وَسِرْنَا فَالْتَقَيْنَا كأَنَّنَا ... أُسُودُ لقَاءٍ لا يُرَجَّى كَلِيْمُهَا[4]
ضَرَبْنَاهُمُ حتَّى هَوَى في مَكَرِّنَا ... لِمُنْخَرِّ سُوءٍ مِنْ لِواءٍ ، عَظِيْمُهَا
فَوَلَّوْا ودُسْنَاهُمْ بِبِيْضٍ صَوارِمٍ ... سَواءٌ عَلَيْنَا حِلْفُهَا وصَمِيْمُهَا[5]

مشاركته في غزوة أحد :

وكانت غزوة أحد بعد بدر ـ فساهم فيها كعب بن مالك بعد الحرب بنفسه وماله ، وقاتل المشركين مع رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولكن المسلمين انكشفوا فأصاب فيهم العدو حتى خلص إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وحدث له ما حدث من إرهاق وعنت ، وقد شاع بين الناس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد هلك ، فكان أوَّلَ من عرف رسول الله ـ ﷺ ـ بعد الهزيمة وقول الناس : قتل رسول الله ـ ﷺ ـ ، كعبُ بن مالك ، قال : عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأشار إليّ رسول الله ـ ﷺ ـ : أن أنصت[6] .

شعره في الرد على شعر هُبَيْرَةَ بن أَبي وَهْبٍ :

ولما وضعت الحرب أوزارها وعادت الأمور إلى نصابها ، أقبل الشعراء من كلا الفريقين يقرضون القصائد والأبيات حول يوم أحد وما دار فيه من وقائع وأحداث ، ومما قيل فيه قول هبيرة بن أبي وهب وكان شاعراً من قريش شديد العداوة لله

(١) قسي : جمع قوس .
(٢) زعيمها : يريد بالزعيم هنا رسول الله ـ ﷺ ـ .
(٣) أروم : بمعنى الأصل .
(٤) كليم : من كلم يكلم بمعنى جريح .
(٥) دسناهم : من داس يدوس ، حلفها : من كان حليفاً فيهم ، صميم : الخالص من القوم .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام : ٣/ ٨٨ .

ولرسوله ، وذلك ما يتجلى في قصيدته التي قالها في هذه المناسبة ، ومن جملة ما قال :

سقْنا كِنَانَةَ مِنْ أطْرَافِ ذِيْ يمَنٍ ... عُرْضَ البِلادِ عَلَى مَا كَانَ يُزجِيْهَا
قَالَتْ كِنَانَةُ : أَنَّى تَذْهبُونَ بنَا؟ ... قُلْنا : النَّخِيلُ ، فَأَمُّوْهَا وَمَنْ فِيْهَا
نَحْنُ الفَوارِسُ يومَ الجَرِّ من أُحُدٍ ... هابَتْ مَعَدٌّ فَقُلْنا : نَحنُ نَأتِيْهَا[1]

فرد عليه كعب بن مالك بقصيدة طويلة تضم ثمانية وأربعين بيتاً ، وتلك هي القصيدة التي كان ينشدها فمرّ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ فلما رآه كأنه انقبض ، فقال : ما كنتَ فيهم؟ فقال كعب : كنت أنشد ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أنشد ، فأنشد ، حتى أتى قوله : «مجالدنا عن جذمنا كل فخمة» فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أيصلح أن تقول : «مجالدنا عن ديننا» قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : فهو أحسن ، فقال كعب : «مجالدنا عن ديننا كل فخمة» وإليكم هذه القصيدة بطولها :

أَلاَ هل أَتَى غَسَّانَ عَنَّا ودُوْنَهُمْ ... مِنَ الأرضِ خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَنَعْنِعُ[2]
صحارٍ وأعلامٌ كأنَّ قَتَامَهَا ... من البُعْدِ نقْعٌ هَامِدٌ مُتَقَطِّعُ[3]
تظَلُّ بِهِ البُزْلُ العَرامِيسُ رُزَّحاً ... ويَخْلُو بِهِ غَيْثُ السِّنِينَ فَيُمْرِعُ[4]
بِهِ جِيَفُ الحَسْرَى يَلُوحُ صَلِيبُهَا ... كمَا لاحَ كِتَّانُ التِّجارِ المُوَضَّعُ[5]
بِهِ العِيْنُ والآرَامُ يَمْشِيْنَ خِلْفَةً ... وبَيْضُ نَعَامٍ قيضُهُ يَتَقلَّعُ[6]
مُجالِدُنا عن دِيننا كُلُّ فخْمَةٍ ... مُدَرَّبَةٍ فيها القَوانِسُ تَلْمَعُ[7]

(١) عرض البلاد : ما اتسع من أرجائها ونواحيها ، والنصب على الظرفية ، يزجيها : يسوقها ، النخيل : على وزن قتيل يعني بها المدينة المنورة ، أو على وزن زبير ، اسم عين قرب المدينة ، الجرّ بتشديد الراء ، أصل الجبل .
(٢) خرق : فلاة واسعة تنخرق فيها الريح ، متنعنع : مضطرب .
(٣) أعلام : جبال مرتفعة ، قتام : غبار أسود ، نقع هامد : غبار ساكن .
(٤) بزل : جمع بازل الإبل الشابة ، العرامس : الشديدة القوية ، رزح : جمع رازح : بمعنى ملتصقة بالأرض هزالاً وتعباً ، يمرع : يخصب .
(٥) جيف : جمع جيفة ، جثة الميت المنتنة ، الموضّع : المنقوش المبسوط .
(٦) العين : جمع عيناء ، المراد بها بقر الوحش ذات العيون النجلاء ، الآرام : جمع رئم مقلوباً ، الظباء التي بطونها بيض وظهورها سمر ، القيض : قشر البيض الأعلى ، يتقلع : بمعنى يتشقق .
(٧) مدربة على القتال أو مذربة بالذال المعجمة ، بمعنى محدودة ، القوانس : جمع قونس ، أعلى بيضة الحديد .

وكُلُّ صَمُوْتٍ في الصّوانِ كأنها ... إذا لُبِسَتْ نِهيٌ من الماء مُتْرَعُ[1]

ولكنْ بِبَدرٍ سائِلوا مَنْ لَقِيتُمُ ... منَ النّاسِ ، والأنباءُ بالغَيْبِ تَنْفَعُ

وإنّا بأرضِ الخَوفِ لو كانَ أهلُها ... سِوَانا لقَدْ أَجْلَوْا بلَيْلٍ فأَقْشَعُوا

إذا جاءَ مِنّا راكبٌ كان قولُهُ ... أَعِدُّوا لِمَا يُزْجِي ابنُ حَرْبٍ ويَجْمَعُ

فَمَهْمَا يُهِمُّ النّاسُ مِمّا يَكِيْدُنا ... فَنَحْنُ لَهُ مِن سائرِ النّاسِ أَوْسَعُ

فَلَو غَيْرُنا كانَتْ جَمِيْعاً تَكِيْدُه الـ ... بَرِيّةُ قد أعطَوْا يَداً وتَوزَّعُوا[2]

نُجالِدُ لا تَبْقَى عَلَيْنا قَبيلَةٌ ... منَ النّاسِ إلاّ أن يَهابوا ويَفْظَعُوا

وَلَمّا ابتَنَوا بالعِرْضِ قالَ سَراتُنا ... عَلامَ إذا لَمْ نَمْنَعِ العِرْضَ نَزْرَعُ؟![3]

وفِيْنا رَسولُ الله نَتْبَعُ أمْرَهُ ... إذا قالَ فِيْنا القَولَ لا نَتَطَلَّعُ[4]

تَدَلّى عَلَيهِ الرُّوحُ مِن عِنْدِ رَبِّهِ ... يُنَزِّلُ من جَوِّ السَّماءِ ويُرْفَعُ

نُشاوِرُهُ فيمَا نُرِيدُ وقَصْرُنا ... إذا ما اشْتَهى أنّا نُطِيْعُ ونَسْمَعُ[5]

وقالَ رَسولُ اللهِ لَمّا بَدَوْا لَنا : ... ذَرُوا عنكُمُ هَوْلَ المَنِيّاتِ وَاطْمَعُوا

وكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الحَيَاةَ تَقرُّباً ... إلى مَلِكٍ يُحْيا لَدَيهِ ويُرْجَعُ

ولكِنْ خُذُوا أسْيافَكُم وتَوكَّلُوا ... عَلى الله ، إنَّ الأمْرَ للهِ أَجْمَعُ

فسِرْنا إليهِمْ جَهْرةً في رِحَالِهِم ... ضُحَيّاً عَلَيْنا البِيضُ لا نَتَخَشَّعُ[6]

بمَلْموسَةٍ فيها السَّنَوَّرُ والقَنَا ... إذا ضَرَبُوا أقدامَهَا لا تَوَرَّعُ[7]

فجِئْنا إلى موجٍ من البحرِ وَسْطَهُ ... أَحَابِيشُ منهُمْ حاسِرٌ ومُقَنَّعُ[8]

---

(١) الدرع المحكمة النسج تسمى صموت ، نهي مترع : غدير مملوء .

(٢) أعطوا يداً : يقال : أعطى يده وبيده إذا انقاد واستسلم ، تورعوا : تقسموا ، تبددوا ، وفي رواية ، توزعوا : بمعنى ذلوا .

(٣) ابتنوا : نصبوا أبنيتهم ، والعرض بكسر العين : موضع خارج المدينة ، سراة : جمع سريّ ، السيد الشريف السخي .

(٤) لا نتطلع : لا نرفع إليه أبصارنا إجلالاً له ، وفي رواية : لا نتظلع ، بمعنى لا نميل عنه .

(٥) الروح : المراد بها روح القدس جبريل - عليه الصلاة والسلام - قصرنا : غايتنا .

(٦) ضحيا : وقت الضحى .

(٧) ملموسة : كتيبة مجتمعة ، السنور : السلاح ، لا تورع : لا تكف .

(٨) أحابيش : جمع أحبوشة ، الجماعة من الناس ليست من قبيلة واحدة ، حاسر : من ليس عليه درع ولا مغفر ، والمقنع : من لبس المغفر .

ثَلاثُةُ آلافٍ ونحنُ نَصِيَّةٌ ... ثَلاثُ مِئِيْنٍ إن كَثُرْنَا وأَرْبَعُ[1]

نُغَادِرهُمْ تَجْري المَنِيَّةُ بيننَا ... نُشارِعُهُم حَوْضَ المَنايا ونَشْرَعُ[2]

تَهَادى قِسِيُّ النَّبْعِ فِيْنَا وفِيْهِمُ ... وما هوَ إلا اليَثْرِبِيُّ المُقَطَّعُ[3]

ومَنْجُوفَةٌ حَرَمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ ... يُذَرُّ عليها السُّمُّ ساعةَ تُصْنَعُ[4]

تَصُوبُ بأَبْدَانِ الرِّجَالِ وتَارةً ... تَمُرُّ بأعراضِ البِصَارِ تَقَعْقَعُ[5]

وخَيلٌ تَرَاهَا بالفَضاءِ كَأنَّها ... جَرادُ صَباً في قَرَّةٍ يَتَرَيَّعُ[6]

فلمَّا تَلاَقَيْنا ودَارَتْ بِنَا الرَّحَى ... وليسَ لأمْرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ

ضَرَبْنَاهُمُ حَتَّى تركْنَا سَرَاتَهُمْ ... كأَنَّهُمُ بالقَاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعُ

لَدُنْ غُدْوَةٍ حَتَّى استَفَقْنَا عَشِيَّةً ... كأنَّ ذَكانا حَرُّ نَارٍ تَلَفَّعُ[7]

ورَاحُوا سِرَاعاً مُوجِفِينَ كأَنَّهُمْ ... جِهَامٌ هَراقَتْ ماءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ[8]

ورحْنَا وأَخْرَانَا بِطاءٌ كأَنَّنَا ... أُسُودٌ على لَحْمٍ ببيشَةَ ظُلَّعُ[9]

فنِلْنَا ونالَ القومُ مِنّا وربَّما ... فعلْنَا ، ولكنْ ما لَدى اللهِ أوسعُ

ودارَتْ رَحَانا واستدارَتْ رَحَاهُمُ ... وقَدْ جَعَلُوا، كلٌّ مِن الشَّرِ يشبعُ

ونحنُ أُنَاسٌ لا نَرى القَتلَ سُبَّةً ... على كلِّ مَنْ يَحْمِي الذِّمارَ ويَمْنَعُ

جِلادٌ على رَيْبِ الحوادثِ لا نَرَى ... على هالِكٍ عَيْناً لنا الدَّهرَ تَدْمعُ

بَنُو الحَرْبِ لا نَعْيا لشَيءٍ نَقُولُهُ ... ولا نحنُ مِمَّا جرَّتِ الحَرْبُ نَجْزَعُ

بَنُو الحَرْبِ إنْ نَظْفَرْ فلَسْنَا بفُحَّشٍ ... ولا نَحنُ مِنْ أظفَارِنا نَتوجَّعُ

---

(١) نصية : من القوم أو من الإبل خيارهم ، ثلاث مئين : لضرورة الشعر .

(٢) نغادرهم : نداولهم ، ونشارعهم : بمعنى نشاربهم ، نشرع : نشرب .

(٣) تهادى في الأصل تتهادى ، تتمايل ، اليثربي : الأوتار اليثربية .

(٤) منجوفة : السهم العريض النصل ، حرمية : نسبة إلى الحرم ، وصاعدية : نسبة إلى صاعد ، صانع سهام معروف .

(٥) تصوب : تقع ، البصار : جمع بصرة ، الأرض الغليظة ، الحجارة الرخوة .

(٦) يتريع : بمعنى يتردد ، قرة : البرد القارس .

(٧) ذكانا : بمعنى توقدنا في نار الحرب ، تلفع : تشتمل .

(٨) جهام : السحاب الذي لا ماء فيه ، مقلع : زائل .

(٩) بطاء : جمع بطيء ، بيشة : مأسدة معروفة أسودها بشدة البطش والضراوة ، ظلع : جمع ظالع ، مائل .

وكُنَّا شِهَاباً يَتَّقِي النَّاسُ حَرَّهُ ... ويَفْرَجُ عنه مَنْ يَلِيهِ ويُسْفَعُ[1]
فَخَرْتَ عَلَيَّ ابنَ الزَّبَعْرَى وقد سَرَى ... لَكُمْ طَلَبٌ مِنْ آخِرِ اللَّيلِ مُتْبَعُ
فَسَلْ عنْكَ في عُلْيا مَعَدٍّ وغَيْرِهَا ... مِنَ النَّاسِ ، مَنْ أَخْزَى مقاماً وأَشْنَعُ؟
ومَنْ هُوَ لَم تَتْرُكْ لَهُ الحربُ مَفْخَراً ... ومَنْ خَدُّهُ يَوْمَ الكَرِيْهَةِ أَضْرَعُ[2]
شَدَدْنا بحَوْلِ اللهِ والنَّصرِ شَدَّةً ... عليكُمْ ، وأطرَافُ الأسِنَّةِ شُرَّعُ
تَكِرُّ القَنَا فيكُمْ كأنَّ فُروغَها ... عَزَالَىٰ مَزَادٍ ماؤُها يَتَهَزَّعُ[3]
عَمَدْنَا إلى أهلِ اللواءِ ومَنْ يَطِرْ ... بِذِكْرِ اللوَاءِ فهوَ في الحَمْدِ أَسْرَعُ
فخانُوا وقد أعْطَوا يَداً وتَخاذَلُوا ... أَبَى اللهُ إلا أَمْرُهُ وهْوَ أَصْنَعُ[4]

رده على عمرو بن العاص يوم أحد:

ولما تصدى عمرو بن العاص شاعر قريش والذي كان من فرسانها في الجاهلية ، وهو يعير المسلمين ويستهزئ بهم حينما أصابتهم هزيمة في يوم أحد ، ويقول أبياتاً من الشعر في ذلك جاء فيها ما يلي:

خَرَجْنا مِنَ الفَيْفا عَلَيهِم كَأَنَّنا ... مَعَ الصُّبحِ من رَضْوَى الحَبيكُ المُنَطَّقُ[5]
تَمَنَّتْ بَنُو النَّجارِ جَهْلاً لِقاءَنا ... لَدَى جَنْبِ سَلْعٍ ، والأَمَانِيُّ تَصْدُقُ
فَمَا راعَهُمْ بالشَّرِ إلا فَجاءَةً ... كَرَادِيسُ خَيْلٍ في الأَزِقَّةِ تَمْرُقُ[6]
أَرَادُوا لِكَيْمَا يَسْتَبِيحُوا قِبَابَنَا ... ودُونَ القِبَابِ اليومَ ضَرْبٌ مُحَرَّقُ

رد عليه كعب بن مالك بنقيضة تماثلها في القافية والرديف ، وكان رداً قاسياً نستطيع أن نقدّر ذلك في أبياته التالية:

أَلا أَبْلِغَا فِهْراً على نَأْيِ دَارِهَا ... وعِنْدَهُمُ مِنْ عِلْمِنَا اليَومَ مَصْدَقُ
بأَنَّا غَداةَ السَّفْحِ مِنْ بَطْنِ يَثْرِبٍ ... صَبَرْنا ، ورَاياتُ المَنِيَّةِ تَخْفِقُ[7]

(١) يسفع: يحرق ويوسم بالكي.
(٢) أضرع: ذليل.
(٣) الفروغ: الطعنات الواسعة ، عزالى: جمع عزلاء ، فم القربة ، يتهزع: بمعنى يتقطع.
(٤) أعطوا يداً: استسلموا (السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٤١ ـ ١٤٢).
(٥) الحبيك: الطريق أو ما فيه طرائق ، المنطق: من النطاق ، المشدود بالنطاق أو موضع النطاق.
(٦) كراديس: جمع كردوسة ، جماعات الخيل ، وطائفة عظيمة من الجيش ، تمرق: بمعنى تخرج.
(٧) يريد بالسفح سفح جبل أحد ، موقع المعركة.

صَبَرْنا لَهُمْ ، والصَّبرُ مِنَّا سَجِيَّةٌ ... إذا طَارَتِ الأَبْرَامُ نَسْمُو ونَرْتُقُ[1]
على عَادةٍ تِلْكُمْ جَرَيْنَا بصَبْرِنَا ... وقُدْماً لَدَى الغَاياتِ نَجْرِي فَنَسْبِقُ
لَنَا حَوْمَةٌ لا تُستَطَاعُ ، يَقُودُها ... نَبِيٌّ أَتَى بالحَقِّ عَفٌّ مُصَدَّقُ[2]
أَلا هَلْ أَتَى أَفْنَاءَ فِهْرِ بنِ مَالِكٍ ... مُقَطَّعُ أَطْرَافٍ وهَامٌ مُفَلَّقُ[3]

شهوده في الموقف الحزين في هذه الغزوة:

وفي هذه الغزوة استُشْهِد حمزة بن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله وغيره من الشهداء فمثِّل بهم المشركون غيظاً وعداوة وبقرت هند بنت عتبة بطن حمزة بن عبد المطلب فأخرجت كبده فَلاكَتْهَا ، ولما فرغ الناس للقتلى بعد عودة المشركين من أحد ، وبدؤوا يبحثون عنهم سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن سعد بن الربيع فبحث عنه رجلٌ من الأنصار[4] فوجدوه جريحاً في القتلى وبه رمق ، فقال له: أمرني رسول الله ـ ﷺ ـ أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات ، فأبْلِغْ رسول الله ـ ﷺ ـ عني السلام ، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنَّا خيرَ ما يجزي نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام ، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم ـ ﷺ ـ ومنكم عين تطرف[5].

وأشرف رسول الله ـ ﷺ ـ على القتلى يوم أحد فقال: أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَى جُرْحُهُ ، اللون لون الدم والريح ريح مسك ، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن ، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر ، وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد.

(١) الأبرام: جمع برم الذي لا يدخل مجلس القوم في الميسر ، والمراد بها اللئام ، نرتق: نصلح.
(٢) حومة القتال أو البحر: معظمه.
(٣) أفناء جمع فنو ، يقال: هو من أفناء الناس ، أي مختلط لا يعلم ممن هو.
(٤) هو محمد بن مسلمة ، كما ذكره الواقدي.
(٥) نستطيع أن نقدر بهذا مدى حب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ وتفانيهم في سبيل الإسلام وأنهم لم يهتموا بشيء حتى بأنفسهم أمام أداء المسؤولية وإعلاء كلمة الله تعالى.

وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ يلتمس حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنه عن كبده ومُثِّل به ، فجُدِعَ أنفُه وأذناه ، فحزن رسول الله ـ ﷺ ـ لهذا المنظر ، وقال: لن أصابَ بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا ، ثم أمر بحمزة فسُجِّيَ ببردة ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ثم أتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة فصلى عليهم وعليه معهم حتى صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة .

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه وكانت شقيقته ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لابنها الزبير بن العوام: الْقَهَا فأرجِعْها لاترى ما بأخيها ، فقال لها: يا أمه ، إن رسول الله ـ ﷺ ـ يأمرك أن ترجعي ، قالت: ولِمَ وقد بلغني أَنْ قد مُثِّلَ بأخي وذلك في الله فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ ـ إن شاء الله ـ ، فلما جاء الزبير إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره بذلك قال: خَلِّ سبيلها ، فأتته فنظرت إليه ، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله ـ ﷺ ـ فدفن[1] .

شعره في رثاء حمزة بن عبد المطلب:

وحزن المسلمون لِمَا حَزِنَ له رسول الله ـ ﷺ ـ وقالوا في ذلك أبياتاً أو قصائد من الشعر ومن بينهم كعب بن مالك الذي رثى حمزة بن عبد المطلب وقتلى أحد ، فقال قصيدته التي قالها فيهم وبدأها بقوله:

نَشَجْتَ وهَلْ لَكَ مِنْ مَنْشَجِ ... وكُنْتَ مَتَى تَذْكُرْ تَلْجَجِ[2]
تَذَكُّرُ قَوْمٍ أَتَانِيْ لهُمْ ... أَحَادِيثُ في الزَّمنِ الأَعْوَجِ
فقَلبُكَ مِنْ ذِكْرِهِمْ خَافِقٌ ... مِنَ الشَّوقِ والحُزْنِ المُنْضِجِ
وقَتلاهُمْ في جِنَانِ النَّعيمِ ... كرامُ المَداخلِ والمَخْرَجِ
بمَا صَبَروا تَحْتَ ظِلِّ اللواءِ ... لِواءِ الرَّسولِ بِذِي الأَضْوَجِ[3]
غَدَاةَ أَجَابَتْ بأَسْيَافِها ... جَمِيْعاً بَنُو الأوْسِ والخَزْرَجِ

(١) اقرأ السيرة النبوية لابن هشام: ج/ ٣ ، ذكر غزوة أحد.
(٢) نشجت: بمعنى بكيت ، والنشيج صوت البكاء ، تلجج من اللجج وهو التمادي وهو الإصرار على شيء ، بفك الإدغام.
(٣) أضوج: بضم الواو ، جمع ضوج ، منعطف الوادي ، والأضوج: اسم مكان بعينه كذلك.

وأشيَاعِ أَحمدَ إذ شَايَعُوا ... علَى الحَقِّ ذِي النُّوْرِ والمَنْهجِ[1]
فمَا بَرِحُوا يَضْرِبُونَ الكُمَاةَ ... ويَمْضُونَ في القَسْطلِ المُرهَجِ[2]
كذلِكَ حتَّى دَعاهُمْ مَلِيكٌ ... إلَى جنَّةِ دَوْحَةِ المَوْلِجِ[3]
فكُلُّهُمُ مَاتَ حُرَّ البَلاءِ ... علَى مِلَّةِ اللهِ لَمْ يَخْرُجِ[4]
كحَمْزَةَ لَمَّا وَفَى صَادقاً ... بذِي هَبَّةٍ صَارِمٍ سَلْجَجِ[5]
فَلاقَاهُ عَبْدُ بَنِي نَوْفَلٍ ... يُبَرْبِرُ كالجَمَلِ الأَدْعَجِ[6]
فأَوْجَرَهُ حَرْبَةً كالشِّهَابِ ... تَلَهَّبُ في اللَّهَبِ المُوْهَجِ[7]
ونُعْمَانَ أَوْفَى بمِيثَاقِهِ ... وحَنْظَلَةُ الخَيرِ لَمْ يُحْنَجِ[8]
عَنِ الحَقِّ حَتَّى غَدَتْ رُوْحُهُ ... إلَى مَنْزِلٍ فَاخِرِ الزِّبْرِجِ[9]
أولَئِكَ لا مَنْ ثَوَى مِنْكُمُ ... مِنَ النَّارِ في الدَّرْكِ المُرْتَجِ[10]

شعره في الرد على شعراء المشركين:

وسمع المشركون هذه القصيدة الغراء في شهداء أحد وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب فطلبوا شاعرهم الكبير ضرار بن الخطاب الفهري أن يجيب عليها فأجاب بقصيدة مماثلة ومطلعها:

أَيجزَعُ كعبٌ لأشيَاعِهِ ... ويَبْكِي مِنَ الزَّمنِ الأَعْوَجِ[11]

(١) شايعوا: بمعنى تابعوا ، المنهج: الطريق الواضح.
(٢) القسطل: الغبار الساطع في الحرب ، المرهج: بفتح الهاء ، الغبار المثار.
(٣) الدوحة: الشجرة العظيمة ذات الأغصان الكثيرة ، المولج موضع الدخول.
(٤) حر البلاء: بمعنى خالص البلاء والاختبار.
(٥) بذي هبّة بتشديد الباء ، يريد بهبة السيف وقوعه بالعظم ، سلجج: من الطعام ما يكون سهل الابتلاع لذيذاً ، والمراد به هنا ، سيف مرهف ، يصل إلى العظم بلا عسر.
(٦) يبربر: يصيح في غضب ، الأدعج: الأسود.
(٧) أوجره: بمعنى طعنه بالرمح في فيه ، الموهج ، الموقد.
(٨) لم يحنج: يعني لم ينصرف عن جهته التي أرادها ، عن الحق.
(٩) الزبرج: الزينة من وشي أو نحوه.
(١٠) الدرك بالفتح والدرك بالسكون ، بمعنى أقصى قعر الشيء.
(١١) بعض أهل العلم ينكرها لضرار بن الخطاب الفهري ، هكذا قال ابن هشام في سيرته.

وقد عيَّر فيها المسلمين بمصارع الشهداء ، وافتخر بقريش وجماعة المشركين وما أبلوا في الحرب من بلاءٍ حسن ـ كما زعم ـ حتى ختم قصيدته بهذا البيت :

فـدُسْنَـاهُـمُ ثَـمَّ حتـى انثَنَـوا ... سِـوَى زاهـقِ النَّفْـسِ أو مُحْـرَجِ

وقد وجد الشعراء مجالاً واسعاً في هذه المناسبة ففاضت قرائحهم بأبيات وقصائد من الشعر ، وكثير منهم عاود الكلام وكرر القريض ، فهذا عمرو بن العاص الشاعر القرشي أنشد قصيدة أخرى حول هذه الحرب تظاهر فيها بالفخر والاعتزاز بنفسه وقومه ، وهنا مطلع القصيدة :

لَمَّـا رأيـتُ الحـربَ يَنْـزُو ... شَـرُّهـا بـالـرَّضْـفِ نَـزْوَاً

رد عليه كعب بن مالك بقصيدة غراء خاطب فيها أهل قريش وهددهم بالمصير المظلم ما داموا متعنتين ، وعيرهم بالكفر والكذب الذي اعتمدوا عليه في بيان مفاخرهم وبطولاتهم ، وأكد لهم أن القتل الذي يعيروننا به إنما هو شهادة لنا وفضيلة لا تعادلها نعمة ، وإن المسلمين يمارسون الحرب طاعة لله والرسول ﷺ لا نزولاً على الهوى وإشفاء لغليل الحقد والنقمة ، فكيف يستوي الكافر والمؤمن ، ولننشد الآن هذه القصيدة :

أَبْلِغْ قُـريشـاً وخيـرُ القـولِ أَصـدقُـهُ ... والصِّـدقُ عنـدَ ذَوِي الأَلْبَـابِ مَقْبُـولُ

أَنْ قَـدْ قَتَلْنَـا بقَتْـلانـا سـراتَكُـمُ ... أَهْـلَ اللـواءِ ففيمـا يَكْثُـرُ القِيْـلُ[1]

ويَـوْمَ بَـدْرٍ لَقِينَـاكُـمْ لَنـا مَـدَدٌ ... فيـهِ مَـعَ النَّصـرِ ميكـالٌ وجِبـريـلُ

إنْ تَقتلـونَـا فـدِيـنُ الحـقِّ فِطْـرتُنَـا ... والقتـلُ فـي الحـقِّ عنـدَ اللهِ تفضيـلُ

وإنْ تَروا في أَمْرِنا في رأيِكُمْ سَفَهَاً ... فـرأيُ مَـنْ خَـالَـفَ الإسـلام تَضْلِيـلُ

فَـلا تَمَنَّـوا لِقَـاحَ الحَـربِ وَاقْتَعِـدُوا ... إنَّ أخَا الحَرْبِ أَصْدَى اللَّونِ مَشْغُولُ[2]

---

(١) سراة: جمع سريّ ، وجهاء القوم وخيارهم ، السريّ ، السيد ، الشريف السخي ، صاحب المروءة ، جمعه سراة ، وسرى ، وأسرياء ، والسراة ، بمعنى الظهر ، مفرد ، وجمعه سروات ، ويقال: سروات القوم سادتهم.

(٢) اللقاح: ماء الفحل من الإبل والخيل ، ولقاح الحرب ، نموّها وزيادتها ، أصدى اللون ، ما يشبه لونه الصدأ الذي يعلو الحديد ، وهو ما بين السواد والحمرة.

إنَّ لَكُـمْ عِنْـدَنَـا ضـربـاً تُـرَاحُ لَـهُ ... عُـرْجُ الضِّبَـاعِ لَـهُ خَـذْمٌ رَعَـابِيـلُ[1]

إنَّـا بَنـي الحَـربِ نُمـريهـا ونُنْتِجُهـا ... وعنـدَنـا لـذَوي الأضْغـانِ تنكيـلُ[2]

إنْ يَنْجُ منها ابْنُ حَرْبٍ بَعْدَ مَا بَلَغَتْ ... منـه التَّـراقِـيْ ، وَأَمْـرُ اللهِ مَفْعُـولُ[3]

فَقَـدْ أَفَـادَتْ لَـهُ حُلْمـاً وَمَـوْعِظَـةً ... لِمَـنْ يَكُـونُ لَـهُ لُـبٌّ وَمَعقُـولُ

ولـو هَبطتُـمْ ببَطْـنِ السَّيـلِ كـافَحَكُـمْ ... ضَـرْبٌ بشَـاكِلـةِ البطحـاءِ تَـرْعِيـلُ[4]

تَلْقَـاكُـمُ عُصُـبٌ حـولَ النَّبـيِّ لَهُـمْ ... ممّـا يُعِـدُّون للهَيجَـا سَـرابِيـلُ[5]

مـن جِـذْمِ غَسَّـانَ مستَـرخٍ حمـائلُهُـمْ ... لا جُبَنَـاءُ ولا مِيـلٌ مَعـازِيـلُ[6]

يَمْشُـونَ تَحْـتَ عَمَـايـاتِ القتـالِ كَمَـا ... تَمْشي المَصَاعِبَةُ الأُدْمُ المراسيلُ[7]

أو مِثـلَ مَشْـي أُسُـودِ الظِّـل أَلْثَقَهـا ... يَـوْمٌ رذاذٍ مـن الجـوزاءِ مشمـولُ[8]

فـي كـلِّ سـابغـة كـالنَّهْـيِ مُحْكَمَـةٍ ... قيـامُهـا فَلَـجٌ كـالسَّيـفِ بُهْلُـولُ[9]

تَـرُدُّ حَـدَّ قِـرامِ[10] النَّبـلِ خَـاسِئَـةً ... ويَـرْجِـعُ السَّيـفُ عنهـا وهْـوَ مَفْلُـوْلُ

---

(١) تراح: من راح يراح راحة ورياحة وأريحية للأمر ـ إذا فرح به وأقبل عليه ، عرج: جمع أعرج ، وضباع: جمع ضبع ، سبع معروف ، خذم ـ قطعة من شيء ، والمراد هنا قطع اللحم ، رعابيل: جمع رعبولة ، القطعة من اللحم.

(٢) نمريها: بمعنى نستدرها ، ننتجها: من نتاج الناقة ، بمعنى نولدها.

(٣) بلغت منه التراقي ، يعني شارف الموت.

(٤) شاكلة: طرف ، البطحاء: وجمعها بطاح وبطائح: مسيل من الوادي واسع فيه رمل ودقاق الحصى ، ترعيل: تقدم في الحرب سريع.

(٥) عُصُب: جمع عصبة ، الجماعة.

(٦) الجذم بكسر الجيم: الأصل ، حمائل: جمع حمالة وحميلة ، بمعنى علاقة السيف ، ميل: جمع أميل ، من يميل على سرج الخيل إلى جانب ، معازيل: جمع معزال: من لا سلاح معه.

(٧) عمايات القتال: ظلماته ، المصاعبة: جمع مصعب: الفحل ، الفرس الذي صار صعباً لعدم الركوب ، الأدم: جمع آدم ، بمعنى سمر اللون ، المراسيل: جمع مرسال ، ناقة سهلة السير.

(٨) ألثقها: بمعنى بللها ، الرذاذ ، المطر الخفيف ، الجوزاء برج في السماء ، مشمول ، الذي هبت عليه ريح الشمال.

(٩) سابغة: المراد بها الدرع الكاملة المحكمة النسج ، النهي ، الغدير من الماء أو شبهه ، قيامها: أي ما تقوم به الدرع وعمادها ، فلج: الصبح ، ومعناه النهر كذلك ، بهلول: أبيض اللون ، ضحاك.

(١٠) قرام: موضع الجلدة التي تقطع من أنف البعير ، وقرام النبل: سنانها.

ولو قذفتُمْ بسَلْعٍ عن ظهورِكُمُ ... وللحياةِ ودَفْعِ الموتِ تأجيلُ
ما زالَ في القومِ وَتْرٌ مِنكُمُ أبداً ... تَعْفُو السَّلامُ عليهِ وهْوَ مَطْلُولُ(١)
عبْدٌ وحرٌّ كريمٌ موثِقٌ قَنَصاً ... شطرَ المدينةِ، مأسورٌ ومَقتولُ(٢)
كُنَّا نُؤَمِّلُ أُخْراكُمْ فأعجَلَكُمْ ... مِنَّا فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيْلُ
إذا جَنَى الجَانِيْ فَقَدْ عَلِمُوا ... حَقّاً بأنَّ الَّذِيْ قَدْ جَرَّ مَحْمُولُ
ما نَحنُ لا نَحنُ(٣) مِنْ إثمٍ مُجَاهَرَةً ... ولا مَلُومٌ ، ولا فِي الغُرْمِ مَخْذُولُ

قصيدته في رثاء سيد الشهداء :

وهذه قصيدة قالها كعب بن مالك ، وهو يرثي سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، وهي تتضمن معاني الألم والحزن على الصنيعة التي قام بها المشركون نحوه ، ومعاني الاستبشار والفرح بالشهادة التي أكرمه الله بها ، فهو يدخل الجنة ـ بإذن الله تعالى ـ ، بينما يدخل قتلى المشركين نار جهنم خالدين فيها أبداً:

طَرقَتْ هُمومُكَ فالرُّقادُ مُسَهَّدُ ... وجَزِعْتَ أَنْ سُلِخَ الشَّبابُ الأَغْيَدُ(٤)
وَدَعَتْ فؤادَكَ للهَوَى ضَمْرِيَّةٌ ... فهَواكَ غَورِيٌّ وصَحْوُكَ مُنْجِدُ(٥)
فَدَعِ التَّمادِيَ في الغَوايةِ سَادِراً ... قَدْ كُنتَ في طلبِ الغَوايةِ تَفْنَدُ(٦)
ولقَدْ أتى لكَ أن تُنَاهِيَ طائِعاً ... أو تَسْتفيقَ إذا نَهاكَ المُرْشِدُ
ولقد هُدِدْتُ لفَقْدِ حَمْزةَ هَدَّةً ... ظَلَّتْ بَنَاتُ الجَوْفِ منها تَرْعَدُ(٧)

(١) تعفو عليه: بمعنى تطلبه ، يريد أن الحجارة تطلب انتقامها منهم على ذلك الدم المهدر ، الوتر: الانتقام ، السِلام: جمع سِلمة بكسر اللام ، الحجارة ، مطلول: الدم المهدر الذي لم يثأر له.
(٢) موثق قنصاً: مشدّدٌ صيده بالوثاق ، شطر المدينة: بمعنى توجه إلى المدينة.
(٣) وفي النسخة الألمانية من السيرة النبوية لابن هشام (ما يجن لا يجن).
(٤) مسهد من السهد ، وهو عدم النوم (الأرق) أو قلة النوم ، والمعنى رقاد مسهد ، سلخ: بمعنى انقضى ومضى ، الأغيد: الناعم.
(٥) ودعت: تركت ، أو الواو للاستئناف ، ودعت: فعل ماض للمؤنث ، من دعا ، ضمرية: نسبة إلى قبيلة ضمرة ، والمراد حبيبة ضمرية ، غوري: نسبة إلى الغور وهو المنخفض من الأرض ، منجد: نسبة إلى النجد وهو المرتفع من الأرض.
(٦) تفند: بمعنى يكذب رأيك.
(٧) بنات الجوف: يريد بها القلب وما يحويه.

ولَوَ انَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءُ بِمثلِهِ ... لرَأَيْتُ رَأْسَيْ صَخْرِهَا يَتَبَدَّدُ(١)
قَرْمٌ تمكَّنَ في ذُؤَابَةِ هاشِمٍ ... حَيْثُ النُّبُوَّةُ والنَّدى والسُّؤددُ(٢)
والعاقِرُ الكُوَمَ الجِلادَ إذا غَدَتْ ... رِيحٌ يكادُ الماءُ مِنهَا يَجْمُدُ(٣)
والتَّارِكُ القِرنَ الكمِيَّ مُجَدَّلاً ... يومَ الكَرِيهَةِ والقَنَا يَتَقَصَّدُ(٤)
وتَراهُ يَرْفُلُ في الحَدِيدِ كأنَّهُ ... ذو لِبْدَةٍ شَثْنُ البَراثِنِ أَزْبَدُ(٥)
عَمُّ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ وصَفِيُّهُ ... وَرَدَ الحِمَامَ فطابَ ذاك المَوْرِدُ(٦)
وأَتَى المَنِيَّةَ مُعْلِماً في أُسْرَةٍ ... نَصَرُوا النَّبيَّ ومنهمُ المُستشهدُ(٧)
ولَقَد أَخَالُ بذَاكَ هِنْداً بُشِّرَتْ ... لتُمِيْتُ داخِلَ غُصَّةٍ لا تَبْرُدُ
مِمَّا صَبَحْنَا بالعَقَنْقَلِ قَومَهَا ... يوماً تَغَيَّبَ فيهِ عنها الأَسْعدُ(٨)
وبِبِئْرِ بَدْرٍ إذ يَرِدُّ وجُوهَهُمْ ... جِبْرِيْلُ تَحْتَ لِوَائِنَا ومُحَمَّدُ
حتَّى رأيتُ لدى النبيِّ سَراتَهُمْ ... قِسْمَيْنِ: يَقْتُلُ مَنْ نَشَاءُ ويَطْرُدُ
فأقَامَ بالعَطَنِ المُعَطَّنِ منهمُ ... سَبْعونَ ، عُتْبَةُ منهمُ والأَسْوَدُ(٩)
وابنُ المُغِيْرَةِ قد ضربْنَا ضَربةً ... فوقَ الوَرِيدِ لها رَشَاشٌ مُزْبِدُ
وأُمَيَّةُ الجُمَحِيُّ قَوَّمَ مَيلَهُ ... عَضْبٌ بأَيْدِي المؤمنينَ مُهَنَّدُ
فأَتَاكَ فَلُّ المشركينَ كأنَّهمْ ... والخَيلُ تَنْفِنُهُمْ نِعَامٌ شُرَّدُ(١٠)
شَتَّانَ مَنْ هُوَ في جهنَّمَ ثاوِياً ... أبداً ، ومَنْ هُوَ في الجِنَانِ مُخَلَّدُ

(١) حراء: جبل ، وضمير المؤنث إليه على تأويل بقعة.
(٢) القرم: السيد الشريف ، ذؤابة: بمعنى قمة.
(٣) الكوم: جمع كوماء ، ناقة عظيمة السنام ، الجلاد ، ذات القوة ، وتجمد الماء بالريح الباردة كناية عن شدة الشتاء ، وأيام الجدب والجفاف.
(٤) مجدلاً: مصروعاً على الأرض ، يتقصد: بمعنى يتحطم.
(٥) ذو لبدة: يريد به الأسد ذا اللبدة ، واللبد: الشعر الذي يكون على كتفي الأسد ، أربد: الأغبر.
(٦) الحمام: بكسر الحاء، الموت.
(٧) معلماً: بمعنى واسماً نفسه بسمة الحرب.
(٨) صبحنا قومها ، فاجأنا قومها وقت الصباح ، العقنقل: الكثيب من الرمل.
(٩) العطن: مبرك الإبل حول الماء.
(١٠) الفلّ: الجماعة المنهزمة ، تثفنهم: بمعنى تطاردهم وتقتفي آثارهم.

يحث صفية بنت عبد المطلب على بكائها لحمزة ـ رضي الله عنه ـ :

وقال: يخاطب صفية بنت عبد المطلب ويحثها على البكاء لشقيقها حمزة ـ رضي الله عنه ـ:

صَفِيَّـةُ قُـومِـي ولا تعجَـزي ... وَبَكِّـي النِّسـاءَ علـى حَمْـزَةِ
وَلا تَسْـأمِـيْ أن تُطيلـي البُكـاءَ ... علَـى أسَـدِ اللهِ فـي الهِـزَّةِ[1]
فقَـدْ كـانَ عِـزّاً لأيتَـامِنَـا ... ولَيْـثَ المَـلاحِـمِ فـي البِـزَّةِ[2]
يُـريـدُ بـذَاكَ رِضَـا أَحْمَـدٍ ... ورِضْـوانَ ذي العَـرْشِ والعِـزَّةِ

وهذه قصيدة أخرى يرثي بها عثمان بن عفان رضي الله عنه:

يـا لَلـرجَـالِ لأمْـرٍ هَـاجَ لِـيْ حَـزَنَـاً ... لقد عَجِبتُ لمَنْ يَبكِيْ على الدِّمَنِ[3]
إنِّـي رأيـتُ قَتيـلَ الـدَّارِ مُضطَهـداً ... عُثمانَ يَهدي إلى الأجْداثِ في كَفَنِ[4]
يـا قَـاتَـلَ اللهُ قَـوْمـاً كـانَ أمْـرُهُـمُ ... قَتْـلَ الإمَـامِ الـزَّكـيِّ الطِّيـبِ الـرُّدنِ[5]
مَـا قَـاتَلُـوهُ علـى ذَنْـبٍ ألَـمَّ بـهِ ... إلاَّ الـذِيْ نَطَقُـوا زُوْراً ولَـمْ يَكُـنِ[6]
قَـدْ قَتَلُـوهُ وأصحَـابَ النَّبـيِّ معـاً ... لَـوْلا الَّـذي فعَلُـوا لَـمْ نُبْـلَ بـالفِتَـنِ[7]
قَـدْ قَتَلُـوهُ نَقِيَّـاً غَيْـرَ ذِي أبَـنٍ ... صلَّـى الإلـهُ علـى وجْـهٍ لـهُ حَسَـنِ[8]
قَـدْ جَمَّـع الحِلْـمَ والتَّقـوى لمَعْصَمَـةٍ ... مـعَ الخِـلافـةِ أمْـراً كـانَ لَـمْ يَشُـنِ[9]
هُنَّـا بـهِ كـانَ رأيٌ فِـيْ قَـرابَتِـهِ ... لَمْ يَخْطُ شيئاً مِنَ الدُّنْيا ولَمْ يَخُنِ[10]

---

(١) الهزة: يريد بها الاهتزاز والاضطراب في ساحة الحرب.
(٢) الملاحم: جمع ملحمة، كل حرب يكثر فيها القتل والالتحام، البزة: السلاح، الثياب، الهيئة، والمراد هنا، السلاح.
(٣) الحزن: بمعنى الحزن، الدمن: جمع دمنة: آثار الدار بعد أن غاب عنها أهلها.
(٤) الأجداث: القبور، جمع جدث.
(٥) الرُّدن: جمع ردن، وهو كُمّ القميص، طيب الأرادن: كناية عن طهارة المرء وصلاحه.
(٦) إنهم اتهموه زوراً وبهتاناً بما ليس فيه.
(٧) لم نبل: من البلاء وهو شر المصاب.
(٨) أبن: جمع أبنة: وهي العيب والنقص.
(٩) المعصمة: البعد عن الخطأ، الشين: العيب وعكسها الزين.
(١٠) لعل في البيت تضعيفاً ولا سيما في صدره.

قصائده في يوم أحد:

ولكعب بن مالك عدة قصائد في يوم أحد، تحدث فيها عما جرت فيه من أمور، وما واجه فيه المسلمون من محنة، وما كان فيه من المشركين من تبجح، فذكر فيها ممارسة المسلمين للقتال واعتمادهم على الله تعالى وثقتهم في نصره، وطاعتهم لله وللرسول الكريم ـ ﷺ ـ في جميع شؤون الحياة، وإليكم هذه القصيدة الطويلة التي تتضمن تسعة وعشرين بيتاً:

إنَّـكِ عَمْـرَ أبيـكِ الكـريـ ... م أنْ تَسـألِـيْ عَنْـكِ مَـنْ يَجْتَـدِيْنـا[1]
فَـإنْ تسـألِـيْ ثُـمَّ لا تُكْـذَبِـي ... يُخَبِّـرْكِ مَـنْ قَـدْ سَـألْـتِ اليَقِيْنـا
بـأنَّـا لَيَـالِـيَ ذاتِ العِظـا ... مِ كُنَّـا ثِمَـالاً لِمَـنْ يَعتَـرِيْنَـا[2]
تَلـوذُ البُجُـودُ بـأذْرَائِنَـا ... مِـنَ الضُّـرِّ فـي أزَمَـاتِ السِّنِينـا[3]
بجَـدوَى فُضُـولِ أُوْلـي وَجْـدِنَـا ... وبـالصَّبـرِ والبَـذلِ فـي المُعْـدَمِينـا[4]
وأبقَـتْ لنـا جَلَمَـاتُ الحُـرو ... ب مِمَّـنْ نُـوازِي لَـدُنْ أنْ بُـرِيْنَـا[5]
مَعـاطِـنَ تَهْـوِي إلَيْهَـا الحُقُـو ... قُ يحسَبُهَـا مَـنْ رآهـا الفَتِينـا[6]

---

(١) العمر: بفتح العين وسكون الميم، الحياة والدين، ويقال في القسم: لعمري، أي لديني، ولعمر الله وعمر الله ما فعلت كذا، بالنصب على المصدرية، وإذا أدخلت عليه اللام فلا يجوز فيه إلا الرفع، وكذلك لعمر أبيك، وعمر أبيك، اجتدى: بمعنى طلب جدواه، والجدوى، العطية.
(٢) ثمال القوم، غياثهم الذي يقوم بأمرهم.
(٣) البجود: جمع بجد، بمعنى جماعات الناس، والبجد من الخيل مائة أو أكثر، أذراء، جمع ذرى فناء الدار ونواحيها، أزمات جمع أزمة، وأزمة، بمعنى الشدة، والضيق، والقحط، ويقال: أزم عليه الدهر، بمعنى اشتد، السنين، بإعراب الجر جمع سنة، بمعنى القحط والجدب.
(٤) الجدوى: العطية، الوجد بالضم والكسر، بمعنى الغنى والقدرة، المعدم: الفقير، مِن أعدمَ المال، يستعمل لازماً ومتعدياً.
(٥) جلمات: جمع جلم، جمع مؤنث سالم، بمعنى المقص، نوازي بمعنى نساوي، برينا من برأ، يعني خلقنا.
(٦) معاطن: جمع معطن، مواضع الإبل حول الماء ولكن المراد هنا الإبل نفسها، الفتين: الأرض الحرة السوداء، كأن حجارتها محرقة بالنار، جمعه فتن.

تَخِيْسُ فيها عِتَاقُ الجِمَا ... ل صُحْمَاً دواجِنَ حُمْراً وَجُونا[1]

ودَفَّاعُ رَجُلٍ كَمَوجِ الفُرا ... ت يَقْدُمُ جَأْوَاءَ جُولاً طَحُونَا[2]

تَرَى لونَها مثلَ لَوْنِ النُّجُو ... مِ رَجْرَاجَةً تُبْرِقُ النَّاظِرِيْنَا[3]

فإنْ كنتَ عن شأنِنَا جَاهِلاً ... فسَلْ عنه ذا العِلمِ ممَّن يَلينا

بِنَا كَيْفَ نفعَلُ إنْ قُلِّصَتْ ... عَواناً ضَرُوساً عَضُوضاً حَجُونا[4]

أَلَسْنَا نَشُدُّ عليْها العِصَا ... بَ حَتَّى تَدُرَّ ، وحتَّى تَلِينا[5]

وَيَومٌ لَهُ وَهَجٌ دائِمٌ ... شديدُ التَّطَوُّلِ حَامِي الأَرِينا[6]

طويلٌ شديدُ أُوَارِ القتا ... لِ تنفِي قَوَاحِزَهُ المُقْرِفِينَا[7]

تَخَالُ الكُمَاةَ بأعراضِهِ ... ثِمَالاً على لَذَّةٍ مُنْزَفِينَا[8]

تُعَاوِرُ أَيمَانُهُم بَيْنَهُمْ ... كؤوسَ المَنَايا بحَدِّ الظُّبينا[9]

(١) تخيس بمعنى تذلل ، صحم ، جمع أصحم ، ما لونه بين الخضرة والسواد ، دواجن: جمع داجنة ، بمعنى مقيمة في الأرض ، جون بفتح الجيم من الأضداد بمعنى الأبيض والأسود ، والجون من الخيل والإبل ، الشديد السواد ، جمعه جون بضم الجيم.

(٢) دفاع: ما يندفع من السيل ، الرجل يعني الرجالة ، والمراد بها سيل الجماعة الرجالة ، جأواء: الكتيبة التي يكون لونها من كثرة السلاح كلون السواد والحمرة ، الجول: جانب الجبل ، والمراد به الكتيبة الضخمة ، طحون: من الطحن صيغة المبالغة.

(٣) الرجراجة: كثرة الحركة والاضطراب.

(٤) قلصت: بمعنى انقبضت ، ولكن المراد هنا اشتدت الحرب ، عواناً: الحرب العوان ، أشد الحروب ، حرب ضروس ، شديدة مهلكة ، عضوض: كثيرة العض ، حجون: كثيرة اعوجاج الأسنان.

(٥) العصاب: ما يشد به ضرع الناقة.

(٦) الوهج بفتح الهاء: حر النار أو الشمس الشديد ، والمراد به هنا الحرب التي يشتد أوارها ، التهاول: الهول والخوف ، الأرين: مستوقد النار.

(٧) أوار القتال: حره ، قواحز: جمع قحز ، بمعنى الاضطراب والقلق ، المقرف: النذل ، اللئيم.

(٨) أعراض: أطراف ، ثمال: جمع ثمل ، بمعنى سكارى ، منزفون: مَنْ ذهبت الخمر بعقولهم ، وفي رواية: مترفون ، بمعنى متنعمون.

(٩) تعاور بمعنى تداول ، أيمانهم: يعني أيديهم ، الظبين في حالة الجر: جمع ظبة على وزن جمع السالم ، بمعنى حد السيف أو السنان.

شَهِدنَا فكُنَّا أُولي بَأْسِهِ ... وتَحْتَ العمايَةِ والمُعْلَمِينا[1]

بخُرْسٍ الحَسِيْسِ حِسَانٍ رِواءٍ ... وبُصْرِيَّةٍ قد أجَمْنَ الجُفُونا[2]

فَمَا ينفَلِلْنَ وما يَنْحَنِيْنَ ... وما يَنْتَهِينَ إذا ما نُهينا

كَبَرقِ الخَرِيفِ بأيْدِي الكُمَاةِ ... يُفَجِّعْنَ بالطَّلِّ هامَاً سَكُونَا[3]

وعَلَّمَنَا الضَّرْبَ آباؤُنَا ... وسَوْفَ نُعلِّم أيضاً بَنِيْنَا

جِلادَ الكُمَاةِ ، وبَذْلَ التِّلا ... دِ عَنْ جُلِّ أحسابِنَا ما بَقِيْنَا[4]

إذا مَرَّ قِرْنٌ كَفَى نَسْلَهُ ... وَأَورَثَهُ بَعْدَهُ آخَرِينا[5]

نَشِبُّ وتَهلِكُ آباؤُنَا ... وبَيْنَا نُرَبِّي بَنِينا فَنِيْنَا

سألتُ بِكَ ابنَ الزِّبعرى فلَمْ ... أُنَبَّئْكَ في القَوْمِ إلا هَجِينا[6]

خبيثاً تُطِيْفُ بِكَ المُنْدِيا ... تُ مُقِيماً على اللؤْمِ حِيْناً فَحِيْنا[7]

تَبَجَّسْتَ تهجُو رَسُولَ المَلِيـ ... ـكِ قَاتَلَكَ اللهُ جِلْفاً لَعِيْنَا[8]

تَقُولُ الخَنَا ثُمَّ تَرمِيْ بِهِ ... نَقِيَّ الثِّيَابِ تَقِيّاً أَمِينا[9]

قصيدة أخرى يخاطب بها قريشاً:

وقال أيضاً في يوم أحد ، يخاطب فيها قريشاً ويسألهم عما إذا كانوا قد جربوا

(١) العماء والعماية: السحاب المرتفع ، المعلمين ، الذين يعلمون أنفسهم بعلامة في الحرب فيعرفون بها.

(٢) خرس: جمع أخرس ، الذي لا صوت له ، الحسيس: الصوت الخفي ، ويعني بذلك السيوف الصامتة ، رواء: جمع ريان ، من الري ، ضد العطش ، بصرية: بضم الباء ، نسبة إلى بُصرى ، أجمن: المراد بها سئمن ، وغضبن ، جفون: جمع جفن يعني الغمد.

(٣) بالطل: يعني بإهدار الدم ، ويروى بالظل ، والمراد به ظلال السيوف اللماعة ، هاماً سكوناً ، يعني رؤوساً ثابتة لم تُفصل من الجسم بعد.

(٤) جلاد الكماة، مفعول ثانٍ لفعل نعلم، في البيت السابق، والجلاد معناه المضاربة بالسيوف، والكماة: جمع كمي بمعنى الشجاع، التلاد: المال الموروث القديم، جل بمعنى كل.

(٥) القِرن بالكسر: النظير في الشجاعة أو العلم أو ما أشبههما.

(٦) هجين: اللئيم ، أو الذي أبوه عربي وأمه أمة غير محصنة.

(٧) المنديات: الأمور التي يتندى لها جبين الحياء.

(٨) تبجست: بمعنى تفجرت بالكلام، جلف: غليظ جافٍ أحمق، لعين من اللعن.

(٩) الخنا: الفحش من الكلام، نقي الثياب، بمعنى العفيف الطاهر.

شدة شكيمة المسلمين ومراسهم الحرب في ظل التربية الحكيمة التي تلقوها من رسول الله الكريم -ﷺ-:

سَائِلْ قُريشاً غداةَ السَّفْحِ مِنْ أُحُدِ ... ماذا لَقِينا وما لاقَوا من الهَرَبِ
كنَّا الأُسُودَ وكانوا التَّمْرَ إذْ زَحَفُوا ... ما إنْ نُراقِبُ من آلٍ ولا نَسَبِ
فكَمْ تركْنَا بها مِنْ سَيِّدٍ بَطَلٍ ... حامِي الذِّمارِ كَرِيمِ الجَدِّ والنَّسبِ(١)
فِينا الرَّسولُ شِهَابٌ ثُمَّ يتبَعُهُ ... نورٌ مُضِيءٌ ، له فَضْلٌ على الشُّهبِ
الحقُّ منطِقُهُ ، والعدلُ سيرتُهُ ... فمَنْ يُجِبْهُ إليهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ(٢)
نَجْدُ المُقَدَّمِ ماضِي الهَمِّ ، مُعْتَزِمٌ ... حِينَ القُلوبُ على رَجْفٍ من الرُّعْبِ(٣)
يَمْضِي ويَذْمُرُنَا عَنْ غيرِ معصيةٍ ... كأنَّهُ البَدرُ لم يُطْبَعْ على الكذِبِ(٤)
بَدَا لنا فاتَّبعناه نُصَدِّقُهُ ... وكذَّبُوه ، فكُنَّا أسعدَ العربِ
جالُوا وجُلْنا فما فَاؤُوا وما رَجَعُوا ... ونَحْنُ نَثْفِنُهُمْلم نَأْلُ في الطَّلبِ(٥)
لَيْسا سَواءً ، وشَتَّى بينَ أمرِهما ... حزبُ الإلهِ وأهلُ الشِّركِ والنُّصُبِ(٦)

قصيدة أخرى في الرثاء:

وهذه قصيدة أخرى له في رثاء حمزة بن عبد المطلب أنشدها أبو زيد الأنصاري لابن هشام ، ولكن ابن إسحاق ينسبها إلى عبد الله بن رواحة ، والصواب عند الله:

بكَتْ عَينِيْ وحُقَّ لها بُكَاها ... وما يُغْنِي البكاءُ ولا العَويلُ
على أسَدِ الإلٰه غَداةَ قالُوا ... أحَمْزةُ ذاكمُ الرجلُ القَتِيلُ
أُصِيْبَ المُسلمونَ بهِ جَمِيْعاً ... هناكَ ، وقد أُصِيبَ بهِ الرَّسولُ
أَبَا يَعْلَى لكَ الأركانُ هُدَّتْ ... وأنتَ الماجِدُ البَرُّ الوَصُولُ(٧)
عليكَ سلامُ ربِّكَ في جِنانٍ ... مُخَالطُهَا نعيمٌ لا يَزولُ

(١) الذمار: ما يجب حمايته والدفع عنه من الأهل والعرض والحرم.
(٢) التبب: مصدر تب بالتشديد بمعنى الهلاك.
(٣) نجد المقدم: بمعنى الشجاع المقدام، رجف: اضطراب من الخوف الشديد.
(٤) يذمرنا: بمعنى يلومنا مع حض على الأمر ، لم يطبع: لم يخلق.
(٥) نثفنهم: ندفعهم ونضربهم.
(٦) شتى: بمعنى شتان ، النصب: الأصنام والتماثيل التي اتخذت إلهاً من دون الله تعالى.
(٧) أبو يعلى: كنية حمزة بن عبد المطلب.

أَلا يَا هَاشِمَ الأَخْيَارِ صَبْراً ... فكلُّ فِعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيْلُ
رسولُ الله مُصْطَبِرٌ كَرِيْمٌ ... بأَمْرِ اللهِ يَنْطِقُ إِذْ يَقُولُ
أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي لُؤَيّاً ... فَبَعدَ اليومِ دائِلةٌ تَدُولُ(١)
وقَبْلَ اليومِ ما عَرَفُوا وذَاقُوا ... وقائِعَنَا بها يُشْفَى الغَلِيلُ
نَسِيتُمْ ضَرْبَنَا بقُلَيْبِ بَدْرٍ ... غَداةَ أتاكُمُ الموتُ العَجِيلُ
غداةَ ثَوَى أبو جَهْلٍ صَرِيعَاً ... عليهِ الطَّيرُ حائِمةٌ تَجُولُ(٢)
وعتبةُ وابنُه خَرّا جميعاً ... وشيبةُ عَضَّهُ السَّيفُ الصَّقِيلُ
ومَتْرَكُنَا أُمَيَّةَ مُجْلَعِبّاً ... وفي حَيْزومِهِ لَدْنٌ نَبِيلُ(٣)
وهامَ بَنِي رَبِيعةَ سَائِلُوهَا ... ففي أسيافِنَا منها فُلُولُ
أَلا يا هِندُ فابكِي لا تَمَلِّي ... فأنتِ الوالِهُ العَبْرَى الهَبُولُ(٤)
ألا يا هندُ لا تُبْدِي شماتاً ... بحمزةَ ، إنَّ عزكُمُ ذلِيلُ

وقال في يوم أحد كذلك:

أَبْلِغْ قُريشاً على نَأيِهَا ... أتفخَرُ مِنَّا بما لَمْ تَلِي(٥)
فَخَرْتُم بقَتْلَى أصابَتْهُمْ ... فَوَاضِلُ من نِعَمِ المُفْضِلِ
فَحَلُّوا جِنَاناً وأَبْقَوا لكُمْ ... أُسُوداً تُحَامِي عَنِ الأَشْبُلِ(٦)
تُقَاتِلُ عن دِيْنِها وَسْطَهَا ... نَبِيٌّ عنِ الحقِّ لَمْ يَنْكُلِ(٧)

(١) دائلة: يعني بها الحرب.
(٢) حائمة: من حام يحوم إذا دار من عطش.
(٣) متركنا: مصدر ميمي من ترك ، مجلعباً: من اجلعب بمعنى اضطجع وامتد. والمراد به مضطجعاً ممتداً على الأرض ، الحيزوم: وسط الصدر ، جمعه حيازيم ، لدن: بمعنى الرمح اللين ، نبيل: يعني به عظيماً.
(٤) الواله: المرأة التي تتحير من شدة الحزن ، وتفقد رشدها ، العبرى: كثيرة الدموع ، الهبول: المرأة الثكول ، التي فقدت ولدها.
(٥) لم تلي: بمعنى لم تملك.
(٦) الأشبل: جمع شبل ، ولد الأسد.
(٧) لم ينكل: لم يتأخر ولم يرجع.

رَمَتْـــهُ مَعَـــدٌّ بِعُـــوْرِ الكَـــلامِ ونَبْـــلِ العَـــدَاوةِ لا تَـــأْتَلِـــي[1]

شعره بمناسبة حادث بئر مَعونة:

ولمَّا حدث في بئر معونة[2] ما حدث مع أصحاب رسولِ الله ﷺ وذلك في صفر سنة أربعٍ وقتل عدد كبير من خيار المُسلمين الَّذين بعثَهُم الرَّسولُ الكريمُ ﷺ إلى أهل نَجْدٍ بقيادة المنذر بن عمرو بن خُنَيْس بن حارثة بن لَوْذان الأنصاري مع أربعين رجلاً، وقيل: سبعين رجلاً؛ لكي يدعوهم إلى الإسلام. فلمَّا نزلوا بئر معونة بعثوا حَرامَ بن مِلْحَان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطُّفيل وكان سيِّدَ قومه. ولكنَّه لم ينظرْ في كتاب رسول الله ﷺ وعدا على حامل الكتاب وقتله. ثم استصرخ عليهم قبائل من بني سُليمٍ فأجابته عُصَيَّة ورِعْل وذَكْوَان حتَّى قتلوا المسلمين جميعاً. إلا كعب بن زيد الذي ارتُثَّ من بين القتلى وأكرمه الله بالشَّهادة يوم الخندق. وكانت المناسبة حزينةً أليمةً، قال فيها شعراء المسلمين بما فاضت به قرائحهم من الشِّعْر ما عبَّروا فيه عن حزنهم وغيظهم على نكث العهد. وبكَوْا فيه على القتلى. وأنشد كعب بن مالك أبياتاً في بئر معونة يُعيِّر فيها بني جعفر بن كلاب على تركهم نُصرتهم ومن أبياته:

تَـرَكْتُـمْ جَـارَكُـمْ لِبَنـي سُلَيْـمٍ مَخـافَـةَ حَـرْبِهِـمْ عَجْـزاً وَهُـونـا
فلـو حَبْـلاً تَنَـاوَلَ مِـنْ عُقَيْـلٍ لَمَـدَّ بِحَبْلِهَـا حَبْـلاً مَتينـا[3]
أو القُـرَطـاءِ[4] مـا إنْ أَسْلَمُـوهُ وَقِـدْمـاً مـا وَفَـوْا إِذْ لا تَفـونـا

وقد كان في سرح هؤلاء القوم عَمْرو بن أميَّة الضَّمْري والمُنْذِرُ بن عمرو الأنصاري فلم ينبئهما إلا الطَّير تحوم على العسكر. فقالا: والله إن لهذه الطَّير لشأناً

(١) عُور: جمع أعور، والمراد به الكلام القبيح، لا تأتلي: من الائتلاء بمعنى القصر، لا تأتلي: لا تقصر.
(٢) بئر معونة: هي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وقيل: ماء لبني عامر بن صعصعة.
(٣) يريد بقوله: حبلاً: عهداً وذمة، ويروى: (من نفيل) مكان (من عقيل) وهو الصحيح كما قال ابن هشام.
(٤) القُرطاء: قبيلة من هوازن، وهي عربية من نفيل، وقال أبو ذر: القرطاء بطونٌ من العرب من بني كلاب.

فأقبلا لينظرا فإذا القومُ في دمائهم، فقاتلا العدوَّ فَقُتل المنذرُ بن عمرو وأُخِذَ عمرو بن أمية أسيراً. ولما أخبرهم أنه من مضر أطلقوه فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقَرْقَرَةِ[1] من صدر قناة[2] أقبل رجلان من بني عامر فنزلا معه في الظلِّ. وكانا قد حصلا على عقد جوارٍ من رسول الله ﷺ لم يعلم به عمرو بن أمية. فلما ناما عدا عليهما فقتلهما. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ قال له: لقد قتلتُ قتيلين لأدينهما.

قصيدتُهُ في غزوةِ بني النَّضير:

ثمَّ خرج رسول الله ﷺ إلى بني النَّضير يستعينهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمري. فقالوا: نعم يا أبا القاسم نُعِينكَ على ما أَحْبَبتَ مما استعنتَ بنا عليه. ولكنَّهم أرادوا الغدرَ مع النبيِّ الكريمِ ﷺ، الأمرُ الذي كان سبباً لغزوة بني النَّضير، ونزول سورة الحَشرِ فيهما.

وكان من بين ما قيل في بني النَّضير من الشِّعر قصيدةٌ لكعب بن مالك يَذكرُ فيها إجلاء بني النَّضير وقتلَ كعب بن الأشرف يقول:

لَقَـدْ خَـزِيَـتْ بِغَـدْرَتِهَـا الحُبُـورُ كَـذَاكَ الـدَّهْـرُ ذُو صَـرْفٍ يَـدُوْرُ[3]
وَذَلِـكَ أَنَّهُـمْ كَفَـرُوا بِـرَبٍّ عَـزِيْـزٍ أَمْـرُهُ أَمـرٌ كَبِيْـرُ
وَقَـدْ أُوتُـوا مَعـاً فَهْمـاً وَعِلْمـاً وَجَـاءَهُـمُ مِـنَ اللهِ النَّـذِيْـرُ
نَـذِيْـرٌ صَـادِقٌ أَدَّى كِتَـابـاً وَآيَـاتٍ مُبَيِّنَـةً تُنِيْـرُ
فَقَـالُـوا: مَـا أَتَيْـتَ بِـأَمـرِ صِـدْقٍ وَأَنـتَ بِمُنكَـرٍ مِنَّـا جَـدِيْـرُ
فَقَـالَ: بَلَـى لَقَـدْ أَدَّيْـتُ حَقّـاً يُصَـدِّقُنِـي بِـهِ الفَهِـمُ الخَبِيْـرُ
فَمَـنْ يَتْبَعْـهُ يُهْـدَ لِكُـلِّ رُشْـدٍ وَمَـنْ يَكْفُـرْ بِـهِ يُجْـزَ الكَفُـوْرُ
فَلَمَّـا أَشْـرِبُـوا غَـدْرَاً وَكُفْـراً وَحَـادَ بِهِـمْ عَـنِ الحَـقِّ النَّفُـوْرُ
أَرَى اللهُ النَّبِـيَّ بِـرَأْيِ صِـدْقٍ وَكَـانَ اللهُ يَحْكُـمُ لا يَجُـوْرُ
فَـأَيَّـدَهُ وَسَلَّطَـهُ عَلَيْهِـمْ وَكَـانَ نَصِيْـرُهُ نِعْـمَ النَّصِيْـرُ

(١) القرقرة: اسم موضع بينه وبين المدينة ثمانية بُرد.
(٢) قناة: وادٍ يأتي من الطائف إلى القرقرة.
(٣) حبور: جمع حبر يريد بها علماء اليهود.

فَغُودِرَ مِنهُمُ كَعْبٌ صَرِيْعاً ... فَذَلَّتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّضِيْرُ

على الكَفَّيْنِ ثمَّ وَقَدْ عَلَتْهُ ... بِأَيْدِيْنَا مُشَهَّرَةٌ ذُكُوْرُ[1]

بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ إذْ دَسَّ لَيْلاً ... إلَى كَعْبٍ أخا كَعْبٍ يَسِيْرُ[2]

فَمَاكَرَهُ فَأَنْزَلَهُ بِمَكْرٍ ... ومَحْمُودٌ أَخُو ثِقَةٍ جَسُوْرُ

فتلكَ بَنُو النَّضِيرِ بِدَارِ سَوْءٍ ... أَبارَهُمُ بِمَا اجْتَرَمُوا المُبِيْرُ[3]

غَدَاةَ أَتَاهُمُ فِي الزَّحْفِ رَهْواً ... رَسُولُ اللهِ وَهْوَ بِهِمْ بَصِيْرُ[4]

وَغَسَّانُ الحُمَاةُ مُؤَازِرُوْهُ ... عَلَى الأَعْدَاءِ وَهْوَ لَهمْ وَزِيْرُ

فَقَالَ السِّلْمُ، وَيْحَكُمُ، فَصَدُّوا ... وَحَالَفَ أَمرَهُمْ كَذِبٌ وَزُوْرُ[5]

فَذَاقُوا غِبَّ أَمْرِهِمُ وَبَالاً ... لِكُلِّ ثَلاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيْرُ

وَأَجْلَوْا عَامِدِينَ لِقَيْنُقَاعٍ ... وَغُوْدِرَ مِنهُمُ نَخْلٌ وَدُوْرُ

كعب بن مالك يرد على ضرار بن الخطاب:

ولمَّا تصدَّى ضرار بن الخطَّاب بن مرادس الفهري يوم الخندق، يَتبجَّح فيه بجماعته وإعداده الحربيّ ويعيِّر المسلمين المجاهدين وينال من قيمتهم. وقال في ذلك قصيدة مطلعها:

وَمُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بِنَا الظُّنُوْنَا ... وَقَدْ قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُوْنَا

أجابه كعب بن مالك بقصيدة مماثلة في القافية وعدد الأبيات. وهو يردُّ فيها على ما زعمه ضرارٌ من مكانةٍ عاليةٍ له ولجماعتهِ من المشركين، وهو يعتزُّ بالإسلام ونبيِّ الإسلام ﷺ، وبالثقة والإيمان وعقيدة التَّوحيد لله تبارك وتعالى. يقول:

وَسَائِلَةٍ تُسَائِلُ مَا لَقِيْنَا ... وَلَوْ شَهِدَتْ أَرَتْنَا صَابِرِيْنَا

صَبَرْنَا لا نَرَى للهِ عَدْلاً ... عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِيْنَا

(١) مشهرة: يعني سيوفاً مسلولةً مرفوعةً، ذكور: قوية حادة.

(٢) يريد من أخي كعب: سلكان بن سلامة بن سلامة بن وقش، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة.

(٣) أبار يبير إبارةً، بمعنى أهلك، اجترموا: اقترفوا الجريمةَ.

(٤) رهواً: بمعنى سار سيراً رفيقاً.

(٥) السَّلم بالفتح والكسر، بمعنى الصلح.

وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيْرَ صِدْقٍ ... بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِيْنَا

نُقَاتِلُ مَعْشَراً ظَلَمُوا وَعَقُّوا ... وَكَانُوا بِالعَدَاوَةِ مرْصِدِيْنَا[1]

نُعَاجِلُهُم إذَا نَهَضُوا إلَيْنَا ... بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المُتَسَرِّعِيْنَا

تَرَانَا فِي فضافِضَ سَابِغَاتٍ ... كَغُدْرَانِ المَلا مُتَسَرْبِلِيْنَا[2]

وَفِي أيمانِنَا بِيضٌ خِفَافٌ ... بِهَا نَشْفِي مِراحَ الشَّاغِبِيْنَا[3]

بَبَابِ الخَنْدَقَيْنِ كَأَنَّ أُسْداً ... شَوابِكُهُنَّ يَحْمِينَ العَرِيْنَا[4]

فَوَارِسُهَا إذَا بَكَرُوا وَرَاحُوا ... عَلَى الأَعْدَاءِ شُوساً مُعْلَمِيْنَا[5]

لِنَنْصُرَ أَحْمَداً وَاللهَ حَتَّى ... نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِيْنَا

وَيَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا ... وَأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَزِّبِينَا

بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكٌ ... وَأَنَّ اللهَ مَوْلَى المُؤمِنِيْنَا

فَإِمَّا تَقْتُلُوا سَعْداً سَفَاهاً ... فَإِنَّ اللهَ خَيْرُ القَادِرِيْنَا

سَيُدْخِلُهُ جِناناً طَيِّباتٍ ... تَكُونُ مقَامةً للصَّالِحِيْنَا

كَمَا قَدْ رَدَّكُمْ فَلاًّ شَرِيْداً ... بِغَيْظِكُمُ خَزَايَا خَائِبِيْنَا[6]

خَزَايَا لَمْ تَنَالُوا ثَمَّ خَيْراً ... وَكِدْتُمْ أَنْ تَكُونُوا دَامِرِيْنَا[7]

بِرِيْحٍ عَاصِفٍ هَبَّتْ عَلَيْكُمْ ... فَكُنْتُمْ تَحْتَهَا مُتَكَمِّهِيْنَا[8]

(١) مرصدين بمعنى آخذين عدتهم.

(٢) درع فضفاضة وفضافضة: بمعنى واسعة، سابغات: بمعنى كاملات، الملأ من الأرض: ما اتسع منها، متسربلون: يعني لابسي السرابيل والمراد بها الدروع.

(٣) مِراحٌ بكسر الميم: النشاط، وبالفتح، الموضع الذي يروح منه القوم أو إليه، وبالضم مأوى الإبل والبقر والغنم.

(٤) المراد من الشوابك مجموعاتها الملتفّة بعضها مع بعض، والعرين: فناء الدار.

(٥) شوس: جمع أشوس، وهو الذي ينظر بمؤخر عينه نظر المتكبر، المعلم من الإعلام، الذي جعل عليه علامة الحرب ليُعرف بها.

(٦) الفل: الجماعة المنهزمة، شريداً: بمعنى مطروداً.

(٧) دامرين من الدمار، يعني هالكين.

(٨) متكمهين من التكمّه، وتكمّه في الأرض، ذهب فيها إلى حيث لا يدري أين يذهب.

شعره في يوم الخندق والرجيع:

ولكعب بن مالك قصائدُ عديدةٌ في يوم الخندق. ومنها ما قاله ردّاً على شعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهمي الذي أنشدَه يوم الخندق بقوله:

حَيِّ الدِّيارَ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِهَا ... طُولُ البِلَى وَتَرَاوحُ الأَحْقَابِ

فأجاب حسّان بن ثابت الأنصاريّ. كما ردَّ عليه كعبُ بن مالكٍ الأنصاريّ بنفس الأسلوب والقافية، يقول:

أَبْقَى لَنَا حَدَثُ الحُرُوبِ بَقِيَّةً ... مِن خَيْرِ نِحْلَةِ رَبِّنَا الوَهَّابِ[1]

بَيْضَاءَ مُشْرِفَةَ الذُّرَى وَمَعَاطِناً ... حُمَّ الجُذُوعِ غَزِيرَةَ الأَحْلابِ[2]

كَاللُّوبِ يُبْذَلُ جَمْعُهَا وَحَفِيلُهَا ... لِلجَارِ وَابنِ العَمِّ والمُنْتَابِ[3]

وَنَزَائِعاً مِثْلَ السَّرَاحِ نَمَى بِهَا ... عَلَفُ الشَّعِيرِ وَجِزَّةُ المِقْضَابِ[4]

عَرَّى الشَّوَى مِنْهَا وَأَرْدَفَ نَحْضَهَا ... جُرْدُ المُتُونِ وَسَائِرُ الآرَابِ[5]

قُوداً تُرَاحُ إِلَى الصِّيَاحِ إِذَا غَدَتْ ... فِعْلَ الضَّرَاءِ تُرَاحُ لِلكَلَّابِ[6]

وَتَحُوطُ سَائِمَةَ الدِّيَارِ وَتَارَةً ... تُرْدِي العِدَا وَتَؤوبُ بِالأَسْلابِ[7]

حُوشُ الوُحُوشِ مُطَارَّةٌ عِنْدَ الوَغَى ... عُبْسُ اللِّقَاءِ مُبِينَةُ الإِنْجَابِ[8]

---

(١) النِّحلة: العطاء.

(٢) الذرى: جمع ذروة بمعنى الأعالي، ويريد بها الحصون والآطام، حُمّ: جمع أحم، بمعنى أسود، ويريد بالمعاطن: منابت النخل قرب الماء، والمراد من الجذوع، الأعناق، وأحلاب: جمع حلب، ما يحلب.

(٣) اللوب: جمع لوبة، وهي الأرض الحَرَّة، ذات الحجارة السود، حفيلها كثير اللبن.

(٤) نزائع: جمع نزيعة ما ينتزع من الخيل والإبل من أيدي الغرباء وتجلب إلى غير بلادها، السراح: جمع سرحان بمعنى الذئب، جزة المقضاب: ما يقطع من العلف بآلة القطع.

(٥) الشَّوَى: القوائم، النحض: اللحم، جرد المتون: ملساء الظهور من قصر الشعر، الآراب: جمع أربة، القطعة من اللحم.

(٦) قود: جمع أقود وقوداء، بمعنى الطوال، تراح بمعنى تنشط، الضِّراء: جمع ضاري، الكلب المعلم للصيد، والكلاّب بالتشديد صاحب هذه الكلاب.

(٧) تحوط: بمعنى تحيط بالماشية المرسلة للرعي، تردي: تهلك، العدا: جمع عدو، الأسلاب: جمع سلَب بفتح اللام ما يُسلب.

(٨) حوش الوحوش، نوافرها وسراعها، مطارة، مدفوعة بسرعة، عُبس: جمع أعبس وعبساء، الإنجاب: النَّجابة والعِتْق.

عُلِفَتْ عَلَى دَعَةٍ فَصَارَتْ بُدَّناً ... دُخْسَ البَضِيعِ خَفِيفَةَ الأَقْصَابِ[1]

يَغْدُونَ بِالزَّغْفِ المُضَاعَفِ شَكُّهُ ... وَبِمُتْرِصَاتٍ فِي الثِّقَافِ صِيَابِ[2]

وَصَوَارِمٍ نَزَعَ الصَّيَاقِلُ غُلْبَهَا ... وَبِكُلِّ أَرْوَعَ مَاجِدِ الأَنْسَابِ[3]

يَصِلُ اليَمِينَ بِمَارِنٍ مُتَقَارِبٍ ... وُكِلَتْ وَقِيعَتُهُ إِلَى خَبَّابِ[4]

وَأَغَرَّ أَزْرَقَ فِي القَنَاةِ كَأَنَّهُ ... فِي طُخْيَةِ الظَّلْمَاءِ ضَوْءُ شِهَابِ[5]

وَكَتِيبَةٍ يَنْفِي القِرَانَ قَتِيرُهَا ... وَتَرُدُّ حَدَّ قَوَاجِزِ النَّشَّابِ[6]

جَأْوَى مُلَمْلَمَةٍ كَأَنَّ رِمَاحَهَا ... فِي كُلِّ مَلْحَمَةٍ ضَرِيمَةُ غَابِ[7]

يَأْوِي إِلَى ظِلِّ اللِّوَاءِ كَأَنَّهُ ... فِي صَعْدَةِ الخَطِّيِّ فَيْءُ عُقَابِ[8]

أَعْيَتْ أَبَا كَرْبٍ، وَأَعْيَتْ تُبَّعاً ... وَأَبَتْ بَسَالَتُهَا عَلَى الأَعْرَابِ[9]

وَمَوَاعِظٌ مِن رَبِّنَا نُهْدَى بِهَا ... بِلِسَانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الأَثْوَابِ

عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا ... مِن بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الأَحْزَابِ

حِكَماً يَرَاهَا المُجْرِمُونَ بِزَعْمِهِمْ ... حَرَجاً، وَيَفْهَمُهَا ذَوو الأَلْبَابِ

جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا ... فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ[10]

---

(١) بُدَّن: ذات الأبدان السَّمينة، دُخس: المكتنز، البضيع: اللحم، الأقصاب: جمع قصب بمعنى المعي.

(٢) الزغف: دروع واسعة محكمة حسنة الحلقات، المضاعف شكه: يريد أنها مصعفة الحلق، مترصات: شديدات، الثقاف: الرماح المثقفة، صياب جمع صائبة يعني الرماح المثقفة الصائبة الصلبة.

(٣) صوارم: جمع صارمة بمعنى السيوف القاطعة، غلب بالضم: جمع أغلب، غليظ العنق، المراد بها هنا خشونة السيوف وصدؤها.

(٤) مارن: طرف الأنف أو ما لان منه، ورمح مارن لدن، لين، وقيعته: بمعنى صنيعته، خباب: اسم قين معروف بصناعة الرماح.

(٥) أغر أزرق: يريد بذلك سنان الرمح، طخية: السواد الحالك.

(٦) قِران: مُقارنة النِّبال، قتير: مسامير حلق الدروع، قواجز النشاب: النبال التي تصيب الأفخاذ.

(٧) جأوى ململمة: جيش مجتمع تخالط سواده حمرة. الضريمة: اللهيب المتوقد. الغاب: الشجر الملتفّ.

(٨) صعدة: القناة المستوية. فيء: بمعنى الظل.

(٩) أبو كرب وتبع: ملكان من اليمن.

(١٠) سخينة: لقب قريش في الجاهلية، وقد مر هذا البيت في ترجمة كعب بن مالك، وما

وهـٰذه قصيدة أخرى له في يوم الخندق:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُهُ ... بَعْضاً، كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ[1]

فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سُيُوفُهَا ... بَيْنَ المَذادِ وَبَيْنَ جِزْعِ الخَنْدَقِ[2]

دَرِبُوا بِضَرْبِ المُعْلِمِينَ وَأَسْلَمُوا ... مُهُجَاتِ أَنفُسِهِمْ لِرَبِّ المَشْرِقِ

فِي عُصْبَةٍ نَصَرَ الإِلٰهُ نَبِيَّهُ ... بِهِمُ، وَكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفَقِ

فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخُطُّ فُضُولُهَا ... كَالنَّهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ المُتَرَقْرِقِ[3]

بَيْضَاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا ... حِدَقُ الجَنَادِبِ ذَاتُ شَكٍّ مُوثَقِ[4]

جَدْلاءُ يَحْفِزُهَا نِجَادُ مُهَنَّدٍ ... صَافِي الحَدِيدَةِ صَارِمٍ ذِي رَوْنَقِ[5]

تِلْكُمْ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا ... يَوْمَ الهِيَاجِ وَكُلَّ سَاعَةِ مَصْدَقِ

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا ... قُدُماً وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فَتَرَى الجَمَاجِمَ ضَاحِياً هَامَاتُهَا ... بَلَهَ الأَكُفَّ كَأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقِ[6]

نَلْقَى العَدُوَّ بِقَحْمَةٍ مَلْمُومَةٍ ... تَنْفِي الجُمُوعَ كَقَصْدِ رَأْسِ المَشْرِقِ[7]

وَنُعِدُّ لِلأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّصٍ ... وَرْدٍ وَمَحْجُولِ القَوَائِمِ أَبْلَقِ[8]

تُرْدَى بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَاتِهِمْ ... عِنْدَ الهِيَاجِ أُسُودُ طَلٍّ مُلْثَقِ[9]

= قاله رسول الله ﷺ لكعب حين أنشد له هـٰذا البيت.

(١) المعمعة: صوت التهاب النار، الأباء بالفتح، القصب أو الأغصان الملتفة.

(٢) تسن بالنون المشددة: تشحذ، المذاد: اسم موضع.

(٣) تخط فضولها، يعني ينجر الزائد منها على الأرض فيجعل عليها علائم مثل ما يكون في ماء الغدير حينما تهب عليه الريح، النهي: الغدير.

(٤) يريد بها دروعاً محكمة النسج، ويشبه مسامير حلقها بعيون ذكور الجراد، الشك: إحكام السرد.

(٥) جدلاء: بمعنى الدرع المحكمة النسج كذلك، يحفزها: يرفعها، نجاد مهند: حمايل السيف المهند.

(٦) بله: اسم فعل أمر، بمعنى اترك ودع.

(٧) القحمة: المراد بها الكتيبة المكثفة، ملمومة: مجتمعة، المشرق: جبل بين الصريف والعصيم من أرض ضبة.

(٨) مقلص: فرس خفيف طويل القوائم، ورد: من الخيل ما كان أحمر اللون إلى صفرة.

(٩) طل: مطر خفيف، ملثق: ما ينشأ من الطل من وحل وطين.

صُدقٌ يُعاطَوْنَ الكُمَاةَ حُتُوفَهُمْ ... تَحْتَ العَمَايَةِ بالوَشِيجِ المُزْهِقِ[1]

أَمَرَ الإِلٰهُ بِرَبْطِهَا لِعَدُوِّهِ ... فِي الحَرْبِ، إِنَّ اللهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ

لِتَكُونَ غَيْظاً لِلعَدُوِّ وَحُيَّطاً ... لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خُيُولُ النُّزَّقِ[2]

وَيُعِينُنَا اللهُ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ ... مِنْهُ وَصِدْقُ الصَّبْرِ سَاعَةَ نَلْتَقِي

وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَنُجِيبُهُ ... وَإِذَا دَعَا لِكَرِيهَةٍ لَمْ نُسْبَقِ

وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِهَا ... وَمَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ فِيهَا نُغْنِقِ[3]

مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ ... فِينَا مُطَاعُ الأَمْرِ حَقَّ مُصَدَّقِ

فَبِذَاكَ يَنْصُرُنَا وَيُظْهِرُ عِزَّنَا ... وَيُصِيبُنَا مِن نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْفَقِ

إِنَّ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ مُحَمَّداً ... كَفَرُوا وَضَلُّوا عَن سَبِيلِ المُتَّقِي

وقال أبياتاً أخرى في يوم الخندق وهي من قصيدة له:

لَقَدْ عَلِمَ الأَحْزَابُ حِينَ تَأَلَّبُوا ... عَلَيْنَا وَرَامُوا دِينَنَا مَا نُوادِعُ

أَضَامِيمَ مِنْ قَيْسِ بنِ عَيْلانَ أَصْفَقَتْ ... وَخِندفٍ لَمْ يَدْرُوا بِمَا هُوَ وَاقِعُ[4]

يَذُودُونَنَا عَنْ دِينِنَا وَنَذُودُهُمْ ... عَنِ الكُفْرِ وَالرَّحْمٰنُ رَاءٍ وَسَامِعُ

إِذَا غَايَظُونَا فِي مَقَامٍ أَعَانَنَا ... عَلَى غَيْظِهِم نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَاسِعُ

وَذَلِكَ حِفْظُ اللهِ فِينَا وَفَضْلُهُ ... عَلَيْنَا، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ اللهُ ضَائِعُ

هَدَانَا لِدِينِ الحَقِّ وَاخْتَارَهُ لَنَا ... وَللهِ فَوْقَ الصَّانِعِيْنَ صَنَائِعُ

وهـٰذه قصيدة غراء يتحدث فيها عن انطباعاته نحو يوم الخندق:

أَلا أَبْلِغْ قُرَيْشاً أَن سَلْعاً ... وَمَا بَيْنَ العُرَيْضِ إِلَى الصِّمَادِ[5]

---

(١) صدق: جمع صادق، من أوصاف الكماة يريد بالعماية الغبار المظلم، الوشيج: الرماح، المزهق: المهلك.

(٢) حُيّط بتشديد الياء: جمع حائط من حاط يحوط. نزّق: جمع نازق بمعنى الغاضب السيّئ الخلق.

(٣) حومة القتال: معظمه، نُغنِق: نسرع.

(٤) أضاميم: جمع إضْمامة: جماعات انضمت بعضها مع بعض، أصفقت: اجتمعت وتوافقت على الأمر.

(٥) سلع والصماد: اسمان لجبلين، والعُريض: بالتصغير وادٍ بالمدينة.

نَـواضِـحُ فِـي الحُـرُوبِ مُـدَرَّبَـاتٌ ... وَخُـوصٌ ثُقِّبَـتْ مِـن عَهْـدِ عَـادِ(١)
رَوَاكِـدُ يَـزْخَـرُ المُـرَّارُ فِيهَـا ... فَلَيْسَـتْ بـالجِمَـامِ وَلا الثِّمَـادِ(٢)
كَـأَنَّ الغَـابَ وَالبَـرْدِيَّ فِيهَـا ... أَجَـشُّ إِذَا تَبَقَّـعَ لِلحَصَـادِ(٣)
وَلَـمْ نَجْعَـلْ تِجَـارَتَنَـا اشْتِـراءَ الـ ... ـحميـرِ لأرضِ دَوْسٍ أَو مُـرَادِ(٤)
بِـلادٌ لَـمْ تُثَـرْ إِلاَّ لكَيْمَـا ... نُجـالِـدَ إِنْ نَشِطْتُـمْ لِلجِـلادِ(٥)
أَثَـرْنَـا سِكَّـةَ الأَنْبَـاطِ فِيهَـا ... فَلَـمْ تَـرَ مثلَهـا جَلَهَـاتِ وادِ(٦)
قَصَـرْنَـا كُـلَّ ذِي حُضُـرٍ وَطَـوْلٍ ... عَلَـى الغَـابَـاتِ مُقْتَـدِرٍ جَـوَادِ(٧)
أَجِيبُـونَـا إِلَـى مَـا نَجْتَـدِيكُـمْ ... مِـنَ القَـوْلِ المُبَيَّـنِ والسَّـدَادِ(٨)
وَإِلا فَـاصْبِـرُوا لِجِـلادِ يَـوْمٍ ... لَكُـمْ مِنَّـا إِلَـى شَطْـرِ المَـذادِ(٩)
نُصَبِّحُكُـمْ بِكُـلِّ أَخِـي حُـرُوبٍ ... وكُـلِّ مُطَهَّـمٍ سَلِـسِ القِيَـادِ(١٠)
وَكُـلُّ طِمِـرَّةٍ خَفِـقٌ حَشَـاهَـا ... تَـدِفُّ دَفِيـفَ صَفْـرَاءِ الجَـرَادِ(١١)
وَكُـلُّ مُقَلَّـصِ الآرابِ نَهْـدٍ ... تَمِيـمِ الخَلْـقِ مِـن أُخْـرٍ وَهَـادِي(١٢)
خُيُـولٌ لا تُضَـاعُ إِذَا أُضِيعَـتْ ... خُيُـولُ النَّـاسِ فِـي السَّنَـةِ الجَمَـادِ
يُنَـازِعُـنَ الأَعِنَّـةَ مُصْغِيَـاتٍ ... إِذَا نَـادَى إِلَـى الفَـزَعِ المُنَـادِي

(١) نواضح: جمع ناضحة الناقة التي يستقى عليها ، خوص: آبار ضيقة ، ثقبت: بمعنى حفرت.
(٢) المرار: نهر ، الجمام: جمع جمة ، والبئر الغزيرة المياه ، الثماد: الماء القليل.
(٣) البرديّ: بكسر الدال وتشديد الياء ، نبات غليظ ينبت في البرك ، يصنع منه الحصر ، أجش المكان: التف نباته وحشيشه ، تبقع: صار فيه بقع صفر.
(٤) دوسٌ ومرادٌ: قبيلتان.
(٥) لم تُثَرْ بالبناء على المفعول ، بمعنى لم تحرث للزراعة.
(٦) السكة: معناها صفّ النخل ، جلهات الوادي: حافاته ومتسعاته.
(٧) ذي حضر: يريد الفرس ذا العدو ، والطول: الفضل والقدرة.
(٨) نجتديكم: بمعنى نطلب منكم.
(٩) شطر: ناحية ، ونحو ، المذاد: هو الموضع الذي حفر فيه الخندق.
(١٠) المطهم: الفرس التام الخلق ، القوي.
(١١) طمرة: الفرس الجواد الطويل القوائم ، خفق: دقيق الخصر ، تدف: بمعنى تنشط وتتهيأ للعدو.
(١٢) مقلص: متشمر ، الآراب: جمع أربة ، قطع اللحم ، النهد: الفرس الحسن الجميل ، الغليظ العنق ، والمراد من مقلص الآرا ب مكتنز اللحم. أخر: المراد به من ورائه ، وهادي بمعنى

إِذَا قَـالَـتْ لَنَـا النُّـذُرُ اسْتَعِـدُّوا ... تَـوَكَّلْنَـا عَلَـى رَبِّ العِبَـادِ
وَقُلْنَـا لَـنْ يُفَـرَّجَ مَـا لَقِينَـا ... سِوَى ضَرْبِ القَوانِسِ وَالجِهَادِ(١)
فَلَـمْ تَـرَ عُصْبَـةٌ فِيمَـنْ لَقِينَـا ... مِـنَ الأَقْـوَامِ مـن قَـارٍ وَبَـادِي(٢)
أَشَـدَّ بِسَـالَـةً مِنَّـا إِذَا مَـا ... أَرَدْنَـاهُ، وَأَلْيَـنَ فِـي الـوِدَادِ
إِذَا مَـا نَحْـنُ أَسْـرَجْنَـا عَلَيْهَـا ... جِيادَ الجُدْلِ فِي الأَرَبِ الشِّدَادِ(٣)
قَـذَفْنَـا فِـي السَّـوابِـغِ كُـلَّ صَقْـرٍ ... كَـرِيـمٍ غَيْـرِ مُعْتَلِـثِ الـزِّنَـادِ(٤)
أَشَـمُّ كَـأَنَّـهُ أَسَـدٌ عَبُـوسٌ ... غَـدَاةَ بَـدَا بِبَطْـنِ الجِـزْعِ غَـادِي
يُغَشِّـي هَـامَـةَ البَطَـلِ المُـذَكَّـى ... صَبِـيُّ السَّيْـفِ مُسْتَـرْخِـي النِّجَـادِ(٥)
لِنُظْهِـرَ دِينَـكَ اللَّهُـمَّ إِنَّـا ... بِكَفِّـكَ فَـاهْـدِنَـا سُبُـلَ الـرَّشَـادِ

أبيات قالها في غزوة بني لحيان:

وخرج رسول الله ﷺ على رأس ستة أشهرٍ من فتح بني قريظة إلى بني لحيان ليأخذ بثأر أصحاب الرَّجيع خُبيب بن عديّ وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشَّام ليصيب من القوم غرَّة(٦) . وفي هٰذه الغزوة قال كعب بن مالك أبياتاً خاطب فيها بني لحيان ويذكرهم بما قد لقوه في هٰذه الغزوة من المسلمين من قوة السِّلاح والإيمان:

لَـو أَنَّ بَنِـي لِحْيَـانَ كَـانُـوا تَنَـاظَـرُوا ... لَقُوا عُصَباً فِي دَارِهِمْ ذَاتَ مَصْدَقِ(٧)
لَقُـوا سَـرَعَـانـاً يَمْـلأُ السَّـرْبَ رَوْعُـهُ ... أَمَـامَ طَحُـونٍ كَـالمَجَـرَّةِ فَيْلَـقِ(٨)

(١) قوانس: جمع قونس أعلى بيضة الحديد.
(٢) قاري ، من هو من أهل القرية ، وبادي: الذي يسكن في البادية.
(٣) أسرجنا ربطنا ، الجدل: جمع جدلاء ، الدرع المحكمة النسج ، الأرب: جمع أربة ، العقدة الشديدة.
(٤) يقال: اعتلث الرجل زنداً ، إذا أخذه من شجر لا يدري أيوري أم لا. كناية عن الاستعداد الكامل للحرب.
(٥) البطل المذكى: الذي بلغ الغاية في القوة ، صبي السيف: وسطه.
(٦) انظر سيرة ابن هشام وإمتاع الأسماع للمقريزي (غزوة بني لحيان).
(٧) تناظروا: يعني انتظروا ، والعُصب: جمع عُصبةٍ ، الجماعات.
(٨) سَرَعان: بفتح الراء أول القوم ، سَرَبٌ بالفتح: الطريق ، وبالكسر النفس ، طَحون بفتح الطاء ، صيغة المبالغة ، الكتيبة التي تطحن كل ما تمرّ به. المجرّة ـ بفتح الميم ـ منطقة في السماء ذات نجوم كثيرة تبدو كبقعة بيضاء. الفيلق: الجيش العظيم ، جمعه فيالق.

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا وِبَاراً تَتَبَّعَتْ شِعَابَ حِجَازٍ غَيْرَ ذِي مُتَنَفَّقِ[1]

شعره في غزوةِ ذي قَرَدٍ وخَيبرٍ:

وقد كانت غزوة ذي قَرَدٍ (بفتح الراء) ويقال: غزوة الغارة ـ وهو ماء على بريدٍ من المدينة ـ في ربيع الأول. وذلك بعد ما أغار عُيَيْنَةُ بن حِصْن بن حذيفة الفَزَاري في خيل من غطفان على لقاح لرسول الله ﷺ بالغابة، وفيها رجلٌ من بني غفار وامرأةٌ له فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح. وقد قيل في يوم ذي قردٍ شعرٌ أودع فيه الشعراء المسلمون عواطفهم نحو هٰذه الإغارة. وقال كعب بن مالك في هٰذه الغزوة أبياتاً من الشعر يتحدَّث فيها عمَّا كان يتمتَّع به المسلمون من مكانةٍ عالية بإزاء أعدائهم. يقول:

أَتَحْسَبُ أولادُ اللَّقِيطَةِ أَنَّنَا عَلَى الخَيْلِ لَسْنَا مثلَهُمْ فِي الفَوارِسِ
وَإِنَّا أناسٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً وَلا نَنْثَنِي عِنْدَ الرِّمَاحِ المَدَاعِسِ
وإنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ مِنْ قَمَعِ الذُّرَى وَنَضْرِبُ رَأسَ الأبْلَخِ المُتَشاوِسِ[2]
نَرُدُّ كُماةَ المُعْلَمِينَ إذَا انْتَخَوْا بِضَرْبٍ يُسَلِّي نَخْوَةَ المُتَقَاعِسِ[3]
بِكُلِّ فَتَىً حَامِي الحَقِيقَةِ مَاجِدٍ كَرِيمٍ كسِرْحانِ الغَضَاةِ مُخَالِسِ[4]
يَذُودُونَ عَنْ أحْسَابِهِم وَتِلادِهِم بِبِيضٍ تَقُدُّ الهَامَ تَحْتَ القَوانِسِ[5]
فَسائِلْ بَنِي بَدْرٍ إذَا مَا لَقِيتَهُمْ بِمَا فعلَ الإخْوانُ يَوْمَ التَّمارُسِ[6]
إذَا ما خَرَجْتُمْ فاصْدُقُوا مَنْ لَقِيتُمُ ولا تَكْتُمُوا أخْبَارَكُمْ فِي المَجَالِسِ
وَقُولُوا: زَلَلْنَا عَن مخالِبِ خَادِرٍ بِهِ وَحَرٌ فِي الصَّدْرِ مَا لَمْ يُمارِسِ[7]

(١) وِبار بكسر الواو، جمع وبر بمعنى دويبة مثل السِّنَّور ولكنها أصغر منه. مُتنفَّق: من النافقاء، وهو أحد أبواب جحر اليربوع. ومعنى (غير ذي متنفق) ليس له باب يخرج منه.
(٢) قمع: جمع قمعة، وهي أعلى سنام البعير، الذرى: جمع ذروة الأسنمة، الأبلخ: المتكبر. المتشاوس: الذي ينظر بمؤخر عينه نظر المتكبر.
(٣) انتخوا: بمعنى تكبروا. المتقاعس: الذي لا ينقاد ولا يلين.
(٤) مخالس: بمعنى مقاتل، والذي يختلس الفرصة للقتال.
(٥) القوانس: جمع قونسة، أعالي بيض الحديد.
(٦) التمارس: المضاربة في الحرب.
(٧) خادر: الأسد الذي يلزم أجمته، الوحر: بفتح الحاء: الحقد.

وقال كعب بن مالك أبياتاً في يوم خيبر:

وَنَحْنُ وَرَدْنَا خَيْبَراً وَفُروضَهُ بِكُلِّ فَتىً عَارِي الأشَاجِعِ مِذْوَدِ[1]
جَوادٍ لَدَى الغَايَاتِ لا واهِنِ القُوى جريءٍ عَلَى الأعْدَاءِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
عَظيمِ رَمادِ القِدْرِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ ضَرُوبٍ بِنَصْلِ المَشْرِفيِّ المُهَنَّدِ[2]
يَرَى القَتْلَ مَدْحاً إن أصَابَ شَهَادةً مِنَ اللهِ يَرْجُوهَا وَفَوْزاً بِأَحْمَدِ
يَذُود ويَحْمِي عَنْ ذِمارِ مُحَمَّدٍ وَيَدْفَعُ عَنْهُ باللِّسَانِ وَباليَدِ
وَيَنْصُرُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يُريبُهُ يَجُودُ بِنَفْسٍ دُونَ نَفْسِ مُحَمَّدِ
يُصدِّقُ بالأنْبَاءِ بِالغَيْبِ مُخْلِصاً يُرِيدُ بِذَاكَ الفَوزَ والعِزَّ فِي غَدِ

كان شعار المسلمين يوم خيبر «يا منصورُ أمِتْ أمِتْ» فلمَّا سمع بذلك مَرحبٌ اليهوديّ خرج من حصنه، وقد جمع سلاحه وهو يرتجز:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرِّبُ
أَطْعَنُ أحْيَاناً وَحِيْناً أَضْرِبُ إذَا اللُّيوثُ أَقْبَلَتْ تَحَرَّبُ
إنَّ حِمَايَ لِلحِمَى لا يُقْرَبُ يُحْجِمُ عَنْ صَوْلَتِي المُجَرِّبُ

فأجابه كعب بن مالك برجز من شعره، فقال:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أنِّي كَعْبُ مُفَرِّجُ الغَمَّا جَرِيءٌ صُلْبُ[3]
إذ شَبَّتِ الحَرْبُ تَلَتْهَا الحَرْبُ مَعِي حُسامٌ كَالعَقِيقِ عَضْبُ[4]
نَطَؤُكُمْ حَتَّى يَذِلَّ الصَّعْبُ نُعْطِي الجَزَاءَ أو يَفِيءَ النَّهْبُ[5]
بِكَفٍّ مَاضٍ لَيْسَ فِيهِ عَتْبُ[6]

قصيدته في غزوة مُؤْتَة:

وكانت غزوة مؤتة في سنة ثمانٍ، واستشهد فيها زيد بن حارثة، وجعفر بن

(١) فروض: جمع فرضة مواضع الشرب في الأنهار. الأشاجع: عروق ظاهر الكف.
(٢) المشرفي المهند: السيف من صناعة هند أو الهند.
(٣) الغمّا: الكربة والشدة.
(٤) العقيق: شعاع البرق، شبه به السيف.
(٥) أراد بالجزاء هنا الجزي وهو جمع جزية.
(٦) ليس فيه عتب: يريد ليس فيه ما يُلام عليه.

أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنهم ـ فبكى عليهم شعراء المسلمين بشعرهم ، وأشادوا بجراءتهم وبسالتهم في سبيل الله ، وكان من بينهم شاعرنا كعب بن مالكٍ الذي فاضت قريحته بالأبيات التالية :

نَـامَ العيُـونُ وَدَمـعُ عينِـكَ يَهْمُـلُ ... سَحّاً كَمَا وَكَفَ الطَّبابُ المُخْضَلُ[1]
فِـي لَيْلَـةٍ وَرَدَتْ عَلَـيَّ هُمـومُهـا ... طَـوراً أَخـنُّ وتـارةً أَتَمَلْمَـلُ[2]
وَاعْتَـادَنِـي حُـزْنٌ فَبِـتُّ كـأَنَّنِـي ... بِبَنَـاتِ نَعْـشٍ والسِّمـاكِ مُـوَكَّـلُ[3]
وَكَـأَنَّمـا بَيْـنَ الجَـوانـح وَالحَشَـا ... مِمَّـا تَـأَوَّبنـي شِهَـابٌ مـدْخـلُ
وَجداً على النَّفَرِ الَّـذيـن تَتـابَعُـوا ... يَـوْمـاً بِمُـؤْتَـةَ أسنَـدُوا لَـمْ يُنْقَلُـوا
صَلَّـى الإلـهُ عَلَيْهُـم مِـنْ فِتْيـةٍ ... وَسَقَـى عِظَـامَهُـمُ الغَمـامُ المُسْبِـلُ
صَبَـرُوا بِمُـؤْتَـةَ لِـلإلَـهِ نُفُـوسَهُـمْ ... حَـذرَ الـرَّدَى ومَخَـافَـةً أَنْ يَنْكُلُـوا[4]
فَمَضَـوْا أَمَـامَ المُسْلِمِـيـنَ كَـأَنَّهُـمْ ... فُنُـقٌ عَلَيهِـنَّ الحَـدِيـدُ المُـرْفَـلُ[5]
إذْ يَهْتَـدُونَ بِجَعْفَـرٍ وَلِـوائِـهِ ... قُـدَّامَ أَوَّلِهِـم فَنِعْـمَ الأَوَّلُ
حَتَّـى تَفَـرَّجَـتِ الصُّفُـوفُ وجَعْفَـرٌ ... حَيْث الْتَقَى وَعْثُ الصُّفوفِ مجَدَّلُ[6]
فَتَغَيَّـرَ القَمَـرُ المُنِيـرُ لِفَقْـدِهِ ... وَالشَّمْسُ قَـدْ كَسفَـتْ وَكـادَتْ تَـأْفَلُ
قَـرْمٌ عَـلا بُنْيَـانُـهُ مِـنْ هَـاشِـمٍ ... فَـرْعـاً أَشَـمَّ وَسُـؤدداً مَـا يُنْقَـلُ
قَـوْمٌ بِهِـمْ عَصَـمَ الإلـهُ عِبَـادَهُ ... وعليهِـمُ نَـزَلَ الكتـابُ المُنْـزَلُ
فَضَلُـوا المعـاشِـرَ عِـزَّةً وَتَكَـرُّمـاً ... وَتَغَمَّـدَتْ أحـلامُهُـمْ مَـنْ يَجْهَـلُ[7]

(١) سحاً: من سح الماء إذا صبه صباً متتابعاً ، الطباب: جمع طبابة القطعة المستطيلة من الجلد أو الثوب التي يشد بها بين خرزتي المزادة ، وكف: قطر ، المخضل: السائل الندي.
(٢) ويروى: أحن من الحنين ، والخُنّة: صوت يخرج من الأنف مع بكاء.
(٣) يريد أنه بات يرعى النجوم من شدة ما ألَمَّ به من الهموم والأحزان.
(٤) صبروا نفوسهم: يعني حبسوها عل ما يريدون من الشهادة ، أن ينكلوا: أن يتأخروا هيبة من الأعداء.
(٥) فنق: جمع فنيق ، الفحول من الإبل ، المرفل من الحديد: ما ينجر على الأرض ، ويريد به الدروع السابغة.
(٦) وعث الصفوف: التحامها بحيث يصعب الخلاص منها ، مجدل: مطروح على الجدالة وهي الأرض.
(٧) تغمدت أحلامهم: يعني سترت جهل الجاهلين.

لا يَطْلِقُـونَ إلَـى السَّفـاهِ حُبـاهُـمُ ... وَيُـرَى خَطِيبُهُـمُ بِحَـقٍّ يَفْصِـلُ[1]
بِيـضُ الـوُجُـوهِ تُـرى بُطُـونُ أَكُفِّهِـمْ ... تَنْـدَى إذَا اعْتـذَرَ الـزَّمَـانُ المُمْحِـلُ
وبِهَـدْيِهِـمْ رَضِـيَ الإلَـهُ بِخَلْقِـهِ ... وَبِجَـدِّهِـمْ نُصـر النَّبـيُّ المُـرْسَـلُ

وفي غزوة الطائف :

وفي نفس هـٰذه السنة سار النَّبيُّ الكريم ﷺ إلى الطائف حين فرغ من حنينٍ، ولما عزم ﷺ على المسير إلى الطائف للغزوة ، قال كعب بن مالك القصيدة الآتية :

قَضَيْنَـا مِـنْ تِهَـامَـةَ كُـلَّ رَيْـبٍ ... وَخَيْبَـر ثُـمَّ أَجْمَعْنَـا السُّيُـوفَـا[2]
نُخَيِّـرهـا ، وَلَـو نَطَقَـتْ لَقَـالَـتْ ... قَـواطِعُهُـنَّ ، دَوْسـاً أو ثَقِيفـا
فَلَسْـتُ لِحَـاضِـنٍ إنْ لَـمْ تَـرَوْهَـا ... بِسَـاحَـةِ دَارِكُـمْ مِنَّـا أَلـوفَـا[3]
وَنَنْتَـزِعُ العُـرُوشَ بِبَطْـنِ وَجٍّ ... وَتُصْبِـحُ دُورُكُـمْ مِنَّـا خُلُـوفَـا[4]
وَيَـأْتِيكُـمْ لَنَـا سَـرَعَـانُ خَيْـلٍ ... يُغَـادِرُ خَلْفَـهُ جَمْعـاً كَثِيفَـا[5]
إذَا نَـزَلُـوا بِسَـاحَتِكُـمْ سَمِعتُـمْ ... لَهَـا مِمَّـا أَنـاخَ بِهَـا رَجِيفَـا[6]
بِـأَيْـدِيهِـمْ قَـواضِـبُ مُـرْهفـاتٌ ... يُـزِرْنَ المُصْطَلِيـنَ بِهَـا الحُتُـوفَـا
كَـأَمْثَـالِ العَقَـائِـقِ أَخْلَصَتْهَـا ... قُيـونُ الهِنْـدِ لَـمْ تُضْـرَبْ كَتِيفَـا[7]
تَخَـالُ جَـدِيَّـةَ الأَبْطَـالِ فِيهَـا ... غَـدَاةَ الـزَّحْـفِ جَـادِيّـاً مَـدُوفَـا[8]
أَجِـدَّهُـمُ أَلَيْـسَ لَهُـمْ نَصِيـحٌ ... مِـنَ الأَقْـوَامِ كَـانَ بِنَـا عَـرِيفَـا[9]

(١) حُبا: جمع حبوة ، ما يشد على الركبتين من اليدين ، أو ثوب عند الجاوس ، وذلك كناية عن الاستعداد للنجدة.
(٢) أجمعنا: بمعنى أرحنا.
(٣) الحاضن: المرأة التي تحضن ولدها ، ويروى الحاصن: بمعنى العفيفة.
(٤) خلوفاً: يريد دوراً خالية عن أهلها ، بطن وجٍّ ، في الطائف.
(٥) سَرَعان: بفتح الراء: المسرعون.
(٦) رجيف: الصوت المرعب مع اضطراب.
(٧) كتيف: جمع كتيفة ، صفائح الحديد التي تضرب للأبواب ، عقائق: جمع عقيقة ، المراد بها هنا شعاع البرق.
(٨) جدية: طريقة من الدم ، الجادي: الزعفران ، مدوف: مخلوط.
(٩) أجدهم: يعني أجداً منهم ، منصوب على المصدرية ، عريفاً: بمعنى عارفاً.

يُخَبِّرْهُمْ بِأَنَّا قَدْ جَمَعْنَا ... عِتَاقَ الخَيْلِ والنُّجُبَ الطُّرُوفَا
وَإِنَّا قَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِزَحْفٍ ... يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمُ صُفُوفَا
رَئِيسُهُمُ النَّبِيُّ وَكَانَ صلباً ... نَقِيَّ القَلْبِ مُصْطَبِراً عَزُوفَا
رَشِيدَ الأَمْرِ ذوحُكْمٍ وَعِلْمٍ ... وَحِلْمٍ لَمْ يَكُنْ نَزِقاً خَفِيْفَا(١)
نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رباً ... هوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رَؤوفَا
وَإِنْ تَأْبَوْا نُجَاهِدُكُمْ وَنَصْبِر ... وَلا يَكُ أَمْرُنَا رَعِشاً ضَعِيْفَا(٢)
فَإِنْ تُلْقوا إِلَيْنَا السِّلْمِ نَقْبَلْ ... وَنَجْعَلْكُمْ لَنَا عَضُداً وَرِيْفَا(٣)
نُجَالِدُ مَا بَقِينَا أو تُنِيبُوا ... إلى الإِسْلامِ إِذْعَاناً مُضِيفَا(٤)
نُجَاهِدُ لا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا ... أَأَهْلَكْنَا التِّلادَ أَمِ الطَّرِيفَا
وَكَمْ مِنْ مَعْشَرٍ أَلَبُوا عَلَيْنَا ... صَمِيمَ الجَذمِ مِنْهُمْ وَالحَلِيفَا(٥)
أَتَوْنَا لا يَرَوْنَ لَهُمْ كِفَاءً ... فَجَدَّعْنَا المَسَامِعَ والأُنُوفَا
بِكُلِّ مُهَنَّدٍ لَيْنٍ صَقِيلٍ ... نَسُوقُهُمُ بِهَا سَوْقاً عَنِيْفَا
لأَمْرِ اللهِ والإِسْلامِ حَتَّى ... يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلاً حَنِيْفَا
وَنَنْسَى اللاتَ وَالعُزَّى وَوَدّاً ... وَنَسْلُبُهَا القَلائِدَ والشُّنُوفَا(٦)
فَأَمْسَوْا قَدْ أَقَرُّوا واطْمأَنُّوا ... وَمَنْ لا يَمتنعْ يَقْبَلْ خُسُوفَا(٧)

وقال يرثي رسول الله ﷺ:

يَا عَيْنُ فَابْكِي بِدَمْعٍ ذَرى ... لِخَيْرِ البَرِيَّةِ وَالمُصْطَفَى(٨)
وَبَكِّيْ الرَّسولَ وَحُقَّ البُكَاءُ ... عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ اللِّقَا(٩)

(١) نزق: كثير الحدة والطيش.
(٢) رعش: بمعنى متقلب غير ثابت.
(٣) ريف: أرض فيها زرع وخصب، ويريد هنا أعواناً على الحرب.
(٤) مضيفاً يعني ملجئاً له، مثل الضيف الذي يقدم له الملجأ.
(٥) ألبوا علينا: يعني جمعوا علينا، صميم الجذم: بمعنى خالص الأصل.
(٦) شنوف: جمع شنف، القرط الذي يلبس في أعلى الأذن.
(٧) السيرة النبوية الشريفة ـ لابن هشام: ج/٤.
(٨) ذرى: تفرّق على الخدّين.
(٩) بكاه: بكى عليه.

عَلَى خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ ... وَأَتْقَى البَرِيَّةِ عِنْدَ التُّقَى(١)
عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْفَلٍ ... وخَيْرِ الأَنَامِ وَخَيرِ اللُّهَا(٢)
لَهُ حَسَبٌ فَوقَ كُلِّ الأَنَا ... مِ مِنْ هَاشِمٍ ذلكَ المُرتَجَى(٣)
نُخَصُّ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِهِ ... وكَانَ سِراجاً لَنَا في الدُّجَى(٤)
وَكَانَ بَشِيْراً لَنَا مُنْذِراً ... وَنُوراً لَنَا ضَوْؤُهُ قَدْ أَضَا(٥)
فَأَنْقَذَنَا اللهُ فِي نُوْرِهِ ... وَنَجَّى بِرَحْمَتِهِ مِنْ لَظَى(٦)

وقال يرثي الرسول الكريم ﷺ:

وَبَاكِيَةٍ حِراءَ تَحزَنُ بالبُكَا ... وتَلْطِمُ مِنْهَا خدَّهَا والمُقلَّدا(٧)
عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ النَّبِيِّ مُحمَّدٍ ... ولَو عَلِمَتْ لَمْ تَبْكِ إلاَّ محمَّدا
فُجِعْنَا بِخَيرِ النَّاسِ حَيّاً ومَيِّتاً ... وَأدناهُ مِنْ رَبِّ البريّة مقعَدا(٨)
وأفظَعِهِمْ فَقْداً عَلَى كُلِّ مُسلمٍ ... وأعظَمِهِمْ في النَّاس كلِّهِمْ يَدا(٩)
إِذَا كَانَ مِنْهُ القَولُ كَانَ مُوَفَّقاً ... وإِنْ كانَ حيّاً كانَ نُوْراً مجُدَّدا(١٠)
لَقَدْ وَرِثَتْ أَخلاقُهُ المَجْدَ والتُّقَى ... فَلَمْ تَلْقَهُ إلا رَشِيْداً ومُرشِدا(١١)

وقال في رثاء الرَّسول الكريم ﷺ:

ألا انْعِي النَّبِيَّ إِلَى العَالمِينَا ... جَمِيْعاً ولا سِيَّما المُسْلِمِينَا
ألا انْعِي النَّبِيَّ لأَصْحَابِهِ ... وَأَصْحَابِ أَصْحَابِهِ التَّابِعِيْنَا

(١) البريّة: الناس جميعاً.
(٢) الجحفل: السيد الكريم الرفيع القدر، الأنام: الناس، اللُّها: العطاء الذي لا عطاء فوقه.
(٣) الحسب: الأصل الكريم، الأنام: البشر.
(٤) الدجى: سواد الليل.
(٥) أضا: أضاء (مخفّفة).
(٦) اللظى: لهب النار أراد به جهنّم.
(٧) المقلّد: موضع القلادة من العنق.
(٨) المقعد: المرتبة.
(٩) أعظمهم يداً: أكثرهم فضلاً.
(١٠) كانت حياته نوراً يتجدّد يوماً بعد يوم.
(١١) الرشيد: الذي يحسن تقدير الأمور.

ألا انْعِي النَّبِيَّ إلى مَنْ هَدَى مِنَ الجِنِّ لَيْلَةَ إذْ تَسْمَعُوْنَا[1]
لِفَقْدِ النَّبِيِّ إمَامِ الهُدَى وفَقْدِ المَلائِكةِ المُنْزَلِينَا

هنا ينتهي الجزء الذي يختص بشاعر الإسلام كعب بن مالك رضي الله عنه ، ويليه - بمشيئة الله تعالى - حديث عن صنوه حسَّان بن ثابت رضي الله عنه .

* * *

(١) إشارة إلى أنَّ الجنّ كانوا يسترقون السمع وينصتون إلى تلاوة آيات من القرآن وينقلونها إلى قومهم.

الباب الثاني

حسان بن ثابت الأنصاري

حسان بن ثابت الأنصاري

أبو الوليد حسَّان بن ثابتٍ الأنصاري أشعر الشعراء المُخَضْرَمين وأشهرهم ، وأكثرهم دفاعاً عن رسول الله ﷺ ومدحاً له ، وأمنعهم لحوزة الإسلام وعزَّته ، حتَّى عُرِفَ بشاعر الإسلام ، وهو الذي أجاد المديح في الجاهليَّة وفي الإسلام.

شعر حَسَّان في الجاهليَّة :

أما في الجاهلية فقد كان كثير التَّنقُّل بين عواصم ملوك الشَّام من الغساسنة الذين كان يمدحهم بشعره البليغ فيحظى بعطفهم ولفتاتهم الملوكية ، وجوائزهم الغالية ، وقد وفد إلى النعمان بن المنذر وأنشده مديحه الذي صنعه له فأجازه وأكرمه ، ثم انقطع إلى مدح آل جَفْنَةَ من ملوك غسان ، وهم أولاد الحارث الأعرج وأحفاده ، وظلَّ عندهم أثيراً مكرماً حتى بعد اهتدائه إلى الإسلام وامتناعه عن مدحهم ، وهم الذين يقول فيهم :

لله دَرُّ عِصـــابَـــةٍ نـــادَمْتُهُـــمْ يَـوْمـاً بِجِلَّـقَ فـي الـزَّمَـانِ الأوَّلِ
يَمْشُونَ فِي الحُلَلِ المُضَاعَفُ نَسجُهَا مَشْـيَ الجِمَـالِ إلَـى الجِمَـالِ البُـزَّلِ

في قصيدة طويلة يمدح فيها أولاد جفنة ويبالغ في الثناء عليهم.

قدومه على عمرو بن الحارث :

حكى لنا حسَّان بن ثابتٍ الأنصاري - رضي الله عنه - فقال: قدمتُ على عمرو بن الحارث ، فاعتاص الوصول إليه ، فقلت للحاجب بعد مدة: إن أذنت لي عليه وإلا هجوت اليمن كلَّها ثم انقلبت عنكم ، فأذن لي ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده النابغة وهو جالسٌ عن يمينه وعلقمةَ بن عبدة وهو جالسٌ عن يساره ، فقال لي:

يا ابن الفريعة[1] قد عرفت عيصك ونسبك في غسان ، فارجع فإني باعث إليك بِصِلَةٍ سَنِيَّةٍ ولا أحتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هٰذين السَّبعَين ، النابغة وعلقمة أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتي ، وأنت والله لا تحسن أن تقول :

رقَـاقُ النِّعَـالِ طَيِّـبٌ حَجُـزَاتُهِـمْ ... يُحَيَّونَ بالرَّيحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ[2]
تُحَيِّيهِـمُ بِيْـضُ الـوَلائِـدِ بَينَهُـمْ ... وأكسِيةُ الإضْرِيجِ فوقَ المَشَاجِبِ[3]
يَصُـونـونَ أجسـاداً قـديمـاً نعيمُهَـا ... بخـالِصـةِ الأرْدَانِ خُضْـرِ المَنَـاكِـبِ[4]
ولا يَحْسَبُـونَ الخَيْـرَ لا شَـرَّ بعـدَهُ ... ولايَحْسَبُـونَ الشـرَّ ضَـرْبـةَ لازِبِ[5]
حَبَـوْتُ بهـا غَسَّـانَ إذ كنـتُ لاحِقـاً ... بقَـوْمِـيْ وإذْ أَعْيَـتْ علَـيَّ مَـذَاهِبِـي

فأبيت وقلت : لابدَّ منه ، فقال : ذاك إلى عمّيك ، فقلت لهما : بحق الملك إلا قدمتماني عليكما ، فقالا : قد فعلنا ، فقال عمرو بن الحارث : هاتِ يا ابنَ الفريعة ، فأنشأت :

أَسَـأَلْـتَ رَسْـمَ الـدَّارِ أَمْ لَـمْ تَسْـأَلِ ... بيـنَ الجَـوابِـيْ فـالبُضَيـعِ فَحَـوْمَـلِ

وفيها قال :

يُغْشَـونَ حَتَّـى مـا تَهِـرُّ كِـلابُهُـمْ ... لا يَسْـأَلُـونَ عَـنِ السَّـوادِ المُقْبِـلِ

إلى آخر ما قال :

بـاكَـرْتُ لَـذَّتَـهُ ومَـا مـاطَلْتُهَـا ... بـزُجَـاجـةٍ مِـنْ خَيْـرِ كَـرْمٍ أهْـدَلِ[6]

مكانته الشعرية في الجاهلية :

لا أدل من هٰذه الرواية على قدرته الشعرية الفائقة ، وامتلاكه لناصية الكلام ، وطول باعه في موضوع المدح والهجاء والفخر والحماسة ، وهي الأغراض الشعرية

(١) الفريعة : اسم أم حسان ، وسيأتي في ذكر نسبه .
(٢) يكنى برقاق النعال : تنعمهم ، بحيث لا يخصفون نعالهم ، ويشير بطيب الحجزات ، إلى أنهم أعفّة مُحصنون .
(٣) الإضريج : الخز الأحمر ، المشاجب : جمع مشجب ، الخشبة التي تُعلق عليها الثياب .
(٤) يصف في هٰذا البيت ملابسهم البيضاء التي مناكبها خضر .
(٥) يعني أنهم لا يطرون إذا أصابهم خير ، ولا يقنطون إذا أصابهم شرٌّ .
(٦) ديوان حسان بن ثابت ، طبع بيروت (دار صادر) .

التي مكنته من الوصول إلى المكانة العالية في الشعر ، حتى اعتبرته الخزرج لسانَها وترجمانَها في الحروب التي نشبت بين الأوس والخزرج في الجاهلية ، وقد سميت القصائد التي ظهرت في حروب هاتين القبيلتين (المُذَهَّبَات) وكان حسان في رأس قائمة شعراء (المذهبات) ويأتي بعده عبد الله بن رواحة .

حَسَّانُ مع قَيْسِ بنِ الخَطِيم :

ولقد تصدى حسان بالرد على الشاعر الأوسي قيس بن الخطيم في الجاهلية ، وذلك في الوقعة التي روتها كتب التاريخ من أن رجلاً من بني الحارث بن الخزرج لقي رجلاً من الأوس خارجاً من بئر أريس[1] من عند ظئر له ، ومع الخزرجي نبل له فقتله ، فلما بلغ قومَه قَتْلُ صاحبهم ليلاً ، خرجوا إلى الذي قتله فقتلوه بياتاً ، وكان لا يُقْتَلُ رجل في داره ، ولا في نخله ، فرأت الخزرج مقتل صاحبهم ، فقالوا : والله ما قتل صاحبنا إلا الأوس . فخرجوا وخرجت الأوس ، فالتقوا بالسرارة[2] ، فقتلوا بها أربعاً حتى نال كل فريق من صاحبه ، فقال قيس بن الخطيم في ذلك قصيدته التي هجا فيها الخزرج ، ومطلعها :

تَـرُوحُ مِـنَ الحَسْنـاءِ أم أنـتَ مُغْتَـدِي ... وكَيْـفَ انْطِـلاقُ عـاشِـقٍ لـم يُـزَوَّدِ

فأجابه حسان بن ثابت بقصيدة مماثلة تحتوي على معاني الفخر والاعتزاز بنفسه وقومه وذم الجبن والجبناء والتعيير لقيس بن الخطيم يبدؤها بقوله :

لَعَمْـرُ أَبِيـكَ الخَيْـرِ يـا شَعْـثُ مـا نَبَـا ... عَلَيَّ لِسَانِي في الخُطُوبِ ولا يَدِي
لِسـانِـيْ وسَيْفِـي صـارِمَـانِ كِـلاهُمَـا ... ويبلـغُ مـا لا يَبْلُـغُ السَّيـفُ مِـذْوَدِي
وإنْ أَكُ ذا مَـــالٍ قليـــلٍ أَجُـــدْ بِـــهِ ... وإن يُهْتَصَرْ عُودِي على الجَهْدِ يُحْمَدِ
فَـلا المـالُ يُنْسِينِـيْ حَيـائِـي وعِفَّتِـي ... ولا واقِعَـاتُ الـدَّهْـرِ يَفْلُلْـنَ مِبْـرَدِي
أُكَثِّـرُ أهلـي مـن عيـالٍ سِـوَاهُـمُ ... وَأَطْـوِي على المَـاءِ القَـراحِ المُبَـرَّدِ
وإنِّـي لَمُعْـطٍ مَـا وجَـدْتُ وقَـائِـلٌ ... لمُـوْقِـدِ نَـاري لَيْلَـةَ الـرِّيـحِ : أَوْقِـدِ
وإنِّـي لَقَـوَّالٌ لِـذِي البَـثِّ : مَـرْحَبـاً ... وَأَهْلاً ، إذا ما جَاءَ مِنْ غيرِ مَرْصَدِ

(١) بئر قريبة من مسجد قباء بالمدينة المنورة .
(٢) السرارة : وسط الوادي .

وإنِّي لَيَدعُونِي النَّدى فأُجِيبُهُ وأَضرِبُ بِيْضَ العَارِضِ المُتوقِّدِ
وإنِّي لَحُلوٌ تَعتَرِيْنِي مَرَارةٌ وإنِّي لتَرَّاكٌ لِمَا لَمْ أُعَوَّدِ
وإنِّي لَمِزْجَاءُ المَطِيِّ على الوَجى وإنِّي لتَرَّاكُ الفِرَاشِ المُمَهَّدِ
وأُعْمِلُ ذاتَ اللَّوثِ حتَّى أردَّهَا إذا حُلَّ عَنْهَا رَحْلُهَا لَم تُقَيَّدِ[1]

إلى أن يتذكر رحلاته إلى ملوك الشام ، وترداده إلى باب ابن سلمى النعمان بن المنذر اللخمي ، الذي وفد إليه بمديحه ، ونال منه من الجوائز السخية ما رفع مكانته في عينه ، فيشير إلى ذلك الجانب المهم الذي يؤكد حظه لدى ملوك زمانه ، على أن قيس بن الخطيم وأمثاله لم يكونوا يتمتعون بهذه الثقة والمنزلة السامية ، يقول:

أُكَلِّفُهَا أَنْ تُدْلِجَ الليلَ كُلَّهُ تَرُوحُ إلى بابِ ابنِ سَلمى وتَغْتَدِي
وأَلفَيْتُه بحراً كثيراً فُضُولُهُ جَواداً متَى يُذْكَرْ لهُ الخيرُ يَزْدَدِ

ثم يوجه إليه الإنذار ويهدده مما إذا اضطر إلى استخدام السلاح فيه بأيدي أبطال أعزة يضارعون ليوث العرين ، وقد شبوا على استعمال السلاح ، ثم يعيره بالجبن والضعف والجلوس إلى الحور النواعم ، وتكحيل العيون مثلهن ، وبِضِعَة النسب وقلة البضاعة ، يقول:

فلا تَعْجَلَنْ يا قيسُ وارْبَعْ فإنَّما قُصاراكَ أن تُلْقَى بكلِّ مُهَنَّدِ[2]
حُسامٍ وأرماحٍ بأيْدِي أعِزَّةٍ مَتى تَرَهُمْ يا ابنَ الخَطيمِ تَبَلَّدِ[3]
لُيوثٌ لها الأشبالُ تَحمِي عَرينَهَا مداعِيسُ بالخطيِّ في كلِّ مَشْهَدِ[4]
فقَدْ ذاقتِ الأَوسُ القتالَ وطُرِّدَتْ وأنتَ لدى الكُنَّاتِ في كلِّ مَطْرَدِ[5]
فَنَاغِ لدى الأبوابِ حُوراً نَواعِماً وكَحِّلْ مآقِيكَ الحِسَانَ بإثْمِدِ[6]

(١) ذات اللوث: يريد بها الناقة القوية.
(٢) اربع: انتظر وتوقف ، قصاراك: بمعنى غايتك.
(٣) يعني: بسيوف حسام ، تبلد في الأصل تتبلد بمعنى تتحير.
(٤) المداعيس: جمع مدعاس ، يعني كثير الطعن بالرماح ، عرين: مأسدة.
(٥) الكنات: جمع الكنة بالضم ، الجناح الذي يخرج من الحائط ، أو سقيفة تكون فوق باب الدار ، وبالفتح ، بمعنى زوجة الابن أو الأخ ، مطرد: مكان المطاردة في القتال.
(٦) ناغ: بمعنى غازل.

نَفَتْكُمْ عَنِ العَلياءِ أُمٌّ لَئِيْمَةٌ وَزَنْدٌ متى تُقْدَحْ بهِ النَّارُ يَصْلَدِ[1]

شعره في بعض أيام الجاهلية:

وكذلك فإن له مواقف شعرية في الحروب التي نشبت في الجاهلية سواء عاصرَتْه أو سَبَقَتْهُ ، ففيما يتصل بيوم بُعَاث الذي سبقه ، وتقاتلت فيه القبيلتان الأوس والخزرج بسبب قتل سُمَيْرٍ الأوسيِّ لبُجَيْرٍ مولى مالك بن العجلان سيد الحَيَّيْنِ ، والذي يعرف بيوم سمير ، كانت له مناقضة شعرية بينه وبين قيس بن الخطيم وأبي قيس ابن الأسلت ، وكانا شاعِرَي الأوس وفي طليعة المنافحين عنها ، فاستهل قيس بن الخطيم قصيدته ، بالبيت المذكور دانيه:

رَدَّ الخلِيطُ الجِمَالَ فانْصَرَفُوا ماذا عَلَيْهِمْ لَو أَنَّهُمْ وَقَفُوا[2]

وردَّ عليه حسان بقصيدة تضارعها ، يقول:

ما بالُ عَينِي دموعُها تَكِفُ مِن ذِكْرِ خَوْدٍ شَطَّتْ بها قُذُفُ[3]

حتى يأتي إلى آخر بيت من قصيدته:

إنَّ سُمَيْراً عبدٌ طغَى سفهاً ساعَدَهُ أَعْبُدٌ لَهُمْ نَطَفُ

كما يعيِّر حسانُ أبا قيس بن الأسلت مما أصاب بني الأوس في يوم مُعَبِّس ومُضَرَّس والرَّبيع ، ويهجوهم في قصيدة يبدؤها بقوله:

ألا أَبلِغْ أبا قيسٍ رسولاً إذا أَلْقَى لَهَا سَمْعَاً تَبِيْنُ[4]

ويفتخر بقومه ويقول في خلال هذه القصيدة:

قَتَلْتُمْ واحداً منَّا بأَلْفٍ هَلاَ لله ذا الظَّفَرُ المُبِيْنُ
وذلكَ أَنَّ أَلفَكُمُ قَليلٌ لواحِدِنا ، أَجَلْ أَيضاً ومَيْنُ

وقد عابه النقاد في هذا الشعر بكلمة (أيضاً) التي لم تزد من قيمة الكلام هنا.

وإذا استعرضنا شعره الجاهلي بكامله نستطيع أن نجد اللون الغالب فيه الفخر

(١) يصلد: يصوت ولا يوري.
(٢) ديوان قيس بن الخطيم.
(٣) ديوان حسان ، قافية الفاء.
(٤) ديوانه ، ص ٢٥٥.

والهجاء والغزل ، وقد يشوبه أحياناً شيء من الأفحاش كما قد حدث في شعره الذي قاله رداً على زوجته شعثاء الأسلمية التي هجته بعد نزاعٍ وقع بينه وبينها ، وقد قال فيما قال:

وَيْـلَ أُمِّ شَعْثَـاءَ شَيْئَـاً تَستغيـثُ بـهِ إذا تَجَلَّلَهَـا النَّعْـظُ[1] الأَفَـاقِيْـحُ[2]

وكذلك نجد في كلامه المدح والوصف ، كوصف الخمر وساقيها ونديمها وما إلى ذلك.

من هنا كانت لحسان في الجاهلية مكانة ممتازة بين شعرائه المعاصرين ، وقد نال شعره قبولاً من النواحي الأدبية والبلاغية الممتازة ، حتى إنه فاق معاصريه في فنون الكلام من رقة التعبير ودقة المعاني ، وجمال الواقع وعذوبة اللفظ وجزالته. فحظي باحترام الجميع واعترافهم بعلوّ مكانته ، ولقّب بشاعر الأنصار في أيام الجاهلية بالرغم من وجود كبار الشعراء في عصره وقومه ، ثم إن شعره الذي قاله في الجاهلية ، إنما يدل بوضوح على علوّ كعبه في الشعر وتصرفه في مناحي الكلام ، وإن كان كلامه في الإسلام قد تنزه وأضفى عليه الدين لوناً ثابتاً من الطهر والجمال مع تعمقه في التعبير ، والموضوعية في الفن.

أسرة حسان:

وحسان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني مالك بن النجار ، وكان اسم النجار: تيم اللات في الجاهلية ، فجعله رسول الله ﷺ (تيم الله) لئلا يكون في أنساب الأنصار (تيم اللات)[3] وهو من الخزرج ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان من اليمن ، وأمه الفريعة بنت خالد بن قيس بن لوذان من الخزرج كذلك.

ولد حسان في يثرب عام ٥٦٣ م ، فكان يكبر النبي الكريم ﷺ بثماني سنوات ، إذ إن مولده ﷺ إنما كان عام ٥٧١ م ، وحسان من قبيلة الخزرج التي تمتعت بالسيادة على الأنصار ، لأن رجالها كانوا يعتبرون أنفسهم من بيت شرف وعزّ

(١) النعظ بالفتح يريد به الذكر.
(٢) انظر الدكتور محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص ٢٦٨.
(٣) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ٤/ ٣.

وسؤدد ، وقد تملك هـٰذا الشعور حسان ، كما يتجلى في شعره[1]:

ويَثْـرِبُ تعلـمُ أَنَّـا بهـا إذا التبَـسَ الأمـرُ مِيـزانُهـا
ويَثْـرِبُ تعلـمُ أَنَّـا بهـا إذا قحَـطَ القَطْـرُ نُـوآنُهـا
ويَثْـرِبُ تعلـمُ أَنَّـا بهـا إذا خـافَـتِ الأَوسُ جيـرانُهـا
ويَثْـرِبُ تعلـمُ أنَّ النَّبِيْـتَ عنـدَ الهَـزَاهِـزِ ذُلَّاذهـا[2]
متـى تَـرَنَـا الأوسُ فـي بِيْضِنَـا نَهـزُّ القَنـا تَخْـبُ نِيـرانُهـا
وتُعْـطِ القِيَـادَ علـى رَغْمِهَـا ويَنْـزِلُ مِـنَ الهَـامِ عِصْيـانُهـا

وكانت تَصِلُ بني النجار صلةُ رحم بآل هاشم بن عبد مناف وقرابة برسول الله ﷺ ، إذ إن سلمى بنت عمرو من بني عدي بن النجار أمُّ عبد المطلب جدّ رسول الله ﷺ[3] ونرى حسان يفتخر ببني النجار قائلاً:

قَـوْمِـي بنـو النَّجـارِ إذ أَقْبَلَـتْ شَهْبـاءُ تَـرمِـي أَهْلَهَـا بـالقَتَـامْ
لا نَخْـذُلُ الجَـارَ ولا نُسْلِـمُ الـ مَـولـى ، ولا نخصِـمُ يَـومَ الخِصَـامْ
منَّـا الـذي يُحْمَـدُ مَعْـرُوفُـهُ ويَفْـرُجُ اللـزْبَـةَ يـومَ الـزِّحَـامْ[4]

حسان يستبشر بالإسلام:

وقد كان حسان أدرك بشرى ولادة رسول الله ﷺ وهو ابن سبع أو ثماني سنوات وكان صدره قد انشرح لذلك الدين الذي سيظهر عن طريقه ﷺ منذ صغره ، وكان منه على ميعاد ، يقول:

«إني لغلام يَفَعٌ ابنُ سبعِ سنينَ أو ثمانٍ ، إذ يهوديٌ بيثربَ يصرخ ذات ليلة: يا معاشرَ يهود ، فلما اجتمعوا قالوا: ويلكَ مالكَ؟ قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به في هـٰذه الليلة ، وأدركه اليهودي ، ولم يؤمن به ، وهـٰذا يدل أنه عُمِّر في الجاهلية ستين سنة ، لأنه ذكر أنه أدرك ليلة ولد رسول الله ﷺ ، وله يومئذ ثماني

(١) ديوانه ، ص ٢٥٤.
(٢) النبيت: الخسيس ويريد به عمرو بن مالك بن الأوس ، الهزاهز: الحروب والفتن التي تهز الناس.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية: ١/ ١١٢.
(٤) اللزبة: الشدة ، ديوان حسان ، ص ٢٢٨.

سنين ، والنبي الكريم ﷺ بعث وله أربعون سنة ، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وقدم المدينة ولحسّان يومئذ ـ على ما ذكر ـ ستون سنة أو إحدى وستون سنة ، وحينئذ أسلم»[1] .

إسلامه :

كان حسان يترقب الفرصة المناسبة التي ينتهزها للقاء النبي الكريم ﷺ والدخول في الإسلام ، فكانت الهجرة أغلى فرصة وأسعد مناسبة حينما قامت المدينة كلها ترحب بالرسول الكريم ﷺ ، وتفرش محاجر عيونها في طريقه ، ولما وصل النبي الكريم ﷺ المدينة حضر إليه مع مَن حضروا من جماعة الأنصار ، وعرض نفسه عليه لكي يقبله كخادم له ولدينه ، ويسمح له بالذَّبِّ عن رسالته بطريق الكلام والبيان إذا لم يتمكن من ذلك بوساطة السيف والسنان ، وقبله رسول الله ﷺ كأعز عضو من أعضاء الأسرة الإسلامية ، وارتاح بانضمام هٰذا العضو الجديد إلى الجماعة المؤمنة التي كانت تعتبر درعاً للدعوة الإسلامية في هٰذا المجتمع الجديد والذي كان بحاجة إلى رجال يدافعون عنه بالقول ، الذي كان يعتبر أقوى سلاح بجانب السلاح المادّي ، وحسان لم يكن مجهول المكانة في الشعر ، فقد قضى أطول مدة في هٰذا المجال وسار الناس بشعره البليغ في كل مكان ، وذاع صيته الجميل في كل مجتمع ، وأُنشد قريضه في كل بيتٍ ونادٍ .

صفحة جديدة في تاريخ الدفاع عن الإسلام :

فكان دخول حسان في الإسلام صفحة جديدة في تاريخ الدفاع عن الدعوة الإسلامية وعن صاحبها ﷺ ، وكان إسلامه بداية حياة جديدة بدأها حسان بعد ستين سنة قضاها في الجاهلية ، فكأنه يولد اليوم من جديد ، ويبدأ حياته منذ إسلامه ودخوله في كنف رسول الله ﷺ ، وتسميته بشاعر الإسلام الذي كان لكلامه من الوقع الكبير والتأثير العميق ما لم يكن للسيف والسلاح ، وقد أضفى الإسلام على شعره لوناً ثابتاً من الحب والإخلاص ؛ ففي كتاب (تاريخ الأدب العربي) لعمر فروخ : «واكتسب شعر حسان في الإسلام كثيراً من العذوبة والإخلاص ، وكثرت

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني : أخبار حسان ، ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ .

فيه التعابير الإسلامية والاقتباس من القرآن الكريم ، وحسانُ خليقٌ أن يُسمّى رأس البديعيين ، فهو الذي بدأ فن الشعر في المديح النبوي الشريف»[1] .

لما وصل النبي الكريم ﷺ إلى المدينة قدم له الأنصار كل شيء من الإيواء والأمن ، وبذلوا كل غالٍ ورخيص من النفوس والنفائس في سبيل الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ ، ولقد كان الإسلام أغلى هدية قدمها إليهم الرسول الكريم ﷺ مقابل ما قدمه الأنصار له من الإكرام والتأمين وما تفاخروا به من الفخر والاعتزاز بمقدمه ﷺ إلى بلادهم ، وهنالك جاشت قريحة حسان بن ثابت فقرض مديحاً للرسول الكريم ﷺ تحيةً له بوصوله إلى إخوة له في دارِ أَمْرٍ ليس له فيها عدوّ قريب ولا ظالم حقود ، يقول :

ثَوَى في قريشٍ بضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... يُذَكِّرُ لو يَلْقَى خَلِيْلاً مُوَاتِيا[2]
ويَعرِضُ في أهلِ المَواسمِ نَفْسَهُ ... فلم يرَ مَنْ يُؤْوِي ، ولم يَرَ دَاعياً
فلمَّا أَتَانا واطمأنَّتْ به النَّوَى ... فأصبحَ مسروراً بطَيْبَةَ راضياً
وأصبحَ لا يخشى عداوةَ ظالمٍ ... قريبٍ ، ولا يخشى مِنَ النَّاسِ باغياً[3]
بَذَلْنا له الأموالَ من جُلِّ مَالِنا ... وأنفسَنا ، عندَ الوغَى والتَّآسِيا[4]
نحاربُ مَنْ عَادَى مِنَ الناسِ كُلِّهِمْ ... جميعاً ، وإنْ كانَ الحبيبَ المُصَافيا
ونعلَمُ أنَّ اللهَ لا ربَّ غَيْرُهُ ... وأَنَّ كتابَ اللهِ أصبحَ هَادِيا[5]

ولما علمت قريش بوصول رسول الله ﷺ إلى المدينة بسلام ، وعلمت بالحفاوة البالغة التي قوبل بها في المدينة ، والسرور الذي عمَّ فيها بمَقْدَمه ، وما قدمه الأنصار من الأخوَّة العظيمة والمساعدات من كل نوع ، ومن إيثار المهاجرين على أنفسهم ، تحرقت قريش بذلك غيظاً وتناول شعراؤها النبي الكريم ﷺ بهجاء مُقْذِع ، وكانوا ثلاثة رهط ، عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، فكان يهجوهم حسان بن ثابت ، وكعب بن

(١) تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ، ص ٣٢٦ .
(٢) ثوى : أقام ، مواتياً : موافقاً .
(٣) باغياً : من البغي عليه .
(٤) الوغى : الحرب ، التآسي : المواساة والمعاونة .
(٥) ديوان حسان قافية الياء ، ص ٢٦١ .

مالك ، وعبد الله بن رواحة ، ولكن هجاء حسان كان أشدَّ عليهم ، يقول صاحب «الأغاني» وهو يتحدث عن هؤلاء الشعراء وصنيعهم ضد قريش .

وقيل: كان يهجو رسولَ الله ﷺ ثلاثةُ رهط من قريش: عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، فقال قائل لعليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

اهجُ عنا القوم الذين هجونا ، فقال رجل: يا رسول الله ، ائذن لعلي كيما يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا ، فقال: ليس هناك ، أو: ليس عند ذاك ، ثم قال للأنصار: ما يمنع الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال: والله ما يسرني به مَقْوَلٌ من بُصرى وصنعاء ، فقال: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: أسلُّك كما تُسَلُّ الشعرة من العجين ، فكان يهجوهم ثلاثةٌ من الأنصار: حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، ويعلم أنه ليس فيهم شرٌّ من الكفر ، وكان في ذلك الزمان أشدَّ القولِ على الكفار قولُ حسان بن ثابت ، وأهونَ القولِ عليهم قولُ ابن رواحة ، فلما أسلموا وتفقهوا في الإسلام كان أشدَّ القول عليهم قولُ ابن رواحة .

وقيل: قام حسان بن ثابت فقال: يا رسول الله، ائذن لي فيه ـ يعني أبا سفيان بن الحارث ، وأخرج لساناً أسود ، وقال: يا رسول الله ، لو شئت لفريت به المِزَادَ[1] ائذن لي فيه ، فقال: اذهب إلى أبي بكر ليحدثك بحديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك ، فأتى أبا بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ فأعلمه بما قال رسول الله ﷺ فقال: كفّ عن فلان واذكر فلانة ، فقال حسان:

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فأجبتُ عنهُ ... وعندَ الله في ذاكَ الجَزَاءُ
فإنَّ أبي ووالِدَهُ وعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ منكُمْ وِقَاءُ
أتهجُوْهُ ولستَ لهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُما الفِدَاءُ

(١) المزاد: جمع مِزادة ، وهي التي يحمل فيها الماء.

وقيل: لما أُنْشِدَت قريشُ شعرَ حسانَ بن ثابت قالت: إن هٰذا الشتمَ ما غاب عنه ابنُ أبي قحافة[1] .

وجاء في «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي حيث يتحدث عن حسان بن ثابت وشعره:

«وحدثني يزيد بن عياض بن جعدبة أن النبي الكريم ﷺ لما قدم المدينة ، تناولته قريش بالهجاء ، فقال لعبد الله بن رواحة: رُدَّ عنِّي ، فذهب في قديمهم وأولهم فلم يصنع في الهجاء شيئاً فأمر كعب بن مالك ، فذكر الحرب ، كقوله:

نَصِلُ السُّيوفَ إذا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا ... قُدُمَاً، ونُلْحِقُهَا إذا لَمْ تَلْحَقِ

فلم يصنع في الهجاء شيئاً ، فدعا حسان بن ثابت فقال: اهجهم وائت أبا بكر يخبرك ، أي: بمعائب القوم ، وكان أبو بكر علاَّمةَ قريش ، وكان جبير بن مطعم قد أخذ العلم عن أبي بكر .

روى شعبة عن عدي بن ثابت الأنصاري: أنه سمع البراء بن عازب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ: «اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك» .

قال ابن جعدبة في حديثه: وأخرج حسان لسانه حتى ضرب على صدره وقال: والله يا رسول الله! وما أحب أن لي به مقولاً في العرب ، فصب على قريش من شآبيب شر ، فقال رسول الله ﷺ: «اهجهم كأنك تنضحهم بالنبل»[2][3] .

في هٰذه الأيام صنع حسان قصيدة يفتخر فيها بقومه ، ويذكر محاسنهم الجمة وما كانوا عليه من صفات عالية وأخلاق فاضلة حينما كانوا في أرضهم وبلادهم (اليمن) ، وتحدث عما كانوا يعيشون فيه من عزة وتكرم ومكانة مرموقة ، ثم انتقلوا إلى بلاد يثرب فلم يفقدوا شيئاً مما كانوا عليه من قوة وغَلَبة ومن سمعة في الحروب

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، أخبار حسان بن ثابت ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦.
(٢) المقول: اللسان ، يقول فيجيد القول ، الشآبيب: جمع شؤبوب ، وهو دفعة المطر فيها برد ، نضح القوم بالنبل نضحاً: رشقهم به رشقاً متفرقاً ، أمره بأن يجرحهم جرحاً لا يبلغ الطعن البعيد الفاحش ، وهٰذا أكرم الأدب في الهجاء.
(٣) طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام الجمحي ، ص ١٨١ .

طيِّبة ، حتى نالوا تقديرَ الناس وإعجابَهم وظلوا يعيشون في سعادة العز والمجد وسموِّ النفس ، وخوض في المعارك التي كانت تشغل بالهم والتي كانت تُثار من قِبل اليهود ومن حولهم من القبائل فينة وأخرى ، فكانت الحرب سجالاً بينهم يُبْلُون فيها أحسن ما يمكنهم من البلاء.

وكانوا كذلك حتى جاءهم النبي الكريم ﷺ بالحق والنور ، فالتفُّوا حوله وآمنوا به وصدقوه ، ودخلوا في دين الله أفواجاً ، ذلك الدين الذي تكفَّل لهم بالسلام والأمن والعز والهدوء ، والسعادة والاستقرار ، وأنقذهم من أوزار الحروب ونيران الفساد وشقاء الإحَنِ والعداوات ، ولعلّ مناسبة الحديث عن حسان في هٰذا الموقف يسمح لنا بإنشاد قصيدته الميمية ، هٰذه التي تحتوي على أربعة وثلاثين بيتاً ، وهي كما يأتي:

أولئكَ قَومي فإنْ تَسألي ... كِراماً إذا الضَّيفُ يَوْماً أَلَمْ
عِظَامُ القُدُورِ لأَيسَارِهِمْ ... يَكُبُّونَ فيها المُسِنَّ السَّنِمْ(١)
يُواسُونَ مولاهُمُ في الغِنَى ... ويَحْمُونَ جارهُمْ إنْ ظُلِمْ
وكانُوا مُلُوكاً بِأَرْضِيِّهِمِ ... يُبادُونَ غَضَباً بأمرٍ غَشِمْ(٢)
مُلُوكاً على النَّاسِ لم يُمْلَكُوا ... مِنَ الدَّهرِ يوماً كَحِلِّ القَسَمْ(٣)
فأنْبَوا بِعادٍ وأشْيَاعِها ... ثَمُودَ وبعضِ بقَايا إِرَمْ(٤)
بِيَثْرِبَ قد شيَّدوا في النَّخيلْ ... حُصُوناً ودُجِّنَ فيها النَّعَمْ(٥)
نَوَاضِحَ قَدْ عَلَمَتْها اليهو ... دُ: عَلَّ إليكَ وقولاً هَلُمْ(٦)

(١) الأيسار: جمع يسر كسبب ، وهم القوم المجتمعون على الميسر ، المُسِنُّ: من الدواب ما دخل في السنة الثامنة ، وذلك هو وقت طلوع الأسنان في الدواب ، السنم: العظيم السنام.
(٢) يبادون: يكاشفون ، الغضب: الأسد الغضوب ، غشم: كثير الظلم والغضب.
(٣) كحل القسم: يريد أنهم ملكوا الناس وحل لهم ذلك لأنهم وفوا بحق الملك كما يحل المرء من القسم حين يفي به.
(٤) أنبوا: أخبروا ، إرم: من نسل نوح هو ابن سام بن نوح ، وهو جد عاد وثمود الأعلى.
(٥) دُجّن النعم: ألف الناس وأقام بينهم ، والنعم: الإبل.
(٦) عل: زجر تزجر به الإبل ، وعل من العَلّ وهو الشرب لثاني.

وفيما اشْتَهَوا من عَصِيرِ القِطَافِ ... وعَيْشٍ رَخِيٍّ على غيرِهِمْ(١)
فسارُوا إليهِمْ بأثقالِهِمْ ... على كلِّ فَحْلٍ هِجَانٍ قَطِمْ(٢)
جيادُ الخيولِ بأجنَابِهِمْ ... وقد جلَّلوها ثِخانَ الأَدَمْ(٣)
فلمَّا أَنَاخُوا بجَنْبَيْ صِرارٍ ... وشَدُّوا السُّروجَ بِلَيِّ الحُزُمْ(٤)
فما راعَهُمْ غَيْرُ مَعْجِ الخُيُو ... لِ، والزَّحْف مِنْ خَلْفِهِم قد دَهَمْ(٥)
فَطَاروا شِلالاً وقد أُفْزِعُوا ... وطِرْنَا إليهمْ كَأُسْدِ الأَجَمْ(٦)
على كُلِّ سَلْهَبَةٍ في الصِّيَا ... نِ لا تَسْتكينُ لِطُولِ السَّأَمْ(٧)
وكُلِّ كُمَيْتٍ مُطَارِ الفُؤَا ... دِ أمينِ الفُصوصِ كِمِثْلِ الزُّلَمْ(٨)
عَلَيْهَا فَوَارِسُ قد عَاوَدُوا ... قِرَاعَ الكُمَاةِ وضَرْبَ البُهَمْ(٩)
لُيوثٌ إذا غَضِبوا في الحُرو ... بِ لا ينكُلُونَ ولكنْ قُدُمْ(١٠)
فَأُبْنَا بِسَادَتِهِمْ والنِّسا ... ءِ قَسْراً وأَمْوَالُهُم تُقْتَسَمْ
وَرِثْنَا مساكنَهمْ بَعْدَهُمْ ... وكنَّا مُلُوكاً بها لَم نَرِمْ(١١)
فلمَّا أَتَانا رسولُ المَلِيـ ... ـكِ بالنُّورِ والحَقِّ بَعْدَ الظَّلَمْ
رَكَنَّا إليهِ ولَمْ نَعْصِهِ ... غَدَاةَ أَتَانَا مِنَ أرضِ الحَرَمْ
وقُلْنَا صَدَقْتَ رسولَ المَلِيـ ... ـكِ هَلُمَّ إِلَيْنَا وفِينَا أَقِمْ

(١) عصير القطاف: الخمر ، والقطاف: ما يقطف من عنب وغيره.
(٢) الهجان: الإبل البيض وهي أكرمها ، قطم: شهوان هائج.
(٣) بأجنابهم: تسير إلى جانبهم ، جللوها ثخان الأدم: غطوها بالجلود الثخينة.
(٤) صرار: موضع بالمدينة ، وقيل: جبل وقيل: ماء ، الحُزُم: جمع حزام.
(٥) معج الخيول: سرعتها في ذهابها ومجيئها ، دهمهم ، أي غشيهم.
(٦) شلالاً: متفرقين.
(٧) السلهبة: الفرس إذا عظمت وطالت ، الصيان: الحفظ.
(٨) الكميت من الخيل: ما لونه الحمرة يمازجها السواد ، مطار الفؤاد: ذكي نشيط ، أمين الفصوص: قوي المفاصل ، الزلم: القِدح.
(٩) البهم: جمع بهمة ، وهو الفارس الذي لا يعرف من أين يؤتى لشدة بأسه.
(١٠) ينكلون: مثلثة الكاف ، يجبنون ، قدم: يقدمون ويهجمون.
(١١) لم نرم: لم نتحول ، يقال: ما رام من مكانه ، يعني: مازال عنه.

فنَشْهَـــدُ أَنَّـــكَ عبـــدُ المَلِيْـ ... كِ أُرسِلْـتَ نُـوراً بـدِيْـنٍ قِيَـمْ[1]
فَنَـادِ بمـا كُنْـتَ أَخفيتَـهُ ... نـداءً جِهَـاراً ولا تكتَتِـمْ
فـإنَّـا وأولادُنَـا جُنَّـةٌ ... تَقِيْـكَ وفـي مـالِنَـا فـاحْتَكِـمْ
فنحـنُ ولاتُـكَ إذ كَـذَّبُـوْ ... كَ فنَـادِ نـداءً ولا تَحْتَشِـمْ
فطـارَ الغُـوَاةُ بـأشْيَـاعِهِـمْ ... إلَيْـهِ، يظنُّـونَ أَنْ يُخْتَـرَمْ[2]
فقُمْنـا بـأسْيَـافِنـا دونَـهُ ... نُجـالِـدُ عنـهُ بُغَـاةَ الأمَـمْ
بكـلِّ صَقِيْـلٍ لـهُ مَيْعَـةٌ ... رَقِيْـقُ الـذُّبـابِ غَمُـوسٍ خَـذِمْ[3]
إذا مـا يُصـادفُ صُـمَّ العِظَـا ... م لـم يَنْـبُ عَنهـا ولـم يَنْثَلِـمْ
فـذلـكَ مـا أورثَتْنَـا القُـرو ... نُ مَجْـداً تَلِيْـداً وعِـزاً أَشَـمْ[4]
إذا مـرَّ قَـرنٌ كفـى نَسْلُـهُ ... وخَلَّـفَ قَـرْنَـاً إذا مـا انقَصَـمْ[5]
فَمَـا إنْ مِـنَ النَّـاسِ إلا لَنَـا ... عليـهِ وإنْ خَـاسَ فَضْـلُ النِّعَـمْ[6][7]

قريش تحاول أن تنتقم من حسان:

هٰذه القصيدة التي أنشدها تؤكد مدى ذلك الاحتفاء والترحيب اللذين تلقت بهما المدينةُ وأهلُها رسولَ الله ﷺ، وقد اطلعت قريش على هٰذه العواطف الجميلة التي أبداها الأنصار نحو رسول الله ﷺ، وخاصة حسان بن ثابت الذي وضع جميع مواهبه الشعرية في تأييد الإسلام ودعم الدعوة التي أتى بها رسول الإسلام، وكانت مكانة حسان الشعرية معروفة لديهم بقدرته الفائقة، وكلامه الرصين القوي، وساء قريشاً أن يقفَ شاعرٌ مثلُ حسَّانَ هٰذا الموقفَ الشجاعَ من الدفاع عن قضية الإسلام فأرادت أن تنتقم من حسان بتوجيه هجاء مقذع نحوه،

(١) دين قيم: بكسر القاف وفتح الياء، الدين المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج.
(٢) يخترم: بمعنى يصاب ويهلك.
(٣) ميعة: صفاء يشبه الماء، رقيق الذباب: الحاد، غموس: موغل في الشخص الذي يطعن، خذم: بمعنى قاطع.
(٤) القرون: جمع قرن، بمعنى سيد القوم، عز أشم بمعنى: الرفيع التليد.
(٥) كفى نسله يعني: قام من بعده بالواجب خير قيام، انقصم: بمعنى انقطع وانقرض.
(٦) خاس: غدر وأخلف.
(٧) ديوان حسان، وحسان بن ثابت للدكتور محمد طاهر درويش.

والنيل من شخصيته، فأوعزت شاعراً لها يدعى: أمية بن خلف الخُزَاعي[1] أن يتناوله بالهجاء، فقال:

ألا مَـنْ مُبلـغٌ حَسَّـانَ عَنِّـي ... مُغَلْغَلَـةً، تَـدُبُّ إلـى عُكـاظِ[2]
أَليـسَ أَبُـوكَ فينـا كـان قَيْنَـاً ... لدى القَيْناتِ، فَسْلاً في الحِفاظِ[3]
يَمَـانيّـاً يظَـلُّ يَشُـدُّ كِيْـرَاً ... وينفـخُ دائمـاً لَهَـبَ الشُّـوَاظِ[4]

فأجابه حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

أَتـانـي عـن أُمَيَّـةَ زورُ قَـوْلٍ ... ومَـا هُـوَ بـالمَغِيـبِ بـذي حِفَـاظِ
سـأَنشُـرُ إنْ بقيـتُ لكُـمْ كـلامـاً ... يُنشَـرُ فـي المَجَـامِـعِ مِـنْ عُكَـاظِ
قـوافِـيَ كـالسِّـلامِ إذا استَمـرَّتْ ... مِـنَ الصُّـمِّ المُعَجْـرَفَـةِ الغِـلاظِ[5]
تَـزُورُكَ إنْ شَتَـوْتَ بِكُـلِّ أَرضٍ ... وتَـرْضَـخُ فـي مَحَلِّـكَ بـالمَقَـاظِ[6]
بَنَيْـتُ عليـكَ أبيَـاتـاً صِـلابـاً ... كـأسْـرِ الـوَسْـقِ قُفِّـصَ بـالشِّظـاظِ[7]
مُجَلَّلَـةً تُعَمِّمُـهُ شَنَـاراً ... مُضَـرَّمَـةً تَـأَجَّـجُ كـالشُّـواظِ[8]
كَهَمْـزَةِ ضَيْغَـمٍ يَحْمِـيْ عَـرِينَـاً ... شَـدِيـدِ مَغَـارِزِ الأَضْـلاعِ خَـاظِـي[9]
تَغُـضُّ الطَّـرفَ أَنْ ألقـاكَ دُونِـي ... وتَـرْمِـيْ حيـنَ أُدْبِـرُ بـاللَّحَـاظِ[10]

أول شعر يقوله حسان في الإسلام:

ولما خرجت قريش في طلب نُقَبَاءِ الأَنصار الإثني عشر يومَ العقبة في مِنًى حينما

(١) وبعضهم يقول: أمية بن خلف الجمحي.
(٢) المغلغلة: الرسالة.
(٣) القين: العبد، الفسل: النذل، الحفاظ: المحافظة على المحارم.
(٤) الكير: منفخ الحداد، الشواظ: اللهب لا دخان له.
(٥) السلام: الحجارة، المعجرفة: الغليظة.
(٦) ترضخ: تكسر وتدق، المقاظ: الموضع الذي يقام فيه بالقيظ؛ الصيف.
(٧) قوله: كاسر الوسق: أي كالعدل المحكم المشدود بالشظاظ، وهي عودان يكونان في عروتي العكم؛ أي العدل، وقفص: شبك.
(٨) الشنار: العار.
(٩) همزة ضيغم: ضغطة أسد، الخاظي: المكتنز اللحم.
(١٠) ديوان حسان، طبع دار صادر بيروت.

فنَشْهَـــدُ أَنَّـــكَ عبـــدُ المَلِيْـ ... كِ أُرسِلْـتَ نُـوراً بـدِيْـنٍ قِيَـمْ[1]
فَنَـادِ بمـا كُنْـتَ أَخفيتَـهُ ... نـداءً جِهَـاراً ولا تكتَتِـمْ
فـإنَّـا وأولادُنَـا جُنَّـةٌ ... تَقِيْـكَ وفـي مـالِنَـا فـاحْتَكِـمْ
فنحـنُ ولاتُـكَ إذ كَـذَّبُـوْ ... كَ فنَـادِ نـداءً ولا تَحْتَشِـمْ
فطـارَ الغُـوَاةُ بـأشْيَـاعِهِـمْ ... إلَيْـهِ، يظنُّـونَ أَنْ يُخْتَـرَمْ[2]
فقُمْنـا بـأسْيَـافِنـا دونَـهُ ... نُجـالِـدُ عنـهُ بُغَـاةَ الأمَـمْ
بكـلِّ صَقِيْـلٍ لـهُ مَيْعَـةٌ ... رَقِيْـقُ الـذُّبـابِ غَمُـوسٍ خَـذِمْ[3]
إذا مـا يُصـادفُ صُـمَّ العِظَـا ... م لـم يَنْـبُ عَنهـا ولـم يَنْثَلِـمْ
فـذلـكَ مـا أورثَتْنَـا القُـرو ... نُ مَجْـداً تَلِيْـداً وعِـزاً أَشَـمْ[4]
إذا مـرَّ قَـرنٌ كفـى نَسْلُـهُ ... وخَلَّـفَ قَـرْنَـاً إذا مـا انْقَصَـمْ[5]
فَمَـا إنْ مِـنَ النَّـاسِ إلا لَنَـا ... عليـهِ وإنْ خَـاسَ فَضْـلُ النِّعَـمْ[6][7]

قريش تحاول أن تنتقم من حسان:

هٰذه القصيدة التي أنشدها تؤكد مدى ذلك الاحتفاء والترحيب اللذين تلقت بهما المدينةُ وأهلُها رسولَ الله ﷺ، وقد اطلعت قريش على هٰذه العواطف الجميلة التي أبداها الأنصار نحو رسول الله ﷺ، وخاصة حسان بن ثابت الذي وضع جميع مواهبه الشعرية في تأييد الإسلام ودعم الدعوة التي أتى بها رسول الإسلام، وكانت مكانة حسان الشعرية معروفة لديهم بقدرته الفائقة، وكلامه الرصين القوي، وساء قريشاً أن يقفَ شاعرٌ مثلُ حسَّانَ هٰذا الموقفَ الشجاعَ من الدفاع عن قضية الإسلام فأرادت أن تنتقم من حسان بتوجيه هجاء مقذع نحوه،

(١) دين قيم: بكسر القاف وفتح الياء، الدين المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج.
(٢) يخترم: بمعنى يصاب ويهلك.
(٣) ميعة: صفاء يشبه الماء، رقيق الذباب: الحاد، غموس: موغل في الشخص الذي يطعن، خذم: بمعنى قاطع.
(٤) القرون: جمع قرن، بمعنى سيد القوم، عز أشم بمعنى: الرفيع التليد.
(٥) كفى نسله يعني: قام من بعده بالواجب خير قيام، انقصم: بمعنى انقطع وانقرض.
(٦) خاس: غدر وأخلف.
(٧) ديوان حسان، وحسان بن ثابت للدكتور محمد طاهر درويش.

والنيل من شخصيته، فأوعزت شاعراً لها يدعى: أمية بن خلف الخُزَاعي[1] أن يتناوله بالهجاء، فقال:

ألا مَـنْ مُبلـغٌ حَسَّـانَ عَنِّـي ... مُغَلْغَلَـةً، تَـدُبُّ إلـى عُكـاظِ[2]
أَليـسَ أَبُـوكَ فينـا كـان قَيْنَـاً ... لدى القَيْناتِ، فَسْلاً في الحِفاظِ[3]
يَمَـانيّـاً يظَـلُّ يَشُـدُّ كِيْـرَاً ... وينفـخُ دائمـاً لَهَـبَ الشُّـوَاظِ[4]

فأجابه حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

أَتـانـي عـن أُمَيَّـةَ زورُ قَـوْلٍ ... ومَـا هُـوَ بـالمَغِيـبِ بـذي حِفَـاظِ
سـأَنشُـرُ إنْ بقيـتُ لكُـمْ كـلامـاً ... يُنشَـرُ فـي المَجَـامِـعِ مِـنْ عُكَـاظِ
قـوافِـيَ كـالسِّـلامِ إذا استَمـرَّتْ ... مِـنَ الصُّـمِّ المُعْجَـرَفَـةِ الغِـلاظِ[5]
تَـزُورُكَ إنْ شَتَـوْتَ بِكُـلِّ أَرضٍ ... وتَـرْضَـخُ فـي مَحَلِّـكَ بـالمَقَـاظِ[6]
بَنَيْـتُ عليـكَ أبيَـاتـاً صِـلابـاً ... كـأسْـرِ الـوَسْـقِ قُفِّـصَ بـالشِّظَـاظِ[7]
مُجَلَّلَـةً تُعَمِّمُـهُ شَنَـاراً ... مُضَـرَّمَـةً تَـأَجَّـجُ كـالشُّـواظِ[8]
كَهَمْـزَةِ ضَيْغَـمٍ يَحْمِـيْ عَـرِينَـاً ... شَـدِيـدِ مَغَـارِزِ الأَضْـلاعِ خَـاظِـي[9]
تَغُـضُّ الطَّـرفَ أَنْ ألقـاكَ دُونِـي ... وتَـرْمِـيْ حيـنَ أُدْبِـرُ بـاللَّحَـاظِ[10]

أول شعر يقوله حسان في الإسلام:

ولما خرجت قريش في طلب نُقَبَاءِ الأَنصار الإثني عشر يومَ العقبة في مِنًى حينما

(١) وبعضهم يقول: أمية بن خلف الجمحي.
(٢) المغلغلة: الرسالة.
(٣) القين: العبد، الفسل: النذل، الحفاظ: المحافظة على المحارم.
(٤) الكير: منفخ الحداد، الشواظ: اللهب لا دخان له.
(٥) السلام: الحجارة، المعجرفة: الغليظة.
(٦) ترضخ: تكسر وتدق، المقاظ: الموضع الذي يقام فيه بالقيظ؛ الصيف.
(٧) قوله: كاسر الوسق: أي كالعدل المحكم المشدود بالشظاظ، وهي عودان يكونان في عروتي العكم؛ أي العدل، وقفص: شبك.
(٨) الشنار: العار.
(٩) همزة ضيغم: ضغطة أسد، الخاظي: المكتنز اللحم.
(١٠) ديوان حسان، طبع دار صادر بيروت.

بايعوا النبي الكريم ﷺ فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر[1] والمنذر بن عمرو ، وكلاهما كانا نقيبين ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه وضربوه وربطوا يديه إلى عنقه بنَسْعِ رَحْلِهِ ، وكان كذلك حتى علم به جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف والحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وخلّصاه من أيديهم ، وعَلِمَ بذلك ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري ، شاعر قريش وفارسها ، فأخذَهُمَا باللّوم والتعنيف على تخليصهما سعداً ، وتمنى أن لو كان سعيهما لطلب المنذر بن عمرو واللحاق به ، لا إلى تخليص سعد بن عبادة ، فقال ضرار :

تَدَاركتُ سَعْداً عَنوةً فأَخَذْتُهُ ... وكانَ شِفاءً لَوْ تَداركتُ مُنْذِرَاً
ولو نِلْتُهُ طُلَّتْ هُنَاكَ جِرَاحُهُ ... وكانَتْ حَرِيَّاً أن يُهانَ ويُهْدَرا[2]

فأجابه حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ : وهو أول شعر قاله في الإسلام :

لسْتَ إلى سَعدٍ[3] ولا المَرءِ مُنْذِرٍ ... إذا ما مَطَايا القَوْمِ أَصبَحْنَ ضُمَّراً
فلَوْلا أبو وَهْبٍ لمَرَّتْ قَصَائِدٌ ... على شَرَفِ البُرْقَاءِ يَهْوِينَ حُسَّراً[4]
فإنَّا ومَنْ يَهدي القَصائِدَ نَحْوَنَا ... كمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إلى أهلِ خَيبَرا[5]
فلا تَكُ كالوَسْنَانِ يَحْلُمُ أنَّهُ ... بقَرْيَةِ كِسْرى أو بقَرْيَةِ قَيصَرَا
ولا تَكُ كالشَّاةِ الَّتِي كانَ حَتْفُهَا ... بِحَفْرِ ذِراعَيْها ، فلَمْ تَرْضَ مَحْفَرَا[6]
ولا تَكُ كالعَاوي فأقبَلَ نَحوه ... ولم يخشَهُ سَهْماً من النَّبْلِ مُضْمَرَا[7]
أتَفْخرُ بالكِتَّانِ لمَّا لبِسْتَهُ ... وقد يَلْبَسُ الأنباطُ رَيْطاً مُقَصَّرَا[8]

(١) اسم موضع قريب من مكة المكرمة.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٩٢ ـ ٩٣.
(٣) وفي رواية: إلى عمرو.
(٤) البرقاء: موضع في البادية ، ويعني: إن أبياتك لم تصل إلينا لضعفها ، لولا أبو وهب ، حُسَّراً: جمع حاسرة ، بمعنى هزيلات لاغبات.
(٥) يشير بالشطر الثاني إلى المثل المعروف ، ومعناه كما يقال: كناقل تمر إلى هجر.
(٦) يعني كالباحثة عن حتفها بظلفها.
(٧) فأقبل نحوه: معناه جعله قبالة الشيء ، والمراد بالعاوي: الذئب.
(٨) ديوان حسان ، طبع دار صادر بيروت ، ص ٥٢.

انتصار حسان لرسول الله ﷺ :

وكان حسان يشعر بمرارةِ شدة الأذى التي لقيها رسول الله ﷺ من قريش ويتأسف عليها بصفة دائمة ، فما كان يمر به خاطر من الأذى والعنت مما عاملت به قريش الرسول الكريم ﷺ إلا ويجيش صدره بغيظٍ عليها ، وطالما ظهر ذلك في صورة القريض ، كما حدث معه في خبر الهاتف من الجن الذي أخبر عن طريق رسول الله ﷺ في هجرته بعد ثلاث ليال من خروجه ، وهو يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب في مكة ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته ولا يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة ، وهو يقول[1] :

جَزَى اللهُ ربُّ النَّاسِ خيرَ جزائِهِ ... رفيقَينِ قَالا خَيْمَتَي أُمِّ مَعْبَدِ
هُما نَزلا بالبَرِّ ثمَّ ترحَّلا ... فأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفيقَ مُحمَّدِ
فيَا لَقُصَيٍّ ، ما زَوَى اللهُ عنكمُ ... بِهِ مِنْ فَخَارٍ لا يُبَارَى وسُؤْدَدِ
لِيَهْنِ بَنِي كعبٍ مقامُ فَتَاتِهِمْ ... ومَقْعَدُها للمُؤمنينَ بمَرْصَدِ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عن شَاتِها وإنَائِها ... فإنَّكمُ إنْ تسأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دعَاهَا بشَاةٍ حَائلٍ فتَحلَّبَتْ ... لَهُ بِصَرِيحٍ ضرة الشاةِ مُزْبِدِ
فغَادَرَها رهناً لَدَيْها لحَالِبٍ ... يُرَدِّدُها في مَصْدَرٍ ثُمَ مَوردِ

فلما بلغ حسان هٰذه الأبيات قال وكأنه يجاوب الهاتف :

لقَدْ خابَ قومٌ غابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ ... وقُدِّسَ مَنْ يَسرِي إليهِمْ ويَغْتَدِي
تَرحَّلَ عن قومٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ ... وحَلَّ على قَوْمٍ بنورٍ مُجَدِّدِ
هَداهُمْ بهِ بعدَ الضَّلالةِ رَبُّهُمْ ... وأَرشَدَهُمْ ، مَنْ يَتْبَعِ الحقَّ يَرْشُدِ
وهَلْ يَسْتَوي ضُلَّالُ قومٍ تَسَفَّهُوا ... عَمَىً ، وهُداةٌ يهتَدُونَ بمُهْتَدِ
لقَدْ نزلَتْ منهُ على أهلِ يَثْرِبٍ ... رِكابُ هُدىً ، حَلَّتْ عليهِمْ بأسْعَدِ
نَبِيٌّ يَرَى ما لا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ ... ويَتْلُو كِتَابَ اللهِ في كُلِّ مَسْجِدِ
وإن قالَ في يومٍ مَقَالةَ غائِبٍ ... فتَصْديقُها في اليومِ أو في ضُحَى الغَدِ
لِيَهْنِ أَبا بَكْرٍ سَعادَةُ جَدِّهِ ... بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ[2]

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ١٣٢.
(٢) ديوان حسان ، طبع دار صادر بيروت.

وأصبح حسان موضع ثقة رسول الله ﷺ وارتياحه ، يطلب منه أن ينشد في المناسبات حتى صار ترجمانَه وشاعرَه ، يمدحه ويرد عنه عاديات السفهاء ويهجو شعراء الكفار ، وطالما يقول له ﷺ: «اهجهم وروح القدس معك». ومن هنالك كان له هجاء مقذع متكرر لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الذي كان شديد العداء والبغض للرسول الكريم ﷺ وللمسلمين ، يقول حسان يهجوه:

وإنَّ سنَامَ المَجْدِ من آلِ هاشمٍ ... بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ ، ووالدُكَ العَبْدُ[1]
ومَنْ وَلَدَتْ أبناءَ زُهْرَةَ منهمُ ... كرامٌ ولم يَبْلُغْ عَجائزَكَ المَجْدُ[2]
وأنتَ زَنِيمٌ نِيطَ في آلِ هاشمٍ ... كما نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ[3]
وإنَّ امرأً كانَتْ سُمَيَّةُ أُمَّهُ ... وسَمْراءُ ، مَغْلوبٌ إذا بَلَغَ الجَهدُ[4]

وقال يهجو العاصي بن هشام بن المغيرة المخزومي:

بَنِي القَيْنِ هَلاَّ إذْ فَخَرْتُمْ بِرَبْعِكُمْ ... فَخَرْتم بكِيْرٍ عِنَد بابِ ابنِ جُنْدُعِ
بَنَاهُ أَبُوكُمْ قبلَ بُنْيانِ دارِهِ ... بحَرْسٍ ، فأخْفَوا ذِكْرَ قَيْنٍ مُدَفَّعِ[5]
وأَلقَوا رَمَادَ الكِيْرِ يعرفُ وسطَكُمْ ... لدى مَجْلِسٍ منكُمْ ، لئيمٍ ومُفْجَعِ[6]

وقيل: قال النبي الكريم ﷺ ليلة وهو في سفر: «أين حسان بن ثابت»؟ فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال: «احْدُ» فجعل ينشدُ ويُصغِي إليه رسول الله ﷺ ويستمع ، فما زال يسمع إليه وهو سائق راحلته حتى كاد رأس راحلته يمس الوَرِكَ ، حتى فرغ من نشيده ، فقال رسول الله ﷺ: «لَهَذا أشدُّ عليهم من وقع النَّبل»[7].

(١) يروى (سناء) بدل سنام ، بنت مخزوم هي فاطمة بنت عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهي أم عبد الله والد رسول الله ﷺ.
(٢) ذلك لأن أم أبي سفيان كانت أم ولد ، وكذلك أم أبيه الحارث.
(٣) وفي رواية: هجين بدل: زنيم.
(٤) سمية أم الحارث بن عبد المطلب وسمراء أم أبي سفيان بن الحارث.
(٥) الحَرْس بتسكين الراء: السرقة ، مدفع: المدفوع النسب.
(٦) ديوان حسان ، طبع دار صادر بيروت ، قافية العين.
(٧) أخبار حسان ، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ٢/٥٠٩.

دور حسان في مفاخرة وفد بني تميم:

ووفد على رسول الله ﷺ في عام الوفود بعد فتح مكة وفدُ بني تميم يتألف من رؤوسهم الكبارِ وفيهم أشعر شعرائهم وأخطب خطبائهم ، وهم يريدون أن يبعثوا الرعب ببلاغةِ كلامهم وشعرهم في قلوب المسلمين ، ودخلوا المسجد ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته وهم في نشوة الانتصار: أَنِ اخرجْ إلينا يا محمد ، مما تآذى به رسول الله ﷺ ، وفي هذه المناسبة الحرجة التي كانت تجمع بُلَغَاءَ بني تميم وقد أخذوا العدة الكاملة لمقاومة النبي الكريم ﷺ في المجال الأدبي وتحدَّوه ، وقد تأكدوا أنهم سوف يتغلبون عليه ، طلب النبي الكريم ﷺ حسان بن ثابت لكي يرد على شاعرهم الكبير الزبرقان بن بدر ، كما رد ثابت بن شماس على خطيبهم عطارد بن حاجب ، ولنترك القصة بكاملها يقصها علينا أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «الأغاني»، حتى نرى حسان بن ثابت كيف يرتجل الكلام ويجول في مضمار الشعر البليغ ويردُّ عليهم رداً قاسياً ولا يترك القوم حتى يعجزهم، فلم يلبثوا إلا أن يسلموا ويخضعوا لرسول الله ﷺ فيما جاء به من الدين والشريعة:

قيل: لما قدم على النبي الكريم ﷺ وفدُ بني تميم ، وهم سبعون أو ثمانون رجلاً ، منهم الأقرع بن حابس ، والزِّبرِقان بن بدر ، وعطارد بن حاجب ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم ، وانطلق معهم عُيينة بن حصن ، فقدموا المدينة فدخلوا المسجد ، فوقفوا عند الحجرات ، فنادوا بصوت عالٍ جافٍ: اخرُجْ إلينا يا محمد ، فقد جئنا لنفاخرك ، وجئنا بشاعرنا وخطيبنا ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فجلس ، فقام الأقرع بن حابس فقال: والله إن مدحي لزين ، وإن ذمِّي لشين ، فقال رسول الله ﷺ: ذلك الله ، فقالوا: إنَّا لأكرمُ العرب ، فقال رسول الله ﷺ: أكرمُ منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، فقالوا: ائذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقامَ رسول الله ﷺ فجلس وجلس معه الناس ، فقام عطارد بن حاجب فقال: «الحمد لله الذي له الفَضْلُ علينا وهو أهلُه ، الذي جَعَلنا ملوكاً وجعلنا أعز أهل الشرق[1] وآتانا أموالاً عِظاماً نفعل فيها

(١) وفي الطبري: (ص ١٧١١ من القسم الأول طبع أوروبا): «وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عدداً=

المعروف ، ليس في الدنيا مثلنا ، ألسنا برؤوس الناس وذوي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدَّ علينا مثل ما عددناه ، ولو نشاء لأكثرنا ، ولكنَّا نستحيي من الإكثار فيما خوَّلنا الله وأعطانا ، أقول هٰذا فأتوا بقول أفضل من قولنا ، أو أمر أَبْيَنَ من أمرنا» ثم جلس. فقام ثابت بن قيس شماس فقال: «الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيُّه علمَهُ ، ولا يقضي شيئاً إلا من فضله وقدرته ، وكان من قدرته أن اصطفى من خلقه أكرمَهُم حسباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأحسنهم رأياً ، وأنزل علينا كتاباً ، وائتمنه على خلقه ، وكان خِيْرَة الله من العالمين» ثم دعا رسول الله ﷺ إلى الإيمان ، فأجابه من قومه وذوي رحمه المهاجرون ، أكرمُ الناس أنساباً ، وأَصْبَحُ الناس وجوهاً ، وأفضل الناس فِعَالاً ، ثم كان أول من اتبع رسول الله ﷺ من العرب واستجاب له نحنُ معشرَ الأنصار ، فنحن أنصار الله ووزراء رسول الله ﷺ ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا أو يقولوا: لا إله إلا الله ، فمن آمن بالله ورسوله مَنع مِنَّا ماله ودمه ، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه في الله ، وكان جهاده علينا يسيراً ، أقول قولي هٰذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات ، فقام الزبرقان فقال:

نَحنُ المُلوكُ فَلا حَيٌّ[1] يُقارِبُنَا ... مِنَّا المُلوكُ وفينا يُؤْخَذُ[2] الرُّبُعُ

ونَنْحَرُ الكَومَ[3] عُبْطاً في مَنازِلنا ... للنَّازلينَ إذا ما استَطعَمُوا شَبِعوا

ونَحْنُ نُطْعِمُ عندَ القَحْطِ ما أكَلُوا ... مِنَ العَبِيطِ إذا لَمْ يَظْهَرِ[4] القَزَعُ

تلكَ المَكارِمُ حُزْناها مُقَارَعَةً ... إذا الكِرَامُ على أَمْثالِها اقْتَرَعُوا

كَمْ قَد قَسَرْنَا[5] مِنَ الأَحياءِ كُلِّهِمِ ... عِنْدَ النِّهابِ وفَضْلُ العِزِّ يُتَّبَعُ

= وأيسره عدةً . . إلخ».

(١) وفي رواية: فلا شيء يعادلنا.

(٢) كان من عادة العرب في الجاهلية أن يأخذ الرئيس ربع الغنيمة خالصاً دون أصحابه ، وكان ذلك الربع يسمى: المرباع.

(٣) الكوم: جمع أكوم ، وهو البعير الضخم السنام ، والأنثى: كوماء ، والعُبُط بضمتين ، وقد تسكن عينه: جمع عبطة ، وهي الناقة تنحر من غير داء.

(٤) القزع: السحاب ، يشير إلى إطعامهم أيام المحل.

(٥) في بعض أصول الأغاني: «كم قد نشدنا».

وتُبصرُ الناس تَأْتِينا[1] سُرَاتُهُمُ ... في كُلِّ أمرٍ فنُمضِي ثُمَّ نُتْبَعُ

فأرسل رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت فجاء فأَمَرهُ أن يجيبه ، فقال حسان:

إنَّ الذَّوائِبَ مِنْ فِهْرٍ وإخوَتِهِمْ ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ

يَرضَى بها كُلُّ مَنْ كانَتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْوَىٰ الإلهِ وبالأَمرِ الَّذِيْ شَرَعُوا

قَومٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ ... أو حاوَلُوا النَّفْعَ في أشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

سَجِيَّةٌ تلكَ فيهِمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ ... إنَّ الخَلائِقَ فاعلَمْ شَرُّهَا البِدَعُ

لا يَرقَعُ النَّاسُ ما أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ ... عِندَ الدِّفاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا

إنْ كانَ في النَّاسِ سَبَّاقونَ بَعْدَهُمُ ... فَكُلُّ سَبْقٍ لأَدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ

أعِفَّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحْيِ عِفَّتُهُمْ ... ولا يَطْبَعُونَ[2] ولا يَزْرِي بهمْ طَمَعُ

ولا يَضِنُّونَ عَنْ جارٍ بِفَضْلِهِمُ ... ولا يَمَسُّهُمُ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ

يَسْمُونَ للحَرْبِ تَبْدُو وهْيَ كالِحَةٌ ... إذا الزَّعانِفُ[3] مِنْ أَظْفَارِها خَشَعُوا

لا يَفْرَحُونَ إذا نَالُوا عَدُوَّهُمُ ... وإنْ أُصِيبُوا فلا خُوْرٌ ولا جُزَعُ

كَأَنَّهُمْ في الوَغَىٰ والمَوْتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسُودُ بِيشَةَ في أَرْسَاغِهَا[4] فَدَعُ

خُذْ منهُمُ ما أَتى عَفْواً وما[5] غَضِبُوا ... فلا يَكُنْ هَمُّكَ الأمرَ الَّذِيْ مَنَعُوا

فإنَّ في حَرْبِهِمْ فاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ ... سُمَّاً عليه يُخاضُ الصَّابُ[6] والسَّلَعُ

أَكْرِمْ بقَوْمٍ رسولُ اللهِ قائِدُهُمْ ... إذَا تَفَرَّقَتِ الأَهْواءُ والشِّيَعُ

أُهْدِي لَهُمْ مَدْحِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ ... فِيْمَا أرادَ لِسَانٌ حاذِقٌ[7] صَنَعُ

(١) رواية أصول الأغاني: «وننصر الناس تأتينا سراتهم».

(٢) لا يطبعون: أي لا يأتون ما يدنسهم ويعيبهم ويشينهم ، والطبع: الدنس والعيب والشين.

(٣) الزعانف: أرذال الناس: جمع زعنفة.

(٤) مكتنع: قريب ، وبيشة: من أعمال مكة مما يلي اليمن ، أجمة: كثيرة الأسد على بعد خمس مراحل من مكة المكرمة ، والفدع: اعوجاج في الرسغ.

(٥) في بعض أصول الأغاني ، «خذ منهم ما أتى عفواً وإن غضبوا».

(٦) يخاض: يخلط ، والصاب والسلع: من الأشجار المرة ، وفي رواية: يخاض عليه.

(٧) في بعض أصول الأغاني: «حائك» بمعنى: متقن النسج للكلام.

وإنَّهُـمْ[1] أَفْضَـلُ الأحْيَـاءِ كُلِّهِـمِ ... إنْ جَدَّ بالنَّاسِ جدُّ القَوْلِ[2] أو شَمَعُوا

فقام عُطارِدُ بن حاجب فقال:

أَتَيْنَـاكَ كَيْمَـا يَعْلَـمَ النَّـاسُ فَضْلَنَـا ... إذا اجْتَمُعوا وقت احتضار المواسم

بـأنَّـا فُـرُوعُ النَّـاسِ فـي كُـلِّ مَـوْطِـنٍ ... وأَنْ لَيسَ في أرضِ الحجاز[3] كَدارِمِ

فقال حسان فقال:

مَنَعْنَـا رسـولَ الله مِـنْ غَضَـبٍ لَـهُ[4] ... علـى أَنْـفٍ رَاضٍ عَـنْ مَعَـدٍّ ورَاغِـمِ

هَلِ المَجْدُ إلا السُّؤْدُدُ الفَرْدُ[5] والنَّدَى ... وجـاهُ[6] الملـوكِ واحْتِمَـالُ العَظَـائِـمِ

فقال الأقرع بنُ حابس: والله إن هـٰذا الرجل لَمُؤْتىً له[7] والله لَشاعرُه أشعرُ من شاعرنا، وخطيبه أخطب من خطيبنا، ولأَصواتهُم أرفعُ من أصواتنا، أعطني يا محمد فأعطاه، فقال: زدني، فزاده، فقال: اللهم إنه سيّد العرب، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥] ثم إن القوم أسلموا وأقاموا عند النبي الكريم ﷺ يتعلمون القرآن ويتفقهون في الدين، ثم أرادوا الخروج إلى بيوتهم، فأعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم، وقال: «أما بقي منكم أحد»؟ وكان عمرو بن الأهتم في ركابهم، فقال قيس بن عاصم، وكان من رهطه وكان مشاحناً له: لم يبق منا أحد إلا غلامٌ حديث السن في ركابنا، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطاهم، فبلغ عَمْرَاً ما قال قيس، فقال عمرو بن الأهتم لقيس:

ظَلَلْـتَ مُفْتَـرِشَ الهَلْبَـاءِ[8] تَشْتُمُنِـي ... عِنْدَ الرَّسولِ فلم تَصْدُقْ ولم تُصِبِ

(١) في الديوان: «فإنهم».
(٢) شمعوا: مزحوا.
(٣) دارم: أبو حي من تميم.
(٤) ورواية الديوان، وفي سيرة ابن هشام: «نصرنا وآوينا النبي محمداً» وفي الطبري: «منعنا رسول الله إذا حلّ وسطنا».
(٥) في بعض أصول الأغاني: «العود» وهو القديم.
(٦) في الأصل: «وجار».
(٧) مؤتى له: ميسر له مسهل.
(٨) الهلباء: الاست.

إنْ تُبغضُـونَـا فـإنَّ الـرُّومَ أَصْلُكُـمُ ... والـرومُ لا تَمْلِـكُ البَغْضَـاءَ للعَـرَبِ

فـإنَّ سـؤْدُدَنـا عَـوْدٌ وسُـؤْدُدُكُـمْ ... مُؤَخَّرٌ عندَ أَصْلِ العُجْبِ[1] والذَّنَبِ[2]

بهـذا نتبين مدى ما كان يتمتع به حسان بن ثابت من ثقة غالية ومكانة عالية عند النبي الكريم ﷺ. ونقدّر مبلغ البلاغة والارتجال والقوة الذي بلغ إليه حسان في الإسلام، وإن الإسلام لم يجن على شعره، لا من الناحية الأدبية والبلاغية، ولا من الناحية المعنوية، بل على العكس من ذلك أضفى عليه الإسلام لوناً ثابتاً من الجد والموضوعية والروح الإيماني الخالص.

ولقد شهد بعلوِّ مكانته الشعرية كثير من النقاد، فهـذا أبو عبيدة يقول: «أجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر[3]» أخبرنا بذلك أيضاً أحمد بن عبد العزيز الجوهري، قال: حدثنا عمرو بن شبّة، عن أبي عبيدة قال: اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف، وعلى أن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت[4].

وقال الحطيئة: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول:

يَغْشَـونَ حَتَّـى مـا تَهِـرُّ كِـلابُهُـمْ ... لا يَسـأَلُـونَ عـنِ السَّـوادِ المُقْبِـلِ[5]

وقال الأصفهاني: حسان فحل من فحول الشعراء[6].

ولما سمع النابغة الذبياني شعر حسان قال له: إنك لشاعر، كما أن الأعشى كان من أصدقاء حسان، وشهد له بالشاعرية[7].

وعن سعيد بن المسيب قال: جاء حسان إلى نفر فيهم أبو هريرة، فقال: أنشدك

(١) العجب: أصل الذنب.
(٢) كتاب الأغاني: ٤/ ١٤٦ ـ ١٥١.
(٣) انظر الاستيعاب لابن عبد البر.
(٤) كتاب الأغاني: ٤/ ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٥) نفس المصدر وتهذيب التهذيب.
(٦) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، أخبار حسان.
(٧) الاستيعاب ـ وبلوغ الأرب: ١/ ٢٥.

الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني» ثم قال: «اللهم أيده بروح القدس»؟ قال أبو هريرة: اللهمَّ نَعَم[1].

وعن أبي عبيدة قال: «فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي الكريم ﷺ في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام»[2].

شعره الجاهلي يمثل شخصيته القوية:

شعر حسان الجاهلي ذو قيمة أدبية كبيرة في تاريخ الشعر الجاهلي، فهو يُعدّ ثروة شعرية في الأدب الجاهلي، وقد اعتنى به أصحاب النقد والتاريخ ووضعوه في الطبقة الأولى من الناحية الفنية، نظراً إلى ارتجاله البديع لما كانت تجود به قريحته الفياضة، لذلك فإن شعره العام يَتَّسِمُ بعدم التكلف وجزالة اللفظ وروعة الأسلوب والبيان، وقد شهد بعلو كعبه في الشعر الشعراء الجاهليون، كالنابغة الذبياني والحطيئة والأعشى، وغيرهم من نقاد الشعر العربي، كما قد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولم يترك حسان في الجاهلية أي فن من فنون الكلام إلا وقد أبدعه، ولذلك فإن شعره الجاهلي يمثل كل جانب من جوانب الفخر والحماسة والمدح والغزل والوصف والهجاء، إنه كان شديد الاعتزاز بقبيلته، كبير الاعتداد بمفاخر آبائه، فكانت قريحته تفيض في هٰذا النوع من الشعر بداهة وقوة وبلاغة وروعة، وقد ساعده في ذلك، النسب العريق الذي تمتع به. ومفاخره القبلية التي تجمعت لديه أكثر من غيره، نظراً إلى الحروب التي عاشها هو ضد أعدائه القريبين الذين أحاطوا به، فقاد قبيلته في ميدان الحروب الكلامية ودافع عنها بشعره البليغ إذا لم يتمكن من الدفاع عنها بالحضور في ساحة الحروب ومشاركه القتال.

الفخر هو اللون الغالب على شعره الجاهلي:

وقد تناول النقاد منهج شعره الجاهلي في الفخر بذكر ذلك الشعور الذي تغلب عليه بالأمجاد التي اعتمد عليها في أغلب كلامه الجاهلي، وأشاد بها في معظم

(١) كتاب الأغاني: ٤/ ١٣٧.
(٢) المصدر نفسه.

أحواله في أيام الجاهلية التي عمت فيها نفسية التغني بالمفاخر والأنساب والقبائل، وامتدت فيها نيران الحروب من نطاق ضيق إلى أوسع ما يمكن، واستمرت إلى أحقاب طوال من السنين، وكان حسان من أنصار الخزرج في حروبهم المتتالية الضارية مع الأوس، وساهم فيها بكلامه إذا لم يتمكن من مساهمته العملية بالسيف والسنان وفي ساحة المعارك، ولذلك فكان الفخر هو اللون الغالب على شعره الجاهلي، يقول الدكتور محمد طاهر درويش، وهو يتحدث عن هٰذا الجانب في حياة حسان الشعرية:

«كان بيت حسان في بني النجار بيتَ رئاسة وشرف، وبيئة شعر ولَسَنٍ، وإن هٰذه الحياة بما فيها قد أثرت في حسان وأثر فيها، ولذلك كان شعره أول الأمر دائراً بين تصوير عواطفه ولذاته في الشراب والغزل، وبين الافتخار بمظاهر هٰذه السيادة في قومه والهجاء لأعدائهم.

فإن شعور حسان بمجد آبائه ومفاخر قومه وشدة حاجته إلى التنويه بهٰذه المناقب العالية والوقوف إلى جانب الخزرج في حروبهم الطاحنة مع الأوس، كان داعياً إلى شيوع الفخر وغلبته على أكثر ما أثر له من الشعر، حتى يشق على الباحث أن يجد له مطولة واحدة خلت من الفخر والإشادة بمجد قومه وسيادتهم وحسن بلائهم، ولم يكن له مندوحة من أن يمزج بين الفخر والغزل في أكثر قصائده، وبينهما وبين الوصف في كثير منها.

كان حسان يفخر بنفسه وبالخزرج وقومه الأزد، فإذا افتخر بنفسه ذكر شجاعته وَجَوْبَه الفيافيَ، وصرامة سيفه ولسانه، وعلو شعره، وسخاء يده في اليسر والعسر، وحياءه وعفته ونصره للعشيرة، وحفظه غيب القبيلة، ومعاداة أعدائها، ومآثره في قومه، ورحلته إلى الملوك على عادة الجاهليين، وذكره أيضاً ما يكون من خلائقه مع إخوانه وندمائه في اختيار العُشراء، ومكارمة من يكارمه، وحب الغناء والخمر والميسر[1].

(١) حسان بن ثابت للدكتور محمد طاهر درويش، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

نماذج من شعره الجاهلي:

هنا قصيدة من شعره الجاهلي تجمع بين الاعتداد بالنفس وبيان مفاخره ومفاخر قومه ونسبه ، ووصف ناقته ، ثم الغزل والإفاضة مع الحبيبة في مناجاته معها وبيان محاسنها ، والعودة إلى الفخر ببني النجار في نهاية القصيدة ، ويحسن بنا أن ننقل القصيدة بكاملها ، وعدد أبياتها ثمانية وثلاثون بيتاً:

إنَّ النَّضيرةَ رَبَّةَ الخِدْرِ ... أَسْرَتْ إليكَ ، ولم تكُنْ تَسْرِي[1]
فَوقَفْتُ بالبَيْداءِ أسألُها ... أَنَّى اهتدَيْتِ لمَنْزِلِ السَّفْرِ[2]
والعِيسُ قد رُفِضَتْ أَزِمَّتُها ... مِمَّا يَرَونَ بهَا من الفَتْرِ[3]
وَعلَتْ مَساوِئُها محاسِنَها ... ممَّا أضرَّ بها مِنَ الضَّمْرِ[4]
كنَّا إذا رَكَدَ النَّهارُ لَنَا ... نَغْتَالُهُ بنَجَائبٍ صُعْرِ[5]
عُوْجٍ نَوَاجٍ يَعتلِينَ بِنَا ... يُعْفِينَ دونَ النَّصِّ والزَّجرِ[6]
مُستقبلاتٍ كُلَّ هَاجِرَةٍ ... يَنْفَحْنَ في حِلَقٍ من الصُّفْرِ[7]
ومُنَاخُهَا في كلِّ منزلةٍ ... كَمبِيْتِ جُونِيِّ القَطَا الكُدْرِ[8]
وسَمَا على عُوْدٍ فعارَضَنَا ... حرباؤُها ، أو هَمَّ بالخَطْرِ[9]
وَتكَلُّفي اليومَ الطويلَ وقدْ ... صَرَّتْ جَنادِبُهُ مِنَ الظُّهْرِ[10]

(١) النضيرة: اسم امرأة وهي حبيبة الشاعر ، أسرت من الإسراء: السير بالليل.
(٢) السفر: المسافرون.
(٣) الفتر ، بسكون التاء: الإعياء.
(٤) الضمر: الهزال.
(٥) ركد النهار: بمعنى طال النهار ، نغتاله: بمعنى نقطعه ، النجيبة: الناقة الكريمة ، جمعها نجائب ، صعر: صفة لنجائب: بمعنى المائلات الرؤوس من تجاذب الأعنة.
(٦) عوج: جمع عائجة لينة الانعطاف ، نواج: جمع ناجية ، مسرعات يعفين دون النص ، يعني يعطين ما عندهن عفواً من غير زجر ، كناية عن سرعة السير.
(٧) ينفحن: بمعنى يرفسن بأرجلهن في حلقات صفر من النحاس.
(٨) جوني القطا: سواد اللون ، الكدر: جمع أكدر ، الذي يضرب إلى الصفرة.
(٩) الخطر بمعنى: تحركه على العود.
(١٠) صرت بالتشديد: بمعنى صوتت ، من الظهر يعني: من شدة الحر.

واللَّيلةَ الظلماءَ أُدْلِجُهَا ... بالقَومِ في الدَّيْمُومَةِ القَفْرِ[1]
يَنْعَى الصَّدَى فيها أَخَاهُ كَما ... يَنْعَى المُفَجَّعُ صاحبَ القَبْرِ[2]
وتَحُولُ دونَ الكَفِّ ظُلمَتُها ... حتى تَشُقَّ على الَّذي يَسْري
ولقَدْ أَرَيْتُ الرَّكْبَ أَهْلَهُمُ ... وهديتُهُمُ بِمهَامِهٍ غُبْرِ[3]
وبذلْتُ ذا رَحْلِي وكنتُ بهِ ... سَمْحاً لهُمْ في العُسْرِ واليُسرِ[4]
فإذا الحَوادثُ ما تُضَعضِعُنِي ... ولا يَضِيْقُ بحاجَتِي صَدْري
يُعْيِي سِقَاطِي مَنْ يُوَازِنُنِي ... إنِّي لَعَمْرُكَ لستُ بالهَذْرِ[5]
إنِّي أُكَارِمُ مَنْ يُكارِمُنِي ... وعلى المُكَاشِحِ يَنْتَحِي ظُفْري[6]

ويعتز بشعره ويراه فوق منزلة الشعراء كلهم ، كأن غيره من فحول الشعراء المعاصرين يقولون من الكلام ما ليس له كبير قيمة:

لا أَسْرِقُ الشُّعَرَاءَ ما نَطَقُوا ... بلْ لا يُوافِقُ شِعْرُهم شِعري
إنِّي أَبَى لي ذَلِكُمْ حَسَبِيْ ... ومَقَالَةٌ كمَقَاطِعِ الصَّخْرِ[7]
وأَخِيْ مِنَ الجنِّ البصيرُ ، إذا ... حاكَ الكلامَ بأحسَنِ الحَبْرِ[8]

ثم يلتفت إلى معنى الغزل ويؤكد لحبيبته ما يكنُّ لها من حبٍّ وإعجاب بها ، وينفي ظنها فيما إذا كانت تظن أن عوامل الزمان قد حالت دون حبها ، ويؤكد لها الحب الخالص بتكرار الحلف ثم يمدحها ويصفها بأحسن وصف ، يقول:

أَنَضِيرُ ما بَيْنِي وبَيْنَكُمُ ... صَرْمٌ وما أَحدَثْتُ مِنْ هَجْرِ

(١) الديمومة: الصحراء ، والقفر: بمعنى المستوحشة.
(٢) الصدى: ذكر البوم ، المفجع على بناء المفعول ، الذي أوجعته المصيبة ، صاحب القبر: الميت.
(٣) أريت الركب أهلهم ، يعني عاملتهم معاملة الأهل ، بالإكرام والإفضال.
(٤) بذلت ذا رحلي ، يعني: بذلت زادي لهم.
(٥) سقاطي: ما سقط مني من الشعر ، الهذر بالسكون بمعنى: كثير الكلام.
(٦) المكاشح: الذي يضمر العداوة ، ينتحي: يعني يتجه.
(٧) يريد بالمقالة الشعر الذي هو كقطع الصخور في الرصانة والقوة.
(٨) أراد من الجن: شيطانه الذي يوحي إليه الكلام ، لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً يلقنه الشعر ، الحبر: الوشي.

جُـوْدي فـإنَّ الجُـودَ مَكْـرمَـةٌ ... واجْزِي الحُسَامَ ببعضِ ما يَفْرِي[1]
وحَلفْـتُ لا أنسَـاكُـمُ أبـداً ... مـا ردَّ طَـرْفَ العَيْـنِ ذو شُفُـرِ
وحَلفْـتُ لا أنْسَى حـديثَـكِ مـا ... ذكَـر الغَـوِيُّ لَـذاذةَ الخَمْـرِ
ولأنْـتِ أحسـنُ ، إذ بَـرَزْتِ لَنـا ... يـومَ الخُـروجِ بسـاحَـةِ القَصْـرِ
مـن دُرَّةٍ أغلـى الملـوكُ بهـا ... مِمَّـا تَـربَّـبَ حـائـرُ البَحْـرِ[2]
مَمْكُـورةُ السَّـاقيـنِ شبهُهُمـا ... بَـرْدِيَّتَـا مُتَحَيِّـرٍ غَمْـرِ[3]
تَنْمـي كمـا تَنْمِـيْ أرُوْمَتُهـا ... بِمَحَـلِّ أهْـلِ المجْـدِ والفخـرِ
يعتـادُنِـي شـوقٌ فـأذكُـرُهـا ... مِـن غيـر مـا نَسَـبٍ ولا صِهْـرِ
كتـذكُّـرِ الصَّـادي وليـسَ لَـهُ ... مـاءٌ بقُنَّـةِ شـاهـقٍ وَعْـرِ[4]
ولقَـدْ تُجـالِسُنـي فَيَمْنَعُنِـيْ ... ضيـقُ الـذراعِ ، وعِلَّـةُ الخَفْـرِ[5]
لَـوْ كُنـتِ لا تَهْـوَيْـنَ لـم تَـرِدِي ... أو كنـتِ مـا تَلْـوِيْـنَ فـي وَكْـرِ[6]
لأتَيتُـهُ لا بُـدَّ ، طـالِبُـهُ ... فـاقْنِـي حيـاءَكِ واقْبِلِـي عُـذْرِي[7]
قُـلْ للنَّضِيْـرةِ إنْ عَـرضْـتَ لهـا : ... ليـسَ الجَـوادُ بِصـاحِـبِ النَّـزْرِ

وفي الأخير يعود إلى مدح بني النجار ويفتخر بهم :

قَـوْمِـي بَنُـو النَّجَّـارِ رِفْـدُهُـمُ ... حَسَـنٌ ، وهُـمْ لِـي حَـاضِـرُو النَّصْـرِ
المَـوتُ دُوْنـي لسْـتُ مُهْتَضَمَـاً ... وذَوُو المَكَـارمِ مِـنْ بَنـي عَمـرِو
جُـرْثُـومـةٌ ، عِـزٌّ معـاقِلُهَـا ... كـانَـتْ لنـا فـي سَـالـفِ الـدَّهـرِ[8]

(١) أراد بالحسام نفسه ، يفري : يقطع .
(٢) تربب : بمعنى جمع ، حائر البحر : معظمه ولجته .
(٣) ممكورة : بمعنى ممتلئة ، برديتا تثنية بردية مؤنث بردى ، نبات مائي من الفصيلة السعدية ، المتحير الغمر : الماء الكثير .
(٤) الصادي : العاطش ، قنة : قلّة الجبل وقمته .
(٥) يريد أن ذرعي يضيق عن كلامها ، استحياء منها وإجلالاً لها .
(٦) لم تردي : أي لم تردي في خيالي ، تلوين في وكر : يعني تمنعينني من أن آتي وكرك ، ولولا منعك لأتيت وكرك ، كما شرح ذلك في البيت الذي بعده .
(٧) اقني حياءك : بمعنى : الزمي حياءك .
(٨) جرثومة : بمعنى الأصل ، عز معاقلها : يعني حصونها عزيزة منيعة من سالف الزمان (ديوان حسان ، طبع دار صادر بيروت ، ص ٩٦ ـ ٩٧ ـ ٩٨ ـ ٩٩) .

وهـٰذه قطعة من شعره وهي لا تخلو من الاعتزاز بجده ووالده وأخواله ، والفخر بقومه وبنفسه ، ومن خبر هـٰذه الأبيات أنه مر ذات يوم بنسوة فيهن عمرة بنت الصامت ، وكان خطبها سراً فأعرضت عنه ، وقالت لامرأة منهن : إذا حذاكِ هـٰذا الرجل فَسَلِيْهِ مَنْ هُوَ وانْسبي أخواله ، فلما حاذاها سألته من هو؟ فانتسب ، وسألته عن أخواله فأخبرها ، فأعرضت عنه فحدد إليها حسان نظره وعجب من فعلها وبَصُرَ بها ، فإذا هي امرأته تضحك ، فعرفها وعلم أن الأمر من قِبَلِها ، فقال :

قـالَـتْ لـهُ يَـومـاً تُخـاطِبُـهُ ... نُفُـجُ الحَقِيبـةِ ، غـادَةُ الصُّلْـبِ[1]
أمَّـا الـوَسَـامـةُ والمُـرُوءَةُ أو ... رأْيُ الـرِّجـالِ ، فقـد بَـدا حَسَبي[2]
فـوَدِدتُ أنَّـكَ لـو تُخَبِّـرنـا ... مَـنْ والـداكَ ومَنْصِـبُ الشَّعْـبِ[3]
فضَحِكـتُ ثُـمَّ رفعـتُ متَّصـلاً ... صَـوْتـي أوانَ المنطـقِ الشَّغْـبِ[4]
جـدِّي أبـو لَيْلـى ، ووالِـدُه ... عمـرٌو ، وأخْـوَالـي بَنُـو كَعْـبِ[5]
وأنـا مِـنَ القَـومِ الَّـذيـنَ إذا ... أزَمَ الشتـاءُ مُحـالِـفَ الجَـدْبِ[6]
أعطَـى ذَوُو الأمـوالِ مُعْسِـرَهُـمْ ... والضَّـارِبيـنَ بِمَـوْطِـنِ الرُّعْـبِ[7][8]

دخل حسان بن ثابت مرة في أيام الجاهلية بيت خَمَّارٍ بالشام ، ومعه أعشى بكر بن وائل فاشتريا خمراً وشربا ، فنام حسان ، ثم انتبه فسمع الأعشى يقول للخمَّار : كره الشيخ الغرم ، فتركه حسان حتى نام ، ثم اشترى خمر الخمار كلها ، ثم سكبها في البيت ، حتى سالت تحت الأعشى فعلم أنه سمع كلامه ، فاعتذر

(١) نفج الحقيبة : يعني بضة الجسم ، الغادة : الفتاة الحسناء ، الصلب : الظهر .
(٢) الوسامة : الحسن ، المروءة : بمعنى الرجولية ، حسبي : بمعنى يكفيني .
(٣) المنصب : الأصل ، الشعب أرادت به القبيلة .
(٤) الشغب ـ بسكون الغين ـ : تهييج الشر .
(٥) بنو كعب من الخزرج بن الساعة ، وأبو ليلى هو تيم الله الملقب بالنجار .
(٦) أزم الشتاء : بمعنى اشتد ، وآذن بالقحط .
(٧) موطن الرعب : هو القلب ، يعني الذين يضربون صدورهم تأسفاً لما ألم بهم من المجاعة والقحط .
(٨) ديوان حسان ، دار صادر بيروت ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

إليه ، فقال حسان يفتخر بنفسه وقومه ويهجو بني عابد بن عمرو بن مخزوم :

ولَسْنَا بِشَرْبٍ ، فوقَهُمْ ظِلُّ بُرْدَةٍ ... يُعِدُّونَ للحانُوتِ تَيْساً ومِفْصَداً[1]
ولَكنَّنا شَرْبٌ كرامٌ ، إذا انتشَوْا ... أهانوا الصَّريحَ والسَّدِيفَ المُسَرْهَدا[2]
وتحسبُهُمْ ماتُوا زُمَيْنَ حَلِيْمَةٍ ... وإن تأْتِهم تَحْمَدْ نَدَامَتَهُمْ غَدا[3]
وإن جئتَهُمْ ألفيتَ حولَ بيوتِهِمْ ... منَ المِسْكِ والجَادِيْ فَتِيتاً مُبَدَّدا[4]
تَرى فوقَ أثناءِ الزَّرَابِيِّ ساقطاً ... نِعَالاً وقُسُّوباً ورَيْطاً مُعَضَّدَا[5]
وذا نَطَفٍ يسعى مُلَصِّقَ خَدِّهِ ... بِدِيْباجَةٍ ، تَكْفَافُها قَدْ تَقَّددا[6]

قصيدة أخرى :

وهٰذه قصيدة أخرى تتميز بلون الغزل على عادة الشعراء المعاصرين له ، ورغم أنه يتحدث فيها عن الوضع الذي يعيشه نحو الحبيبة من آلام المحبة وآمال الهوى ، وروعات البَيْنِ والفراق التي أدركته في هٰذه الرحلة الشاقة ، لا يكاد يخشع للهوى وما يدعو إليه من تخاذل وبكاء وحيرة ، بل إنه يريد أن يتناسى حياة اللهو والهزل والغزل ، وقد تجاوز الأربعين ، وجرب الأمور وتمثّل أمامه المستقبل بعد أن شابت مفارقه ، واتجهت الحياة نحو الجدّ والصرامة والاهتمام بالزاد للغد القريب ، يقول :

تَطَاوَلَ بالخُمَّانِ لَيلي فلم تَكُنْ ... تَهُمُّ هوادِي نَجْمِهِ أن تَصَوَّبَا[7]
أَبِيْتُ أُراعِيْها كأنِّي مُوكَّلٌ ... بِها ، لا أريدُ النَّومَ حتى تَغَيَّبَا

(١) البردة : كساء من صوف أسود يلتحف به ، التيس : العنز ، مفصد : السكين .
(٢) الصريح : الخالص من كل شيء ، والمراد (أهانوا الصريح) : أنهم يأكلون الأصل لا الدم ، السديف : السنام ، المسرهد : المقطع .
(٣) حليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني ، وجه أبوها إلى المنذر بن ماء السماء جيشاً فطيبتهم فدعِيَ ذلك اليوم بيوم حليمة ، وفي المثل : «ما يوم حليمة بسرّ» ، الندامة : المنادمة .
(٤) الجادي : الزعفران .
(٥) الزرابي : جمع زربية ، ما يبسط ويتكأ عليه ، القُسُّوب بالتشديد ، نوع من الخفاف ، الريط : جمع ريطة ، الملاءة ، معضد : بمعنى مبسوط بعضه فوق بعض .
(٦) ذا نطف : ذا قرط ، وهو الغلام ، تكفافها : يريد بها حاشية الديباجة وهي المنديل .
(٧) الخمان : موضع قريب من دمشق ، هوادي النجوم : أوائلها ، تصوب : بمعنى تغيّب .

إذا غَارَ منها كوكبٌ بعد كوكبٍ ... تُراقِبُ عَيني آخرَ الليلِ كَوكَبَا
غَوائِرَ تَتْرَى من نُجُومٍ تخالُهَا ... مع الصُّبحِ تَتْلُوها زواحِفَ لُغَّبَا[1]
أخافُ مفاجأةَ الفِرَاقِ بِبَغْتَةٍ ... وصَرْفَ النَّوى مِن أَنْ تَشِتَّ وتَشْعَبَا[2]
وأَيْقَنْتُ لمَّا قَوَّضَ الحَيُّ خَيْمَهُمْ ... بِرَوعاتِ بَيْنٍ تَتركُ الرأسَ أَشْيَبَا[3]
وأَسْمَعَكَ الدّاعي الفَصِيحُ بِفُرقَةٍ ... وَقدْ جَنَحَتْ شمسُ النَّهارِ لِتَغْرُبَا[4]
وبيَّنَ في صوتِ الغُرَابِ اغترابَهُمْ ... عَشِيَّةَ أَوْفَى غصنَ بَانٍ فَطَرَّبَا[5]
وفي الطيرِ بالعلياءِ إذ عرضَتْ لنا ... وما الطيرُ إلا أن تَمُرَّ وتَنْعَبَا
وكدتُ غداةَ البَيْنِ يغلبُنِي الهَوى ... أُعالِجُ نفسي أَنْ أقومَ فأركَبَا
وكيفَ ولا ينسَى التَّصَابِيَ بَعْدَ ما ... تجاوزَ رأسَ الأربعينَ وجَرَّبَا[6]
وقد بانَ ما يأتي مِنَ الأمرِ واكْتَسَتْ ... مَفَارِقُهُ لوناً منَ الشَّيبِ مَغْرِبَا[7]
أتجْمَعُ شَوْقاً إن تَرَاخَتْ بها النَّوَى ... وصَدّاً إذا ما أَسْقَبَتْ وتَجَنَّبَا[8]
إذا انْبَتَّ أسبابُ الهَوى ، وتصدَّعَتْ ... عصا البَيْنِ لم تستَطِعْ لشَعْثَاءَ مَطْلَبَا[9]
وكيفَ تَصَدِّي المرءِ ذي اللبِّ للصِّبا ... وليسَ بمعذورٍ إذا ما تطَرَّبَا[10]
أُطيلُ اجتِنَاباً عنهمُ غيرَ بُغْضَةٍ ... ولكنَّ بُقْيَا رهْبَةٍ وتَصَحُّبَا[11]
ألا لا أَرَى جَاراً يُعلِّلُ نفسَهُ ... مُطَاعاً ، ولا جاراً لِشَعْثَاءَ مُعْتَبَا[12]

(١) تترى : تتابع ، زواحف : معيية من الإعياء ، ويريد إبلاً زواحف ، شبه النجوم في إبطائها بإبل لاغبة متعبة لا تكاد تقدر على السير المتتابع .
(٢) ببغتة : يعني فجأة ، تشت وتشعب : بمعنى تفرّق وتبدد .
(٣) روعات البين : مخاوفه .
(٤) الداعي الفصيح : أراد به الغراب ، جنحت : بمعنى مالت .
(٥) أوفى غصن بان : بمعنى أتى هٰذا الغصن ، وطرّب : يعني مدّ صوته وتغنى .
(٦) التصابي : الميل إلى اللهو واللعب .
(٧) المغرب بالفتح : الشديد البياض .
(٨) أسقبت : بمعنى قربت ، يعني إذا قربت منك لا تستطيع أن تقترب إليها .
(٩) انبت : بمعنى انقطع .
(١٠) إذا تطربا : يعني إذا طلب اللهو .
(١١) بقيا : بمعنى إبقاء ، التصحب : التمنع والاستحياء .
(١٢) يريد من الجار نفسه .

زار حسانُ بن ثابت الحارثَ بن أبي شمر الغساني ، وكان النعمان بن المنذر اللخمي يساميه ، فقال له وهو عنده : يا ابن الفريعة ، لقد نبئت أنك تفضل النعمان عليّ ، فقال : وكيف أفضله عليك ، فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداه ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولَثِمَادُك أشرع[1] من غديره ، ولكرسيك أرفع من سريره ، ولجدولُك أغور من بحره ، وليومك أطول من شهره ، ولشهرك أمدُّ من حوله ، ولحولُك خير من حقبه ، ولزندك أورى من زنده ، ولجندك أعز من جنده ، وإنك من غسان ، وإنه من لخم ، فكيف أفضله عليك ، وأعدِلُه بِكَ ، فقال : يا ابن الفريعة ، هٰذا لا يُسمع إلا في شعر ، فقال :

نُبِّئْتُ أنَّ أبا مُنْذِرٍ ... يُسامِيكَ للحَارثِ الأصغَرِ
قَفاكَ أحسنُ مِنْ وجْهِهِ ... وأمُّكَ خيرٌ مِنَ المنذِرِ
ويُسْرَى يديكَ على عُسْرِها ... كيُمْنى يَديهِ على المُعْسِرِ[2]
وشَتَّانَ بينكُمَا في النَّدى ... وفي البَأسِ والخَيْرِ والمَنْظَرِ[3]

والقصيدة التالية تحتوي على سبعة عشر بيتاً وفيها يجمع حسان بين الفخر بنفسه والتغزل بصاحبته ، وقد أوصاها ألَّا تتخذ بعده صاحباً يكون بمعزل عن الخصائص التي يتصف بها هو ، وذلك كأن يكون خَذُولَ العشيرة يترك نصرتها لدى الحاجة ، وحَسَّادها الذي يعتبر شَتْمَ الأعراض مدحاً ويبغض أصحاب السيادة حتى إذا نزلت وقعة بالعشيرة دبَّرها الأعداء زادها شراً ، ثم إنه يتصدى لِذكر الصفات العالية التي تفرد بها هو دون غيره ، وهنا يظهر اعتداده بالنفس ، وفخره بالمواهب التي أوتيها ، ويحذر شعثاء من اتخاذ صاحب بعده لا يكون مثله في الأخلاق والرجولة والسماحة والمروءة ، يبدأ القصيدة بالغزل وينتقل بعده إلى الفخر :

ألَمْ تَذَرِ العَيْنُ تَسْهَادَها ... وجَرْيَ الدُّموعِ وإنفَادَها

(١) الثماد : الماء القليل ، أشرع من شرع بفلان إذا أورده الماء ، ويريد إن ماءك القليل أكثر وروداً من غديره .
(٢) يعني : شمالك كيمينه .
(٣) الخِير بكسر الخاء : الشرف والكرم .

تَذْكُرُ شعثَاءَ بعد الكَرَى ... ومُلْقَى عِرَاصٍ وأوتادَها[1]
إذا لَجِبٌ من سَحَاب الرَّبيـ ... ـع مَرَّ بساحَتِهَا جَادَها[2]
وقامَتْ تُرائِيكَ مُغْدَوِدِناً ... إذا ما تَنُوءُ بِهِ آدَها[3]
ووَجْهاً كوجهِ الغَزَالِ الرَّبيـ ... ـبِ يَقْرُو تِلاعَاً وأَسْنادَها[4]
فَأَوَّبَهُ الليلُ شَطْرَ العِضَا ... ءِ يخافُ جَهَامَاً وصُرَّادَها[5]
فإمَّا هَلكْتُ فلا تَنْكِحي ... خَذُولَ العَشِيْرةِ ، حَسَّادَها[6]
يَرى مِدْحَةً شَتْمَ أَعْراضِهَا ... سَفَاهاً ، ويُبْغِضُ مَنْ سَادَها

ويروى في كتابي (الكامل) و(عيون الأخبار) :

يَرى مَجْدَهُ ثَلْبَ أعراضِها ... لَدَيْهِ ويُبْغِضُ مَنْ سَادَها
وإنْ عاتَبُوهُ على مَرَّةٍ ... ونَابَتْ مُبَيِّتَةً زادَها[7]
ومِثْلي أَطَاقَ ، ولكنَّني ... أكلِّفُ نَفْسي الَّذي آدَها[8]
سأُوتي العشيرةَ ما حاوَلَتْ ... إليَّ ، وأكْذِبُ إيْعَادَها[9]
وأحمِلُ إنْ مَغْرَمٌ نابَها ... وأضرِبُ بالسَّيفِ مَنْ كَادَها[10]

(١) العراص : جمع عرص : خشبة توضع على البيت عرضاً إذا أريد سقفه ، أو الحائط الذي يكون بين الحائطين في البيت ، وفي رواية : العراض ، أي الموضع الذي ينزلونه ويعترضون فيه .
(٢) اللجب : السحاب الراعد ، جادها : يعني أمطرها .
(٣) المُغْدَودِن : الشعر الطويل الكثير ، تنوء : بمعنى تنهض ، آدها : يعني أثقلها .
(٤) يقرو : يقصد ، تلاع : جمع تلعة ، مسيل الماء إلى الوادي ، أسناد : جمع سند ، ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح .
(٥) أوَّبه بتشديد الواو : بمعنى أرجعه ، العضاه : شجر شائك ، جهام : سحاب لا ماء فيه ، والصراد هو السحاب الذي لا يكون فيه ماء ويوجد مع شدة برد الريح .
(٦) خذول العشيرة : الذي يترك نصرتها ، وفي رواية للكامل وفي عيون الأخبار : ظلوم العشيرة ، حَسّادها : بفتح الحاء وتشديد السين صيغة المبالغة على زنة : فعّال .
(٧) ويروى : على مرة بكسر الميم ، والمرة هيَ الحالة التي يستمر عليها الشيء ، نابت : نزلت ، مبيتة : وقعة دبرت بالليل ، زادها : يعني زادها بكيده شراً .
(٨) وفي رواية : ومثلي يطاع ، آدها ، من يؤود : بمعنى أثقل .
(٩) أوتي : بمعنى أعطى ، إيعادها : يعني تهديدها .
(١٠) مغرم : الدين ، أو ما يلزم أداؤه .

ويَثْـــربُ تعلـــمُ أنَّـــا بهـــا أُســـودٌ تُنَفِّـــضُ أَلْبَـــادَهَـــا(١)
نَهُـــزُ القَنَـــا فـــي صُـــدُورِ الكُمَـــا ةِ حَتَّـــى تُكَسِّـــرَ أَعْـــوَادَهَـــا
إذا مـــا انْتَشَـــوا وتَصَـــابَى الحُلـــو مُ واجْتَلَـــبَ النَّـــاسُ أحشَـــادَهَـــا(٢)
وقـــالَ الحَـــوَاصِـــنُ للصَّـــالِحِيـ ـنَ عـــادَ لَـــهُ الشَّـــرُّ مَـــنْ عَـــادَهَـــا(٣)
جَعَلْنَـــا النَّعِيْـــمَ وِقَـــاءَ البُـــؤُو سِ وكُنَّـــا لَـــدَى الجَهْـــدِ أعمَـــادَهَـــا

وقد روى بعض المؤرخين للأدب العربي بيتين آخرين ، في آخر هٰذه القصيدة ، ولا بأس فيما إذا نقلنا البيتين الزائدين ، فلعلهما يكونان من تمام القصيدة ، يقول:

وفـــي كُـــلِّ يَـــومٍ لَنَـــا غـــارَةٌ علـــى الأَوْسِ نَقْتَـــلُ آسَـــادَهَـــا
تَـــرَانَـــا مِـــنَ البِيْـــضِ سُفْـــعِ الخُـــدو دِ نلبِـــسُ للحَـــرْبِ أسبَـــادَهَـــا(٤)(٥)

وقصيدة أخرى شهيرة:

وأشهر قصيدة قالها حسان في الفخر بوالده والاعتزاز بنفسه وأهله ، وهو يخاطب فيها بني النجار ويحذرهم من البغي ومصيره ، ويناشدهم بالله أن يذكروا أفعال والده الجليلة من الكرم وكف المعتدين عن المظلومين وتقديم العون لكل عَانٍ ، ضعيف ، فإنه هو الذي وأهله كانوا يسدُّون حاجة كل إنسان قد بلغ به الفقر إلى البؤس والشقاء ، وأدى به الشتاء إلى الجدب والمجاعة ، وهو ينشد بني النجار بقوله: «وأنشدكم والبغي مهلك أهله» ويكرر هٰذه المناشدة مرات عديدة في هٰذه القصيدة التي تحتوي على واحد وعشرين بيتاً ، يقول:

(١) ألباد: جمع لبدة ، هي الشعر الذي يكون على كتفي الأسد.
(٢) أحشاد: جمع حشد ، المجتمعون للحرب.
(٣) الحواصن: بمعنى النساء المحصنات ، الصالحون: الأشراف ، من عادها: يعني من عاد الحرب وأتاه ، وفي رواية: الحواضن: جمع حاضنة: بمعنى النسوة المربيات.
(٤) سفع: جمع أسفع: بمعنى متغيري لون الوجوه والخدود. من كثرة ما نحمل السيوف ، أسباد: جمع سبد: الثياب السود ، ولعله يريد بها الدروع التي تكون على لون الحديد.
(٥) ديوان حسان بن ثابت ، طبع المكتبة العربية ، القاهرة ، تحقيق: الدكتور سيد حنفي حسنين ، مراجعة حسن كامل الصيرفي.

نَشَـدْتُ بنـي النجَّـار أفعـالَ والِـدِي إذا لـمْ يجِـدْ عـانٍ لـه مَـن يُـوازِعُـهُ(١)

وفي رواية: «إذا العان لم يوجد له من يوازعه».

ورَاثَ عليـهِ الـوافِـدُونَ فمـا يَـرَى على النَّأْيِ منهُمْ ذا حِفَاظٍ يُطالِعُه(٢)
وسُـدَّ عليـه كُـلُّ أَمْـرٍ يـريـدُهُ وزِيْدَ وَثاقاً ، فاقْفَعَلَّتْ أصابِعُه(٣)
إذا ذَكَـرَ الحَـيُّ المُقِيْـمُ حُلُـولَهُـمْ وأبْصَرَ ما يَلْقى استهلَّتْ مَدَامِعُه(٤)
ألسْنَـا نَنُـصُّ العِيْسَ فيـهِ على الـوَجَـا إذْ نَـامَ مَـوْلاهُ ، ولـذَّتْ مَضَـاجِعُـه(٥)
ولا نَنْتَهـي حتَّـى نَفُـكَّ كُبـولَـهُ بأموالِنا ، والخيرُ يُحْمَدُ صَانِعُه(٦)
وأَنْشُـدُكُـمْ والبَغـيُ مُهْلِـكُ أهْلِـهِ إذا مـا شِتَـاءُ المَحْـلِ هَبَّـتْ زَعَـازِعُـه
إذا مـا وليـدُ الحَـيِّ لـم يُسْـقَ شَـرْبَـةً وشَـنَّ عليـه بـالصَّبـوحِ مَـرَاضِعُـه
وراحَتْ جِلادُ الشَّولِ حُدْباً ظهورُهَا إلى مَسْرحٍ بالجَوِّ جذْبٌ مراتِعُه(٧)
ألَسْنـا نَكُـبُّ الكُـومَ وَسْـطَ رِحَـالِنَـا ونستَصلِحُ المَوْلى ، إذا قلَّ رافِعُه(٨)
فـإنْ نـابَـهُ أمْـرٌ وَقَتْـهُ نفـوسُنَـا وما نَالَنا مِنْ صَالحٍ فهْوَ واسِعُه(٩)
وأَنْشُـدُكُـمْ ، والبَغْـيُ مُهْلـكُ أهلـهِ إذا الكبشُ لم يُوْجَدْ لَهُ مَنْ يُقَارِعُه(١٠)
ألَسْنـا نُـوازِيْـهِ بجَمْـعٍ كـأنَّـه أَتِـيٌّ أمـدَّتْـهُ بليـلٍ دَوافِعُـه(١١)

(١) عانٍ: مَنْ شغلته الهموم والمشقة ، يوازعه: يكفه ويمنعه.
(٢) راث عليه الوافدون: بمعنى أبطؤوا عليه ، ذا حفاظ: ذا أنفة وغضب.
(٣) يبين حالة العاني والأسير الذي شد عليه الوثاق بحيث تقفعت ويبست أصابعه من شد الوثاق.
(٤) إذا ذكر الأسير الذي فكَّ قيوده والدُحسان ، الهناء الذي يعيش فيه الحي المقيم ، بكى على نفسه.
(٥) ننص العيس: ندفعها للسير ، على الوجا: يعني على القرح الذي يصيب قوائمه.
(٦) كبول: جمع كبل: بمعنى القيد.
(٧) جلاد الشول: النياق الشديدة الصلبة.
(٨) نكب الكوم: يعني نصرع النياق العظيمة السنام ، والكوم: جمع كوماء: الناقة ذات السنام العظيم ، نستصلح المولى: نصلح أمره ، رافعه: يريد به ماله لأن المال يرفع الإنسان ويضعه.
(٩) وفي رواية:
فـإن رابـه أَمْـرٌ وَقَتْـهُ نفـوسنـا وما نـالنـا مـن واسِـعٍ فهـو واسِعُـه
(١٠) الكبش: سيد القبيلة ، يقارعه: بمعنى يحاربه.
(١١) نوازيه: نحاذيه ونقوم بإزائه ، الأتيّ بتشديد الياء: السيل الغريب يأتيك ولم يصبك مطره ، دوافعه: مجاريه.

فَنَكْثُرُكُمْ فيه ونَصْلَى بحرِّهِ ونَمْشِي إلى أَبْطالِهِ فَنُمَاصِعُه[1]
وأَنْشُدُكُم والبغْيُ مُهْلِكُ أهلِهِ إذا الخصمُ لمْ يوجَدْ له من يُدَافِعُه
وأكثَرَ حتى دَرَّ حَبْلُ وريدِهِ وقَصَّرَ عَنْهُ في المَقَالَةِ وازِعُه
أَلَسْنا نُكَافِيهِ ونَعْدِلُ دارَهُ ولا يَنْتَهِي أو يَخْلُصَ الحَقُّ ناصِعُه[2]

وفي رواية: «أَلَسْنا نُصاديه ونَعْدِلُ مَيْلَه» (نصاديه: بمعنى نمارسه ونزاوله).

وأنشُدُكُمْ والبغيُ مُهْلِكُ أهلِهِ إذا الضَّيفُ لمْ يوجَدْ له مَنْ يُنَازِعُه
أَلَسْنا نُحَيِّيهِ ويَأْمَنُ سِرْبُهُ ونَفْرُشُه أَمْناً ويَطْعَمُ جائعُه[3]
فلا تَكْفُرُونا ما فَعَلْنَا إليكُمُ وأَثْنُوا بهِ، والكُفْرُ بُورٌ بَضَائعُه[4]
كمَا لَوْ فعلتُمْ مِثْلَ ذاكَ إليهمُ لأثنَوْا بهِ، ما يأثُرُ القَوْلَ سامِعُه[5][6]

وهٰذه أبيات في الهجاء، يهجو بها معيص بن عامر بن لؤي، وهو من قريش الظواهر النازلين خارج مكة وبني محارب بن فهر وبني نزار بن معيص، يقول:

فَلا واللهِ ما تَدْري مَعيْصٌ أَسَهْلٌ بَطْنُ مَكَّةَ أَمْ يَفَاعُ[7]
وكلُّ محاربٍ وبَنِي نزارٍ تَبَيَّنَ في مَشافِرِه الرَّضَاعُ[8]
وما جُمَحٌ ولو ذُكِرَتْ بشيءٍ ولا تَيْمٌ، فدلكُمُ الرَّعَاعُ[9]
لأنَّ اللؤمَ فيهِمْ مُسْتَبِينٌ إذا كانَ الوقائِعُ والمِصَاعُ[10]

(١) نكثركم: نغلبكم بالكثرة، نماصعه: بمعنى نقاتله.
(٢) نكافيه: بمعنى نكافئه من المكافأة، أو بمعنى: إلى أن، ناصعه: واضحه، بدل من الحق.
(٣) سرب: بمعنى الطريق.
(٤) يعني أن كفران النعمة يؤدي إلى البوار والضياع.
(٥) يعني أنكم لو صنعتم بهم مثل هٰذا الصنيع لذكروه بالخير والثناء، ما دام الناس يتناقلون الأحاديث ويروون الأقوال فيما بينهم.
(٦) ديوان حسان بن ثابت، طبع المطبعة العربية القاهرة، ص ١٤٤ ـ ١٤٦.
(٧) معيص بن عامر بن لؤي، يفاع: ما ارتفع من الأرض.
(٨) الرضاع: اللؤم، ويريد بها أنهم لئام.
(٩) يريد أن بني جمح وبني تيم كلهم سفلة.
(١٠) المصاع: القتال.

ومَخْزُومٌ هُمُ وعَدِيٌّ كَعْبٍ لِئامُ النَّاسِ، لَيْسَ لهُمْ دِفَاعُ[1]

قصيدته المخضرمة:

ومن اللطائف الأدبية أن يكون لهذا الشاعر المخضرم الذي عاش ـ في الجاهلية والإسلام كشاعر كبير ـ قصيدة مخضرمة[2] بدأها في الجاهلية وأتمها في الإسلام، وهي القصيدة الأولى من ديوانه في قافية الهمزة، استهلها بذكر الديار والآثار لحبيبته شعثاء، تحدث فيها عن هٰذه الديار ومروجها وما كان فيها من نَعَمٍ وشَاءٍ، ومن أنيسٍ حبيبٍ سكنها إلى مدة طويلة، فكانت لحظات سعيدة لا تكاد تعدلها لحظات أخرى، وهي ديار بني الحسحاس بن مالك من بني النجار، وقد عفت هٰذه الديار والمواضع وأتى عليها الروامس والأمطار، ولكن الحبيبة شعثاء لم يَمَّحِ ذكرها ولا ذهب طيفها، بل إنها لا تزال تتمثل له بعد وقت العشاء حالما ينام ويأوي إلى فراشه، وإن لها ذكريات حلوة كثيرة تقلق قلبه وتثير كوامِنَ حبه، وتحثه على لقائها والبكاء على ما فاته من حديثها وساعات الحب الحانية التي فقدها منذ أمد طويل.

وإنه يفيض في مدحها والثناء على أوصافها الجميلة، وعلى ما أودع الله سبحانه فيها من جمال الخلق والخلق، وما خلع الله عليها من لباس الحسن الظاهر والباطن، وطالما عالج ما على أسنانها من لذة طيبة وحلاوة رائقة تفوق الخمور الجيدة التي كانت تنتجها قرية «بيت رأس» في الأردن، التي كانت تتميز بجودة خمورها وصفاء شرابها، ورقة مزاجها من الماء والعسل، ولكن الخمر التي في فمها وعلى أنيابها، طعمها أطيب من طعم هٰذه الخمور ومن طعم عصير التفاح الغض الطري الذي اقتطف من شجرته وعصر من ساعته.

ومن هنا فإن كل شراب من الأشربة مهما كان غالياً وإلغاً من الجودة بمكان إنما يتضاءل ويفقد لذته وبهاءه أمام ذلك الشراب الغالي والراح الطيبة التي تحملها

(١) ديوان حسان، طبع دار صادر بيروت، ص ١٥٥.
(٢) اقرأ في ذلك ما قد كتبه العدوي في كتبه، وهو أحمد بن محمد بن حميد بن سليمان بن حفص بن عبد الله بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عوتج بن عدي بن كعب العدوي الجهمي، أحد رواة هٰذا الديوان، ومن علماء القرن الثالث الهجري.

الحبيبة في فمها ، وبين أسنانها ، والتي ليس من شأنها أن تسكر الشارب وتجرده من لباس العقل والشعور الإنساني السليم ، بينما نرى أن الأشربة من الخمور المسكرة تهدم الإنسان عقلياً وتحرمه من التفكير السليم لفترة من الوقت ، فإذا به يظن نفسه على قمة من السعادة حيث يفوق ملوك العالم كله ، وقد تهبط به في الحضيض فلا يتحرج في السباب والقتال ، وانتهاك الحرمات ، وأحياناً تبعث فيه الهمة والشجاعة فلا يخاف من الخوض في صفوف القتال والتربع على عروش الملوك .

إلى هٰذه المعاني أو مثلها يشير الشاعر المخضرم في أبيات هٰذه القصيدة الأولى ، وهي عشرة أبيات يفتتح بها هٰذه القصيدة قبل أن يسعد بالإسلام ، ولعله كان يريد أن يتمها قصيدة جاهلية ، ولكنه اهتدى بأمر من الله وقضائه إلى الإسلام وذاق حلاوة الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، ولم يرض إلا أن يضيف إلى هٰذه القصيدة معاني إسلامية ويفيض في مدح النبي الكريم ﷺ ، وأن يتناول الكفار والمشركين بالهجاء ، ممن كان يهجو النبي الكريم ﷺ .

وهٰذه هي الأبيات العشرة الأولى التي استهل بها القصيدة المخضرمة :

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجوَاءُ ... إلى عَذْراءَ منزلُها خَلاءُ(١)
ديَارٌ مِن بَني الحَسْحَاسِ قَفْرٌ ... تعفِّيها الرَّوامِسُ والسَّمَاءُ(٢)
وكانَتْ لا يزالُ بها أَنيسٌ ... خلالَ مُروجِها نَعَمٌ وشَاءُ
فَدَعْ هٰذا ، ولكن مَنْ لطيفٌ ... يُؤَرِّقُني إذا ذَهَبَ العِشَاءُ(٣)
لِشَعْثَاءَ الَّتي قَدْ تَيَّمَتْهُ ... فليسَ لقلبِهِ منها شِفَاءُ(٤)
كأنَّ سَبِيْئَةً مِنْ بيتِ رأسٍ ... يكونُ مِزاجَهَا عَسَلٌ ومَاءُ(٥)

(١) عفت: درست ، ذات الأصابع والجواء: موضعان في الشام ، عذراء: موضع على بريد من دمشق ، وبها قتل معاوية حجر بن عدي الأدبر وأصحابه.
(٢) بنو الحسحاس: أولاد الحسحاس بن مالك من بني النجار ، الروامس: الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار أي: تدفنها ، السماء: المطر.
(٣) إذا ذهب العشاء: أي إذا حان وقت النوم ، والعشاء: أول الظلام.
(٤) شعثاء: اسم امرأة ، وقيل: اسم حبيبة الشاعر قبل أن تكون زوجة له.
(٥) سبيئة: الخمر ، بيت رأس: اسم إحدى القريتين اللتين كانت في كل واحدة منهما كروم=

على أنيابِها ، أو طَعْمُ غَضٍّ ... مِنَ التُّفَّاحِ هَصَّرهُ الجَنَاءُ(١)
إذ ما الأشربَاتُ ذُكِرْنَ يوماً ... فهنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الفِدَاءُ(٢)
نُولِّيهَا المَلامَةَ ، إن ألَمنا ... إذا ما كانَ مَغْثٌ أو لِحاءُ(٣)
ونَشْربُها فتَتْرُكُنا مُلُوكاً ... وأُسداً ما يُنَهْنِهُنَا اللقَاءُ

إلى هنا قالها حسان في الجاهلية ، ثم كتب الله للشاعر أن يهتدي إلى الإسلام ويصرف عنان الشعر من المعاني الجاهلية إلى ما يمدح به النبي الكريم ﷺ ويدافع به عن رسالته التي جاء بها من عند ربه الكريم ، وقد آمن بكل معاني الإيمان بأن الإسلام سينتصر على الكفر ، وتبيض وجوه المسلمين بالنصر على الأعداء وبالفتح المبين ، فيأتي بنبوة الفتح ويتحدث عنه في الأبيات التالية بشيء من التحدي ومن الثقة بالحق ، ولا يفارقه في هٰذه الأبيات معاني الفخر والاعتزاز بالدين الذي دخل فيه ، وهجاء المشركين ، وخاصة أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الذي كان ألدَّ أعداء المسلمين يوم ذاك ، وعصر جميع مواهبه الشعرية في النيل من شخصية الرسول الكريم ﷺ وهدم رسالته ، يقول :

عَدِمْنَا خَيلَنا إنْ لَم تَرَوها ... تُثِيرُ النَّقْعُ ، موعِدُها كَدَاءُ
يُبَارِيْنَ الأعِنَّةَ مُصْعِداتٍ ... عَلَى أكتَافِها الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّراتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ

وقد تحققت هٰذه النبوة يوم فتح مكة ، فقد جرت خيول المسلمين تثير النقع ، وبلغت إلى موضع الثنية العليا بمكة التي تسمى بـ «كدا» ، وهي حاملات على أكتافها الرماح الصلبة التي كانت تترقب الري بدماء المشركين. ووقفت نسوة المشركين يرمين خُمرهن على أعين الخيول لكي يردنها عن غايتها ، وذلك ما عبر عنه الشاعر بتلطيم النساء الخيل.

= كثيرة ، وينسب إليهما الخمر لجودتها ، إحداهما في بيت المقدس ، وقيل: هي كورة بالأردن ، والأخرى في نواحي حلب.
(١) هصَّره: أماله.
(٢) الأشربات: جمع الجمع ، الراح: الخمر ، وسميت الخمر راحاً لارتياح شاربها.
(٣) ألمنا: يعني جئنا بما نلام عليه ، المغث: الشر والقتال ، اللِحاء: السباب.

والشاعر يشير على المشركين أن يعرضوا عن المسلمين ويسمحوا لهم بدخول مكة وأداء العمرة ، وهنالك ينكشف الغطاء ويتم للمسلمين الفتح . أما إذا لم يقبلوا النصح فعليهم انتظار يوم الحرب التي تحكم بما يجب ، ويعز الله فيها من يشاء من عباده.

فإمَّا تُعرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وكانَ الفَتْحُ وانكَشَفَ الغِطَاءُ
وإلا فاصبِرُوا لِجِلادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فيهِ مَنْ يشَاءُ

ثم يتظاهر الشاعر بالفخر والاعتزاز بالإسلام وبأمين الوحي ورسول الإسلام ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ولا يترك شيئاً من معاني الهجو والتهديد والتحدي والفخر والترغيب والترهيب إلا ويأتي به في الأبيات الآتية. ويوجهه إلى المشركين:

وجِبريلٌ أمينُ اللهِ فِينا ... ورُوحُ القُدْسِ ليسَ لهُ كَفَاءُ
وقالَ اللهُ: قد أرسلْتُ عَبداً ... يقولُ الحقَّ إن نَفَعَ البَلاءُ
شهِدتُ بهِ فقُومُوا صدِّقُوهُ ... فقُلْتُم: لا نقُومُ ولا نشَاءُ
وقالَ اللهُ: قد يسَّرْتُ جُنْداً ... هُمُ الأنصارُ عرضَتُهَا اللقاءُ
لَنا في كلِّ يومٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أو قِتَالٌ أو هِجَاءُ
فنحكُمُ بالقَوافِي مَنْ هَجَانا ... ونضرِبُ حينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

وهنا يوجه الهجاء إلى أبي سفيان بن الحارث[1] مباشرة ويخاطبه بأغلظ كلام:

ألا أبلِغْ أبا سفيانَ عَنِّي ... فأنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ
بأنَّ سيوفَنَا تركَتْكَ عَبْداً ... وعبْدُ الدَّارِ سادَتُها الإمَاءُ
هَجَوْتَ محمَّداً فأجبْتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاكَ الجَزَاءُ
أتهجُوهُ ولسْتَ لهُ بكُفْءٍ ... فشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ
هَجَوتَ مُباركاً براً حنيفاً ... أمينَ اللهِ شيمَتُهُ الوَفَاءُ[2]

(١) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وأخوه في الرضاعة ، هجا الرسول الكريم ﷺ في الجاهلية بكلامه وآذاه ، ثم أسلم وحسن إسلامه.

(٢) قال ابن عساكر في روايته.
هجوت محمداً براً حنيفاً ... رسول الله شيمته الوفاء=

فمَنْ يهجُو رسولَ اللهِ منكُمْ ... ويمدَحُهُ وينصُرُهُ سَواءُ[1]
فإنَّ أبي ووالِدَهُ وعِرْضِي ... لِعِرْضِ محمَّدٍ منكُمْ وِقاءُ[2]

ثم ينتقل إلى ما كان بين بني لؤيّ وجذيمة من عداوة ونقمة ، فكان حيُّ بني لؤيّ يتحيّن الفرصة لقتال حيّ جذيمة ، الذين أوقع بهم رسول الله ﷺ يوم المريسيع ، وجذيمةُ هو المصطلقُ بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، فيقول حسان: إن وجدت بنو لؤيّ حيّ جذيمة فإن قتلهم إياهم شفاء لما في الصدور ، ذلك لأن جذيمة نصروا علينا أعداءنا ، وفعلاً انتقمنا منهم وبطشنا بهم وافترسناهم بضراوة ، ففي أظفارنا دماؤهم ، يقول:

فإمَّا تَثْقَفَنَّ بَنُو لُؤيٍّ ... جُذيمَةَ إنَّ قَتْلَهُمُ شِفَاءُ
أولئِكَ مَعْشَرٌ نَصَرُوا علينَا ... ففِي أَظْفَارِنا منهُمْ دِمَاءُ

ويشير إلى الحِلْف الذي قام به الحارث بن أبي ضرار بن خبيب بن الحارث بن عائذ بن مالك بن المصطلق ، وهو والد جُوَيْرِيَّةَ أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وكان الحارث يقود بني المصطلق ، ثم أسلم الحارث وأسلم معه رجال من قومه ، وقريظة هم بنو قريظة إخوة النضير ، وقد كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ ثم نقضوا العهد ، وظاهروا المشركين على رسول الله ﷺ ، يقول:

وحِلْفُ الحارِثِ بنِ أبي ضِرارٍ ... وحِلْفُ قُرَيْظَةٍ مِنَّا بَرَاءُ

ويختم القصيدة باعتزاز بلسانه الذي يشبّهه بالسيف الصارم ، وشعره بالبحر الصافي:

لسَانِي صَارِمٌ لا عَيْبَ فيهِ ... وبَحْرِي لا تُكدِّرُه الدِّلاءُ[3]

وفي الاستيعاب:
هجوتَ مُطَهَّراً بَرّاً حنيفاً ... أمين الله شيمته الوفاء
وفي صحيح مسلم:
هجوت محمداً براً تقياً ... رسول الله شيمته الوفاء

(١) استفهام إنكاري.
(٢) أراد حسان في هذا البيت: (فإن أبي ووالده وآبائي وأسلافي): فأتى بالعموم بعد الخصوص ، ويقال: لما بلغ حسان إلى هذا البيت قال رسول الله ﷺ لحسان: وَقَاكَ الله يا حسان حرّ النار.
(٣) شرح ديوان حسان ، عبد الرحمن البرقوقي ، طبع دار الكتاب العربي بيروت ، ص ٦٣.

قصيدة جاهلية أخرى:

وهٰذه قصيدة أخرى جاهلية قالها حسان رداً على قصيدة قيس بن الخطيم التي قالها بمناسبة يوم السرارة الذي كان بين الأوس والخزرج ، وقد تحدث عنه هشام بن محمد بن السائب الكلبي فقال: كان من أيام الأوس والخزرج يوم السرارة كان يوماً عضّ على الحيين جميعاً ، وذاك أن رجلاً من الخزرج (يوم السرارة) لقي رجلاً من الأوس خارجاً من جهة بئر أريس من عند ظئر له ، ومع الخزرجي قوس له ونَبْلٌ ، فرماه فقتله ، فلما بلغ الأوس مقتل صاحبهم ليلاً قتلوه بياتاً ، وكان لا يُقتل رجل في داره ولا في نخله ، فرأت الخزرج مقتل صاحبهم ، فقالوا: والله ما قتل صاحبنا إلا الأوس ، فخرجوا إليهم وخرجت الأوس نحوهم بالسرارة فاقتَتَلوا بها أربعة أيام حتى نال القتلُ كلا الفريقين ، كل واحد من صاحبه كيف شاء ، وهنالك قال قيس بن الخطيم قصيدته التي تحتوي على (٢٢) بيتاً ، وفيها من معاني الفخر والتهديد ما تعوّد شعراء القبائل أن يتظاهروا بها في كل مناسبة.

ومطلع القصيدة:

تَـرُوحُ مِـنَ الحسنـاءِ أم أنـتَ مُغْتَـدي ... وكيـفَ انطـلاقُ عـاشِـقٍ لـم يُـزَوَّدِ

إلى آخر ما جاء فيها من قول:

فـلا يبعـدنَّـكَ اللهُ عبـدَ بـنَ نـافـذٍ ... ومَـنْ يَعْلُـهُ رُكْـنٌ مـنَ التُّـرْبِ يَبْعَـدِ

ورد عليها حسان بالقصيدة التالية وفيها تركيز قوي على معاني الفخر والاعتزاز بما كان يتمتع به من أوصاف كريمة ، والاعتراف بالفضل الذي تفضل به النعمان بن المنذر اللخمي عند زياراته له في الأيام الأولى ، يقول:

لَعَمْـرُ أبيـكِ الخيـرِ يـا شَعْـثُ مـا نَبَـا ... عليَّ لساني في الخُطُوب ولا يَدي[1]

لسـانـي وسَيفـيْ صـارِمـانِ كِـلاهُمـا ... ويَبلـغُ مـا لا يَبلـغُ السَّيفُ مِـذْوَدي[2]

وإنْ أَكُ ذا مـالٍ قليـلٍ أَجُـدْ بـهِ ... وإن يُهْتَصَرْ عُودي على الجَهْد يُحْمَدِ[3]

(١) الخير نعت لأبيك ، ويا شعث ترخيم شعثاء ، وهي امرأة من أَسْلَمَ تزوج بها حسان.

(٢) مذود: من ذاد يذود: بمعنى دافع ، وهي آلة الدفاع يعني لسانه.

(٣) أجد به: من جاد يجود ، الجُهد والجَهد والمجهود: الطاقة والاستطاعة ، وإن يهتصر عودي: يعني به أن يمال غصني ، والمراد به إذا جربني الناس وجدوني صالحاً للحمد.

فـلا المـالُ يُنسينـيْ حيَـائـي وعِفَّتـي ... ولا وَاقِعاتُ الدَّهرِ يَفْلُلْنَ مِبْرَدِي[1]

أُكَثِّـرُ أهلِـيْ مِـنْ عيـالٍ سِـوَاهُـمُ ... وأَطْوِي على المَاءِ القَرَاحِ المُبَرَّدِ[2]

وإنِّـي لَمُعْـطٍ مـا وجَـدتُ وقـائـلٌ ... لِمُـوقِـدِ نـاري ليلـةَ الـريـح: أَوْقِـدِ[3]

وإنِّـي لَقَـوَّالٌ لِـذي البَـثِّ: مَـرْحبـاً ... وأهلاً إذا ما جاءَ مِنْ كلِّ مَرْصدِ[4]

وإنِّـي لَيَـدْعـونـي النَّـدَى فـأجيبُـهُ ... وأضـرِبُ بِيضَ العـارضِ المتـوقِّـدِ[5]

وإنِّـي لَحُلْـوٌ تعتَـرِيْنِـي مَـرارةٌ ... وإنِّـي لتَـرَّاكٌ لِمَـا لـم أُعَـوَّدِ[6]

وإنِّـي لَمِـزْجَـاءُ المَطِـيِّ على الـوَجـا ... وإنِّـي لتَـرَّاكُ الفِـراشِ المُمَهَّـدِ[7]

وأُعْمِـلُ ذَاتَ اللَّـوثِ حتَّـى أَرُدَّهـا ... إذا حُـلَّ عَنْهَـا رَحْلُهـا لـم تُقَيَّـدِ[8]

أكلِّفُهَـا أَنْ تُـدْلِـجَ الليـلَ كلَّـهُ ... تَروحُ إلى بابِ ابْنِ سَلمى وتَغْتَدِي[9]

وأَلْفَيتُـهُ بحْـراً كثيـراً فُضُـولُـهُ ... جَواداً متى يُذْكَرْ له الخَيْرُ يَزْدَدِ[10]

(١) يقول: إن الثراء لا ينسيني واجبي من العفة والحياء وإن صروف الدهر ونوازله لا تقعد بي عن أداء الواجب من القرى والعطاء ، وهٰذا توكيد لما قبله.

(٢) طوى ، من باب ضرب: بمعنى تعمد الجوع وأما من باب علم فمعناه: خمص من الجوع ، والماء القراح: الخالص ، يقول: أبيت جائعاً أكتفي بالماء وأوثر غيري على نفسي بالطعام كما أضم إلى أهلي غيرهم وأعولهم.

(٣) لقد كانت للعرب نار تسمى نار القِرى ، توقد ليستدل الأضياف بها على المنزل ، وكانت توقد على الأماكن المرتفعة ، والمراد من ليلة الريح ليلة الشتاء القارة التي تهب فيها الرياح الباردة.

(٤) البث: الهم والحزن ، والمرصد: الطريق ، يشير إلى أنه يحتفي بالضيوف وقت الشدة والأسى ، ويرحب بكل ضيف جاء من أي طريق وفي أي وقت.

(٥) الندى: السخاء والكرم ، بيض العارض: يريد بها المطر ، وأضرب بيض العارض: يعني بذلك أنه يسبق المطر في البذل والسخاء ، المتوقد: الذي يلمع بالبرق.

(٦) كناية عن كونه ذا نفع وضرر ، يقال: فلان ما يمر وما يحلى: يعني لا يضر ولا ينفع.

(٧) مزجاء على وزن مِفعال صيغة المبالغة ، بمعنى كثير الإزجاء والسوق ، الوجا من باب علم: بمعنى رقة القدم من كثرة المشي ، والألم في حافر الفرس.

(٨) ناقة ذات اللوث: ناقة قوية ، وهي لا تقيّد لشرف مكانتها.

(٩) أدلج الليل: سار الليل كله أو آخره ، وابن سلمى هو النعمان بن المنذر اللخمي.

(١٠) ألفيته: بمعنى أدركته ، فضول: جمع فضل: بمعنى المنة والعطاء ، يعني تَلما طُلِبَ منه الفضل زاد فضلاً وعطاءً.

فلا تعجلَنْ يا قيسُ وارْبَعْ فإنَّما ... قُصارَاكَ أن تُلْقَى بكلِّ مُهَنَّدِ(١)

حُسامٍ وأرماحٍ بأيْدِي أعِزَّةٍ ... متى تَرَهُمْ يا ابنَ الخَطِيمِ تَبَلَّدِ

لُيُوثٍ لها الأشبالُ تَحمِي عَرينَها ... مَدَاعِيسُ بالخَطِّيِّ في كلِّ مَشْهَدِ(٢)

فقد ذاقَتِ الأوسُ القتالَ وطُرِّدَتْ ... وأنتَ لدى الكُنَّاتِ في كلِّ مَطْرِدِ(٣)

فَنَاغٍ لدى الكُنَّاتِ حُوْراً نَوَاعِماً ... وكحِّلْ مآقِيكَ الحِسَانَ بإثْمِدِ(٤)

نَفَتْكُمْ عن العَلْيَاءِ أُمٌّ لِئيمَةٌ ... وزَنْدٌ متى تُقْدَحْ به النَّارُ يَصْلَدِ(٥)

وهنا قصيدة أخرى تشتمل على اثني عشر بيتاً من قافية الدال نفسها ، وفيها اعتزاز بالنفس ، وحديث عن الشجاعة والكرم والسخاء ، وذكر لمجالس السمر والخمر. يقول:

انظُرْ خليلِي ببطنِ جِلَّقَ هَلْ ... تُؤْنِسُ دونَ البَلْقاءِ من أَحَدِ(٦)

جِمالَ شَعْثَاءَ قد هبطْنَ مِنَ الـ ... مَحْبِسِ بينَ الكُثْبَانِ فالسَّنَدِ(٧)

يَحْمِلْنَ حُوّاً حُورَ المَدَامِعِ في الرْ ... رَيْطِ وبِيْضَ الوُجوهِ كالبَرَدِ(٨)

(١) يريد قيس بن الخطيم ، واربع: بمعنى انتظر وتوقف ، قصاراك: يعني نهايتك أن تحارب بالسيوف الحسام والرماح التي تحملها أبطال أعزة تتبلد بمجرد رؤيتهم وتفقد رشدك.

(٢) ليوث: صفة ثانية لأبطال ، الأشبال: جمع شبل ، ولد الأسد ، مداعيس: جمع مدعس ومدعاس ، المراد بها كثير الطعن بالرماح ، من دعس يدعس: بمعنى وطِئ وداس ، الخطّي: الرماح المنسوبة إلى الخط ، وهي نسبة جرت مجرى الاسم العلم ، والخط موضع باليمامة ، وهو مرفأ السفن ، التي كانت تحمل قصب الرماح.

(٣) طردت بمعنى شردت أو طوردت ، والكُنات: جمع كُنة بضم الكاف: بمعنى السقيفة والجناح الذي يخرج من الحائط فوق الباب مثلاً ، وأما بالفتح فمعناها زوجة الابن أو الأخ.

(٤) ناغِ: بمعنى غازل ، حوراً نواعماً: كناية عن النساء الشابات ، مآقي: جمع مأقي: بمعنى مجرى دموع العين مما يلي الأنف ، كناية عن التشبه بالنساء.

(٥) نفتكم: بمعنى أبعدتكم ، الزند: العود الأعلى الذي يقتدح به النار ، وصلد يصلد كعلم يعلم إذا صوّت الزند ولم يخرج ناراً.

(٦) جلق: اسم لدمشق قديماً ، والبلقاء كورة من أعمال دمشق.

(٧) المحبس: موضع ، والسند بفتح السين بلد معروف في البادية.

(٨) حوّ: جمع حواء من الحوة ، وهي سمرة الشفة ، يريد بها نساء حوّاً ، حور المدامع يعني حور العين ، الريط: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة.

من دُونِ بُصْرَى وخلْفَها جبلُ الثَّلْـ ... ـجِ عليه السَّحابُ كالقِدَدِ(١)

إنِّي وربِّ المُخَيَّساتِ ومَا ... يَقْطَعْنَ من كلِّ سَرْبَخٍ جَدَدِ(٢)

والبُدْنِ إذ قُرِّبَتْ لمَنْحَرِها ... حِلْفَةَ بَرٍّ اليَمِينِ مُجْتَهِدِ(٣)

ما حُلتُ عن خيرِ ما عَهِدْتِ ولا ... أحببتُ حبِّي إياكِ مِنْ أَحَدِ(٥)

تقول شعثاءُ لو تُفِيقُ من الكأ.. ... ..سِ لأُلْفِيتَ مُثْرِيَ العَدَدِ(٤)

أهْوَى حديثَ النُّدْمَانِ في فَلَقِ الصُّبْـ ... ـحِ وصَوْتَ المُسَامِرِ الغَرِدِ(٥)

يَأْبَى لِيَ السَّيفُ واللِّسانُ وقَوْ ... مٌ لَمْ يُضَامُوا كَلِبْدَةِ الأَسَدِ(٦)

(١) بصرى: قرية بالشام ، معروفة وباقية إلى اليوم ، وقوله كالقدد: جمع قدة ، والقدة: القطعة من الشيء ، والقدة: الفرقة من الناس ، وفي التنزيل: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١] وتقدد القوم: تفرقوا قدداً أي: قطعاً ، يعني كالجماعات المتفرقة.

(٢) المخيسات: الإبل المذلّلة من خيّس الدابة إذا ذلّلها ، وفي الأثر أن رجلاً سار معه على جمل قد خيّسه أي: راضه وذلّله بالركوب ، والسربخ: الأرض البعيدة ، وقيل: هي المضلة التي لا يهتدي فيها لطريق ، وقيل: الواسعة ، وفي الأثر: «وكأيّن قطعنا إليك من دوّية سربخ ، أي: مفازة واسعة بعيدة الأرجاء» ، والجدد: الأرض الغليظة ، وقيل: المستوية ، وفي المثل: «من سلك الجدد أَمِنَ العثار» يريد من سلك طريق الإجماع ، فكنى عنه بالجَدَد ، ولكن الأنسب هنا أن يكون المراد بالسربخ ، البعيدة وبالجدد: الغليظة.

(٣) (٥) البدن: جمع بدنة ، وقد تقدمت ، يقول: ورب البدن ، بالقَسَم ، والمنحر: موضع النحر ، وقوله (حلفة برّ مجتهد) راجعٌ إلى قوله: ورب المخيّسات ، أي: أقسم بذلك قسم صادق لم يقصر ، إني ما تحولت عن خير ما عهدتني عليه يا شعثاء ، وإني ما أحببت أحداً حبي إياك.

(٤) لو تفيق من الكأس: لو تقلع عن الشراب ، وقوله: لألفيت: أي لوُجِدْتُ صاحب ثراء ومال.

(٥) قوله: أهوى ، وفي نسخة أشهى: يعتذر عن حبه الخمر والسكر ، وأشهى: أشتهي ، تقول: شهيت الشيء أشهاه ، والندمان: النديم ، أي الذي ينادمك ويرافقك ويشاربك ، وقد يكون الندمان واحداً وجمعاً ، والمسامر: من السمر وهو الأحدوثة بالليل ، ولكن المراد به هنا المغنى ، ومن ثم وصفه بالغرد ، قال الشاعر:

من دونهم إن جئتهم سمراً ... عزفَ القيام ومجلس غُمُرِ

وقد يكون المراد الذي يسمر فقط ووصفه بالغرد لطيب حديثه.

(٦) وقوله: يأبى لي السيف أي: يأبى لي كل أولئك ـ السيف واللسان وقومي ـ كل ما لا يليق من قوله أو فعله ، ومفعول يأبى محذوف للتعميم مع الاختصار ، وقوله كلبدة الأسد يريد أن قومه ذوو «منعة وعز» وفي المثل: هو أمنع من لبدة الأسد ، يريد أن قومه من جبهة الأسد ، ولبدة الأسد: الشعر المتراكب بين كتفيه ، والعض: السيّئ: الخلق ، قال: =

لا أَخْـدِشُ الخَـدْشَ بـالنَّـدِيـمِ ولا ... يَخْشَـى جَلِيسـي إِذَا انْتَشَيْـتُ يَـدِي[1]

ولا نَـدِيمِـي العِـضُّ البَخِيـلُ ولا ... يَخافُ جارِي ما عِشْتُ مِن وَبَدِ[1]

قصيدته الرائية الجاهلية المشهورة:

ومن قصائده الرائية التي قالها في الجاهلية ، بمناسبة تطليق امرأته عمرة أو عميرة الأوسية بنت صامت بن خالد بن عطية بن حوط بن حبيب بن عمرو بن عوف ، ومن خبره أن حسان كان قد تزوج امرأة من الأنصار من الأوس ، يقال لها: عمرة أو عميرة بنت صامت ، وكان كل واحد منهما محباً لصاحبه ، قال: وإن الأوس أسروا (وفي رواية أجاروا) مخلد بن صامت الساعدي ، فتكلم حسان في أمره بكلام أغضب عمرة ، فعيَّرته بأخواله ، وفخرت عليه بالأوس. وكان حسان يحب أخواله ويغضب لهم فطلقها ، فأصابها من ذلك شدة ، ونِدِمَ حسان بعد ذلك ، فقال قصيدته التالية ، وهي تحتوي على واحد وعشرين بيتاً ، يبدؤها بذكر عمرة وما أزمعت عليه من صَرْم حبالِ المحبة معه ، ثم يلومها على حبها الظاهر الذي كانت تتظاهر به دون أن يكون ذلك حباً خالصاً ، وبعد ذلك يشير إلى ما سألته عن أخواله ، ولا يلبث إلا وينطلق لسانه في مدح أولئك الأخوال بما كانوا يتميزون به عن غيرهم من فعال حسنٍ ، وكرم وسخاء، ثم يتحدث عن ملوك غسان ويفيض في الثناء عليهم وذكر محامدهم ومفاخرهم، يقول:

أَجْمَعَـتْ عَمْـرَةُ صَـرْمـاً فـابتَكِـرْ ... إِنَّمـا يُـذْهِـنُ للقلـبِ الحَصِـرْ[2]

= ولم أك عضاً في الندامى ملوّماً: والجمع أعضاض ، والوبد: شدة العيش والفقر والبؤس ، مصدر يوصف به ، فيقال: رجل وبد: أي سيّئ الحال ، يستوي فيه الواحد والجمع ، كقولك: رجل عدل ، ثم يجمع فيقال: أوباد على توهم النعت الصحيح ، يقول: يأبى لي سيفي ولساني وقومي الأعزة أن يفرط مني ما أؤاخذ به فلا أسيئ إلى النديم ، ولا يخشى جليسي يدي إذا سكرت ، ولا ينادمني سيّئ الخلق ولا البخيل ولا يخاف جاري بؤساً ما حييت.

(١) شرح ديوان حسان للبرقوقي ، ص ١٦٣ ـ ١٦٥.

(٢) وفي رواية للأغاني (أزمعت) فابتكر: بصيغة الأمر، من ابتكر الأمر إذا عجل فيه، يدهن: يعني يظهر خلاف ما يضمر، للقلب الحصر، وهو في الأصل القلب الحصر، يريد القلب الضيق يُظْهِرُ خلاف ما يضمر، يشير إلى أن عمرة إنما كان حبها غير خالص له.

لا يكُـنْ حبُّـكِ حبـاً ظـاهِـراً ... ليـسَ هـذا منـكِ يـا عَمْـرُ بِسِـرْ[1]

سـأَلَـتْ حسـانَ: مَـنْ أخـوالُـهُ ... إِنَّمـا يُسـأَلُ بـالشـيءِ الغُمُـرْ[2]

قلْـتُ: أخـوالِـي بَنُـو كَعْـبٍ إذا ... أَسْلَـمَ الأبطـالُ عـورَاتِ الـدُّبُـرْ[3]

رُبَّ خـالٍ لـيَ لـو أبصَـرْتِـهِ ... سَبِـطُ الكفَّيـنِ فـي اليـومِ الخَصِـرْ[4]

عنـدَ هـٰذا البـابِ إذْ سـاكِنُـهُ ... كـلُّ وَجْـهٍ حَسَـنِ النُّقْبَـةِ حُـرْ[5]

يُـوقِـدُ النَّـارَ إذا مـا أُطْفِئَـتْ ... يُعْمِـلُ القِـدْرَ بـأَثْبَـاجِ الجُـزُرْ[6]

ومن هنا يلتفت إلى الحديث عن ملوك آل غسان ممن كان يزورهم ويمدحهم نظراً إلى المكانة التي كان يتبوَّؤها لديهم ، ويقول: إنه لا ينبغي أن يغتر أحد بالدهر أو يأمن الزمان بعد ما حصل لعمرو بن الحارث بن عمرو بن عدي بن حجر بن الحارث الغساني وحجر بن النعمان بن الحارث بن أبي شمّر الغساني ، فقد اخترمَتْهُما المنية بعدما ملكا من جبل الثلج بدمشق إلى جانب أيلة مما بين الحجاز والشام ، انظروا ما يقول:

مَـنْ يَغُـرُّ الـدَّهـرُ أو يـأمَنُـهُ ... مِـنْ قَبِيـلٍ ، بعـدَ عَمْـرٍو وحُجُـرْ[7]

(١) عَمْرُ ترخيم عمرة، والسرّ: الخالص.

(٢) الغمر بفتح الغين والميم: من لم يجرب الأمور، الجاهل، وبالضمتين: بمعنى المغمور المستور الخفي، وبضم الغين وفتح الميم بمعنى القدح الصغير يعلقه الراكب خلف رحله نظراً إلى قلة أهميته.

(٣) إذا أسلم الأبطال عورات الدبر: كناية عن الانهزام، يعني ينتصر أخواله إذا انهزم الناس.

(٤) سبط الكفين كناية عن السماحة والبرّ ، اليوم الخصر: اليوم الشديد البرد ، وأيام الشتاء والبرد ، أيام جدب عندهم.

(٥) النقبة بضم النون: اللون.

(٦) أثباج: جمع ثبج: وهو ما بين الكاهل إلى الظهر ، الثبج من كل شيء ، أعلاه ، معظمه ، وسطه ؛ والمراد من أثباج الجزر أطايب الجزور من لحومها التي كانوا يقرون بها الناس.

(٧) وفي رواية: من قتيل ، وحجر بضم الحاء والجيم وهو حجر بن النعمان بن الحارث الغساني ، وكان أول من مَلَكَ غسان ، الحارث بن عمرو بن عدي بن حجر بن الحارث ، ثم عمرو بن الحارث ثم الحارث بن عمرو ، وهو أبو شمر الأكبر. ثم الحارث بن الحارث بن أبي شمر ، ثم الحارث الأصغر بن الحارث الأوسط ، وهو الأعرج ، ثم النعمان بن الحارث ، ثم جبلة بن الأيهم وهو الذي وصل إليه الإسلام.

مَلَكا مِنْ جَبَلِ الثَّلْجِ إلى ... جانِبَيْ أَيْلَةَ مِنْ عبْدٍ وحُرْ
ثمَّ كانا خيرَ مَنْ نالَ النَّدى ... سَبَقَا النَّاسَ بإقساطٍ وبِرْ(١)
فارسَيْ خَيْلٍ إذا ما أَمْسَكَتْ ... رَبَّةُ الخِدْرِ بأطرافِ السُّتُرْ(٢)
أَتَيا فارسَ في دارِهِمْ ... فتناهَوا بعدَ إعصامٍ بِقُرْ(٣)
ثمَّ صاحا يا آلَ غسَّانَ اصبِرُوا ... إنَّه يومُ مصَالِيتَ صُبُرْ(٤)
اجعَلُوا معقِلَهَا أيمانَكُمْ ... بالصَّفيحِ المُصطفى غَيْرِ الفُطُرْ(٥)
بِضِرابٍ تأذَنُ الجِنُّ لَهُ ... وَطِعَانٍ مثلِ أفواهِ الفُقُرْ(٦)

وهنا يلوي عنان الكلام إلى الاعتزاز بمعاني الشجاعة ، ويذكرُ قومه الذين يمارسون الحروب ويصدقون السيوف ، ويخوضون المعارك من غير أن يبالوا بالموت ، أو يخافوا من القوة والسلاح ، ويفتخر بالعز العزيز والكرم الأصيل ، والنسب العريق الذي يتمتع به هو وقومه الذين يسودون الناس ويسوسون أحلامهم ، انظروا كيف يقول:

ولقَدْ يعلَمُ مَنْ حارَبَنَا ... أنَّنا نَنْفَعُ قِدْماً ونَضُرْ
صُبُرٌ للمَوتِ إنْ حَلَّ بِنا ... صادِقُو البأسِ غطَارِيفٌ فُخُرْ(٧)
وأقامَ العِزُّ فينا والغِنى ... فلَنا مِنْهُ على النَّاسِ الكُبُرْ(٨)
منهمُ أصْلِي فمَنْ يفخَرْ بهِ ... يَعرفِ النَّاسُ بفخرِ المُفْتَخِرْ

(١) إقساط: بصِلَةٍ ، بين وإلى ، وبدون صِلَة ، كما في التنزيل: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] بمعنى العدل في القسمة والحكم ، والقسط بمعنى الجور.
(٢) فارسي: تثنية فارس ، والمراد أنهما شجاعان عند ما يعم الخوف ، ستر بضمتين: جمع ستار.
(٣) إعصام: بمعنى اعتصام ، والمراد به الامتناع والإباء ، قُرْ: بالضم والتشديد ، موضع القرار يعني أنهم بعد امتناعهم يتناهون إلى موضع قرارهم.
(٤) مصاليت: جمع مصلت ، بمعنى الذي يمضي في الأمور ، وصُبر بالضم: جمع صابر.
(٥) معقلها: بمعنى حرزها ، الصفيح: السيف العريض ، والمصطفى: المختار ، غير الفطر: يريدُ به السيف البتّار الذي لا يكون فيه فلول ولا شقوق.
(٦) تأذن الجن له: بمعنى تستمع الجن إليه ، الفقر بالضم: جمع فقير وهو مخرج الماء من فم القناة ، والفقير: بمعنى البئر أيضاً.
(٧) غطاريف: جمع غطريف ، السيد الشريف الجواد ، فخر بالضم: جمع فاخر.
(٨) الكبر بالضم أو بالكسر فالسكون: بمعنى الشرف والعظمة ، وتحريك الباء هنا للضرورة.

نحنُ أهلُ العزِّ والمجدِ معاً ... غيرُ أنْكَاسٍ ولا مِيْلٍ عُسِرْ(١)
فسَلُوا عنَّا وعن أفعَالِنا ... كلُّ قومٍ عندَهُمْ علمُ الخَبَرْ(٢)

وقد روى هشام بن محمد الكلبي ، أنه كان بينَ بني النجار وبني خَطْمَة اختلاف في حليف لبني بَياضة من بني عَبْس يدعى عروة بن الورد ، فالتقوا بالدرَك فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى بينهم ، ورئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البَيَاضي ، وكان ظفر ذلك اليوم لهم ، فقال عروة بن الورد في ذلك أبياتاً منها:

فَفِدىً نَفْسي لِعَوفٍ كُلُّها ... وبَني النجَّارِ في يَومِ الدَّرَكْ(٣)

فأجابه عبيد بن نافذ من بني عمرو بن عوف بقوله:

بلِّغَا عَوْفاً بأنَّا مَعْقِلٌ ... نَمْنَعُ الضَّيْمَ وفَرْعٌ مُشْتَبِكُ

وفي ذلك قال حسان بن ثابت الأبيات الآتية ، وهي خمسة أبيات في ديوان حسان الذي حققه الدكتور سيد حنفي حسنين برواية هشام بن محمد الكلبي:

فِدَاً لِبَني النجَّارِ أُمِّي وخالَتِي ... غداةَ أَتَوْكُمْ بالمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
وَصِرْمٍ منَ الأحبارِ عمرو بن مالكٍ ... إذا ما غَدَوا كانَتْ لهُمْ عزَّةُ النصْرِ
فوَاللهِ لا أَنْسَى حَيَاتِي بَلاهُمُ ... غداةَ رَمَوْا عَمْراً بقاصِمَةِ الظَّهْرِ
وأَفْلَتَ يومَ الرَّوْعِ أوسُ بنُ خالدٍ ... يَمجُّ دماً كالرِّعْثِ مُخْتَضِبَ النَّحْرِ(٤)
فإن تَنْجُ منها يا جُوَيُّ فإنَّهَا ... رُحابٌ كجَوفِ الغارِ مُظْلِمَةِ القَعْرِ(٥)

ومن أبياته التي قالها في الجاهلية يمدح بها عبد مناف من قريش:

كانَت قريشٌ بَيْضَةً فَتَفَلَّقَتْ ... فالمحُّ خالِصُهُ لعَبْدِ الدَّارِ(٦)

(١) أنكاس: جمع نكس ، المقصر عن الوصول إلى غاية النجدة والكرم ، وبمعنى الضعيف ، ميل: جمع أميل ، الجبان ، والذي لا يستقر على صهوات الخيول ولا يحسن الفروسية ، عُسُر: جمع أعسر ، وهو الذي يعمل بشماله.
(٢) شرح ديوان حسان للبرقوقي ، ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠.
(٣) وهذه الأبيات تنسب إلى حسان بن ثابت أيضاً.
(٤) قال ابن الكلبي: الرعث هنا: الجلود الرقاق الحمر.
(٥) جوي: هو جويّة بن عائذ ، رجل من مزينة ، حليف لبني خطمة ، طُعن يومئذ.
(٦) المح والمحة: صفرة البيض ، وقيل: محّ البيض ، ما في جوفه من أصفر وأبيض كله مح.

ومَنـاةُ رَبِّـي خَصَّهُـمْ بكَـرَامَـةٍ حُجَّـابُ بيـتِ الله ذي الأستـارِ[1]

قال أحمد بن محمد بن حميد بن سليمان العدوي ، أحد رواة هذا الديوان : حدثني أصحابنا من أهل الحجاز أن رسول الله ﷺ أنشد هذا الشعر ، فقال لبعض قريش : أهكذا قال شاعركم؟ قال : لا يا رسول الله! ولكن قال :

كـانَـتْ قـريـشٌ بَيْضـةً فَتَفَلَّقَـتْ فـالمـحُّ خـالِصُـة لعَبْـدِ مَنـافِ

أما البيتان الثالث والرابع من هذه الأبيات فكما يلي :

أهـلُ المكـارِمِ والعَـلاءِ ونَـدْوةِ النَّـا دِيْ وأهـــلُ لَطِيْمَـــةِ الجبَّـــارِ
ولِـوَى قـريـشٍ فـي المَشـاهـدِ كلِّهـا وبنَجْـــدةٍ عنـــد القَنـــا الخَطَّـــارِ

كانت السدانة وهي حجابة البيت ولواء قصيّ عليها ، وكان أسود ، والندوة هي دار قصيّ لبني عبد الدار خاصة دون ولد قصيّ ، فأخذ النبي الكريم ﷺ اللواء يوم فتح مكة ، فجعله أبيض[2].

قصيدته الطائية :

وهنا قصيدة طائية من أيامه الجاهلية ، تنطوي على معاني اللهو والغزل والخمر والفخر والجود والسخاء ، بدأها بقوله :

لِمَـــنِ الـــدَّارُ أقفَـــرَتْ بِبُـــوَاطِ غَيـرَ سُفْـحٍ رَواكِـدٍ كـالغَطَـاطِ[3]
تلـكَ دارُ الأَلُـوفِ أضحَـتْ خَـلاءً بعـدَمـا قـد تَحُلُّهَـا فـي نَشَـاطِ[4]

وهذه القصيدة عدد أبياتها أربعة وعشرون بيتاً ، والبيت الأخير فيها كالآتي :

ثـمَّ رُحْنَـا ومـا يخـافُ خَليلِـي مـن لِسَـانِـي خيـانَـةَ الانبسـاطِ

(١) مناة : من الأصنام التي كانت تعظمها العرب في الجاهلية ، وكانت الأوس والخزرج يهلون له ويذبحون.
(٢) شرح ديوان حسان ، تحقيق دكتور سيد حنفي حسنين ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٣) بواط : اسم موضع على أبراد من المدينة المنورة ، وهي جبال جهينة ، ومنه غزوة بواط ، التي اعترض فيها رسول الله ﷺ لعير قريش ، سُفح : جمع أسفح ، اللون الأسود المشرب حمرة ، غطاط : جمع غطاطة ، نوع من القطا.
(٤) الألوف : بفتح الهمزة المراد به المحبوب.

يوم الفضاء :

قال ابن الكلبي : ومن أيامهم يوم الفضاء ، يوم التقوا بالفضاء فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى حجز بينهم الليل ، فأفضلت الأوس يومئذ على الخزرج ، فقال قيس بن الخطيم قصيدته التي يقول فيها :

فمـا أبقَـتْ سيـوفُ الأوسِ مِنكُـمْ وَحَـدُّ ظُبـاتِهَـا إلا شَـرِيـدا

فأجابه عبد الله بن رواحة بقصيدة ذات أربعة وعشرين بيتاً بدأها بقوله :

تَـذَكَّـرَ بعـدمَـا شَحَطَـتْ نُجُـوداً وكـانَـتْ تَيَّمَـتْ قَلْبِـي وَلِيـداً

ثم كانت الرسل تجري بينهم والكلام في أن يصلحوا أمرهم ، وكان بينهم عهد وميثاق ألا يغدروا بأحد منها في معقله ، والمعقل : النخل والدار ، فلا يقتل رجل كان في نخله أو داره ، فإذا خرج منها لم يكن له عهد ، فلما جرت الرسل بينهم قالوا : اعرضوا علينا ، قالت الرسل : انظروا في القتلى ، فمن كان له الفضل فردوا إليه الدية ، فوجدوا الأوس قد فضلت بثلاثة رهط على الخزرج ، فأعطوا الخزرج غلماناً رهناً بالديات ، فغدرت بهم الخزرج فقتلوهم ، فبلغ ذلك الأوس فاستعدوا للقتال ، واستعدت الخزرج أيضاً للقتال ، فالتقوا يوم الربيع ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كادت الأوس والخزرج يومئذ يفني بعضها بعضاً ، وكانت النجار يومئذ أشد الخزرج على الأوس وأغلظهم جانباً ، وحصّنوا النساء والذراري في الآطام وظنوا أن سيُخلص إلى النساء والذراري ، ولا يلقى رجل خارج من معقله إلا قتل ، ودعت الأوس إلى الصلح فأبت عليهم النجار ، وحالوا بين الفريقين كليهما وبين الصلح ، ففي ذلك يقول حسان :

لقـد هـاجَ نفسَـكَ أَشْجَـانُهـا وعـاوَدَهـا اليَـوْمَ أديـانُهـا
تـذكَّـرْتَ هنـداً ومـا ذِكْـرُهَـا وقـد قُطِعَـتْ بِنـك أقـرانُهـا
ودَوِّيَّـةٍ سَبْسَـبٍ سَمْلَـقٍ مـنَ البِيـدِ تَعْـزِفُ جِنَّـاتُهـا
قطعـتُ إذا خَـبَّ حـادِيْ السَّـرا ب بِهَـوْجَـاءَ يلعـبُ شيطـانُهـا
وسـاءَلْـتُ منـزلـةً بـالحِمـى وقـد ظَعَـنَ الحـيُّ مـا شـأنُهـا
ويَثْـرِبُ تَعْلَـمُ أنَّـا بهـا إذا أَلْبَـسَ الحَـقَّ ميـزانُهَـا

ويَثْـــربُ تعلَـــمُ أنَّـــا بهـــا ... إذا قَحـــطَ القَطْـــرُ نُـــوآنُهـــا[1]
ويَثْـــربُ تعلَـــمُ أنَّـــا بهـــا ... إذا خـــافـــتِ الأوسَ جيـــرانُهـــا
ويَثْـــربُ تعلَـــمُ أنَّ النَّبِيْـــتَ ... عنـــدَ الهَـــزاهِـــزِ ذُلانُهـــا[2]
نُبِـــتْ بـــالنَّبِيْـــتِ وأشيـــاعِهـــا ... مِـــنْ أنْ أُوْعِـــدَتْ قـــطُّ أوطـــانَهـــا
فكيـــفَ إذا نـــازَلَتْهَـــا ليـــو ... ثُ غـــريـــفٍ وشِبْـــلانُهـــا[3]
متـــى تـــرَنَـــا الأوسُ فـــي بَيْضِنَـــا ... نَهُـــزُّ القَنَـــا تَخْـــبُ نيـــرانُهـــا
وتُعْـــطِ المَقـــادَ علـــى رغمِهَـــا ... ويَنْـــزلُ مِـــنَ الهَـــامِ عِصْيـــانُهـــا
ويَثْـــربُ تعلَـــمُ أنَّ النَّبِيـــتَ ... ليسَـــتْ بشـــيءٍ وأعـــوانُهـــا
فـــلا تفخَـــرَنْ والتَمِـــسْ ملجَـــأً ... فقَـــدْ عـــادَ لـــلأوسِ أديـــانُهـــا
ونحـــنُ إذا حـــارَبَـــتْ عـــامِـــرٌ ... أمـــامَ الكتيبـــةِ أعيـــانُهـــا
ونحـــنُ إذا نـــزلَـــتْ مُعْضـــلاتٌ ... نَحُـــسُّ القبـــائـــلَ إخـــوانُهـــا

فقال ابن الخطيم:

أَجَـــدَّ بعَمْـــرَةَ غُنيـــانُهـــا ... أَتَهْجُـــرُ أم شـــأْنُنـــا شـــأنُهـــا

أبيات أخرى في حرب الأوس والخزرج:

قال حسان للحارث بن هيشة بن عبد الله بن معونة[4] بن عمرو بن عوف، وذلك في حرب الأوس والخزرج:

يـا ابنَـي رِفـاعـةَ مـا بـالِـيْ وبـالُكُمـا ... هل تُقْصِرانِ ولم تَمسَسْكُما ناري[5]
مـا كـانَ مُنْتهيـاً حتـى يُقـاذِفَنـي ... كلْـبٌ وجَـأْتُ علـى فِيـهِ بـأحجـارِ[6]
يَكْسو الثلاثَةَ، نصفُ الثوبِ بَيْنَهُمُ ... بمِئْـــزرٍ ورِداءٍ غيـــرِ أطْهَـــارِ

(١) نوآن: جمع نوء: بمعنى طلوع النجم الذي يسبب المطر.
(٢) النبيت: هو عمرو بن مالك بن الأوس، ذلان: بمعنى الذليل جمع، الهزاهز: الحروب الشدائد.
(٣) الغريف: الأجمة، شبلان: جمع شبل.
(٤) وفي رواية (معاوية) وبعض النسابين يذكرون: هيشة بن الحارث بن أمية بن معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.
(٥) يريد بابني رفاعة: قيس بن رفاعة وأخاه من بني واقف بن الأوس.
(٦) يقاذفني: يعني يضاربني بالأحجار، وجأت: بمعنى ضربت ولكزت.

قـد خـابَ قـومٌ نِيـارٌ مـن سـراتِهِـمِ ... رِجْـلاً مُجَـوَّعَـةً شُبَّـتْ بمِسْعَـار[1]
لـولا ابـنُ هَيْشَـةَ إنَّ المـرءَ ذو رَحِـمٍ ... إذاً لأنشبْـتُ بـالبَـزْواءِ أظفَـاري[2]

ولما سمع قيس بن رفاعة هذه الأبيات، قال:

نـامَ الخَلِـيُّ وبِـتُّ الليـلَ مُـرتفِقـاً ... كـأنَّ فـي العينِ مِنِّي ضربَ عُـوَّارِ[3]

وقال في الجاهلية من قافية السين:

لسْنَـا بحَمْـتٍ ولا زِيـمٍ ولا صَـوَرِي ... لكِنْ بمَرجٍ منَ الجَوْلانِ مَفْروسِ[4]
يَغْـدو علينـا بـإبـريـقٍ ومُسْمِعَـةٍ ... إنَّ الحجـازَ رضيـعُ الجُـوعِ والبُـؤْسِ
بِتْنـا بـدارَةِ جَـوَّانـا يُفَـزِّعُنَـا ... صوتُ الدَّجاجِ وأصواتُ النواقيسِ

ومن أبياته في الجاهلية:

أَرِقْـتُ لِتَـوْمـاضِ البُـروقِ اللـوامـعِ ... ونَحْـنُ نَشَـاوَى بيـن سَلْـعٍ وفـارِعِ[5]
أرِقْـتُ لَـهُ حتَّـى علمْـتُ مكـانَـهُ ... بـأكنـافِ سَلْـعٍ والتِّـلاعِ الـدَّوافـعِ[6]
طَـوَى أبْـرَقَ العَـزَّافِ يَـرعُـدُ مَتْنُـهُ ... حَنِينَ المَتالِي نحوَ صَوْتِ المُشايعِ[7]

وقال وهو يصف حبيبته بالجمال والشباب:

لِمَـنِ الـدِّيـارُ والـرُّسُـومُ العَـوافِـي ... بيـنَ سَلْـعٍ وأبـرقِ العَـزَّافِ[8]

(١) نيار: رجل من الأنصار، المسعار: ما توقد وتحرك به النار.
(٢) البزواء: منزل بني رفاعة من بني سليم.
(٣) مرتفقاً: يعني متكئاً على مرفقه، عوار: القذى الذي يقع في العين.
(٤) كلها أسماء القرى، وزيمة: قرية بوادي نخلة من أرض مكة المكرمة، و«زيم» أو بطن زيم على ثلاثين ميلاً من المدينة المنورة أو على أربعة أبرد منها، وصوري: اسم ماء قرب المدينة.
(٥) توماض: على وزن تفعال بفتح التاء، مصدر ومض البرق، بمعنى الوميض، وهو اللمعان الخفيف، نشاوى: جمع نشوان، كسكارى: جمع سكران، لفظاً ومعنىً، سلع: جبل بالمدينة، وفارع، حصن حسان.
(٦) التلاع: جمع تلعة: وهي أرض مرتفعة غليظة.
(٧) أبرق العزاف: جبل بين الربذة والمدينة، المتالي: جمع متلو، النوق إذا تلاها أولادها، شبه صوت الرعد بحنين المتالي، المشايع: الراعي الذي يردد صوته في الشياع، هوالقصبة التي ينفخ فيها الراعي ليهيب بالإبل.
(٨) العوافي: جمع عافية، بمعنى الدارسات.

دارُ خَوْدٍ تشفي الضَّجيعَ بعَذْبِ الـ ... طَّعْمِ مُزٍّ وبـارِدٍ كـالسُّـلاف[1]
مـا تـراهُ علـى التَعَطُّـلِ والبِـذْلَـةِ ... إلا كَـــدُرَّةِ الأصـــــدافِ[2]

قصيدة قالها يوم بعاث:

هنا قصيدة من قافية الفاء قالها حسان ـ رضي الله عنه ـ أيام خروج عمرو بن النعمان أخي بني بياضة الخزرجي على يهود المدينة الذين كانوا قد تحالفوا مع الأوس ضد الخزرج على قتالهم وكان ذلك يوم بعاث ، ومن خبره ما رواه ابن الكلبي ، فقال:

«خرج عمرو بن النعمان أخو بني بياضة من الخزرج في نفر من الخزرج يطوفون في المدينة فمرّوا على منازل بني قريظة والنضير فأعجبهم منازلهم ، فلما رجع إلى قومه قال: يا قوم ، أرضيتم بمكانكم هذا ، إنكم في الحجارة والسباخ ، وقريظة والنضير في منابت النخل والتلاع؟! فنهاه ناسٌ من قومه وقالوا: مهلاً يا عمرو ، لا تبغِ على القوم فإن هذا لا يصلح ، فحلف ليسكنن منازلهم بقومه ، وأرسل إلى اليهود أن اخرجوا من دياركم وإلا قتلنا رهنكم الذين عندنا ، وكانوا أخذوا منهم أربعين غلاماً من أولاد اليهود لئلا يعينوا الأوس على الخزرج.

فلما أتاهم رسول عمرو بذلك أرادوا الخروج من مساكنهم ، فقال رجل منهم يقال له كعب بن أسد ، لا تخرجوا من دياركم وقاتلوا القوم ، فإنكم إن بقيتم فإنما هي ليلة واحدة يأتي كل رجل منكم امرأته فتأتيه بغلام مثل أحد هؤلاء الرهن ، فأبوا أن يخرجوا ، وأرسلوا أنّا غير خارجين ، فانظروا الذي عاهدتمونا عليه فقوموا به ، وكتبوا إلى من كان هرب من الأوس إلى مكة والطائف بسبب حرب كانت بين الخزرج وبينهم كان الفضل فيها للخزرج في القدوم.

فلما بلغ ذلك الخزرج عمدوا إلى الرهائن فقتلوهم ، فلما بلغ الأوْس كتب اليهود ، ورجعوا إلى المدينة واجتمعوا ، ومَنْ كان هناك من الأوس واليهود ،

(١) الخَوْد: الفتاة الحسنة الخلق ، الضجيع: المضاجع مع غيره في شعار واحد ، مز: الطعم اللذيذ بين العذب والحَامض ، السلاف: أول ما يُعصر من كل شيء.

(٢) يريد التعطل من الزينة والحلي ، البذلة: بمعنى التبذل ، وهو ترك التزين ، والبذلة من الثياب ما يلبس عند النوم أو وقت العمل.

فتحالفوا على قتال الخزرج ، وسمعت الخزرج بذلك ، فأتوا عبد الله بن أُبي بن سلول ، وكان صاحب رايتهم وأمْرِ قتالِهم وكانوا يتيمّنُون به ويطيعونه ، فقالوا: يا عبد الله! إن الأوس كان من أمرهم الذي قد علمت ، وإنا لا نقطع غيظنا إلا أن نقتلهم حتى لا يبقى منهم أحد نقدر عليه ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: مرحباً بكم وأهلاً ، إنّا معكم فيما أحببتم وطوع أيديكم ، ولكن هذا بغيٌ ، فمهلاً ، والله ما أحب ذلك ، هم قومكم وأصلكم ولكن إن أحببتم أن نخرج فنقاتلهم كما كنا نقاتلهم ، فإذا ولّوا كفَفْنا عنهم ، فعلنا وخرجنا إليهم.

فقال له من الخزرج فيهم عمرو بن النعمان: انتفخ سحرُك يا أبا الحُبَاب ، لا والله ، ولكن نقاتلهم أو نظهر عليهم ولا نترك أحداً قدرْنا عليه إلا قاتلناه ، فقال عبد الله ومن تابعه من الخزرج: هذا بغيٌ منكم عليهم ، والله لا نتابعكم على هذا أبداً ، فلما أبى عليهم عبد الله بن أبي قالوا لعمرو بن النعمان: خُذ لواءنا أنت ، وقعد أُبَي ومعه من أطاعه من الخزرج وبني الحارث بن الخزرج وخرج من بقي من الخزرج مع عمرو بن النعمان ، وخرجت الأوس واليهود معهم قد حالفوهم على الخزرج ، ولواء الأوس مع حُضَيْر بنِ سِمَاك أحد بني عبد الأشهل فالتقوا ببُعَاث ، وبعاث من أموال بني قريظة والنضير ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فهزِمَتِ الأوس فولّوا مُصعدين في الحَرَّة نحو نجد فصاح بهم رجل من الخزرج يعيّرهم فقال: يا معشر الأوس! أين الفرار إلا أن نجداً سنة؟ أين تذهبون ورأس الأوس يومئذ حضير بن سماك ، فلما سمع حضير صوت الخزرجي وتعييره إيّاهم استحيا فقعد ، وطعن بثعلبِ رمحهِ في رجله ، وصاح: واعقراه ، فعطفت عليه الأوس وتراجعوا ، ولم يبق مع عمرو بن النعمان إلا اليسير ، وقد كان ذهب أكثرهم إلى دُوْرِ بني قريظة والنضير ينتهبون ما فيها حين هزمت الأوس ، فوضعت الأوس عند كَرَّتهم السلاح من الخزرج حيث شاؤوا وأقبل معهم عابر لا يدري من رمى به ، فأصاب عمرو بن النعمان ، فكأنه مات بالأمس ، وتفرق القوم عند ذلك وهزموا ، فظهرت الأوس وقتلوا فيهم قتلى كثيرة ، وكانت الدائرة لهم على الخزرج ، وزعموا أن صائحاً من الأوس يومئذ يقول: يا معشر الأوس! ابقوا في إخوانكم ، لَجِوارُهُم خيرٌ من جِوارِ الثعلب ، ارتهنت قريظة والنضير الخزرج وكفت الأوس عن النهب.

فقال في ذلك قيس بن الخطيم:

رَدَّ الخليطُ الجِمالَ فانصَرَفوا ... ماذا عليهِمْ لَوْ أنَّهمْ وقَفُوا[1]

وهي قصيدة قالها قيس بن الخطيم بعد هذه الحرب[2] بزمان، إذ لم يدركها، كما قد أشار إلى ذلك البرقوقي في «شرحه»[3] وهي تحتوي على (١٦) بيتاً، آخرها:

إن بَنِي عَمِّنا طَغَوا وبَغَوا ... ولَجَّ منهُمْ في قومِهِمْ صَرَفُ

فرد عليه حسان بن ثابت بالقصيدة التالية، يفخر فيها بقومه ويهجو الأوس:

ما بالُ عَيْنِي دموعُها تكِفُ ... مِنْ ذِكْرِ خَوْدٍ شَطَّتْ بها قُذُفُ[4]

بانَتْ بها غَرْبَةٌ تَؤُمُّ بها ... أرضاً سِوانا والشَّكْلُ مختلِفُ[5]

ما كنتُ أدري بوَشْكِ بَيْنِهِمُ ... حتَّى رأيتُ الحُدوجَ قد عَزفوا[6]

فغادَروني والنَّفسُ غالِبُها ... ما شَفَّها والهمومُ تَعْتكِفُ[7]

دعْ ذا وعَدِّ القَريضَ في نَفَرٍ ... يَرجُونَ مَدْحِيْ، ومَدْحِيَ الشرفُ

إن تَدْعُ قومِي للمجْدِ تُلْفِهِمُ ... أهلَ فِعالٍ، يَبْدو إذا وُصِفُوا[8]

بلِّغْ عنِّي النَّبِيْتَ قافيةً ... تُذِلُّهم، إنَّهمْ لنا حَلَفُوا[9]

باللهِ جَهْداً لَنَقْتلنَّكُمُ ... قتلاً عنيفاً والخيلُ تنكَشِفُ[10]

أو نَدْعُ في الأوسِ دَعْوَةً هرباً ... وقَدْ بَدا في الكتيبةِ النَّصَفُ[11]

---

(١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق دكتور سيد حنفي حسنين، ص ٣١٤ ـ ٣١٦.

(٢) وقد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الحرب اسمها «حرب سُمير» وتسمى بيوم الفضاء أيضاً.

(٣) شرح ديوان حسان للبرقوقي، ص ٣٣٥، طبع دار الكتاب العربي بيروت.

(٤) وَكَفَ يكِفُ: بمعنى سال يسيل، الخود: الشابة الناعمة ما لم تصر نَصَفاً، قذف: بمعنى بعيدة.

(٥) الغربة: معناها النوى والبعد، ويقال: دارهم غربة، يعني نائية بعيدة.

(٦) وفي رواية (الحداة) بدلاً من (الحدوج) و(تنقذف) بدل (عزفوا)، الحدوج: جمع حدج من مراكب النساء، والحدوج أيضاً الإبل برحالها، الوشك والوشيك، بمعنى السريع والقريب.

(٧) النفس غالبها ما شفها: يعني أن نفسه يتغلب عليها ما شفها، يقال: شفه الحزن إذا لذع قلبه وأذهب عقله وأهزل جسمه، تعتكف: بمعنى تقيم وتلزم.

(٨) الفعال: بفتح الفاء اسم للفعل الحسن من الجود والكرم، تلفهم: بمعنى تُدركهم.

(٩) النبيت: أبوحيٌ من اليمن، وقد مرّ ذكره.

(١٠) بالله جهداً فيه مبالغة، يقال: أقسموا بالله جهداً، أي بالغوا في اليمين.

(١١) النصف بفتحتين: الإنصاف، والمراد من الدعوة النداء.

كنتُمْ عبيداً لنا نُخَوِّلُكُمْ ... مَنْ جاءنا والعبيدُ تُضْطَعَفُ[1]

كيف تَعاطَونَ مجدَنا سَفَهاً ... وأنتمُ دِعوةٌ لها وَكَفُ[2]

شَانكُمُ جدُّكُمْ وأكرَمَنا ... جدٌّ لنا في الفَعَالِ ينتصِفُ[3]

نَجْعَلُ مَنْ كان المجدُ مَحْتِدَهُ ... كأعْبُدِ الأوسِ كُلَّمَا وَصَفوا

هَلاَّ غضِبتُمْ لأعْبُدٍ قُتِلوا ... يومَ بُعاثٍ أظلَّهُمْ ظَلَفُ[4]

نقتُلهمْ والسُّيوفُ تأخذُهُمْ ... أخْذاً عنيفاً وأنتُمُ كُشُفُ[5]

وكمْ قَتَلْنا من رَائِسٍ لكُمُ ... في فَيْلَقٍ يُجْتَدى لهُ التَّلَفُ[6]

ومِن لئيمٍ عبْدٍ يُحالفكُمْ ... ليستْ لهُ دِعوةٌ ولا شَرَفُ[7]

إن سُميراً عبدٌ طغَى سَفَهاً ... ساعَدَه أَعْبُدٌ لهُمْ نَطَفُ[8]

وجاء فيما رواه هشام بن محمد الكلبي:

«ثم إن الخزرج أجمعوا أمرهم على القتال، واستعدوا له واستعدت الأوس فالتقوا بالبويلة فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة يومئذٍ للخزرج على الأوس» فقال حسان بن ثابت في هذه المناسبة وهو يهجو أبا قيس الأسلت:

---

(١) نخولكم: أي نجعلكم خولاً لمن جاءنا، والخول بفتح الواو الخدَم، تضطعف: بمعنى تُستضعف.

(٢) تعاطون: بمعنى تنالون ـ دِعوة: بكسر الدال، المتهم في نسبه، وهو أن ينتسب المرء إلى غير أبيه وعشيرته، وفي الحديث: لا دعوة في الإسلام، وكف من عَلِم يعلَم: بمعنى مال وجار، وفسد عقله ورأيه.

(٣) شانكم: بمعنى عابكم، من شان يشين شيناً.

(٤) ظلف: شدة، وظلف الأرض، الحَزْن الغليظ منها.

(٥) كشف: بضمتين جمع بمعنى (المنهزمون) يقال: كشف القوم، إذا انهزموا.

(٦) الرائس: بمعنى الرئيس، ويقال أيضاً: ريّس، بالتشديد: بمعنى الرئيس، يجتدى له التلف: بمعنى يطلب له الهلاك.

(٧) دِعوة: بكسر الدال وهو المتهم في النسب أو الاتهام في النسب.

(٨) سُمير: بضم السين، وهو من الأوس، وكان قد قتل يوم بعاث، النَّطف بالفتح، الرقط، وغلام منطف أي: ذو قرط، ونطف ينطف نطفاً: تلطخ بعيب، اتهِمَ بفجور وريبة، ونطف الشيء بكسر الطاء، إذا فسد، ونَطَف الماء بفتح الطاء، إذا سال، ونطفت القربة، إذا قطرت.

ألا أبلِغْ أبا قَيْسٍ رسولاً ... إذا ألْقَى لها سَمْعاً يبِيْنُ[1]

نَسيتَ الجسْرَ يومَ أبي عَقيلٍ ... وعندَكَ من وقائِعِنا يقينُ[2]

فلسْتُ لحَاصِنٍ إن لم نَزُرْكُمْ ... خلالَ الدُّورِ مُشْعِلَةٌ طَحُونُ[3]

يَدينُ لها العزيزُ إذا رآها ... ويهربُ من مَخافَتِها القَطِينُ[4]

تشيبُ النَّاهِدُ العذراءُ فيها ... ويسقُطُ من مخافَتِها الجَنِينُ

بعينَيْكَ القواضِبُ حين تُعْلَى ... بها الأبطالُ والهَامُ السُّكُونُ[5]

تَجودُ بأنفُسِ الأبطالِ سُجْحاً ... وأنتَ بنفسِكَ الخِبُّ الضَّنينُ[6]

ولا وَقْرٌ بسمعِكَ حين تُدعى ... ضُحىً ، إذ لا تُجيبُ ولا تعينُ[7]

ألم نَتْرُكْ مآتِمَ مُعْوِلاتٍ ... لهنَّ على سَراتِكُمُ رَنينُ[8]

تشينُهُمُ زَعَمْتَ بغيرِ شيءٍ ... ونفسَكَ لو علمْتَ بهمْ تَشِيْنُ[9]

قتلتُمْ واحداً منَّا بألفٍ ... هَلاَ للهِ ذا الظَّفَرُ المُبِيْنُ

وذلكَ أنَّ ألفَكُمُ قليلٌ ... لِوَاحِدِنا أجَلْ أيضاً ومِيْنُ[10]

---

(١) المراد بالرسول الرسالة ، يبين من : أبان يبين ، أبو قيس بن الأسلت من رؤساء الأوس .

(٢) أبو عقيل : الأسلت رئيس الأوس قتل يوم الجسر ، وهو يوم من أيامهم ، انهزمت فيه الأوس وانتصرت الخزرج .

(٣) الحاصن : المرأة العفيفة ، يريد أنه لا يكون ابناً لأم عفيفة حاصن ، كأنه يُقسم بأنه إذا لم يزر أعداءه بغارة مشعلة طحون .

(٤) العزيز : هو صاحب العزة السيد ، والقطين : الخدم ، يعني يخضع أمام تلك الغارة العزيز والذليل كلهم .

(٥) القواضب : جمع قاضبة ، بمعنى السيف القاطع ، وتعلى بها : بمعنى ترفع عليها ، الهام : جمع هامة ، السكون : المستقرة .

(٦) سجحاً : بمعنى سهلاً ، الخب : الخدّاع ، الضنين : البخيل ، يخاطب أبا قيس ، إنك تقدم الأبطال للقتال فيُقتلون وتضن بنفسك من التقدم في المعركة .

(٧) يعني : لست أنت أصم حينما تنادى فلا تسمع ولا تجيب .

(٨) المآتم : جمع مأتم ، مجلس النساء أو الرجال للتظاهر بالحزن أو الفرح ، ولكن الشاعر يريد بها هنا مجلس النساء النائحات الباكيات يرفعن أصواتهن على السادة الذين قتلوا في المعركة .

(٩) تشينهم من شان : يعني عاب ، يعني أنك تنسب إليهم العيب في زعمك ، على أن نفسك هي التي تكون صغيرة معابة بإزائهم .

(١٠) ومين : بمعنى مئين ، جمع مئة ، يعني أن مئات منكم قليلون لواحد منا .

فلا زِلتُمْ كما كنتُمْ قديماً ... ولا زِلْنا كما كنَّا نكونُ

يُطيفُ بكُمْ منَ النَجَّارِ قومٌ ... كأُسْدِ الغابِ مسكنُها العرينُ

كأنَّا إذ نُساميكُمْ رِجالاً ... جِمالٌ حين يَجْتَلِدونَ جونُ[1]

وقد أكرمْتُكُمْ وسكنْتُ عنكمْ ... سراةَ الأوسِ لو نَفَعَ السُّكونُ[2]

حياءً أنْ أُشاتِمَكُمْ وصَوْناً ... لعِرْضي إنَّهُ حَسَبٌ سمينُ

وأكرَمتُ النساءَ وقلتُ رَهْطِي ... وهذا حينَ أنطِقُ أو أُبِينُ[3]

ويقول في المناسبة نفسها ، وهو يفتخر بانتصار الخزرج على الأوس وانتقامهم منهم بالضرب والقتل :

مَنَعنا على رَغْمِ القبائلِ ضَيْمَنَا ... بمُرهَفةٍ كالمِلحِ مُخْلَصَةِ الصَّقْلِ[4]

ضربْناهُمُ حتى استباحَتْ سيوفُنَا ... حِماهُمْ و راحُوا موجَعِينَ منَ القتلِ

ورَدَّ سراةُ الأوسِ إذ جاءَ جمعُهُمْ ... بطَعنٍ كأفواهِ المُخَيَّسةِ الهُدْلِ[5]

و ذَلَّ سُمَيْرٌ عَنْوَةً جارَ مالِكٍ ... على رَغْمِه بعدَ التَّخمُّطِ والجهلِ[6]

و جاء ابنُ عجلانَ بعِلْجٍ مُجَدَّعٍ ... فأدبَرَ منقوصَ المروءةِ والعقلِ[7]

و صار ابنُ عَجْلانٍ نَفِيّاً كأنَّهُ ... عَسِيفٌ على آثارِ أفْصِلَةٍ هُمْلِ[8]

وهذه قصيدة يمدح فيها جَبَلَةَ بن الأيهم ، صاحب التاج الغساني ، الذي كان يزوره حسان في الجاهلية ، وينال عنده عزة وتكرماً :

لمَنِ الدَّارُ أوحشَتْ بمَعَانِ ... بَيْنَ أعلى اليرموكِ فالخَمَّانِ

فالقُريَّاتِ مِن بَلاسَ فدَارَ ... يَا فَسَكَّاءَ فالقُصورِ الدَّوَانِي

---

(١) يشبه قومه إزاء العدوّ بالجمال القوية السوداء .

(٢) سراة الأوس : نداء يعني : يا رؤساء الأوس ، يقول : نحن أكرمناكم بإيقاف القتال عنكم .

(٣) يعني أننا لم نتناول النساء بالحرب والأسار والقتل ، حينما نقاتلكم أو نظهر عداوتنا لكم .

(٤) مرهفة : المراد بها سيوف حادّة ، بيضاء مثل الملح : مصنوعة من حديد خالص .

(٥) المخيّسةُ من الإبل المذللة ، الهدل : المسترخية ، جمع أهدال .

(٦) هو سمير الأوسي كان قد قتل بجيراً مولى مالك بن العجلان سيد الحيين ، وفي هذا البيت يشير إلى ذلك .

(٧) العلج : الرجل الغليظ ، والرجل من كفار العجم كذلك .

(٨) العسيف : الأجير ، الأفصلة : جمع فصيل ، بمعنى ولد الناقة .

فَقَفَا جاسمٍ فأوديةِ الصُّـ ... ـفرِ مَغْنَى قنابلٍ وهَجَانِ[1]

تِلكَ دارُ العزيزِ بعدَ أنيسٍ ... وحُلُولٍ عظيمةِ الأَرْكَانِ

هَبِلَتْ أُمُّهُمْ و قد هَبِلتهُمْ ... يومَ حَلُّوا بِحَارِثِ الجَوْلانِ[2]

قد دَنا الفِصْحُ ، فالولائدُ يَنظمْـ ... ـنَ سِراعاً أكِلَّةَ المَرْجَانِ[3]

يجتنِيْنَ الجاديَّ في نُقَبِ الرَّيـ ... ـطِ عليها مَجَاسِدُ الكِتَّانِ[4]

لم يُعَلِّلْنَ بالمَغَافِرِ و الصَّـ ... ـمغِ ولا نَقْفِ حَنْظَلِ الشَّرْيَانِ[5]

ذاكَ معنَى من آلِ جَفْنةَ في الدَّهرِ ... و حقٌّ تَعاقُبُ الأزمانِ[6]

فقد أرَانِي هُنَاكَ حقَّ مَكِينٍ ... عندَ ذِي التَّاجِ مَجْلِسي و مَكَاني[7]

قصيدته رداً على قصيدة أبي قيس الأسلت:

وقد جاء فيما رواه هشام بن محمد الكلبي ، قال: حدثني بعض أهل العلم أن أبا قيس (الأسلت) حين وقع بين الأوس والخزرج ما وقع أسندت الأوس أمرها إليه فقام في حربهم وآثرها على كل ضَيْعَةٍ[8] حتى نَحُل جسمه ، ومكث أشهراً لا يقرب منزله ، ثم جاء ليلة فدَقَّ بابه على امرأته كبشة بنت ضمرة بن مالك بن عزيز بن مالك بن عوف ، ففتحت له فأهوى إليها بيده ، فدفعته ، فقال: أنا أبو قيس ، فلما

(١) من البيت الأول إلى الثالث ، في الجميع أسماء مواضع بأكناف دمشق كانت مقر ملوك غسان ، المغنى: المنزل الذي أقام فيه أهله ، ثم ظعنوا عنه ، قنابل: جمع قنبلة ، جماعات من الخيل ، والهجان: كرائم الإبل ، وفي رواية (قبائل) بدل قنابل ، ولعل المراد بها رؤساء القبائل.

(٢) هبل فلان أمه إذا ثكلته ، ويقال: هبلته أمه: دعاء عليه ، وربما يستعمل في المدح والإعجاب والاستحسان: بمعنى (ما أعلمه وما أصوب رأيه).

(٣) الفصح عند النصارى عيد تذكار قيامة السيد المسيح ، أكلّة: جمع إكليل ، بمعنى التاج.

(٤) الجادي: الزعفران ، نقب: جمع نقبة ، ثوب كالإزار ، المجاسد: جمع مجسد بكسر الميم ، بمعنى القميص.

(٥) لم يعللن: يعني لم يشغلن ، السغافر: جمع مغفور ، وهو صمغ سائل من بعض الأشجار ، الشريان: اسم شجر.

(٦) يعني أن توالي الزمان حق.

(٧) شرح ديوان حسان للبرقوقي ، ص ٤٦٨.

(٨) الضيعة: ما يملكه الرجل من الأرض ، والحرفة والصناعة والمعاش والكسب.

تكلم قالت: والله ما عرفتك حتى تكلمت[1] هنالك قال أبو قيس:

قالت زوجته:

قالَتْ ولم تَقْصِدْ لقِيْلِ الخَنَا ... مَهْلاً فقَدْ أبْلَغْتِ أسمَاعِيْ

يعني أنكرته ولم تعرفه ، كما يشرح ذلك في البيت التالي:

استنكرَتْ لوناً بهِ شاحِباً ... والحربُ غُولٌ ذاتُ أوجاعِ

في قصيدة طويلة تحتوي على (٢٦) بيتاً ، تحدث فيها عن أحوال وأهوال الحرب ومواجهته لكل ذلك بشجاعة وإباء وقوة.

ورد حسان بن ثابت على قصيدته بقصيدةٍ مماثلة في الوزن والقافية:

بانَتْ لميسُ بحَبْلٍ منكَ أقْطاعِ ... واحتلَّتِ الغَمْرَ ترْعَى دارَ أشْراعِ[2]

وأصبحَتْ في بني نصْرٍ مجاورةً ... تَرْعى الأباطِحَ في عزٍّ وإمْرَاعِ[3]

كأنَّ عينَيَّ إذ ولَّتْ حُمُولُهُمُ ... في الفَجرِ فَيْضُ غُرُوبٍ ذاتِ أتْرَاعِ[4]

هلاَّ سألْتِ هَداكِ اللهُ ما حَسَبِي ... أُمَّ الوليدِ ، وخَيْرُ القولِ للوَاعِي[5]

هل أغفِرُ الذَّنبَ ذا الجُرْحِ العظيمِ ولوْ ... مرَّتْ عجَارِفُه منِّي بأوجَاعِ[6]

اللهُ يعلَمُ ما أسعَى لحيِّهِمِ ... وما يغيبُ به صَدْري وأضْلاعِي[7]

أسعى على جُلِّ قومٍ كانَ سعيُهُمُ ... وَسْطَ العشيرةِ سَعْياً غيرَ دعْدَاعِ[8]

ولا أُصالِحُ مَنْ عادَوْا ، وأخْذِلُهم ... ولا أغيبُ لهُمْ يوماً بأقْذَاعِ[9]

(١) ديوان حسان بن ثابت تحقيق دكتور سيد حنفي حسنين ، طبعة القاهرة ، ص ٣٣٥.

(٢) لميس: اسم امرأة ، أقطاع: بمعنى متقطع ، الغمر: بالفتح والسكون ، الماء الغامر الكثير ، أشراع: جمع شرع ، بمعنى الدخول في الماء الجاري والشرب منه بالكف أو الفم ، وشرع الماشية: بمعنى أوردها في الماء ، وفي رواية البرقوقي: (نزعاً ذات أشراع).

(٣) الأباطح: جمع الأبطح وهو بطن المسيل فيه رمل ودقاق الحصى ، الإمراع: الخصوبة.

(٤) الحمول: الهوادج ، غروب: الدلو العظيمة ، ومجرى الدموع في العين ، أتراع: جمع ترع ، وهو السيل الذي يملأ الوادي.

(٥) أم الوليد: منادى ، الواعي: الحافظ.

(٦) عجارف الدهر وعجاريفه: بمعنى حوادث الدهر.

(٧) الله يعلم مقدار سعيي لهم وما يكنّه صدري وضلوعي لهم من الإشفاق والولاء.

(٨) سعي غير دعداع: سعي حثيث ، لم يكن فيه بطء والتواء.

(٩) أقذاع: جمع قذع وهو الفحش من القول.

وقد غَدوتُ على الحانوتِ يصبَحُني ... من عاتقٍ مثلِ عينِ الدِّيكِ شَعْشَاعِ[1]
تغدو عَليَّ ونَدْمَاني لِمِرْفَقِهِ ... نَقْضِي اللَّذَاذاتِ من لهْوٍ وأسمَاعِ[2]
إذا نشاءُ دَعَوْناهُ فصَبَّ لَنَا ... من فَرْغِ مُنْتَفجِ الحَيْزومِ رَكَّاعِ[3]
لقد غَدَوْتُ أمامَ القومِ منتَطِقاً ... بصَارمٍ مثلِ لونِ المِلْحِ قَطَّاعِ
تحفِزُ عنِّي نِجَادَ السَّيفِ سابِغَةٌ ... فَضْفَاضَةٌ مثلُ لونِ النَّهْيِ بالقَاعِ[4]
في فِتْيةٍ كسُيوفِ الهِنْدِ أوجُهُهُمْ ... نحوَ الصَّريخِ إذا ما ثوَّبَ الدَّاعي[5]

قصيدته الميمية في الجاهلية:

وَهذه قصيدةٌ جاهليةٌ له من قافية الميمِ ، وهي طويلةٌ تضمُّ (٣٨) بيتاً ، ونحن نكتفي هنا بذكر أبيات منها ومطلعها:

لِمَنْ مَنْزِلٌ عَافٍ كأنَّ رُسومَهُ ... خَيَاعِيلُ رَيْطٍ سابريٍّ مُرَسَّمِ[6]
خلاءُ المُبَادِي ما لَهُ غيرُ رُكَّدٍ ... ثلاثٍ كأَمثالِ الحَمَائِمِ جُثَّمِ[7]

ويتحدث عن حبيبته ليلى وثقته الوطيدة التي كانت فيها فيقول:

فإنْ تَكُ ليلى قد نَأَتْكَ دِيارُهَا ... وضنَّتْ بحاجاتِ الفؤادِ المُتيَّمِ
وهمَّتْ بصَرْمِ الحَبْلِ بعدَ وِصالِه ... وأصغَتْ لقولِ الكاشِحِ المُتزَعِّمِ

(١) الحانوت: المراد بها صاحب الحانوت ، يصبحني: بمعنى يسقيني صبوحاً ، عين الديك: يريد بها خمراً صافية كلون الزجاج ، الشعشاع: الممزوجة.
(٢) الندمان: كالنديم ، اللذاذات: جمع اللذاذة ، وهي اللذة.
(٣) فصب لنا فاعِلُه ، الخمَّار صاحب الحانوت ، الفرغ: السعة ، المنتفج: بمعنى الممتلئ ، الحَيزوم: وسط الصدر ما يضم عليه الحزام ، والغليظ من الأرض ، ومتين الجلد محكم الصنعة.
(٤) تحفز: بمعنى تدفع ، نجاد السيف: حمائله ، سابغة: بمعنى درع سابغة ، فضفاضة: واسعة ، النهي: الغدير ، القاع: الوادي.
(٥) الصريخ: المستصرخ ، ثوّب الداعي: إذا دعا الداعي ، التثويب: التلويح بالثوب ، ذلك لأن الرجل إذا جاء مستصرخاً لوّح بثوبه ليرى ويشتهر.
(٦) عاف: بمعنى دارس ، خياعيل: جمع خيعل ، وقد تقلب فيقال: خيلع ، وهو برد مخيط الفرجين ، الريط: الثوب اللين ، السابري: الثوب الرقيق ، منسوب إلى سابور ، المرسم من الرسم: بمعنى المعلم.
(٧) المبادي: الظواهر ، ما له غير ركد ثلاث: يعني ليس هناك سوى ثلاثة أحجار الأثافي ، شبّهها بثلاث حمائم جالسات.

فما حبلُها بالرَّثِّ عندي ولا الَّذي ... يغيِّرهُ نَأْيٌ وإنْ لم تكلَّمِ
لعَمْرُ أبيكِ الخيرِ ما ضاعَ سِرُّكُمْ ... لَدَيَّ فتَجْزِيني بِعاداً وتَصْرِمِي
وما حبُّها لو وكَّلَتْني بِوَصْلَةٍ ... ولو صَرَّمَ الخُلَّانُ بالمتصَرَّمِ
ولا ضقْتُ ذَرْعاً بالهوى إذ ضمنتُهُ ... ولا كظَّ صَدْري بالحديثِ المُكتَّمِ
ولا كانَ ممَّا كان ممَّا تقوَّلوا ... عليَّ ونَثُّوا ، غيرَ ظنٍّ مُرَجَّمِ
فإنْ كنتِ لمَّا تُخْبريني فسَائِلي ... ذَوِي العلمِ عنَّا كي تُنَبَّيْ فتعلَمِي
متى تسأَلِي عنَّا تُنَبَّي بأنَّنا ... كِرامٌ وأنَّا أهلُ عِزٍّ مُقَدَّمِ
وأنَّا عَرانينٌ صُقُورٌ مَصالِتٌ ... يهزُّ قناةً متنُهَا لم يُوَصَّمِ[1]
لعَمْرُكِ ما المُعْتَرُّ يأتي بلادَنا ... لِنَمْنَعَهُ بالضَّائعِ المُتَهَضَّمِ

وبعدما يصف نفسه وقومه بأوصاف القوة والسخاء والشجاعة والحلم ، والتجارب في الحروب ، يتحدث عن سيد قومه ورئيس قبيلته الحليم الجواد ، والكريم المفضال ، يقول:

وتلقَى على أبياتِنا حينَ نُجتدَى ... مجالسَ فيها كلُّ كَهْلٍ مُعَمَّمِ
رَفيعِ عِمادِ البيتِ يستُرُ عِرْضَهُ ... مِنَ الذَّمِّ مَيْمونِ النَّقيبةِ خِضْرِمِ
جَوادٍ على العِلَّاتِ رَحْبٍ فِناؤهُ ... إذا سُئل المعروفَ لم يتَجهَّمِ
ضَروبٍ بأعجَازِ القِداحِ إذا شَتَا ... سريعٍ إلى دَاعِي الهِيَاجِ مُلوَّمِ
أشَمَّ طويلِ السَّاعدينِ سَمَيْذَعٍ ... مُعيدِ قِراعِ الدَّارعينَ مُكَلَّمِ[2]

وهذه قصيدة أخرى يذكر فيها حبيبته شعثاء وحبه لها ، ثم يتحدث عن محاسنها ومواضع جمالها ، ويشبّهُ فاها بثَغْبٍ باردٍ مُزِجَ بصهباءِ الخمر ، ويفيض في ذكر الخمر وبائعها وساقيها ، ثم ينتقل إلى وصف الناقة بما تتميز به من أوصاف جميلة ، ويفتخر بقومه بني النجار ويمدح خصالهم الطيبة؟ يقول:

ما هاجَ حسَّانَ رُسومُ المقامْ ... ومَظْعَنُ الحيِّ ومَبْنى الخِيامْ[3]

(١) عرانين: جمع عرنين ، وهو قصبة الأنف المرتفعة ، وعرانين القوم: سادتهم وأشرافهم ، مصالت: جمع مصلت: الماضي في الأمور.
(٢) سميذع ، السيد الكريم ، جميل الجسم ، المطاع الشجاع ، مكلم: من الكلم بمعنى مجرّح.
(٣) رسوم: جمع رسم ، وهو ما كان من الآثار لاصقاً بالأرض ، مظعن: مصدر ميميّ.

والنُّؤْيُ قد هَدَّمَ أعضادَهُ ... تَقادُمُ العَهْدِ بوادٍ تَهامْ(١)
قد أدركَ الوَاشُونَ ما حاوَلُوا ... فالحَبْلُ من شعثَاءَ رثٌّ الزِّمَامْ
جِنِّيَّةٌ أرَّقَني طَيْفُها ... يذهبُ صُبْحَاً ويُرَى في المنامْ
هل هيَ إلا ظَبْيَةٌ مُطْفِلٌ ... مَألَفُهَا السِّدرُ بنعفَي بَرامْ(٢)
تُزْجِي غزالاً فاتِراً طَرْفُه ... مُقَارِبَ الخَطْوِ ضعيفَ البُغَامْ(٣)
كأنَّ فَاهَا ثَغَبٌ باردٌ ... في رَصَفٍ تحتَ ظلامِ الغَمَامْ(٤)
شُجَّتْ بصَهباءَ لها سَوْرَةٌ ... من بيتِ رأسٍ عُتِّقَتْ في الخِيامْ
عَتَّقَهَا الحَانوتُ دَهْراً فقدْ ... مرَّ عليها فَرْطُ عامٍ فَعَامْ(٥)
نَشْرَبُها صِرْفاً ، ومَمْزوجةً ... ثمَّ نُغنِّي في بيوتِ الرُّخامْ
تَدِبُّ في الجسمِ دَبِيباً كما ... دبَّ دَبىً وَسْطَ رِقَاقٍ هَيَامْ(٦)
كأساً إذا ما الشَّيخُ والى بها ... خَمْساً تَرَدَّى برداء الغُلامْ(٧)
من خَمْرِ بَيْسَانَ تخيَّرْتُهَا ... تِرْيَاقَةً تُسْرِعُ فَتْرَ العِظَامْ(٨)
يَسْعَى بها أحمَرُ ذو بُرْنُسٍ ... مُختَلِقُ الذِّفْرَى شديدُ الحِزَامْ(٩)
أرْوَعُ للدَّعوةِ مستعجِلٌ ... لم يَثْنِهِ الشَّأنُ خفيفُ القِيَامْ(١٠)

(١) النؤي: حفر تحفر حول الخيام لئلا يدخلها ماء المطر ، بواد تهام وهو في الأصل تهاميّ نسبة إلى تهامة.
(٢) النعف من الأرض: ما انحط من الارتفاع وارتفع عن الانحطاط ، وجاء تثنيةً بمعنى الجانبين ، برام: اسم واد.
(٣) تزجي: تسوق ، البغام: أرخم صوت للظبي.
(٤) الثغب: الغدير الذي يكون تحت جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه ، الرسف: الحجارة المتراصفة.
(٥) عتَّقها: جعلها عتيقة قديمة ، الحانوت: المراد بها الخَّمار.
(٦) الدبى بفتح الدال أصغر النمل ، الرقاق: المستوي من الأرض ، ولكنه أراد هنا رملاً مستوياً ليناً.
(٧) والى بها خمساً: يعني إذا شرب خمس كاسات متتالية.
(٨) بيسان: اسم موضع بنواحي الشام كانت تُعرف بجودة خمرها ، فتر العظام: إرخاؤها بحيث تذهب الهموم.
(٩) أحمر: يعني غلاماً أحمر من الأعاجم يلبس البرنس ، الذفرى: العظم الناتئ خلف الأذن ، المختلق: المطلي بالخلوق ، وهو نوع من الطيب ، الحزام: النطاق.
(١٠) أروع للدعوة: يعني نشيط عند النداء لا يثنيه شأن عن الإسراع لأداء الخدمة.

دعْ ذِكْرَهَا وانْمُ إلى جَسْرَةٍ ... جُلْذِيَّةٍ ذاتِ مَرَاحٍ عَقَامْ(١)
دِفَقَّةِ المِشْيَةِ زَيَّافَةٍ ... تَهْوِي خَنُوفاً في فُضولِ الزِّمامْ(٢)
تَحسِبُهَا مَجنونةً تَغتلِي ... إذا لَفَّعَ الآلُ رؤوسَ الآكامْ(٣)
قومِي بَنو النجَّارِ إذ أقبَلَتْ ... شهباءُ تَرمي أهلَها بالقَتَامْ(٤)
لا نخذُلُ الجارَ ولا نُسْلِمُ الـ ... ـمولى ولا نُخْصَمُ يومَ الخصامْ(٥)
منَّا الَّذي يُحمدُ مَعْروفُه ... ويَفْرُجُ اللَّزْبَةَ يومَ الزِّحَامْ(٦)

وزاد بعض الرواة بيتاً في الأخير وهو كالتالي:

والوَاهِبُ البازِلُ يَوماً إذا ... ما ضاقَ بالمَعروفِ صدُورُ اللئَامْ

قصيدته اللامية الجاهلية:

يبدؤها بذكر ديار الغساسنة من آل جفنة الذين كان يتناولهم حسان بن ثابت بالمدح ، نظراً إلى أياديهم النقية التي كانوا قد امتنوا بها عليه ، والزلفى التي كان يتمتع بها لديهم ، وهي قصيدة يفيض فيها بالمدح والثناء على آل جفنة ، ثم يعود إلى الاعتزاز بنفسه ونسبه وعشيرته ، ولهذه القصيدة مناسبة خاصة ارتجلها فيها أمام عمرو بن الحارث الغساني ، الذي كان يعطف عليه ويحبه.

ويحسن بنا أن ننقل هنا ما ذكرناه في مبدأ هذا البحث حتى تتمثل لنا تلك المناسبة الخاصة التي فتقت قريحة الشاعر ففاضت بشعر قوي ، وهي ما حكاه حسان بن ثابت نفسه قال: قدمت على عمرو بن الحارث ، فاعتاص الوصول إليه فقلت للحاجب بعد مدة: إن أذنت لي عليه وإلا هجوت اليمن كلها ثم انقلبت

(١) جسرة بفتح الجيم: بمعنى الضخمة الطويلة الماضية ، يريد بها الناقة ، الجلذية: القوية الشديدة الصلبة ، المراح: النشاط ، عقام: بمعنى العقيمة.
(٢) دفقة: بكسر الدال وتشديد القاف ، بمعنى سريعة السير ، الزيافة: بمعنى المختالة المتبخترة ، الخنوف ، التي تميل برأسها وعنقها من النشاط.
(٣) تغتلي من اغتلت الدابة إذا ارتفعت فجلوزت: يعني خففت السير وأحسنت ، لفع من التلفيع: بمعنى التغطية ، الآل: السراب ، الآكام: جمع أكمة.
(٤) شهباء يريد بها سَنَةً شهباء ذات جدب وجفاف ، القتام: الغبار.
(٥) لا نخصم: بالبناء على المفعول ، يعني لا نغلب.
(٦) اللزبة: الشدة.

عنكم ، فأذن لي فدخلت عليه فوجدت عنده النابغة ، وهو جالس عن يمينه ، وعلقمة بن عبدة وهو جالس عن يساره ، فقال لي : يا ابن الفريعة ! قد عرفت عِيصَكَ ونسبك في غسان ، فارجع فإني باعث إليك بصلة سنيّة ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هٰذين السبُعين ، النابغة وعلقمة أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتي ، وأنت والله لا تُحسن أن تقول :

رِقَـاقُ النِّعَـالِ طَيِّـبٌ حُجُـزاتُهُـمْ ... يُحَيَّـوْنَ بـالـرَّيحَـانِ يَـوْمَ السَّبَـاسِـبِ
تُحَيِّيهِـم بِيْـضُ الـوَلائِـدِ بينهُـمْ ... وأكسِيَةُ الإضريجِ فوق المَشَاجِبِ[1]
يَصُـونـونَ أجسـاداً قـديمـاً نَعِيْمُهَـا ... بخـالِصَـةِ الأرْدَانِ خُضْـرِ المَنـاكِـبِ
ولا يحسِبُـونَ الخيـرَ لا شـرَّ بعـدَهُ ... ولا يحسِبُـونَ الشَّـرَّ ضِـرْبَـةَ لازِبِ
حَبَـوْتُ بهـا غسَّـانَ إذ كنـتُ لاحقـاً ... بقَـوْمـي وإذ أعيَـتْ عليَّ مَـذاهِبـي[2]

فأبيت وقلت : لابد منه ، فقال : ذاك إلى عميك ، فقلت لهما : بحق الملك إلا قدمتماني عليكما ، فقالا : قد فعلنا ، فقال عمرو بن الحارث : هات يا ابن الفريعة ! فأنشأت :

أَسـألْـتَ رسْـمَ الـدارِ أم لـم تسـأَلِ ... بيـنَ الجَـوابـي فـالبُضَيْـعِ فحَـوْمَـلِ[3]
فـالمَـرجِ مَـرجِ الصُّفَّـرِيـن فجاسِـمٍ ... فـدِيـارِ سَلْمـى دُرَّسـاً لَـمَ تُحْلَـلِ[4]

(١) المشاجب : جمع مشجب ، الخشب الذي يوضع عليه الثياب ، يريد أنهم ملوك ذوو نعمة ، فتخدمهم الإماء البيض الحسان ، وثيابهم مصونة عن التعليق لأنها تكون موضوعة فوق المشاجب ، وقد مرّ شرح هٰذه الأبيات في أول هٰذا البحث .

(٢) هٰذه الأبيات من قصيدة للنابغة الذبياني كان قد قالها لعمرو بن الحارث ، المعروف بالأعرج الغساني ، وأولها :

كِلِينِـي لِهَـمٍّ يـا أميمـةُ نـاصِـبِ ... وليـلٍ أقـاسيـهِ بطـيءِ الكـواكـبِ

(٣) الجوابي : جمع جابية ، هي الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل ، ولكنه أراد بها هنا جابية الجولان ، وهي قرية هناك ، والجولان ما بين دمشق إلى الأردن يسرة عن الطريق لمن يريد دمشق من الأردن ، البضيع : وقيل البصيع ، قال أبو منصور محمد الأزهري في التهذيب : وقد رأيته ، وهو جبل قصير أسود على تل بأرض البلسة فيما بين سبل وذات الصنمين بالشام من كورة دمشق ، وقيل : سنّ ناتئة في البحر كالجزيرة بقرب دمشق ، وحومل كذلك موضع .

(٤) مرج الصفرين : موضع بغوطة دمشق ، كان به وقعة للمسلمين مع الروم ، وجاسم : قرية على بعد ثمانية فراسخ من دمشق على يمين الطريق إلى طبرية ، وجميع هٰذه المواضع للغساسنة ، دُرّساً : =

دَمِـنٌ تعـاقَبَهـا الـرِّيـاحُ دَوَارِسٌ ... والمُـدْجِنَـاتُ مِـنَ السِّمـاكِ الأَعْـزَلِ[1]
دارٌ لِقَـومٍ قـد أراهُـمْ مُـرَّةً ... فـوقَ الأعِـزَّةِ عِـزُّهُـمْ لـم يُنْقَـلِ[2]
للهِ دَرُّ عِصـابَـةٍ نـادَمتهُـمْ ... يـومـاً بجِلَّـقَ فـي الـزَّمـانِ الأوَّلِ[3]
يمشُونَ في الحُلَلِ المُضَاعَفِ نَسْجُها ... مَشْيَ الجِمالِ إلى الجِمَالِ البُزَّلِ[4]
الضَّـارِبُـونَ الكَبْـشَ يَبْـرُقُ بَيضُـهُ ... ضَـرْبـاً يُطيـحُ لـه بنـانُ المَفْصِـلِ[5]
والخَـالِطُـونَ فقيـرَهُـمْ بِغَنِيِّهِـمْ ... والمُنْعِمُونَ على الضَّعيفِ المُرْمِلِ[6]

= جمع دارس بمعنى عفا وامحى ، لم تحلل : بمعنى لم تُسكن .

(١) دمن : جمع دمنة بكسر الدال : آثار الدار ، تعاقبها : حُذفت إحدى التائين ، بمعنى تتوالاها ، دوارس : صفة دمن ، المدجنات : جمع المدجنة : بمعنى غيوم ممطرة ، الدجن : المطر الخزير ، الغيم المطبق : المظلم ، يقال : يوم دجنٌ ، وبالإضافة : يوم دجنٍ ، السماك الأعزل : في نجوم السماء كوكبان نيّران ، يقال لأحدهما : السماك الرامح ، لأن أمامه كوكباً صغيراً يسمى راية السماك ورمحه ، وللثاني : السماك الأعزل ، لأنه ليس أمامه شيء ، أما السماك الأعزل إذا طلع فلا يكون في أيامه ريح ولا برد ، وهو من منازل القمر ، ولكن حسان يريد : السماك وحده ، وحينما قال : السماك الأعزل فلضرورة القافية ، وفي بعض النسخ زيد قبله البيت التالي :

أقـوى وعطّـل منهـم فكـأنـه ... بعـد البلـى آيُ الكتـاب المجمـلِ

أقوى : بمعنى خلا .

(٢) عزهم لم ينقل عنهم إلى غيرهم ، أو أن عزهم أصيل فيهم ولم ينقل إليهم من غيرهم . ويريد بهم الملوك الغساسنة ، ويروى قبل هٰذا البيت في بعض النسخ ما يأتي من البيت :

فـالعيـن عـانيـة تفيـض دمـوعهـا ... لمنـازلٍ دُرِسَـت كـأنْ لـم تُـؤهـلِ

ولم تؤمل بمعنى لم يلجأ إليها ، عانية من العناء ، يعني أن العين أصابها العناء والمشقة فتعبت بالرؤية المتتابعة .

(٣) العصابة : الجماعة ، جلّق : اسم قديم لدمشق ، وقيل : موضع بالقرب منها ، ويريد من العصابة ملوك غسان .

(٤) حُلل : جمع حُلة بالضم ، وهو كل ثوب جديد أو ثوب ساتر لجميع البدن مما يلبس ، وقيل : الرداء والقميص والعمامة ، البُزّل : جمع بازل ، البعير الشاب إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة ، ويعني بذلك كمال قوتهم في العقل والتجربة .

(٥) الكبش : المراد به السيد أو رئيس القوم ، البيض : جمع البيضة ، بمعنى الخوذة بالضم ، الغطاء الحديدي الذي يلبسه المقاتل في ساحة القتال لوقاية الرأس ، يطيح : يزول ، بنان المفصل : أطراف الأصابع .

(٦) المرمل : الذي نفد زاده ، وأصله من الرمل يعني الفقير الذي لصق بالرمل .

أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهمُ ... قَبْرِ ابنِ مارِيَةَ الكريمِ المُفْضِلِ[1]

يُغْشَونَ حتى ما تَهِرُّ كلابُهمْ ... لا يَسألُونَ عنِ السَّوادِ المُقْبِلِ[2]

يَسْقونَ مَنْ وَرَدَ البَريصَ عليهمُ ... بردى يصفِّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[3]

يَسْقونَ دِرْياقَ الرَّحيقِ ولم تكُنْ ... تُدعى ولائدُهُمْ لِنَقْفِ الحَنْظَلِ[4]

بِيضُ الوجوهِ كَريمةٌ أحسابُهُمْ ... شُمُّ الأنوفِ مِنَ الطِّرازِ الأوَّلِ

فلَبِثْتُ أزماناً طِوالاً فيهمُ ... ثمَّ ادَّكَرْتُ كأنَّني لَمْ أفعَلِ[5]

إمَّا تَرَيْ رأسِيْ تغيَّرَ لَونُهُ ... شَمَطاً فأصبحَ كالثَّغامِ المُحْوِلِ[6]

ولقد يَرانِي مُوعِدِيَّ كأنَّني ... في قصرِ دَوْمَةَ أو سواءِ الهَيكَلِ[7]

ولقد شَربتُ الخمرَ في حانُوتِها ... صَهْباءَ صافيةً كطَعْمِ الفُلْفُلِ[8]

---

(١) جفنة: هو أبو ملوك آل غسان ، هو جفنة بن عمرو بن مزيقياء ، حول قبر أبيهم ، يعني هم آمنون لا يخافون ، ومخصبون لا ينتجعون ، مارية هي بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ، وابن مارية هو الحارث الأعرج ، وفي المثل: خذه ولو بقرطَي مارية ، إذا أمر أحد بأخذه على كل حال ، وكان في قرطَي مارية مئتا دينار ، ولذلك يقال لها: مارية ذات القرطين ، المفضل: صاحب الإفضال.

(٢) يغشون: يعني يغشاهم الضيوف دائماً فآنست كلابهم بالقادمين ولا تنبح لأحد ، وهم في سعة وخصوبة فلا يسألون عن القادمين من هم؟.

(٣) البريص وبَرَدَى: كلاهما نهران في دمشق ، وبَرَدَى يعني به ماء بَرَدَى ، يصفّق: يمزج ، الرحيق: الخمر البيضاء ، والسلسل: السائغة السهلة.

(٤) الدرياق: الترياق ، ما يستعمل لدفع السم ، يقول: وهم ليسوا كالصعاليك حتى يرسلوا بناتهم لنقف الحنظل.

(٥) يعني أقام بين ظهرانيهم مدة طويلة في نعمة ورضا وعزة ، فمرت أيام النعمة بسرعة كأنني لم أقم عندهم إلا قليلاً.

(٦) إما: بمعنى إن ، وما زائدة ، يخاطب زوجته: شَمَط الرأس ، إذا خالط سواد شعره بياض ، ثغام: نوع من النبات يبيضّ إذا يبس ، ومرّ عليه الحول ، يشير بذلك إلى شيبه الذي حدث في الرأس.

(٧) يقول: رغم أني شبت ، ولكن أعدائي الذين يهددونني يرونني في العزة والمنعة مع أولاد جفنة في قصر دومة الجندل ، وهو حصن دومة الجندل كان لأكيدر بن عبد الملك السكوني بين الحجاز والشام ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقتله به ، وسواء الهيكل: يريد وسط معبد النصارى.

(٨) الصهباء: الخمر التي تعصر من العنب الأبيض.

يسعى عليَّ بكأسِها متنطِّفٌ ... فَيَعُلُّني منها ولو لَمْ أنهَلِ[1]

إنَّ التي ناولتَنِي فرَددتُها ... قُتِلَتْ ، قُتِلْتَ ، فهَاتِها لم تُقتلِ[2]

كِلتاهُما حَلَبُ العصيرِ فَعاطِنِي ... بِزُجاجةٍ أرخاهُمَا للمِفْصِلِ[3]

بزجاجةٍ رقصَتْ بما في قَعْرِها ... رَقَصَ القَلُوصِ براكبٍ مستعجلِ[4]

والآن ينصرف إلى الفخر بالنسب الذي هو أصيل وآباؤه كرام ، ويفتخر بكلامه ولسانه الذي يستطيع أن يهجو به أعداءه الذين يتعرضون له ، ويعتز بأنه سيد القوم ، وسيد القوم عندنا يسود السادة كلهم ، ونحن نتعرض للأمور المهمة التي قلما يلتفت إليها غيرنا ، ولا نزور إلا الملوك ، وإننا نحكم دائماً بالعدل بين الناس.

نَسَبي أصيلٌ في الكِرامِ ومِذْوَدي ... تَكْوي مواسِمُهُ جنُوبَ المُصْطَلي[5]

ولقد تُقَلِّدُنا العشيرةُ أَمْرَها ... ونسُودُ يومَ النَّائِبَاتِ ونَعْتلي

ويَسُودُ سيِّدُنا جَحَاجِحَ سادةً ... ويُصيبُ قائلُنَا سَواءَ المِفْصَلِ[6]

ونحاولُ الأمرَ المُهِمَّ خطابُه ... فيهِمْ ، ونَفْصِلُ كُلَّ أمْرٍ مُعضلِ[7]

---

(١) المتنطف: الذي يلبس النطفة ، وهي القرط ، وفي رواية: متنطق: من النطاق ، والمراد به الساقي الذي يلبس في أذنه القرط ، أو الخادم التي في أذنها قرط ، يعني يشربني مرة ثانية وثالثة ، ولو لم أنهل: يعني ولو لم أشرب في المرة الأولى.

(٢) (قتلت) الأولى: بمعنى مُزجت ، والثانية: دعاء عليه ، يعني قاتلك الله ، فهات الخمر التي لم تكن ممزوجة بالماء.

(٣) كلتاهما: يعني الممزوجة بالماء وغير الممزوجة ، فعاطني: يعني أعطني أكثرهما إرخاء للمفاصل.

(٤) (بزجاجة) بيان للأولى ، رقصت بما في قعرها ، ذلك لأن الخمر ، إذا جاشت رقصت ، القلوص: الناقة الشابة ، الطويلة القوائم ، فإن الراكب المستعجل حينما يستحثها على الخَبب فهي طالما ترقص: رَقَصَ بالفتحات ، مصدر رقص.

(٥) المذود: آلة الذود يعني الدفاع ، وهو اللسان ، تكوي: تحرق ، مواسم: جمع ميسم: يعني آلة الموسم التي يُوسم بها ، ويريد بها الهجاء ، جنوب: جمع جنب ، شق الجسم.

(٦) الجحاجح: جمع جحجح ، والجحجاح: بمعنى السيد المسارع إلى المكارم ، جحاجح سادة: للتأكيد ، سواء المفصل: يعني أن قائلنا يسيب القول الفصل ويقوله.

(٧) الأمر المعضل: المشكل الذي لا يُهتدى فيه لرجهه ، والأمر المهم خطابه هو الأمر المهم الذي يكون ذا خطب وشأن مهم ، خطاب: بمعنى خطب.

وتـزُورُ أبـوابَ الملـوكِ رِكـابُنَـا ومتـى نُحَكِّـمْ فـي البـريَّـةِ نَعْـدِلِ[1]

ويشير في الأخير إلى الطريقة التي تكسب المرء حمداً ويبعده عن كل ذم وهي أن يستخدم كل فتى ماله لصيانة عرضه وعرض والده من أن يمتد إليه لسانٌ بالذم أو يد بالضرر ، ويفتخر بعصير العنب الذي يتناوله من غير بخل أو تأخير في الاستمتاع من لذته.

وفتـىً يُحِـبُّ الحَمْـدَ يَجْعَـلُ مـالَـهُ مِـنْ دُونِ والِـدِهِ ، وإن لَـمْ يُسْـأَلِ[2]
بـاكَـرْتُ لـذَّتَـهُ ومـا مـاطَلْتُهـا بـزُجـاجـةٍ مـن خيـرِ كـرْمٍ أهـدَلِ[3]

آخر قصائده الجاهلية:

وهٰذه قصيدته الجاهلية الأخيرة التي نذكرها الآن ، وهي تدور حول موضوع الفخر ، يبدؤها كعادته بذكر ديار حبيبته شعثاء ، يتحدث عن الوادي الذي أقامت فيه أيام الصيف ، وهو وادٍ غزيرُ مياه الأمطار التي تنزل فيه في الصيف ، وبعدما أقامت في هٰذا الوادي حبيبته ومن معها من أترابها ، تنادى أهل الوادي في ليلة بالرحيل ، فارتحلوا وارتحلت معهم النساء في الهوادج ، فحصل ما حصل من تباعد بينه وبين حبيبته ، وصعب بعد ذلك الوصول إليها ، فلم يتمكن إلا أن يُهديَ إليها قصيدة في كل عام مما ينوب عن لقائه إيّاها.

ثم يفتخر بنفسه وما يَمُنُّ به على الجيران والندماء من المساعدات السخية التي يقدمها لهم ، ويتحدث عن الحروب وما ظهر فيها من بطولات رائعة من أهل قبيلته ، وكذلك يعتز بالجود والإنفاق ، وإطعام الطعام في أيام المجاعة والجدب

(١) البرية: بمعنى الخلق جمعها برايا ، من برأ يبرأ برءاً وبروءاً ، كفتح يفتح ، خلقه من العدم ، وبريء يبرأ براءً وبراءةً ، كعلم يعلم: بمعنى تخلص وسلم من العيب أو الدين ، وإذا كان المصدر بُرءاً بالضم أو بروءاً فمعناه: شُفي من السرض.
(٢) يريد: رب فتى من شأنه كذا.
(٣) أهدل: من هدل يهدل الشيء ، إذا أرسله إلى أسفل فاسترخى ، ويقال: مشفر أهدل: بمعنى مشفر مسترخ منقلب على الذقن ، يقول: إنني استمتعت من لذة الخمر المصنوعة من عصير العنب الطازج الذي يتدلى غصنه لنضجه ، من غير تأخير أو مماطلة.

والجفاف ، وبذلك فإنه وقبيلته في جميع خصال الخير والبر والشجاعة والسيادة والسخاء والإباء والقوة ، يقول:

ألـم تسـأَلِ الـرَّبْـعَ الجَـدِيـدَ التكَلُّمـا بمـدفَـعِ أَشْـدَاخٍ فَبُـرْقـةِ أظْلَمـا[1]
أبَـى رسْـمُ دارِ الحـيِّ أن يتكلَّمـا وهل ينطقُ المعروفَ مَنْ كان أبْكَما[2]
بقـاعٍ نقيـعِ الجِـزْعِ مـن بَطْـنِ يَلْبَـنٍ تحمَّـلُ منـهُ أهلُـهُ فتتَهمـا[3]
ديـارٌ لشعثـاءِ الفُـؤاد وتَـرْبهـا ليـالـيَ تَحْتَـلُّ المِـرَاضَ فتَغْلَمَـا[4]
وإذْ هـيَ حَـوراءُ المـدامِـعِ تَـرْتعِـي بِمُنْـدَفِـعِ الـوَادي أرَاكـاً مُنَظَّمَـا[5]
أقـامَتْ بـه بـالصَّيـفِ حتَّـى بَـدا لهـا نَشَـاصٌ إذ هبَّتْ لـهُ الـريحُ أزْزَمـا[6]
وقـد ألَّ مـن أعضـادِهِ ودَنَـا لـهُ مِـنَ الأرضِ دانٍ جَـوْزُهُ فَتَحَمْحَمَـا[7]
تحِـنُّ مَطـافيـلُ الـرِّبـاعِ خـلالَـهُ إذا استَنَّ من حافاتِهِ البرقُ أَثْجمُا[8]
وكـادَ بـأكنـاف العَقيـقِ وَئيـدُه يَحُـطُّ مـنَ الجَمَّـاء رُكْنـاً مُلَمْلَمـا[9]

(١) الربع: المنزل الدار وما حولها ، الموضع الذي يتربع فيه الناس ، مدفع سيل عظيم إلى الوادي ، أشداخ: واد من أودية المدينة ، البرقة: كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض فهو أبرق ، وبرقة أظلما: موضع.
(٢) الرسم: ما كان على وجه الأرض من الآثار مثل الأثافي والرماد وآثار الأوتاد.
(٣) القاع: الأرض السهلة المستوية ، الجزع: منعطف الوادي ، نقيع الجزع: واد من المدينة على أربعة بُرُد ، وبطن يلبن: موضع ، تحمّل: يعني ارتحل وظعن ، تتهم: إذا أتى إلى أرض تهامة.
(٤) المراض ، مراضان ، وهما واديان بأرض غطفان في ديار بني تميم ، تغلما في الأصل: تغلمان ، وهما جبلان.
(٥) الحور: شدة بياض العين في شدة سوادها ، حوراء صيغة الصفة وجمعها حور ، المدامع يعني بها العيون ، ومندفع الوادي: الذي يدفع ماءه فيجري. أراك: اسم شجر ، المنظم: المنسق في نباته.
(٦) نشاص: السحاب المرتفع في عرض السماء منتصباً ، أرزم الرعد: إذا اشتد صوته.
(٧) ألّ: بمعنى بَرق ، وألّ: بمعنى اجتمع ، أعضاده: يعني نواحيه ، دان: قريب ، جوزه: يعني وسطه ، وتحمحم: يعني صوت رعده.
(٨) المطافيل: جمع مطفال ، الإبل معها أولادها ، الرباع: جمع ربع ، ما نتج في الربيع ، استن البرق: بمعنى صوت رعده ، أثجم: سال وأمطر.
(٩) العقيق: واد في المدينة ، وئيد الرعد: شدة صوته ، الجماء: هضبة على ثلاثة أميال من المدينة ، ململم: المجموع بعضه إلى بعض ، وبمعنى مدملك: يعني ملمّس.

فلمَّا عَلا تُرْبانَ وانْهَلَّ وَدْقُهُ ... تَداعى وأَلْقَى بَرْكَهُ وتَهَزَّما[1]

وأصبحَ منه كُلُّ مَدْفَعِ تَلْعَةٍ ... يَكُبُّ العِضاهَ سَيْلُهُ ما تَصَرَّما[2]

تنادَوا بلَيْلٍ فاستقلَّتْ حُمُولُهُم ... وعالَيْنَ أنماطَ الدِّرَقْلِ المُرَقَّمَا[3]

عَسَجْنَ بأعناقِ الظِّباءِ وأبرزَتْ ... حَواشي بُرودِ القَطْرِ وَشْياً مُنَمْنَما[4]

فأنَّى تُلاقيها إذا حلَّ أهلُها ... بِوادِ يَمانٍ من غِفارٍ وأَسْلَمَا[5]

تَلاقٍ بعيدٌ واختلافٌ منَ النَّوَى ... تِلاقيكَها ، حتى تُوافيَ مَوْسِما[6]

سأُهْدي لها في كلِّ عامٍ قصيدةً ... وأَقْعُدُ مَكْفِيّاً بيَثْرِبَ مُكْرَمَا[7]

ألستُ بِنِعْمَ الجَارِ يُؤلِفُ بيتَهُ ... كَذِي العرْفِ ذا مالٍ كثيرٍ ومُعْدَما[8]

ونَدْمانِ صِدْقٍ تَمْطُرُ الخَيْرَ كَفُّهُ ... إذا راحَ فيَّاضَ العَشِيَّاتِ خِضْرِما[9]

وَصَلْتُ بهِ رُكني ووافَقَ شِيمَتِي ... ولم أكُ عِضّاً في النَّدامى مُلَوَّمَا[10]

(١) تربان: موضع على خمسة فراسخ من المدينة ، كثير المياه ، الودق: المطر ، وألقى بركه: يعني أقام بحيث لا يبرح ، تداعى السحاب بالبرق والرعد: إذا أرعد وبرق.

(٢) التلعة: مسيل الماء الذي ينصب في الوادي ، العضاه: كل شجر له شوك: جمع عضه ، يعني يكب السيل العضاه على الأرض من غير أن يكون ذلك قد قطع.

(٣) عالين: بمعنى ركبن الهوادج ، الحمول: النساء المحمولات في الهوادج ، أنماط: نوع من الثياب المصبغة ، الدرقل: نوع خاص من الثياب ، المرقم: الموشّى ، المطبوع بالأرقام.

(٤) عسجن: بمعنى مددن أعناقاً ، كأعناق الظباء ، برود القطر: برود حمراء من اليمن ، المنمنم: المخطوط بالخطوط المتقاربة يعني برود حمراء يمنية مطبوعة بالخطوط المتقاربة.

(٥) أنّى: ظرف بمعنى الاستفهام ، يعني كيف يمكن التلاقي مع الحبيبة ، وقرأ البعض: تُلافيها بضم التاء بصيغة خطاب ، إذا حل أهلها بواد يمان: حيث تسكن الحبيبة ، إذن يستحيل اللقاء معها قبل مجيء الموسم الذي يجمع بينهما ، يصرح بذلك في البيت التالي.

(٦) يعني تلاقيك إياها بعيد ، والنوى لا يزال حائلاً بينك وبينها ، فلا أمل في اللقاء معها ما لم توافِ الموسم أو هي تكون قد وافت الموسم كذلك.

(٧) يعني أكتفي بإهداء قصيدة لها كل عام ، وذلك ما يكفيني ، وأترك السعي وراءها دون جدوى.

(٨) الباء زائدة في (بنعم الجار) ، ونعم الجار يولف بيته ، خبر ليس ، ذا مال كثير ومعدما: خبر لكان المضمرة يتعلق بذي العرف ، كأنه قال: سواء كان ذلك غنياً أو فقيراً يجعل بيته مألفاً لكل شخص.

(٩) وندمان صدق ، يعني رُبّ نديم يشاركك في الشراب تمطر الخير كفه ، فياض العشيات: أي جواداً وقت العشيّ الذي هو وقت الشرب ، الخضرم: الجواد كثير العطاء.

(١٠) الشيمة: الطبيعة ، الخلق والعادة ، العِضّ بكسر العين: سيّئ الخلق الذي يؤذي الناس بلسانه.

وأبقى لنا مَرُّ الحُروبِ ورَزْؤُهَا ... سُيوفاً وأدْرَاعاً وجَمْعاً عَرَمْرَما[1]

إذا اغبرَّ آفاقُ السماءِ وأَمْحَلَتْ ... كأنَّ عليها ثوبَ عَصْبٍ مُسَهَّما[2]

حَسِبتَ قدورَ الصَّادِ حولَ بيوتِنا ... قَنابلَ دُهْماً في المَحَلَّةِ صُيَّمَا[3]

يَظَلُّ لَدَيْها الوَاغِلُون كأنَّما ... يُوافُونَ بحراً من سُمَيْحَةَ مُفْعَما[4]

لنا حاضِرٌ فَعْمٌ وبادٍ كأنَّهُ ... شَمَاريخُ رَضْوَى عِزَّةً وتكرُّما[5]

متى ما تَزِنَّا من مَعَدٍّ بعُصْبَةٍ ... وغسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنا أن يُهَدَّما[6]

بكلِّ فتىً عارِي الأشاجِعِ لاحَهُ ... قِرَاعُ الكُمَاةِ يَرْشَحُ المِسْكَ والدَّما[7]

إذا استَدْبرَتْنَا الشمسُ دَرَّتْ مُتُونُنَا ... كأنَّ عروقَ الجوفِ يَنْضَحْنَ عَنْدَما[8]

ولَدْنَا بَني العنقاءِ وابْنَيْ مُحَرِّقٍ ... فأكرِمْ بِنَا خالاً ، وأكرِمْ بنا ابنَمَا

العنقاء هو ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن ماء السماء ، ومحرق هو الحارث بن عمرو

(١) العرمرم: الجيش الكثيف.

(٢) إذا اغبرّ آفاق السماء وأمحلت السماء ، يعني إذا أصابها الجفاف وانقطع المطر ، العصب: برود يمنية يعصب غزلها ، يعني يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج ، المسهم: المخطط.

(٣) الصاد: الصفر وهو النحاس الجيد ، قنابل: جمع قنبلة بفتح القاف جماعة من الخيل أو الناس ، والقنابل بضم القاف: العظيم الرأس ، القنبل بضم القاف: الرجل الغليظ الشديد ، دهم: جمع الأدهم: بمعنى الأسود ، صُيم: جمع صائم: بمعنى واقفة ، قائمة ، يشير إلى القدور الضخمة التي يطبخ فيها الطعام للضيوف والوافدين عندهم.

(٤) الواغل: الذي يدخل على القوم فيشرب معهم من غير أن يُدعى ، أما الراشن فهو الذي يدخل على القوم في مجلس الطعام من غير أن يُدعى ، وهو الطفيلي ، سميحة: بئر في المدينة المنورة معروفة بغزارة مائها.

(٥) رضوى: جبل ، وشماريخه: قمته ، فَعْم: كثير.

(٦) الواو في (وغسان) للقسم ، يريد: قسماً بغسان نمنع حوضنا أن يُهدّما: كناية عن صيانة العرض والحقيقة.

(٧) الأشاجع: جمع الأشجع ، وهو العصب الممدود فوق السلامى من بين الرسغ إلى أصول الأصابع ، وعاري الأشاجع: كناية عن ممارسته للحروب ، الكماة: جمع الكميّ: بمعنى الشجاع ، يرشح المسك والدما ، يشير إلى أنهم ملوك ، فإذا سال منهم الدم وُجدت فيه رائحة المسك.

(٨) العندم: دم الغزال ، يعني إذا أصابتهم الشمس من خلفهم ، وعرقوا منها فتكون في عرقهم رائحة المسك كذلك.

مزيقياء ، وهو أول من عاقب بالنار ، ويشير بهما حسان إلى أصالة نسبه وعراقة أصله من طرف الأم وطرف الأب كليهما ، كما يصرّح بذلك في عجز البيت في قوله: فأكرم بنا خالاً ، وأكرم بنا ابنما ، وما زائدة في (ابنما) جاء بصيغة التعجب لتأكيد المعنى.

نَسَوِّدُ ذا المَالِ القليلِ إذا بَدَتْ ... مُروءَتُه فينا ، وإنْ كانَ مُعْدِما[1]
وإنَّا لنَقْري الضَّيفَ إن جاءَ طارقاً ... منَ الشَّحْم ما أضحى صَحِيْحاً مُسَلَّما[2]
ألسنا نَرُدُّ الكبْشَ عن طِيَّةِ الهوى ... ونَقْلِبُ مُرَّانَ الوَشِيْجِ مُحَطَّمَا[3]
لَنَا الجَفِنَاتُ الغُرُّ يلمَعْنَ بالضُّحَى ... وأسْيافُنَا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا[4]

هٰذا هو البيت الذي سمعه النابغة فقال له: أنت شاعر ولكنك قَلَّلْتَ جفانك وأسيافك (يعني جمعتهما جمع قلة) وزادت عليه الخنساء ، فقالت: لقد قلت: (يلمعن بالضحى) وكان حقه أن يقال: (بالدجى) ، وقلت: الغُرُّ ، وكان حقه (البيض) ، و(يقطرن) ، وكان الأجمل (يسلن) أو (يفضن).

أبَى فِعلُنَا المعروفُ أن ننطِقَ الخَنَا ... وقَائِلُنَا بالعُرْفِ ألا تَكَلَّمَا[5]
أبَى جاهُنَا عندَ المُلوكِ ودَفْعُنَا ... وملءُ جِفَانِ الشِّيزِ حتى تَهَزَّمَا[6]
فكلُّ مَعَدٍّ قد جَزَيْنَا بصُنْعِهِ ... فَبُؤْسَى ببُؤْساها ، وبالنُّعْمِ أَنْعُمَا

وهٰذه أبيات ثلاثة قالها في الجاهلية ، وفيها معانٍ جميلةٌ تضاهي حكمة القول:

ومُمْسِكٍ بصُداعِ الرَّأسِ من سَكَرٍ ... نادَيتُه وهْوَ مغلوبٌ ، فَفَدَّانِي[7]

(١) يعني نجعله سيداً فينا وإن كان فقيراً مع شرفه ومروءته ، معدماً: بمعنى فقيراً كذلك.
(٢) يقول: إننا نضيف الضيف وإن نزل في جوف الليل ، ونطعمه من الشحم الخالص بذبح جزور في حينه.
(٣) الكبش: الرئيس ، القائد ، الطِّيَة: بمعنى النيّة ، مُران: جمع مارن ، يريد الرمح المارن اللدن ، والمارن: طرف الأنف اللين ، الوشيج: الشجر الذي تُتخذ منه الرماح.
(٤) الجفنات: جمع قلة للجفنة ، القصعة الكبيرة ، النجدة: الشجاعة ، والشدة أيضاً.
(٥) الخَنَى والخنا: الفحش في الكلام.
(٦) الشيز: خشبٌ أسود صلبٌ تصنع منه الجفان ، وتهزّم بمعنى تتهزم يعني تتشقق بالشحم ، هٰذا البيت أيضاً متعلق بالبيت الذي قبله.
(٧) يعني أن حميا الكأس قد أورث الصداع فأصبح مغلوباً على أمره ، وقال لي: فداك نفسي.

لمَّا صَحَا وتَراخى العيشُ قُلْتُ له ... إنَّ الحياةَ وإنَّ الموتَ مثلانِ
فاشرَبْ مِنَ الخمرِ ما وَاتاكَ مَشْرَبُهُ ... واعلَمْ بأنْ كلُّ عيشٍ صالحٍ فانِ[1]

هنا ينتهي الشعر الجاهلي لحسان بن ثابت ، وليس هٰذا استيعاباً لشعره الجاهلي كله ولكنها محاولة لجمع كلامه في مناسبة دراسية للشعر المخضرم ، وسنبدأ ـ بإذن الله تعالى ـ دراسة شعره الإسلامي في الصفحات القادمة.

* * *

(١) وأتاك: من المواتاة: يعني ما وافقك شربه ، فكل حياة سعيدة إلى الفناء ، وأن في قوله: «بأن» مخففة للضرورة.

شعره الإسلامي

والدفاع عن الإسلام

شعره الإسلامي والدفاع عن الإسلام

شاعر إسلامي فذٌّ:

لم يوجد من شعراء العرب في الإسلام من جَنَّدَ مواهبه الشعرية في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه بكل فن من فنون الكلام ، مثل حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ فإنه هو الذي وضع طاقاته الكلامية ومؤهلاته الفنية كلها في خدمة النبي الكريم ﷺ ، ونصرته والذَّود عنه ، ومدحه ، والاعتزازِ بالإسلام والفخر بانتمائه إليه ، ولذلك نرى أن شعره الإسلامي في فترة عشر سنوات فقط تجاوز الرقم القياسيّ ، وأصبح أضعاف شعره الذي قَرَضَهُ في الجاهلية التي طالت فترتها وامتدت إلى ستين سنة من عمره ، ولا تَقِل حياته الشعرية فيها عن أربعين سنة.

شعره الإسلامي حافل بالروح والتأثير:

ولكن شعره الذي قرضه في حياة النبي الكريم ﷺ في المناسبات الدينية الخالصة ، يمثل شعره الإسلاميّ ويُعتبر بحق شعراً قوياً حافلاً بالروح والتأثير ، وقد استعمل فيه الفنون الكلامية كلها من الفخر والهجاء والمدح ، والرثاء والغزل والوصف والحكمة والرد على المناوئين وتعييرهم ، والانتصار للرسول الكريم ﷺ ، والدفاع عن الدعوة الإسلامية والإسلام ، مما جعل شعره الإسلامي مجموعة حيّة تمثل تاريخ الإسلام ونموه في أيام انتصار الإسلام الأولى ، التي بدأت منذ الهجرة إلى المدينة المنورة.

حسان بن ثابت فاق في شعره الإسلامي جميع الشعراء المخضرمين كيفاً وكمّاً ، وأتى فيه من المعاني الشعرية المبتكرة بشيء عجيب يدهش العقول ، ولذلك ترى أن «الناس» أثاروا غبار الشك حول قصائده الإسلامية وشعره

الذي قاله في الأغراض الإسلامية ، وذلك توخياً منهم أن يحطُّوا قيمة شعره الإسلامي ، ويضعفوا مكانته السامقة الذرى في الشعر الإسلامي خاصة ، ولكن هؤلاء النُّقاد الذين أنكروا في كثير من أبياته الإسلامية صحة نسبتها إليه ، لم يروا أيّ بأس في شعره الجاهلي ، وأقروه بشيء كثير من رحابة الصدر ، وعظّموه ورفعوا منزلته الفنية.

نحن لا ننكر أن مناوئيه ممن حاولوا أن يدسوا في شعره الإسلامي ما لم يكن من كلامه أن ينسبوا إليه مالم يقله مما يعيب شعره وينقص قيمته ، لم يتوخوا من وراء ذلك إلا أن يثبتوا أن الإسلام لا يشجّع الشعر والشعراء ، بل إنه يخمّد القرائح ويبلّد الشعور ويثبّط الهمم ، ويأتي على الملكات الشعرية والأدبية ، ويستنكر القريض ، وهم يقولون: إن القرآن الكريم قد أنكر الشعر والشعراء ورفضهما.

مكانة حسان لدى النبي الكريم ﷺ:

ولا حاجة إلى إعادة ما قد تحدثنا عنه حول الشعر في الإسلام وكيف أن الإسلام شجعه ونزّهه من المعاني المنكرة والصور القبيحة ، وزينه بالمعاني والأفكار الجميلة اللطيفة ، وقد نال حسان بن ثابت لدى النبي الكريم ﷺ من المكانة العظيمة ما لا يخفى على النُّقاد ومؤرخي الآداب العربية.

ونتيجة لهذه الثقة التي نالها حسان من النبي الكريم ﷺ ، كان أثيراً مكرّماً في عينه ﷺ.

وكان يستنشده في المناسبات ، ويصغي إلى كلامه ، وأحياناً كان يأمره بإنشاد قصيدة جاهلية ، كما قد روى ابن عساكر عن محمد بن مسلمة الأنصاري ، قال: «كنا يوماً عند النبي الكريم ﷺ ، فقال لحسان بن ثابت: أنشدْنِي قصيدة من شعر الجاهلية ، فإن الله تعالى قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايته ، فأنشد قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن عُلاثة:

عَلْقَمُ ما أنْتَ إلى عامِرِ النَّاقِضِ الأوتارِ والواتِرِ

فقال النبي الكريم ﷺ: يا حسان ، لا تعد تنشدني هٰذه القصيدة بعد

مجلسك هٰذا ، فقال: يا رسول الله ، تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر؟ فقال ﷺ: يا حسان ، أَشْكَرُ الناس للناس أشكرُهم لله تعالى ، وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عني فتناول مني (وفي خبر آخر: فشعث مني) وإنه سأل هٰذا عني فأحسن القول فشكره رسول الله ﷺ على ذلك ، ورُوي من وجه آخر أن حسان قال: يا رسول الله ، من نالَتْكَ يدُه ، وجبَ علينا شكره»[1].

أول شعر قاله في الإسلام:

وقد كانت قريش أخذت سعد بن عبادة أسيراً ، حين بايع هو وجماعته من الأنصار النبي الكريم ﷺ ، يوم الاثني عشر نقيباً ، وكان معه المنذر بن عمرو ولكنه فات القوم ولم يدركوه ، فأسروا سعد بن عبادة وضربوه وآذوه حتى خلّصه أميّة بن خلف والحارث بن هشام ، فقال الشاعر القريشي ضرار بن الخطاب من بني فهر في ذلك بيتين تاليين:

تَدارَكْتُ سَعْداً عَنوةً فأخذْتُه ... وكانَ شفاءً لو تَدارَكْتُ مُنْذرا
ولو نِلْتُه طُلَّتْ هناكَ جِراحُه ... وكانَ حَرِيّاً أن يُهانَ ويُهدَرا

فأجابه حسان بن ثابت بشعره الآتي:

لستَ إلى عمرٍو ولا المرءِ مُنذرٍ ... إذا ما مَطايا القومِ أصبَحْنَ ضُمَّرا
فلَوْلا أبو وَهْبٍ[2] لمرَّتْ قَصائِدٌ ... على شَرفِ البَرقاءِ يَهْوينَ حُسَّرا
فإنَّا ومَنْ يُهْدِي القصائدَ نحوَنا ... كمُستبْضِعٍ تمْراً إلى أهلِ خَيْبرا
فلا تَكُ كالوَسْنانِ يحلُمُ أنَّهُ ... بقَريةِ كِسْرى أو بقَريةِ قيْصَرا
ولا تَكُ كالشاةِ التي كانَ حَتْفُها ... بحَفْرِ ذراعَيْها ، فلم تَرْضَ مَحْضَرا
ولا تكُ كالعَاوِي فأقبَلَ نَحْرَهُ ... ولم يَخْشَهُ سَهْماً منَ النَّبْل مُضْمَرا
أتفخرُ بالكتَّانِ لمَّا لَبِستَهُ ... وقد يَلبسُ الأنباطُ رَيْطاً مُقَصَّراً

(١) الإمام عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ، ص١٦.
(٢) أبو وهب: هو مطعم بن عدي بن نوفل الذي نقض الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش ضد بني هاشم وبني المطلب ، وهو الذي أجار سعد بن عبادة من طغيان قريش ، وإليكم الآن ما قاله حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ في رثاء مطعم بن عدي.

حسان يمدح المطعم بن عدي ويرثيه:

وقد كان للمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف دورٌ كبير في نقض الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب ، وهو الذي أعلن براءته إلى الله مما كتب فيها ، فقام إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها إلا «باسمك اللهم» فقال حسان بن ثابت يبكي المطعم بن عدي حين مات ويذكر قيامه في نقض الصحيفة[1].

أَعَينُ ألا ابْكي سيدَ الناسِ واسفَحِي ... بدمْعٍ فإنْ أنزفْتِهِ فاسْكُبي الدَّما[2]
وابْكِي عظيمَ المَشْعَرينِ ورَبَّها ... على الناسِ ، معروفٌ لهُ ما تكَلَّمَا
فلَوْ كانَ مجدٌ يُخْلِدُ اليومَ واحداً ... منَ النَّاسِ أبقى مجدُهُ اليومَ مُطْعِمَا
أجَرْتَ رسولَ الله منهُمْ فأَصبَحوا ... عبادَكَ ما لبَّى مُلَبٍّ وأَحْرَما
فلو سُئِلَتْ عنهُ مَعَدٌّ بأسْرِها ... وقَحْطانُ أو باقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا
لَقالوا: هوَ المُوْفي بخُفْرَةِ جَارِهِ ... وذمَّتِهِ يَوْماً إذا ما تَذَمَّما[3]
فمَا تَطلُعُ الشمسُ المنيرةُ فوقَهُمْ ... على مثلِهِ ، منهُمْ أعزَّ وأَكْرَمَا
إباءً إذا يَأْبَى ، وأكرَمَ شِيْمةً ... وأَنْوَمَ عن جارٍ ، إذا الليلُ أظْلَما[4]

وأما قوله: «أجرت رسول الله منهم» فإن رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف ، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونُصرته ، صار إلى حراء ، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال: أنا حليف ، والحليف لا يُجير ، فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال: إن بني عامر لا تجير على كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك ، ثم تسلح المطعم وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ ، أن ادخل ،

(١) راجع سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥.
(٢) أنزفته: أنفدته.
(٣) الخفرة: العهد ، تذمم: طلب الذمة وهي العهد.
(٤) أنوم عن جار: يريد أنه لا يؤذي جاره ، ديوان حسان ، طبع دار صادر بيروت.

فدخل رسول الله ﷺ ، فطاف بالبيت وصلى عنده ، ثم انصرف إلى منزله ، فذلك الذي يعني حسان بن ثابت[1].

وقال حسان بن ثابت أيضاً يمدح هشام بن عمرو[2] لقيامه في الصحيفة:

هل يُوفِيَنَّ بَنُو أميَّةَ ذِمَّةً ... عَقْداً كما أَوْفَى جِوارُ هِشَامِ
مِنْ مَعْشَرٍ لا يَغْدُرونَ بجَارِهِم ... للحَارِث بنِ حُبَيِّبِ[3] بنِ سَحامِ
وإذا بَنُو حِسْلٍ أجَارُوا ذمَّةً ... أوْفَوا وأدَّوا جارَهُمْ بِسَلامِ

حسان مع أبي أُزَيْهِر الدَّوْسِيّ:

كان أزيهر الدوسي رجلاً شريفاً في قومه ، فعدا هشام بن الوليد بن المغيرة عليه فقتله بعُقر[4] الوليد الذي كان عنده ، تنفيذاً لوصية أبيه إيّاه ، وكان أبو أزيهر قد زوّج الوليد بنتاً ثم أمسكها عنه فلم يُدخلها عليه حتى مات ، ولذلك كان الوليد قد أوصى ابنه هشاماً بأخذ العقر من أبي أزيهر الدوسي ، وذلك بعدما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان قد مضى بدر ، وكانت عاتكة بنت أبي أزيهر الدوسي عند أبي سفيان بن حرب فكان صهراً له ، هنالك انبعث حسان بن ثابت يحرض في دم أبي أزيهر ويعيّر أبا سفيان خفرته ويُجَبّنه ، ويقول:

غدا أهل حِضْنَي ذِي المَجاز بسُحْرَةٍ ... وجارُ ابنِ حَرْبٍ بالمُحصَّبِ مَا يَغْدُو[5]
كَسَاكَ هشامُ بنُ الوليدِ ثيابَه ... فأَبْلِ وأخْلِفْ مثلَها جُدُداً بَعْدُ[6]
قضَى وَطَراً منها فأصبَحَ عَادِياً ... وأصبحَ رِخْواً ما تَخُبُّ وما تَغْدُو[7]

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٠ ـ ٢١.
(٢) أسلم هشام بن عمرو ، وكان من المؤلفة قلوبهم.
(٣) هو تصغير بالتخفيف ولكن شدّده للضرورة.
(٤) العقر (بالضم) دية الفرج المغصُوب ، مَهر المرأة إذا وُطئت بشبهة.
(٥) ذو المجاز موضع بمنى ، وحضناه: جانباه ، المحصب ، موضع رمي الجمار بمنى.
(٦) أراد بالثياب ، العار الذي لزمه بقتل صهره.
(٧) الوطر: الأرب والحاجة ، الخبب ضرب من العَدْو.

فلَـوْ أنَّ أشْيَـاخـاً بِبـدْرٍ شُهـودُه لَبَـلَّ مُتُـونَ الخَيـلِ مُعتَبـطٌ وَرْدُ[1]
فمـا منَـعَ العَيْـرُ الضَّـرُوطُ ذِمَـارَهُ وما مَنعَتْ مَخْزَاةَ والدِها هِنْدُ[2]

وجاء في سيرة ابن هشام برواية ابن إسحاق:

لم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم ، إلا أن الضحاك بن ثابت أحد بني كعب رهط سعد بن زيد قد كان يُتّهم بالنفاق وحبّ يهود ، فقال حسان:

ألا أبلـغِ الضحَّـاكَ أنَّ عـروقَـهُ أعيَـتْ علـى الإسـلامِ أنْ تَتَمَجَّـدا
أتحِـبُّ يُهـدانَ الحِجـازِ ودِيْنَهُـمْ كَبِـدَ الحمـارِ ولا تُحِـبُّ مُحَمَّـدَا[3]
وإذا نشَـا لـكَ نـاشِـئ ذو غِـرَّةٍ فَـهُ الفُـؤادِ ، أمَـرتَـهُ فتَهَـوَّدَا[4]
لـو كُنـتَ مِنَّـا لـم تُخـالِفْ دينَنَـا وتبِعْتَ دينَ عَتِيْكَ حينَ تَشَهَّدا[5]
دِيْنـاً لعَمْـرُكَ مـا يُـوافِـق دِيْنَنـا مـا استَـنَّ آلٌ بـالبَـدِيِّ وخَـوَّدا[6]

شعره في الغزوات الإسلامية:

لقد كان له أكبر نصيب من الشعر في الغزوات الإسلامية ، ساعدته في ذلك قريحته الشعرية الوقادة ، وشعوره بعجزه عن مواجهة العدو بالسلاح في ميدان القتال ، فأبدله الله سبحانه وتعالى ذلك بالشعر الحيّ الأغر ، ذي التأثير

(١) بلّ متون الخيل بالدم ، المعتبط: الدم الطريّ ، الورد: الأحمر.
(٢) أراد بالعَير الضروط أبا سفيان بن حرب ، الذمار: ما يلزم حفظه وحمايته ، المخزاة: العار.
(٣) يهدان: بمعنى اليهود ، كبد الحمار: منصوب بفعل محذوف تقديره أعني.
(٤) يعني إذا ولد لك مولود ذو غرة غير مجرب للأمور ، فه الفؤاد: عاجز القلب ، من الفهاهة ، وهي العيّ والعجز عن الكلام.
(٥) لعل المراد من عتيك: عاتك ، يعني كريماً ويكون ذلك وصفاً لسيدنا الرسول الكريم ﷺ خصوصاً ، وقد قال ﷺ يوم حنين: أنا ابن العواتك من سليم ، والعواتك: جمع العاتكة ، وهن ثلاث: عاتكة بنت هلال ، وعاتكة بنت مرة بن هلال ، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال ، وكلهن من جدات النبي الكريم ﷺ.
(٦) ما استن آل: يعني ما دام السراب جارياً في وادي البديّ ، وهو واد لبني عامر بن صعصعة ، وخوّد السراب بتشديد الواو ، اهتز كأنه يضطرب ، يقول: إن دين اليهودية لا يوافق ديننا ما دام السراب جارياً في البدي ومضطرباً فيه (انظر السيرة لابن هشام: ج/ ٢ ، وديوان حسان) قافية الدال.

والقوة ، الذي كان يفوق السلاح ويوجع الأعداء ، وينال منهم كل منال ، وكان أشد عليهم من السيف والسنان ، وأقذع عليهم من الضرب والفتك.

وهـٰذه قصيدة قالها يوم بدر ، لما أمر رسول الله ﷺ بقتلى المشركين أن يُطرحوا في القليب ، وحيث طُرحوا في القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: «يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟ فإني قد وجدت ما وعد ربي حقاً» وقد أثار الموقف معاني شعرية جميلة في نفس حسان ، فقال:

عَـرفْـتُ ديـارَ زينـبَ بـالكَثِيـبِ كخَطِّ الوَحْي في الرَّقِ القَشِيبِ[1]
تَعـاوَرَهَـا الـرِّيـاحُ وكُـلُّ جَـوْنٍ مـنَ الـوَسْمِـيِّ مُنْهَمِـرٍ سَكُـوبِ[2]
فـأمْسَـى رَسمُهـا خَلِقـاً وأمسَـتْ يَبَـاباً بعـدَ سـاكِنِهـا الحَبيـبِ[3]
فـدَعْ عَنْـكَ التَّـذَكُّـرَ كـلَّ يـومٍ ورُدَّ حَـزَازَةَ الصَـدْرِ الكَئِيْـبِ[4]
وخبِّـرْ بـالَّـذي لا عيـبَ فيـهِ بصِـدقٍ غَيْـرِ إخبـارِ الكَـذُوبِ
بمـا صَنـعَ المَلِيْـكُ غَـداةَ بـدرٍ لنا في المُشركينَ منَ النَّصيبِ[5]
غَـداةَ كـأنَّ جَمْعَهُـمُ حِـراءٌ بـدَتْ أركـانُـه جُنْـحَ الغيـوبِ[6]
فَـوافَيْنـاهُـمُ مِنَّـا بِجَمْـعٍ كـأُسْدِ الغـابِ ، مُرْدانٍ وشيـبِ[7]
أمـامَ محمَّـدٍ قـد آزَرُوهُ على الأعداءِ في لَفْحِ الحُروبِ[8]

(١) الكثيب: القطعة المحدودبة من الرمل ، الوحي: الكتابة والمكتوب ، القشيب: الجديد ، شبّه آثار الديار بالسطور المكتوبة.
(٢) تعاورها بحذف إحدى التائين: بمعنى تتداولها ، الجون: السحاب الأسود ، الوسميّ: مطر أول الربيع ، منهمرٍ: بمعنى سائل.
(٣) خَلِقاً: يعني باليا ، اليباب: الخراب الذي ليس فيه أحد.
(٤) الحزازة: ما أوجع في القلب وحزه من غيظ ، من حز يحز: بمعنى قطع.
(٥) يشير إلى الفتح والانتصار الذي أكرم الله به المسلمين في غزوة بدر.
(٦) يشبه تجمع المشركين فيها بجبل حراء ، الغيوب: جمع الغيب ، ما اطمأن من الأرض ، وجنح: بمعنى الناحية ، وفي رواية: جنح الغروب: يعني وقت غروب الشمس.
(٧) شبه جمع المسلمين بأسود الغابة ، مردان: جمع أمرد ، وهو الشاب الذي طرّ شاربه ولم تنبت لحيته ، وشيب: جمع أشيب ، بمعنى الشيخ.
(٨) آزروه: بمعنى عاونوه وشدوا أزره ، لفح الحروب: يعني شدة الحرب.

بأيديهمْ صوارمُ مُرْهَفَاتٌ ... وكلُّ مجرَّبٍ خَاظِي الكُعوبِ[1]
بَنو الأوسِ الغطَارِفِ آزَرُوها ... بنَو النجَّار في الدِّينِ الصَّليبِ[2]
فغادَرْنَا أبا جَهلٍ صريعاً ... وعُتبةَ قد تَرَكْنَا بالجَبُوبِ[3]
وشَيْبَةَ قد تَرَكْنَا في رجالٍ ... ذَوِي حَسَبٍ إذا نُسِبُوا نَسِيبِ[4]
يُناديهِمْ رسولُ الله لمَّا ... قذفْنَاهُمْ كَباكبَ في القَلِيْبِ[5]
أَلَمْ تَجدُوا حَديثِيْ كانَ حقاً ... وأمرُ الله يأخذُ بالقُلوبِ
فما نَطَقوا ولو نَطَقوا لَقَالوا: ... صدَقْتَ ، وكنتَ ذا رأيٍ مُصيبِ

وقال حسان يفخر بقومه الأنصار ويشير إلى ما كان من تغرير إبليس بقريش يوم بدر:

قَومي الذينَ هُمُ آوَوْا نَبِيَّهُمُ ... وصدَّقُوهُ وأهلُ الأرضِ كُفَّارُ
إلا خصائصُ أقوامٍ هُمُ سَلَفٌ ... للصَّالحينَ معَ الأنصارِ أنصارُ
مُستبشِرِينَ بقَسْمِ اللهِ قولُهُم ... لمَّا أتاهُمْ كريمُ الأصلِ مختارُ
أهلاً وسهلاً ففِيْ أَمْنٍ وفي سَعَةٍ ... نِعْمَ النَّبيُّ ونِعْمَ القَسْمُ والجَارُ
فأنزَلوهُ بدارٍ لا يَخَافُ بها ... مَنْ كان جارَهُمُ داراً هيَ الدَّارُ
وقاسَمُوهُ بها الأموالَ إذ قدِمُوا ... مُهاجرينَ ، وقَسْمُ الجَاحِدِ النَّارُ
سِرْنَا وسارُوا إلى بدرٍ لِحَتْفِهِم ... لو يعلمونَ يقينَ العِلْمِ ما سَارُوا[6]

(١) صوارم: جمع صارمة: بمعنى السيوف القواطع ، مرهفات: بمعنى مشحذات ، مجرب: يريد به الرمح الذي تمرّس بالحروب ، خاظي الكعوب ، يعني مكتنز الكعوب ، وهو من خظا يخظو اللحم إذا اكتنز.

(٢) الغطارف: غطريف ، السيد الكريم ، الصليب من الصلابة: بمعنى الشديد والمتين ، آزرتها: من المؤازرة ، ويقال آزرتها: بمعنى عاونتها.

(٣) الجبوب الأرض الغليظة.

(٤) يشير إلى قتلى المشركين الذين كانوا من علية القوم ورجالات قريش ذوي الأنساب العالية كعُتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبي البختري بن هشام وأمية بن خلف وحنظلة بن أبي سفيان ، وأبي جهل بن هشام ، وكان عدد القتلى نحو السبعين مقتولاً ، وكذلك الأسرى ، وكلهم من وجهاء القوم.

(٥) كباكب: جمع كبكبة ، والكبكبة: جماعة من الناس ، القليب: البئر القديمة ، يُذكر ويؤنث.

(٦) الحَتْف بفتح الحاء: الموت والهلاك ، يعني أن مشركي مكة توجهوا إلى بدر لقتال المسلمين ، =

دلاَّهُمُ بغرورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ ... إنَّ الخبيثَ لِمَن وَالاهُ غَرَّارُ[1]
وقال: إنِّي لكمْ جَارٌ فأورَدَهُمْ ... شَرَّ المَوارِدِ فيه الخِزْيُ والعَارُ
ثمَّ التَقينا فوَلَّوْا عن سَرَاتِهِمُ ... مِنْ مُنْجِدِينَ ، ومنهُمْ فِرقَةٌ غَارُوا[2]

أبيات أخرى في يوم بدر:

يذكر فيها سراة القوم الذين قتلوا من المشركين ، ويتأسف على سوء مصيرهم ، لأنهم كفروا بالله وآذوا رسوله ﷺ ، وأتوا من مكة ليقاتلوه فقوتلوا حتى قتلوا شرَّ قتلة:

ألا ليتَ شِعْري هل أتى أهلَ مكَّةَ ... إبَارتُنا الكفَّارَ في ساعَةِ العُسرِ[3]
قَتلْنَا سَرَاةَ القَوْمِ عندَ مَجَالِنَا ... فلم يَرْجعوا إلا بقاصِمةِ الظَّهرِ[4]
قَتلْنا أبا جَهلٍ وعُتبةَ قبلَهُ ... وشَيبةَ يَكْبو لليدين وللنَّحْرِ
قَتلْنا سُوَيداً ثم عُتبةَ بعدَه ... وطُعْمَةَ أيضاً عند ثَائرةِ القَتْرِ[5]
فكَمْ قد قَتلْنا من كريمٍ مُرزَّءٍ ... له حسبٌ في قومِهِ نابِهِ الذِّكرِ[6]
تَركْناهُمُ للعَاوِيَاتِ يَنَبْنَهُم ... ويُصْلَون ناراً بعدَ حاميةِ القَعْرِ[7]
لَعَمْرُكَ ما حامَتْ فَوارسُ مالكٍ ... وأشياعُهُمْ يومَ التَقَيْنا على بَدْرِ[8]

= حينما دلاَّهم إبليس بغرور ، ولو أنهم علموا ما كان من مصيرهم لما انخدعوا به.

(١) يريد به إبليس اللعين الذي يخدع كل من والاه.

(٢) سراة: جمع سري: بمعنى الخيار والوجهاء ، منجدين: يعني مرتفعين إلى النجد من الأرض ، غاروا: بمعنى ذهبوا إلى الغور من الأرض متفرقين ومتشتتين.

(٣) إبارة مصدر أبار يبير: بمعنى الإهلاك.

(٤) قاصمة الظهر: الداهية التي تقصم الظهور ، يقال: قصم الشيء ، إذا كسره فأبانه ، وإذا كسره ولم يبنه ففَصْمٌ ، بالفاء.

(٥) القتر: الغبار ، وثائرة القتر: ما ثار منه وارتفع.

(٦) المرزء: بمعنى الكريم.

(٧) العاويات: ما يعوي من الذئاب والسباع ، ينبنهم: من ناب ينوب: إذا جاء مرة بعد أخرى ، وفي رواية: ينشنهم.

(٨) حامت من الحماية: بمعنى امتنعت ، ويروى: خامت بالخاء المعجمة: بمعنى جبنت.

وقال لحكيم بن حزام بن خويلد في بدر يمدح كتائب قومه الذين حضروا في بدر:

نَجَّى حكيماً يومَ بدرٍ رَكْضُهُ ... كَنَجاءِ مُهْرٍ من بناتِ الأعْوَجِ[1]
ألْقَى السِّلاحَ وفَرَّ عنها مُهْمَلاً ... كالهِبْرِزيِّ يزِلُّ فوقَ المِنْسَجِ[2]
لمَّا رأى بَدْراً تسيلُ جِلاهُهَا ... بكتائبٍ مِلأَوْسِ أو مِلْخَزْرَجِ[3]
صُبُرٌ يُساقُونَ الكُمَاةَ حُتُوفَها ... يمشُونَ مَهْيَعَةَ الطريقِ المَنْهَجِ[4]
كم فِيْهِمُ مِنْ مَاجِدٍ ذي سَوْرَةٍ ... بَطَلٍ بمَكْرَهَةِ المَكَانِ المُحْرَجِ[5]
ومُسَوَّدٍ يُعطي الجَزيلَ بكفِّهِ ... حَمَّالِ أثقالِ الدِّيَاتِ مُتَوَّجِ[6]
أو كُلِّ أرْوَعَ ماجِدٍ ذِيْ مِرَّةٍ ... أو كُلِّ مُسترْخِي النِّجَادِ مُدَجَّجِ[7]
ونَجا ابنُ حمراءِ العِجَانِ حُوَيْرِثٌ ... يَغْلي الدّماغُ به كَغَلْيِ الزِّبْرِجِ[8]

وروى ابن هشام البيت التالي أيضاً بعد البيت: (ومسود يعطي الجزيل... إلخ).

زَيْنِ النديِّ مُعَاودٍ يومَ الوَغى ... ضَرْبَ الكُمَاةِ بكلِّ أبيضَ سُلْجَجِ[9]

(١) النجاء: السرعة ، مهر: ولد الفرس ، الأعوج: فرس كان لبني هلال بن عامر بن صعصعة ، لم يكن في العرب أشهر ولا أكثر نسلاً منه.
(٢) فرّعنها: أي عن بدر ، الهبرزيّ: الجيد الرمي بالسهام ، والحازم من الرجال ، مهملاً: مثل الإبل السائبة ، منسج الفرس: ما شخص منه من فروع الكتفين إلى أصل العنق وهو للفرس بمنزلة الكاهل للإنسان.
(٣) جلاه: جمع جلهة ، وهي جانب الوادي ، يعني لما رأى جوانب بدر تسيل بكتائب من الأوس والخزرج.
(٤) مهيعة الطريق ومنهجه بمعنى: الواضح منه ، يساقون: بمعنى يسقون.
(٥) بمكرهة المكان: يعني بالمكان المكره الشاق الحرج.
(٦) يعني كم فيهم من مسود (السيد) يحملون الديات ، وحمل الديات من شيم السادة ، المتوج الذي تُوِّجَ بالسيادة.
(٧) أروع: الرجل الكريم ذو الجسم والجهارة والفضل والسؤدد ، أو الجميل الذي يروعك حسنه ، ذي مرة: بكسر الميم: بمعنى ذي قوة ، استرخاء النجاد: كناية عن الشجاعة ، المدجج: الفارس الذي دخل في سلاحه.
(٨) ابن حمراء العجان: يعني العجمي ، وهو يعيّره بذلك ويسبُّه ، الزبرج: الذهب.
(٩) الندي: المجلس ، معاود: يعود مرات وكرات ، أبيض: سيف لامع ، السلجج: الماضي الذي يقطع الضريبة بسهولة.

وقال في يوم بدر يعتز بالمسلمين ، ويهجو المشركين:

فما نَخشى بحَولِ الله قَوماً ... وإن كَثُروا وأجْمَعَتِ الزُّحُوفُ
إذا ما ألَّبُوا جَمْعَاً علَينا ... كفَانا حَدَّهُمْ رَبٌّ رؤوفُ
سَمَوْنا يومَ بدرٍ بالعَوالي ... سِراعاً ما تُضَعْضِعُنَا الحُتُوفُ[1]
فلمْ تَرَ عُصبةٌ في النَّاس أنْكَى ... لِمَنْ عَادُوا إذا لقِحَتْ كَشُوفُ[2]
ولكنَّا تَوكَّلْنَا وقُلنا: ... مَآثِرُنا ومَعْقلُنَا السيوفُ
لَقِيناهُمْ بها لمَّا سَمَوْنَا ... ونحنُ عِصَابَةٌ وهُمُ أُلُوفُ

وقال وهو يهجو بني جُمَح ومن أصيب منهم يوم بدر:

جَمَحَتْ بنو جُمَحٍ لشِقْوةِ جَدِّهِمْ ... إنَّ الذليلَ مُوكَّلٌ بذليلِ
قُتِلَت بَنُو جُمَحٍ ببدرٍ عَنْوَةً ... وتَخاذَلوا سَعْيَاً بِكُلِّ سَبيلِ[3]
جَحَدُوا الكتابَ وكَذَّبوا بمحمَّدٍ ... واللهُ يُظهِرُ دِينَ كلِّ رسولِ
لَعَنَ الإلهُ أبا خُزيمةَ وابنَهُ ... والخالِدَينِ وصَاعدَ بنَ عقيلِ[4]

ويروى البيت التالي كذلك مع هذه الأبيات:

تَركُوا الحجُونَ ومَنْ يقاتِلُ مِنْهُمُ ... وتَخاذَلُوا لُؤْمَاً فشَرُّ قَبِيلِ[5]

يرد على كعب بن الأشرف:

لما قتل أعيان المشركين في بدر وعلم بذلك كعب بن الأشرف اليهودي قال: أحق هذا؟ أترون أن محمداً ﷺ قتل هؤلاء الذين كانوا أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لَبطنُ الأرض خير من ظهرها ، ولكنه لما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة وجعل يعرض على

(١) العوالي: يريد بها الرماح ، ما تضعضعنا الحتوف: يعني ما يذلنا ولا يضعفنا الموت.
(٢) الكشوف بفتح الكاف: الناقة التي يضربها الفحل في الوقت الذي لا تشتهي فيه الضراب ، ولقحت: بمعنى حملت ، يريد اشتداد الحرب بعد سكونها.
(٣) عنوة: قهراً وغلبة ، وقد تكون بمعنى الطاعة في لغة هذيل.
(٤) أبو خزيمة: عمير بن وهب الجمحي ، وابنه وهب بن عمير أسر يوم بدر. والخالدان: خالد بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وخالد بن الأعلم العقيل حليف بني مخزوم.
(٥) انظر شرح ديوان حسان ، تحقيق دكتور سيد حنفي حسنين ، طبع القاهرة.

رسول الله ﷺ ، وينشد الشعر ، ويبكي أصحاب القليب من قريش ممن أصيبوا ببدر في أبيات ، أولها:

طَحنَتْ رَحَى بَدْرٍ لمَهْلِكِ أهلِه ... ولمِثْلِ بدْرٍ تستهِلُّ وتَدْمعُ

فرد عليه حسان قائلاً:

لا زالَ كعبٌ يستَهِلُّ دموعَهُ ... للهالكينَ مُجَدَّعاً لا يَسمعُ[1]

ولقَدْ رأيت ببطن بدرٍ منهمُ ... قَتْلَى تَسِحُّ لها العيونُ وتَدْمعُ

فابْكِ فَقَدْ أبكيتَ عبداً راضِعاً ... شبْهَ الكُلَيْبِ إلى الكُلَيبةِ يَتْبَعُ

ولقد شفَى الرَّحمنُ مِنَّا سَيِّداً ... وأهانَ قوماً قاتَلُوه وصُرِّعُوا

ونجَا وأفْلَتَ منهمُ مَنْ قلبُهُ ... شَعَفٌ يظَلُّ لِخَوفهِ يتصدَّعُ[2]

ولما قتل كعب بن الأشرف بأمر من رسول الله ﷺ وقتل سلاّم بن الحقيق ، قال حسان بن ثابت الأبيات الآتية في هٰذه المناسبة:

لله دَرُّ عِصابةٍ لاقيتَهُمْ ... يا ابنَ الحقيقِ وأنتَ يا ابنَ الأشرفِ

يَسْرونَ بالبِيْضِ الخِفَافِ إليكمُ ... مَرَحاً كأُسْدٍ في عَرينٍ مُغْرِفِ[3]

حَتَّى أتَوْكُمْ في مَحلِّ بلادكُمْ ... فَسقَوْكُمُ حَتْفاً ببيضٍ ذُفَّفِ[4]

مُستنصرِينَ لنصرِ دِينِ نبيِّهِمْ ... مُستصغرِينَ لِكُلِّ أمرٍ مُجْحِفِ

قصيدته الميمية الغراء:

كان الحارث بن هشام قد فرَّ عن نصرة أخيه أبي جهل بن هشام يوم بدر ، وعلم بذلك حسان بن ثابت فعيَّره على ذلك ، وقال قصيدته الميمية الشهيرة التي يفتخر فيها بيوم بدر ، وقد بدأها كعادة الشعراء الجاهليين بذكر حبيبته وأوصافها توطئة للوصول إلى أصل الغرض من الكلام ، ومن جملة ما قال في قصيدته هٰذه وهو يعيِّره ، هٰذا البيت:

(١) مجدعاً: ذليلاً ، مقطوع الخير.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٥٦.
(٣) العرين المغرف: موضع الأسد الذي فيه الأشجار الملتفة.
(٤) البيض: السيوف اللمّاعة. ذفف: سريعة القتل.

إنْ كُنْتِ كاذبةً بما حَدَّثْتِنِيْ ... فنَجَوتِ مَنْجَى الحارثِ بنِ هشامِ

ولكن الحارث بن هشام اعتذر عن فراره ، وقال شعراً جيداً زعم الأصمعيّ أنه لم يُسمع بأحسن منه ، وهو قوله:

اللهُ يعلَمُ ما تَرَكْتُ قتالَهُمْ ... حتَّى رَموا فرَسِي بأشقَرَ مُزْبِدِ

ووَجَدتُ ريحَ الموتِ من تِلْقَائِهِمْ ... في مازنٍ والخيلُ لم تَتَبَدَّدِ

وعلمتُ أنِّيْ إن أُقاتِلْ واحِداً ... أُقتَلْ ولا يَضْرُرْ عَدوِّي مَشْهدِي

فصَدَفْتُ عنهُمْ والأَحِبَّةُ دونَهُمْ ... طَمَعاً لهمْ بِعقابِ يومٍ مُفْسِدِ

وأما قصيدة حسان الرائعة الجميلة فهي كما يأتي:

تَبَلَتْ فؤادَكَ في المَنامِ خَرِيْدةٌ ... تَشْفِي الضَّجيعَ ببارِدٍ بسَّامِ[1]

كالمِسْكِ تخلُطُهُ بماءِ سَحابةٍ ... أو عاتِقٍ كدَمِ الذَّبيحِ مُدامِ[2]

نُفُجُ الحَقيبةِ بُوصُها مُتَنَضِّدٌ ... بَلْهاءُ غيرُ وشيكَةِ الأَقْسامِ[3]

بُنِيَتْ على قَطَنٍ أَجَمَّ كأَنَّه ... فُضُلاً إذا قَعَدَتْ مَدَاكُ رُخامِ[4]

وتكادُ تَكْسَلُ أن تَجِيءَ فِرَاشَها ... في لِيْنِ خَرْعَبَةٍ وحُسْنِ قَوَامِ[5]

أمَّا النَّهارُ فلا أُفَتِّرُ ذِكْرَها ... والليلُ تُوزِعُنِي بها أحْلامِيْ[6]

(١) تبلت فؤاده: أسقمته وأفسدته أو ذهبت بعقله ، والخريدة: الحبيبة الساكنة أو الحسناء الناعمة أو البكر التي لم تفترع ، وقوله: ببادٍ ، أراد تسقيه بارداً فأقحم الباء.
(٢) العاتق: الخمر القديمة ، ومن رواه بالكاف فهو أيضاً الخمر القديمة التي احمرت ، والمدام: الخمر ، وقوله: كدم الذبيح: يريد حمراء قانية.
(٣) نفج الحقيبة: النفج: المرتفعة ، والحقيبة: ما يجعله الراكب وراءه واستعيرت هنا لردف المرأة ، يقول: ضخمة الأرداف مرتفعتها ، والبوص: الردف وهو الكفل ، ومتنضد: معناه علا بعضه بعضاً من قولك: نضدت المتاع إذا جعلت بعضه فوق بعض ، والبلهاء: العفيفة الغفول عن الشر ، وقوله: غير وشيكة الأقسام: أي غير سريعة اليمين ، والأقسام إما بكسر الهمزة مصدر أقسم ، وإما بفتحها جمع قسم.
(٤) القطن: ما بين الوركين ، وأجم: ممتلئ باللحم غائب العظام ، والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب أو هو الرخام ، وفضلاً: أي إذا قعدت متفضلة أي من ثوب واحد ، شبه مآكمها في اكتنازها وملاستها بالرخام.
(٥) الخرعبة: اللينة الحسنة الخلق ، وأصل الخرعبة الغصن اللين المتثني.
(٦) يقول: أما النهار فلا أضعف ذكرها فيه وأما الليل فإن أحلامي تولعني بها فيه فتوزعني ، تغريني وتولعني.

أقسَمْتُ أنْساها وأتْرُكُ ذِكْرَها ... حتى تُغَيَّبَ في الضَّريحِ عِظامي[1]

يا من لعاذِلةٍ تلومُ سَفاهَةً ... ولقد عصيتُ إلى الهَوَى لُوّامي[2]

بَكَرَتْ إليَّ بسَحْرَةٍ بَعْدَ الكَرَى ... وتَقارُبٍ من حادِثِ الأيامِ[3]

زعمَتْ بأنَّ المرءَ يَكرُبُ عُمْرَهُ ... عَدَمٌ لمُعْتكرٍ مِنَ الأَصْرامِ[4]

إنْ كنتِ كاذِبةَ الَّذي حَدَّثْتِني ... فنَجَوتِ مَنْجَى الحارثِ بنِ هشامِ

تَرَكَ الأحبَّةَ أن يُقاتِلَ دونَهُمْ ... ونَجا برأسِ طِمَرَّةٍ ولِجَامِ[5]

جَرْداءَ تَمْزَعُ في الغُبارِ كأنَّها ... سِرْحَانُ غابٍ في ظلالِ غَمَامِ[6]

تَذَرُ العَناجِيجَ الجِيَادَ بقَفْرةٍ ... مَرَّ الدَّمُوكِ بمُحْصَدٍ ورِجَامِ[7]

ملأَتْ به الفَرْجَيْنِ فارمَدَّتْ بهِ ... وثَوى أُحِبَّتُه بشَرِّ مَقامِ[8]

وبَنو أبيهِ ورَهْطُه في مَعْرَكٍ ... نَصَرَ الإلهُ به ذَوِي الإسلامِ

لَوْلا الإلهُ وجَرْيُها لَتَرَكْنَهُ ... جَزَرَ السِّباعِ ودُسْنَهُ بِحَوَامِي[9]

---

(١) أقسمت أنساها: يقول أقسمت لا أنساها ولا أترك ذكرها حتى أموت.

(٢) عصيت إلى الهوى: أي عصيت لوّامي باسترسالي في هواي ومضيّي دون أن ألوي.

(٣) السحرة: السحر.

(٤) يكرب: يحزن من الكرب وهو الهم، والمعتكر: الإبل التي ترجع بعضها إلى بعض، فلا يمكن عدها لكثرتها، الإصرام: جمع صرم، وصرم جمع صرمة، وهي القطعة من الإبل، ويجوز أن يكون يكرب يقرب فيكون المعنى: زعمت أن الرجل يقرب أجله الفقر فأمرتني بالإمساك.

(٥) الطمرة: الفرس الكثير الجري.

(٦) جرداء: فرس قصيرة الشعر تفنّن في جريها، وتمزع: تَثِب، والسرحان: الذئب.

(٧) العناجيج: جمع عنجوج، وهو الرائع من الخيل والنجيب، وقد استعملوها في الإبل كما تقدم، والقفرة: الصحراء، والدموك: البكرة تستقى بها على البئر أو الساقية، يقول: إنها تسرع سرعة البكرة، وقول: بمحصد أي حبل شديد الفتل، والرجام: حجر يربط في الدَّلو ليكون أسرع لها عند إرسالها في البئر.

(٨) ملأت به الفرجين: فالفرجان ههنا ما بين يديها وما بين رجليها، يقول: إنها ملأتهما حضراً وجرياً، وقوله: فارمدّت به أي أسرعت بالحارث، وثوى: أقام، وأحبته: أي أَحِبّة الحارث.

(٩) جزر السباع: اللحم الذي تأكله، ويقال: تركهم جزراً للسباع والطير، أي قطعاً، قال:

إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السباع وكل نسر قشعم

ودسنه: وطئنه، والحوامي: ميامن الحافر ومياسره، قالوا: سنبك الحافر مقدمه، وحامياه: جانباه عن يمين وشمال، وباطنه نسوءه، ومؤخره أليته.

طَحَنَتْهُمُ، واللهُ يُنْفِذُ أَمْرَهُ ... حَرْبٌ يُشَبُّ سعيرُها بضِرامِ[1]

مِنْ كلِّ مأسُورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ ... صَقْرٌ إذا لاقَى الكتيبةَ حامِيْ

ومُجَدَّلٌ لا يستجيبُ لِدَعوةٍ ... حتَّى تزولَ شَوامخُ الأعلامِ[2]

بالعَارِ والذُّلِّ المُبيَّنِ إذْ رَأَوْا ... بِيْضَ السُّيوفِ تَسوقُ كلَّ هُمَامِ

بيَدَيْ أغرَّ إذا انتمَى لم يُخْزِهِ ... نَسَبُ القِصَارِ سُمَيْدَعٍ مِقْدَامِ[3]

بِيْضٌ إذا لاقَتْ حَدِيْداً صَمَّمَتْ ... كالبَرْقِ تَحتَ ظلالِ كلِّ غَمَامِ

لَيْسُوا كَيَعْمُرَ حينَ يَشتَجِرُ القَنَا ... والخيلُ تَضْبُرُ تحتَ كُلِّ قَتَامِ[4]

أبيات أخرى بهذه المناسبة:

ولم يكتفِ حسان بهذه القصيدة، وإنما عيّر الحارث بن هشام على فِرَارِه في أبيات أخرى، ذاك أن فرارَهُ من المعركة لم يكن حدثاً عادياً بالنسبة إلى شخصيته القوية التي كان يتمتع بها الحارث بين القادة القرشيين وخاصة حينما ترك شقيقه أبا جهل بن هشام مخذولاً في المعركة دون أن يساعده ويعطف عليه، حتى قتل أبو جهل، يقول:

يا حارِ قد عُوِّلْتَ غيرَ مُعَوَّلٍ ... عند الهِيَاجِ وساعةِ الأَحْسَابِ[5]

إذ تمتَطي سُرُحَ اليَدينِ نجيبةً ... مَرْطَى الجِرَاءِ خفيفةَ الأقرابِ[6]

---

(١) يشب: يتقد، والسعير: النار الملتهبة، والضرام: ما توقد به النار، وقوله: والله ينفذ أمره جملة اعتراضية.

(٢) يقول: إن قريشاً تمخضت عنهم هذه الحرب ما بين أسير وصريع. والصفاد: الغل والقيد، ويقال للرجل: صقر؛ لأنه يصطاد الرجال كما يصطاد الصقر فريسته، والصقر: السيد، يفتخر حسان بأن من أسره المسلمون من قريش هم السادة القروم الصناديد، والمجدل: الصريع على الأرض، واسم الأرض الجدالة، ولا يستجيب لدعوة أي لنداء، والشوامخ: الأعالي، والأعلام: جمع علم وهو الجبل العالي.

(٣) القصار هنا الذين قصر سعيهم عن طلب المعارك، والسميدع: السيد.

(٤) يشتجر القنا: يعني يحمي وطيس الحرب، والقتام: غبار الحرب والظلام والخيل تضبر أي تعدو، شرح ديوان حسان للبرقوقي، ص٤١٥ ـ ٤١٧.

(٥) عوّل على السفر: إذا وطّن نفسه عليه، ويقال: عول فلان غير معوّل، على الحالية، يعني اعتمد على ما لا يفيده، الهياج: الحرب، ساعة الأحساب: يعني وقت المفاخرة بالأحساب.

(٦) نجيبة: يعني بها فرساً كريمة، سرح اليدين: المراد بها سريعة اليدين، مرطى: من المروط بمعنى=

والقومُ خلفَكَ قد تركْتَ قتالَهُم ... تَرْجو النَّجاءَ فليسَ حِينَ ذَهابِ[1]
هلاَّ عطفْتَ على ابنِ أمِّكَ إذْ ثَوى ... قَعْصَ الأسنَّةِ ضائِعَ الأسْلابِ[2]
جَهْمَاً لَعَمْرُكَ لو دُهِيتَ بمثلِها ... لأتاكَ أجْثَمُ شابِكُ الأنيابِ[3]
عَجِلَ المَليكُ له فأهْلَكَ جَمْعَهُ ... بشَنَارِ مُخْزِيةٍ وسُوءِ عَذَابِ[4]
لو كنْتَ ضِنْءَ كريمةٍ أبْلَيْتَهَا ... حُسْنَى ، ولكِنْ ضِنْءَ بنتِ عُقابِ[5]

إسلام الحارث بن هشام:

ولعل الحارث بن هشام قد أثر في قلبه شعر حسان الذي وجهه إليه مباشرة وعيّره به على كفره ، وخذلانه أبا جهل في معركة بدر ، وكذلك غلبة المسلمين وانتصارهم على الكفر ، وظل يعيش في حال اعتزال عن قومه ، ويعد نفسه للدخول في صف المسلمين ويترقب الفرصة السانحة لذلك حتى كان يوم الفتح ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه ، فقبله رسول الله ﷺ وألّف قلبه ، وضمه إلى خاصة الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وهو الذي يقول:

= سرعة المشي والعدو ، الجراء: الجري ، مرطى الجراء يعني سريعة السير ، والأقراب: جمع قُرب بضم القاف: بمعنى الخاصرة وما يليها.

(١) النجاء: بمعنى الخلاص والنجاة.

(٢) ثوى: يريد أنه أقام في قبره ، القعص: أن يُضرب الرجل بالسلاح أو بغيره حتى يموت في مكانه من غير أن يبرح عنه ، الأسلاب: جمع سَلَب بفتح اللام وهو ما يسلب من القتيل.

(٣) جهماً: حال ثانية لابن أمك ، يعني إذ ثوى في قبره قعص الأسنة ضائع الأسلاب وغليظ الوجه ضعيفاً عاجزاً ، يخاطب حسان الحارث بن هشام ، ويقول: يا حارث لو دهيت بما دهي به أخوك لحل بك مثل ما حل به ، وأتاه أسد أجثم على فريسته ، شابك الأنياب ، وكان مصيرك كمصيره.

(٤) يعني عجل الله سبحانه وتعالى له فأهلكه وجمعه بعار داهية مخزية وسوء عذاب ، الشنار: هو العار والعيب القبيح.

(٥) الضنء: الأصل والمعدن ، يقول: لو كنت يا حارث من معدن كريم أبليته بلاء حسناً ، ولكنك من أصل سيئ فإن أمك من بنات عقاب ، وعقاب كان عبداً لبني تغلب كانت له بنات ، فوقع بعضهن عند الفرافصة بين الأحوص الكلبي فكُنَّ إماءً له ، وكانت واحدة منهن ولدت لرجل من بني تغلب ابنة فتزوجها مخربة بن أبير ، وكانت أم الحارث بن هشام أسماء بنت مخربة ، يشير بذلك إلى ضعة في النسب ، وهو غاية في التعيير.

مَنْ كان يَسألُ عَنَّا أينَ منزلُنا ... فالأقحوانةُ مِنَّا منزِلٌ قَمِنُ
إذ نَلْبسُ العيشَ صَفْواً لا يُكدِّره ... طَعْنُ الوُشاةِ ولا يَنْبو بنا الزمنُ

وخرج إلى الشام في زمن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ راغباً في الرباط والجهاد فتبعه أهل مكة يبكون فراقه ، فقد كان يطعم الطعام ويقري الضيف ، فقال: إنها النقلة إلى الله وما كنت لأوثر عليكم أحداً ، فلم يزل بالشام مجاهداً حتى مات في طاعون عمواس سنة ثمانية عشرة ، وقيل: في اليرموك سنة ١٥ هـ ـ رضي الله تعالى عنه ـ[1].

أبيات في قتلى بني عبد العزى:

وهذه أبيات قالها يوم بدر في قتلى بني عبد العزى ، وقد سماهم ، وتأسف على سوء مصيرهم ، يقول:

خابَتْ بنو أَسَدٍ وآبَ غَزيُّهم ... يومَ القُلَيْبِ بسَوءةٍ وفضوحِ[2]
إذ هُمْ بمعركةٍ تُخَاضُ دِماؤهمْ ... تَصْلَى الخُدودُ بذِلَّةٍ وقبوحِ[3]
منهمْ أبو العَاصِي تَجدَّلَ مَقْعَصاً ... عن ظَهْرِ صادقةِ النَّجاءِ سَبُوحِ[4]
أُفٌّ لهُمْ من قاذفٍ بسلاحِهِ ... لمَّا ثَوى كَنَعَامَةٍ مذبوحِ[5]
والمرءَ زمْعَةَ قد تَرَكْنَ ونَحْرُهُ ... يَدْمَى بعاتِكِ مُعْبَطٍ مسفوحِ[6]
مُتوسِّداً حَرَّ الجَبينِ مُعَفَّراً ... قد عُرَّ مارِنُ أنفِهِ بقيوحِ

---

(١) شرح ديوان حسان للبرقوقي ، ص ٩٧ ، طبع دار الكتاب العربي بيروت.

(٢) وفي رواية: آب عزيزهم.

(٣) الخدود: جمع خد: الحفرة المستطيلة ، جدول الماء ، ولعل المراد هنا جداول الماء.

(٤) تجدل: بمعنى وقع صريعاً على الأرض ، مقعصاً: يعني مقتولاً مكانه مع الوقوع على الأرض ، صادقة النجاء: سريعة السير كأنها تسبح سبحاً ، وهي صفة للفرس التي كان راكباً عليها ، وأبو العاصي: هو ابن قيس بن عدي ، ويقال: هو أبو البختري بن هشام بن الحارث ، وفي سيرة ابن هشام البيت التالي هكذا:

حيناً له من مانع بسلاحه ... لما ثوى بمقامه المذبوح

(٥) العاتك: الخالص من كل شيء ولون ، يريد به لون الدم الخالص ، المعبط: الدم الطري ، المسفوح: السائل.

(٦) عرّ بالتشديد: بمعنى لطخ ، مارن الأنف: ما لان منه ، قبوح: مصدر قبح.

ونجا ابنُ قَيْسٍ في بقيَّةِ رَهْطِهِ وبِهِ الرَّماقُ وظَهْرُه مَجْرُوحُ[1]

في مدح رسول الله ﷺ وجيش المسلمين يوم بدر:

وقد مدح رسول الله ﷺ بصفته قائداً لجيش المسلمين في بدر ، ويخاطب قريشاً يذكّرهم بما قد حدث معهم ، ويعتز برسول الله ﷺ ، ويصفه بما هو أهله ، يقول:

مُسْتَشْعِري حلَقَ الماذِيِّ يقدُمُهمْ جَلْدُ النَّحِيْزةِ ماضٍ غَيْرُ رِعْدِيدِ[2]
أعني الرَّسولَ فإنَّ الله فضَّلَهُ على البريَّة بالتقوى وبالجُودِ
وقد زعمتُمْ بأنْ تَحْمُوا ذِمارَكُمُ وماءُ بدرٍ زعمتُمْ غيرُ مورودِ
ثمَّ وَرَدْنا ولم نَهْدَدْ لقولكُمُ حتَّى شَرِبنا رَواءً غيرَ تَصْرِيدِ[3]
فينا الرَّسولُ وفينا الحَقُّ نَتْبَعُهُ حتَّى الممات ، ونصرٌ غيرُ مَحْدُودِ
مباركٌ كضِياءِ البَدْرِ صُورتُهُ ما قالَ كانَ قضاءً غيرَ مردُودِ
مُستعصِمِينَ بحَبْلٍ غيرِ مُنْجذِمٍ مُسْتَحكمٍ من حبالِ الله ممدودِ

وفي شرح ديوان حسان للبرقوقي زاد بيتين بعد هٰذه الأبيات في وصف النبي الكريم ﷺ يقول:

وافٍ وماضٍ شهابٌ يُستضاءُ بهِ بدرٌ أنارَ على كلِّ الأماجِيْدِ
ماضٍ على الهَوْلِ رَكَّابٌ لِمَا قَطَعوا إذا الكُمَاةُ تَحامَوْا في الصَّناديْدِ

أبيات أخرى يخاطب بها قريشاً:

وقال أيضاً في يوم بدر يخاطب قريشاً ويعيّرهم على ما أصابهم من الهزيمة والخزي بقتل سادتهم وكبرائهم ، ويعتز بالمسلمين:

لقد علمَتْ قُريشٌ يومَ بدْرٍ غَداةَ الأَسْرِ والقَتْلِ الشَّديدِ

(١) وفي سيرة ابن هشام: بشفا الرماق ، وشفا كل شيء ، حده وطرفه.
(٢) استشعر الثوب: إذا لبسه من غير حاجز على الجسم بحيث يمس شعر الجسم ، الماذي: بمعنى الدروع اللينة البيض ، وكل سلاح يكون من الحديد فهو ماذيّ ، جلد النحيزة: يريد به رسول الله ﷺ ، الرعديد: الجبان ، يصف في هٰذا البيت جيش المسلمين ببدر.
(٣) وفي رواية: لم نسمع لقولكم ، التصريد: الشرب من غير ريّ.

بأنَّا حينَ تَشْتجِرُ العَوالِيْ حُماةُ الرَّوْعِ يومَ أبي الوليدِ[1]
قتلْنا ابنَيْ ربيعةَ يومَ سَارا إلَيْنا في مُضَاعَفَةِ الحَدِيدِ[2]
وفرَّ بها حكيمٌ يومَ جَالَتْ بَنُو النجَّارِ تَخْطِرُ كالأُسُودِ[3]
ووَلَّتْ عندَ ذاكَ جُمُوعُ فِهْرٍ وأسلَمَهَا الحُوَيرثُ من بعيدِ[4]
لقدْ لاقيتُمُ ذُلاً وقَتْلاً جَهِيزاً نافِذاً تحتَ الوريدِ[5]
وكلُّ القومِ قد وَلَّوا جميعاً ولم يَلْوُوا على الحَسَبِ التَّليدِ[6]

وقد بكى عبد الله بن الزِّبعرى على قتلى المشركين في بدر في أبيات أولها:

ماذا على بَدْرٍ وماذا حَوْلَهُ مِنْ فِتْيَةٍ بِيْضِ الوُجوهِ كِرامِ

فأجابه حسان بن ثابت بأبيات مثلها في الرديف والقافية ، يقول:

ابْكِ بَكَتْ عيناكَ ثمَّ تَبادرَتْ بدَمٍ تُعَلُّ غُرُوبُها سَجَّامِ[7]
ماذا بَكَيْتَ بهِ الذينَ تَتابعوا هَلاَّ ذَكَرْتَ مكارِمَ الأقوامِ[8]
وذَكَرْتَ مِنَّا ماجِداً ذا همَّةٍ سَمْحَ الخَلائقِ صادِقَ الإقْدَامِ
أعني النبيَّ أخا المَكارِمِ والنَّدى وأبرَّ مَنْ يُولِي على الأقسَامِ[9]
فَلِمثْلِه ولِمِثْلِ ما يدعو لهُ كَانَ المُمَدَّحُ ثَمَّ غَيْرَ كَهَامِ[10]

(١) تشتجر: بمعنى تتحرك وتشتبك ، العوالي: أعالي الرماح ، يوم أبي الوليد: يريد به يوم بدر ، لأن أبا الوليد عتبة بن ربيعة سيد قريش قتل يوم بدر.
(٢) يريد من (مضاعفة الحديد) الدروع التي ضوعف نسجها.
(٣) هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، وكان انهزم يوم بدر ، فرزقه الله الإسلام قبل دخول النبي الكريم ﷺ إلى مكة بيوم ، هو وأبو سفيان.
(٤) الحويرث تصغير الحارث ، وهو الحارث بن هشام.
(٥) جهيزاً: بمعنى سريعاً ، يقال: أجهز على الجريح إذا أسرع قتله ، الوريد: عرق في العنق.
(٦) ولّوا: بمعنى هربوا ، ولم يلووا: يعني لم يراعوا قديم مجدهم وشرفهم.
(٧) بكت عيناك: دعاء عليه ، تعل من العَلّ وهو الشرب بعد الشرب ، والمراد بها تتكرر ، غروب: مجاري الدموع ، سجام: بمعنى سائل من السيلان.
(٨) ويقرأ: تتايعوا بالياء: بمعنى واحد ، وبعضهم يجعل التتايع بالياء في الشر فقط.
(٩) يولي: بمعنى يحلف ، ويُقرأ الإقسام مصدراً ، والأقسام جمعاً.
(١٠) ثم بالفتح ظرف: بمعنى هناك ، كهام: السحاب الذي لا مطر فيه ، والسيف الذي لا حدَّ فيه ، =

ما قاله في مناسبة غزوة أحد:

ولما غزت قريش رسول الله ﷺ غزوة أحد في سنة ثلاث من الهجرة، تابعها حسان بن ثابت بمشاركته الكلامية، وأسلحته الشعرية، ودافع عن الإسلام والمسلمين دفاعاً قوياً ومجيداً وردّ على المشركين مفاخرتهم ومهاجاتهم بشعره القوي الرصين، وتناولهم بالهجاء والتعيير، كما قد بكى على شهداء أحد، ورثى سيّد الشهداء حمزة ـ رضي الله عنهم ـ، ولم يألُ جُهداً في وضع مواهبه الكلامية في مناسبات مثيرة متعددة، مما كان له تأثير إيجابي عميق في نفوس المسلمين.

ومن بين هٰذه المناسبات قصة حَنْظَلَةَ بن أبي عامر غسيل الملائكة، وكان قد خرج من بيته إلى ساحة القتال لما سمع الهائِعَة[1] وهو جُنُبٌ، والتقى هو وأبو سفيان بن حرب في المعركة فاستعلاه حنظلة ولكنْ سَاعَدَ أبا سفيان شدادُ بن الأسود وكان يقال له ابنُ شعوب فجاء وضرب حنظلة فقتله، وافتخر بذلك شداد، وقال:

لأحْمِيَنَّ صاحِبِي ونَفْسِي ... بطَعْنَةٍ مثلِ شُعَاعِ الشَّمْسِ

وهنالك قال أبو سفيان بن حرب شعراً يذكر فيه صبره، ومعاونة الأسود بن شداد إيّاه على حنظلة الغسيل ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وهٰذا مطلعه:

ولو شِئْتُ نَجَّتْنِي كُمَيْتٌ طِمِرَّةٌ ... ولم أحْمِلِ النَّعْمَاءَ لابنِ شَعُوبِ

في عشرة أبيات يتحدث فيها عن غلبته وانتصاره وقتله حمزة ـ رضي الله تعالى عنه ـ ويوجه العار إلى المسلمين ويهجوهم، وأجابه حسان بن ثابت يرد عليه بقسوة ويكذّبه فيما زعمه، فقال:

ذَكرتُ القُرُومَ الصِّيدَ من آل هاشمٍ ... ولستُ لِزُورٍ قلتَه بمُصيبِ[2]

= ورجل كهام: الرجل الذي لا خير فيه ولا غناء عنده (السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ١٦ ـ ١٧).

(١) الهائعة من الهياع، وهو الصياح الذي فيه فزع، والمراد بها نفير الحرب، وفي رواية: الهاتفة.

(٢) القروم: جمع قرم وهو الفحل الكريم من الإبل، ويستعار للرجل الكريم، والصيد: جمع الأصيد الذي يرفع رأسه كبراً.

أتعجبُ أنْ أقْصَدْتُ حمزةَ منهمُ ... نَجِيباً وقد سمَّيتُه بنَجيبِ[1]

ألَمْ يَقْتلوا عَمراً وعُتبةَ وابنَهُ ... وشيبةَ والحجَّاجَ وابنَ حبيبِ[2]

غداةَ دَعا العاصِ عليّاً فرَاعَهُ ... بضَرْبةِ عَضْبٍ بَلَّه بخَضِيبِ[3]

وحمل لواء المشركين يوم أحد بنو عبد الدار، وحافظوا عليه حتى قتلوا رجلاً بعد رجل فصار مع غلام حبشي لبني أبي طلحة اسمه صؤاب، وكان آخر من أخذه منهم فقاتل به حتى قطعت يداه، ثم برك عليه، فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول: اللهم هل أعذرت، فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فخَرتُم باللِّواءِ وشَرُّ فَخْرٍ ... لواءٌ حينَ رُدَّ إلى صُؤابِ

جعلتُمْ فَخْرَكم فيهِ لعبدٍ ... من الأمِّ، مَنْ يَطَا عَفَرَ الترابِ[4]

حسِبتُم والسفيهُ أخو ظُنونٍ ... وذلكَ ليسَ من أمرِ الصَّوابِ

بأنَّ لقاءَنا إذ حانَ يومٌ ... بمكَّةَ بيَعكُمْ حُمْرِ العِيابِ[5]

أقَرَّ العينَ أنْ عُصِبتْ يَداهُ ... وما أنْ تُعصَبانِ على خِضابِ[6]

ظل هٰذا اللواء مع صؤاب حتى قتل عليه فبقي اللواء صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به، وكروا راجعين بعد أن انهزموا وأتوا المسلمين من ورائهم، وانتصروا عليهم من أجل الحارثية هٰذه، فذلك ما أشار إليه حسان في قوله:

إذا عَضَلٌ سِيقَتْ إلينا كأنَّهُمْ ... جِدَايَةَ شِرْكٍ مُعْلماتِ الحَواجبِ[7]

(١) أقصدت بمعنى أصبت، يقال: رماه فأقصده إذا أصابه.

(٢) يعدّد المقتولين من علية قريش في هٰذه المعركة، ويعيّره بذلك.

(٣) العضب: السيف البتار، الخضيب: يراد به الدم.

(٤) يطا: بمعنى يطأ سهلت الهمزة للضرورة، عفر بالفتح: التراب الذي لونه بين الحمرة والغبرة.

(٥) (بأن لقاءنا) متعلق بقوله: (حسبتم، في البيت الذي قبله، يعني أن لقاءنا ليس كما تبيعون حمر العياب، والعياب: جمع عيبة، وهي ما يضع فيها الرجل متاعه.

(٦) وفي رواية: عصبت يداها.

(٧) عضل اسم قبيلة من خزيمة، الجدية بكسر الجيم وفتحها: الصغير من أولاد الظباء، شرك: اسم موضع.

أقَمْنا لكُمْ طَعْناً مُبِيراً مُنكَّلاً ... وحُزْناكُمُ بالضَّرْبِ منْ كُلِّ جَانبِ[1]
ولَوْلا لِواءُ الحَارِثِيَّةِ أصبَحُوا ... يُبَاعونَ في الأسواقِ بَيْعَ الجَلائبِ[2]
يَمصُّونَ أرصَافَ السِّهامِ كأنَّهمْ ... إذا هَبَطُوا سَهْلاً وبارٍ شَوارِبِ[3]
نُفَجِّئ عنَّا الناسَ حتَّى كأنَّما ... يَلفحُهُمُ جَمْرٌ منَ النَّارِ ثاقبِ[4]

قصيدة ميمية أخرى ، يوم أحد:

وهٰذه قصيدة ميمية قالها حسان بن ثابت يذكر فيها عدد أصحاب اللواء يوم أحد ، ويفتخر بنفسه ويعتز بفعاله وبصلته ملوك عصره ، وكذلك يفتخر بأبيه وخاله ويهجو الزِّبعرى ، ويندّد بقريش التي فرت لِواذاً يوم أحد ، وخلعت عنها لباس العقل والحلم ، وقد بدأ القصيدة كعادته بذكر الحبيب والهموم والأسقام ، وقد شهد بحسن هٰذه القصيدة ابن هشام في «سيرته» ، حيث قال: (هٰذه أحسن ما قيل).

منَعَ النَّومَ بالعِشاءِ الهُمُومُ ... وخَيالٌ إذا تَغُورُ النُّجومُ
مِنْ حبيبٍ أضافَ قلبَكَ منهُ ... سَقَمٌ فهوَ داخِلٌ مَكْتُومُ[5]
يا لَقَومي ، هل يَقتلُ المرءَ مِثْلي ... واهِنُ البطشِ والعظامُ سَؤومُ[6]
لو يَدِبُّ الحَولِيُّ من ولَدِ الذَّرْ ... رِ عليهَا لأندَبَتْهَا الكُلُومُ[7]
شأنُهَا العِطْرُ والفِراشُ ويعلُو ... هَا لُجَيْنٌ ولُؤْلُؤٌ مَنْظُومُ[8]

(١) مبيراً: بمعنى مهلكاً ، ومنكّلاً: قامعاً لهم ولغيرهم ، وحزناهم من حاز يحوز: بمعنى جمعناهم.
(٢) يعني لو أن الحارثية أعزتهم برفع اللواء لكانوا قد بيعوا في أسواق المدينة كالأمتعة التي تجلب إليها.
(٣) أرصاف: جمع رصف ، العقبة التي تلوى فوق مدخل سنخ النصل في السهم ، وبار: جمع وبر ، وهي دويبة على قدر السنور ، أو دويبة بيضاء من دواب الصحراء حسنة العينين ، شديدة الحياء ، شوازب: جمع شازبة بمعنى مهزولات عجاف.
(٤) نفجئ أي: ندفع عنا الناس.
(٥) أضاف: بمعنى نزل وزار.
(٦) واهن البطش: ضعيف القوة ، سؤوم على وزن فعول: بمعنى المفعول.
(٧) يشير إلى ضعف حبيبته وليونة جلدها ، ويقول: حتى إن النملة الصغيرة أيضاً إذا مرت على جلدها لأثرت فيه آثار الجروح ، أندبتها: من الندب وهو أثر الجروح.
(٨) يعني لا يهمها إلا التعطر والتنعم وألوان اللذات والزينة.

لم تَفُتْها شَمْسُ النَّهارِ بشيءٍ ... غيرَ أنَّ الشَّبابَ ليسَ يدومُ
إنَّ خَالِي خطيبُ جابِيَةِ الجَو ... لانِ ، عندَ النُّعمانِ حينَ يقومُ[1]
وأنا الصَّقرُ عند بابِ ابنِ سُلْمى ... يومَ نُعمانَ في الكُبُولِ سقيمُ[2]
وأبي في سُمَيْحَةَ القائلُ الفا ... صِلُ يومَ التقَتْ عليهِ الخُصُومُ[3]
وأُبَيٌّ ووافِدٌ أُطْلِقَا لي ... ثمَّ رُحْنا وقُفْلُهم مَحْطومُ[4]
ورهَنْتُ اليَدينِ عنهمُ جميعاً ... كلُّ كفٍّ فيها جُزٌّ مقسُومُ[5]
وسَطَتْ نِسْبَتِي الذوائِبَ منهُمْ ... كلُّ دارٍ فيها أبٌ لي عظيمُ[6]
رُبَّ حِلْمٍ أضاعَهُ عَدَمُ المَا ... لِ ، وجَهْلٍ غَطَّى عليهِ النعيمُ[7]
ما أُبالي أَنَبَّ بالحُزْنِ تَيْسٌ ... أمْ لَحاني بظَهْرِ غيبٍ لئيمُ[8]
تلكَ أفعالُنا وفِعلُ الزِّبَعْرى ... خامِلٌ في صَديقِهِ مَذْمومُ[9]
وَلِيَ النَّاسَ منكمُ إذ حضرتُمْ ... أُسْرَةٌ من بَني قُصيٍّ صميمُ[10]

(١) خالي: يريد به مسلمة بن مخلد بن الصامت ، وجابية الجولان: موضع بالشام.
(٢) الصقر: بمعنى السيد ، ابن سلمى هو النعمان بن المنذر اللخمي ، وأما قوله: يوم نعمان في الكبول ، فالمراد به نعمان بن مالك بن نوفل بن عوف بن عمرو بن عوف ، وكان قد حبسه النعمان بن المنذر ، فوفد فيه وفي غيره حسان بن ثابت فأُطلقوا لأجله.
(٣) سميحة: اسم بئر في المدينة تحاكمت عندها الأوس والخزرج في حروبهم إلى ثابت بن المنذر والد حسان.
(٤) أُبيّ: هو أبيُّ بن كعب بن قيس بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، ووافد هو وافد بن عمرو بن الاطنابة بن عامر بن زيد مناة بن مالك الأغرّ بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج ، يقول: إن هؤلاء جميعاً أطلقهم النعمان من أسارهم لأجلي.
(٥) رهنت اليدين عنهم: يعني ضمنتهم ، وجز: في الأصل جزء حذفت الهمزة ونقلت حركتها.
(٦) وسطت: بمعنى توسطت ، الذوائب يريد بها الأشراف ، يقال: فلان أوسط الناس نسباً ، بمعنى أشرفهم.
(٧) يقال: إن حسان صاح قبل النبوة وقال: يا بني قيلة ، يا بني قيلة ، فجاءه الأنصار يسرعون إليه ، فقال: قلت الساعة بيتاً خشيت أن أموت فيدعيه غيري. قالوا: هاته ، فأنشدهم هٰذا البيت.
(٨) نب: بمعنى صاح ، لحاني: بمعنى شتمني.
(٩) الزبعرى: يريد به عبد الله بن الزبعرى الذي كان يهاجيه.
(١٠) يريد أن ينوه ببني عبد الدار بن قصي إذ صبروا يوم أحد.

تسعةٌ تحملُ اللواءَ وطارَتْ ... في رَعَاعٍ منَ القَنَا مَخْزُومُ[1]
لم يُوَلُّوا حتَّى أُبِيدوا جميعاً ... في مقامٍ ، وكلُّهم مذمومُ[2]
بدَمِ عاتِكٍ وكانَ حِفَاظاً ... أنْ يُقيموا ، إنَّ الكريمَ كريمُ[3]
وأقامُوا حتَّى أُزِيروا شَعوباً ... والقَنَا في نُحورِهِمْ مَحْطُومُ[4]
وقُريشٌ تَلوذُ منَّا لِوَاذاً ... لم يُقيموا وخفَّ منها الحُلُومُ[5]
لم تُطِقْ حَمْلَهُ العَواتِقُ مِنْهُمْ ... إنَّما يَحْمِلُ اللواءَ النُّجُومُ[6]

يهجو عتبة بن أبي وقاص:

وفي غزوة أحد خلص العدو إلى رسول الله ﷺ فدثَّ بالحجارة حتى وقع ﷺ لشقه ، فأصيبت رباعيته وشُجَّ في وجهه ، وكُلمت شفته ، وكان الذي أصابه ﷺ هو عتبة بن أبي وقاص ، وفيه قال حسان بن ثابت الأبيات الآتية يهجوه:

إذا اللهُ جَازَى مَعْشَراً بفَعالِهِمْ ... ونَصْرِهم الرحمنَ ربَّ المشارقِ[7]
فأخْزَاكَ ربِّي يا عُتيبَ بنَ مالكٍ ... ولقَّاكَ قبلَ الموتِ إحدى الصَّواعقِ
بَسَطْتَ يَميناً للنَّبيِّ تَعَمُّداً ... فأدمَيْتَ فَاهُ ، قُطِّعَتْ بالبَوارقِ[8]
فهلاَّ خَشِيْتَ اللهَ والمَنْزِلَ الَّذي ... تصيرُ إليهِ بعدَ إحدى الصَّفائِقِ[9]

(١) الرعاع: الضعفاء ، يريد التشهير ببني مخزوم إذا انهزموا ، ومن القنا: يعني خوفاً من القنا.
(٢) لو يولوا: يعني لم يدبروا حتى أفنيناهم ، مذموم بالذال المعجمة: الذي يسيل دموعه من غير انقطاع ، يقال: بئر ذميمة أي غزيرة المياه ، وبالمهملة من الدم: يعني جريح مطلي بالدم.
(٣) العاتك: الأحمر ، يقال: أحمر عاتك ، شديد الحمرة . والمراد به الدم الأحمر القاني ، ويريد أن الحفاظ على العهد أن يقيموا عليه وذلك هو دأب الكريم.
(٤) أقاموا على القتال حتى أوردوا على موارد المنية ، وشعوب: اسم من أسماء الموت.
(٥) تلوذ: يعني تستتر.
(٦) المراد من النجوم هنا الأشراف المشهورون.
(٧) اختلفت الروايات في هذا البيت ففي ديوان حسان بشرح البرقوقي (إذ الله حيا مشعراً بفعالهم) وفي شرح ديوان حسان طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب (إذا الله أعطى معشراً بفعالهم).
(٨) قطعت بالبوارق: يعني قطعت يداك بالسيوف اللوامع ، دعاء عليه.
(٩) الصفائق: جمع الصفيقة ، صوارف الخطوب وحوادثها.

لقد كانَ خِزْياً في الحياةِ لِقومِهِ ... وفي البَعثِ بعدَ الموتِ إحدى العَوَالِقِ[1]

ويزاد البيت التالي في بعض النسخ:

فمَنْ عَاذِري من عَبْدِ عُذْرَةَ بعدَ ما ... هَوى في دَجُوَجِيٍّ منَ البَحْرِ خَافِقِ[2]

روى ابن هشام عن ابن إسحاق ، قال: كان أُبيُّ بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة ، فيقول: يا محمد! إن عندي العَوْذَ فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذُرةٍ أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ: بل أنا أقتلك ـ إن شاء الله ـ ، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير (وذلك عندما طعنه رسول الله ﷺ في أحد) فاحتقن الدم ، قال: قتلني والله محمد ، قالوا له: ذهب والله فؤادك ، والله إنْ بِكَ من بَأْسٍ ، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك ، فوالله لو بصق عليّ لقتلني ، فمات عدو الله بسَرِفٍ وهم قافلون إلى مكة ، فقال حسان بن ثابت في ذلك[3]:

لقد وَرِثَ الضَّلالةَ عن أبيهِ ... أُبَيٌّ يومَ بارزَهُ الرَّسولُ
أتَيْتَ إليه تحمِلُ رَمَّ عَظْمٍ[4] ... وتُوعِدُهُ وأنتَ به جَهُولُ
وقد قتلَتْ بَنُو النَّجَّارِ منكمْ ... أميَّةَ إذ يُغوِّثُ: يا عَقِيلُ
وتَبَّ ابنا ربيعةَ إذ أطاعا ... أبَا جَهلٍ لأُمِّهما الهُبُولُ[5]
وأفْلَتَ حارِثٌ لمَّا شُغِلْنَا ... بأسْرِ القومِ ، أُسرتُه فُلُولُ[6]

وقال في ذلك أيضاً:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي أُبَيّاً ... لقد أُلْقِيْتَ في سُحُقِ السَّعيرِ
تَمَنَّى بالضَّلالةِ من بعيدٍ ... وتُقْسِمُ أنْ قَدَرْتَ مع النُّذُورِ
تَمَنِّيكَ الأمانيِ من بَعِيْدٍ ... وقولُ الكُفرِ يَرجِعُ في غُرورِ

(١) العوالق: جمع العالقة ، ما علق من الشيء.
(٢) إشارة إلى أم أبي وقاص التي كانت من عذرة.
(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٨٩ ـ ٩٠.
(٤) العظم البالي.
(٥) يقال: هبلته أمه إذا فقدته.
(٦) أسرته: قبيلته.

فقد لاقَتْكَ طَعْنةُ ذي حِفاظٍ كريمِ البيتِ ليسَ بذِيْ فُجورِ[1]
له فَضْلٌ على الأحياءِ طُرّاً إذا نابَتْ مُلمَّاتُ الأمورِ[2]

وكانت هند بنت عتبة مع زميلاتها اللائي كن يمثِّلْنَ بقتلى المسلمين، حتى اتخذت من آذان الرجال وأنفِهم خَدَماً[3] وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطَتَها وحشياً غلامَ جبير بن مطعم، وبقرت عن كبد حمزة ـ رضي الله عنه ـ فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وأنشدت الأبيات التالية في تيه ونشوة انتصار:

نحنُ جَزَيْناكُمْ بيومِ بَدرٍ والحربُ بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْرِ[4]
ما كانَ عَنْ عُتْبَةَ لي مِنْ صَبْرٍ ولا أخِي وعَمُّهُ وبَكْري
شَفَيْتُ نَفْسي وقضيتُ نَذْري شفيْتَ وَحْشِيُّ غَلِيلَ صَدري
فَشُكْرُ وَحْشِيٍّ على عُمْري حتَّى تَرِمَّ أعظُمِي في قَبْرِي

وزادت على ذلك فقالت وهي تفتخر بما فعلت مع حمزة ـ رضي الله عنه ـ:

شَفَيْتُ من حمزةَ نَفْسي بأُحُدْ حتَّى بَقَرْتُ بطنَهُ عنِ الكَبِدْ
أذهَبَ عنِّي ذاكَ ما كنتُ أَجِدْ من لَذْعَةِ الحُزْنِ الشديدِ المعتَمِدِ[5]
والحربُ تَعْلُوكُم بِشُؤْبوبِ بَرِدْ تُقْدِمُ أقداماً عليكم كالأَسَدْ[6]

وروى ابن هشام أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لحسان بن ثابت: يا ابن الفريعة، لو سمعت ما تقول هند ورأيت أشَرَها قائمة على صخرة ترتجز بنا، وتذكرُ ما صنعت بحمزة قال له حسان: والله إني لأنظر

(١) ذي حفاظ: ذي غضب في الحروب.
(٢) نابت: بمعنى ألمت، وملمات الأمور، مهمات الحوادث.
(٣) الخدم: جمع خدمة وهي الخلخال.
(٤) السعر بضمتين، ولكنها سكنت للشعر، بمعنى الالتهاب.
(٥) اللذعة: ألم الحرقة بالنار، المعتمد: بكسر الميم، القاصد المؤلم.
(٦) الشؤبوب: دفعة المطر الشديدة، جمعها شآبيب.

إلى الحربة تهوي وأنا على رأس فارع ـ يعني أُطُمَة ـ فقلت: والله إن هذه لسلاح ما هي بسلاح العرب، وكأنها إنما تهوي إلى حمزة ولا أدري، لكن أسْمِعْني بعضَ قولِها أكفكموها، قال: فأنشد عمر بن الخطاب بعض ما قالت، فقال حسان بن ثابت في قصيدة رائية يبلغ عدد أبياتها اثني عشر بيتاً:

أشِرَتْ لكَاعٍ وكانَ عادتُها لُؤَماً إذا أشِرَت معَ الكُفرِ[1]
لَعَنَ الإلهُ وزوجَها معها هِنْدَ الهُنُودِ طويلةَ البَظْرِ[2]
أخرجْتِ مُرْقِصَةً إلى أُحُدٍ في القَومِ مُعْنَقَةً على بَكْرِ[3]
بَكْرٍ ثَقَالٍ لا حَراكَ بهِ لا عَنْ معاتبةٍ ولا زَجْرِ[4]
وَعَصَاكِ اسْتُكِ تَتَّقِيْنَ بها دَقَّ العُجَايةِ عارِيَ الفِهْرِ[5]
قَرِحَتْ عَجيزَتُها ومَشْرَجُها مِنْ نَصِّها نصاً على القِهْرِ[6]
ظَلَّتْ تُداويها زميلَتُها بالماءِ تَنْضَحُهُ وبالسِّدْرِ
أقبَلْتِ زائرَةً مُبادِرَةً بأبيكِ وابنِكِ يومَ ذِيْ بَدْرِ[7]
وبعَمِّكِ المَسْلُوبِ بِزَّتَهُ وأخيكِ مُنْعَفِرَيْنِ في الجَفْرِ[8]
ونَسيتِ فاحِشَةً أَتَيْتِ بها يا هندُ وَيْحَكِ سُبَّةَ الدهرِ[9]

(١) الأشر: البطر الشديد، لكاع: على وزن فعال بالبناء على الكسر، بمعنى اللئيمة.
(٢) هند الهنود هي هند بنت عتبة بن ربيعة، وزوجها أبو سفيان بن حرب، وقد أسلما عام الفتح.
(٣) مرقصة: من أرقص البعير إذا حثه على السير السريع، وكذلك أعنق، إذا أسرع أو جعله يسرع.
(٤) البكر الثفال: البعير البطيء الثقيل الذي لا يتحرك إلا كرهاً، يشير حسان إلى ثقل وزن هند حيث إنها أثقلت بعيرها وأعيته.
(٥) يعني أن الأست يقوم مقام عصاً لها، العجاية: عصب مركب فيه فصوص من عظام تكون عند رسغ الدابة، قالوا: وكان إذا جاع أحدهم دقها بين فهرين فأكلها، يشبه فعل الأست مع البكر بالعجاية إذا دقت بالحجر.
(٦) العجيزة: يريد بها الروادف، والمشرج: هو العصبة التي تكون بين السبيلين من المرأة، نصها: يعني تحريكها البعير لكي يسرع، يقول: إن عجزها ومشرجها يقرحان من جراء تحريكها البعير لاستخراج أقصى سيره.
(٧) وفي رواية: ثائرة بدلاً من زائرة، أبوها هو عتبة بن ربيعة وابنها هو حنظلة بن أبي سفيان كانا قد قتلا يوم بدر.
(٨) عمها شيبة بن ربيعة، وأخوها الوليد بن عتبة، البزة: هي السلاح، الجفر: البئر.
(٩) ولعل حسان يريد بالفاحشة ما قد فعلته يوم بدر بسيدنا حمزة ـ رضي الله عنه ـ.

فـرَجَعْـتِ صـاغِـرةً بـلا تِـرَةٍ ... ممَّـا ظَفِـرْتِ بـه ولا وَتْـرِ[1]
زَعَـمَ الـوَلائِـدُ أنَّهـا وَلَـدَتْ ... ولَـداً صغيـراً كـانَ مِـنْ عُهْـرِ[2]

شعره في الردِّ على هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

ومما قيل من الشعر يوم أحد قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي، الذي يدافع عن المشركين ويفتخر بما قد ظهر من الشجاعة والقوة منهم، وما لحق بالمسلمين من ضعف، وذلك في قصيدة ذات (٢٣) بيتاً، أولها:

مـا بـالُ هـمِّ عَمِيـدِ بـاتَ يَطـرُقُنِـي ... بـالـوُدِّ مِـنْ هِنْـدَ إذ تَغْـدو عَـوادِيْهـا

وسمع بها حسان بن ثابت فرد عليه بأبيات في نفس الرديف والقافية، يقول:

سُقْتُـمْ كِنـانـةَ جَهْـلاً مـن سَفَـاهَتِكُـم ... إلـى الـرَّسـولِ فجُنـدُ الله مُخْـزِيهـا
أوردْتُمُوها حِيَاضَ المَوْتِ ضَاحيةً ... فـالنَّـارُ مـوعِـدُهـا والقَتْـلُ لاقِيْهـا
جَمَّعْتُمُـوهـا أحـابِيْشـاً بِـلا حِسَـبٍ ... أئمَّـةَ الكُفـرِ غـرَّتْكُـمْ طَـواغِيْهـا[3]
ألاَّ اعتَبـرْتُـم بخَيـلِ الله إذ قَتلـتْ ... أهـلَ القَليـبِ ومَـنْ ألْقَينَـه فيهـا[4]
كـم مِـن أسيـرٍ فكَكْنَـاه بِـلا ثَمَـنٍ ... وجَـزِّ نـاصيـةٍ كُنَّـا مَـوالِيْهـا

شعره بعد غزوة أحد:

وأسفرت غزوة أحد عن هزيمة المشركين واستشهاد كثير من أصحاب رسول الله -ﷺ-، وعاد الناس إلى بيوتهم، واستقرت الأمور، وهنالك نزلت الآيات التي تبشر الشهداء وترفع منازلهم عند الله تعالى، وجلس النبي الكريم -ﷺ- بين أصحابه يبشرهم فيمن أصيب من إخوانهم في هذه الغزوة بالجنة والنعيم، وبرضا الله تعالى، وما مَنَّ به عليهم من نعم وسرور، وعلم المشركون في مكة وما والاها بهذه المبشرات والتكريمات فازدادوا غيظاً على غيظ ولم يصبروا على السكوت، وطلبوا من شعرائهم أن يردوا على ما يزعمه المسلمون ويبشر به رسولهم إيّاهم،

(١) الترة والوتر: بمعنى الظلم أو ما يشبه الانتقام.
(٢) العهر: الزنا والفجور، الولائد: جمع الوليدة: بمعنى الإماء، (ديوان حسان شرح البرقوقي، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤. طبع دار الكتاب العربي-بيروت).
(٣) أحابيش: يعني أخلاط الناس، طواغيها: جمع طاغية: بمعنى المتمرد المتكبر.
(٤) يشير إلى أهل القليب من قتلى المشركين في بدر، وألاّ بتشديد اللام، وفي رواية: هلاَّ بالتشديد.

بشعر قوي، يسيرُ ويغزو بلادهم، فتصدى لذلك شاعرهم الجليل عبد الله بن الزبعرى، وقال أولاً قصيدة شعرية ذكر فيها من أصيب في أحد من أصحاب النبي الكريم -ﷺ-، وهو يعير المسلمين ويعتز بقومه وشجاعتهم التي تظاهروا بها في هذه الغزوة، وبدأ قصيدته هذه بقوله:

يـا غُـرَابَ البَيْـنِ أَسمَعْـتَ فَقُـلْ ... إنَّمـا تنطِـقُ شَيئَـاً قَـد فُعِـلْ

وقال وهو يخاطب حسان ويعيره:

أبْلِغـا حسَّـانَ عنِّـي آيـةً ... فَقَـريـضُ الشِّعـرِ يَشْفـي ذا الغُلَـلْ
كَـمْ تَـرى بـالجـرِّ[1] مِـنْ جمجمـةٍ ... وأكُـفٍّ قـد أُتِـرَّتْ ورِجِـلْ

وقال:

لَيْـتَ أشْيَـاخـي ببَـدْرٍ شَهِـدوا ... جَـزَعَ الخَـزْرَجِ مِـنْ وقْـعِ الأَسَـلْ
قـد قَتَلْنـا القـومَ مِـنْ أشيـاخِهِـمْ ... وعَـدَلْنَـاهُ ببـدرٍ فـاعْتَـدَلْ

قصيدته اللامية في الرد على ابن الزبعرى:

فأجابه حسان بن ثابت بالقصيدة التالية، بيتاً ببيتٍ أقوى منه وكلاماً بكلام أحسن منه:

ذهبَـتْ بـابْـنِ الـزِّبَعْـرَى وَقْعـةٌ ... كـانَ منَّـا الفَضْـلُ فيهـا لَـوْ عَـدَلْ
ولقـد نِلْتُـمْ ونِلْنَـا منكُـمُ ... وكَـذاكَ الحَـرْبُ أحيـانـاً دُوَلْ[2]
نَضـعُ الأسيـافَ فـي أكتَـافِكُـمْ ... حيـثُ نَهْـوى عَلَـلاً بعـدَ نَهَـلْ[3]
نُخْـرِجُ الأضْيَـاحَ مـن أَسْتَـاهِكُـمْ ... كَسُـلاحِ النِّيـبِ يِـأكلْـنَ العَصَـلْ[4]

(١) الجر: أصل الجبل.
(٢) نلتم منا ونلنا منكم: يعني أصبنا منكم وأصبتم منا.
(٣) نضع الأسياف: يعني نستعمل السيوف فيكم، وعللاً بعد نهل: يعني تباعاً، مرة بعد أخرى، يريد الضرب بعد الضرب.
(٤) الأضياح: جمع ضيح، وهو اللبن الرقيق الممزوج بماء كثير، النيب: جمع ناب، الناقة المسنة، سُلاح بالضم، ماء الثمر، والمراد به لعاب الناقة المسنة التي تأكل نبات العصل، وهو نبات خاص تأكله الإبل.

إذ تُوَلُّونَ على أعقابِكُمْ ... هُرَّباً في الشِّعْبِ أَشْباهَ الرَّسَلْ(١)
إذ شَدَدْنَا شَدَّةً صَادِقَةً ... فأجأناكُمُ إلى سَفْحِ الجَبَلْ(٢)
بخَناطِيلَ كأَشْدَافِ المَلا ... مَنْ يُلاقُوهُ مِنَ النَّاسِ يُهَلْ(٣)
ضاقَ عنَّا الشِّعْبُ إذ نَجْزَعُهُ ... ومَلأْنَا الفُرْطَ منهُ والرَّجَلْ(٤)
برِجالٍ لستُمُ أمثالَهُمْ ... أيَّدوا جبريلَ نصراً فنَزَلْ(٥)
وعلَوْنا يومَ بدرٍ بالتُّقَى ... طاعةِ الله وتصديقِ الرُّسلْ
وقتَلْنَا كُلَّ رأسٍ منهُمُ ... وقتَلْنَا كلَّ جَحْجَاحٍ رِفَلْ(٦)
وتَرَكْنَا في قُريشٍ عَوْرَةً ... يومَ بدرٍ وأحاديثَ المَثَلْ(٧)
ورَسولُ الله حقاً شَاهِدٌ ... يومَ بدرٍ والتَّنَابِيلُ الهُبُلْ(٨)
في قُريشٍ من جُمُوعٍ جُمِّعُوا ... مِثلَ ما يُجْمَعُ في الخَصْبِ الهَمَلْ(٩)
نحنُ لا أمثالُكُم وُلْدُ اسْتِها ... نَحْضُرُ النَّاسَ إذا البأسُ نَزَلْ(١٠)

ولما علم ابن الزبعرى بمقتولي المشركين الذين قتلوا يوم أحد بكاهم في قصيدة يفتخر فيها بشجعان قومه وما أبلوا في هذا اليوم من بلاء ، وكان مطلع القصيدة ما قالها:

(١) يعني حينما كنتم تفرون على الأعقاب في شعب الجبل مثل الإبل المرسلة بعضها إثر بعض.
(٢) فأجأناكم: يعني ألجأناكم.
(٣) الخناطيل: الجماعات ، أشداف بمعنى الأشخاص: جمع شدف على غير ما جاء في كتب اللغة فإن جمعه شدوف ، ويروى: أمذاق: بمعنى أخلاط ، ويروى كجنان الملا: بمعنى الجن ، الملا: المتسع من الأرض ، يُهل على البناء على المفعول من هال يهول: يعني يفرغ.
(٤) نجزعه: بمعنى نقطعه ، الفرط بالضم والسكون: ما علا من الأرض أو سفح من الجبل ، جمعه أفراط ، الرجل بالفتح: جمع رجلة ، المطمئن من الأرض.
(٥) أيدوا جبريل: يعني أيدهم الله بجبريل.
(٦) الجحجاح: السيد ، جمعه جحاجحة ، الرفل: الذي يجر ثوبه خيلاء.
(٧) العورة: العيب ، والمثل هنا بمعنى العبرة.
(٨) التنابيل: القصار اللئام ، الهُبُل بضم الهاء والباء: بمعنى الثقال من كثرة اللحم والشحم.
(٩) الهمل: الإبل التي ترسل في المرعى الأخضر.
(١٠) ولد: جمع ولد: يعيرهم حسان بهذا الكلام: يعني نحن نحضر البأس إذا دُعينا إليه لا أمثالكم يا جبناء الأرض (السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

ألا ذَرَفَتْ من مقلَتَيْكَ دُمُوعُ ... وقَدْ بَانَ من حَبْلِ الشَّبابِ قُطُوعُ

فأجابه حسان بن ثابت بشعر قوي يفتخر فيه بالمقاتلين المسلمين وصمودهم أمام العدو ، ويعتز بوجود رسول الله ـ ﷺ ـ بين ظهرانيهم ، ويعيّر المشركين بسادتهم الذين قُتلوا في أحد ، وهم في النار ، ويستبشر بشهداء المسلمين وسيد الشهداء حمزة وهم في جنان الخلد ، يقول:

أَشَاقَكَ من أمِّ الوليدِ رُبُوعُ ... بَلاقِعُ ما مِنْ أَهلِهِنَّ جَميعُ(١)
عَفاهُنَّ صَيْفِيُّ الرِّياحِ ووَاكِفٌ ... مِنَ الدَّلو رَجَّافُ السحابِ هَمُوعُ(٢)
فلم يبقَ إلا موقدُ النَّارِ حولَهُ ... رَوَاكِدُ أمثالُ الحَمامِ كَنُوعُ(٣)
فدَعْ ذِكْرَ دارٍ بدَّدَتْ بينَ أهلِها ... نَوىً لمَتِينَاتِ الحبَالِ قَطُوعُ(٤)
وقُلْ إنْ يكُنْ يَوْمٌ بأُحْدٍ يَعُدُّه ... سَفيهٌ ، فإنَّ الحقَّ سوفَ يَشِيعُ
فقد صابَرَتْ فيه بَنو الأوْسِ كُلُّهُمْ ... وكانَ لَهُمْ ذِكْرٌ هُنَاكَ رفيعُ
وحامَى بَنو النجَّار فيه وصَابَروا ... وما كانَ منهُمْ في اللقاءِ جَزُوعُ
أمامَ رسولِ الله لا يَخْذلُونَه ... لهُمْ ناصرٌ مِنْ رَبِّهِم وشَفِيعُ
وَفَوا إِذْ كَفَرْتُمْ ياسَخِيْنُ بربِّكُمْ ... ولا يَسْتَوي عَبْدٌ وَفَى ومُضِيْعُ(٥)
بأيديهِمُ بِيْضٌ إذا حَمِشَ الوَغى ... فلا بُدَّ أن يَرْدى لهنَّ صَرِيعُ(٦)
كما غادرَتْ في النَّقْعِ عُتبةَ ثاوِياً ... وسَعْداً صِرِيْعاً ، والوشيجُ شَرُوعُ(٧)

(١) بلاقع: جمع بلقع: القفر الخالي ، صفة ربوع.
(٢) عفاهن: يعني درسهن ومحاهن ، واكف: المطر الغزير ، الدلو: يعني به برجًا من السماء يسبب الأمطار ، رجّاف مبالغة من الرجفة: يعني متحركًا ذا صوت ، همع: صيغة المبالغة أي السيّال.
(٣) رواكد: يريد بها الأثافي ، كنوع: صفة للرواكد: بمعنى لاصقة بالأرض.
(٤) بددت بين أهلها: بمعنى فرقتهم ، النوى: البعد والفراق ، قطوع: على وزن المبالغة صفة للنوى.
(٥) ياسخين: مرخم من سخينة ، وكانت لقب قريش في الجاهلية ، وفَى: ماض من الوفاء ، وفي رواية: عبد عَصَى ، ولكن الصواب هو: عبد وفَى.
(٦) حمش الوغى: إذا اشتدت الحرب ، يردى: بمعنى يهلك.
(٧) النقع: الغبار ، عتبة ، يريد به عثمان بن أبي طلحة ، الوشيج: الرماح ، شروع: المائلة إلى الطعن.

وقد غادَرَتْ تحت العَجَاجَةِ مُسْنداً ... أُبَيّاً وقد بَلَّ القميصَ نَجِيْعُ[1]
بكَفِّ رسولِ الله حيثُ تَنَصَّبَتْ ... على القَومِ مِمَّا قد يُثِرْنَ نُقُوعُ

وفي رواية:

بكَفِّ رسولِ الله حتَّى تلفَّفَتْ ... على القَومِ ممَّا قد يُثِرنَ نُقوعُ[2]
أولئكَ قومٌ سادةٌ من فروعِكُمْ ... وفي كلِّ قَومٍ سادةٌ وفُروعُ
بهنَّ يُعِزُّ الله حينَ يُعِزُّنَا ... وإن كانَ أمرٌ ياسَخِيْنُ فَظِيْعُ
فلا تَذْكروا قَتْلى وحَمْزَةُ فيهمُ ... قتيلٌ ثَوَى الله وهوَ مُطِيْعُ
فإنَّ جِنانَ الخُلْدِ منزلةٌ لَهُ ... وأَمْرُ الذي يَقْضي الأمورَ سريعُ
وقَتْلاكُمُ في النَّارِ أفضَلُ رِزْقِهِمْ ... حَمِيْمٌ مَعاً في جَوْفِهَا وضَرِيْعُ[3]

يحث ابن الزبعرى على الإسلام:

ولما أكرم الله تعالى نبيه ـ ﷺ ـ بفتح مكة ودخلها ـ ﷺ ـ هرب هبيرة بن أبي وهب المخزومي وعبد الله بن الزبعرى السهمي إلى نجران، ثم بدا لابن الزبعرى أن يسلم وذكر ذلك لهبيرة بن أبي وهب فقال له: «لو علمت أنك تفعل ما حميتك» ومات هبيرة كافراً في نجران وجاء ابن الزبعرى إلى النبي الكريم ـ ﷺ ـ فاعتذر وقال:

يا رسولَ المَلِيْكِ إنَّ لسَانيْ ... رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أَنَا بُورُ
إذْ أُبَارِي الشيطانَ في سَنَنِ الغيْـ ... ـيِ، ومَنْ مَالَ ميلَهُ مَثْبُورُ

فقال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

لا تَعْدَمَنْ رَجلاً أحلَّكَ بُغْضُهُ ... نَجْرانَ في عَيْشٍ أَحَذَّ لئيمِ
بُلِيَتْ قَناتُكَ في الحروبِ فأُلْفِيَتْ ... خَمَّانَةً جَوْفاءَ ذاتَ وصُومِ[4]
غضَبُ الإلهِ على الزُّبَعْرى وابنِهِ ... وعذابُ سُوءٍ في الحياةِ مُقِيْمُ

(١) أُبيّا هو: أبيّ بن خلف الجمحي.
(٢) يعني أن قتل أبي بن خلف كان بكف رسول الله ـ ﷺ ـ، النقوع: جمع النقع، الغبار.
(٣) الحميم: الماء الحار، والضريع طعام أهل النار، وقيل: الضريع نبت بالحجاز له شوك كبار يقال له: الشبرق (السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠ ـ ١٥١).
(٤) خمانة: رخوة رديئة، الوصوم: العيوب.

فلما سمع ذلك ابن الزبعرى رجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلم وقال أبياتاً من شعره يعتذر فيها على ما مضى من حاله ويطلب العفو والغفران منه، ويرجو أن يقبل إسلامه ويُحسن إليه، كما قد مدح فيها النبي الكريم ـ ﷺ ـ، وهذا مطلعها:

منَعَ الرُّقَادَ بَلابلٌ وهُمُومُ ... والليلُ مُعْتَلِجُ الرُّواقِ بَهِيْمُ[1]

شعره بعد استشهاد حمزة ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

وقال حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ يبكي حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ـ ﷺ ـ الذي استشهد يوم أحد، ولُقِّب بسيد الشهداء، ومن استشهد معه من أصحابه ـ ﷺ ـ:

يا مَيُّ قُومِي فانْدُبِنْ ... بِسُحَيْرَةٍ شَجْوَ النَّوائِحْ[2]
كالحَاملاتِ الوَقْرَ بالـ ... ـثِقْلِ المُلِحَّاتِ الدَّوالِحْ[3]
المُعْوِلاتِ الخَامِشا ... تِ وجوهَ حُرَّاتٍ صَحَائِحْ[4]
وكأنَّ سَيْلَ دُموعِها الأ ... نصابُ تُخْضَبُ بالذَّبَائِحْ[5]
يَنْقُضْنَ أشْعَاراً لهُذْ ... نَ هُنَاكَ بادِيَةُ المَسائِحْ[6]
وكأنَّها أذْنَابُ خَيْـ ... ـلٍ بالضُّحى شُمْسٍ رَوَامِحْ[7]
مِنْ بَيْنِ مَشْزُورٍ ومَجْـ ... ـزورٍ يُذَعْذَعُ بالبَوارِحْ[8]

(١) ولعله قد مرت الإشارة إلى هذه الأبيات حيث تحدثنا عن إسلام ابن الزبعرى.
(٢) النوائح: جمع نائحة، النسوة اللاتي يقمن بالنياحة على الميت، يامَيّ: منادى مرخم.
(٣) الوقر: الحمل الثقيل، السحاب المثقل بالماء، الدوالح: جمع الدالح، السحابة الكثيرة الماء، الملحات: الثابتات التي لا تبرح.
(٤) المعولات: الباكيات بصوت، الخامشات: الخادشات للوجوه والخدود.
(٥) الأنصاب: حجارة كانوا يذبحون لها ويطلونها بالدم، يشبه كثرة الدموع بالدماء الغزيرة التي تخضب بها الأنصاب.
(٦) المسائح: جمع مسيحة، ذوائب الشَّعر.
(٧) شمس بالضم: جمع شموس: بمعنى النوافر، روامح: جمع رامحة التي ترمح بأرجلها: يعني تدفع عنها.
(٨) مشزور: بمعنى مفتول، ولكن الصواب مشرور بالراء المهملة، يذعذع: يفرق، ذعذع: بمعنى بدّد وفرق، البوارح: جمع بارح: بمعنى الريح الحارة.

يَبْكِيْنَ شَجْوَ مُسَلَّبَا . . . . . . تٍ كَدَّحَتْهُنَّ الكَوادِحْ[1]

ولقَدْ أصابَ قُلوبَهَا مَجَلٌ لَه جُلَبٌ قَوارِحْ[2]

إذ أَقْصَدَ الحَدَثَانِ مَنْ كُنَّا نُرَجِّي إذ نُشَائِحْ[3]

أصْحَابُ أُحْدٍ عالَهُمْ دَهْرٌ أَلَمَّ لَهُ جَوَارِحْ[4]

مَنْ كَانَ فَارِسَنَا وحَا مِينا إذا بُعِثَ المَسالِحْ[5]

يا حَمْزُ ، لا واللهِ لا أنساكَ ما صُرَّ اللقائِحْ[6]

لِمُناخِ أيتامٍ وأضيافٍ وأرمَلَةٍ تُلامِحْ[7]

وَلِمَا يَنُوبُ الدَّهرُ في حربٍ لحربٍ وهْيَ لاقِحْ[8]

يا فَارِساً يا مِدْرَهاً يا حَمْزُ قَدْ كنتَ المُصَامِحْ[9]

عَنَّا شَدِيدَاتِ الخطو بِ إذا يَنُوبُ لَهُنَّ فادِحْ

ذَكَّرْتَنِي أَسَدَ الرَّسُو لِ وذاكَ مِدْرَهَنا المُنَافِحْ

عَنَّا وكانَ يَعُدُّ إذ عُدَّ الشَّرِيفُونَ الجَحاجِحْ

يَعْلُو القَماقِمَ جَهْرَةً سَبْطَ اليَدينِ أَغَرَّ واضِحْ

لا طائِشٌ رَعِشٌ ولا ذو عِلَّةٍ بالحَمْلِ آنِحْ[10]

---

(١) مسلبات: النسوة اللائي يلبسن السِّلاب بكسر السين وهي ثياب المآتم السود ، الكوادح: نوائب الدهر.

(٢) مجل: الجرح الذي يحمل ماء ، جلب بالضم: جمع جلبة القشرة التي تعلو الجرح عند البرء ، قوارح: بمعنى موجعة.

(٣) أقصد: بمعنى أصاب ، الحدثان: حوادث الدهر ، نشايح: بمعنى نقاتل.

(٤) غالهم: أهلكهم ، ألم: بمعنى نزل ، جوارح: جمع جارحة ما يجرح من المصائب والحوادث.

(٥) المسالح من السلاح ، القوم الذين يحملون السلاح.

(٦) ما صر: ما مصدرية ظرفية ، وصرت الناقة إذا شد ضرعها بالصرار ، اللقائح: جمع اللقحة: الناقة التي لها لبن.

(٧) المناخ: المنزل ، تلامح: بمعنى تنظر بلمحة عينها.

(٨) اللاقح من الحروب ما يتزيد شرها.

(٩) المدره: المدافع عن قومه بلسانه ويده ، المصامح ، الشديد الدفاع.

(١٠) الطائش: الخفيف الذي ليس له وقار ، الآنح: البعير الذي إذا حمل الثقل أخرج من صدره صوت المعتصر.

بَحْرٌ فليسَ يُغِبُّ جا راً منهُ سَيْبٌ أو مُنادِحْ[1]

يمدح الشباب المؤمنين:

وبعد ما مدح سيِّد الشهداء بما كان يتميز به من صفات الرجولة والشجاعة والجود والجمال والعزة والكمال ، التفتَ إلى الحديث عن أولئك الشباب المؤمنين الذين كان يحملون من صفات الكرم والمروءة والقوة والإباء والمنح والعطاء ما يندر نظيره في غيرهم من شباب الأقوام ، يقول:

أَوْدَى شَبابُ الحَفَا ئِظِ والثَّقيلونَ المَراجِحْ[2]

المُطْعِمُونَ ، إذا المشَا تِي ، ما يُصَفِّقُهُنَّ ناضِحْ[3]

لَحْمَ الجِلادِ وفَوْقَهُ من شَحْمِهِ شُطَبٌ شرائِحْ[4]

لِيُدافِعُوا عَنْ جَارِهِمْ ما رامَ ذُو الضِّغْنِ المُكَاشِحْ

لَهْفي لشُبَّانٍ رُزِئْنا هُم كأنَّهُمُ المُصَابِحْ

شُمٌّ ، بَطارِقَةٌ ، غَطا . . . . . . رِفَةٌ ، خَضارِمَةٌ ، مَسامِحْ[5]

المُشْتَرُونَ الحَمْدَ بالأمـ ـوالِ ، إنَّ الحَمْدَ رابِحْ

والجَامِزُونَ بلُجْمِهِمْ يَوْماً إذا ما صَاحَ صَائِحْ[6]

مَنْ كانَ يُرْمَى بالنَّوا قِرِ مِنْ زَمانٍ غَبْرِ صَالِحْ[7]

ما إنْ تَزَالُ رِكابُهُ يَرْسِمْنَ في غُبْرٍ صَحَاصِحْ[8]

---

(١) السيب: بالفتح العطاءُ ، المنادح: جمع مندحة: بمعنى السعة.

(٢) أودى: هلك ، الحفائظ: جمع الحفيظة وهي الغضب ، المراجح: يعني ذوي عقول راجحة.

(٣) المشاتي: جمع مشتى: بمعنى الشتاء ، ويريد به أيام المجاعة ، يعني إذا كانت أيام الشتاء التي لا تترك في ضروع النوق ما يحلبه العطشان من لبن.

(٤) الجلاد: النوق التي تكون ذات لبن غزير ، شطب: الطرائق ، شرائح: جمع شريحة ، قطعة اللحم الممتدة العريضة.

(٥) شُم: جمع أشم ذوي عزة ، بطارقة: بمعنى الرؤساء وغطارفة: بمعنى السادة ، حضارمة: بمعنى كثيرو العطايا ، المسامح: الأجواد الأسخياء.

(٦) الجامزون: الواثبون ، بلجمهم: جمع لجام ، وسكنت الجيم للضرورة.

(٧) النواقر: غوائل الدهر ، ويروى: بالبواقر ، وهي بمعنى الدواهي.

(٨) يرسمن: يعني يسرن ، غبر صحاصح: جمع صحصح: بمعنى الأرض المستوية الملساء.

راحَتْ تَبَارَى وَهْوَ في ... رَكْبٍ صُدُورُهُمْ رَواشِحْ[1]
حَتَّى تَؤُوبَ لهُ المَعَا... ... لي لَيْسَ من فَوْزِ السَّفائحْ[2]

ثم يخاطب حمزة ـ رضي الله عنه ـ ويشكو وحدته بعد ذهابه من هذه الدنيا ، ويشبه نفسه كعود الشجرة الذي أزيلت منه أغصانه وأشواكه ، يقول: ثم يشير إلى الشهداء ويمدحهم بالسماحة والشجاعة والكرم ، يقول:

يا حَمْزُ قَدْ أوحَدْتَنِي ... كالعُودِ شَذَّ بِهِ الكَوافِحْ[3]
أَشْكُوْ إليكَ وفوقَكَ التْـ ... ـتِرْبُ المُكَوَّرُ والصَّفائِحْ
مِنْ جَنْدَلٍ نُلْقِيهِ فَوْ ... قَكَ إذ أجادَ الضَّرْحَ ضَارِحْ[4]
في واسعٍ يَحْشُونَهُ ... بالتُّرْبِ سَوَّتْهُ المَماسِحْ[5]
فعَزاؤُنا أنَّا نَقُو... ... لُ وقولُنا بَرْحٌ بَوَارِحْ[6]
مَنْ كَانَ أَمْسَى وهْوَ عَمَّا ... أَوْقَعَ الحَدثَانِ جانِحْ[7]
فلْيَأْتِنَا فلتَبْكِ عَيْـ ... ـناهُ لِهَلْكَانَا النَّوافِحْ[8]
القَائِلِينَ الفَاعِلِينَ ... ذَوِي السَّماحَةِ والمَمَادِحْ
مَنْ لا يَزالُ نَدى يَدَيْـ ... ـهِ لَهُ طَوَالَ الدَّهْرِ مائِحْ[9]

(١) يعني كانت صدورهم ترشح بالعرق.
(٢) تؤوب: يعني ترجع ، السفائح: جمع سفيح وهو من قداح الميسر ، يعني أن نجاحهم لم يكن كنجاح المقامر.
(٣) شذبه: أزال أغصانه وأشواكه ، الكوافح: الذين يتناولون الشجر بالقطع.
(٤) الضرح: الشق ، ويريد به القبر.
(٥) في واسع: يعني به قبراً واسعًا ، المماسح: الآلة التي يسوى بها التراب.
(٦) برح: شاق شديد.
(٧) الحدثان: الحادث ، الجانح: المائل إلى جهة.
(٨) النوافح: الأسخياء الأجواد الذين كانوا ينفحون بالمعروف.
(٩) المائح: الذي ينزل في البئر فيملأ الدلو إذا كان ماء البئر قليلاً (علق ابن هشام في سيرته على هذه القصيدة ، فقال: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان) وهي لا توجد في ديوان حسان كذلك ، ـ والله أعلم ـ.

قصيدة أخرى في رثاء سيِّد الشُّهداء:

ولحسان قصيدة أخرى لامية في رثاء سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله تعالى عنه ـ يقول:

هَلْ تعرفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمَها ... بعدَكَ صَوْبُ المُسْبِلِ الهاطِلِ[1]
بينَ السَّرادِيْحِ فأُدْمَانَةٍ ... فَمَدْفَعِ الرَّوْحَاءِ في حائِلِ[2]
سألْتُها عن ذاكَ فاسْتَعْجَمَتْ ... لم تَدْرِ ما مَرْجُوعَةُ السَّائِلِ[3]
دعْ عنكَ داراً عَفَا رَسمُها ... وابْكِ على حَمْزةَ ذي النَّائِلِ[4]
المَالِئ الشَّيْزَى إذا أعْصَفَتْ ... غَبْرَاءُ في ذِي الشَّبَمِ المَاحِلِ[5]
التَّاركُ القِرْنَ لَدَى لِبْدِهِ ... يَعْثُرُ في ذي الخُرُصِ الذَّابِلِ[6]
واللابِسِ الخَيْلَ إذا أحْجَمَتْ ... كالليثِ في غابَاتِهِ الباسِلِ[7]
أَبْيَضَ في الذُّروةِ من هاشمٍ ... لم يَمْرِ دونَ الحقِّ بالباطِلِ[8]

(١) عفا رسمها: يعني محا أثرها ، الصوب: المطر ، المسبل: المطر السائل ، الهاطل: كثير السيلان ، وفاعل عفا هو صوب المسبل الهاطل.
(٢) السراديح: جمع سرداح وهو الوادي أو المكان المتسع ، وأدمانة: موضع ، والمدفع: حيث يندفع السيل ، والرجاء موضع ، وحائل جبل.
(٣) استعجمت: لم تردّ جوابًا ، ومرجوعة السائل: يعني به الجواب ، أي جواب السؤال.
(٤) النائل: العطاء.
(٥) الشيزي: جفان من خشب يقدم فيها الطعام للأضياف ، وأعصفت الريح: اشتد هبوبها ، والغبراء: التي تثير الغبار ، والشبم: الماء البارد بكسر الباء وفتحها على الاسم والمصدر ، وقيل لابنة الخس: ما أطيب الأشياء؟ قالت: لحم جزور سنمة ، في غداة شبمة ، بشفار خذمة ، في قدور هزمة ، أرادت في غداة باردة ، والشفار الخذمة: القاطعة ، والقدور الهزمة: السريعة الغليان ، والماحل: من المحل وهو القحط.
(٦) القرن: الذي يقاوم في القتال واللبد هنا: لبد السرج ، وذو الخرص الرمح ، والخُرص: السنان جمعه خُرصان ، والذابل: الرقيق الشديد.
(٧) أحجمت: تأخرت هيبة ، والليث: الأسد ، والغابة موضع الأسد وهي الشجر الملتف ، والباسل الشديد الكريه ، يقول: إنه يغشى الخيل وفرسانها حين نكوصها على أعقابها كأنه الليث الباسل في غاباته.
(٨) أبيض: يريد بياض عرضه ونقاءه ، وفي الذروة من بني هاشم ، أي: في المنزلة الرفيعة منها ، وقوله: يمر ، هو من المراء أي: لا يدفع حقاً بباطل ، تقول: مراه حقه ، أي: جحده يمريه قال: =

مَـا لشَهيـدٍ بيـن أَرْحَـامِكُـمْ شَلَّـتْ يـدا وَحْشِـيٍّ مِـنْ قَـاتِـلِ[1]
إنَّ امْـــرَءاً فـــي أَلَّـــةٍ مَطْـرورَةٍ مَـارِنَـةِ العَـامِـلِ[2]
أظْلَمَـــتِ الأرضُ لِفُقْـــدَانِـــهِ واسْـوَدَّ نـورُ القَمـرِ النَّـاصِـلِ[3]
صلَّـى عليـكَ اللهُ فـي جنَّـةٍ عـالِيَـةٍ مُكـرَمَـةِ الـدَّاخـلِ
كنَّـا نَـرى حَمْـزةَ حِـرْزاً لنـا مـن كـلِّ أمـرٍ نَـابَنَـا نـازِلِ
وكـانَ فـي الإسـلامِ ذا تُـدْرَءٍ لـم يَـكُ بـالـوَانِـيْ ولا الخَـاذلِ[4]
لا تَفْـرحِـي يـا هِنْـدُ واستَجْلِبـيْ دَمْعَـاً وأَذْرِيْ عَبْـرَةَ الثَّـاكِـلِ[5]
وابْكِـي علـى عُتْبَـةَ إذ قَطَّـهُ بـالسَّيفِ تحتَ الرَّهَجِ الحَائلِ[6]
إذ خَـرَّ فـي مَشْيَخَـةٍ منكُـمُ مـن كـلِّ عـاتٍ قَلْبُـهُ جَـاهِـلِ[7]
أرادَهـمُ حمـزةُ فـي أُسْـرَةٍ يمشـونَ تَحْـتَ الحَلَـقِ الفَـاضِـلِ[8]

= أكـلَّ عشـاء مـن أميمـة طـائـف كـذي الـديـن لا يمـرى وهـو عـارف
«أي: لا يجحد ولا يعترف».

(١) وحشي: هو قاتل سيدنا حمزة، وحذف التنوين من وحشي للضرورة، وشلت يداه أي قطعت، يدعو عليه، وشلت بفتح الشين هي اللغة الفصيحة أما شلت بالضم فلغة رديئة.

(٢) الألّة: الحربة العظيمة النصل سميت بذلك لبريقها ولمعانها، وفرق بعضهم بين الألّة والحربة، فقال: الألّة كلها حديدة والحربة بعضها خشب وبعضها حديد، والمطرورة: المحدودة، وعامل الرمح صدره، والمارن اللين المهز، وخبر إن جملة: أظلمت الأرض... إلخ.

(٣) الناصل الخارج من السحاب يقال: نصل القمر من السحاب إذا خرج منه.

(٤) قوله ذا تدرء: أي ذا قوة على دفع أعدائه عن نفسه، وهو اسم موضوع للدفع والتاء زائدة كما زيدت في ترتب وتنصب وتنقل، قال ابن الأثير: قولهم: ذو تدرء أي ذو هجوم لا يتوقى ولا يهاب، ففيه قوة على أعدائه.

(٥) هند: هي هند بنت عتبة بن ربيعة قتل أبوها وأخوها يوم بدر، قتله حمزة وعلي - رضي الله عنهما - كما تقدم، والعبرة الدمعة، والثاكل: الفاقد.

(٦) وقطه: قطعه: والرهج: الغبار، والحائل: المتحرك ذاهبًا راجعًا، وفي رواية: الجائل، بالجيم.

(٧) خرَّ: سقط، والعاتي: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد: الذي لا يقبل موعظة، وقوله: في مشيخة، يريد من قتل يوم بدر من علية قريش عدا عتبة.

(٨) والأسرة: عشيرة الرجل ورهطه الأدنَون لأنه يقوى بهم، والحلق: الدروع والمراد هنا السلاح كله، والفاضل: الذي يفضل ويطول عن القامة حتى ينجر على الأرض.

غَـدَاةَ جِبْـرِيْـلُ وَزِيْـرٌ لَـهُ نِعْـمَ وَزيـرُ الفـارسِ الحَـامـلِ[1][2]

يوم الرجيع بعد غزوة أحد:

وفي سنة ثلاثٍ من الهجرة قَدِمَ على رسول الله - ﷺ - رهط من عَضَل والقارة، وهم من الهون بن خزيمة بن مدركة، وطلبوا من رسول الله - ﷺ - جماعة من أصحابه القراء يبعثهم إليهم ليُقرئوهم القرآن الكريم ويعلّموهم شرائع الإسلام ويفقّهوهم في الدين، واستجابة لطلبهم هذا بعث - ﷺ - معهم نفراً من أصحابه وهم عشرة، ستة من المهاجرين وأربعة من الأنصار، وكان من بين هؤلاء خبيب بن عدي، حتى إذا كانوا على الرجيع - ماء هذيل - بناحية الحجاز بين عسفان ومكة، غدروا بهم وقاتلوهم، فمنهم من قاتل حتى قتل، ومنهم من لانوا ورغبوا في الحياة فأسروهم وباعوهم، وكان خبيب بن عدي منهم.

قصة حبس خبيب بن عدي:

وقد ابتاعه حجير بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه[3]، فأخذوه وحبسوه في بيت ماوية مولاة حجير بن أبي إهاب، وكانت قد أسلمت وقد تحدثت عن قصة حبسه فقالت:

«كان خبيب عندي، حُبِس في بيتي، فقد اطَّلعت عليه يوماً، وإن في يده لقِطْفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عِنَبَاً يؤكل، قال لي حين حضره القتل: ابعثي إليَّ بحديدة أتطهر بها للقتل، قالت: فأعطيت غلاماً من الحي الموسى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت، قالت: فو الله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت؟ أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال: لعمرك، ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ، ثم خلّى سبيله»[4].

---

(١) الحَامل: الذي يحمل الكَلَّ عن الناس.

(٢) شرح ديوان حسان بن ثابت للبرقوقي، ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٣) اقرأ القصة بطولها في السيرة النبوية لابن هشام: ج/ ٣ (يوم الرجيع) وفي كتب التاريخ والسنة.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ١٨١ - ١٨٢.

كيف صلبوه وقتلوه:

لما خرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تَدَعُوني حتى أَركعَ ركعتين فافعلوا ، قالوا: دونك فاركع ، فركع ركعتين أتمّهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة ، فكان خبيب بن عدي أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال: اللهم ، إنا قد بلّغنا رسالة رسولك فبلّغه ما يُصنع بنا ، ثم قال: اللهم ، أحصهم عدداً واقتلهم بدداً[1] ولا تغادر منهم أحداً «ثم قتلوه ـ رحمه الله تعالى ـ».

شعره الذي قال في هذه المناسبة:

ولما تأكد أن القوم قد أجمعوا على صلبه واجتمعوا لهذا الغرض ، قال الأبيات التالية:

لقَدْ جَمَّعَ الأحزابُ حَوْلي وأَلَبّوا ... قبائلَهُمْ واستَجْمَعوا كلَّ مَجْمَعِ[2]
وكلُّهُمُ مُبْدِي العَداوةِ جاهِدٌ ... عليَّ لأنّي في وَثاقٍ مُضَيَّعِ[3]
وقد جمَّعُوا أبناءَهُمْ ونساءَهُمْ ... وقُرِّبْتُ من جِذعٍ طويلٍ مُمَنَّعِ[4]
إلى الله أشْكُو غُربَتي ثمَّ كُربَتي ... وما أَرْصَدَ الأحزابُ لِيْ عندَ مَصْرَعي[5]
فذُوْ العرشِ صبَّرَني على ما يُرادُ بي ... فقد بَضَّعُوا لَحْمِي وقد ياسَ مطمَعي[6]
وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ ... يُبارِكْ على أوصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[7]

(١) بدداً: بالفتح مصدر بدد: بمعنى فرق ، وبالكسر: جمع بدة (بكسر الباء): بمعنى النصيب: يعني اقتلهم إرباً إرباً.
(٢) يريد بالأحزاب جماعة القاتلين ، ألبوا قبائلهم: يعني جمعوها عليه ، استجمعوا: طلبوا الاجتماع من كل مجمع.
(٣) جاهد على: يعني مجتهد في إيذائي ، الوثاق: ما يربط به الأسير عند أسره.
(٤) جذع النخلة: ساقها ، ممنع: بمعنى المحكم المتين.
(٥) أرصد: أعد وهيّأ ، مصرع: مصدر ميمي ، يعني عند قتلي.
(٦) بضّعوا: بمعنى قطّعوا ، ياس: بمعنى يئس ، مطمعي: يعني طمعي.
(٧) أوصال: بمعنى المفاصل أو مجتمع العظام ، والمراد بها أعضاء الجسم ، الممزع: المقطع.

وقد خيَّرُوني الكُفْرَ والمَوْتُ دونَه ... وقد هَمَلَتْ عيناىَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ[1]
وما بي حَذارُ المَوْتِ إنِّي لَمَيِّتٌ ... ولكن حَذَارِي حِجمُ نارٍ ملفَّعِ[2]
فَوَ اللهِ ما أرْجُو إذا مِتُّ مسلماً ... على أيِّ جَنْبٍ كانَ في الله مَصْرعي[3]
فلسْتُ بِمُبْدٍ للعَدُوِّ تَخشُّعاً ... ولا جَزَعاً ، إنِّي إلى الله مَرْجِعي

ثم صلبه أعداء الله تعالى ، ولم يلينوا ولم يرقوا شيئاً ، إنما كانوا في غاية من القسوة حينما صلبوه ، ـ رحمه الله تعالى ـ وقد رثاه حسان بن ثابت في أبيات تالية بشّره فيها برضا الله وجنة الخلد ، وساءل الأعداءَ في أسف بلغ إلى مداه عما إذا سألهم النبي الكريم ـ ﷺ ـ فيمَ قتلوه وصلبوه؟ يقول:

ما بالُ عينِكَ لا تَرْقا مَدامِعُهَا ... سَحّاً على الصَّدرِ مثلَ اللؤلؤِ القَلِقِ[4]
على خُبيبٍ فَتى الفِتْيانِ قد عَلِموا ... لا فَشِلٍ حينَ تَلْقاهُ ولا نَزِقِ[5]
فاذهبْ خُبيبُ جَزاكَ الله طيِّبَةً ... وجنَّةَ الخُلدِ عندَ الحُورِ في الرُّفَقِ[6]
ماذا تَقُولونَ إن قالَ النبيُّ لكُمْ ... حينَ الملائكةُ الأبرارُ في الأُفُقِ
فِيمَ قَتلتُمْ شهيدَ الله في رَجُلٍ ... طَاغٍ ، قد أَدعثَ في البلدانِ والرُّفُقِ[7]
أَبا إهابٍ فَبيِّنْ لي حَدِيثَكُمُ ... أينَ الغَزَالُ مُحلَّى الدُّرِّ والوَرِقِ[8]
لا تَذكُرَنَّ إذا ما كُنْتَ مفتخِراً ... أبا كُثَيْبَةَ قد أسْرَفْتَ في الحُمُقِ
ولا عَزِيزًا فإنَّ الغَدْرَ مَنْقَصَةٌ ... إنَّ عَزيزاً دقيقُ النَّفْسِ والخُلُقِ[9]

(١) مجزع: مصدر ميمي.
(٢) الحجم: الملتهب المتقد ، الملفع المشتمل ، يقال: تلفع بثوبه إذا اشتمل به.
(٣) ويروى صدر البيت: «ولست أبالي حين أقتل مسلماً».
(٤) رقأ الدمع يرقأ ، إذا انقطع ، وسح: بمعنى صبّ ، القلق: المضطرب المتحرك الساقط.
(٥) الفشل بكسر الشين: الضعيف ، الجبان ، النزق: بكسر الزاي: السيىء الخلق.
(٦) الحور: جمع حوراء: المرأة التي اشتد سواد عينها واشتد بياض بياضها ، الرفق بضم الراء وفتح الفاء: جمع رفقة ، والرفْقة ، بسكون الفاء وراؤها مثلثة: اسم للجماعة الذين ترافقهم ويرافقونك.
(٧) أدعث الرجل: اشتد فساده ، الرفق: جمع رفقة ، ويروي: والطرق ، كما في الديوان.
(٨) أبو إهاب: هو الذي اشترى خبيباً لابن أخته عقبة بن الحارث ليقتله بأبيه ، وكان أبو إهاب ممن سرقوا غزال الكعبة ، وقد تحدث عن ذلك حسان بن ثابت في قصيدة له.
(٩) شرح ديوان حسان للبرقوقي ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

وهنا أبيات أخرى يبكي فيها خبيب بن عدي الأنصاري ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

يا عينُ جُودِي بدَمعٍ منكِ مُنسكبِ ... وابكي خُبَيْباً معَ الفِتيانِ لَمْ يَؤُبِ[1]
صَقْراً توسَّطَ في الأنصارِ مَنْصِبُهُ ... سَمْحَ السَّجيَّةِ مَحْضًا غيرَ مؤتَشِبِ[2]
قد هاجَ عَيني على عِلاَّت عَبْرَتِها ... إذ قيلَ: نُصَّ على جَذْعٍ من الخَشبِ[3]
يا أيُّها الرَّاكبُ الغَادِي لِطَيَّتِهِ ... أبلِغْ لدَيكَ وَعِيداً ليسَ بالكَذِبِ[4]
بَنِيْ كُهَيْنَةَ، إنَّ الحربَ قد لَقَحَتْ ... مَحْلُوبُها الصَّابُ إذ تُمْرَى لمُحْتَلِبِ[5]
فيها أُسُودُ بني النجَّارِ تَقْدُمُهُمْ ... شُهْبُ الأسِنَّةِ في مُعْصَوْصِبٍ لَجِبِ[6]

وهذه أبيات أخرى يرثي فيها خبيب بن عدي ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

لو كانَ في الدَّارِ قَرْمٌ ماجدٌ بَطَلٌ ... أَلْوَى منَ القَومِ صَقْرٌ خالُه أنَسُ[7]
إذَنْ وَجَدتَ خُبيباً مَجْلِساً فَسِحاً ... ولم يَشُدَّ عليكَ السِّجنُ والحَرَسُ[8]
وَلم تَسُقْكَ إلى التَّنعيمِ زِعْنِفَةٌ ... مِنَ القَبَائلِ مِنْهُمْ مَنْ نَفَتْ عُدُسُ[9]
دَلُوكَ غدرًا وهُمْ فيها أولو خُلُفٍ ... وأنت ضَيْمٌ لها في الدَّارِ مَحْتَبَسُ[10]

يهجو قبيلة هذيل:

وبما أن قبيلة هذيل كان لها نصيب الأسد في تشجيع رهط عضل والقارة على

(١) وفي رواية: مع الغادين، لم يؤب من آب يؤوب: بمعنى رجع.
(٢) السجية: الطبيعة، المحض: الخالص والمراد به خلوص نسبه من الشوائب، غير مؤتشب، غير مختلط.
(٣) العلات: المشقات، العبرة: الدمعة، نُص بالبناء على المجهول: بمعنى رُفع.
(٤) الطية: النية: يعني ما انطوت عليه النية من الجهة التي تتجه إليها.
(٥) بنو كهينة: قبيلة كهنة، والتصغير للتعيير، لقحت الحرب: ازداد شرّها، محلوبها: اللبن الذي يحلب منها، الصاب: العلقم، تمرى بالبناء على المجهول: يعني يمسح ضرعها لتدر، شبه الحرب بناقة لقحت، يتوعد قاتلي خبيب بالحرب الضروس.
(٦) المعصوصب: الجيش الكثيف، اللجب: الكثير الصوت بالأسلحة.
(٧) القَرْم: الفحل من الإبل، والمراد ههنا الرجل السيد، ألوى: أشَدُّ خصومةً، أنس: هو الأصم السلمي، خال مطعم بن عدي بن نوفل.
(٨) خبيباً: منادى عومل معاملة النكرة، وهو معترض بين الفعل ومفعوله.
(٩) الزَّعنفة بكسر الزاي: الأتباع الذين لا شرف لهم، جمعه زعانف، عدس: قبيلة من تميم.
(١٠) دلوك: يعني غروك، أنت ضيم لها: يعني أنت ذل لها وغلبة وقهر.

الغدر والقتل ضد جماعة المسلمين، تناولها حسان بن ثابت بالهجاء فيما صنعوا بخبيب بن عدي ـ رضي الله تعالى عنه ـ، يقول:

أبلِغْ بَني عَمرٍو بأنَّ أخاهُمُ ... شَراهُ امرؤٌ قد كانَ للغَدرِ لازِمَا[1]
شَراهُ زهيرُ بنُ الأغرِّ وجامِعُ ... وكانا جميعًا يَركَبَانِ المَحَارِمَا[2]
أجَرْتُم فلمَّا أن أجَرْتُمْ غدَرتُمُ ... وكُنتُمْ بأكْنَافِ الرَّجِيعِ لَهَاذِمَا[3]
فليتَ خُبيباً لم تَخُنْهُ أمانةٌ ... وليتَ خُبيباً كانَ بالقومِ عالِما[4]

وهذه عدة أبيات يهجو فيها بني لحيان من هذيل:

إنْ سرَّكَ الغَدرُ صِرْفاً لا مِزَاجَ لَهُ ... فائتِ الرَّجيعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لَحْيَانِ[5]
قومٌ تَواصَوا بأكْلَ الجَارِ بينَهمُ ... فالكلبُ والقِردُ والإنسانُ مِثْلانِ
لو يَنطِقُ التَّيْسُ يوماً قامَ يخطُبُهُمْ ... وكانَ ذا شَرَفٍ فيهِمْ وذا شَانِ

وقال يهجو هذيلاً ويعيرهم على ما طلبوا من رسول الله ـ ﷺ ـ حينما أرادوا أن يسلموا أن يُحلَّ لهم الفاحشة (الزنا):

سألَتْ هُذَيلٌ رسولَ اللهِ فاحِشَةً ... ضَلَّتْ هُذيلُ بما سالَتْ ولم تُصِبِ[6]
سَألُوا رسولَهُمُ ما لَيْسَ مُعْطِيَهُمْ ... حتَّى المَمَاتِ، وَكَانُوا سُبَّةَ العَرَبِ
وَلَنْ تَرى لِهُذيلٍ داعيًا أبداً ... يَدْعو لمَكْرُمةٍ من منزِلِ الحَرَبِ[7]
لقد أرَادُوا خِلالَ الفُحشِ، وَيْحَهُمُ ... وأن يُحِلُّوا حَراماً كانَ في الكُتُبِ

(١) بني عمرو: يريد بهم عمرو بن عوف، قوم خبيب، أخاهم: المراد خبيب، شراه: بمعنى باعه.
(٢) زهير بن الأغر وجامع: كلاهما هذليان، وكانا قد جعلا لخبيب ذمتهما ولكنهما لم يفيا وباعا خبيبًا، وشراه: بمعنى باعه.
(٣) لهاذما: إذا كانت بالذال فمعناها: الشجعان، يقال: سيف لهذم إذا كان قاطعاً، وبالزاي فمعناها: جبناء ضعفاء.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٥) صرفًا: خالصًا، وقد فسره بقوله: لا مزاج له، الرجيع: ماء لهذيل بناحية الحجاز، لحيان بكسر اللام أو فتحها، هو ابن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقيل: إن أصل لحيان من جُرْهم، وأنهم دخلوا في هذيل فنُسبوا إليهم.
(٦) سالت في الأصل: سألت خفف الهمزة للضرورة.
(٧) الحرب بفتح الحاء والراء: السلب.

قصيدة أخرى في هجوها:

وهذه قصيدة أخرى يهجو فيها هذيلاً ولحيان، ويذكر غدرهم وخيانتهم ويتهددهم بمصير مشؤوم لقاء ما قاموا به نحو مبعوثي رسول الله ـ ﷺ ـ، يقول:

لَعَمْرِي لقَدْ شَانَتْ هُذيلَ بنَ مُدْرِكٍ ... أحاديثُ كانَتْ في خُبيبٍ وعاصِمِ
أحـادِيـثُ لِحْيَـانٍ صَلَـوْا بقبيحِهـا ... ولِحْيَـانُ جَـرَّامُـونَ شَـرَّ الجَـرَائِـمِ[1]
أناسٌ هُمُ من قَوْمِهِمْ في صَمِيْمِهِمْ ... بمنـزلـةِ الـزَّمْعـانِ دُبْـرِ القَـوَادِمِ[2]
هـمُ غَـدروا يـومَ الـرَّجِيعِ وأسلمَتْ ... أمـانَتُهُـمْ ذا عِفَّـةٍ ومكـارِمِ
رَسـولَ رسـولِ الله غَـدْرَاً ولـم تكُـنْ ... هُـذَيْـلُ تَـوَقَّـى مُنْكِـرَاتِ المَحَـارِمِ
فسـوفَ يَـرونَ النصـرَ يَـوْمـاً عليهـمُ ... بقَتْـلِ الـذي تَحْميـهِ دونَ الحَـرائِـمِ[3]
أَبَـابيـلُ دَبْـرٍ شُمَّـسٍ دونَ لَحْمِـهِ ... حَمَتْ لَحْمَ شَهَّادٍ عِظامَ الملاحِمِ[4]
لعـلَّ هُـذَيْـلاً إنْ يَـروا بمُصَـابِـهِ ... مَصـارِعَ قَتْلـى أو مَقـامـاً لمَـأْتَـمِ[5]
ونُـوْقِـعُ فِيهِـم وَقْعَـةً ذاتَ صَـوْلَـةٍ ... يُوافي بها الرُّكبانُ أهلَ المَواسِمِ[6]
بـأمْـرِ رَسـولِ الله إنَّ رَسُـولَـهُ ... رأى رأيَ ذِي حَـزْمٍ بِلِحْيَـانَ عـالِـمِ
قُبَيِّلَـةٌ ليـسَ الـوفـاءُ يَهُمُّهُـمْ ... وإن ظُلِمُوا لم يَدْفعوا كفَّ ظالِمِ[7]
إذا النَّـاسُ حَلُّـوا بـالفَضـاءِ رأيتَهُـمْ ... بمَجْرى مَسِيلِ الماءِ بينَ المَخارِمِ[8]

(١) صلوا بقبيحها: يعني أصابهم شرها.
(٢) الصميم: الخالص، الزمعان: جمع زمع، وهو الشَّعر الذي يكون فوق الرسغ من الدابة وغيرها، دبر: بمعنى خلف، القوادم يريد بها اليدين.
(٣) أراد به عاصم بن أبي الأقلح الذي حمته الدبر، دون الحرائم: يعني دون أن يمسه أحد، حيث إن الزنابير هي التي كفته، والدبر: جمع دبرة، يعني الزنبور.
(٤) أبابيل: جمع أبول كعجول: بمعنى الجماعات، الشمس بالضم والتشديد المدافعة، الملاحم: جمع الملحمة: المكان الذي يلتحم فيه الفريقان المتحاربان، عظام: جمع عظيم، يعني الحروب العظيمة.
(٥) المأتم: مجلس النساء يجتمعن في الخير أو الشر، ولكن المراد اجتماعهن في مناحة، وسُهلت الهمزة للقافية.
(٦) يعني سنحاربهم محاربة عنيفة يتحدث بها الركبان إلى أهل المواسم.
(٧) قبيلة: بالتصغير، يعني أنهم أحقر من الوفاء والشجاعة والمكارم والأخلاق.
(٨) المخارم: جمع المخرم: بمعنى مسايل الماء التي يخرمها السيل.

مَحلُّهُـمُ دارُ البَـوَارِ ورأْيُهُـمْ ... إذا نـابَهُـمْ أَمْـرٌ كَـرَأْيِ البَهَـائِـمِ[1]

قصيدة أخرى يهجو فيها هذيلاً ولحيان:

لقد كان حسان بن ثابت مكلوم القلب بما حدث مع خبيب بن عدي وأصحابه الكرام من غدر وخيانة وقسوة من قبيلة هذيل ولحيان فيتكرر هجاؤه لها، ولعله بذلك يستطيع أن يقوم بأقل واجب نحو إخوانه الكرام الذين قُتلوا وصُلبوا في سبيل الدين، وهذه قصيدة أخرى له يهجو لها هذيلاً ولحيان:

لَحَـا الله لِحْيـانـاً فليسَـتْ دِمـاؤهُـمْ ... لنَـا مـن قَتِيلَـيْ غَـدْرَةٍ بـوَفـاءِ[2]
هُـمُ قَتَلـوا يـومَ الـرَّجيعِ ابـنَ حُـرَّةٍ ... أَخـا ثِقَـةٍ فـي وُدِّهِ وصفـاءِ
فلـو قُتِلُـوا يـومَ الـرجيـع بـأسْـرِهِـمْ ... بـذي الـدَّبْـرِ مـا كـانـوا لـه بِكَفَـاءِ[3]
قَتيـلٌ حَمَتْـهُ الـدَّبْـرُ بيـنَ بُيـوتِهِـمْ ... لـدَى أهـلِ كُفْـرٍ ظَـاهِـرٍ وجَفَـاءِ
فقـد قتلَـتْ لِحيـانُ أَكْـرَمَ منهـمُ ... وبَـاعـوا خُبَيبـاً ويلَهُـمْ بِلِفَـاءِ[4]
فـأُفٌّ لِلِحْيـانَ علـى كـلِّ حـالـةٍ ... على ذِكْرِهِمْ في الذِّكْرِ كلَّ عَفاءِ[5]
قُبَيِّلَـةٌ بـاللـؤْمِ والغَـدْرِ تَعْتَـزي ... فلـم تُمْـسِ يَخْفَـى لُـؤمُهَـا بخفَـاءِ[6]
فلـو قُتِلُـوا لـم تُـوْفِ منـهُ دمـاؤُهُـمْ ... بلـى إنَّ قَتْـلَ القَـاتِلِيـهِ شِفَـائِـي
فـإلا أمُـتْ أُذْعِـرْ هُـذَيـلاً بغَـارةٍ ... كغـادِي الجَهَـامِ المُغْتَـدِي بـإفَـاءِ[7]
بـأمْـرِ رَسـولِ الله والأمْـرُ أمـرُهُ ... يَبِيْـتُ لِلِحْيَـانَ الخَنَـا بِفِنَـاءِ

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ١٨٧ ـ ١٩٠.
(٢) قتيلي غدرة، جملة إضافية وقد حذفت نون قتيلين جمعًا، من أجل الإضافة.
(٣) ذو الدبر هو عاصم بن ثابت الذي وقاه الله بطريق الزنابير التي اجتمعت حوله فلم يمكن أعداءه قطع رأسه من امرأة وهي سلافة بنت سعد التي كانت قد نذرت أن تشرب في قحف رأسه الخمر.
(٤) اللفاء كسحاب، الشيء القليل الحقير، والتراب أيضًا، تقول العرب: أقنع من الوفاء باللفاء.
(٥) العفاء بزنة السحاب: التغير والانطماس (كل عفاء) مبتدأ، خبره (على ذكرهم) يعني إذا ذكر الناس لم يذكروا هؤلاء لأنهم خاملون.
(٦) قبيلة لتصغير الشأن، تعتزي: بمعنى تنتسب.
(٧) إلا أمت: يعني إن لم أمت، أذعر: بمعنى أخوف، الجهام: السحاب الرقيق، بإفاء ككتاب: الغنيمة.

يصبِّحُ قوماً بالرجيع كأنهم ... جِدَاءٌ ، وشِتَائِيْن غيرَ دِفاءِ[1]

وهذه أبيات كذلك يهجو بها هذيلاً :

فلا واللهِ ما تَدْري هُذيلٌ ... أَصَافٍ ماءُ زَمْزَمَ أَمْ مشُوْبُ[2]
ولا لَهُمْ إذا اعْتَمَرُوا وحَجُّوا ... مِنَ الحِجْرَيْنِ والمَسْعى نَصِيْبُ[3]
ولكنَّ الرَّجِيْعَ لَهُمْ مَحَلٌّ ... بِهِ اللؤمُ المُبيَّنُ والعيوبُ
كأنَّهُمُ لَدَى الكَنَّاتِ أُصُلاً ... تُيوسٌ بالحِجازِ لها نَبِيْبُ[4]
هُمُ غَرُّوا بِذِمَّتِهِمْ خُبَيْباً ... فبِئْسَ العَهْدُ عَهْدُهُمُ الكَذُوبُ

وهذه أبيات عديدة يتظاهر فيها بألمه الشديد على ما حدث مع خبيب ورفاقه - رضي الله تعالى عنهم - ويرثي لهم فيها ، يقول :

صلَّى الإلهُ على الذينَ تَتابَعُوا ... يومَ الرَّجيعِ فأُكْرِمُوا وأُثِيبُوا
رأسُ السَّريَّةِ مَرْثَدٌ وأميرُهُمْ ... وابنُ البُكَيْرِ إمَامُهُمْ وخُبَيْبُ[5]
وابنٌ لِطَارقَ وابْنُ دِثْنَةَ منهمُ ... وَافَاهُ ثَمَّ حِمَامُهُ المَكْتُوبُ[6]
والعاصِمُ المَقْتولُ عندَ رَجِيْعِهِمْ ... كَسَبَ المَعَالِي إنَّه لَكَسُوبُ[7]
مَنَعَ المَقَادَةَ أَنْ يَنالوا ظَهْرَهُ ... حتَّى يُجَالِدَ إنَّه لَنَجِيْبُ[8]

---

(١) جداء : جمع جدي ولد الشاة ، شتائين : دخلوا في الشاء ، دفاء : من الدفء .
(٢) مشوب : مخلوط ، من شاب يشوب إذا خلط .
(٣) الحِجرين بكسر الحاء المراد به : حجر الكعبة ، وثناه لأنه أراد بذاك الحجر وما حوله ، وفي رواية : الحَجَرين تثنية حجر والمراد بهما الحجر الأسود والحجر الذي فيه مقام إبراهيم .
(٤) الكنات : جمع كنة بالفتح : بمعنى زوجة الابن أو الأخ ، أُصُلاً بضم الهمزة والصاد : جميع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب ، النبيب : صوت التيس .
(٥) ومرثد هو مرثد بن أبي مرثد ، وخالد بن البكير الليثي ، وخبيب بن عدي .
(٦) ابن لطارق ، هو عبد الله بن طارق حليف بني ظفر ، وابن دثنة هو زيد بن الدثنة ، الحمام : بكسر الحاء : الموت ، طارق ، ممنوع من الصرف للضرورة .
(٧) العاصم أراد به حمي الدبر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، لكسوب : صيغة المبالغة واللام للتأكيد .
(٨) المقادة : مصدر ميمي : بمعنى الانقياد والخضوع أمام أعدائه ، فلم يدركوا ظهره ، بل إنه جالدهم بالسيف جلاداً عنيفاً .

شعره في وقعة بئر معونة :

في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة قَدِم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر مُلاعِبُ الأسنَّة[1] على رسول الله - ﷺ - ، وكان من رؤوس بني عامر ، فعرض عليه رسول الله - ﷺ - الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد ، وقال : إني أرى أن دينك هذا حسن شريف فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك هذا ، وأرجو أنهم يستجيبون لك ، فقال - ﷺ - : إني أخشى عليهم أهل نجد ، فقال أبو براء : أنا لهم جار ، فأرسل معهم المنذرَ بن عمرو في سبعين[2] رجلاً من أصحابه ، كانوا يسمون «القرَّاء» لكثرة ما كانوا يحفظون ويقرؤون القرآن الكريم ، فتوجهوا حتى نزلوا بئر معونة - شرقي المدينة بين أرض بني عامر وحَرَّةِ بني سليم - فبعثوا حِرَامَ بنَ مِلْحَانَ بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيد بني عامر ، فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب وإنما عدا على حرام بن ملحان فقتله ، ثم استصرخ على البقية بني عامر فأبوا أن يجيبوه ولم يرضوا أن يخفروا ذمة ملاعب الأسنة ، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عصية ورعل وذكوان فأجابوه وخرجوا معه حتى غشوا القوم وأحاطوا بهم من كل جانب وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم - رحمهم الله تعالى - :

حسان يرثي شهداءها :

ورثى حسان بن ثابت شهداء بئر معونة وبكى عليهم ، نظراً إلى الوحشية التي عوملوا بها والخيانة التي أبيحت لهم ، يقول :

على قَتْلَى مَعُونةَ فاسْتَهِلِّي ... بدَمْعِ العينِ سَحّاً غيرَ نَزْرِ[3]
على خَيْلِ الرَّسُولِ غَدَاةَ لاقَوْا ... ولاقَتْهُمْ مَنَايَاهُمْ بقَدْرِ[4]

---

(١) سميّ ملاعب الأسنة في يوم سوبان ، وهو يوم من أيام جبلة ، وهي أيام كانت بين قيس وتميم ، وجبلة اسم لهضبة عالية .
(٢) وقيل : في أربعين رجلاً .
(٣) استهلت السماء : أتت بالهلل وهو أول المطر ، واستهل الشهر : ظهر هلاله ، استهلت العين : دمعت ، فاستهلي : بمعنى أسيلي الدموع ، سحّاً : يعني صبّا كثيرًا ، النزر : القليل .
(٤) الخيل : بمعنى الفرسان ، واحدها : خائل ، لأنه يختال في مشيته ، منايا : جمع منية : بمعنى الموت ، بقدر : يريد به قضاء الله .

أصابَهُمُ الفَنَاءُ بِعَقْدِ قومٍ ... تُخُونُ عَقْدُ حَبْلِهُمُ بِغَدْرِ[1]
فيا لَهْفي لِمُنْذِرٍ إذ تَولَّى ... وأعنَقَ في مَنِيَّتِهِ بِصَبْرِ[2]
وكَائنٍ قد أُصِيبَ غَداةَ ذاكُمْ ... مِنَ أبْيَضَ ماجِدٍ من سِرِّ عَمْرِو[3]

وقال حسان ـ رضي الله عنه ـ يحرض بني أبي براء على عامر بن الطفيل:

بَنِي أمِّ البَنِينَ ألَمْ يَسُؤْكُمْ ... وأنتُمْ من ذَوَائِبِ أهْلِ نَجْدِ[4]
تَهَكُّمَ عامِرٍ بأبِيْ بَراءٍ ... لِيَخْفِرَهُ وما خَطَأٌ كعَمْدِ[5]
ألا أبلِغْ ربيعةَ ذا المَساعِيْ ... فما أحدثْتَ في الحِدْثَانِ بَعْدي
أبوكَ أبو الحُروبِ أبو بَراءٍ ... وخالُكَ ماجِدٌ حَكَمُ بنُ سَعْدِ

وكان ممن قتل يوم بئر معونة نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي فرثاه حسان بالقول الآتي:

رَحِمَ اللهُ نافِعَ بنَ بُدِيْلٍ ... رحمَةَ المُشْتَهِي ثوابَ الجِهادِ
صَابِراً صادقَ الوَعْدِ إذا ما ... أكثَرَ القومُ قالَ قولَ السَّدَادِ[6]

ويروي بعض الرواة البيت التالي بعدهما:

كنتُ قَبْلَ اللقاءِ منهُ بجَهْلٍ ... فَقَدْ أمسَيْتُ قد أصابَ فُؤَادي

غزوة بدر الآخرة وحسان:

ولما كانت غزوة بدر الآخرة في شعبان سنة أربع خرج فيها رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بدر لميعاد أبي سفيان وأقام فيها ينتظره، ولكنه لم يوف وعده وما أتت قريش

(١) تخون على البناء للمجهول: بمعنى انتقص، يقال: تخون فلان حقه إذا انتقصه.
(٢) أعنق: إذا أسرع، العنق بفتح العين والنون، السير السريع، لمنذر: أراد به منذر بن عمرو، وكان في مقدمة الجماعة ـ رحمهم الله تعالى ـ.
(٣) من أبيض ماجد: يريد به المنذر بن عمرو، وسر القوم: خالصهم، وسر عمرو، يريد به المنذر بن عمرو، فإن الولد سر لأبيه، كما يقول المثل.
(٤) بنو أم البنين: هم أبو براء عامر بن مالك وأخوته الأربعة: طفيل، وربيعة، وعبيدة، ومعاوية، الذوائب: جمع ذؤابة، وهي أعلى الشيء ويريد بها سادة أهل نجد ورؤساءهم.
(٥) التهكم: الاستهزاء، ليخفره: يعني لينقض عهده.
(٦) جميع كتب السير والتراجم تنسب هذين البيتين إلى عبد الله بن رواحة، ولكن في الديوان رُوي هذان البيتان ونُسبا إلى حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

إليها، فقال حسان بن ثابت في ذلك قصيدة خاطب فيها قريشاً وندد بأبي سفيان:

دَعُوا فَلَجَاتِ الشَّامِ قد حالَ دونَها ... جِلادٌ كأفْوَاهِ المَخاضِ الأوَارِكِ[1]
بأيْدِي رجالٍ هاجَروا نحوَ ربِّهِمْ ... وأنصارُه حقاً وأيْدِي المَلائِكِ
إذا سَلَكَتْ للغَوْرِ من بَطْنِ عالِجٍ ... فَقُولا لها: ليسَ الطريقُ هنالِكِ[2]
أقَمْنا على الرَّسِّ النَّزُوعِ ثَمانِياً ... بأرْعَنَ جَرَّارٍ عَريضِ المَبَارِكِ[3]
بكلِّ كُمَيْتٍ جَوْزُهُ نِصْفُ خَلْقِهِ ... وقَبٍّ طِوَالٍ مُشْرِفاتِ الحَوَارِكِ[4]
تَرى العَرْفَجَ العامِيَّ تَذْري أُصُولَهُ ... مَناسِمُ أخْفَافِ المَطِيِّ الرَّواتِكِ[5]
فإنْ نَلْقَ في تَطْوافِنا والتِمَاسِنَا ... فُرَاتَ بنَ حَيَّانٍ يَكُنْ رَهْنَ هَالِكِ[6]
وإنْ نَلْقَ قيسَ بنَ امْرِئِ القَيْسِ بعدَهُ ... يُزَدْ في سَوَادٍ لَونُهُ لَونُ حَالِكِ[7]
فأبلِغْ أبا سُفيانَ عنِّي رسالةً ... فإنَّكَ من شرِّ الرِّجالِ الصَّعَالِكِ[8]

(١) فلجات الشام: أوديتها، واحدها فلج، جلاد: بمعنى المجالدة في الحرب، المخاض: النوق الحوامل، الأوارك: جمع آركه: الناقة التي ترعى شجرة الأراك.
(٢) الغور: بفتح الغين المنخفض من الأرض، عالج: اسم مكان فيه رمال كثيرة.
(٣) الرس: البئر، النزوع: صفة للبئر: بمعنى البئر التي ينزع ماؤها بالأيدي، أرعن: مضطرب، ولكنه أراد بها هنا جيشًا، سماه أرعن لكثرته، الجرار هو الذي أتباعه كثيرون، عريض المبارك: كناية عن الكثرة كذلك: يعني أنه يأخذ لمبركه مساحة واسعة.
(٤) الكميت: الذي لونه بين الحمرة والسواد، جوزه: بمعنى وسطه، خلقه: أراد به جسمه، قب: جمع أقب، الضامر، حوارك: جمع حارك وهو أعلى الكتفين من الفرس.
(٥) العرفج: نوع من الشجر لا يزيد على ذراع، وإذا ألقي في النار يحترق وإن كان أخضر، العامي: الذي مضى عليه العام، تذري أصوله: بمعنى تقلعها وتطرحها، المناسم: جمع المنسم، طرف خف البعير، الرواتك: جمع الراتكة: بمعنى المسرعة، الرتك بفتحتين ضرب من السير فيه سرعة.
(٦) تطواف: مصدر طاف يطوف، (يكن رهن هالك): يعني يلاقي هلاكه والضعف الذي يطرأ عليه من أجل ذلك.
(٧) قيس بن امرئ القيس: هو العجلي الذي كان يجير عير قريش، يزد بالبناء على المفعول جواب الشرط.
(٨) أبا سفيان بن حرب، الصعالك: جمع صعلوك، حذفت الياء في الجمع نظراً إلى الوزن، وهو الفقير الذي لا مال له والمقصود منها التهكم والاستهزاء (السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٦).

وعلم أبو سفيان بن الحارث بهذه القصيدة فتصدى للرد عليها بقصيدة مماثلة في الوزن والقافية تحتوي على عشرة أبيات ، ومطلعها :

أَحَسَّانُ إنَّا يا ابنَ آكلةِ الفَغا ... وجَدِّكَ نَغْتَالُ الخُرُوقَ كذلِكِ[1]

يهجو عكرمة بن أبي جهل :

وفي غزوة الخندق حينما فرّ عكرمة بن أبي جهل وألقى رمحه وهو منهزم ، فعيّره حسان بن ثابت وخاطبه قائلاً يهجوه :

تَولَّى وألْقَى لنا رُمْحَهُ ... فليتَكَ عِكْرِمَ لم تَفْعلِ
ووَلَّيتَ تَعْدُو كعَدْوِ الظَّلِيـ ... ـمِ ما إن تَجُورُ إلى المَعْدِلِ[2]
كأنَّكَ في الكفِّ حَفَّافَةٌ[3] ... بكَفِّ الوَليدِ ولم يَغْفَلَ
ولم تُلْقِ ظَهْرَكَ مُسْتأنِساً ... كأنَّ قَفَاكَ قَفَا فُرْعُلِ[4]
يَنُوءُ إلى اللؤْمِ أجدادُهُ ... ويُدرِكُهُ لُؤْمُهُ مِنْ عَلِ
ونحنُ بَنُو الحَربِ إنْ شمَّرَتْ ... عَوَانٌ مُصَمَّمَةُ المِرْجَلِ
وأنتَ ابنُ سَوْدَاءَ نَوْبِيَّةٍ ... بأقْرانِها شَبَهُ الفُلْفُلِ[5]
وجَدُّكَ عَبْدٌ لِنَوبِيَّةٍ ... يُرَاوِحُ بالصَّاعِ والقَنْقَلِ[6]
وبارَزَ صاحِبَكُمْ مَاجِدٌ ... كلَيْثٍ عنِ ابْنِ أبي أَشْبُلِ
فأوْرَدَهُ النَّارَ قَبْلَ البَرا... ... حِ لَمْ يَنْثَنِي ولم يُمْهلِ[7]

(١) الفغا : نوع من التمر الرديء ، أو قشر التمر إذا يبس ، أو قشرة تعلو التمر قبل أن يطيب ، الخروق : جمع خرق : الفلاة الواسعة ، نغتال : نقطع .
(٢) الظليم : ذكر النعام ، المعدل : بمعنى العدول : يعني أنه لا ينحرف عن الفرار الذي لا عودة بعده .
(٣) الحفافة : اللحم اللين أسفل اللهاة .
(٤) الفرعل : ولد الضبع ، والجمع فراعل وفراعلة .
(٥) أم عكرمة بن أبي جهل : مجالدة امرأة من بني هلال بن عامر وأمها نوبية .
(٦) القنقل : مكيال عظيم ضخم .
(٧) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق دكتور سيد حنفي حسنين ، مراجعة حسن كامل الصيرفي ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

قصيدته يوم الخندق :

وكانت لعبد الله بن الزبعرى قصيدة طويلة في يوم الخندق يفتخر فيها بالقوم ويعيّر المسلمين ، ومطلعها :

حَيِّ الديارَ مَحَا معارفَ رَسْمِهَا ... طُولُ البِلَى وتَراوُحُ الأَحْقَابِ

واختتمها بقوله :

لَوْلا الخَنادِقُ غادَروا مِنْ جَمْعِهِمْ ... قَتْلَى لطَيْرٍ سُغَّبٍ وذِئابِ

فتصدى حسان بن ثابت للرد عليه وأتى بقصيدته البائية التي يعتز فيها بالمسلمين ويتحدث عن مغامرتهم في هذه الحرب وانتصارهم فيها عليهم ـ بإذن من الله تعالى ـ ودعاء الرسول الكريم ـ ﷺ ـ ، حيث كفى الله المؤمنين القتال ، يقول :

هَلْ رَسْمُ دارسَةِ المَقَامِ يَبَابُ ... مُتكلِّمٌ لمُحَاوِرٍ بجَوابِ[1]
قَفْرٌ عفَا رِهَمُ السَّحابِ رُسومَه ... وهُبُوبُ كُلِّ مُطِلَّةٍ مِرْبَابِ[2]
ولقَدْ رأيتُ بها الحُلُولَ يَزينُهُمْ ... بِيْضُ الوجوهِ ثَوَاقِبُ الأحسَابِ[3]
فدَعِ الدِّيارَ وذِكْرَ كُلِّ خَرِيدَةٍ ... بيضاءِ آنِسَةِ الحَديثِ كِعَابِ[4]
واشْكُ الهُمومَ إلى الإلَهِ وما تَرى ... مِنْ مَعْشَرٍ ظَلَمُوا الرَّسُولَ غِضابِ[5]
سَاروا بأجْمَعِهِم إليهِ وألَّبُوا ... أهلَ القُرى وبَوادِيَ الأعرابِ[6]
جيشٌ عُيينةُ وابنُ حَرْبٍ فيهِمُ ... مُتَخَمِّطُونَ بِحَلْبَةِ الأحْزابِ[7]
حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارْتَجَوْا ... قَتْلَ الرَّسُولِ ومَغْنَمَ الأسْلابِ

(١) دارسة المقام : قد عفا محل الإقامة منها ، اليباب : القفر ، المحاور : الذي يرد عليك جواب كلامك .
(٢) رِهَم (بكسر الراء وفتح الهاء) جمع رهمة : المطر الدائم ، المطلة : من أطلت السماء إذا جاءت بالطلّ وهو المطر الضعيف ، مرباب : دائمة ثابتة .
(٣) الحلول : البيوت المجتمعة ، الثواقب : المشرقة .
(٤) الخريدة : المرأة الناعمة ، وقيل : هي البكر لم تمسس قط ، كعاب : التي نهد ثديها .
(٥) ألّبوا : بمعنى جمعوا .
(٦) هو عيينة بن حصن الفزاري ، وابن حرب هو أبو سفيان ، وكانا من قواد المشركين في حرب الخندق ، متخمطون : بمعنى مختلطون ، المتخمط : المتكبر الشديد الغضب ، الحلبة : بفتح الحاء وسكون اللام : جماعة الخيل التي تعد للسباق .

وغَـدَوْا علينـا قـادريـنَ بـأَيْـدِهِـمْ رُدُّوا بغَيْظِهِـمُ علـى الأعْقَـابِ[1]
بهُبُـوبِ مُعْصِفَـةٍ تُفَـرِّقُ جَمْعَهُـم وجنـودِ ربِّـكَ سيِّـدِ الأَرْبَـابِ[2]
فكفَـى الإلـهُ المـؤمنيـنَ قِتـالَهُـمْ وأثـابهُـمْ فـي الأجْـرِ خيـرَ ثـوابِ

هذا البيت تفسير لقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

مَـنْ بعـدِ مـا قَنِطُـوا ففـرَّقَ جَمْعَهُـمْ تَنْـزيـلُ نَصْـرِ مَليْكِنـا الـوهَّـابِ[3]
وأقَـرَّ عيـنَ محمَّـدٍ وصحـابِـهِ وأذلَّ كـلَّ مُكـذِّبٍ مُـرْتَـابِ
عَـاتِـي الفـؤادِ مُـوَقَّـعٍ ذي رِيْبَـةٍ فـي الكُفْـرِ ليس بطَـاهـرِ الأثـوابِ[4]

ويروى هذا البيت بطريق آخر كما جاء في الديوان وهو:

مُسْتَشْعـرٍ للكُفْـرِ دونَ ثيـابِـهِ والكُفـرُ ليـسَ بطـاهـرِ الأثـوابِ
عَلِـقَ الشقَـاءُ بقلبِـه فَفُـؤادُهُ فـي الكُفـرِ آخِـرَ هـذهِ الأحقَـابِ[5]

شعره في مقتل عمرو بن عبد وُدّ:

وقتل عليٌ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ عمرو بن عبد وُدّ يوم الخندق فافتخر بذلك المسلمون ومعهم حسان بن ثابت ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، فقال طائفة من الشعر في قتله ، وهذه أبيات ثلاثة يفتخر فيها بقتل عمرو بن عبد وُدّ ، وإن كان بعض أهل العلم ينكرها لحسان ، كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام:

بِقَيَّتُكُـمْ عَمـرٌو أَبَحْنـاهُ بـالقَنَـا بيَثْـربَ نَحْمِـي والحُمـاةُ قليـلُ[6]
ونحـنُ قتلنـاكُـمْ بكـلِّ مُهَنَّـدٍ ونحـنُ وُلاةُ الحَـرْبِ حيـنَ نَصُـولُ

(١) الأَيْد: بفتح الهمزة وسكون الياء: القوة.
(٢) المعصفة: الريح الشديدة التي تعصف بكل شيء.
(٣) وفي الديوان: (نص مليكنا الوهاب) يشير به إلى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.
(٤) عاتي الفؤاد: يعني قاسي القلب، موقع: بضم الميم وفتح الواو وتشديد القاف المفتوحة: بمعنى الشخص الذي أصابته البلايا.
(٥) وفي رواية: علق الشقاء بقلبه فأرانه: يعني غطى عليه بالرين.
(٦) يعني أنه كان من بقايا فرسانكم بعد يوم بدر.

ونحـنُ قتلنـاكُـمْ بِبَـدْرٍ فـأصبَحَـتْ معـاشِـرُكُـمْ فـي الهـالِكِيـنَ تَجُـولُ

أبيات أخرى في مقتله:

هنا أبيات عديدة قالها في المناسبة نفسها:

أمْسَى الفَتَـى عَمْـرُو بـنُ عَبْـدٍ يَبْتغـي بجَنُـوبِ يَثْـربَ ثَـأْرَهُ لـم يُنْظَـرِ[1]
فلَقَـدْ وجَـدْتَ سيـوفَنَـا مشهـورةً ولقَـدْ وجَـدْتَ جيـادَنـا لـم تُقْصَـرِ[2]
ولقَـدْ لَقيـتَ غـداةَ بـدْرٍ عُصبـةً ضَرَبوكَ ضَرْباً غيرَ ضَرْبِ الحُسَّرِ[3]
أصبحْـتَ لا تُـدْعَـى ليـومٍ عظيمـةٍ يـا عَمْـرُو أو لجَسِيْـمِ أمـرٍ مُنكـرِ[4]

وثلاثة أبيات أخرى في هجاء عمرو بن عبدوُدّ:

ألا أَبْلِـغْ أبـا هِـدْمٍ رَسُـولاً مُغَلْغلَـةً تَخُـبُّ بهـا المَطِـيُّ[5]
أكنْـتُ وليَّكُـمُ فـي كـلِّ كُـرْهٍ وغَيْـري فـي الرَّخـاءِ هـوَ الـوَلِـيُّ
ومنكـمْ شَـاهِـدٌ ولقَـدْ رَآنِـي رُفِعْـتُ لـهُ كمـا احتُمِـلَ الصَّبـيُّ[6]

ويُروى البيت الأخير:

كَبَبْـتُ الخَـزْرَجـيّ علـى يَـدَيْـهِ وكـانَ شِفـاءَ نَفْسـي الخَـزْرَجِـيُّ

حسان يرثي سعد بن معاذ:

وكانت غزوة بني قريظة بعد غزوة الخندق مباشرة ، في سنة خمس للهجرة ، وكان قد حكم فيهم سعد بن معاذ بأمر رسول الله ﷺ ، على أنه كان قد أصيب بجراح في غزوة الخندق ، ولما انتهى شأن بني قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه

(١) لم ينظر ، من: أنظره إذا أمهله.
(٢) وجدت جيادنا لم تقصر ، بالبناء للمفعول ، يعني: إن جيادنا ليست قصيرة ، ولا حبست عن التجوال والتعارك.
(٣) الحُسَّر بتشديد السين وضم الحاء: جمع حاسر ، وهو الذي لا درع عنده ، ويروى بالخاء: جمع خاسر.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
(٥) رسولاً: أراد به رسالة ، مغلغلة: رسالة سريعة تحمل من بلد إلى بلد ، وتخب: من الخبب ، وهو نوع من السير السريع ، أبا هدم: كنية عمرو بن عبد ود.
(٦) وتنسب هذه الأبيات إلى ربيعة بن أمية الديلي ، ونسبها البعض إلى أبي أسامة الجشمي ، هكذا ذكر ابن هشام في سيرته.

فمات منه شهيداً ، وقد تحدث حسان بن ثابت عن حُكمه ، ورثاه بقصائد عديدة من شعره ، وهذه قصيدته الدالية التي خصها برثاء سعد بن معاذ والبكاء عليه ، يقول :

لقد سَجَمَتْ من دَمْعِ عَيْنِي عَبْرةٌ ... وحُقَّ لعَيْنِي أنْ تفيضَ على سَعْدِ[1]
قَتِيلٌ ثَوَى في مَعْرَكٍ فُجِعَتْ بهِ ... عُيُونٌ ذَوَاري الدَّمْعِ دائِمةُ الوَجْدِ[2]
على مِلَّةِ الرَّحمنِ وَارِثِ جَنَّةٍ ... معَ الشُّهداءِ وَفْدُهَا أكرمُ الوَفْدِ
فإنْ تَكُ قد ودَّعْتَنَا وتَرَكْتَنَا ... وأمسَيْتَ في غَبراءَ مُظْلمةِ اللحْدِ[3]
فأنتَ الَّذي يا سعدُ أُبْتَ بمَشْهدٍ ... كريمٍ وأثْوَابِ المَكارمِ والحَمْدِ
بحُكْمِكَ في حَيَّيْ قُرَيْظَةَ بالَّذي ... قضَى اللهُ فيهِمْ ما قَضَيْتَ على عَمْدِ[4]
فوَافَقَ حُكْمُ اللهِ حكمَكَ فيهمُ ... ولم تَعْفُ إذ ذُكِّرْتَ ما كانَ مِنْ عَهْدِ
فإن كانَ رَيْبُ الدَّهْرِ أمضَاكَ في الأُلَى ... شَرَوْا هذهِ الدُّنيا بجَنَّاتِها الخُلْدِ[5]
فنِعْمَ مَصِيْرُ الصَّادِقِينَ إذا دُعُوا ... إلى اللهِ يَوْماً لِلْوَجاهةِ والقَصْدِ

قصيدة أخرى في رثائه والشهداء الآخرين :

وهذه قصيدة أخرى يرثي بها سعد بن معاذ ورجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ من الشهداء ، ويذكرهم بما كان فيهم من الخير والطاعة ، يقول :

ألا يا لَقَوْمي هل لِمَا حُمَّ دافعُ ... وهل ما مَضَى من صالِحِ العَيْشِ رَاجِعُ
تذكَّرْتُ عَصْراً قد مضَى فتَهَافَتَتْ ... بناتُ الحَشَا وانْهَلَّ منها المَدَامِعُ[6]
صَبابَةُ وَجْدٍ ذَكَّرَتْنِيَ إخوةٌ[7] ... وقَتْلى مَضَى فيها طُفَيْلٌ ورَافِعُ
وسَعْدٌ ، فأضْحَوا في الجِنَانِ وأوحَشَتْ ... منازِلُهُمْ فالأرضُ مِنْهُمْ بَلاقِعُ[8]

(١) سجمت : بمعنى سالت ، يقال : سجم الدمع إذا سال .
(٢) ذواري : جمع ذارية ، وهي السائلة ، الوجد : الحزن الشديد .
(٣) الغبراء : أراد بها القبر ، اللحد : الشق الذي يلحد للميت في جانب القبر .
(٤) يشير إلى قول رسول الله ﷺ حينما حكم فيهم سعد بن معاذ : «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» جمع رقيع : بمعنى السموات راجع كتب السيرة والمغازي .
(٥) الألى : بمعنى الذين ، شروا هذه الدنيا ، يريد أنهم فضلوا الدنيا على الآخرة .
(٦) تهافتت : بمعنى تساقطت ، بنات الحشا : يريد بها القلب والأضلاع ، أو الهموم .
(٧) وفي رواية : ذكرتني أحبّة .
(٨) بلاقع : جمع بلقع : القفر الخالي .

وَفَوْا يومَ بَدْرٍ للرَّسُولِ وفَوقَهُمْ ... ظِلالُ المَنايا والسُّيُوفُ اللوامِعُ
دعَا فأجابُوهُ بِحَقٍّ وكُلُّهُمْ ... مُطِيعٌ له في كُلِّ أَمْرٍ وسامِعُ
فما نَكَلُوا حتى توالَوْا جَمَاعَةً ... ولا يقطَعُ الآجَالَ إلا المَصَارِعُ[1]
لأنَّهمْ يَرْجُوْنَ مِنْهُ شَفَاعَةً ... إذا لم يَكُنْ إلا النَّبِيُّونَ شافِعُ[2]
فذلكَ يا خيرَ العِبادِ بَلاؤنا ... إجَابَتُنَا لله والموتُ ناقِعُ[3]
لنا القَدَمُ الأوْلَى إليكَ وخَلْفَنا ... لأَوَّلِنَا في مِلَّةِ اللهِ تَابِعُ[4]
ونَعْلَمُ أَنَّ المُلْكَ لله وحْدَهُ ... وأنَّ قَضَاءَ اللهِ لابُدَّ واقِعُ[5]

قصيدته في بني قريظة :

قالها في يوم بني قريظة ، وتحدث فيها عما أصابهم من بلاء وذل ، وذكر ذهاب رسول الله ﷺ إليهم ، ومُضيّه فيهم بحكم الله ، يقول :

لقد لَقِيَتْ قُرَيظَةُ ما سَآهَا ... وما وجَدَتْ لِذُلٍّ مِنْ نَصِيرِ[6]
أصابَهُمُ بَلاءٌ كانَ فيهِ ... سِوَى ما قَدْ أصابَ بَني النَّضيرِ
غَداةَ أَتَاهُمُ يَهْوِي إليهِمْ ... رَسُولُ اللهِ كالقَمَرِ المُنِيْرِ
لَهُ خَيْلٌ مُجَنَّبَةٌ تَعادَى ... بفُرسانٍ عليها كالصُّقُورِ[7]
تَرَكْنَاهُمْ وما ظَفِرُوا بشيءٍ ... دماؤهُمُ عليهِمْ كالعَبِيْرِ[8]
فهُمْ صَرْعى تَحومُ الطَّيرُ فيهِمْ ... كذاكَ يُدَانُ ذو العَنَدِ الفَجُورِ[9]

(١) نكلوا : بمعنى جبنوا ورجعوا في خوف وهيبة لعدوهم ، توالوا : يعني تبع بعضهم بعضاً .
(٢) ويقرأ (إلا النبيين) على أن المستثنى قد تقدم على المستثنى منه فيجب فيه النصب ، وفي الديوان بالنصب .
(٣) الموت ناقع : يعني دائم ، وسم ناقع : معناه سم قاتل .
(٤) يعني أنهم السابقون إلى الإسلام ، خلفنا المراد به آخرنا ، مبتدأ ، وتابع خبره .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام : ٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .
(٦) سآها : في الأصل ساءها ، قدم الهمزة على الألف ضرورة .
(٧) الخيل المجنبة : الخيل التي تقاد بجانب الركربة ، أو المراد بها المجنوبة : بمعنى المقودة ، تَعادى على وزن تفاعل فعل ماض : بمعنى أسرع في سيرها وعدا .
(٨) العبير : الزعفران .
(٩) يُدان : بمعنى يُجازى ، العند : الخروج عن الحق ، وذو العند : الخارج عن الحق .

فـأنـذِرْ مثلَهـا نُصْحَـاً قُـرَيْشـاً مـنَ الـرَّحمـنِ إن قَبِلَـتْ نَـذِيْـري[1]

أبيات له في غزوة بني قريظة:

هذه الأبيات قالها في يوم بني قريظة حين حاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، وقد مرت الإشارة إلى ذلك:

لقـد لقِيَـتْ قُـرَيظـةُ مـا عَظَـاهـا وحَـلَّ بِحِصْنِهَـا ذُلٌّ ذلِيـلُ[2]
وسعـدٌ كـان أَنـذَرَهُـمْ نَصِيْحَـاً بـأنَّ إلَهَهُـمْ رَبٌّ جَليـلُ[3]
فمـا بَـرِحُـوا بِنَقْـضِ العَهْـدِ حَتَّـى غـزاهُـمْ فـي دِيـارِهِـمِ الـرَّسُـولُ
أحـاطَ بِحِصْنِهِـمْ مِنَّـا صُفُـوفٌ لَـهُ مِـنْ حَـرِّ وَقْعَتِهـا صَلِيـلُ[4]
فصَـارَ المُـؤمنـونَ بـدَارِ خُلْـدٍ أقـامَ بِهَـا لهـا ظِـلٌّ ظَلِيْـلُ

يرد على جبل بن جوال:

كان جَبَلُ بن جَوَّالٍ أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان يهودياً، فأسلم بعدما قال قصيدة رداً على كلام حسان بن ثابت، ورثاء لبني قريظة والنضير، وتحتوي قصيدته على (١١) بيتاً ويبدؤها بقوله:

ألا يـا سَعْـدُ، سَعْـدَ بَنِـي مُعَـاذٍ لِمَـا لاقَـتْ قُـرَيْظَـةُ والنَّضِيْـرُ

وأنهاها بقوله:

تَـرَكْتُـمْ قِـدرَكُـمْ لا شَـيْءَ فيهـا وقِـدْرُ القَـوْمِ حَـامِيَـةٌ تَفُـورُ[5]

فأجابه حسان بن ثابت بالأبيات التالية التي يدعو فيها على اليهود ويلومهم:

تَفَـاقَـدَ مَعْشَـرٌ نَصَـرُوا علينـا ولَيْـسَ لَهُـمْ بِبَلْـدَتِهِـمْ نصِيـرُ[6]

---

(١) نذيري: بمعنى إنذاري، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.
(٢) عظاها: يعني ساءها، وفرقها.
(٣) يريد سعد بن معاذ.
(٤) الصليل: بمعنى الصوت.
(٥) لعله يريد وصفهم بالبخل حينما يكون الناس يسخون ويجودون، أو يريد أنكم أطفأتم غضبكم بانتقامكم من بني قريظة والنضير وتقتيلكم إياهم، ولكن القوم هم غضاب يفورون انتقاماً منكم.
(٦) تفاقد: يعني فقد بعضهم بعضاً، يدعو عليهم.

هُـمُ أُتُـوا الكِتَـابَ فضَيَّعُـوهُ فهُـمْ عُمْـيٌ مِـنَ التَّـوارةِ بُـورُ[1]
كفَـرْتُـمْ بـالقُـرانِ وقَـدْ أُتِيتُـمْ بتَصْـديـقِ الَّـذي قـالَ النَّـذيـرُ[2]
وهَـانَ علـى سَـرَاةِ بَنِـي لُـؤيٍّ حَـرِيْـقٌ بـالبُـوَيْـرَةِ مُسْتَطِيـرُ[3]

أبيات في قتل ابن أبي الحقيق وابن الأشرف:

ولما انتهت غزوة الخندق وأمر بني النضير، استأذنت الخزرج في قتل سلام بن أبي الحقيق وكان ممن حزَّب الأحزاب وأثار القبائل على رسول الله ﷺ، فأذن لرجال الخزرج بقتله وكان هو يومئذ في خيبر، ولقد كانت الأوس قبل أُحُدٍ قد قتلت كعب بن الأشرف بإذن من رسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس عداوة له وتحريضاً للناس عليه، وقد تحدث عن هذه المناسبة حسان بن ثابت يذكر قتل الرجلين في عدة أبيات:

للهِ دَرُّ عِصَـابَـةٍ لاقَيْتُهُـمْ يا ابنَ الحُقَيقِ وأنتَ يا ابنَ الأَشْرفِ
يَسْـرُونَ بـالبِيْـضِ الخِفَـافِ إليكـمُ مَـرَحـاً كـأُسْـدٍ فـي عـرينٍ مُغْـرَفِ[4]
حتَّـى أتَـوْكُـمْ فـي محـلِّ بِـلادِكُـمْ فَسَقَـوْكُـمُ حَتْفَـاً ببِيْـضٍ ذُفَّـفِ[5]
مُستَنْصـريـنَ لنَصْـرِ دِيْـنِ نبيِّهِـمْ مُسْتصغِـريـنَ لكـلِّ أمـرٍ مُجْحِـفِ[6]

شعر حسان في غزوة ذي قرد:

وفي سنة خمس للهجرة نفسها غزا رسول الله ﷺ غزوة ذي قَرَدٍ حينما أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري في خيل من غطفان على لَقَاح لرسول الله ﷺ بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل واحتملوا

---

(١) بور: من بار يبور بوراً: بمعنى هلك، وهو جمع أبور وبائر.
(٢) وقد أتيتم بتصديق الذي: يعني أتاكم تصديق ما قاله الرسول الكريم ﷺ، وهو النذير.
(٣) سراة بني لؤيّ: يعني سادتهم وخيارهم، البويرة: موضع بني قريظة، يشير إلى ما فعله المسلمون بأمر من الرسول الكريم ﷺ ببني قريظة، وقد وقع فيه تحريق النخل وقطع الزروع والأشجار.
(٤) يسرون: يعني يسيرون ليلاً، البيض الخفاف: السيوف القاطعة اللماعة، مرحاً: نشاطاً، العرين: مسكن الأسد في الغابة، المغرف، بضم الميم: الشجر الذي التفت أغصانه.
(٥) الذفف: بضم الذال وتشديد الفاء المفتوحة: السريعة القتل، والبيض: السيوف.
(٦) الأمر المجحف: الذي يذهب بالنفوس والأموال: يعني يهلك الحرث والنسل، (السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٣١٧).

المرأة في اللِّقَاح ، ونادى رسول الله ﷺ بالفزع فأقبل عليه فرسان أصحابه وهم ثمانية ، فأمَّر عليهم سعد بن زيد الأنصاري فبعثهم في طلب القوم وفيهم محرز بن نضلة أخو بني أسد بن خزيمة وقد قتله القوم ، وفي هذه المناسبة جادت قريحة حسان بشعر بليغ خاطب به عيينة بن حصن :

لَوْلا الَّذِيْ لاقَتْ ومسَّ نُسُورَهَا ... بِجَنُوبِ سَايةَ أَمْسِ فِي التَّقْوادِ[1]
لَلَقِينَكُمْ يَحْمِلْنَ كلَّ مُدَجَّجٍ ... حَامِي الحقيقةِ ماجِدِ الأَجدادِ[2]
ولسَرَّ أولادَ اللقِيْطةِ أَنَّنَا ... سِلْمٌ غَداةَ فوارسِ المِقْدَادِ[3]

ولما سمع سعد بن زيد الأنصاري هذا البيت عاتب حسان بن ثابت على أنه جعل الفوارس للمقداد ، فاعتذر إليه حسان واعتلَّ له بالقافية ، ولكن سعداً حلف ألاَّ يكلمه أبداً ، وقال : انطلق (حسان) إلى خيلي وفوارسي فجعلها للمقداد ، وحاول حسان جهده أن يقبل سعدٌ عُذْرَه ولكن لم يقبل منه ولم يغن عنه شيئاً ، وقال أبياتاً يرضي بها سعداً ، ومن بينها هذا البيت :

إذا أردتُمُ الأَشَدَّ الجَلْدَا ... أَو ذَا غِنَاءٍ فعليْكُمْ سَعْدَا
سعدُ بنُ زيدٍ لا يُهَدُّ هَدَّا

إلا أن كل ذلك لم يفده شيئاً ، وأراد حسان أن يكمل قصيدته فقال :

كنَّا ثَمانيةً وكانُوا جَحْفَلاً ... لَجِباً فَشَكُّوا بالرِّمَاحِ بِدَادِ[4]
كنَّا مِنَ القومِ الَّذِينَ يلُونَهُمْ ... ويقدِّمونَ عِنَانَ كلِّ جوادِ[5]

(١) لاقت : الضمير فيها يرجع إلى الخيل المضمر ذكرها ، النسور : جمع نسر ، وهو قطعة صلبة تكون في بطن الحافر كأنها نواة ، ساية : واد بين المدينة ومكة ، التقواد مصدر قاد على وزن : تفعال .

(٢) للقينكم : جواب لولا في البيت السابق ، المدجج : الكامل السلاح ، الحقيقة : هي ما يلزم على الإنسان صيانته من العرض والنفس والمال .

(٣) اللقيطة : هي أم حصن بن حذيفة وكان حذيفة قد التقطها في جوار كان قد أضر بهن الجدب ، فضمها إليه ، ثم أعجبته فخطبها إلى أبيها فتزوجها ، المقداد : هو المقداد بن الأسود .

(٤) الجحفل : الجيش الكثيف ، واللجب بالفتح ثم الكسر : الكثير الأصوات ، شكوا : من شك بالسلاح إذا رماه به وطعنه ، بداد : على وزن فعال مبني على الكسر : بمعنى التفرق .

(٥) يلونهم : من الولاء ، بمعنى يصادقونهم .

كلا ورَبِّ الرَّاقصَاتِ إلى مِنًى ... يَقْطَعْنَ عَرْضَ مَخَارِمِ الأَطْوَادِ[1]
حتى نُبِيْلَ الخَيْلَ في عَرَصَاتِكُمْ ... ونَؤُوبَ بالمَلَكَاتِ والأَوْلادِ[2]
رَهْوَاً بكلِّ مُقَلَّصٍ وَطِمِرَّةٍ ... في كلِّ مُعْتَرَكٍ عَطَفْنَ ووَادِ[3]
أَفْنَى دَوَابِرَهَا ولاحَ مُتُونهَا ... يَوْمٌ تُقَادُ به ويَوْمُ طرادِ[4]
فكَذاكَ إنَّ جِيَادَنَا مَلْبُونَةٌ ... والحَرْبُ مُشْعَلَةٌ بِرِيْحِ غَوَادِ[5]
وسُيُوفُنَا بِيْضُ الحَدَائِدِ تَجْتَلِي ... جُنَنَ الحدِيدِ وهامَةَ المُرْتَادِ[6]
أَخَذَ الإلهُ عليهِمُ لحَرَامِهِ ... ولِعِزَّةِ الرَّحمنِ بالأَسْدَادِ[7]
كانُوا بِدَارٍ ناعِمِيْنَ فَبُدِّلُوا ... أيامَ ذِيْ قَرَدٍ وجوهَ عِبَادِ[8]

أبيات أخرى في يوم ذي قرد :

وهنا أبيات أخرى يخاطب فيها عيينة بن حصن الفزاري :

أظُنُّ عُيَيْنَةَ إذ زَارَهَا ... بِأَنْ سَوْفَ يَهْدِمُ فيها قُصُوراً[9]
فأُكْذِبْتَ ما كُنْتَ صَدَّقْتَهُ ... وقُلْتُمْ : سَنَغْنَمُ أَمْراً كَبِيْرَا[10]

(١) الراقصات : بمعنى الإبل ، الرقص : نوع من مشي الإبل ، المخارم : جمع المخرم ، الطرق في الجبال وأفواه الفجاج ، الأطواد : جمع طود : الجبل المرتفع .

(٢) نبيل : من أبال يبيله ، جعله يبول ، عرصة : وسط الدار ، الملكات : جمع الملكة ، يريد بها النساء .

(٣) رهواً : يعني مشياً في سكون ، إما هو حال من ضمير مستتر في نؤوب ، أو مصدر لفعل محذوف ، المقلص : هو الفرس المشمر ، طِمرة : كل فرس وثابة سريعة العدو .

(٤) دوابر : جمع دابر من الدبر ، الجرح الذي يكون في ظهر الدابة ، لاح متونها : بمعنى غيرها ، يوم : فاعل لاح .

(٥) ملبونة : يعني تسقي اللبن .

(٦) تجتلي : بمعنى تقطع ، الجنن : جمع جُنة : بمعنى الترس ، الهامة : الرأس ، المرتاد : يريد به الذي يطلب الحرب .

(٧) الأسداد : جمع السد ، وهو ما يسد به على الإنسان فيمنعه عن وجهه .

(٨) وجوه عباد : يريد بها وجوه عبيد ، وفي رواية : عناد .

(٩) زارها : الضمير يرجع إلى المدينة .

(١٠) أكذبت : بالبناء على المفعول من : أكذب .

فَعِفْتَ المَدِيْنَةَ إذْ زُرتَها ... وآنَسْتَ لِلأُسْدِ فيها زَئِيْرا[1]
فَوَلَّوا سِرَاعاً كَشَدِّ النَّعَامِ ... ولم يَكْشِفُوا عن مُلِطٍّ حَصِيراً[2]
أميرٌ علينا رَسُولُ المَلِيْـ ... ـكِ أخْبِبْ بذاكَ إلَيْنَا أَمِيْرا
رَسُولٌ نُصَدِّقُ ما جاءَه ... ويَتْلو كتاباً مُضِيْئاً مُنِيْرا[3]

غزوة بني المصطلق وحسان:

في عام ستة من الهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة بني المصطلق ومعه أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ ، وفي طريقه إلى العودة منها حدث ما يذكر في التاريخ من حديث الإفك ، وكان صفوان بن المعطل السُّلَمي هو الذي رُميت به أم المؤمنين ، وكان حَصوراً ، فنذر لئن برأه الله تعالى ليضربن حسان بن ثابت الذي كان ضمن أهل الإفك ، فلما أنزل الله سبحانه براءة عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وثب صفوان على حسان فضربه ضربة بالسيف ، فأخذه رهط حسان وأتوا به النبي الكريم ﷺ فاستوهب حسان جرحه فوهبه له ، فوهب النبي الكريم ﷺ لحسان سيرين أخت مارية القبطية ، فولدت له عبد الرحمن ، وكان حسان عندئذ زوج أخت زوجة رسول الله ﷺ ، وفي ذلك قال حسان:

أمسَى الجَلابِيْبُ قد عَزُّوا وقد كَثُروا ... وابنُ الفُرَيْعَةِ أمْسَى بَيْضَةَ البَلَدِ[4]
جاءَتْ مُزَيْنَةُ من عُمْقٍ لتُخْرِجَنِي ... اخْسَيْ مُزَيْنُ وفي أعناقِكُمْ قِدَدي[5]
يَمْشُونَ بالقَولِ سِرّاً في مُهادَنَةٍ ... يُهَدِّدُونِي كأنِّي لسْتُ من أَحَدِ
قَدْ ثَكِلَتْ أُمُّهُ مَنْ كنْتَ واجِدَهُ ... أو كان مُنْتَشِباً في بُرْثُنِ الأَسَدِ[6]

(١) عفت: بمعنى كرهت ، آنست: يعني أحسست.
(٢) كشد النعام: يريد عدو النعام ، الملط: بالضم وتشديد الطاء: اللاصق بالأرض ، الحصير: وجه الأرض.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.
(٤) الجلابيب: جمع الجلباب وهو الإزار أو القميص ، ولكنه كنى بها عن جماعة الغرباء ، وفي رواية: الخلابيس: بمعنى الأخلاط بين الناس ، بيضة البلد: هي البيضة التي تبيضها النعامة ثم تتركها بالفلاة ، ويريد بها أنه بقي وحيداً منفرداً لا ناصر له.
(٥) مزينة: هم بنو عمرو بن أد بن طابخة ، عمق من بلاد مزينة ، اخسي في الأصل اخسئي: يعني واجهي الذل ، قدد: جمع قد ، وهو سير من جلد غير مدبوغ ، يوضع في أعناق الكلاب.
(٦) ضمير أمه عائد إلى من في قوله: (من كنت) منتشباً: بمعنى عالقاً.

ما البحرُ حينَ تَهبُّ الرِّيحُ شامِيَّةً ... فَيَغْطَئِلُّ ويرمِي العِبْرَ بالزَّبَدِ[1]
يَوْماً بأغلَبَ منِّي يومَ تُبْصِرُنِي ... أفْرِي منَ الغيظِ فَرْيَ العارِضِ البَرِدِ[2]
ما للقَتِيلِ الذي أَسْمُو فآخِذُهُ ... مِنْ دِيَةٍ فيه يُعْطَاها ولا قَوَدِ[3]
أبلِغْ عُبيداً بأنِّي قد تَرَكْتُ لَهُ ... من خَيْرِ ما تَتْرُكُ الآباءُ للولَدِ[4]
الدَّارُ واسِعةٌ والنَّخْلُ شَارِعَةٌ ... والبِيْضُ يَرْفُلْنَ في القَسِّيِّ كالبَرَدِ[5]

حسان يعتذر:

قالت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ: لقد سئل عن صفوان بن المعطل فوجدوه رجلاً حصوراً لا يأتي النساء ، ثم قتل بعد ذلك شهيداً ، واعتذر حسان بن ثابت مما قاله في شأن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ في قصيدة مشهورة:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريْبَةٍ ... وتُصبحُ غَرْثَى من لُحُومِ الغَوَافِلِ[6]
حَلِيْلَةُ خيرِ الناسِ دِيْناً ومَنصباً ... نبيِّ الهُدى والمَكْرماتِ الفواضِلِ
عَقِيْلَةُ حيٍّ من لُؤيِّ بنِ غالبٍ ... كِرامِ المَساعِيْ مجدُهُمْ غيرُ زائلِ
مُهَذَّبَةٌ قد طَيَّبَ اللهُ خِيْمَها ... وطهَّرَهَا من كُلِّ سُوءٍ وباطِلِ[7]
فإنْ كنتُ قد قُلتُ الَّذي قد زعَمْتُمُ ... فلا رَفَعَتْ سَوْطي إليَّ أناملِي
فإنَّ الَّذي قد قِيْل ليسَ بِلائِطٍ ... بها الدهرَ بل قول امرئٍ بي ماحلِ[8]
فكيفَ وَوُدِّي ما حَيِيْتُ ونُصْرَتي ... لآلِ نبيِّ اللهِ زَيْنِ المَحافلِ

(١) يغطئل: بمعنى يموج ويتحرك ، العبر: بالسكون: جانب النهر أو البحر.
(٢) أفري: بمعنى أقطع ، العارض: السحاب ، البرد بالفتح ثم الكسر: الذي فيه برد.
(٣) يعني أن القتيل الذي يقتله هو ليس فيه دية ولا قصاص.
(٤) عبيداً: يريد به ولده عبد الرحمن.
(٥) شارعة: يعني دانية القطوف ، القسي: ثياب من كتان مخلوط بحرير ، كانت تجلب من قرية اسمها القس ، في مصر.
(٦) حصان على وزن فعال: بمعنى عفيفة ، رزان كذلك ، من الرزانة: يعني الملازمة مكانها دون انصراف إلى غيره ، تزن: بمعنى تتهم ، من زن يزن: غرثى صيغة صفة: بمعنى جائعة ، يعني أنها لا تغتاب النساء الغافلات المؤمنات.
(٧) الخيم بكسر الخاء: الطبع والأصل.
(٨) ليس بلائط: يعني ليس بلاصق ، الماحل: النمام الواشي ، يقال: محل به إلى السلطان أي: وشى به ونسب إليه كذباً.

لـه رَتَـبٌ عَـالٍ على النَّـاسِ كلِّهِـمْ ... تَقَـاصَـرُ عنـه سَـورَةُ المُتَطَـاوِلِ[1]
رأيْتُـكِ ولْيَغْفِـرْ لـكِ اللهُ حُـرَّةً ... مِنَ المُحْصَنَاتِ غَيْرَ ذاتِ غَـوائِلِ[2]

شعره في يوم خيبر:

وكانت غزوة خيبر في المحرم سنة سبع ، وكان مما قيل فيها قول حسان بن ثابت ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

بِئْسَ مـا قـاتلَـتْ خَيَـابِـرُ عَمَّـا ... جَمَعُـوا مِـنْ مَـزارِعٍ ونَخِيْـلِ
كَـرِهُـوا المَـوْتَ فاستُبِيْحَ حِماهُـمُ ... وأَقَـرُّوا فِعْـلَ اللئيـمِ الـذَّلِيْـلِ
أَمِـنَ المَـوْتِ تَهْـرُبُـونَ فـإنَّ الـ ... ـمَـوتَ ابـن الهـزالَ غَيـرُ جميـلِ

وقال وهو يعتذر عن أيمن أم أيمن ابن عبيد ، وكان قد تخلف عن خيبر ، وهو من بني عوف بن الخزرج ، وكانت أمه أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ وهي أم أسامة بن زيد:

علـى حِيْـنَ أَنْ قَـالَـتْ لأَيْمَـنَ أُمُّـهُ ... جَبُنْـتَ ولـم تَشْهَـدْ فـوارِسَ خَيْبَـرِ
وأَيْمَـنُ لـم يَجْبُـنْ ولكـنَّ مُهْـرَهُ ... أَضَـرَّ بـه شُـرْبُ المَـدِيْـدِ المُخَمَّـرِ[3]
ولَوْلا الَّذي قد كانَ من شَأنِ مُهْرِهِ ... لَقَـاتَـلَ فيهِـمْ فـارسـاً غَيْـرَ أَعْسَـرِ[4]
ولكنَّـه قَـدْ صَـدَّه فِعْـلُ مُهْـرِهِ ... ومـا كـانَ مِنْـهُ عِنْـدَهُ غيـرُ أَيْسَـرِ[5]

رثاء حسان لشهداء مؤتة:

بعث رسول الله ﷺ في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة بعثة إلى الشام ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس» ولا يخفى أن هؤلاء الثلاثة كلهم قد سقطوا في ساحة القتال شهداء لله تعالى ، فبكى عليهم حسان بن

(١) رتب بالفتح: الموضع المشرف وبالضم: جمع رتبة ، تقاصر: بحذف إحدى التائين ، السورة: الوثبة ، تساور الرجلان إذا تواثبا.
(٢) غوائل: جمع غائلة: بمعنى الداهية ، الفساد ، المهلكة ، الشر (شرح ديوان حسان للبرقوقي).
(٣) المديد: هو الطحين الذي يخلط مع الماء فتشربه الخيل ، المخمر: الذي يكون قد اختمر.
(٤) الأعسر: هو الذي يعمل بالشمال دون اليمين.
(٥) الأيسر: الفرس المنظور إليه.

ثابت بقصيدة غراء على غرار القصائد الجاهلية البليغة وبدأها بقوله:

تَـأَوَّبَنِـي لَيْـلٌ بيَثْـرِبَ أَعْسَـرُ ... وهَـمٌّ إذا مـا نَـوَّمَ النَّـاسُ مُسْهِـرُ[1]
لـذِكْـرى حبيـبٍ هَيَّجَتْ لِـيْ[2] عَبْـرَةً ... سَفُـوحـاً وأسبـابُ البُكـاءِ التَـذَكُّـرُ[3]
بلـى ، إنَّ فُقْـدانَ[4] الحَبيـبِ بَلِيَّـةٌ ... وكـمْ مِـنْ كـريـمٍ يُبتَلـى ثـمَّ يَصْبِـرُ
رأيـتُ خِيَـارَ المـؤمنيـنَ تَـوارَدُوا ... شَعُـوبَ وخَلْفـاً بَعْـدَهُـمْ يتـأَخَّـرُ[5]
فـلا يُبْعِـدَنَّ اللهُ قتلـى تَتَـابَعُـوا ... بمُـؤْتَـةَ منهُـمْ ذُو الجنـاحَيـنِ جَعْفَـرُ
وزيـدٌ وعبـدُ الله حيـنَ تَتَـابَعُـوا ... جَميْعـاً وأسبـابُ المنيَّـةِ تَخْطُـرُ[6]
غَـداةَ مَضَـوا بـالمُـؤمنيـنَ يقـودُهُـمْ ... إلـى المَـوتِ مَيْمُـونُ النَّقيبـةِ أَزْهَـرُ[7]
أغـرُّ كضَـوءِ البَـدْرِ مـن آلِ هـاشـمٍ ... أَبِـيٌّ إذا سِيْـمَ الظُّـلامَـةَ مِجْسَـرُ[8]
فطَـاعَـنَ حتَّـى مـالَ غَيْـرَ مُـوَسَّـدٍ ... بمُعْتَـركٍ[9] فيـهِ القَنَـا مُتَكَسِّـرُ[10]
فصَـارَ مـع المُستشهـدِيـنَ ثـوابَـهُ ... جِنـانٌ ومُلْتَـفُّ الحـدائِـقِ أَخْضَـرُ
وكُنَّـا نَـرَى فـي جَعْفَـر مِـن مُحَمَّـدٍ ... وفـاءً وأمـراً حَـازِمـاً حيـنَ يـأمُـرُ
فمـا زالَ فـي الإسـلام مـن آلِ هـاشـمٍ ... دَعـائـمُ عِـزٍّ لا يَـزُلْـنَ ومَفْخَـرُ

(١) تأوبني: عاودني ، من آب يؤوب ، أعسر: أصعب شديد العسر ، مسهر: مانع من النوم.
(٢) في ديوان حسان: «تم».
(٣) سفوح: سائلة غزيرة.
(٤) في ديوان حسان: «بلاء وفقدان».
(٥) قال أبو ذر: من رواه بضم الشين فهو جمع شَعْب ، وهي القبيلة ، وقيل: هو أكثر من القبيلة ، ومن رواه بفتح الشين ، فهو اسم للمنية ، من قولك: شعبت الشيء ، إذا فرقته ، ويجوز فيه الصرف وتركه ، وخَلْفاً: أي من يأتي بعد ، ورواية هذا الشطر الأخير في ديوانه: شعوب وقد خلفت فيمن يؤخر.
(٦) تخطر: تختال وتهتز.
(٧) ميمون النقيبة: مسعود الجد ، وأزهر: أبيض.
(٨) أبيٌّ: عزيز الجانب ، سيم: كُلف وحُمل (بالبناء للمجهول فيهما) ، والمجسر: المقدام الجسور.
(٩) المعترك: موضع الحرب.
(١٠) في الديوان: «فيه القنا يتكسر».

هُمُ جَبَلُ الإسلامِ والنَّاسُ حولَهُمْ[1] رِضَامٌ إلى طَوْدٍ يَرُوقُ ويَقْهَرُ[2]
بَهَالِيْلُ منهُمْ جعفرٌ وابنُ أُمِّه عَلِيٌّ ومنهُمُ أحمدُ المُتَخَيَّرُ[3]
وحَمْزةُ والعبَّاسُ منهُمْ ومنهُمُ عَقِيْلٌ وماءُ العُودِ من حَيْثُ يُعْصَرُ
بِهِمْ تُفْرَجُ الَّلأْواءُ في كلِّ مَأْزِقٍ عَمَاسٍ إذا ما ضاقَ بالناسِ مَصْدَرُ[4]
هُمُ أولياءُ الله أنزَلَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمْ ، وفيهِمْ ذا الكِتَابُ المُطَهَّرُ

يرثي جعفر بن أبي طالب:

وكان رسول الله ﷺ قد أشار حينما بعث أصحابه إلى مؤتة: إن حَدَث بزيد حدثٌ فعلى الناس جعفرُ بنُ أبي طالب ، وقد حدث ما قاله رسول الله ﷺ ، واستُشهد جعفر بن أبي طالب فبكاه حسان ، وقال قصيدته الآتية:

ولقَدْ بكَيْتُ وعَزَّ مَهْلِكُ جَعْفَرٍ حِبَّ النبيِّ على البريَّةِ كلِّهَا
ولقد جَزِعْتُ وقلْتُ حين نُعِيْتَ لي مَنْ للجِلادِ لدَى العُقَابِ وظِلِّها[5]
بالبِيْضِ حينَ تُسَلُّ من أغْمَادِها ضَرْباً وإنْهَالِ الرِّمَاحِ وعَلِّهَا[6]
بعدَ ابْنِ فاطِمَةَ المُبارِكِ جَعْفَرٍ خيرِ البريَّةِ كلِّها وأجَلِّها[7]
رُزْءاً ، وأكْرَمِهَا جميْعاً مَحْتِداً وأعَزِّها مُتَظَلَّماً ، وأذلِّها[8]
للحقِّ حينَ يَنوبُ غيرَ تَنَحُّلِ[9] كَذِباً ، وأنْدَاها يَدَاً[10] ، وأقَلِّها

(١) في الديوان: «حوله».
(٢) الرضام: جمع رضم ، وهي الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض. والطود: الجبل ، يقهر: يعني يغلب.
(٣) البهاليل: جمع البهلول ، وهو السيد الوضيء الوجه.
(٤) اللأواء: الشدة ، والعماس: المظلم ، يريد ظلامه من كثرة النقع المثار وقت الحرب.
(٥) العقاب: اسم لراية الرسول ﷺ.
(٦) الإنهال: الشرب الأول ، والعلُّ: الشرب الثاني ، يريد الطعن بعد الطعن.
(٧) فاطمة: هي أم جعفر وعلي بن أبي طالب ، وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي (عن أبي ذر).
(٨) المحتد: الأصل.
(٩) التنحل: الكذب.
(١٠) في ديوانه: «وأغمرها ندى».

فُحْشاً ، وأكثَرِها إذا ما يُجْتَدى[1] فَضْلاً ، وأبْذَلِها نَدَىً ، وأبَلِّها[2]
بالعُرْفِ غيرَ محمَّدٍ لا مِثْلَهُ حيٌّ مِنَ أحياءِ البَرِيَّةِ كُلِّها[3]

قصيدته في رثاء عبد الله بن رواحة:

ولما استشهد جعفر بن أبي طالب خَلَفه عبد الله بن رواحة كما أمر بذلك رسول الله ﷺ ، وأُكرم عبد الله بن رواحة بالشهادة مع إخوانه الشهداء كذلك ـ رحمهم الله تعالى ـ وهذه هي القصيدة التي رثى بها حسان بن ثابت عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة:

عَيْنُ جُودي بدَمْعِكِ المَنْزُورِ واذكُرِي في الرَّخَاءِ أهلَ القُبورِ[4]
واذكُرِيْ مُؤتَةَ وما كانَ فيْهَا يومَ رَاحُوا في وَقْعَةِ التَغْوِيرِ[5]
حينَ رَاحُوا وغَادَروا ثَمَّ زَيْداً نِعْمَ مَأْوَى الضَّرِيْكِ والمَأْسُورِ[6]
حِبَّ خيرِ الأنامِ طُرَّاً جَمِيْعاً سَيِّدَ النَّاسِ حُبُّهُ في الصُّدُورِ
ذاكُمُ أحمَدُ الَّذِيْ لا سِواهُ ذَاكَ حُزْنِي لهُ معاً وسُرُورِي
إنَّ زَيْداً قد كانَ منَّا بأمْرٍ ليسَ أمْرَ المُكَذِّبِ المَغْرُورِ
ثُمَّ جُودِيْ للخَزْرَجِيِّ بدَمْعٍ سَيِّداً كانَ ثَمَّ غَيْرَ نَزُورِ[7]
قَدْ أتَانَا مِنْ قَتْلِهِمْ ما كَفَانَا فبِحُزْنٍ نَبِيْتُ غَيْرَ سُرُورِ

شعره بمناسبة المسير إلى مكة قبل الفتح:

في رمضان سنة ثمانٍ أراد رسول الله ﷺ أن يسير إلى مكة فتجهز لذلك وأعلم الناس بمسيره وأمرهم بالجد والتهيؤ ، ودعا الله سبحانه وتعالى قائلاً: «اللهم خذ

(١) الاجتداء: طلب الجدوى ، وهي العطية.
(٢) كذا في ديوانه ، وفي الأصول: «وأنداها يداً».
(٣) رأينا هذا البيت في ديوانه هكذا:
الخيرِ بعدَ محمدٍ لا شبهَهُ بشرٍ يعدُ من البريةِ جلها
(٤) المنزور: القليل يريد أنه بكى حتى قل دمعه: فهو يأمر عينه أن تجود بذلك القليل على ما هو عليه.
(٥) التغوير: الإسراع إلى الفرار.
(٦) الضريك: الفقير.
(٧) الخزرجي: هو عبد الله بن رواحة ، والنزور: القليل العطاء ، وهذا البيت غير مذكور في الديوان.

العيون والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتَها في بلادها» وأخذ الناس عُدّتهم ، وانتهز المناسبة حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال أبياتاً من الشعر يحرِّض فيها الناس على المسير إلى مكة ، ويذكر قوماً من بني كعب بن خزاعة ممن كان النبي الكريم ﷺ قد أدخلهم في حلفه يوم الحديبية ، فغدرت بهم قريش :

عَنَاني ولَمْ أَشْهَدْ ببَطْحاءِ مكَّةَ ... رِجالُ بَنِيْ كَعْبٍ تُحزُّ رقَابُها(١)
بأيْدِي رجالٍ لم يَسُلُّوا سُيوفَهُمْ ... وقَتْلى كثيرٌ لم تُجَنَّ ثِيَابُها(٢)
ألا ليْتَ شِعْري هَلْ تنالَنَّ نُصْرَتي ... سُهَيلَ بنَ عَمْروٍ حَرُّها وعِقَابُها(٣)
وصَفْوانُ عَوْدٌ حَزَّ مِنْ شَعْرِاسْتِهِ ... فهَذَا أوانُ الحَرْبِ شُدَّ عِصابُها(٤)
فلا تَأمَنَنَّا يا ابنَ أمِّ مُجالِدٍ ... إذا احتُلِبَتْ صَرْفاً وأعصَلَ نابُها(٥)
ولاتَجْزَعُوا مِنْها فإنَّ سُيوفَنَا ... لها وَقْعَةٌ بالمَوْتِ يُفْتَحُ بَابُها

وفي الديوان :

ولو شَهِدَ البَطْحاءَ مِنَّا عِصابةٌ ... لَهَانَ عَلَيْنا يومَ ذاكَ ضِرَابُها(٦)

قصيدته المخضرمة قبل فتح مكة :

وقد كان حسان بن ثابت أراد أن يقرض قصيدة قبل إسلامه ، فبدأها جاهلية وتركها على عشرة أبيات بدائية ، ثم وفق للاهتداء إلى الإسلام فأتمها إسلامية قبل

(١) وفي الديوان : وغبنا فلم نشهد ، تحزّ : بمعنى تقطع .
(٢) بأيدي رجال : يريد بهم قريشاً ، بأيدي : متعلق بما في البيت الأول من قوله : «تحز» ، قتلى عطف على رجال ، أو على جملة : رقابها ، لم تجن ثيابها : يعني لم تستر ، أي قتلوا ولم يُدفنوا .
(٣) حرها وعقابها ، وفي رواية : حربها وعقابها ، وفي الديوان : وخزها وعقابها ، سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري أحد أشراف قريش وسادتهم ، أسر يوم بدر كافراً وكان خطيب قريش ، ثم أكرمه الله بالإسلام .
(٤) هو صفوان بن أمية بن خلف القرشي الجمحي ، العود : المسن من الإبل ، من شعراسته ، يروى : من شقراسته ، و : من شفراسته ، والشفر الناحية ، وشد عصابها : يعني عصاب الاست ، والعصاب ما يعصب ويشد .
(٥) ابن أم مجالد : هو عكرمة بن أبي جهل ، الصرف : الخالص : يعني اللبن الخالص ، وأعصل : بمعنى أعوج ، وفي الديوان : إذا لقحت حرب .
(٦) البطحاء : أراد بها بطحاء مكة .

فتح مكة ، وهي قصيدته المخضرمة التي تحدثنا عنها في شعره الجاهلي ، وأنشدْنَا هناكَ القصيدةَ بكاملها ، وهي قصيدتُه الأولى في ديوانه من قوافي الهمزة ومطلَعُها :

عَفَتْ ذَاتُ الأصَابِعِ فالجَوَاءُ ... إلَى عَذْراءَ منزِلُهَا خَلاءُ

شعره في غزوة الفتح :

كان النبي الكريم ﷺ قَدَّمَ خالدَ بن الوليد في غزوة الفتح في بني سليم وغيرهم ، وسار هو ﷺ في المهاجرين والأنصار ، فلما جعل ﷺ بني سليم في المقدمة كرهت ذلك الأنصار ، فقال حسان يعاتب :

زادَتْ هُمُومِي فمَاءُ العَيْنِ يَنْحَدِرُ ... سَحّاً إذا حَفَلَتْهُ عَبْرَةٌ دِرَرُ(١)
وَجْداً بشَعْثَاءَ إذ شَعْثَاءُ بُهْكَنَةٌ ... هَيْفَاءُ لا دَنَسٌ فيها ولا خَوَرُ(٢)
دَعْ عنكَ شَعْثَاءَ إذْ كانَتْ مَودَّتُها ... نَزْراً وشرُّ وِصَالِ الوَاصِلِ النَّزَرُ(٣)
وائْتِ الرَّسولَ فقُل يا خَيْرَ مؤتَمَنٍ ... للمُؤمِنِينَ إذا ما عُدِّدَ البَشَرُ
عَلامَ تُدْعَى سُلَيْمٌ وهْيَ نازِحَةٌ ... قُدَّامَ قَوْمٍ هُمْ آوَوْا وهُمْ نَصَروا(٤)
سمَّاهُمُ اللهُ أنْصَاراً لنَصْرِهِمُ ... دِيْنَ الهُدى وعَوانُ الحَربِ تَسْتَعِرُ(٥)
وسَارَعُوا في سَبِيْلِ اللهِ واعتَرَفُوا ... للنَّائباتِ وما خَامُوا وما ضَجِروا(٦)
والنَّاسُ أَلْبٌ عَلَيْنا فيكَ لَيْسَ لَنا ... إلا السُّيوفَ وأطْرَافَ القَنَا وَزَرُ(٧)
نُجالِدُ النَّاسَ لا نُبقي على أحَدٍ ... ولا نُضَيِّعُ ما تُوحِي بهِ السُّوَرُ(٨)

(١) السح : الصب ، يقال : سح المطر إذا صب ، وحفلته : يعني جمعته ، وفي رواية : أغرقته ، درر : جمع درة بكسر الدال : بمعنى سائلة ، عبرة : يعني دمعة .
(٢) الوجد : الحزن ، شعثاء وفي رواية : شماء ، اسم امرأة كان يحبها ، بهكنة : جارية خفيفة الروح طيبة الرائحة ، مليحة حلوة ، وقيل معناها : امرأة تازة غضة ذات شباب ، لادنس : يعني نقية الحسب ، الخور : الضعف ، هيفاء : ضامرة البطن والخصر .
(٣) النزر : القليل .
(٤) يعاتب في هذا الكلام ، قدام : يعني أمام ، قوم : أراد بهم الأنصار .
(٥) عوان الحرب : يريد الحرب العوان ، هي التي قوتل فيها المرة بعد المرة .
(٦) ما خاموا : يعني ما جبنوا ، ما ضعفوا ، يقال : خام في القتال إذا ضعف فيه ونكص عنه .
(٧) الناس ألب علينا : يعني متألبون علينا مجتمعون ضدنا ، الوزر : الملجأ .
(٨) لا نبقي على أحد : أي لا نرحم على أحد ولا نرثي له .

ولا تَهِـرُّ جُنَـاةُ الحَـرْبِ نـادِيَنـا ... ونحـنُ حيـنَ تَلَظَّـى نـارُهـا سُعُـرُ[1]
كمَـا رَدَدْنـا ببَـدْرٍ دونَ مـا طَلَبُـوا ... أهْـلَ النِّفـاقِ وفِيْنـا ينـزِلُ الظَّفَـرُ[2]
ونَحْـنُ جُنْـدُكَ يـومَ النَّعْـفِ مِـنْ أُحُـدٍ ... إذ حـزَّبَـتْ بَطَـراً أحـزابَهَـا مُضَـرُ[3]
فمَـا وَنَيْنـا ومـا خُمْنَـا ومـا خَبَـرُوا ... مِنَّا عِثَاراً ، وكلُّ الناسِ قد عَثَرُوا[4]

حسان يفتخر بنفسه وقومه :

هذه قصيدة يفتخر فيها حسان بنفسه وقومه ويذكر أيامهم الأولى التي حكموا فيها الناس ، ثم لما جاء الإسلام كان لهم الفضل بالنصر والإيواء للرسول الكريم ﷺ وأصحابه ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ ، ويشير فيها إلى خصائص قومه التي كانوا يتميزون بها عن غيرهم ، من المعروف ، والسخاء والشجاعة ، والصبر على الشدائد ، والحلم والحكم بالعدل ، ويذكر في الأخير سعد بن معاذ ـ رضي الله تعالى عنه ـ ويشير إلى حنظلة ـ رضي الله تعالى عنه ـ الذي استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة ، يقول :

كُنَّـا مُلُـوكَ النَّـاسِ قبـلَ مُحَمَّـدٍ ... فلمَّـا أتَـى الإسـلامُ كـانَ لنَـا الفَضْـلُ
وأكْـرَمَنَـا اللهُ الَّـذِيْ ليـسَ غَيـرُه ... إلـهٌ بـأيَّـامٍ مَضَـتْ ، مـالَهَـا شَكْـلُ[5]
بنَصْـرِ الإلـهِ والـرَّسُـولِ ودِينِـهِ ... وأُلبِسْنَـاه اسْمَـاً مضَـى مـالَـهُ مِثْـلُ[6]
أولَئِـكَ قَـوْمـي خيـرُ قَـوْمٍ بـأسْـرِهِـمْ ... فمـا عُـدَّ مـن خَيْـرٍ فقَـوْمـي لَـهُ أهْـلُ
يُرَبُّونَ بالمَعْروفِ مَعْروفَ مَنْ مَضَى ... وليسَ عليهِمْ دونَ مَعْروفِهِمْ قُفْلُ[7]

(١) لا تهر : لا تكره ، سعر : جمع سعير : يعني توقد الحرب واشتعالها .
(٢) يشير إلى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .
(٣) النعف : أسفل الجبل ، حزبت : بمعنى جمعت .
(٤) ونينا من : ونى يني : بمعنى فتر وضعف ، ما خمنا من : خام يخيم : يعني ما جبُنّا ، ما خبروا : يعني لم يجربوا فينا زلة أو عثاراً .
(٥) يعني لا تماثلها أيام الناس التي يفاخرون بها .
(٦) يريد بالاسم الذي ألبسهم الله إياه (الأنصار) فإن في هذا الاسم من الفضائل ودلائل الفخار ما لا يأتي عليه الحصر .
(٧) يربون من : رب يرب : بمعنى أصلح ، وجمع .

إذا اختُبِطُوا لـم يُفْحِشُوا فـي نَـدْيِهِـمْ ... وليسَ على سُؤالِهِمْ عندهُمْ بُخْلُ[1]
وإنْ حَـارَبَـوا أو سَـالَمـوا لـم يُشَبِّهُـوا ... فحَـرْبُهُـمُ حَتْـفٌ وسِلْمُهُـمُ سَهْـلُ
وجـارُهُـمُ مُـوْفٍ بعَلْيـاءَ بَيْتُـهُ ... لـهُ مـا ثَـوَى فِيْنـا الكَـرامـةُ والبَـذْلُ
وحَـامِلُهُـمْ مُـوْفٍ بكُـلِّ حَمَـالَـةٍ ... تَحَمَّـلَ لا غُـرْمٌ عَلَيْـهِ ولا خَـذْلُ[2]
وقـائِلُهـمْ بـالحـقِّ إنْ قـالَ قـائـلٌ ... وحِلمُهُـمُ عَـوْدٌ ، وحُكْمُهُـمُ عَـدْلُ[3]
ومِنَّـا أمِيْـنُ المُسلميـنَ حَيـاتُـهُ ... ومَـنْ غَسَّلَتْـهُ مِـنْ جَنَـابَتِـهِ الرُّسْـلُ[4]

قصيدة أخرى في الفخر بقومه :

وهنا قصيدة أخرى يعتز فيها بقومه ويعدد أوصافهم المميزة لهم ، ويذكُر أنهم كانوا ملوكاً يعيشون في نعمة وعزة وسؤدد وشجاعة ، ولكن في ظلام الجاهلية إذ أتاهم الرسول الكريم ﷺ بنور الحق فصدقوه وأحبوه ونصروه وساروا معه في حروبه وغزواته ، وما بخلوا بأي شيء كان لهم في تأييد الدين ونصرة الحق وتعزيز الإسلام ، مطلعها :

أولَئِـكَ قَـوْمِـي فَـإنْ تَسـألِـيْ ... كِـرامٌ إذا الضَّيْـفُ يَـوْمـاً أَلَـمْ[5]

شعر حسان في عام الوفود :

ولما تم فتح مكة للرسول الكريم ﷺ وفرغ من غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وأسلمت ثقيفُ وبايَعَتْ ، بدأت وفود العرب تَتْرَى إليه من كل وجه ، وذلك في سنة تسعٍ ولذلك سميت بسنة الوفود .

وقدم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ وفيهم عُطَارِدُ بن حاجبِ بن زُرارة بن

(١) المختبط : هو الذي يقصدك طالباً لمعروفك ، وهنا اختبطوا بالبناء على المفعول : يعني إذا قصدهم سائل لمعروفهم فلا يبخلون .
(٢) الحمالة : ما يحمله الإنسان من غرم دينه ، الخذل : الخذلان .
(٣) عود : بمعنى قديم .
(٤) أمين المسلمين : هو سعد بن معاذ ـ رضي الله تعالى عنه ـ . ومن غسلته الرسل : هو حنظلة ـ رضي الله تعالى عنه ـ .
(٥) لقد أنشدنا هذه القصيدة بكاملها ، في مبدأ البحث عن حسان في فصل (صفحة جديدة في تاريخ الدفاع عن الإسلام) .

عدس التميمي والأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، والحَبْحَاب بن يزيد ، فلما دخل هذا الوفدُ المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن اخرجْ علينا يا محمد ، فآذى ذلك رسول الله ﷺ ولكنه خرج إليهم(١) ، فقالوا : يا محمدُ ، جئناك نفاخرك فَأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت .

وفي هذه المناسبة بعث رسول الله ﷺ إلى حسان فجاء وهو ينشد :

مَنَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ حَلَّ وَسْطَنا ... علَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ ورَاغِمِ(٢)

وهي أربعة أبيات .

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كان شاعرَ القوم الزبرقانُ بن بدر يعرض كلامه ، فلما فرغ قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : «قم يا حسان ، فأجِبِ الرجل فيما قال» فقام حسان يقول على نحو ما قال الرجل في الرديف والقافية نفسها ، وكان مطلع القصيدة :

إنَّ الذَّوائِبَ مِنْ فِهْرٍ وإِخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ(٣)

حسان يمدح النبي الكريم ﷺ :

لون حسان في مدح النبي الكريم ﷺ رائع وجميل جداً ، وقد أفاض في المدح بنَفَس طويل ولم تسنح له فرصةٌ في ذلك إلا وقد انتهزها لإبداء مشاعره وبيان صفاتِهِ ﷺ ما يمكن ، وهذه أبيات من قافية الدال يمدح فيها المصطفى ﷺ :

أغَرُّ عَلَيْهِ للنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ ويُشْهَدُ(٤)

---

(١) وهنالك نزلت سورة الحجرات ، والآية التي تتعلق بهذا الحادث هي : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

(٢) اقرأ الأبيات بكاملها في قصيدته الميمية التي مطلعها :

هل المجدُ إلا السؤددُ العود والندى ... وجَاهُ الملوك واحتمال العظائم

وهي تحتوي على ١٤ بيتاً . انظر الديوان قافية الميم .

(٣) أدرجنا القصيدة بكاملها في أوائل البحث عن حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، تحت عنوان : «دور حسان في مفاخرة وفد بني تميم» .

(٤) أغر : كريم الأفعال واضحها على المثل ، والأغر من الغُرة : بياض الوجه . وقوله : عليه للنبوة خاتم من الله ، يجوز أن يكون المراد عليه من إشراقه وتلألئه ومن جميع خصاله طابع النبوة يلوح ويشاهد ، وأن يكون المراد خاتم النبوة على حقيقته وخاتم النبوة بفتح التاء وكسرها ، قيل : إنه=

وضَمَّ الإلهُ اسمَ النَّبيِّ إلى اسْمِهِ ... إذا قالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ(١)

وشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ(٢)

نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يأْسٍ وفَتْرَةٍ ... منَ الرُّسْلِ والأوثانُ في الأرْضِ تُعْبَدُ(٣)

فأمْسَى سِراجاً مُسْتنِيراً وهَادِياً ... يَلُوحُ كمَا لاحَ الصَّقِيلُ المُهنَّدُ(٤)

وأنذَرَنَا نَاراً وبشَّرَ جَنَّةً ... وعَلَّمنا الإسْلامَ فاللهَ نَحْمَدُ(٥)

= شامة خضراء أو سوداء محتفرة في اللحم ، وقيل : كغدة عند غضروف كتفه اليسرى ، قيل : ولد عليه السلام به ، وقيل : بعد أن ولد ، والذي يظهر أنه من اختصاصه ﷺ لأنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين .

(١) قوله : إذا قال في الخمس المؤذن أشهد ، بيان لقوله : وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ، وذلك أن المؤذن يقول في كل صلاة من الصلوات الخمس : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

(٢) قوله : فذو العرش محمود ، بيان لقوله : وشق له من اسمه ، وهذا البيت ليس من قول حسان وإنما هو لأبي طالب ضمنه حسان شعره ، وأصل البيت : شق له دون واو على أن فيه خرماً أي حذف حرف من أوله وهو الواو .

(٣) الفترة : ما بين كل رسولين من رسل الله ـ عز وجل ـ من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة ، وقوله : والأوثان : جمع وثن ، قال شمر : أصل الأوثان عند العرب كل تمثال من خشبة أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها وقد سمّى الأعشى الصليب الذي تعظمه النصارى وثناً قال الشاعر :

تطوف العفاة بأبوابه ... كطوف النصارى ببيت الوثن

أراد الصليب ، وقال عدي بن حاتم : قدمت على النبي الكريم ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي : ألق هذا الوثَنَ عنك ، وبعضهم جعل الصنم والوثن واحداً وآخرون فرقوا بينهما ، قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض ، أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة .

(٤) قوله : فأمسى سراجاً مستنيراً ، قال تعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٦] أي : مثل السراج الذي يستضاء به أو مثل الشمس ـ لأن من معاني السراج الشمس : ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ فهو عليه السلام يهتدى به في الظلم ، وقوله يلوح : أي يلمع لمعان السيف الصقيل .

(٥) قوله : وأنذرنا ناراً ، فالإنذار الإعلام والتحذير مما يخاف منه ، والمنذر المخوف المحذر ، وقوله : وبشّر جنة ، تقول : بشّره وأبشره فبشر به فرح . والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير ، ولكنها تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقوله : فالله نحمد ، قدم الله لإفادة الحصر أي إنما نحمده هو لا غيره .

وأنـتَ إلَـهُ الحَـقِّ ربِّـي وخَـالِقِـيْ بذلكَ ما عُمِّرْتُ في الناسِ أَشْهَدُ[1]
تَعَالَيْتَ ربَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دعَا سِـواكَ إلَهَـاً أنـتَ أعْلَـى وأمجَـدُ
لـكَ الخَلْـقُ والنَّعمـاءُ والأمـرُ كُلُّـه فـإيَّـاكَ نستَهْـدِي وإيَّـاكَ نعبُـدُ[2]

مصيبة المسلمين التي لا تعادلها مصيبة:

ولقد أكمل الله الإسلام وأظهره على الدين كله على يد خاتم الأنبياء ﷺ، وشاء أن يلتحق النبي الكريم ﷺ بالرفيق الأعلى، ويذهب إلى ربه فرحاً مستبشراً بما قد وفقه الله إلى تثبيت دعائم الإسلام، ذهب وخلّف وراءه جماعة من الصحابة الكرام الذين انتصروا للدين وقاموا بالدعوة إلى الله على الخط الذي اختطه لهم النبي الكريم ﷺ.

قال ابن إسحاق في «سيرته»:

«ولما توفي رسول الله ﷺ عَظُمَتْ به مصيبةُ المسلمين، فكانت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ (فيما بلغني) ـ تقول: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، واشرأبَّتِ اليهوديةُ والنصرانيةُ، ونَجَمَ النفاقُ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ، حتى جَمَعَهُمُ اللهُ على أبي بكر».

وقال ابن هشام في «السيرة النبوية»:

«حدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله ﷺ همّوا بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم عَتَّابُ بن أُسَيْد (وكان والي مكة حين وفاة النبي الكريم ﷺ) فتوارى، فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمَنْ رَابَنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به، وظهر عتاب بن أسيد»[3].

(١) قوله: إلَه الخلق، هو يا إلَه الخلق، وقوله: بذلك، متعلق بقوله: أشهد.

(٢) قوله: لك الخلق، فالخلق في كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدعه على غير مثال سبق إليه، ونعمة الله ونعماؤه منه، وما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه من نعمه الظاهرة والباطنة، وقوله: فإياك نستهدي، يعني نطلب الهداية، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ شرح ديوان حسان للبرقوقي، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٣) السيرة البنوية لابن هشام: ٤/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

حسان يرثي رسول الله ﷺ بقصيدة طويلة:

وهنا قصيدة طويلة قالها حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ إثر وفاة الرسول الكريم ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى، يبدي فيها أسفه الشديد على المصاب العظيم، ويتحدث عما أفاض النبي الكريم ﷺ على الناس من نِعَمٍ لا يأتي عليها الحصر، ويعدد ما كانوا يجدونه عنده ﷺ من حب وعطف ورحمة واهتمام بهم، فيذكر تفجعه والحسرة التي أصيب بها المسلمون، حتى لم يَعُوا ماذا يعملون وكيف يعيشون بعده؟ وقد كان البكاء والحزن شديدين لا يكاد يفيق عنهما الناس، وقد حكى حسان كل ذلك بلغة الشعر النابع من القلب، وكأنه سطّره بدم القلب يقول:

بِطَيْبَـةَ رَسْـمٌ للـرَّسـولِ ومَعْهَـدُ منيـرٌ وقـد تَعْفُـو الـرُّسُـومُ وتَهْمَـدُ[1]
ولا تَنْمَحِـي الآيـاتُ مِـنْ دارِ حُـرْمَـةٍ بها مِنْبرُ الهَادِي الَّذي كانَ يَصْعَدُ[2]
وواضِـحُ آيـاتٍ وبَـاقِـيْ مَعَـالِـمٍ ورَبْـعٌ لَـهُ فيـهِ مُصَلًّـى ومَسْجِـدُ
بهـا حُجُـراتٌ كـانَ يَنْـزلُ وَسْطَهـا مِـنَ اللهِ نُـورٌ يُستضَـاءُ ويُـوقَـدُ[3]
مَعَـالِـمُ لَـمْ تُطْمَسْ على العَهْـدِ آيُهـا أتَـاهَـا البِلَـى فـالآيُ منهـا تَجَـدَّدُ[4]
عَـرفْـتُ بهـا رَسْـمَ الـرَّسـولِ وعهْـدَهُ وقَبْـراً بـه وَارَاهُ فـي التُّـرْبِ مُلْحِـدُ[5]
ظَلَلْتُ بها أبْكِي الرَّسولَ فأسْعَدَتْ عُيُوْني ومِثْلاها مِنَ الجَفْنِ تُسْعِدُ[6]

(١) طيبة: هي مدينة النبي كما لا يخفى، وهو صلوات الله عليه الذي سماها بذلك، والمعهد: المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه، وقوله: وتهمد: الهمود البلى في كل شيء.

(٢) ولا تنمحي الآيات: فالآيات: جمع آية، وهي العلامة، وقوله: الذي كان يصعد أي: المنبر الذي كان يصعده الهادي ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ.

(٣) الحجرات: جمع حجرة: يعني مساكن الرسول الكريم ﷺ.

(٤) لم تطمس: لم تغير، وقوله: على العهد آيها: أي: إن آياتها لا تزال على ما نعهد، مبتدأ وخبر، وقوله: فالآي منها تجدد أي تتجدد، ولعل المراد بالآي ههنا آيات الذكر الحكيم أو المراد بها الآثار.

(٥) الملحد: صانع اللحد.

(٦) قوله: فأسعدت عيوني: أي فأعانتني عيوني وساعدتني بالدموع لمكان اللوعة مني، وقوله: ومثلاها من الجفن تُسعد، فالجفن جفن العين وهو غطاء العين من أعلى وأسفل، والمراد بالجفن هنالعين نفسها، يقول: ومثل عيني تواتيني بالدموع.

تَـذَكَّـرُ آلاءَ الـرَّسـولِ ومـا أرى ... لهـا مُحْصِياً نَفْسي ، فنَفْسي تَبَلَّدُ(١)
مُفَجَّعَـةً قـد شَفَّهَـا فَقْـدُ أحمَـدٍ ... فظلَّـتْ لآلاءِ الـرَّسـولِ تُعَـدِّدُ(٢)
ومـا بلَغَـتْ مـن كـلِّ أمـرٍ عُشَيْـرَهُ ... ولكـنَّ نَفْسِي بعضَ مـا فيـهِ تَحْمَدُ(٣)
أَطالَتْ وُقُوفاً تَذْرِفُ العيونُ جَهْدَها ... علـى طَلَـلِ القَبْـرِ الَّـذي فيـهِ أحمَـدُ
فَبُوْرِكْتَ يا قبرَ الرَّسولِ وبُوْرِكَتْ ... بـلادٌ ثَـوَى فيهـا الـرَّشيـدُ المُسَـدَّدُ(٤)
وبُـوْرِكَ لَحْـدٌ مِنْـكَ ضُمِّـنَ طَيِّبـاً ... عليـهِ بِنـاءٌ مِـنْ صَفِيْـحٍ مُنَضَّـدُ(٥)
تُهِيْـلُ عليـهِ التُّـرْبَ أَيْـدٍ وأعْيُـنٌ ... عليـهِ وقـد غـارَتْ بـذلِـكَ أَسْعُـدُ(٦)

(١) قوله: تذكر بحذف إحدى التائين: أي تتذكر والفاعل قوله: نفسي ، وقوله: تبلد ، إنما هو تتبلد بحذف إحدى التائين كذلك ، وتتبلد ، أي تلحقها حيرة ، والتبلد أيضاً نقيض التجلد ، وهو استكانة وخشوع.
قال الشاعر:
ألا لا تلمـــه اليـــوم أن يتبلـــدا ... فقـد غلـب المحـزون أن يتجلـدا
يقول: تتذكر نفسي نِعَم الرسول ﷺ فأحاول إحصاءها فأراها لا تحصى كثرة ، وأرى نفسي في حيرة ، ثم أبان سبب هذه الحيرة بقوله في البيت التالي: مفجعة ، إلى آخر البيت.

(٢) مفجعة يقال: فجعته المصيبة وفجعته: أوجعته فهو مفجع أي موجع. والفاجعة: الرزية الموجعة التي تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم ، وشفه الحزن والهم: لذع قلبه وأضمره وهزله حتى رق وهو من قولهم: شف الثوب إذا رقّ حتى يشف جلد لابسه ، وتعدد: مضارع عدد أي عد.

(٣) العشير: في الأصل كالعشر ، الجزء من أجزاء العشرة ، وجمع العشير أعشراء مثل نصيب وأنصباء ، وقوله: بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر.

(٤) المسدد: يقال: سدده الله وفقه للسداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل.

(٥) الصفيح: الحجر الرقيق العريض ، والبناء المنضد: ما رصف وجعل بعضه على بعض تقول: نضدته ونضته.

(٦) تهيل: مضارع هال عليه التراب وأهاله دفعه فانهال وسقط ، وقوله: وأعين عليه ، لعله يريد أن يقول: وفي الوقت الذي تهيل الأيدي التراب عليه تهيل الأعين الدموع عليه أي: تذرف ، ويكون ذلك من باب المشاكلة ، وقوله: وقد غارت بذلك أسعد: جمع سعد أحد سعود النجوم ، وكما قال ـ رضي الله عنه ـ في الأبيات التي قبل هذه يذكر مطلع النبي:
لقـد نـزلـت منـه علـى أهـل يثـربَ ... بِكَـاب هـدًى حلَّـت عليهـم بـأَسْعُـدِ
قال هنا يذكر مغيبه: وقد غارت بذلك أسعد؛ يقول: وقد غاب بغيابه صلوات الله عليه اليمن والبركة.

لقـد غَيَّبـوا حِلْمـاً وعِلْمـاً ورَحْمـةً ... عشيَّـةَ عَلَّـوهُ الثَّـرَى لا يُـوسَّـدُ(١)
ورَاحُـوا بحُـزْنٍ ليـسَ فيهِـمْ نَبِيُّهُـمْ ... وقـد وهَنَـتْ منهُـمْ ظُهـورٌ وأَعْضُـدُ(٢)
يبكُـونَ مَـنْ تبكِـي السَّمـواتُ يـومَـهُ ... ومَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأرضُ فالنَّاسُ أَكْمَدُ(٣)
وهـل عَـدَلَـتْ يَـوْمـاً رَزِيَّـةُ هـالِـكٍ ... رَزِيَّـةَ يـوم مـاتَ فيـهِ مُحَمَّـدُ(٤)
تَقَطَّـعَ فيـه مَنْـزِلُ الـوَحْـيِ عَنْهُـمُ ... وقـد كـانَ ذا نُـورٍ يغُـورُ ويُنْجِـدُ(٥)
يَـدلُّ علـى الـرَّحمـنِ مَـنْ يَقْتَـدي بـه ... ويُنْقِـذُ مِـنْ هَـوْلِ الخَـزايـا ويُـرْشِـدُ(٦)
إمـامٌ لهُـمْ يَهْـدِيْهِـمُ الحَـقَّ جـاهِـداً ... مُعَلِّـمُ صِـدْقٍ إنْ يُطيْعـوهُ يَسْعَـدُوا
عَفُـوٌّ عَـنِ الـزَّلاتِ يَقْبَـلُ عُـذْرَهُـمْ ... وإن يُحْسِنـوا فـاللهُ بـالخَيْـرِ أَجْـوَدُ(٧)
وإنْ نـابَ أمـرٌ لـم يقُـومُـوا بحَمْـدِه ... فمِـنْ عِنْـدِه تَيْسِيْـرُ مـا يَتَشَـدَّدُ(٨)
فَبَيْنَـا هُـمُ فـي نعمـةِ اللهِ بينَهُـمْ ... دَليـلٌ بـه نَهْـجُ الطـريقـةِ يُقْصَـدُ(٩)

(١) قوله: لا يوسّد: لا يجعل له وساد ، والوساد: المتكأ ، والوساد والوسادة: المخدّة ، يقول: فأصبح اليوم غيره بالأمس إذ لا متكأ ولا وسادة.

(٢) وهنت: ضعفت وفترت من أثر الحزن.

(٣) قوله: يبكّون ، قال الأصمعي بكيت الرجل وبكّيته بالتشديد كلاهما إذا بكيت عليه ، وقوله من تبكي السموات يومه ، أي اليوم الذي قُضي فيه ، وقوله: فالناس أكمد: أي أحزن ، من الكمد وهو الحزن.

(٤) يقول: ما ساوت يوماً مصيبة ميّت كان من كان ، مصيبة يوم توفي فيه سيدنا رسول الله ﷺ.

(٥) يغور ويغير: يبلغ الغور وهو المنخفض من الأرض ، وينجد: يبلغ النجد وهو المرتفع من الأرض ، والمراد أنه يعم جميع الأمكنة ، ومثله قول الأعشى:
نبـي يـرى مـا لا تـرون وذكـره ... أغـار لعمـري فـي البـلاد وأنجـدا

(٦) أي: يرشد صلوات الله عليه من يتبعه إلى الحق سبحانه وتعالى وينقذه من عاقبة الكفر والضلال ، وهي الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(٧) عَفُوٌّ فعول من العفو ، وهو التجاوز عن الذنب ، وترك العقاب عليه ، وأصله المحو والطمس ، وهو من أبنية المبالغة ، يقال: عفا يعفو عفواً فهو عاف وعَفُوٌّ.

(٨) ناب الأمر نوباً ونوبة نزل. وقوله: لم يقوموا بحمده: أي لم يقضوا حقه ولم يقوموا بما يجب عليهم نحوه ، وقوله: ما يتشدد أي ما يتصعب من الشدة إحدى الشدائد وهي الهزاهز ، يقول: إن نابتهم نائبة لم يقوموا نحوها بما يجب ، سهّلها سيدنا رسول الله ﷺ وكشف غمتها.

(٩) قوله: بينهم دليل ، بيان لنعمة الله التي هم فيها ، وجواب قوله: فبينا قوله: إذ غدا إلى نورهم سهم من الموت مقصد ، وقد أعاد «فبينا» في البيت الآتي لطول ما بين «فبينا» هنا ، وجوابها «غدا» وأصل (بينا) بين فأشْبِعَتِ الفتحة فصارت ألفاً ، ويقال: بينا وبينما وهما ظرفا زمان: بمعنى=

عَـزيـزٌ عليـهِ أَنْ يَحِيْـدوا عـن الهُـدَى ... حَـرِيْـصٌ على أن يَسْتقِيْمـوا ويَهْتَـدوا

عَطُـوْفٌ عليهِـمْ لا يُثَنَّـى جَنَـاحُـهُ ... إلـى كَنَـفٍ يَحْنُـو عليهِـمْ وَيمْهَـدُ[1]

فَبَيْنَـا هُـمُ فـي ذلـكَ الثُّـورِ إذْ غَـدَا ... إلى نورِهِمْ سَهْمٌ منَ المَوتِ مُقْصِدُ[2]

فـأصبـحَ مَحْمُـوداً إلـى اللهِ رَاجِعـاً ... يُبَكِّيـهِ جَفْـنُ المُـرْسَـلاتِ وَيحْمَـدُ[3]

وأمْسَـتْ بـلادُ الحُـرْمِ وَحْشَـاً بِقـاعُهَـا ... لِغَيْبَةِ ما كانَتْ منَ الوَحْيِ تَعْهَدُ[4]

قِفَـاراً سِـوى مَعْمُـوْرةِ اللَّحـدِ ضَـافَهَـا ... فَقِيْـدٌ يُبَكِّيـهِ بَـلاطٌ وغَـرْقَـدُ[5]

= المفاجأة ويضافان إلى جملة من فعل وفاعل ومبتدأ وخبر ويحتاجان إلى جواب يتم به المعنى ، قال ابن بري: والأفصح في جوابهما أن لا يكون فيه إذ أو إذا ، جاءا في الجواب كثيراً ، تقول: بينا زيد جالس دخل عليه عمرو ، وإذ دخل عليه وإذا دخل عليه.

(١) عطوف عليهم: مشفق عائد بفضله بارٌّ بهم ، وقوله: لا يُثَنَّى جناحه: لعله يريد لا يصرف عطفه عن أحد أي: إنه عطوف عليهم جميعاً ، ويجوز أن يكون قوله: إلى كنف ـ ومعنى الكنف الجانب ـ متعلقاً بقوله: يثنى ، أي لا يصرف ميله إلى جانب دون آخر ، وعلى التقدير الأول يكون قوله: إلى كنف معناه مضافاً ذلك كله إلى جانب يحنو عليهم ويمهد ، وعلى الثاني يكون قوله: عليهم ويمهد كلاماً مستأنفاً ، وأصل الجناح للطائر ، ويطلق على عضد الإنسان ويده ، وكله راجع إلى معنى الميل ، لأن جناح الإنسان والطائر في أحد شقيه ، وللعرب أمثال عدة في الجناح ، منها قولهم: فلان في جناح فلان ، أي ذراه وكنفه ، وقولهم في الرجل إذا جد في الأمر واحتفل: ركب فلان جناحي نعامة ، وقولهم: فلان في جناحي طائر ، إذا كان قلقاً دهشاً ، كما يقال: كأنه على قرن أعفر ويقولون: نحن على جناح سفر ، أي نريد السفر ، وقول حسان: ويمهد أي يوطئ ، وأصل المهد التوثير ، يقال: مَهَدْت لنفسي ، ومهَّدْت أي: جعلت لها مكاناً وطياً سهلاً ومنه قوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾: أي يوطئون.

(٢) قوله مقصد: أي مصيب ، من أقصد السهم أي أصاب فقتل مكانه ، قال الأخطل:

فـإن كنـت قـد أقصـدتنـي إذ رميتنـي ... بسهميـك فـالـرامـي يصيـد ولا يـدري

أي ولا يختل.

(٣) قوله: يبكّيه أي يبكي عليه ، والمراد بالجفن هنا العين نفسها ، والمرسلات: الملائكة ، ويروى: يبكيه جن المرسلات ، يريد الملائكة المستترة عن أعين الآدميين.

(٤) بلاد الحرم: يعني مكة وما اتصل بها من الحرم ، وقوله: لغيبة ما كانت ، يقول: أمست بقاع مكة وحرمها موحشة لغيبة ما كانت تعهده من الوحي ، أي لانقطاع الوحي لغيبة سيدنا رسول الله ﷺ.

(٥) قفاراً: يقول وأمست بلاد الحرم مقفرة خالية ما عدا قبراً نزل به فقيد يبكي عليه بلاط وغرقد ، ومسجده إلى آخره ، والبلاط موضع معروف بالمدينة بين المسجد والسوق ، وأصل البلاط ضرب من الحجارة تفرش به الأرض ثم سُمي المكان بلاطاً اتساعاً ، والغرقد في الأصل ضرب =

وَمَسْجِـدُه فـالمُـوْحِشَـاتُ لفَقْـدِه ... خَـلاءٌ لَـهُ فيـهِ مَقَـامٌ ومَقْعَـدُ[1]

وبـالجَمْـرةِ الكُبْـرى لَـهُ ثَـمَّ أَوْحَشَـتْ ... دِيـارٌ وعَـرْصَـاتٌ ورَبْـعٌ ومَـوْلِـدُ[2]

فَبَكِّـي رَسُـولَ الله يـا عَيْـنُ عَبْـرَةً ... ولا أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمُدُ[3]

ومـالَـكِ لا تَبْكِيْـنَ ذا النِّعمَـةِ الَّتـي ... علـى النَّـاسِ منهـا سـابِـغٌ يَتَغَمَّـدُ[4]

فَجُـوْدِي عليـهِ بـالـدُّمـوعِ وأَعْـوِلِـيْ ... لفَقْدِ الَّذي لا مِثْلُهُ الدَّهْرَ يُوجَدُ[5]

ومـا فقَـدَ المَـاضُـونَ مثـلَ محمَّـدٍ ... ولا مثلُـهُ حتَّـى القيـامَـةِ يُفْقَـدُ

أعَـفَّ وأوْفَـى ذِمَّـةً بعـدَ ذِمَّـةٍ ... وأقـرَبَ منـهُ نَـائِـلاً لا يُنَكَّـدُ[6]

وأبْـذَلَ مِنْـهُ للطَّـرِيْـقِ وتَـالِـدٍ ... إذا ضَـنَّ مِعْطَـاءٌ بمَـا كـانَ يُتْلَـدُ[7]

وأكْـرَمَ حَيَّـاً فـي البُيـوتِ إذا انْتَمَـى ... وأكْـرَمَ جَـدَّاً أبطَحِيـاً يُسَـوَّدُ[8]

وأمْنَـعَ ذِرْوَاتٍ وأثْبَـتَ فـي العُلَـى ... دَعَـائِـمَ عِـزٍّ شَـاهِقـاتٍ تُشَيَّـدُ[9]

= من شجر العضاه وشجر الشوك ، ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة: الغرقد ، وبقيع الغرقد، لأنه كان فيه غرقد ، واستؤصل ، قال زهير:

لمـن الـديـار غشيتهـا بـالغـرقـد ... كـالـوحي في حجر المسيل المخلد

(١) له فيه مقام ومقعد، أي: كان للفقيد صلوات الله عليه في هذه الأمكنة الموحشة لفقده المقفرة منه ، قيام وقعود.

(٢) يقول كما أقفرت منه بلاد الحرم وطيبة وبلاطها وغرقدها ومسجده بها عليه الصلاة والسلام أقفرت كذلك منه وأوحشت ديار وعرصات بالجمرة الكبرى ، والجمرة واحدة جمرات المناسك ، وهي ثلاث جمرات يرمين بالجمار بمنى ، وسميت جمرة لأنها ترمي بالجمار ، وقيل: لأنها مجمع الحصى التي ترمى بها من الجمرة وهي اجتماع القبيلة على من ناوأها.

(٣) يقول فاسفحي يا عيني على رسول الله عبرة بعد عبرة ولست أظن دمعك يجمد طوال الدهر.

(٤) سابغ: من أسبغ الله عليه النعمة: أكملها وأتمها ووسعها ، ونعمة سابغة: كاملة تامة ، ويتغمد: يغمر ويستر.

(٥) وأعولي: أي ارفعي صوتك بالبكاء.

(٦) النائل: ما تناله أي عطاء ، والمنكد: النزر وأن لا يهنأ من يعطاه.

(٧) الطريف والطارف: المال المحدث المستفاد ، والتالد والتليد: المال القديم الأصلي الذي ولد عندك أو ورث عن الآباء ، ويتلد: أي: يتخذ من مال.

(٨) انتمى: انتسب ، وأبطحياً: نسبة إلى الأبطح بمكة وقريش ، البطاح هم الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة وقريش ، الظواهر الذين ينزلون خارج الشعب وأكرمهما قريش البطاح.

(٩) ذروات: جمع ذروة ، وذروة كل شيء أعلاه ، وشاهقات: مرتفعات بعيدات.

وأثبتَ فَرْعاً في الفُروع ومَنْبَتاً ... وعُوْداً غداةَ المُزْنِ فالعُودُ أَغْيَدُ[1]

رَبَّاه وَلِيْداً فاسْتَتَمَّ تَمامَهُ ... على أكْرَمِ الخَيْراتِ رَبٌّ مُمَجَّدُ[2]

تَناهَتْ وُصَاةُ المُسلِمِينَ بكفِّهِ ... فلا العلمُ مَحْبوسٌ ولا الرأيُ يُفْنَدُ[3]

أقولُ ولا يُلْفَى لِقَوْلِيَ عائِبٌ ... منَ النَّاس إلا عازِبُ العَقْلِ مُبْعَدُ[4]

وليسَ هَوائِي نَازِعاً عَنْ ثَنائِهِ ... لَعَلِّي بِهِ في جَنَّةِ الخُلْدِ أَخْلُدُ[5]

مَعَ المُصْطَفى أرْجُوْ بذاكَ جِوارَهُ ... وفي نَيْلِ ذاكَ اليومِ أَسْعَى وأَجْهَدُ

قصيدة أخرى في الرثاء:

كيف ينام المحبون على فقد ذلك الحبيب الذي كانوا يفدونه بمُهَجِهِم وأرواحهم ، والذي كان يحل منهم محل القلب ، وكيف يقرّ لهم قرار وقد أقفرت المدينة وأوحشت البلاد ، ولم يعد فيها أنيس ولا أليف ، وبقيت الذكريات الجميلة التي لا تنقطع أبداً ، وهي وحدها معول الصبر والتعزي ، ولولاها لم يوجد من يصبر على الإقامة في مدينة الرسول الكريم ﷺ دونه ، كما عبر عنه حسان قائلاً :

أُقِيْمُ بَعْدَكَ بالمَدِيْنَةِ بَيْنَهُمْ ... يا لَيْتَنِيْ صُبِّحْتُ سَمَّ الأَسْوَدِ

وهكذا عاش حسان وصحابة النبي الكريم ﷺ في حزن وقلق دائمين ، لا يُعزَّون بأيّ حيلة ولا يجدون ما يذهب بهمومهم وآلامهم ، وقد عبر عن حبه العظيم للنبي

(١) المزن: السحاب ، وأغيد: ناعم متثنّ.

(٢) قوله: رب ممجد: فاعل رباه ، واستتم: بمعنى أتم وتمام الشيء ما تم به ، ومصداقُ قولِ حسان قولُهُ صلوات الله عليه: أدبني ربي فأحسن تأديبي.

(٣) لعله يريد والله أعلم أن يقول: وإذ أن سيدنا رسول الله أدبه ربه ورباه فلا جرم أن كان المسلمون يصدرون منه عن علم لا علم بعده ويصدرون عن رأيه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقوله: تناهت أي: انتهت بكفه ، والوصاة الوصية ، والمراد بها هنا ما يتلقاه المسلمون من الرسول ﷺ ، وقوله: بكفه ، فالكف هنا تمثيل لما عند رسول الله ﷺ من العلوم وكأنه في قبضة يده ، وقوله: ولا الرأي يفند ، فالفند الخطأ في الرأي ، وأفنده خطأ رأيه أو أضعفه.

(٤) عازب العقل: بعيده ، قال الشاعر: (فهن هواء والحلوم عوازب) هواء: خالية ، وعوازب: بعيدة.

(٥) قوله: نازعاً عن ثنائه ، يقال: نزع عن الأمر ينزع نزوعاً ، كف وانتهى.

الكريم ﷺ ، وعن قلقه وتحسره الشديد على المصاب العظيم الذي لا يبلغ أيّ حادث أو مصيبة مداه ، يقول:

مـا بَـالُ عَيْنَيْـكَ لا تنَـامُ كـأَنَّمـا ... كُحِلَـتْ مَـآقِيْهَـا بكُحْـلِ الأَرْمَـدِ[1]

جَـزَعاً على المَهْـدِيِّ أصبَحَ ثَـاوِياً ... يـا خيرَ مَـنْ وَطِـئ الحَصَى لا تَبْعُـدِ

وَجْهِـي يَقِيْـكَ التُّـرْبَ لَهْفِـي لَيْتَنِـي ... غُيِّبْـتُ قَبْلَـكَ فـي بَقِيْـعِ الغَـرْقَـدِ[2]

بـأَبِـيْ وأُمِّـيْ مَـنْ شَهِـدْتُ وَفَـاتَـهُ ... فـي يَـوْمِ الاثْنَيْـنِ النَّبِـيُّ المهتـدي[3]

فَظَلِلْـتُ بعـدَ وَفَـاتِـهِ مُتَبَلِّـدَاً ... مُتَلَـدِّداً ، يـا لَيْتَنـي لَـمْ أُوْلَـدِ[4]

أَأُقِيـمُ بَعْـدَكَ بـالمَـدِينَـةِ بينَهُـمْ ... يـا ليتَنِـيْ صُبِّحْـتُ سُـمَّ الأَسْـوَدِ[5]

أَوَحَـلَّ أمْـرُ اللهِ فِيْنَـا عَـاجِـلاً ... فـي رُوحِـه مِـنْ يَـومِنَـا أو فـي غَـدِ

فَتَقُـومُ سَـاعَتُنـا فَنَلْقَـى طيِّبـاً ... مَحْضَـاً ضَـرائِبُـهُ كـريـمَ المَحْتِـدِ[6]

يـا بِكْـرَ آمِنَـةَ المُبَـارَكُ بِكْـرُهَـا ... ولَـدَتْـهُ مُحْصَنَـةٌ بسَعْـدِ الأَسْعَـدِ[7]

نُـوْراً أضَـاءَ علـى البَـرِيَّـةِ كلِّهـا ... مَـنْ يُهـدَ للنُّـورِ المُبـارَكِ يَهْتَـدِي

يـا ربِّ فـاجمَعْنَـا معـاً ونَبِيَّنَـا ... فـي جنَّـةٍ تَثْنِـي عُيـونَ الحُسَّـدِ[8]

فـي جَنَّـةِ الفِـرْدوسِ فـاكْتُبْهـا لنـا ... يـا ذا الجَـلالِ وذا العُـلا والسُّـؤْدَدِ

(١) المؤقي والمأقي: مجرى الدموع من العين ، جمعهما مآقي ، والأرمد: الذي يشتكي وجع عينيه.

(٢) بقيع الغرقد: هو بقيع المدينة الذي يدفنون فيه موتاهم ، وقد تقدم ذكره.

(٣) بأبي وأمي: توفي سيدنا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة في مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة.

(٤) المتبلد: من أدركته حيرة ومثله المتلدد.

(٥) قوله: صُبحت: بمعنى سُقيت صبحاً ، والأَسْود: العظيم من الحيات ، وفيه سواد ، ويقال له: أسود سالخ لأنه يسلخ جلده في كل عام ، قال شمر: الأسود أخبث الحيات وأعظمها وأنكاها ، وليس شيء من الحيات أجرأ منه وربما عارض الرفقة وتبع الصوت ولا ينجو سليمه.

(٦) فنقوم ساعتنا: أي فتقوم القيامة ، وقوله: فنلقى طيباً... إلخ: يعني سيدنا رسول الله ﷺ ، والضرائب: جمع ضريبة وهي الطبيعة والسجية ، يقال: فلان كريم الضريبة ولئيم الضريبة ، والمحتد: الأصل.

(٧) المحصنة: العفيفة ، وأصل الإحصان المنع ، وقوله: بسعد الأسعد ، يريد سعد السعود النجم ، أي باليمن والبركة.

(٨) تثني: أي تصرف وتدفع من ثنى يثني.

واللهِ أَسْمَعُ ما بَقِيْتُ بِهَالِكٍ ... إلا بكَيْتُ على النَّبيِّ مُحَمَّدِ[1]

يا وَيْحَ أنصارِ النَّبيِّ ورَهْطِهِ ... بعدَ المُغَيَّبِ في سَوَاءِ المَلْحَدِ[2]

ضاقَتْ بالأنصارِ البلادُ فأصبحَتْ ... سُوْداً وُجُوهُهُمُ كلَوْنِ الإثْمِدِ[3]

ولقَدْ ولَدْنَاهُ وفِيْنا قَبْرُهُ ... وفُضُولُ نِعمَتِهِ بنا لم يُجْحَدِ[4]

واللهُ أكْرَمَنَا به وهَدى به ... أنصارَه في كلِّ سَاعةِ مَشْهَدِ

صلَّى الإلَهُ ومَنْ يَحُفُّ بعَرْشِهِ ... والطَّيِّبُونَ على المُبَارَكِ أَحْمَدِ

يا أفضلَ النَّاس إني كنتُ في نَهَرٍ:

لا يزال الحزن الشديد على فقد خاتم النبيين ﷺ يتعاود إلى حسان ويثير الشجون والذكريات ، ويفجر ينابيع الشعر الحزين والعواطف المكلومة في نفسه ، فإذا به يعود إلى الوراء ويُطل في مسارب الماضي ، ويتمثل له الواقع الحيّ الذي عاشه زمناً طويلاً بين أحضان النبي الكريم ﷺ ، ثم لا يلبث أن تنصاغ خواطره في قالب الشعر البديع ، ويتجلى فيه حبه العميق وولاؤه لهذا النبي العظيم ﷺ يقول :

آلَيْتُ ما في جمِيْعِ النَّاسِ مُجْتَهداً ... مِنِّي أَلِيَّةَ بَرٍّ غَيْرِ إفْنَادِ[5]

---

(١) قوله : أسمع يريد : لا أسمع ، يقول : يمين الله لا أسمع نعي ميت مدة حياتي إلا بكيت على النبي محمد ﷺ .

(٢) المغيب : هو سيدنا رسول الله ﷺ ، وسواء الملحد : وسطه ، وويح : كلمة ترحُّم وتوجُّع لمن تنزل به بلية ، وربما جعلت مع كلمة واحدة ، ويقال : ويحاً بالنصب على المصدر ، وقد ترفع وتضاف ولا تضاف ، وهي هنا مضافة .

(٣) الإثمد : قيل : حجر يتخذ منه الكحل نفسه ، ويقال للرجل الذي يسهر ليله سارياً أو عاملاً : فلان يجعل الليل إثمداً : أي يسهر ، فجعل سواد الليل لعينيه كالإثمد لأنه يسير الليل كله في طلب المعالي ، قال :

كميـش الإزار يجعـل الليـل إثمـدا ... ويغـدو علينـا مشـرقـاً غيـر واجـم

(٤) قوله : ولقد ولدناه لأن بني النجار أخوال سيدنا رسول الله ﷺ من قِبَل آبائه .

(٥) لعل تقدير البيت هكذا : آليت آلية بر غير إفناد مني مجتهداً «أي غير مقصر» ما في جميع الناس أنثى حملت أو وضعت مثل الرسول ﷺ . . إلخ ، وقوله : تالله في البيت الثاني على هذا التقدير إعادةً للقسم وتوكيداً ، والقسم من الأول منصب على قوله : ما حملت . . إلخ ، وفي نسخة ورد البيت هكذا :

آليـت حلفـة بـر غيـر ذي دخـل ... منـي أليـة بـر غيـر إفنـاد=

تَاللهِ مَا حَمَلَتْ أُنثَى ولا وَضَعَتْ ... مثلَ الرَّسولِ نبيِّ الأمَّةِ الهَادي

ولا بَرَا اللهُ خَلْقاً من بَرِيَّتِهِ ... أوفَى بذِمَّةِ جارٍ أو بمِيْعادِ[1]

مِنَ الَّذي كانَ فِيْنا يُسْتَضَاءُ بهِ ... مُبَارَكَ الأَمْرِ ذا عَدْلٍ وإرْشَادِ[2]

مُصَدِّقاً للنَّبيينَ الأُلَى سَلَفُوا ... وأَبْذَلَ الناسِ للمَعْروفِ للجَادِي[3]

يا أفضلَ النَّاسِ إنِّي كنتُ في نَهَرٍ ... أصبَحْتُ منهُ كمِثْلِ المُفْرَدِ الصَّادِي[4]

أمْسَى نِسَاؤكَ عَطَّلْنَ البُيوتَ فمَا ... يَضْرِبْنَ فوقَ قَفَا سِتْرٍ بأَوْتَادِ[5]

مثلَ الرَّوَاهبِ يَلْبَسْنَ المُسُوحَ وقَدْ ... أَيْقَنَّ بالبُؤْسِ بعدَ النِّعمةِ البَادِي[6]

وقال في «أسد الغابة» : وصفت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ رسول الله ﷺ فقالت : كان والله كما قال فيه حسان :

متى يَبْدُ في الدَّاجي البَهيمِ جَبِيْنُهُ ... يَلُحْ مثلَ مِصْباحِ الدُّجَى المُتَوَقِّدِ

فمَنْ كانَ أو مَنْ يَكُونُ كأَحْمَدٍ ... نِظَامٌ لِحَقٍّ أو نَكَالٌ لِمُلْحِدِ

وقال في يوم دفن النبي الكريم ﷺ :

= وآليت : حلفت ، وألية بر : أي حلفة صادق ، وقوله : مجتهداً : أي غير مقصر .
وقوله : غير إفناد : أي غير ذي إفناد ، أفند الرجل بمعنى : كذب .

(١) بر : هو برأ المهموز ، ومعنى برأ : خلق ، والبرية : الخلق ، والذمة : العهد . وكل حرمة تلزمك المذمة إذا ضيعتها ، وقوله : أو ميعاد : المراد به الوعد ، وفي نسخة ورد هذا البيت :

ولا مشـى فـوق ظهـر الأرض مـن أحـد ... أوفـى بـذمـة جـار أو بميعـاد

(٢) قوله : (من الذي) متعلق بقوله : أوفى في البيت السابق .

(٣) الجادي : طالب الجدوى وهي العطية .

(٤) قوله : يا أفضل الناس ويروى : خير البرية ، وقوله : إني كنت في نهر ؛ أي كنت منك في نهر ، يريد : ريان ، والصادي : من الصدى وهو العطش الشديد .

(٥) قفا ستر : أي خلفه ووراءه .

(٦) ولعل حسان : يعني بهذا البيت أن بيوت النبي أصبحت بعده لا يقصدها أحد وأمسى نساؤه فيها مثل الراهبات يلبسن المسوح بعد أن فارقهن النعيم بفراق النبي الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأيقن بالبؤس ، الرواهب : جمع راهبة ، والرهبنة أو الرهبانية رهبنة النصارى ، أصلها من الرهبة الخوف ، يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعهد مساقها ، حتى إن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب ، وقد نهى النبي الكريم ﷺ عنها ، فقال : لا رهبانية في الإسلام ، والمسوح : جمع مِسح بكسر الميم ، وهو الكساء من الشعر ، والبادي : صفة للبؤس ، أي الظاهر .

أَلا دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللهِ فِيْ سَفَطٍ مِنَ الأُلُوَّةِ والكَافُوْرِ مَنْضُودِ[1]

حُزْنٌ لا مثيلَ له:

حزن شاعر الإسلام حزناً شديداً بانقطاع الوحي ولحوق النبي الكريم ﷺ بالرفيق الأعلى ، وقد ظهرت معاني الحزن والصدمة العنيفة التي ألمت بقلبه بهذا الحادث العظيم الذي فجع به الإسلام والمسلمون ، في قصائده التي قالها إثر وفاة الرسول الكريم ﷺ ، فكان من الطبيعي أن يجد في نفسه زهداً عن الشعر ، وانصرافاً عن الحياة الشعرية التي عاشها مع الرسول الكريم ﷺ دفاعاً عن حوزة الإسلام ورداً على أعدائه ومنافسيه ، ولا شك فإنه آثر حياة العزلة والانزواء بعد ذلك ، ولم ينشط للقريض إلا في مناسبات خاصة .

دعمه لموقف الخليفة الأول من فتنة الردة:

ولقد كانت فتنة الردة من أخطر الفتن التي ألمَّت بالإسلام بعد حادث وفاة النبي الكريم ﷺ ، وهي التي شغلت بال الخليفة الأول أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ الذي أعلن الحرب ضد هؤلاء المرتدين ، وقال: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه في زمن رسول الله ﷺ لقاتلتهم ، وفعلاً بعث خالد بن الوليد لقمع هذه الفتنة الخطيرة إلى البادية في الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، وقد كانت العرب من بني سُلَيم وبني أسد وحلفائهم وبني حنيفة تقول: لا نطيع أبا الفصيل ، يعنون أبا بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ ولم يكنوه بذلك إلا حطاً لشأنه وتعييراً له ، وهنالك قال حسان الأبيات الأربعة الآتية:

مـا البَكْـرُ إلا كـالفَصِيْـلِ وقَـدْ تَـرَى أَنَّ الفَصِيْـلَ عَلَيْـهِ لَيْـسَ بِعَـارِ[2]

يعني أنه لا فرق بين البكر والفصيل ، ولذلك فإن تكنيتكم لأبي بكر الصديق بأبي الفصيل ليس إلا هُراء وهذراً ، ولا يكسب ذلك للصديق شيئاً من العار كما تزعمون أنتم:

إنَّـا ومَـا حَـجَّ الحَجِيْـجُ لِبَيْتِـهِ رُكْبَـانُ مَكَّـةَ مَعْشَـرُ الأَنْصَـارِ[3]

(١) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه ، شرح ديوان حسان للبرقوقي ، ص ١٤٢ ـ ١٥٤ .
(٢) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والبكر: الفتي من الإبل.
(٣) الحجيج: جمع الحاج ، ركبان: بمعنى ركاب الإبل.

نَفْـرِيْ جَمَـاجِمَكُـمْ بكُـلِّ مُهَنَّـدٍ ضَـرْبَ القُـدَارِ مُبَـادِيَ الأَيْسَـارِ[1]
حتَّـى تُكَنُّـوهُ بِفَحْـلِ هُنَيْـدَةٍ يَحْمِـي الطَّـرُوْقَـةَ بَـازِلٍ هَـدَّارِ[2]

يمدح الزبير بن العوام:

ومرة جلس حسان بن ثابت في مجلس من أصحاب رسول الله ﷺ ينشدهم من كلامه ، فمر عليهم الزبير بن العوام فرأى أن الناس ليسوا نشاطاً لما يسمعون من شعر حسان ، فجلس معهم وقال: مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة ، فلقد كان يعرض لرسول الله ﷺ فيحسن استماعه ، ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه بشيء ، فقال حسان يمدح الزبير بن العوام:

أَقَـامَ علـى عَهْـدِ النَّبِـيِّ وهَـدْيِـهِ حَـوَارِيُّـهُ ، والقَـوْلُ بـالفِعْـلِ يُعْـدَلُ[3]
أَقَـامَ علـى مِنْهَـاجِـهِ وطَـرِيْقِـهِ يُـوَالـي وَلِـيَّ الحـقِّ والحَـقُّ أَعْـدَلُ[4]
هوَ الفَارِسُ المَشْهورُ والبَطَلُ الَّذِيْ يَصُـولُ إذا مـا كـانَ يَـوْمٌ مُحَجَّـلُ[5]
إذا كَشَفَتْ عن سَاقِها الحَرْبُ حَشَّها بـأَبْيَـضَ سَبَّـاقٍ إلـى المَـوْتِ يُـرْقَـلُ[6]
وإنَّ امـرأً كـانَـتْ صَفِيَّـةُ أُمَّـهُ ومَـنْ أَسَـدٌ فـي بَيْتِهـا لَمُـرَفَّـلُ[7]

(١) نفري: من أفرى يفري الشيء إذا قطعه ، وأصلحه ، أفرى الجلد: إذا وضع عليه علامة للقطع ، القُدار على وزن فُعال بضم القاف: الجزار الذي يتولى جزر الجزور وطبخها ، وقيل: بمعنى الطباخ ، الأيسار: هم القوم الذين يجتمعون على الميسر ويتقامرون على الجزور ، المبادي: ما بدا من موضع النحر.
(٢) هنيدة: اسم للمئة من الإبل خاصة ، الطروقة: الناقة التي بلغت أن يضربها الفحل ، البازل: البعير الذي استكمل الثامنة من عمره وطعن في التاسعة وفطر نابه ، والبازل: من البزل وهو الشق ، هدار: صيغة المبالغة ، البعير الذي يكثر إخراج صوته من غير شقشقة.
(٣) حواريه: يريد به الزبير بن العوام لأن النبي الكريم ﷺ يقول عنه: لكل نبي حواري ، وحواريي الزبير ، والحواريُّ: هو الخليل ، والصاحب المخلص ، والزبير من العشرة المبشرة.
(٤) المنهاج: الطريق الواضح ، وكذلك المنهج بفتح الميم وكسرها.
(٥) يوم محجل: يعني يوم حرب ، يقال: يوم محجل: بمعنى يوم السرور والشروق.
(٦) حشها: بمعنى أسعرها وهيجها ، تشبيهاً بإسعار النار ، بأبيض: يريد به السيف اللامع ، سبّاق: كثير السبق ، يرقل من الإرقال: بمعنى الإسراع وهو نوع من العَدْو ، فوق الخبب.
(٧) أمه صفية بنت عبد المطلب ، ومن أسد في بيتها لمرفل: يريد أمه التي تربي في بيتها أسداً معظماً مثل ابنها الزبير ، المرفل: الذي يسود ويعظم.

لـهُ مِـنْ رَسـولِ الله قُـرْبَـى قَـريْبَـةٌ ومِـنْ نُصـرةِ الإسـلامِ مَجْـدٌ مُـؤَثَّـلُ[1]
فكَـمْ كُـرْبَـةٍ ذبَّ الـزُّبيـرُ بسَيْفِـهِ عن المُصْطَفى ، واللهُ يُعْطي فَيُجْزِلُ[2]
فمَـا مِثْلُـه فيهِـمْ ولا كـانَ قبلَـهُ وليسَ يكونُ الدَّهرَ ما دامَ يَذْبُلُ[3]
ثَنـاؤُكَ خَيْـرٌ مِـنْ فَعَـالِ مَعَـاشـرٍ وفِعْلُـكَ يـا ابـنَ الهـاشِميَّـةِ أفضَـلُ[4]

شعره في مدح أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

وهنا أبيات عدة قالها في مدح أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، وذلك بعدما ناله قوم بألسنتهم.

فقد روى صاحب «جمهرة أشعار العرب» بسنده إلى عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن رسول الله ﷺ أمر حسان بن ثابت بإنشاد ما قاله فيه وفي أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه.

وقيل: إنها أبيات رثاء يرثي بها أبا بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، يقول:

إذا تَـذَكَّـرْتَ شَجْـوَاً مِـنْ أخِـيْ ثقَـةٍ فـاذكُـرْ أخـاكَ أبـا بَكْـرٍ بمـا فَعَـلا[5]
التَّـالـيَ الثَّـانِـيَ المَحْمـودَ شِيْمَتُـه وأولَ النَّـاسِ طُـرَّاً صَـدَّقَ الـرُّسُـلا
والثَّانيَ اثنينِ في الغَارِ المُنِيْفِ وقَدْ طـافَ العَـدُوُّ بـهِ إذ صَعَّـدَ الجَبَـلا
وكـان حِـبَّ رَسُـولِ الله قَـدْ عَلِمُـوا مِـنَ البَـريَّـةِ لـم يَعْـدِلْ لـهُ رَجُـلا[6]
خَيْـرُ البَـرِيَّـةِ أتقَـاهـا وأَرْأَفُهَـا بَعْـدَ النَّبـيِّ وأوْفَـاهـا بِمَـا حَمَـلا

وجاء في زيادات «ديوان حسان» الذي حققه دكتور سيد حنفي حسنين وقامت وزارة الثقافة المصرية بطبعه في عام ١٩٧٤ م ، أن خالد بن الوليد لما فتح اليمامة تزوج ابنة مَجَّاعَةَ بن مرارة الحنفي ، وتنكر للأنصار غاية التنكر ، فكتب حسان إلى

(١) ذلك لأن الزبير إنما هو ابن عمة رسول الله ﷺ ، مجد مؤثل: مجد قديم ، أثل المجد: إذا بناه.
(٢) الكربة: اسم من الكرب على وزن الضرب: وهو الحزن والغم الذي يأخذ بالنفس.
(٣) يعني ليس له نظير ولا يكون ما دام جبل يذبل موجوداً (يذبل) اسم جبل كان في بلاد نجد.
(٤) يريد أن مجرد ثنائك أفضل من أفعال الجماعة الخيرة.
(٥) الشجو: الهم والحزن. يعني إذا تذكرت ما يحزنك من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعله معك ، فإنه ينسيك بفعاله ما كان من غيره مما يشجي ويحزن.
(٦) الحِبُّ: بالكسر المحبوب.

أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ فأخذ عمر الصحيفة ودخل بها على أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ، فرأها عليه فعزله أبو بكر عن اليمامة ، ثم ولاه الشام ، فلما مات أبو بكر عزله عمر ، كتب إليه حسان يقول:

مَـنْ مُبْلِـغُ الصِّـدِّيـقَ قَـوْلاً كـأنَّـه إذا قُـصَّ بيـنَ المُسْلميـنَ المُبَـارِدُ[1]
أتَـرْضـى بـأنَّـا لَـمْ تَجِـفَّ دِمـاؤُهـا وهـذا عَـرُوسٌ بـاليَمَـامَـةِ خَـالِـدُ[2]
يَبِيْـتُ يُنَـاغِـيْ عِـرْسَـهُ ويَضُمُّهـا وَهـامٌ لنـا مَطْـرُوحَـةٌ وسَـوَاعِـدُ
إذا نحـنُ جِئْنـا صَـدَّ عَنَّـا بـوَجْهِـهِ ويُلْقـى لأَعْمَـامِ العَـرُوسِ الـوَسَـائِـدُ
ومـا كـانَ فـي صِهْـرِ اليَمَـامِـيِّ رَغْبَـةٌ ولـو لَـمْ تُصَـبْ إلا مِـنَ النَّـاسِ واحِـدُ
فكَيْـفَ بـألْـفٍ قـد أُصِيْبُـوا كـأنَّمـا دمـاؤُهُـمُ بيـنَ السُّيـوفِ المَجَـاسِـدُ[3]
فـإنْ تَـرْضَ هـذا فـالـرِّضـا مـا رَضِيْتَـهُ وإلا فَغَيِّـرْ إنَّ أمْـرَكَ راشِـدُ[4]

حسان وعمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنهما ـ:

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كبير الاهتمام بحسان وعارفاً بفضله الشعري وتأثيره في تغيير مجرى الأحداث ، ولذلك لما كان قد نهى الناس في أيام خلافته عن أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، نظراً إلى ما فيها من شتم الحي والميت وتجديد الضغائن سمح لحسان بالإنشاد ، وذلك عندما قدم المدينة عبد الله بن الزبعرى السهمي وضرار بن الخطاب الفهري ونزَلا على أحمد بن جحش ، وقالا: نحب أن ترسل إلى حسان بن ثابت حتى يأتيك فننشده وينشدنا ما قلناه وما قاله ، فأرسل إليه فجاء ، فقال: يا أبا الوليد، هذان أخوان: ابن الزبعرى وضرار، وقد أحبا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما ، فقال ابن الزبعرى وضرار: نعم يا أبا الوليد ، إن شعرك كان يُحتمل في الإسلام ولا يحتمل شعرنا ، وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا ، فقال حسان: أفتبدآن أم أبدأ؟ قالا: نبدأ نحن ، قال: أنشدا ، فأنشداه حتى فَارَ فصار كالمرجل غضباً ، ثم استويا

(١) المبارد: جمع مبرد: ما يبرد به الحديد.
(٢) العروس: للرجل والمرأة ما داما في عرسهما.
(٣) المجاسد: الزعفران.
(٤) ديوان حسان ، تحقيق الدكتور سيد حنفي حسنين ، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.

على راحلتيهما يريدان مكة ، فخرج حسان حتى دخل على عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقص عليه قصتهما وقصته ، فقال له عمر : إن لم تدركهما إلا بمكة فارددهما عليَّ ، وخرجا ، فلما كان بالروحاء[1] رجع ضرار إلى صاحبه وقال له : يا ابن الزبعري ، أنا أعرف عمر وذَبَّهُ عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلناه به ، وكأني به قد جاءه وشكا إليه ما فعلنا ، فأرسل في آثارنا ، وقال لرسوله : إن لم تلحَقْهُما إلا بمكة فارُدُدْهُما عليَّ ، فاربح بنا ترك العناء وأقم بنا في مكاننا هذا ، فإن كان الذي ظننت فالرجوع من الروحاء أسهل منه من أبعدَ منها ، وإن أخطأ ظني فذلك الذي نحب ، ونحن من وراء المضي ، فقال ابن الزبعرى : نِعْمَ ما رأيت ، فأقاما بالروحاء فما كان إلا كمرِّ طائر حتى وافاهما رسول عمر بن الخطاب فرجعا إليه ، فدعا لهما بحسان ، وعمر في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لحسان : أنشدهما ما قلت لهما ، فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما[2] ، فقال عمر : أفرغت؟ قال : نعم ، قال : أنشداك في الخلاء ، وأنشدتهما في الملأ ، وقال لهما عمر : إن شئتما فأقيما وإن شئتما فانصرفا ، وقال لمن حضره من الأنصار : إني قد نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم ، وبثِّ القبيح فيما بينكم ، فأما إذا أبوا فاكتبوه واحفظوه ، فدونوا ذلك عنهم[3] .

شعره في ابن جفنة :

كان إسلام جَبَلَة بن أيهم الغساني آخر ملوك غسان على يد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، وسُرَّ به المسلمون ولكنه ارتد وتنصر حينما حدث معه ما حدث من وطْءِ إزاره عند الطواف بالبيت ، ورجع إلى هرقل ونال عنده مكاناً وسناءً ، ثم بعث إلى حسان ـ رضي الله تعالى عنه ـ بصِلَةٍ عظيمة مع رجل ليدفعها إليه حينما بلغه أنه أصبح مكفوف البصر كبير السن ، وقدم الرجل على عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ فسأله عن هرقل وجَبَلَة فَقَصَّ عليه القصة من أولها إلى آخرها ، فقال : أورأيتَ جَبَلَة يشرب الخمر؟ فقال : نعم ، قال : أبعده الله ، تَعَجَّل فانِيَةً اشتراها بباقية ، فما ربحت

(١) موضع بين مكة والمدينة على نحو ثلاثين ميلاً من المدينة المنورة .
(٢) لم نتبين الشعر الذي أنشده حسان في هذه المناسبة .
(٣) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني : ٤/ ٥ .

تجارته ، فهل سَرَحَ معك شيئاً؟ قال : سَرَحَ إلى حسانَ خمسَ مائةِ دينار وخمسةَ أثوابِ ديباجٍ ، قال : هاتها ، وبعث إلى حسان ، فأقبل يقوده قائده حتى دنا فتسلَّم ، وقال : يا أمير المؤمنين! إني لأجد أرواح آل جفنة ، فقال عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ : قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم أنفه ، وأتاك بمعونة ، فأخذها وانصرف وهو يقول :

إنَّ ابـنَ جَفْنَـةَ مِـنْ بقيَّـةِ مَعْشَـرٍ ... لـم يَغْـذُهُـمْ آبـاؤُهُـمْ بـاللُّـؤْمِ
لـم يَنْسَنِـي بـالشَّـامِ إذْ هـوَ رَبُّهـا ... كَـلا ولا مُتَنَصِّـراً بـالـرُّومِ
يُعْطـي الجَـزيْـلَ ولا يَـراهُ عِنْـدَهُ ... إلا كَبَعْـضِ عَطِيَّـةِ المَـذْمُـومِ
وأتيتُـهُ يَـوْمـاً فقـرَّبَ مَجْلِسِـيْ ... وسَقَـى فَـرَوَّانِـيْ مـنَ الخُـرْطـومِ[1]

فلما أنشد قال له رجل : أتذكر قوماً كانوا ملوكاً فأبادهم الله وأفناهم؟ فقال : ممن الرجل؟ قال : مُزَنِيّ ، قال : أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ﷺ لطوقتك طوق الحمامة ، وقال للرجل الذي جاء من عند جَبَلة : ما كان ليُخِلَّ بي خليلي ، فما قال لك؟ قال الرجل : قال لي : إن وجدْتَه حياً فادفعها إليه ، وإن وجدته ميتاً فاطرح الثياب على قبره وابتَعْ بهذه الدنانير بُدْناً فانحرها على قبره ، فقال حسان : ليتك وجدتني ميتاً ففعلت بي ذلك[2] .

يمدح عبد الله بن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ :

وروى محمد بن حبيب الأثرم أحد رواة «ديوانه» ، أن حسان بن ثابت مشى بعبد الله ابن عباس بن عبد المطلب في نفر من المهاجرين إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ فاعتذر إليهم عمر ، فقبلوا عذره ، وجثا ابن عباس على ركبتيه فجعل يقول : إن من حق الأنصار كذا ثم كذا ، ولحسان حق بكذا وكذا ، فلم يزل به حتى قضى حاجته ، فخرج حسان آخذاً بيد عبد الله يطوف به على حِلَقِ المهاجرين في المسجد ويقول : هو والله كان أولاهم بها ، إنها والله صبابة النبوة ووراثة أحمد ﷺ . قالوا : أجل فأَجْمِلْ يا ابنَ الفريعة ، فقال يمدح عبد الله بن عباس بهذه الأبيات :

إذا قَـالَ لَـمْ يَتْـرُكْ مَقَـالاً لِقَـائـلٍ ... بمُلْتَقَطَـاتٍ لا تَـرَى بَيْنَهـا فَصْـلا[3]

(١) الخرطوم : من أسماء الخمر ، وقيل : الخرطوم : أول ما يجري من العنب قبل أن يداس ، وقيل : الخمر السريعة الإسكار .
(٢) شرح ديوان حسان للبرقوقي ، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .
(٣) وفي الاستيعاب وفي نسب قريش : «بمنتظمات لا ترى بينها فصلا» .

كَفَى وشَفَى ما في النُّفوسِ فلَمْ يَدَعْ ... لِذِي إرْبَةٍ في القَولِ جِدّاً ولا هَزْلا[1]
سَمَـوْتَ إلـى العُلْيَـا بغَيْـرِ مَشَقَّـةٍ ... فنِلْـتَ ذُرَاهـا لا دَنِيّـاً ولا وَغْـلا[2]

وروى بعد ذلك في «الاستيعاب»:

خُلِقْـتَ خَلِيْقَـاً للمـوَدَّةِ والنَّـدَى ... مَلِيْحاً ولم تُخْلَقْ كَهَاماً ولا جَهْلا[3]

حسان يرد على النجاشي الشاعر:

وما حكاه الأثرم من قصة هجاء النجاشي الشاعر الأنصارَ، ثم رَدَّ حسان عليه بشعره المرتجل البليغ، إنما يدل على قريحته الوقادة وسرعة خاطره وصفاء حسه، وعلى اقتداره على ناصية البيان وامتلاكه لعنان الكلام، ومن قصة ذلك: أن الأنصار اجتمعت في مجلس فتذاكروا هجاء النجاشي الشاعر إياهم وقالوا: من له؟ فقال الحارث بن معاذ ابن عفر الأنصاري: حسان له، فأعظم ذلك القوم وقالوا: أتأتي حسان فتعرضه النجاشي، وإن طعامه ليغلبه من ضعف حنكه، وما غلب حسان أحداً قط، فلعله يغلبه، لا تفعلْ، فقال الحارث: والله لا أنزع عني قميصي حتى آتيه فأذكر ذلك له، فتوجه نحوه والقوم كلهم لذلك معظم، حتى دقّ عليه الباب فقال: من هذا؟ قال: الحارث بن معاذ، فقال لابنته فريعة: افتحي لسيد شباب الأنصار، فلما دخل عليه كَلَّمَهُ، فقال: أين أنتم عن عبد الرحمن (يشير إلى ولده) فقال الحارث: إياكَ أردْنا، ثم قاوله عبد الرحمن فلم يصنع شيئاً، فوثب حسان وقال للحارث: كن وراء الباب فاحفظ ما أُلقي، ثم بدأ ينشد:

أَبَنِيْ الحِمَاسِ[4] أَلَيسَ مِنكُمْ مَاجِدٌ ... إنَّ المُـروءَةَ فـي الحِمَـاسِ قَلِيْـلُ
يـا وَيْـلَ أُمِّكُـمُ وَوَيْـلَ أبيكُـمُ ... وَيْـلاً تَـرَدَّدَ فيكُـمُ وعَـوِيْـلُ

(١) وفي نسب قريش هكذا:
إذا مـا ابـن عبـاس بـدا لـك وجهـه ... رأيـت لـه فـي كـل مجمعـة فضـلا
وفي الاستيعاب: في كل أحواله فضلا.
(٢) وفي الاستيعاب: لا ذنباً ولا غلا، وفي تاريخ الطبري: لا دنيئاً ولا غلا.
(٣) الكهام والكهيم: الكليل البطيء، المسن الذي لا مال عنده، ويقال في الجمع أيضاً: قوم كَهَام.
(٤) الحماس: حي من بني الحارث بن كعب وهم رهط النجاشي الشاعر، وكانت بينه وبين حسان مهاجاة.

هَـاجَيْتُـمُ حَسَّـانَ عنـدَ ذَكَـائِـهِ ... غَـيٌّ لِمَـنْ وَلَـدَ الحِمَـاسُ طَـوِيـلُ[1]
إنَّ الهِجَـــاءَ إليكُـــمُ لَبِعِلَّـــةٍ ... فَتَحَشْحَشُـوا ، إنَّ الـذَّلِيْـلَ-قَلِيْـلُ[2]
لا تجْـزَعـوا أن تُنْسَبُـوا لأبيكُـمُ ... فـاللُّـؤْمُ يَبْقـى والجِبَـالُ تَـزُولُ
فَبَنُـو زِيَـادٍ لَـمْ تَلِـدْكَ فُحُـولُهُـمْ ... وبَنُـو صَـلاءَةَ فَحْلُهُـمْ مَشْغُـولُ[3]
وسَـرى بِكُـمْ تَيْـسٌ أجَـمُّ مُجَـذَّرٌ ... مـا للـذَّمَـامَـةِ عَنْكُـمُ تَحْـوِيْـلُ[4]
فاللُّؤْمُ حلَّ على الحِمَاسِ فما لهُمْ ... كَهْـلٌ يَسُـودُ ولا فَتًـى بُهْلُـولُ[5]

وأبيات أخرى يُلقي على الحارث بن معاذ:

يقول الحارث: ثم مكث طويلاً في الباب يقول: والله ما أنجزت، ثم ألقى عليّ هذه الأبيات:

حارِ بْنَ كَعْبٍ أَلا الأَحلامُ تَزْجُرُكُمْ ... عنِّي وأَنْتُمْ منَ الجُوْفِ الجَمَاخِيرِ[6]
لا بأسَ بالقومِ من طِوَلٍ ومن عِظَمٍ ... جِسْـمُ البِغَـالِ وأحْـلامُ العصَـافِيْـرِ
ذَرُوا التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحَاً ... إنَّ الـرِّجـالَ ذَوُو عُصْـبٍ وتَـذْكِيـرِ[7]
كـأَنكُـمُ خُشُـبٌ جُـوْفٌ أَسَـافِلُـهُ ... مُثَقَّـبٌ فيـهِ أَرْواحُ الأَعَـاصيـرِ[8]
أَلا طِعَـانٌ ألا فُـرسـانُ عـادِيَـةٌ ... أَلا تَجَشُّؤكُـمْ حَـولَ التَّنَـانِيْـرُ[9]

(١) ذعند ذكائه: المراد بالذكاء هنا التمام: يعني عند تمامه وحنكته.
(٢) لَبعلة: أي لناجم عن علة وسبب، فتحشحشوا: أي فتهيبوا، الحشحشة: الحركة، ودخول بعض القوم في بعض.
(٣) هو زياد بن عبد المدان، وبنو صلاءة من بني الحارث بن كعب.
(٤) أجم: كثير اللحم، مجذر: قصير، الذمامة: ما يذم عليه ويعاب به.
(٥) بهلول: الكريم الجامع لكل خير، جمعه بهاليل.
(٦) حارِ: ترخيمُ حارث، تزجركم: يعني تمنعكم عنا، الجوف: جمع الأجوف، وهو واسع الجوف، وجمخور كذلك: بمعنى واسع الجوف، والمراد به الضعفاء المسترخون.
(٧) التخاجؤ: التباطؤ في المشي، وقيل: معناه التبختر، ذوو عصب: يعني أقوياء الخلق وحاملي صفات الذكورة.
(٨) مثقب: يعني فيه ثقب، الأعاصير: جمع إعصار، الرياح العاتية التي تهب من الأرض وتثير الغبار فترتفع كالعمود إلى السماء، وهي التي يسميها الناس الزوبعة.
(٩) يعني لستم أهل حرب، فلا طعان ولا ركوب على الخيول العادية التي يضرب بها المثل في شدة العدو، بل إنكم قوم لا تعرفون سوى الأكل والشرب والجلوس حول تنانير البيوت، التجشؤ: تنفس المعدة عند الامتلاء، وإخراج الصوت بذلك.

لا ينفعُ الطُولُ من نَوْكِ الرِّجالِ ولا ... يَهْـدِي الإلـهُ سبيـلَ المَعْشَـرِ البُورِ[1]
إنِّي سأقْصُرُ عِرْضِي عن شِرَارِكُمُ ... إنَّ النَّجـاشِـيَّ لَشـيءٌ غيـرُ مَـذْكـورِ[2]
ألْفَـى أبـاهُ وألْفَـى جَـدَّه حُبِسَـا ... بمَعْـزِلٍ مِـنْ معَـالِـيْ المَجْـدِ والخيـرِ

قال الحارث: فقال لي حسان: اكتبها صكوكاً فألقها إلى صبيان الكُتَّاب، ففعلت، فما مرت بنا إلا ليالي حتى طرقت بنو عبد المدان حسان بن ثابت بالنجاشي موثقاً معهم وأرغوا ببابه، فقال لابنته: ما هذا الذي أسمع؟ فقالت: والله ما أدري. وقال: إن أباك كان ذا شرارة في العرب بلسانه فانظري من طرفي، فإن كانت إبلٌ تعوي عواء الكلاب توطأ على آذانها فهي إبل مضرية، وإن كانت تشكي تَشَكِّي العذارى تلوي أصابعها فهي إبل بني الحارث بن كعب، وقد أتيت بالعبد، وقالت: يا أبتِ، هي والله كما تصف، فقال: نادي بأبيات حسان ليأتيك قومك فيحضروا، فلم يبق أحد في عاليهِ ولا سافله إلا رمى بهم إلى فارع، ومعهم السلاح ـ وفارع: أُطُم حسان ـ فلما اجتمع الناس وُضِعَ له منبر ونزل وفي يده مِخْصَرةٌ، فجلس عليه وقام عبد الله بن عبد المدان بن الديان فقال: يا ابن الفريعة! جئناك بابن أخيك لتحكم فيه برأيك وما أدخلك بين ابنيك وإنما لعباً، وأقعد النجاشي بين يديه، واعتذر القوم، فنادى ابنته فقال: البقية التي بقيت من جائزة معاوية، فأتته بمائة دينار، فقال: دونك هذه يا ابن أخي فعرضها أهلك، وحمله على بغلةٍ لعبد الرحمن، فقال له ابن الديان: يا ابن الفريعة، كنا نفتخر على الناس بالعظم والطول، فأفسدتهما علينا، فقال: كلا أليس أنا الذي أقول:

وَقَـدْ كُنَّـا نَقُـولُ إذا رأَيْنـا ... لِـذِيْ جِسْـمٍ يُعَـدُّ وَذِيْ بَيَـانِ
كـأنَّـكَ أيُّهـا المُعْطِـي بَيَـانَـاً ... وجِسْمَـاً مِـنْ بَنِـي عَبْـدِ المَـدَانِ

هذا ما تيسّر لنا من دراسة حياة وشعر حسان بن ثابت ـ رضي الله تعالى عنه ـ في ضوء الواقع والقريض، ونقتصر على هذا البحث الذي لا ندعي فيه الاستيعاب، وإنما هو نمط دراسي أردنا به استعراضاً تاريخياً لشاعر إسلامي كبير عُرف بشاعر الرسول الكريم ﷺ رضي الله عنه وأرضاه.

(١) النوك: الحمق، الأنوك: الأحمق، البور: جمع البائر، وهو الهالك.
(٢) سأقصر: يعني سأمنع وأصون عرضي، شيء غير مذكور: يعني لا يؤبه به.

الباب الثالث

عبد الله بن رواحة

عبد الله بن رواحة الأنصاري

يسعدني أن أبدأ الحديث بعد حسان بن ثابت عن صِنوه في الشعر والدفاع والجهاد: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي ، يكنى أبا محمد ، وقيل: أبا رواحة ، وقيل: أبا عمرو ، وأمه كبشة بنت واقد بن عمرو بن الإطنابة ، خزرجية كذلك «أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول الله ﷺ»[1] ويفدونه بمُهَجِهم وأرواحهم ويدافعون عن حوزة الإسلام ، ويمطرون على المشركين وابل الهجاء والتعيير ، ولا سيّما على شعرائهم الكبار الذين كانوا يناضلون المسلمين ويطاردونهم بأسوأ طريق وأبشع أسلوب من الكلام.

شاعر كبير مرتجل:

كان حاضر البديهة سريع القول للشعر ، يقول هشام بن عروة عن أبيه عروة ، قال: سمعت أبي يقول: ما سمعت أحداً أَجْرَأَ ولا أسرع شعراً من عبد الله بن رواحة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول له يوماً: قل شعراً تقتضيه الساعة ، وأنا أنظر إليك ، فانبعث مكانه يقول:

إنِّي تَفرَّسْتُ فيكَ الخَيْرَ أعرِفُهُ ... واللهُ يعلَمُ أَنْ ما خانَنِي البَصرُ
أنتَ النَّبيُّ ومَنْ يُحْرَمْ شفاعتَهُ ... يومَ الحسَابِ لقد أَزْرَى بهِ القَدَرُ
فَثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ ... تَثبيتَ مُوْسى ، ونَصْراً كالَّذي نُصِرُوا

فقال رسول الله ﷺ: وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: ٣/ ٨٩٨.

قال هشام بن عروة: فثبته الله ـ عز وجل ـ أحسن الثبات فقتل شهيداً ، وفتحت له الجنة فدخلها ، وفي رواية ابن هشام:

إنِّي تَفَرَّسْتُ فيكَ الخَيْرَ نَافِلَةً ... فِراسَةً خالفَتْ فيكَ الَّذي نَظَروا
أنتَ النَّبيُّ ومَنْ يُحْرَمْ نوافِلَهُ ... والوَجْهَ مِنْكَ فقَدْ أزْرَى بهِ القَدَرُ[1]

أما ما رواه ابن سعد في «الطبقات» فهو بطريق آخر ، يقول ابن حجر العسقلاني في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة) رواية عن ابن سعد: حدثنا عبد الله بن موسى ، حدثنا عمر بن أبي زائدة ، عن مدرك بن عمارة ، قال: قال عبد الله بن رواحة: مررت في مسجد الرسول الكريم ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس ، وعنده أناس من الصحابة في ناحية منه فلما رأوني قالوا: يا عبد الله بن رواحة ، فجئت ، فقال: اجلس ههنا ، فجلست بين يديه ، فقال: كيف تقول الشعر[2]؟ ، قلت: أنظر في ذلك ثم أقول ، قال: فعليك بالمشركين ، ولم أكن هيّأت شيئاً فنظرت ، ثم أنشدته ، فذكر الأبيات ، فيها:

فثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبيتَ مُوْسى ، ونَصْراً كالَّذي نُصِرُوا

قال: فأقبل بوجهه مبتسماً ، وقال: وإياك فثبّتك الله[3].

قال هشام بن عروة: فثبّته الله ـ عز وجل ـ أحسن الثبات ، فقتل شهيداً ، وفتحت له الجنة فدخلها[4].

مدحه لرسول الله ﷺ:

روى ابن حجر العسقلاني في (الإصابة) ، فقال: ومن أحسنِ ما مدح به عبد الله بن رواحة النبي الكريم ﷺ قوله:

لَوْ لَم تكُنْ فيهِ آيَاتٌ مُبيِّنَةٌ ... كانَتْ بديهَتُه تُنْبِيْكَ بالخَبَرِ[5]

(١) المصدر السابق: ص/ ٩٠٠.
(٢) وفي الطبقات: كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول؟
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ٨٥ ـ ٨٦.
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ٣/ ٩٠٠.
(٥) وفي رواية: تأتيك بالخبر.

وأخرج أبو يعلى بسند حسن عن جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس ، قال: دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وابن رواحة بين يديه وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عن سَبيْلِهِ ... اليومَ نَضْرِبُكُمْ على تأْوِيْلِهِ
ضَرْباً يُزيْلُ الهَامَ عن مَقِيْلِهِ ... ويُذهِلُ الخَلِيْلَ عن خَلِيْلِهِ

فقال عمر: يا ابن رواحة ، أفي حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟! فقال رسول الله ﷺ: خلِّ عنه يا عمر ، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل[1].

وروى ذلك ابن سلام الجمحي في «طبقات فحول الشعراء» بطريق آخر فقال:

«وقال عبد الله بن رواحة وقد أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ في عمرة القضاء يقودها ، وقد اجتمع أهل مكة وغلمانهم ينظرون إليه وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الكفَّارِ عن سَبيْلِهِ ... خَلُّوا ، فكلُّ الخيرِ مَعْ رَسُولِهِ
نحنُ ضَرَبْناكُمُ على تأويْلِهِ ... كما ضَرَبْناكُمُ على تَنْزيلِهِ[2]
ضَرْباً يُزيْلُ الهَامَ عَنْ مَقيْلِهِ ... ويُذهِلُ الخَلِيْلَ عن خَلِيْلِهِ[3]

منزلته في الجاهلية:

كان شاعراً مفلَّقاً ذا منزلة عالية وسيداً كبيراً في قومه بني الحارث بن الخزرج ، له من الشعر الجاهلي ما يعتبر ذا قيمة شعرية كبيرة ، يفتخر فيه بقومه ، ويُعلي مكانتهم ، وله مناقضة شعرية مع قيس بن الخطيم ، وخاصة في الحروب الجاهلية التي عاشها الخزرج ضد الأوس إلى مدة طويلة ومارسوها بقوة وصمود ، وكان من أيام حروبهم يوم الفضاء ، يوم التقوا بالفضاء ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى حجز بينهم الليل ، فأفضلت الأوس يومئذ على الخزرج ، فقال قيس بن الخطيم قصيدته التي جاء فيها:

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ٨٦.
(٢) قال ابن هشام: هذا البيت لعمار بن ياسر في هذا اليوم ، والمراد بالتأويل تأويل الرؤيا الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ...﴾.
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن الجمحي ، ص ١٨٦.

فمـا أَبْقَـتْ سُيـوفُ الأوسِ مِنكُـمْ وحَـدُّ ظُبَـاتِهَـا إلا شَـرِيْـدا

فأجابه عبد الله بن رواحة بقصيدة دالية تماثل قصيدة الخطيم في الرديف والقافية ، بدأها بقوله :

تَـذكَّـرْ بعـدَمـا شَطَّـتْ نَجُـودا وكـانَـتْ تيَّمَـتْ قَلْبـي وَلِيْـدا

احتوت القصيدة كلها على معاني الفخر والقوة والفتوة[1] .

يقول ابن سلام الجمحي في «طبقات فحول الشعراء» :

«وعبد الله بن رواحة عظيم القدر في قومه سيد في الجاهلية ، ليس له في طبقته التي ذكرنا أسود[2] منه ، شهد بدراً ، وكان في حروبهم الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم»[3] .

مكانته في الإسلام :

أسلم قبل بيعة العقبة ومع رجال من بني قومه ، وهو ممن شهد بيعة العقبة ، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج ليلة العقبة ، وقد جاء فيما قاله كعب بن مالك من شعر في حصر النقباء وكانوا اثني عشر نقيباً ، إشارة إلى ابن رواحة حينما يقول :

وأيْضَـاً فَـلا يُعْطيكَـهُ ابـنُ رَواحَـةٍ وإخْفَـارُهُ مـن دُوْنِـهِ السُّـمُّ نـاقِـعُ

وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فنزل في قباء في بني عمرو بن عوف وأسس مسجده ، ثم أخرجه الله تعالى من بين أظهرهم يوم الجمعة ، فأدركته في بني سالم ابن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي ، فكانت أول جمعة صلاها في المدينة ، وهنالك أتاه الناس وطلبوا منه الإقامة ، ولكن رسول الله ﷺ يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، أي : ناقته ، حتى إذا مرت بدار بني الحارث بن الخزرج ، وهو قوم عبد الله بن رواحة اعترض لرسول الله ﷺ من بين من اعترضوه عبد الله بن رواحة ، وقال له : هلم إلينا يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنعة ، فقال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

(١) سنتحدث عنها ونذكر القصيدة بكاملها في الموضع المناسب لهذا البحث ـ إن شاء الله تعالى ـ .
(٢) يعني : في السؤدد والشرف .
(٣) طبقات فحول الشعراء ، ص ١٨٦ .

كان في مكة نفر من شعراء المشركين يتصدون لهجوم رسول الله ﷺ ، وتهديد المسلمين بالنقمة والعقاب ، وهم في أغلب الأحوال ثلاثة : عبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، فكان الوضع يتطلب الرد عليهم بشعر أقوى من شعرهم والدفاع عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين بكلام بليغ التأثير والقوة يتغلب على كلامهم ، ويسد عليهم الطريق للهجوم والإيذاء والاستهزاء والاستخفاف بشأن الإسلام والمسلمين ، هناك أراد رسول الله ﷺ أن تنهض جماعة من شعراء المدينة للرد والدفاع ، والمنافحة واالمناقضة ، فإذا بحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة يعرضون أنفسهم للقيام بهذه المهمة ، ويسمح لهم رسول الإسلام ﷺ بذلك ويدعو لهم بالتوفيق .

يقول أبو الفرج الأصفهاني في روايات «الأغاني» وهو يشير إلى هذا الواقع :

«فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر ، وكان في ذلك الزمان أشد القول على الكفار قول حسان بن ثابت ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وتفقهوا في الإسلام ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»[1] .

مجالس الإيمان :

جاء في كتاب «الزهد» من طريق زياد النميري عن أنس : كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه يقول : تعال نؤمن بربنا ساعة[2] .

كان أبو الدرداء ممن يحبه ويثني عليه ؛ فكان يذكره دائماً ويستبشر به خيراً ، وكلما كانا يلتقيان يعقدان مجلساً للذكر وتجديد الإيمان وتقويته بالقلوب ؛ يقول أبو الدرداء : «أعوذ بالله أن يأتي علي يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان إذا لقيني مقبلاً ضرب بين ثديي ، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي ، ثم يقول :

(١) الأغاني : ٤/ ٥ .
(٢) الإصابة : ٤/ ٨٣ .

يا عويمر، اجلس فلنؤمن ساعة ، فنجلس فنذكر الله ما شاء ، ثم يقول : يا عويمر ، هذه مجالس الإيمان»[1] .

وقد عرف رسول الله ﷺ حرصه على الذكر وتجديد الصلة بالله والمذاكرة الإيمانية فقد كان يعيش على حب الله ورسوله ﷺ ويتطلع إلى رحمة الله ورضاه ولم يكن له همٌّ إلا الحديث عن الإيمان واليقين والآخرة والجنة والنعيم ، فكانت مجالسه وأحاديثه تدور حول هذا الموضوع المتفرد ، حتى إن النبي الكريم ﷺ قد شهد له بذلك ، وقال: «رحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة»[2] .

شدة ورعه وطاعته لله والرسول الكريم ﷺ :

بلغ من شدة حبه لله والرسول ﷺ وحرصه على الطاعة لهما أنه لم تفته فرصة فيها مجال لطاعة الله والرسول ﷺ إلا وقد انتهزها واستفاد منها ، فقد قَتَلَ ـ عِلْماً ـ معنى الطاعة في الآيات التي تنص على الطاعة لله وللرسول الكريم ﷺ ، وامتزج ذلك بلحمه ودمه ، وكان يرى في ذلك سعادة ونجاحاً له في الدنيا وفي الآخرة ، ففيما رواه البيهقي بسند صحيح عن قصة طواعيته لله ولرسوله ﷺ أدل دليل على ذلك ، يقول:

«عن أبي ليلى[3] . كان النبي الكريم ﷺ يخطب ، فدخل عبد الله بن رواحة فسمعه يقول: أجلسوه ، فجلس مكانه خارجاً من المسجد ، فلما فرغ قال له : زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله»[4] .

وجاء في كتاب «الزهد» لعبد الله بن المبارك بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال:

«تزوج رجل امرأة عبد الله بن رواحة ، فسألها عن صنيعه ، فقالت : كان إذا أراد

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري: ٣/ ١٥٧ .
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ٨٤ .
(٣) وفي رواية عن ابن أبي ليلى .
(٤) الإصابة: ٤/ ٨٤ .

أن يخرج من بيته صلى ركعتين ، وإذا دخل بيته صلى ركعتين لا يدع ذلك»[1] .

هذه شهادة للرجل من امرأته التي طلقها ، ومن يكون أعلم بسر الرجل من زوجته؟! ولولا شدة تورّعه وصلاحه لما وجدت امرأة الرجل تشهد لزوجها بالصلاح والورع بعدما كان قد طلقها .

وفي «فوائد» أبي طاهر الذهلي ، من طريق ابن أبي ذئب عن سهل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة أن النبي الكريم ﷺ قال: «نعم الرجل عبد الله بن رواحة . . .» في حديث طويل[2] .

مرض عبد الله بن رواحة ذات مرة واشتد عليه المرض ، فذهب إليه النبي الكريم ﷺ عائداً له ودعا له بالتيسير فيما إذا كان أجله قد حضر ، أو بالشفاء إذا لم يكن كذلك ، فاستجاب الله دعاءه بالشفاء ، يقول ابن سعد في «الطبقات»:

«حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، عن أبي عمران الجوني قال: مرض عبد الله بن رواحة فأُغمي عليه فعاده النبي الكريم ﷺ فقال: اللهم إن كان أجله قد حضر فيسره عليه ، وإن لم يكن حضر أجله فاشفه ، فوجد خفة ، فقال: يا رسول الله! أمي تقول: واجبلاه ، واظهراه ، وملك قد رفع مرزبة من حديد ، يقول: أنت كذا هو؟ ولو قلت: نعم لقمعني بها»[3] .

وكيف كان يموت عبد الله بن رواحة على فراش بيته وكان الله تعالى قد استجاب دعاءه وكتب له الشهادة ثم الجنة التي يدخلها ، وتحققت أمنيته في وقعة مؤتة ، ومات أميراً شهيداً فرضي الله عنه وأرضاه في الجنة .

في ميدان الجهاد والقتال :

إذا كان حسان بن ثابت يكتفي بوضع مواهبه الكلامية وطاقاته الشعرية في مجال الدفاع عن الإسلام والرد على المشركين وهجائهم ، وتقوية مواقف الرسول الكريم ﷺ ، دون أن يسهم بقواه المادية في الجهاد والحضور بنفسه في ميدان

(١) الإصابة: ٤/ ٨٤ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٨٢ .

القتال ، فإن عبد الله بن رواحة كان من أشد الناس حرصاً على المشاركة في الجهاد بنفسه ، والسير في ركاب النبي الكريم ﷺ نحو قتال أعداء الإسلام ، وكان يتمنى أن يرزقه الله الشهادة في سبيله ، لذلك فإنه ركز عنايته كلها في الجهاد ضد أعداء الإسلام ، واعتبره أعظم القربات في ذلك الوقت ، وأكبر عبادة ترضي الله ورسوله ﷺ ، وهي عبادة لا تساويها أعمال تطوّعية أخرى ، لا يعادلها القريض وقول الشعر ، ولو كانت له الأهمية المعلومة في تلك الظروف القاسية التي كانت ترشق فيه نبال المشركين المسومة أعراض المسلمين ، وتستهدف سهامهم الكلامية الجارحة شخصية رسول الله ﷺ بألوان من المهاجاة والمهاترة والتهديد والتحدي ، فقد كفى مؤنة ذلك غيره من شعراء الإسلام والمسلمين ، ولكنه أراد أن يفرّغ نفسه للجهاد والقتال ، ويرغب عن سلاح الشعر إلى سلاح القوة والحديد ، ويسير مع النبي الكريم ﷺ حيثما سار نحو الغزاة وقتال أعداء الله «فكان أول خارج إلى الغَزْوِ ، وآخر قافل منه»[1] وشهد بدراً وأحداً والخندق ، والحديبية وخيبر وعمرة القضاء ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان أميراً في غزوة مؤتة التي أكرمه الله فيها بالشهادة .

كان عبد الله بن رواحة شاعراً في الجاهلية والإسلام ، وفارساً كبيراً ، من فرسان المسلمين ، يحضر الوغى لقتال المشركين ويشهد الغزوات ويُظهر فيها بشجاعته وبراعته في استعمال السلاح ومواجهة الأعداء ، وقد أبلى في الحروب الإسلامية التي شاركها بلاءً حسناً .

عبد الله بن رواحة يبايع رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود :

لقد كانت بيعة العقبة التي شهدها اثنا عشر نقيباً من الأنصار مبدأً دخول الأنصار في الإسلام ، وانتشاره في المدينة ، وكان عبد الله بن رواحة نقيب بني الحارث بن الخزرج في هذه البيعة التي تمت في مِنَى على يد رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، ومنذ ذلك الوقت اشتدّ الأذى على المسلمين بمكة فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : ق/ ٤/ ٨٤ .

المدينة المنورة ، فبادروا إلى ذلك وتجهزوا في خفاء وستر ، واستمر ذلك إلى مدة تزيد على سنة واحدة .

أما البيعة التي بايعوا النبي الكريم ﷺ عليها في ليلة العقبة فكانت على حرب الأحمر والأسود ، ولذلك حينما تمت بيعة النقباء وبينهم عبد الله بن رواحة استأذنوا النبي الكريم ﷺ أن يميلوا على أهل منى من المشركين بأسيافهم؟ فقال ﷺ : لم نؤمر بذلك ، فرجع النقباء إلى المدينة المنورة ، ورجع معهم عبد الله بن رواحة ، ولكنه كان يتطلع إلى أيّ فرصة تسنح له للوفاء بالعهد الذي قطعه لدى المبايعة ، فيحضر الوغى بنفسه ويقاتل أعداء الإسلام لإعلاء كلمته .

وآن للنبي الكريم ﷺ وأبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن يهاجرا إلى المدينة رغم جميع العراقيل التي وضعتها قريش في طريقهما ، والعقبات التي أقاموها في سبيل هجرتهما ، ولقد كانت الفترة بين بيعة العقبة وهجرة رسول الله ﷺ ثلاثة أشهر تقريباً[1] .

المؤاخاة بين عبد الله بن رواحة والمقداد :

وقد كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أول عمل قام به الرسول الكريم ﷺ بعد وصوله إلى المدينة المنورة ، فآخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وقال : «تآخوا في الله أخوين أخوين»[2] وآخى بين عبد الله بن رواحة والمقداد ، «كما أخرج البغوي من طريق إبراهيم بن جعفر ، عن سليمان بن محمد ، عن رجل من الأنصار كان عالماً أن رسول الله ﷺ آخى بين عبد الله بن رواحة والمقداد»[3] .

قال السهيلي : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ،

(١) روى ذلك الليث بن سعد عن عقيل عن ابن شهاب الزهري ، انظر «إمتاع الأسماع» للمقريزي: ص/ ٤١ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٢/ ١٥٠ .
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني : ٤/ ٨٣ .

فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] يعني في الميراث، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] يعني في التوادد وشمول الدعوة[١].

صلته القريبة المخلصة برسول الله ﷺ:

وضع فيه الرسول الكريم ﷺ ثقته وأَحَبَّهُ، فكان ذا صلة قريبة ماسّة بالنبي الكريم ﷺ، يكتب الوحي والرسائل ويرافقه في أسفاره وفي غزواته، وقد استخلفه ذات مرة على المدينة فقام بالمسؤولية خير قيام، وكان يستمع إلى أحاديث الرسول الكريم ﷺ ويرويها عنه كبار الصحابة، فقد ذكر أبو نعيم أن عبد الله بن رواحة روى عنه ابن عباس وأسامة بن زيد وأنس بن مالك، كما أرسل عنه جماعة من التابعين، كأبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة وعطاء بن يسار[٢].

وجاء في «طبقات» ابن سعد: «كان يكتب للنبي الكريم ﷺ، وهو الذي جاء ببشارة وقعة بدر إلى المدينة، وبعثه رسول الله ﷺ في ثلاثين راكباً إلى أسير بن رفرام [٣] اليهودي بخيبر فقتله، وبعثه بعد فتح خيبر فخرص عليهم»[٤].

وروى ابن عبد البر في «الاستيعاب» يقول:

«وروينا من وجوه من حديث أبي الدرداء، قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد، حتى إن الرجل ليضع من شدة الحر يده على رأسه، وما في القوم صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة»[٥].

في غزوة بدر:

كانت غزوة بدر في رمضان السنة الثانية من الهجرة فكانت الوقعة العظيمة التي فرق الله تعالى بها بين الحق والباطل وأعز بها الإسلام ودمغ بها الكفر وأهله، وإن كان رسول الله ﷺ لم يحتفل لها احتفالاً كبيراً، ولكن حقق الله فيها

(١) راجع الروض الأنف.
(٢) راجع الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني: ٤/ ٨٣.
(٣) وفي بعض الروايات: أسير بن رزام.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ٣/ ٩٠١.

للرسول الكريم ﷺ وللمسلمين ـ على قلة عددهم ـ انتصارات كثيرة، وأكرمهم بالآيات والمعجزات التي أعطاها الله تعالى رسوله ﷺ وأراها من معه من المؤمنين فزادتهم بصيرة ويقيناً، فكانت غزوة بدر من أكرم الغزوات والمشاهد، وهي التي شهدها الملائكة الذين قاتلوا المشركين، وحضرها كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وفيهم عبد الله بن رواحة ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

وكان قد بُني لرسول الله ﷺ عريش من جريد يقيم فيه ويخطط للقتال مع العدو، وقام على بابه سعد بن معاذ متوشحاً السيف، وخرج رسول الله ﷺ إلى موضع الوقعة وعيّن مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعاً مصرعاً، وعدّل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش وأبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ معه، وخطب رسول الله ﷺ قبل أن يبدأ القتال فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

خطبة رسول الله ﷺ يوم بدر:

«أما بعد! فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيمٌ شَأْنُه، يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله، على منازلهم عنده، به يُذكرون وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر من مواطن البأس مما يفرج الله به الهمَّ، ويُنجي به من الغم، وتدركون النجاة في الآخرة، فيكم نبيّ الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله ـ عز وجل ـ على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

انظروا الذي أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم (به) بعد ذلة، فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين»[١].

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي: ص/ ٨١.

عبد الله بن رواحة يشير على النبي الكريم ﷺ:

ولما انتهى رسول الله ﷺ من تعديل صفوف المسلمين في ساحة القتال ، ولم يقبل المشركون من قريش ما قد عرض عليهم من الرجوع إلى مكة المكرمة والامتناع عن القتال ، ناشد رسول الله ﷺ ربه ما وعده من النصر وهو يقول: اللهم إن تظهر عليَّ هذه العصابة يظهر الشرك ولا يَقُمْ لك دين ، وفي رواية قال: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد ، وأبو بكر يقول: يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ، وقد نام رسول الله ﷺ نوماً خفيفاً في العريش ثم انتبه فقال: أَبْشِرْ أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع[1].

وفي خلال مناشدة رسول الله ﷺ ربه أشار عليه عبد الله بن رواحة وقال: إن الله أجَلُّ وأعظمُ من أن ينشد وعده ، فقال رسول الله ﷺ: يا ابن رواحة ، ألا أَنْشُدُ الله وعده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩][2].

مبارزته مع سادة قريش:

وتزاحف الفريقان وعزم الناس على القتال ، ودنا من حوض المسلمين الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وأعلن قائلاً: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنَّه أو لأموتن دونه ، فشدَّ حتى دنا منه فاستقبله حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف وأَطَنَّ[3] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فحبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبرَّ يمينه ، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

وهنالك خرج عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة فبادر إليه فتية من الأنصار ثلاثة وهم: عوف ومُعَوَّذُ ابنا الحارث وثالثهم عبد الله بن رواحة فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار ، قالوا: ما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٧٩.
(٢) إمتاع الأسماع للمقريزي: ص/ ٨٤.
(٣) قطع بحيث سمع له طنين.

فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، وقم يا علي ، وتمت المبارزة التي تلاها قتل سادة قريش الثلاثة.

ولم يفتر عبد الله بن رواحة برفض قريش إياه لدى المبارزة ، وإنما ظل قائماً بالعهد ، يقاتل المشركين حتى كتب الله للمسلمين الانتصار الرائع العظيم ، وهزم المشركين شر هزيمة.

عبد الله بن رواحة يحمل بشرى بدر:

«وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة من الأثيل إلى المدينة ، فجاء شَدَّ الضُّحى (يعني عند ارتفاعه) فنادى عبد الله بن رواحة: يا معشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله ، وقَتلِ المشركين وأَسْرِهم ، ثم اتبع دور الأنصار فبشرهم (بالفتحِ والسلامة)[1].

وجاء في «السيرة النبوية» لابن هشام ، قال ابن إسحاق:

«ثم بعث رسول الله ﷺ عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية[2] بما فتح الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ وعلى المسلمين»[3].

وقدم زيد بن حارثة يبشر أهل المدينة ، فلم يصدق المنافقون ذلك وشنّعوه ، وتلقّى الناس رسول الله ﷺ بالرَّوْحَاءِ يهنئونه بفتح الله ، ودخل المدينة من ثنية الوداع في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من رمضان عام ١٢ من الهجرة ، فتلقاه الولائد بالدفوف وهن يقلن:

طَلَعَ البَدْرُ علَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ علَيْنَا ... مَا دَعَا للهِ دَاعْ

فأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين واليهود[4].

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي: ص/ ٩٩.
(٢) وهم بنو عمرو بن عوف ووائل وخطمة.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٩٦.
(٤) راجع إمتاع الأسماع ، وقعة بدر.

ومن حديثها أن كفار قريش لما رجعوا إلى مكة المكرمة ورجع أبو سفيان بن حرب بِعيرِهِ جاء إليه البقية من زعماء قريش فكلموه ، وقالوا : إن محمداً قد وتَرَكُمْ وقتل خياركم فلا ينبغي أن نتركه وأتباعه ، بل لابد من أخذ الثأر بمن أصاب منا ، فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وخرجت بحدها وحديدها وأحابيشها ومن بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالنساء في الهوادج ، التماس الحفيظة .

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ استشار أصحابه حتى استقر الرأي على القتال ، وحضر المسلمون معه في ساحة القتال وفيهم المهاجرون والأنصار ومن بينهم عبد الله بن رواحة ، وسَوَّى رسول الله ﷺ الصفوف ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وتقدم به بين يدي النبي الكريم ﷺ ، ثم قام فخطب الناس وأوصاهم بالطاعة والصبر واليقين ، والجد والنشاط وبجهاد العدو وما فيه من أجر ومثوبة ، ولقد أبلى المسلمون في الحرب بلاءً حسناً ، وتظاهر المهاجرون والأنصار كلهم بالشجاعة وقاتلوا العدو ببسالة منقطعة النظير .

موتوا على ما مات عليه النبي ﷺ :

وشاع أن النبي الكريم ﷺ قد استشهد ، صاح بذلك إبليس اللعين ، وحزن بالنبأ المسلمون وداخَلَهُم اليأس ، فبدؤوا يقولون : ما نصنع بالحياة بعده؟ وقالوا : موتوا على ما مات عليه النبي ﷺ ، ومر مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد بن أبي زهير وهو قاعد ، وفي حشوته[1] ثلاثة عَشَرَ جُرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال له : أما علمت أن محمداً ﷺ قد قُتل ، فقال خارجة : فإن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت ، لقد بَلَّغَ محمدٌ ﷺ فقاتِلْ عن دينك ، ومر على سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير الأنصاري أحد النقباء ، وكان ذلك عبد الله بن رواحة ـ فيما يقال ـ وبه اثنا عشر جرحاً كلها قد خلص إلى مقتل ، فقال : علمت أن محمداً قد

(١) يعني أمعاءه التي تحشو بطنه .

قتل؟ فقال سعد : أشهد أن محمداً قد بلَّغ رسالة ربه فقاتِلْ عن دينك ، فإن الله حي لا يموت[1] .

نساء الأنصار يبكين على حمزة :

واستشهد حمزة ـ رضي الله تعالى عنه ـ عمّ رسول الله ﷺ فحزن عليه لما قد مثّله المشركون إيذاءً له واستهانة بشأنه ، وبكى الناس رجالاً ونساءً على قتلاهم ولكن حمزة ـ رضي الله تعالى عنه ـ لم يبكِ عليه أحد ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ وسمع النوائح على القتلى ذرفت عيناه وبكى ثم قال : لكن حمزة لا بواكي له .

وهنالك ذهب سعد بن معاذ إلى نسائه فساقهُنَّ إلى بيت رسول الله ﷺ فبكين على حمزة ـ رضي الله تعالى عنه ـ بين المغرب والعشاء ، وسمع رسول الله ﷺ صوت البكاء ، فقال : ما هذا؟ فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة ، فقال : ـ رضي الله عنكن وعن أولادكن ـ ، وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن ، وجاء معاذ بن جبل ـ رضي الله تعالى عنه ـ بنساء بني سلمة ، وجاء عبد الله بن رواحة ـ رضي الله تعالى عنه ـ بنساء الحارث بن الخزرج ، فقال ﷺ : ما أردت هذا ، ونهاهن عن النوح أشد النهي[2] .

وأراد ابن رواحة أن يعزي رسول الله ﷺ على حادث حمزة ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقد كان هو عمّ رسول الله ﷺ ، وعامل به العدو أشنع ما يعامله عدو عدوه ، فمثّلوه وبقروا عن بطنه ولاكوا كبده ، وكل ذلك لكي يثيروا حزن رسول الله ﷺ وحفيظته ويتناولوه بأشد ما يمكن من الإيذاء والاستهانة ، فصنع عبد الله بن رواحة قصيدة رثاء عليه وعزى بها رسول الله ﷺ يبدؤها بالبكاء عليه :

بَكَتْ عَيْنِي وحُقَّ لهَا بُكَاهَا ... وما يُغْنِي البُكَاءُ ولا العَوِيلُ
على أَسَدِ الإلَهِ غَداةَ قَالُوا : ... أَحَمْزةُ، ذَاكُمُ الرَّجُلُ القَتِيلُ[3]

وسنورد القصيدة بكاملها حيث نتحدث عن شعره (بإذن الله تعالى) .

(١) راجع كتب السيرة ، وإمتاع الأسماع للمقريزي .
(٢) راجع إمتاع الأسماع : ص/ ١٦٤ ـ ١٦٥ .
(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام : ج/ ٣ ، غزوة أحد .

في مناسبة غزوة بدر الآخرة:

ويقال لها: غزوة بدر الموعد، ومن خبرها أن أبا سفيان بن حرب لما أراد أن ينصرف يوم أحد نادى: موعدٌ بيننا وبينكم بدرٌ الصفراءُ، رأسَ الحول، نلتقي فيه فنقتتل، فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وقد أمره رسول الله ﷺ: نعم ـ إن شاء الله ـ[1] وكانت بدرٌ الصفراء مَجْمَعاً للعرب في سوق يقام فيها كل عام من هلال ذي القعدة إلى ثمانية أيام منه.

أبو سفيان يكره الخروج إلى الموعد:

ولما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج وأحب ألا يوافي رسول الله ﷺ الموعد الذي كان قد وعده يوم انصرافه من أحد، ولكنه كان يظهر أنه يريد الغزو في جمع كثيف، وأنه يجمع الجموع الحاشدة ويعد للسير نحو المدينة والهجوم على المسلمين، وسمع المسلمون بذلك فتأهبوا لمواجهته.

وقدم نعيم بن مسعود الأشجعي مكة فأخبر أبا سفيان وقريشاً بتهيؤ المسلمين لحربهم، وكان عاماً جَدْباً فأعلمه أبو سفيان بأنه يكره الخروج إلى لقاء المسلمين واعتلَّ بجدب الأرض، وجعل له عشرين فريضة[2] توضع تحت يد سهيل بن عمرو، على أن يخذل المسلمين عن المسير لموعده، وحمله على بعير، فقدم المدينة وطاف فيها وهو ينشر الإرجاف والذعر بكثرة جموع أبي سفيان حتى أدخل الرعب في نفوس المسلمين وثبَّط هممهم فلم تَعُدْ لهم نية في الخروج.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخشي ألا يخرج معه أحد، وجاءه أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، وقد سمعا أخبار نعيم بن مسعود، فقالا: يا رسول الله! إن الله مظهرٌ دينه ومعزٌّ نبيه، وقد وعدنا القوم موعداً ولا نحب أن نتخلف عنهم حتى يروا أن ذلك جُبْنٌ، فَسِرْ لموعِدِهِمْ، فوالله إن في ذلك لخيرةً، فسُرَّ رسول الله ﷺ، ثم قال: والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد،

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي، غزوة بدر الموعد: ص/ ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٢) الفريضة: المراد بها الحصة المفروضة من السوائم والإبل.

فصبّر الله المسلمين وأذهب ما كان أرعبهم منه الشيطان، وخرجوا بتجارات لهم إلى بدر فربحت ربحاً كثيراً[1].

رسول الله ﷺ يستخلف عبد الله بن رواحة على المدينة:

وفي هذه المناسبة وقع اختيار رسول الله ﷺ على عبد الله بن رواحة لكي يستخلفه على المدينة[2] ويخرج إلى بدر مع المسلمين، وكان معه ألف وخمس مائة مقاتل، فيهم عشرة أفراس، وحمل اللواء علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وانتهى إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة وقامت السوق صبيحة الهلال فأقاموا فيها ثمانية أيام والسوق قائمة، أما أبو سفيان فقد خرج من مكة في ألفين ومعهم خمسون فرساً ثم رجعوا من مِجَنَّةَ، فسماهم أهل مكة «جيش السويق».

وأقام رسول الله ﷺ في بدر ينتظر أبا سفيان ولكنه ما جاء، ومر به معبد بن أبي معبد الخزاعي وقد رأى مكان رسول الله ﷺ وناقته كانت تهوي به، فانطلق سريعاً إلى مكة وهو يقول:

قَدْ نَفَرَتْ مِنْ رُفْقَتَيْ مُحَمَّدِ ... وعَجْوةٍ مِنْ يَثْرِبَ كالعَنْجَدِ[3]
تَهْوِي على دِيْنِ أبِيْها الأَتْلَدِ ... قَدْ جَعَلَتْ ماءَ قُدَيْدٍ[4] مَوْعِدي
وماءَ سَجْنَانَ[5] لها ضُحَى الغَدِ

شعر عبد الله بن رواحة في المناسبة:

لما علم ابن رواحة بغياب أبي سفيان وإخلاف وعده، وجه إليه اللوم والعار على ما ظهر منه من الجبن، والفرار من لقاء المسلمين خوفاً منهم، وقال فيه شعراً، اعتز فيه بالإسلام وبرسول الله ﷺ:

وَعَدْنا أبا سُفْيانَ بَدْراً فلَمْ نَجِدْ ... لِمِيْعادِهِ صِدْقاً وما كانَ وَافِياً

(١) راجع إمتاع الأسماع: ص ١٨٤.
(٢) وفي بعض كتب السيرة الأخرى أن النبي الكريم ﷺ استعمل على المدينة عبدالله بن عبد الله بن أبي سلول الأنصاري.
(٣) الزبيب الأسود.
(٤) موضع قرب مكة.
(٥) سجنان: اسم جبل في ناحية تهامة.

وأُقْسِمُ لَوْ وافيتَنَا فلَقِيْتَنَا ... لأُبْتَ ذَمِيْماً وافتَقَدْتَ المُوَالِيَا
تَرَكْنَا بِهِ أوْصَالَ عُتْبَةَ وابنِهِ ... وعَمْراً أَبَا جَهْلٍ ، تَرَكْنَاهُ ثَاوِياً
عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ أُفٌّ لِدِيْنِكُمْ ... وأَمْرَكُمُ السَّيِّئ الَّذي كانَ غَاوِيَاً
وإنِّي وإنْ عَنَّفْتُمُونِيْ لَقَائِلٌ: ... فِدىً لِرَسُولِ اللهِ أَهْلِيْ ومَالِيَا
أَطَعْنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فِيْنَا بِغَيْرِهِ ... شِهَاباً لَنا في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِياً[1]

عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع :

خرج مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة وأبلى فيها بروح الإيمان والفداء أحسن بلاء ، وظل مع رسول الله ﷺ حتى انتهت الغزوة وثبتت العودة إلى المدينة «وهي غزوة بني المصطلق التي اشتهرت بخبر الإفك» وكان جابر بن عبد الله رفيق عبد الله بن رواحة في هذه الغزوة ، فلما توجها تلقاء المدينة عائدين من الغزوة انتهيا إلى وادي العقيق في وسط الليل ، وكان الناس معرسين .

ابن رواحة يطرق أهله ليلاً :

«تقدم ابن رواحة إلى المدينة وطرق أهله ليلاً ، فإذا مع امرأته إنسان طويل ، فظن أنه رجل ، وندم على تقدمه في ذلك الوقت واقتحم البيت رافعاً سيفه ، يريد أن يقتلهما ، ثم توقف وفكر ، فغمز امرأته برجله فاستيقظت وصاحت ، فقال : أنا عبد الله ، فمن هذا؟ قالت : رحيلة[2] سمعنا بقدومكم فدعوتها تمشطني فباتت عندي ، فبات وأصبح فخرج يلقى رسول الله ﷺ وهو سائر بين أبي بكر الصديق وبشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس بن زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج الأنصاري - رضي الله تعالى عنهما - ، فالتفت ﷺ إلى بشير فقال : يا أبا النعمان! إن وجه عبد الله ليخبرك أنه كره طروقَ أهله .

لا تطرقوا النساء ليلاً :

لقد كان رسول الله ﷺ قد توسم في وجه عبد الله بن رواحة كراهية طروقه ليلاً عند أهله ، وتفطن لما وقع له مع زوجته ، واهتم بذلك مخافة ألا يكون هناك ما

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ج/ ٣ ، غزوة بدر الآخرة .
(٢) اسم الماشطة التي كانت معها .

يسوؤه من خبر ، ولذلك فإن ابن رواحة حينما انتهى إلى رسول الله ﷺ دعاه وقرّبه إليه ، وسأله عما إذا كان هناك شيء كرهه في أهله ، فقال له : خبرك يا ابن رواحة ، فأخبره بكل ما حدث له مع زوجته ، والماشطة التي كانت نائمة معها ، وما همّ عليه من قتلها ، ولما سمع رسول الله ﷺ بذلك أمر الناس قائلاً : لا تطرقوا النساء ليلاً ، فكان ذلك أول ما نهى عنه رسول الله ﷺ[1] ، وكان قدومه ﷺ من المريسيع إلى المدينة لهلال رمضان المبارك[2] .

غزوة الخندق وابن رواحة :

وقد سُميت بغزوة الأحزاب ، وهي التي ابتلى الله سبحانه فيها عباده المؤمنين وزلزلهم ، وثبت الإيمان في قلوب أوليائه وفضح المنافقين الذين كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ، والسبب في هذه الغزوة أن النبي الكريم ﷺ لما أجلى بني النضير ساروا إلى خيبر وبها من اليهود من كانوا أهل عدد وجلد ، وإن كانوا لا يساوون بني النضير في البيوت والأحساب ، فخرج سلام بن أبي الحُقَيق على رأس جماعة من قومه إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب رسول الله ﷺ ، فرحب بهم أبو سفيان ، وقال : أحب الناس من أعاننا على عداوة محمد ﷺ وحزّبت قريش الأحزاب ودعتها إلى هذه الحرب .

وعلم بذلك رسول الله ﷺ فاستشار أصحابه - رضي الله تعالى عنهم - وقال : هل من المصلحة أن نبقى في المدينة ونُخَنْدِق حولها ، أم نخرج إلى ساحة القتال ونبارز العدو ، فأشار سلمان الفارسي - رضي الله تعالى عنه - بحفر الخندق والبقاء في المدينة ، وهنالك أمرهم رسول الله ﷺ بالجد ، ووعدهم بالنصر إن هم صبروا واتقوا ، وأمرهم بالطاعة .

وبعدما تعين الموضع الذي يحفر فيه الخندق اشتغل به المسلمون بجد ونشاط ، وعمل معهم رسول الله ﷺ فازدادوا نشاطاً وجداً ، ووكل رسول الله ﷺ بكل جانب

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي : ص/ ٢١٣ - ٢١٤ .
(٢) اختلف المؤرخون في هذه الغزوة هل كانت في سنة خمس أو ست ، فذهب الواقدي إلى أنها كانت في سنة خمس ، وقال ابن إسحاق : في السنة السادسة ، والله أعلم .

من الخندق قوماً يحفرونه ، وكان الشباب ينقلون التراب ، ويخرج المهاجرون والأنصار وفيهم عبد الله بن رواحة في نقل التراب وعلى رؤوسهم المكَاتِل ، ويرجعون بها بعد إلقاء التراب منها وقد ملؤوها حجارة من جبل سلع ، وكانت هي أعظم سلاح لهم يرمون بها[1] .

رسول الله ﷺ يرتجز برجز عبد الله بن رواحة ويحفر الخندق :

لم يتعب المسلمون ولا تأخروا عن حفر الخندق وكان أبو بكر وعمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ينقلان التراب في ثيابهما من العجلة ، إذ لم يجدا مكاتل ، وكانا لا يتفرقان في عملٍ مع رسول الله ﷺ ، فاشتغلوا بحفر الخندق ويعمل معهم رسول الله ﷺ يملأ التراب صدره ويغطيه ، وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة :

اللهُمَّ لَوْلا أنتَ ما اهْتَدَيْنا ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنا
فأنْزِلَنْ سَكِيْنَةً عَلَيْنا وثَبِّتِ الأقْدَامَ إنْ لاقَيْنَا
إنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوا عَلَيْنا وإنْ أرَادُوا فِتْنَةً أبَيْنَا

يردد ذلك ، ويرفع بها ، فكان المسلمون كلهم ينشطون ويجدون دون أن يشعروا بكلال أو تعب[2] .

وأحياناً كان يقول :

هَذَا الحَمَالُ لا حمَالُ خيبرٍ هَذا أبَرُّ رَبَّنَا وأطْهَرُ

أما المهاجرون والأنصار فكانوا ينقلون التراب على متونهم ويقولون :

نَحْنُ الَّذينَ بَايَعُوا مُحمَّداً علَى الجِهَادِ ما بَقِيْنا أبَداً

فيجيبهم النبي الكريم ﷺ ويقول :

اللهُمَّ إنَّهُ لا خَيْرَ إلا خيرُ الآخِرَةْ فبَارِكْ في الأنْصَارِ والمُهَاجِرَةْ[3]

أيام شدة ومجاعةٍ وأسرةُ ابن رواحة :

كانت أسر المسلمين تهتم بإرسال الطعام وبعض الأكلات للذين يعملون في

(١) إمتاع الأسماع : ص/ ٢٢٠ .
(٢) راجع البخاري غزوة الخندق ، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ .
(٣) صحيح البخاري : ٦/ ٤٦ ، طبع المكتبة السلفية بمصر .

الخندق نظراً إلى الشدة والجوع والتعب ، والاستمرارية في العمل لكي يستعين الناس بذلك ، وقد ظهر في هذه المناسبة بعض المعجزات من النبي الكريم ﷺ .

وأرسلت عمرة بنت رواحة كذلك بشيء مما يؤكل لأخيها عبد الله بن رواحة ولزوجها بشير بن ثعلبة الأنصاري ، يتحدث بذلك المقريزي في كتابه : «إمتاع الأسماع» فيقول :

«وكان المسلمون قد أصابهم مجاعة شديدة ، وكان أهلوهم يبعثون إليهم بما قدروا عليه ، فأرسلت عمرة ابنةُ رواحة ابنَتَها بجفنة تمر عجوة في ثوبها إلى زوجها بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري ، وإلى أخيها عبد الله بن رواحة ، فوجدت رسول الله ﷺ جالساً في أصحابه فقال : تعالي يا بنية! ما هذا معك؟ فأخبرته ، فأخذه في كفيه ونثره على ثوب بسط له ، وقال لجعال ابن سراقة! اصرخ : يا أهل الخندق أنْ هلمُّوا إلى الغداء ، فاجتمعوا عليه يأكلون منه حتى صدر أهل الخندق وإنه ليفيض من أطراف الثوب ، وأرسلت أم معتب الأشهلية بقعبة[1] فيها حَيْسٌ إلى رسول الله ﷺ وهو في قبته مع أم سلمة ، فأكلت حاجتها ، ثم خرج بالقعبة فنادى مناديه : هلم إلى عشائه! فأكل أهل الخندق حتى نهلوا وهي كما هي[2] .

دور عبد الله بن رواحة في إنقاذ صفوان بن المعطل :

وقد فات أن نذكر دور عبد الله بن رواحة بعد عودة القوم من غزوة المريسيع في إنقاذ صفوان بن المعطل السلمي حينما قال حسان بن ثابت شعراً عرّض فيه بصفوان ، وكان قد احتمل أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ على بعيره عائداً من الغزوة ، وهذا مطلع القصيدة :

أمْسَى الجَلابِيْبُ قَدْ عَزُّوا وقَدْ كَثُروا وابْنُ الفُرَيْعَةِ أمْسَى بَيْضَةَ البَلَدِ

وكان صفوان بن المعطل قد نذر لئن برأه الله تعالى ليضربن حسان ، فبرأه الله

(١) القعبة : حقة مطبقة يوضع فيها السويق والحيس ، والحيس : من طعامهم متخذ من التمر والسمن والدقيق والفتيت يخلط بعضه ببعض .
(٢) إمتاع الأسماع : ص/ ٢٣٥ .

وسمع تعريض حسان به في القصيدة المذكور مطلعها[1] ضربه بالسيف ، وهنالك وثب ثابت بن قيس الشماس على صفوان وجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى بني الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال : ما هذا؟ قال : أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ، والله ما أراه إلا قد قتله ، فقال له عبد الله بن رواحة : هل علم رسول الله ﷺ بشيء مما صنعت ، قال : لا والله ، قال : لقد اجترأت ، أطلقِ الرجل ، فأطلقه ، ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له[2] .

سرية عبد الله بن رواحة :

وفي شوال عام ستة أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر ، وكان أُسَيرُ هذا قد تآمر مع اليهود ضد رسول الله ﷺ ، فقام فيهم يحضهم على القتال ، وتوجه إلى غطفان فجمعها لكي يسير بهم إلى المدينة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب الناس فانتدب له ثلاثون رجلاً ، واستعمل عليهم عبد الله بن رواحة ـ رضي الله تعالى عنه ـ .

وقد تحدث بخبر هذه السرية تقي الدين أحمد بن علي المقريزي في كتابه : إمتاع الأسماع يقول :

«ثم كانت سريةٌ أميرها عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رازم[3] بخيبر ، وكان من يهود ، في شوال سنة ست ، وكان قد بعثه رسول الله ﷺ قبل ذلك في رمضان في ثلاثة نفر ينظر إلى خيبر وما تكلم به يهود ، فوعِيَ ذلك وعاد بعد إقامة ثلاثة أيام ، فقدم لليالٍ بقينَ منه ، فأخبر رسول الله ﷺ بما ندبه إليه ، وكان أسير قد تأمَّر على يهود بعد أبي رافع ، فقام فيهم يريد حرب رسول الله ﷺ ، وسار في غطفان فجمعها ليسير إلى المدينة ، فقدم بخبرهِ خارجةُ بن حُنَيْلٍ الأشجعي[4] ، فندب

(١) اقرأ القصيدة بكاملها في حديثنا عن حسان بن ثابت الأنصاري في فصل : (غزوة بني المصطلق وحسان) .
(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام ، غزوة بني المصطلق .
(٣) وفي ابن هشام : ٢/ ٩٨٠ «اليسير بن رزام» و«رازم» أيضاً .
(٤) خارجة بن حثيل : لم أجد له ترجمة ولا ذكراً ، ولا رأيت أحداً من أصحاب السير ذكره في خبر هذه السرية ، وأخشى أن يكون هو خارجة بن الحمير الأشجعي الذي ذكره ابن هشام فيمن شهد=

رسول الله ﷺ الناس فانتدب له ثلاثون رجلاً ، واستعمل عليهم عبد الله بن رواحة ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، فقدموا خيبر ، وبعثوا إلى أسير فأمنهم حتى يأتوه[1] فيما جاؤوا فيه ، فأتوه وقالوا له : إن رسول الله بعثنا إليك أن تخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك ، فطمع في ذلك ، وخرج في ثلاثين من يهود ، ثم ندم في أثناء الطريق حتى عرف ذلك منه ، وهمّ بعبد الله بن أنيس ـ وكان فيمن خرج مع ابن رواحة ـ ففطن عبد الله بغدره وبادره ليقتله ، فشجه أسير ثم قتل ، ومالوا على أصحابه فقتلوهم كلهم ، إلا رجلاً واحداً فرَّ منهم ، ولم يصب أحد من المسلمين ، وقدموا المدينة ـ وقد خرج لرسول الله ﷺ يتحسب[2] أخبارهم ـ فحدثوه الحديث ، فقال : نجاكم الله من القوم الظالمين ، ونفث في شجة عبد الله بن أنيس فلم تَفِحْ[3] بعد ذلك ولم تؤذه ، وكان العظم قد نقَّل[4] ومسح على وجهه ودعا له ، وقطع له قطعة من عصاه فقال : أمسك هذه علامة بيني وبينك يوم القيامة أعرفك بها ، فإنك تأتي يوم القيامة متخصراً[5] فَجُعِلَتْ معه في قبره تَلي جِلْدَهُ ، ويروى أن النبي الكريم ﷺ كان قد قال له : يا عبد الله! لا أرى أسير بن زارم ، أي : اقتله[6]» .

عبد الله بن رواحة يخرص النخل في خيبر :

وتم لرسول الله ﷺ فتح خيبر في عام سبعة من الهجرة ، وكانت خيبر مما أفاء الله ـ عز وجل ـ على رسوله الكريم ﷺ ، خَمَّسَها رسول الله ﷺ وقسمها بين المسلمين ، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال ، فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها ، وتكون ثمارها بيننا

= بدراً : ١/ ٥٠٠ ، وترجم له صاحب أسد الغابة ، وابن حجر في الإصابة ، وقال : «هو حارثة بن حمير الأشجعي» وترجم له فيه .
(١) في الأصل : «يأتونه» .
(٢) تحسب الخبر واحتسبه : تطلبه وتحسسه وتعرفه .
(٣) في الأصل : «تقح» ، وفاحت الشجة : نفحت بالدم .
(٤) نقلت الضربة العظم : كسرته حتى يخرج منه فراش العظام ، وهي قشور تكون العظم دون اللحم ، وتسمى هذه الضربة : المنقلة .
(٥) أي يحمل المخصرة وهي العصا .
(٦) إمتاع الأسماع : ص/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢ .

وبينكم ، وأُقِرُّكم ما أقَرَّكم الله ، فقبلوا فكانوا على ذلك يَمَلُّونَها ، وكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل عليهم في الخرص. . فإذا قالوا: تعديت علينا ، قال: إن شئتم فَلَكُم ، وإن شئتم فَلَنا ، فيقول يهود: بهذا قامت السموات والأرض.

وخرص عليهم عبد الله بن رواحة عاماً واحداً فقط ، واستشهد بعد ذلك في مؤتة ، فكان جبار بن صخر بن أمية بن خنساء أبو بني سلمة يخرص عليهم بعد ابن رواحة[1].

عبد الله بن رواحة في عمرة القضاء:

وتسمى هذه العمرة: عمرة القضية ، وعمرة الصلح ، وعمرة القصاص ، وذلك أن ذا القعدة لما أَهَلَّ في سنة سبع أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم ، وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف من أهلها أحد وهو حي ، وخرج سوى أهل الحديبية رجالٌ عُمَّاراً ، وكان من بينهم عبد الله بن رواحة.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلع على الحجون ، وقد ركب القصواء ، وأصحابه حوله متوشحو السيوف يُلَبُّون ، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته ، فلم يزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُلَبِّي حتى استلم الركن ، وقيل: لم يقطع التلبية حتى جاء عروش مكة[2].

ابن رواحة يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ:

أخرج أبو يعلى بسند حسن عن جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وابن رواحة بين يديه وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيْلِهِ ... اليَوْمَ نَضْرِبُكُمْ علَى تَأوِيْلِهِ
ضَرْباً يُزِيْلُ الهَامَ عَنْ مَقِيْلِهِ ... ويُذْهِلُ الخَلِيْلَ عَنْ خَلِيْلِهِ

فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ: يا ابن رواحة ، أفي حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: خلِّ عنه يا عمر ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٣٦٩.
(٢) راجع إمتاع الأسماع ، عمرة القضاء.

فوالذي نفسي بيده ، لَكَلامُهُ أشدُّ عليهم من وَقْعِ النبل[1].

رسول الله ﷺ يعلم ابن رواحة دعاءه في الطواف:

يقول المقريزي:

وقد تحدثت قريش أن المسلمين في جهد ، ووقف منهم جماعات عند دار الندوة ، فاضطبع[2] ـ عليه السلام ـ بردائه ، وأخرج عضده اليمنى ، ثم قال: رحم الله امرءاً أراهم اليوم قوة! فلما انتهى إلى البيت ـ وهو على راحلته ، وابن رواحة آخذ بزمامها ، قد صف له المسلمون ـ دنا من الركن فاستلمه بمحجنه[3] وهو مضطبعٌ بثوبه ، وهرول هو والمسلمون في الأشواط الثلاثة الأُوَلِ[4] وكان ابن رواحة يرتجز[5] في طوافه ، وهو آخذ بزمام الناقة ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إيهاً[6] يا ابن رواحة! قل: لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده! فقالها الناس: فلما قضى طوافه ، خرج[7] إلى الصفا فسعى على راحلته ، والمسلمون يسترونه من أهل مكة أن يرميَه أحدٌ منهم أو يصيبه بشيء ، ووقف عند فراغه قريباً من المروة[8].

غزوة مؤتة ، وعبد الله بن رواحة:

يقول المقريزي: «ثم كانت غزوة مؤتة من عمل البلقاء بالشام دون دمشق (وهي

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ، ج/ ٤ ، والطبقات: ٣/ ٨ ، وقد ذكرنا هذا الكلام في مبدأ الحديث عن ابن رواحة.
(٢) اضطبع: هو أن يدخل الطائف ببيت الله الحرام رداءه من تحت إبطه ويغطي به الأيسر من جهتي صدره وظهره.
(٣) المحجن: عصا معقفة الرأس كالصولجان ، وفي الأصل: «حتى دنا. . .».
(٤) هرول: أسرع سيراً بين المشي والعدو ، والشوط: المرة الواحدة من الطواف بالكعبة ، وجمعه أشواط.
(٥) ارتجز: ترنم بالرجز من الشعر.
(٦) إذا قلت للرجل: «إيه حدثنا» فأنت تستزيده من الحديث ، فإن قلت له: «إيهاً» بالنصب ، فإنما تأمره بالانقطاع والسكوت.
(٧) في الأصل: «وخرج».
(٨) إمتاع الأسماع للمقريزي: ص/ ٣٣٨.

بضم أوله ، وإسكان ثانيه ، بعده تاء معجمة باثنتين من فوقها) كانت في جمادى الأولى ، وسبب ذلك أن الحارث بن عمير الأزدي لما نزل مؤتة بكتاب رسول الله ﷺ إلى صاحب بصرى ، أخذه شرحبيل بن عمرو الغساني وضرب عنقه فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس ، فأسرعوا وعسكروا بالجرف ، ولم يبين لهم الأمر[1] فلما صلى الظهر جلس في أصحابه وقال: زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فَلْيَرْتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه[2] عليهم ، وعقد لواءً أبيضَ ودفعه إلى زيد بن حارثة فودَّعَ الناسُ الأمراءَ ، وخرج معهم إلى مؤتة ثلاثة آلاف ، وجعل المسلمون ينادون: دفع الله عنكم وردَّكم صالحين غانمين.

وداع جيش مؤتة ووصيته الأمراء:

وشيَّعهم رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع ، ثم وقف وهم حوله ، وقال: أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا بسم الله في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلُّوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيهن ما أجابوك إليها ، فاقبل منهم واكفف عنهم: ادعهم إلى الدخول في الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم

(١) في الأصل: «الأمراء».
(٢) في الأصل: «فليجعلوه».

الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة اللهوذمة رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تَخْفِروا[1] ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تَخْفِروا ذمة الله وذمة رسوله.

وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين للناس ، فلا تتعرضوا لهم ، وستجدون آخرين في رؤوسهم مفاحص[2] فاقلعوها بالسيوف ، لا تقتُلُنَّ امرأة ولا صغيراً ضَرِعاً[3] ، ولا كبيراً فانياً ، ولا تغرقن نخلاً ، ولا تقلعن شجراً ، ولا تهدموا بيتاً.

من خبر عبد الله بن رواحة:

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! مرني بشيء أحفظه عنك ، قال: إنكَ قادم غداً بلداً ، السجود فيه قليل فأكثرِ السجود ، قال: زدني يا رسول الله! قال: اذكر الله ، فإنه عون لك على ما تطلب[4] ، فقام من عنده ، حتى إذا مضى ذاهباً رجع ، فقال: يا رسول الله! إن الله وتر يحب الوتر[5]! فقال: يا ابن رواحة! ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة ، فقال: لا أسألك عن شيء بعدها.

ومضى المسلمون ، وقد أمرهم رسول الله ﷺ أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير ، وسمع العدو بمسيرهم ، فجمعوا لهم ، فقام فيهم رجل من الأزد يقال له:

(١) أخفر الذمة: نقضها ، ولم يوف بها ، ولم يتمها ، وأزال خفارتها: أي أمانها وذمامها.
(٢) مفاحص جمع مفحص: وهو كالأفحوص ، حيث تجثم القطا وتفرخ ، ومعنى الحديث: أن الشيطان قد عشش في رؤوس هؤلاء ونرخ ، فجعل له فيها مفاحص القطا والطير ، فاستوطن فيهم ، فألزمهم شدة الغي ، والانهماك في الشر.
(٣) الضرع والضارع: الصغير السن الضعيف الضاوي ، يذل من ضعفه ، ولا يدفع عن نفسه.
(٤) في الأصل: «تطالب» ولا بأس بها.
(٥) الوتر (بكسر الواو وفتحها): الفرد الأحد ، وكان ابن رواحة كما ترى سأل رسول الله شفعاً (أي سؤالين) فأراد أن يوتر سؤاله ، فيجعله فرداً غير شفع.

شرحبيل بن عمرو الغساني[1] وقدم الطلائع أمامهُ[2] ، وبعث أخاه سدوس بن عمرو في خمسين ، فلقوا المسلمين بوادي القرى فقاتلوه وقتلوه ، ونزلوا معان (من أرض الشام)[3] فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من بلقاء ، في مائة ألف من الروم ومعه من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام مائة ألف ، عليهم رجل من بلّى يقال له : مالك .

عبد الله بن رواحة يشجع المسلمين :

فأقاموا ليلتين ، وأرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ليردهم أو يزيدهم رجالاً ، فشجعهم عبد الله بن رواحة ، وقال : والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ! انطلقوا ، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فَرَسان ، ويوم أحد فرس واحد ! فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور عليهم ، فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا ، وليس لوعده خُلْفٌ ، وإما الشهادة ، فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان ! فَشجَّعَ الناس ومضوا إلى مؤتة ، فرأوا المشركين ومعهم ما لا قِبَلَ لهم به من العدد ، والسلاح ، والكراع ، والديباج ، والحرير ، والذهب ، قال أبو هريرة : وقد شهدت ذلك فبرق بصري[4] ، فقال لي ثابت بن أقرم[5] : يا أبا هريرة ! مالك؟ كأنك ترى جموعاً كثيرة ! قلت : نعم ، قال : لم تشهدنا ببدر ، إنا لم ننصر بالكثرة .

وقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم ، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل الناس معه ، والمسلمون على صفوفهم ، وعلى الميمنة قطبة بن قتادة السدوسي ، وعلى الميسرة عباية[6] بن مالك ، فقتل زيد طعناً بالرماح .

ثم أخذه جعفر فنزل عن فرسه فعرقبها[7] ، ثم قاتل حتى قتل ، ضربه رجل من

(١) زيادة للإيضاح فقط .
(٢) في الأصل : «أو قدم الطلا مع أمامه» .
(٣) زيادة للبيان .
(٤) برق البصر : دهش فلم يبصر ، وتحير فلم يطرف ، من فزع وحيرة .
(٥) في الأصل : «بن أقوم» .
(٦) في الأصل «عباية» .
(٧) عرقب فرسه : قطع عرقوبها ، وهو الوتر الذي خلف كعبيها من مفصل القدم والساق ، وكانت تلك عادتهم إذا حمي البأس ، قالوا : وكانت فرس جعفر أول فرس عرقبت في الإسلام .

الروم فقطعه بنصفين ، فوقع أحد نصفيه في كرم ، فوجد في نصفه بضع وثلاثون جرحاً ، وقيل : وجد ـ مما قبل يديه[1] فيما بين منكبيه ـ اثنتان وسبعون[2] ضربة بسيف أو طعنة برمح ، ووجد به طعنة قذ أنفذته .

مقتل ابن رواحة :

ثم أخذ اللواء بعده عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ، وسقط اللواء ، فاختلط المسلمون والمشركون ، وانهزم المسلمون أسوأ هزيمة ، وقتلوا ، واتبعهم المشركون ، فجعل قطبة بن عامر يصيح : يا قوم ! يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً ، فما يثوب[3] إليه أحد ، ثم تراجعوا ، فأخذ اللواء ثابت بن أقرم ، وصاح : يا للأنصار ! فأتاه الناس من كل وجه وهم قليل ، وهو يقول : إلي أيها الناس ! فلما نظر إلى خالد بن الوليد ، قال : خذ اللواء يا أبا سليمان ! فقال : لا آخذه ، أنت أحق به ، أنت رجل لك سن[4] ، وقد شهدت بدراً ، قال ثابت : خذه أيها الرجل ! فوالله ما أخذته إلا لك ! فأخذه خالد فحمله ساعة ، وجعل المشركون يحملون عليه ، فثبت حتى تكركر[5] المشركون ، وحمل بأصحابه ففض جمعاً من جمعهم ، ثم دهمه منهم بَشَرٌ كثير[6] ، فانحاش[7] بالمسلمين فانكشفوا راجعين ، وقد قيل : إن ابن رواحة قتل مساء ، فبات خالد فلما أصبح غداً ، وقد جعل مقدمته ساقة ، وساقته مقدمة ، وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة (فأنكر المشركون)[8] ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم ، فقالوا : قد جاءهم مدد ! ! ورعبوا ، فانكشفوا منهزمين ، فقتلوا منهم مقتلة لم يقتلها قوم ، والأول أثبت : أن

(١) في الأصل : «مما قبل من يديه» .
(٢) في الأصل : «اثنتين وسبعين» .
(٣) ثاب يثوب : رجع .
(٤) في الأصل : «شن» .
(٥) كركره عن الشيء : رده ودفعه وحبسه ، فتكركر : ارتد .
(٦) في الأصل : «كبير» .
(٧) انحاش بهم : جمعهم فتصرف بهم ثم نفر بجمعهم .
(٨) في الأصل مكان ما بين القوسين : «فأنكروا» وهذه أبين للسياق .

خالداً انهزم بالناس فعيروا بالفرار ، وتشاءم الناس به [1] ، فلما سمع أهل المدينة بقدومهم تلقوهم ، وجعلوا يحثون في وجوههم التراب ، ويقولون : يا فُرَّار! أفررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ : ليسوا بفُرَّار ، ولكنهم كُرَّار ـ إن شاء الله العزيز ـ .

فانصرفوا إلى بيوتهم فلزموها ، فإنهم كانوا إذا خرجوا صاحوا بهم : يا فُرَّار! أفررتم في سبيل الله؟ وكان الرجل يدق عليهم فيأبون أن يفتحوا له لئلا يقول[2] : ألا تقدمت مع أصحابك فقُتلت؟ حتى جعل رسول الله ﷺ يرسل إليهم رجلاً رجلاً ، يقول : أنتم الكُرَّار في سبيل الله ، وكان بين أبي هريرة وبين ابن عمّ له كلام ، فقال : إلا فراركم يوم مؤتة ، فما درى ما يقول له .

وكان رسول الله ﷺ ـ لما التقى الناس بمؤتة ـ جلس على المنبر وكشف له ما بينه وبين الشأم ، فهو ينظر إلى معتركهم ، فقال : أخذ الراية زيد بن حارثة ، فجاءه الشيطان فحبَّب إليه الحياة وكره إليه الموت ، فقال : الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبِّب إلي الدنيا ، فمضى قدماً حتى استشهد ، فصلى عليه ، وقال : استغفروا له ، وقد دخل الجنة وهو يسعى .

ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فجاءه الشيطان فمنَّاه الحياة وكرَّه إليه الموت ، فقال : الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تمنيني الدنيا! ثم مضى قدماً حتى استشهد ، فصلى عليه ودعا له ، ثم قال : استغفروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة بجناحين من ياقوت حيث شاء من الجنة .

ثم أخذ الراية بعد عبد الله بن رواحة فاستشهد[3] ، ثم دخل الجنة معترضاً ، فشق ذلك على الأنصار ، فقال : أصابته الجراح ، قيل : يا رسول الله! ما إعراضه؟ قال : لما أصابته الجراح نَكَل[4] ، فعاتب نفسه فشجع ، فاستشهد فدخل الجنة فَسُرِّيَ عن قومه .

(١) أي : تشاءموا بخالد .
(٢) في الأصل : «تقول» .
(٣) في الأصل : «فاستشهدوا» .
(٤) نكل الرجل عن الأمر : جبن وتخاذل .

وقال يومئذ : خير الفرسان أبو قتادة ، وخير الرجال[1] سلمة بن الأكوع ، ولما أخذ خالد الراية ، قال ﷺ : الآن حَمِيَ الوطيس [2][3] .

عبد الله بن رواحة يتمثل بأبيات من الشعر :

وجاء في رواية لابن الأثير الجزري في كتابه : «أسد الغابة» :

أخبرنا عبد الله بن أحمد بن علي بإسناده إلى يونس بن بكير ، عن ابن إسحاق ، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، قال : سار عبد الله بن رواحة ـ يعني إلى مؤتة ـ وكان زيد بن أرقم يتيماً في حجره فحمله على حقيبة رحله ، وخرج به غازياً إلى مؤتة فسمعه زيد يقول من الليل يتمثل بأبياته التي قال :

إذا أدْنَيْتِنِي وحَمَلْتِ رَحْلِي ... مَسِيْرةَ أرْبَعٍ بَعْدَ الحِسَاءِ
فشَأنُكِ فانْعَمِي وخَلاكِ ذَمٌّ ... ولا أرْجِعْ إلى أهْلِي وَرَائِي
وجَاءَ المُؤمِنُونَ وغادَرُوْنِي ... بأرْضِ الشَّامِ مَشْهُورَ الثَّوَاءِ
ورَدَّكَ كلُّ ذِيْ نَسَبٍ قَرِيْبٍ ... إلى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعَ الإخَاءِ
هُنالِكَ لا أُبَالِي طَلْعَ بَعْلٍ ... ولا نَجْلٍ أسَافِلُهَا رواء

فلما سمعه زيد بكى فخفقه بالدِّرَّة ، وقال : ما عليك يا لُكَعُ أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شُعْبَتَي الرَّحْلِ ، ولزيد بن أرقم يقول ابن رواحة :

يا زَيْدُ زَيْدَ اليَعْمَلاتِ الذُّبَّلِ ... تَطَاوَلَ اللَّيْلُ هُدِيْتَ فَانْزِلِ

يعني انزل فَسُقْ بالقَومِ .

ابن رواحة يودعه القوم إلى مؤتة :

لما ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم ، وودعوا عبد الله بن رواحة بكى ، قالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة

(١) الرجال : جمع راجل ، وهو الذي لا فرس له ، فهو يركب رجليه في الجهاد .
(٢) هذه الكلمة لم تسمع إلا من رسول الله ﷺ ، قالوا : وذلك يوم حنين ، وقيل : يوم مؤتة ، والوطيس : حفيرة تحتفر في الأرض فتوقد فيها النار ويصغر رأسها ، ويخرق فيها خرق للدخان ثم يوضع فيها اللحم ويسد ، ثم يؤتى من الغد واللحم غاب لم يحترق ، ولحمها شواء ، وهذه الكلمة من بليغ المجاز في شدة الحرب وقيامها واحتدامها .
(٣) إمتاع الأسماع : غزوة مؤتة .

إليها ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ فلست أدري كيف بالصَّدَر بعد الورد ، فقال المسلمون: صحبكم الله وردكم إلينا صالحين ، ورفع إليكم ، فقال ابن رواحة:

لكنَّنِـيْ أسـألُ الـرَّحمَـنَ مَغْفِـرةً ... وضَـرْبـةً ذاتَ فَـرْعٍ يَقْـذِفُ الـزَّبَـدا
أو طَعْنَـةً بِيَـدَيْ حَـرَّانَ مُجْهِـزَةً ... بحَـرْبـةٍ تُنْفِـذُ الأَحْشَـاء والكَبِـدَا
حتَّى يَقُـوْلـوا إذا مَرُّوا على جَدَثِـيْ ... يـا أَرْشَـدَ اللهُ مِـنْ غَـازٍ وقَـدْ رَشَـدَا

ثم أتى عبد الله رسول الله ﷺ فودعه.

عبد الله يخاطب نفسه بعد مقتل جعفر بن أبي طالب:

روى عبد السلام بن النعمان بن بشير أن جعفر بن أبي طالب حين قُتل دعا الناسَ عبدُ الله بن رواحة وهو في جانب العسكر فتقدم فقاتل ، وقال يخاطب نفسه:

يـا نَفْـسُ إلا تُقْتَلِـيْ تَمُـوْتِـيْ ... هَـذا حِيَـاضُ المَـوْتِ قَـدْ صَلِيْـتِ
ومـا تمَنَّيْـتِ فقَـدْ لَقِيْـتِ ... إنْ تَفْعَلِـي فِعْلَهُمَـا هُـدِيْـتِ
وإنْ تأخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيْتِ

يعني زيداً وجعفراً ، ثم قال: يا نفس إلى أي شيء تتوقين ، إلى فلانة ـ امرأته ـ فهي طالق ، وإلى فلان وفلان ـ غلمان له ـ فهم أحرار ، وإلى معجف ـ حائط له ـ فهو لله ولرسوله ، ثم قال:

يـا نَفْـسُ مـالَـكَ تَكْـرَهِيْـنَ الجنَّـةْ ... أُقْسِـمُ بـاللهِ لَتَنْـزِلنَّـهْ
طَـائِعَـةً أو لَتُكْـرَهِنَّـهْ ... فطَـالَمَـا قَـدْ كُنْـتِ مُطْمئِنَّـةْ
هـل أنْـتِ إلا نُطْفَـةٌ فـي شَنَّـةْ ... قـد أجْلَـبَ النَّـاسُ وشَـدُّوا الـرَّنَّـةْ

وروى مصعب بن شيبة قال: لما نزل ابن رواحة للقتال طعن فاستقبل الدم بيده فدلك به وجهه ، ثم صرع بين الصفين فجعل يقول: يا معشر المسلمين! ذُبُّوا عن لحم أخيكم ، فجعل المسلمون يحملون حتى يحوزونه فلم يزالوا كذلك حتى مات مكانه[1].

وكانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان.

(١) أسد الغابة لابن الأثير الجزري ، ترجمة عبد الله بن رواحة.

تحققت أمنية الشهادة:

لقد أبلى عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة أحسن بلاء وصار في ركب الشهداء الأبرار ممن رخصوا أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله ، وبذلك تحققت أمنيته التي كانت تراوده من زمان ، وسجل اسمه في قائمة شهداء الإسلام الأولين ، وصدق قوله الذي خاطب فيه نفسه قائلاً:

يـا نَفْـسُ إنْ لـم تُقْتَلِـيْ تَمُـوتِـيْ ... هَـذا حِمَـامُ المَـوْتِ قَـد صَلِيْـتِ
ومَـا تمَنَّيْـتِ فقَـدْ أُعطِيْـتِ ... إنْ تَفْعَلِـيْ فِعْلَهُمـا هُـدِيْـتِ[1]

وكان قد شهد الغزوات الإسلامية الكبرى من بدر وأحد والخندق والحديبية ، وعمرة القضاء ، وغزوة مؤتة التي قتل فيها شهيداً ، وبشر رسول الله ﷺ له بالجنة التي فتحت له فدخلها.

مكانة ابن رواحة الشعرية في الجاهلية:

كان للأوس والخزرج قصائد سميت بالمذهبات وهي لفحول شعرائها الذين دافعوا عن هاتين القبيلتين في الحروب التي استمرت بينهما إلى مدة طويلة ، وكان عبد الله بن رواحة أحد أصحاب المذهبات من الخزرج[2] فقد كان يناقض في حروبهم في الجاهلية قيس بن الخطيم الشاعر الأوسي الكبير.

وكانت حروب الأوس والخزرج ـ التي استمرت مدة طويلة تتجاوز قرناً من الزمان ، وأهلكت فيها كثيراً من الحرث والنسل ـ سبباً كبيراً في إثارة العواطف القبلية ، وبالتالي باعثاً على تشحيذ السليقة الشعرية ، وتفجير ينابيع الشعر العربي القوي ، وذلك كسلاح ماض لا ينقطع ولا يكِلُّ ، ولقد حثَّت الحروب المستمرة على تربية المؤهلات الشعرية لدى هؤلاء الناس ، وعلى الإنتاج الشعري من نوع الفخر والمهاجاة بوجه خاص.

ورغم أن الأوس والخزرج كانتا على حال اجتماع واتفاق تعيشان في مودة ووئام إذ وقع بينهما خُلاف وشجار ، ظهرا في صورة حرب عرفت بحرب سُمَيْر ، فكانت

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: ٢/ ٨٩٩.
(٢) اقرأ جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام للقرشي.

أول حرب تقاتَلَ فيها الفريقان بشيء كثير من العنف والشدة ، ثم تتابعت بعدها حروب كثيرة استغرقت أعمارهم ، واستنهضت شعراءهم ، يدافعون عن الأحساب والأمجاد ، ويفاخرون القبائل بالبطولات والمفاخر ، فكان عبد الله بن رواحة ينافح عن قبيلته الخزرج بكل فخر وحماس بشعره القوي .

الأوس والخزرج ، ومن هم؟ ومتى لقبوا بالأنصار؟

يناسب أن نذكر هنا ما قد بينه ابن الأثير في تاريخه «الكامل» عن الأوس والخزرج ، وأسباب الخلاف بينهما ، يقول :

«الأنصار لقب قبيلتي الأوس والخزرج ابن حارثة بن ثعلبة العنقاء ابن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، لقبهم به (الأنصار) رسول الله ﷺ لما هاجر إليهم ومنعوه ونصروه ، وأمُّ الأوس والخزرج قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد ، ولذلك يقال لهم : أبناء قيلة ، وإنما لُقِّبَ ثعلبةُ العنقاءَ لطول عنقه ، ولقب عمرُو مزيقياءَ لأنه كان يمزق عنه كل يوم حُلَّةً لئلا يلبسها أحد بعده ، ولقب عامرُ ماءَ السماء لسماحته وبذله كأنه ناب مناب المطر ، وقيل : لشرفه ، ولقب امرؤُ القيس البطريقَ لأنه أول من استعان به بنو إسرائيل من العرب بعد بلقيس ، فبطرقه رحبعم بن سليمان بن داود - عليه الصلاة والسلام - ، فقيل له : البطريق . وكانت مساكن الأزد بمأرب من ا ليمن إلى أن أخبر الكهان عمرو بن عامر مزيقياء أن سيل العرم يخرب بلادهم ويغرق أكثر أهلها عقوبة لهم بتكذيبهم رسل الله تعالى إليهم .

فلما علم ذلك عمرو باع مالَهُ من مال وعقار وسار عن مأرب هو ومن تبعه ، ثم تفرقوا في البلاد فسكن كل بطن ناحية اختاروها ، فسكنت خزاعة الحجاز ، وسكنت غسان الشام .

الأوس والخزرج في يثرب :

ولما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر فيمن معه اجتازوا بالمدينة ، وكانت تسمى يثرب ، فتخلف بها الأوس والخزرج ابنا حارثة فيمن معهما ، وكان فيها قرى وأسواق وبها قبائل من اليهود ، من بني إسرائيل وغيرهم ، منهم قريظة والنضير

وبنو قينقاع وبنو ماسلة وزعورا وغيرهم ، وقد بنوا لهم حصوناً يجتمعون بها إذا خافوا ، فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون ، ولم يزالوا على حال اتفاق واجتماع إلى أن حدث بينهم حرب سُمَيْر[1] .

أول حرب بين الأوس والخزرج :

وهي حرب سُمَيْر[2] وقد أثارها رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يقال له : سُمَيْر بن يزيد ، وذلك حينما قال كعب الثعلبي : إن مالك بن عجلان أعز أهل يثرب فغضب من ذلك سمير وشتمه وقتله في سوقٍ بقِباء ، ولقد أراد وجهاء القوم أن يمتنع الفريقان عن الحرب وعلى رأسهم عمرو بن امرئ القيس الخزرجي جد عبد الله بن رواحة ، الذي قضى بالحق ، ولكن الأوس لم تقبل قضاءه ، وهنالك قامت حرب سمير ، التي قال فيها مالك بن العجلان شعراً ذكر فيه خذلان بني الحارث وحدب بني عمرو على سمير بن يزيد ، وهو يحرض بني النجار على نصرته :

إنَّ سُمَيْـــراً أرَى عَشيْـــرتَـــهُ ... قـد حَـدَبُـوا دونَـهُ وقَـدْ أنِفُـوا
إنْ يَكُـنِ الظَّـنُّ صَـادِقـاً بِبَنـي النـ ... ـنَجَّـارِ لا يَطْعَمُـوا الَّـذِيْ عُلِفُـوا[3]
لا يُسْلِمُـوْنَـا لِمَعْشَـرٍ أبَـداً ... مـا دامَ منَّـا ببَطْنِهـا شَـرَفُ[4]
لكِـنْ مَـوَالِـيَ قَـدْ بَـدَا لهُـمُ ... رأيٌ سِـوَى مـا لَـدَيَّ أو ضَعُفُـوا[5]

شعر درهم بن يزيد :

وقال درهم بن يزيد أخو سمير في ذلك شعراً يرجو فيه القوم أن لا يقتلوا سميراً :

يـا قَـوْمُ لا تَقْتُلـوا سُمَيْـراً فـإنْ ... نَ القَتْـلَ فيْـهِ البَـوَارُ والأَسَـفُ
إنْ تَقْتُلُـوهُ تَـرِنُّ نِسْـوَتُكُـمْ ... علَـى كـرِيْـمٍ ويَفْـزَعُ السَّلَـفُ
إنِّـي لَعَمْـرُ الَّـذِيْ يَحُـجُّ لـه النـ ... ـنَـاسُ ومَـنْ دُونَ بَيْتِـهِ السَّـرَفُ

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير : ١/ ٦٥٥ - ٦٥٦ .
(٢) وتسمى بيوم الفضاء أيضاً .
(٣) يقال : علفوا الضيم ، بالبناء على المجهول بمعنى : أقروا بالضيم .
(٤) الشرف هنا : بمعنى الشريف .
(٥) من أراد أن يطلع على الأبيات بكاملها فليرجع إلى كتاب : أيام العرب في الجاهلية .

يَمِيْنُ بِرٍّ بِاللهِ مُجْتَهِدٍ ... يَحْلِفُ إنْ كانَ يَنْفَعُ الحَلِفُ
لا نَرْفَعُ العَبْدَ فَوْقَ سَتَّتِهِ ... ما دَامَ مِنَّا ببَطْنِهَا شَرَفُ
إنَّكَ لاقٍ غَداً غُوَاةَ بَنِي ... عمِّيَ فانظُرْ ما أنتَ مُزْدَهِفُ[1]
فأَبْدِ سِيْمَاكَ يَعْرِفُونَ كَمَا ... يُبْدُونَ سِيْماهُمْ فتَعْتَرِفُ

وفي هذه الحرب قال أبو قيس بن الأسلت:

لَقَدْ رَأيتُ بَنِي عَمْرٍو فَمَا وَهَنُوا ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَمَا هَمُّوا بِتَكْذِيبِ
أَلا فِدًى لَهُمْ أُمِّي ومَا وَلَدَتْ ... غَدَاةَ يَمْشُونَ إرْقَالَ المَصَاعِيبِ
بِكُلِّ سَلْهَبَةٍ كَالأيْمِ مَاضِيَةٍ ... وَكُلِّ أَبْيَضَ مَاضِ الحَدِّ مَخْشُوبِ[2]

شعراء القبيلتين والإسلام:

وامتدت حرب سمير هذه إلى مدة وخلفت وراءها ذكراً من الحكايات والقصص التي سببت دوام البغض والشحناء واستمرار العداوة بين القبيلتين، حتى إذا حان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، وأنجبت القبيلتان شعراء عظاماً سمعوا بوطأة هذه الحرب وضراوتها، قالوا فيها شعراً، فهذا قيس بن الخطيم، الشاعر الجاهلي الأوسي[3]، يقول قصائد من الشعر في هذه الحرب، وقد بدأ إحدى القصائد بالأبيات التالية:

رَدَّ الخَلِيْطُ الجِمَالَ فانْصَرَفُوا ... مَاذا عَلَيْهِمْ لَوْ أنَّهُمْ وقَفُوا
لَوْ عَرَّجُوا سَاعَةً نُسَائِلُهُمْ ... رَيْثَ يُضَحِّي جِمَالَهُ السَّلَفُ
فِيْهِمْ لَعُوبُ العِشَاءِ آنِسَةُ الـ ... ـذِّلِ عَرُوبٌ يَسُوؤُهَا الخُلُفُ

فرد عليه حسان بن ثابت بقصيدة مماثلة أو نقيضة لها، ومطلعها:

مَا بَالُ عَيْنِكَ دَمْعُهَا يَكِفُ ... مِنْ ذِكْرِ خَوْدٍ شَطَّتْ بها قُذُفُ[4]

(١) مزدهف: بمعنى مقتحم.
(٢) مخشوب: المصقول، الأيم: الحية، السلهبة: الطويلة من الخيل.
(٣) كان جيد الشعر حسن الديباجة أتى إلى النبي الكريم ﷺ فدعاه إلى الإسلام وتلا عليه شيئاً من القرآن الكريم، فقال: إني لأسمع كلاماً عجباً، فدعني انظر في أمري هذه السنة ثم أعود إليك فمات قبل الحول سنة ٦١٢ م. اقرأ: «أيام العرب في الجاهلية» طبع دار إحياء الكتب العربية.
(٤) انظر: «حسان بن ثابت الأنصاري» في ترجمته التي سبقت.

يوم الفضاء:

ويتفرع من هذه الحرب يوم الفضاء الذي اقتتلوا فيه قتالاً عنيفاً حتى حجز الليل بينهم، فأفضلت الأوس يومئذ على الخزرج، وفي ذلك قال قيس بن الخطيم قصيدته التي مطلعها:

صَرَمْتَ اليَوْمَ حَبْلَكَ مِنْ كَنُوْدَا ... لِتُبْدِلَ حَبْلَهَا حَبْلاً جَدِيْدَا

بدأ قصيدته على عادة الشعراء الجاهليين بذكر الحبيبة ـ كنودا ـ وأوصافها الجميلة ومحاسنها الظاهرة والباطنة، ثم تحدث عن يوم الفضاء وما ظهر فيه من بطولات قومه، وانتصارهم على الخزرج، فهو يفتخر فيها بقومه ويعير الخزرج على ما أصابهم من الهزيمة والعار:

مِنَ اللائِي إذا يَمْشِينَ هَوْناً ... تَجَلْبَبْنَ المَجَاسِدَ والبُرُودا
كَأنَّ بُطُونَهُنَّ سُيُوفُ هِنْدٍ ... إذا مَا هُنَّ زايَلْنَ الغُمُودا
تَبَدَّتْ لِي لِتَقْتُلَنِي فأبْدَتْ ... مَعَاصِمَ فَخْمَةً مِنْها وجِيْدا
ووَجْهاً خِلْتُهُ لَمَّا بَدَا لِيْ ... غَدَاةَ البَيْنِ دِيْناراً نَقِيْدا
سَقَيْنَا بالفضَاءِ كُؤوسَ حَتْفٍ ... بَنِيْ عَوْفٍ وإخْوَتَهُمْ تَزِيْدا
لَقِيْنَاهُمْ بكُلِّ أخِي حُرُوبٍ ... يَقُوْدُ وراءَهُ جَمْعاً عَتِيْداً

إلى أن قال وهو يخاطب بني الخزرج بوجه خاص:

فمَا أبْقَتْ سُيُوفُ الأوْسِ مِنْكُمْ ... وحَدُّ ظُبَاتِهَا إلا شَرِيْدا
فلَنْ ننفَكَّ نَقْتُلُ مَا حَيِيْنَا ... رِجَالَكُمُ ونَجْعَلُكُمْ عَبِيْدا

قصيدة عبد الله بن رواحة:

وسمع عبد الله بن رواحة بهذه القصيدة التي أثارت فيه روح الحمية والمهاجاة ضد العدو الذي يستمر مع قومه بالقتال والنضال، فنقض قصيدة قيس بن الخطيم بقصيدة مماثلة لها، يبدؤها بالغزل وبذكر الحبيبة كصاحبه، ثم يطيل نفَسَه بالفخر والاعتزاز بقومه، ويشير إلى الصنائع التي يقومون ويعرفون بها في أوساط القبائل العربية كلها، ويتحدث عن الشجاعة العظيمة والبسالة المنقطعة النظير اللتين عرفت بهما الخزرج في تاريخ الحروب والأيام العربية، يقول:

تَـذَكَّـرْ بَعْـدَمـا شَطَّـتْ نَجُـودا ... وكـانَـتْ تَيَّمَـتْ قَلْبِـيْ وَلِيْـدا[1]

كَـذِيْ دَاءٍ يُـرَى فِـي النَّـاسِ يَمْشِـي ... ويَكْتُـمُ داءَهُ زَمَنـاً عَمِيْـدَا[2]

تَصَيَّـدَ عَـوْرَةَ الفِتْيَـانِ حَتَّـى ... تَصِيْـدَهُـمُ وتَشْنَـأَ أنْ تَصِيْـدا[3]

فقَـدْ صـادَتْ فـؤادَكَ يـومَ أَبْـدَتْ ... أسِيْـلاً خَـدُّهُ ، صَلْتـاً ، وجِيْـدا[4]

تَـزِيْـنُ مَعَـاقِـدَ اللبَّـاتِ مِنْهـا ... شُنُـوفـاً فـي القَـلائِـدِ والفَـرِيْـدا[5]

فـإنْ تَضْنُـنْ علَيْـكَ بمَـا لـدَيْهـا ... وتَقْلِـبُ وَصْـلَ نـائِلِهـا جَـدِيْـدا[6]

لَعَمْـرُكَ مـا يُـوَافِقُنِـي خَلِيْـلٌ ... إذا مَـا كـانَ ذا خُلْـفٍ كَنُـودا[7]

وقَـدْ عَلِـمَ القَبـائِـلُ غيـرَ فَخْـرٍ ... إذا لَـمْ تُلْـفِ مَـاثِلَـةً رَكُـودَا

بـأَنَّـا نُخْـرِجُ الشَّتَـواتِ مِنَّـا ... إذا ما استَحْكَمَتْ ، حَسَبـاً وجُودَا[8]

قُـدُوراً تَغْـرَقُ الأَوْصَـالُ فيْهَـا ... خَضِيْبَـاً لَـوْنُهـا بِيْضَـاً وسُـوْدَا[9]

---

(١) في ديوان قيس بن الخطيم: بعدما شحطت ، وشحطت: بعدت ، وكذلك شطت بالمعنى نفسه ، تيمت قلبي: ذللته وعبدته.

(٢) في اللسان: عمده المرض: أي أضناه.

(٣) تشنأ: تبغض وتكره ، وفي رواية: ونشنأ... والعورة: الخلل في الثغر وغيره ، وهو يريد ضعفهم أمامها.

(٤) أبدت: أظهرت ، والأسيل من الخدود: الطويل المسترسل ، والصلت: الجبين الواضح ، والبارز المستوي.

(٥) المعاقد: مواضع العقد ، والمعقاد: خيط ينظم فيه خرزات وتعلق في عنق الصبي ، واللبة: المنحر ، وموضع القلادة من الصدر ، وجمعها لبات ، والشنوف: جمع شنف: القرط ، والفريد: الشذر يفصل بين اللؤلؤ والذهب ، والجوهرة النفيسة ، والدر إذا نظم وفصل بغيره ، جعل معاقد اللبات هي التي تزين الشنوف والقلائد ، مبالغة في وصفها بالجمال ، فالمعروف المعهود أن الشنوف والقلائد هي التي تزين المعاقد.

(٦) ضن: بخل.

(٧) الكنود: كفران النعمة ، مصدراً ، والكنود بفتح الكاف: صيغة المبالغة كما في قوله تعالى في سورة العاديات: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾.

(٨) شتا بالمكان شتواً ، وشتوة للمرة الواحدة إذا أصيب بالشتاء ، بمعنى الجدب والجفاف ، والشتاء: أحد أرباع السنة ، وهي الشتوة ، والمقصود: يبذل للأضياف في الشتاء ما يستطيع - مما سيفصله بعد - إذا استحكمت الأزمات ، وذلك لحسبه الكريم ، وجوده الأصيل.

(٩) تغرق الأوصال فيها: عميقة ممتلئة ، خضيباً لونها: الطعام فيها أنواع وفي رواية ، خصيباً - بالصاد.

متَـى مـا تَـأْتِ يَثْـرِبَ أو تَـرَاهـا ... تَجِـدْنَـا نحـنُ أَكْـرَمَهَـا جُـدُودَا

وأغلَظَهَـا علَـى الأعـدَاءِ رُكْنَـاً ... وألينَهَـا لِبـاغِـي الخَيْـرِ عُـوْدَا[1]

وأخطَبَهَـا إذ اجْتَمَعُـوا لأمْـرٍ ... وأقْصَـدَهـا وأوْفَـاهـا عُهُـودا[2]

إذا نُـدْعَـى لسَيْـبٍ أو لجَـارٍ ... فنَحْـنُ الأكْثَـرونَ بهـا عَـدِيْـدا[3]

مَتَـى مـا تَـدْعُ فـي جُشُـمٍ بـنِ عَـوْفٍ ... تَجِـدْنِـي لا أَغَـمَّ ولا وَحِيْـدَا[4]

وحَـوْلِـيْ جَمْـعُ سـاعِـدَةَ بـنِ عَمْـرٍو ... وتَيْـمُ الـلاَّتِ[5] قـد لَبِسُـوا الحَدِيْـدَا

زَعَمْتُـمْ أَنَّ مـا نِلْتُـمْ مُلُـوكـاً ... ونَـزْعُـمُ أنَّ مـا نِلْنَـا عَبِيْـدا[6]

ومـا نَبْغِـيْ مِـنَ الأَحْـلافِ وَتْـراً ... وقَـدْ نِلْنَـا المُسَـوَّدَ والمَسُـودا[7]

وكـانَ نِسَـاؤكُـمْ فـي كُـلِّ دَارٍ ... يُهَـرِّشْـنَ المَعَـاصِـمَ والخُـدُودا[8]

تَـرَكْنـا جَحْجَبـى كَبَنَـاتِ فَقْـعٍ[9] ... وعَـوْفـاً فـي مَجَـالِسِهَـا قُعُـودَا

ورَهْـطُ أبِـيْ أميَّـةَ قَـدْ أَبَحْنَـا ... وأَوْسَ اللهِ أَتْبَعْنَـا ثَمُـودَا[10]

وكُنْتُـمْ تَـدَّعُـونَ يَهُـودَ مـالاً ... أَلانَ وجَـدْتُـمُ فِيْهَـا يَهُـودا[11]

وقَـدْ رَدُّوا الغَنـائِـمَ فـي طَـرِيْـفٍ ... ونَحَّـامٍ ورَهْـطِ أبـي يَـزِيْـدَا[12]

---

(١) هم أشداء غلاظ على الأعداء ، أما على من يرجون خيرهم ففيهم سهولة ولين وحسن معاملة.

(٢) هم خطباء المحافل ، والمقصودون عند الحوائج ، والموفون للعهود.

(٣) في رواية: إذا تدعى لثأر ، وفي رواية أخرى: لسبب ، والسيب: العطاء ، يقول: إذا دعينا للحرب أو للعطاء ، أو لإغاثة جار ، كنا أكثر المجيبين عدداً ، وبها: الضمير يعود على يثرب ، أو على الدعوة المفهومة من: ندعى.

(٤) أغمّ بفتح الهمزة: وأصل الغمم أن يسيل الشعر حتى يضيق الوجه والقفا ويقال: رجل أغم الوجه وأغم القفا ، وهم يكرهون الغمم ، ويمدحون ضده - وهو النزع.

(٥) وهذا البيت بيان لعدم وحدته ، وقد لبسوا الحديد: تقلدوا السلاح.

(٦) ما: موصولة ، إذا أسرنا - نحن - أحداً منكم فنرى أننا أسرنا أقل منا: عبيداً.

(٧) الوتر: الثأر. المُسَوَّد والمَسُود: السادة والعبيد.

(٨) كان نساؤهم أسرى ، يعشن في ذل وفقر.

(٩) في رواية: كبنات فقح ، وفي أخرى: كنبات فِقْع ، والفقع بكسر الفاء وفتحها: الأبيض الرخو من الكمأة ، وهو أردؤها ، ويشبه به الرجل الذليل ، وجحجبى: اسم قبيلة.

(١٠) أتبعنا ثمودا: أبدناهم كما بادت ثمود.

(١١) ألان: الآن.

(١٢) جهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، للقرشي: ص/ ٦٢١ - ٦٢٢ - ٦٢٣ - ٦٢٤ - ٦٢٥.

حرب حاطب الشهيرة:

وكانت حرب حاطب ذات أهمية كبيرة بعد حرب سمير ، وهي من أشهر أيام الأوس والخزرج ، ومن خبرها أن حاطب بن قيس الأوسي كان رجلاً شريفاً سيداً ، فأتاه رجل من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان فنزل عليه وغدا ذات يوم إلى سوق بني قينقاع ، فرآه يزيد بن الحارث المعروف بابن فسحم ، وهي أمه وهو من بني الحارث بن الخزرج ، فقال يزيد لرجل يهودي : لك ردائي إن كَسَعْتَ هذا الثعلبي ، فأخذ رداءه وكسعه كسعة سمعها من بالسوق ، فنادى الثعلبي : آل حاطب ، كسع ضيفك وفضح ، وأُخْبِرَ حاطبٌ بذلك فجاء إليه فسأله من كسعه؟ فأشار إلى اليهودي، فضربه حاطب بالسيف وفلق هامته ، فأُخْبِرَ ابنُ فسحمَ الخبرَ ، وقيل له : قتل اليهودي ، قتله حاطب ، فأسرع خلف حاطب فأدركه ، وقد دخل بيوت أهله ، فلقي رجلاً من بني معاوية فقتله ، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج ، وسميت بحرب حاطب[1] وكان الظفر فيها للخزرج .

وكانت بين حرب سمير وحرب حاطب مائة سنة ، وتفرعت من حرب حاطب حروب وأيام كثيرة أخرى ، من بينها يوم الربيع .

يوم البقيع ، وما قيل فيه من شعر :

ومنها يوم البقيع الذي التقت فيه الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس ، فقال عبيد بن ناقد الأوسي قصيدة من الشعر افتخر فيها بقومه ، وتحدث عن بسالتهم ، وكيف أنهم قاتلوا من دون خوف أو فشل فقتلوا أعداءهم حتى استقاموا ، وقد نهلوا من دماء القوم ، يقول :

لمَّا رأيْتُ بَنِيْ عَوفٍ وجَمْعَهُمُ ... جَاؤُوا وجَمْعُ بَنِي النجَّارِ قد حَفِلُوا
دَعَوْتُ قَوْمِي وسَهَّلْتُ الطَّرِيقَ بِهِمْ ... إلى المَكَانِ الَّذِيْ أصْحَابُهُ حَلَلُوا
جازَتْ بأَنْفُسِهَا مِنْ مالِكٍ عصبٌ ... يومَ اللقَاءِ فما خَافُوا ولا فَشِلُوا
وعَاوَرُوكُمْ كؤوسَ الموتِ إذ بَرَزُوا ... شَطْرَ النَّهَارِ وحتَّى أَدْبَرَ الأَصْلُ
حتَّى استَقَاموا وقد طالَ المِراسُ بِهِمْ ... فكُلُّهُمْ من دِماءِ القَوْمِ قد نَهَلوا

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير : ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١ ، وأيام العرب في الجاهلية .

تَكَشَّفَ البِيْضُ عن قَتْلَى أوْلِيْ رَحِمٍ ... لَوْلا المَسالِمُ والأرْحَامُ ما نَقَلُوا
تَقُولُ كُلُّ فَتاةٍ غَابَ قَيِّمُهَا : ... أَكُلُّ مَنْ خَلْفَنَا من قومِنَا قُتِلُوا؟!
لقَدْ قَتَلْتُمْ كَرِيْماً ذا مُحَافظَةٍ ... قد كَانَ حالَفَهُ القَيْنَاتُ والحُلَلُ
جَزْلٌ نَوافِلُهُ حُلْوٌ شَمَائِلُهُ ... رَيَّانُ واغِلُهُ تَشْقَى بِهِ الإبِلُ

فأجابه عبد الله بن رواحة الخزرجي بشعر مناقض له ، ولكن لم يسجل لنا التاريخ منه ـ مع الأسف ـ إلا بيتين فحسب وهما :

لمَّا رأيْتُ بَنِيْ عَوْفٍ وإخْوَتَهُمْ ... كَعْباً وجَمْعَ بَنِي النجَّارِ قَدْ حَفَلُوا
قِدْماً أبَاحُوا حِمَاكُمْ بالسُّيوفِ ولَمْ ... يَفْعَلْ بكُمْ أحَدٌ مِثْلَ الَّذِيْ فَعَلُوا

وكان رئيس بني الأوس يومئذ في حرب حاطب أبو قيس بن الأسلت الوائلي فقام في حربهم وهجر الراحة فشحب وتغير ، وجاء يوماً إلى امرأته فأنكرته حتى عرفته بكلامه ، فقالت له : لقد أنكرتك حتى تكلمت فقال :

قالَتْ ولَمْ تَقْصِدْ لِقِيْلِ الخَنَا : ... مَهْلاً فقَدْ أَبْلَغْتَ أَسْمَاعِيْ
واستَنْكَرَتْ لَوْناً لهُ شَاحِباً ... والحَرْبُ غُوْلٌ ذاتُ أَوْجَاعِ
مَنْ يَذُقِ الحَرْبَ يَجِدْ طَعْمَهَا ... مُرّاً وتَتْرُكُهُ بجَعْجَاعِ[1]

في قصيدة طويلة ذكرها أصحاب التاريخ والأدب في كتبهم .

يوم معبس ومضرس :

وكان يوماً شديداً اقتتل فيه الأوس والخزرج قتالاً شديداً وظلت القبيلتان تقتتلان عدة أيام متتالية دون توقف ، ثم انهزمت الأوس أنكر هزيمة لم ينهزموا مثلها قبل ذلك ، حيث قد خلت البيوت والآطام من أهلها ، وهجرها الناس إلى أمكنة أخرى تفادياً من ضراوة الحرب وخسائرها .

أما معبس ومضرس فهما جداران كانت القبيلتان تستتران وراءهما لدى القتال ، فكانت الخزرج وراء مضرس ، والأوس خلف معبس .

وفي هذا اليوم يقول حسان قصيدته الشهيرة التي يخاطب فيها ابن قيس بن الأسلت القيسي يعيره ويهجوه ، ومطلعها :

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير : ١/ ٦٧٤ ـ ٦٧٥ .

ألا أبْلِغْ أبَا قَيْسٍ رَسُوْلاً[1] إذا ألْقَى لَهَا سَمْعَاً تَبِيْنُ[2]

شعر قيس بن الخطيم في هذا اليوم:

وقد تألم الشاعر الأوسي قيس بن الخطيم بما حدث لقبيلته من هزيمة نكراء، فقال شعراً تحدث فيه عما جرى في هذه الحرب، يقول:

أَلَمَّ خَيَالُ لَيْلَى أمَّ عَمْرِو ولَمْ يُلْمِمْ بِنَا إلا لأمْرِ
تَقُوْلُ ظَعِيْنَتِي لمَّا اسْتَقَلَّتْ أتَتْرُكُ ما جَمَعْتَ صَرِيْمَ سِحْرِ[3]؟!
فقُلْتُ لهَا ذَرِيْنِي إنَّ مَالِي يَرُوْحُ إذا غَلَبْتُهُمُ ويَسْرِي
فلَسْتُ لِحَاصِنٍ[4] إنْ لم تَرَوْنَا نُجَالِدُكُمْ كأنَّا شَرْبُ خَمْرِ
وتَحْمِلُ حَرْبَهُمْ عَنَّا قُرَيْشٌ كأنَّ بَنَانَهُمْ تَفْرِيْكُ بُسْرِ[5]
ونُدْرِكُ فِي الخَزَارِجِ كُلَّ وِتْرٍ بِذَمِّ الكَاهِنَيْنِ[6] وذَمِّ عَمْرِو[7]

ولما سمع بالأبيات عبد الله بن رواحة رد عليه بأبيات مثلها، إلا أن كُتُبَ التاريخ لم تحفظ لنا إلا بيتاً واحداً فقط، وذلك ما يقول:

كَذَبْتَ لَقَدْ أَقَمْتَ بهَا ذَلِيْلاً تُقِيْمُ على الهَوَانِ بها وتَسْرِي[8]

يوم فجار الأول:

ومن أيامهم يوم فجار الأول للأنصار، وليس ذاك بفجار كنانة وقيس، وكان ذلك يوم قتلت الأوس الغلمان، وخرجت الخزرج واقتتلوا قتالاً شديداً حتى كاد بعضهم يفني بعضاً، وكان قيس بن الخطيم في حائط له، فلما انصرف رأى أن قومه

(١) رسولاً: المراد به رسالة.
(٢) اقرأ في تاريخ الكامل لابن الأثير: ١/ ٦٧٧، وديوان حسان، للاطلاع على القصيدة بكاملها، وراجع بحثنا عن حسان بن ثابت الأنصاري وشعره الجاهلي، في هذا الكتاب.
(٣) صريم سحر: مقطوع الرئة: يعني يائساً.
(٤) الحاصن: هي المرأة العفيفة، يريد أنه لا يكون ابن أم عفيفة إذا لم تروه يجالدكم.
(٥) البسر: بالضم التمر إذا احمر قبل النضج، وتفريك بسر: يعني إذا قشر البسر فيبدو شديد الحمرة، وهو يعني بذلك أن بنانهم حمراء من الدماء.
(٦) الكاهنين بالتثنية: يريد بهما القريظة والنضير.
(٧) انظر ديوان قيس بن الخطيم.
(٨) ديوان عبد الله بن رواحة وتاريخ النقائض.

بارزون للقتال فخاض معهم في القتال وأبلى فيه بلاء عظيماً، وجُرِحَ جراحة شديدة فمكث حيناً يتداوى منها، وأمر أن يحتمي عن الماء، وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة يخاطبه في بيت له:

رَمَيْنَاكَ أيَّامَ الفُجَارِ فلَمْ تَزَلْ حَمِيَّاً فَمَنْ يَشْرَبْ فَلَسْتَ بشَارِبِ[1]

وما عثرنا على غير هذا البيت ولم نجد له زوجاً، فلعله يكون من القصيدة التي قالها ابن رواحة في يوم بعاث، وهي من الرديف والقافية نفيسهما، والتي قد استهلها بقوله:

أشَاقَتْكَ لَيْلى في الخَلِيْطِ المُجَانِبِ نَعَمْ، فِرِشَاشُ الدَّمْعِ في الصَّدْرِ غَالِبِيْ

حرب بعاث، هي الأخيرة:

ويوم بعاث آخر الحروب التي دارت بين الأوس والخزرج، وكانت عظيمة، فقد كانوا يخرجون فيترامون بالحجارة ويتضاربون بالخشب، وكانوا كذلك حتى أنزل الله بهم رحمة الإسلام فألف بين القلوب وجمع كلمتهم على الحق، وأخرج حمية الجاهلية من نفوسهم، وقد كانت هذه الحرب سبباً كبيراً لإدرار قرائح شعراء القبيلتين، فكان شعر غزير يعتبر من غرر الكلام، فهذا قيس بن الخطيم الأوسي، يقول قصيدة طويلة في هذه المناسبة يستهلها بقوله:

أَتَعْرِفُ رَسْمَاً كاطِّرادِ المَذَاهِبِ لِعَمْرَةَ[2] وَحْشَاً غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ

وتحتوي هذه القصيدة على (٣٧) بيتاً، وكلها فخر واعتزاز وتعيير وهجاء، وهذه هي القصيدة التي استنشدها النبي الكريم ﷺ، لكي يطلع بها على ما حدث في يوم بعاث، والعقلية التي كانت تعمل في هذه الحرب الأخيرة بين القبيلتين، فقد جاء في «الأغاني» أن النبي الكريم ﷺ جلس ذات يوم في مجلس ليس فيه إلا خزرجي، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم، يعني قوله:

أَتَعْرِفُ رَسْمَاً كاطِّرادِ[3] المذَاهِبِ لِعَمْرَةَ وَحْشَاً غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير: ١/ ٦٧٦.
(٢) هي أخت عبد الله بن رواحة التي يشبب بها قيس بن الخطيم وهي أم النعمان بن بشير الأنصاري.
(٣) الطراد: التتابع، والمذاهب واحدها مذهب بضم الميم: وهو جلد جعل فيه خطوط مذهبة بعضها في إثر بعض.

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ إلى قوله :

أُجَالِدُهُمْ يَوْمَ الحَدِيْقَةِ حَاسِراً كَأَنَّ يَدِيْ بالسَّيْفِ مِخْرَاقُ لاعِبِ

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ فقال : هل كان كما ذكر؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال له : والذي بعثك بالحق ـ يا رسول الله ـ لقد خرج إليها يوم سابع عرسه ، عليه غلالة وملحفة مورسة فجالدنا كما ذكر[1] .

وآخر هذه القصيدة :

وغُيِّبْتُ عَنْ يَوْمٍ كَتَنِّي عَشِيْرَتِي ويَوْمُ بُعَاثٍ كَانَ يَوْمَ التَّغَالُبِ[2]

ولكن البيت الأخير في كتاب «الكامل» لابن الأثير كما يلي :

أَتَتْ عُصَبٌ لِلأَوْسِ تَخْطُرُ بالقَنَا كَمَشْيِ الأُسُوْدِ في رشَاشِ الأَهَاضِبِ[3]

قصيدة عبد الله بن رواحة :

وأجابه عبد الله بن رواحة بقصيدة مثلها نقض بها ما قاله في شعره الآتي :

أَشَاقَتْكَ لَيْلى[4] في الخَلِيْطِ المُجَانِبِ نَعَمْ ، فرِشَاشُ الدَّمعِ في الصَّدْرِ غَالِبِيْ
بكَى إِثْرَ مَنْ شَطَّتْ نَوَاهُ ولم يَقُمْ لِحَاجَةِ مَحْزونٍ شَكَا الحُبَّ ناصبِ
لَدُنْ غُدْوَةٍ حتَّى إذا الشَّمْسُ عَارَضَتْ أراحَتْ لهُ مِنْ لُبِّهِ كُلَّ عازبِ
نُحَامِي على أَحْسَابِنَا بِتِلادِنَا لِمُفْتَقِرٍ أو سَائِلِ الحَقِّ واجِبِ
وأَعْمَى هَدَتْهُ للسَّبِيلِ سُيُوفُنَا وخَصْمٍ أَقَمْنَا بَعْدَ مَا لَجَّ ثاعِبِ
ومُعْتَرِكٍ ضَنْكٍ يَرى المَوْتَ وَسْطَهُ مَشَيْنَا لَهُ مَشْيَ الجِمَالِ المَصَاعِبِ
بِرِجْلٍ تَرى المَاذِيَّ[5] فوقَ جُلُودِهِمْ وبَيْضاً نَقِيَّاً مثلَ لونِ الكَواكِبِ
وهُمْ حُسَّرٌ لا في الدُّرُوعِ تَخَالُهُمْ أُسُوْداً متَى تَنْشَأْ الرِّماحُ تُضَارِبِ
معَاقِلُهُمْ في كلِّ يَوْمٍ كَرِيْهَةٍ على الصِّدْقِ مَنْسوبِ السُّيوفِ القواضِبِ[6]

(١) الأغاني للأصفهاني : ٣/ ٧ ، طبعة بيروت .
(٢) أيام العرب في الجاهلية ، ص ٨٢ .
(٣) الكامل لابن الأثير : ١/ ٦٨٣ .
(٤) وهي ليلى أخت قيس بن الخطيم التي شبب بها ابن رواحة .
(٥) كل سلاح من الحديد .
(٦) تاريخ الكامل لابن الأثير : ١/ ٦٨٥ .

وهي قصيدة طويلة ولكن التاريخ لم يحفظ لنا إلا هذه الأبيات التي هي بين أيدينا ، غير أنها لا تخلو من إعطاء صورة مشرقة لشعر ابن رواحة الذي تحدث به عن مفاخره في هذه الحرب وغَناء قومه فيها .

شعر آخر في حرب بعاث :

ولما هُزمت الأوس في حرب بعاث بعد قتال شديد ولّى رجالها مصعدين في الحرة نحو نجد فصاح بهم رجل من الخزرج يعيرهم ، فقال : يا معشر الأوس! أين الفرار؟ فلما سمع حضير بن سماك أحد بني عبد الأشهل صوت الخزرجي استحيا ، وصاح : واعقراه ، فعطف عليه الأوس وتراجعوا ، وقد كان ذهب أكثرهم إلى دور بني قريظة والنضير ينتهبون ما فيها حين هزمت الأوس ، ثم إن صائحاً صاح من الأوس يومئذ ، وقال : يا معشر الأوس! ابقوا في إخوانكم ، لَجوارُهم خير من جوار الثعلب ، ارتهنت قريظة والنضير الخزرج ، وهنالك كفت الأوس عن النهب ، فقال في ذلك قيس بن الخطيم يذكر ترفع الأوس عن انتهاب بيوت الخزرج ، بدأها بقوله :

ردَّ الجِمالَ الخَلِيْطُ فانقَضَبا وقطَّعُوا مِنْ وِصالِكِ السَّببا
الحَمْدُ للهِ ذي البَنِيَّةِ إذ أمْسَتْ دِحًى قد أثخنَتْ غلبَا
يَركَبُ حَزْنَ الطَّرِيقِ آخِرُهُمْ يَدْعو بَنِي عَمِّه وقد كُرِبَا
غُوْدِرَ عِنْدَ المَكَرِّ سَيِّدُهُمْ فيهِ سِنَانٌ تَخَالُهُ لَهَبَا
وابنُ حَرَامٍ وثَابِتٌ كُشِفَتْ خَيْلاهُمَا عَنْهُمَا وقَدْ عَطِبَا
إنَّ بَنِي الأَوْسِ مَعْشَرٌ صَدَقُوا الضْـ ـضَرْبَ فوَلَّى عَدُوُّهُمْ هَرَبَا
زُرْنَاهُمُ بالخَمِيْسِ صَاحِيَةً نُزْجِي تَوالِيْهِ جَحْفَلاً لَجِبَا
إن بَنِي الأَوْسِ حِينَ تَشْتَجِرُ الـ ـحَرْبُ لكَالنَّارِ تَأْكُلُ الحَطَبَا
جاءَتْ بَنُو الأَوْسِ عارِضاً لَجِباً تَحْلِبُهُ الرِّيْحُ مُقْبِلاً حَلَبَا
أَرْعَنَ مثلَ الأَتِيِّ أَعْقَبَهُ صَوْبُ مُلِثٍّ يُقَمِّصُ الحَدَبَا

أراد يقمص حدبه بالسفين فقال : يقمص الحدبا :

فقَالَتْ بَنُو الأَوْسِ عَنْ عَفَافِهِمُ مُرُّوا ولا تَأْخُذُوا لهُمْ سَلَبَا
يَسُوقُ أُخْرَاهُمُ أوائِلَهُمْ كَمَا يَسُوقُ المُعْرِضُ الجَلَبَا

والمعرض: الذي يعرض إبله للجميع.

لمَّا دَعاهُمُ للمَوْتِ سَيِّدُهُمْ ... ثابَتْ إليهِ صُفُوفُهُمْ عُصَباً
فضَرَّبُوا رأسَ كَبْشِ قَائِدِهِمْ ... حتَّى تَوَلَّوا وأَجْمَعُوا هَرَبَا
بِكُلِّ لَدْنٍ مَاضٍ ضَرِيبَتُهُ ... عَضْبٍ إذا هَزَّ مَتْنَهُ قَضَبا

فأجابه عبد الله بن رواحة بشعر قوي عيّر فيه قيس بن الخطيم وقومه وذكرهم بأواصر الشر والفحش والخيانة والبخل واللؤم والكذب، التي كانوا يتصلون بها بنسب قريب، وأشاد فيه بقومه الذين انتصروا في هذه الحرب وأحرزوا الأسلاب، وبما أن حرب بعاث قد سبقت قيس بن الخطيم وما كان حاضراً فيها لا يقدر على أن يقيس ضراوة الحرب، ولو أنه قدرت له قدرة الحرب وحضوره فيها لكان قد لقي هزيمة وعاراً وعرفنا أن قتالنا لم يكن لعباً، كما يعتز ابن رواحة بأبطال الخزرج الذين استباحوا ما في ديار الأوس، يوم كانوا حماة الآطام والبيوت، يقول:

يا قَيْسُ أنتُمْ شِرَارُ قَومِكُمُ ... قِدْماً وأنتُمْ أَغَثُّهُمْ نَسَبَا
حالفْتُمُ الفُحْشَ والخِيَانَةَ والـ ... ـبُخْلَ جَمِيْعاً، واللُّؤْمَ والكَذِبَا
يا قَيْسُ إنَّ الاسْلابَ أَحْرَزَهَا ... مَن كانَ يَغْشَى الذَّوَائِبَ القُضُبَا
وأنتَ في الدَّارِ غيرُ مُحْتَضِرٍ ... حَرْباً وتَدْعُو قِتَالَنَا لَعِبَا
لَوْ كُنْتَ فِيْهِمْ والحَرْبُ لاقحةٌ ... لَكُنْتَ فيهِمْ مُغَلَّباً ذَنَبَا
نَحْنُ استَبَحْنَا ما فِيْ دِيَارِكُمُ ... يومَ صَبَحْنَاكُمُ بها حُصَبَا
نَحْنُ حُمَاةُ الآطَامِ في سَالِفِ الدْ... ... دَهْرِ وقِدْماً سُقْنَاكُمُ حَنَبَا[1]

قال ابن الكلبي: ثم إن الخزرج أجمعوا أمرهم على القتال واستعدوا له واستعدت الأوس، فالتقوا بالبويلة فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة يومئذ للخزرج على الأوس[2]، ولعلها هي آخر حرب بين القبيلتين.

هذه هي النُّبَذُ القليلةُ من شعر ابن رواحة الجاهلي الذي عثرنا عليه من خلال كتب التاريخ والسيرة وكلها تتعلق بالحروب التي عاشتها القبيلتان في الجاهلية، ولذلك

(١) حنب الشيخ إذا تقوس وانحنى واحدودب، يعني سقناكم مثل العبيد.
(٢) شرح ديوان حسان بن ثابت، دكتور سيد حنفي حسنين وحسن كامل الصيرفي، ص ٢١٩.

فإنها لا تعطي إلا صورة مصغرة من التظاهر بالخصائص القومية والتفاخر بالصفات الحربية في جانب، ومن المهاجاة والتعيير والمهاترات الكلامية في جانب آخر.

أما الحُكْمُ برجحان كِفَّةِ شعره الجاهلي على شعرائه المعاصرين وخاصة ابن الخطيم وحسان بن ثابت فلا يمكن بمثل هذا الشعر القليل الذي تعارفنا عليه في الصفحات الماضية، بل الواقع أن ذلك النموذج لا يلقي إلا ضوءاً ضئيلاً على شخصية الشاعر، وربما لا يحكم ميزان النقد في حقه، إذا وزن عليه كلامه هذا الشعر القليل، ولكن ليس من المعقول أبداً أن يكون عبد الله بن رواحة قد اكتفى بمثل هذا الشعر القليل، ولا يكون قد رد على الشعراء المعاصرين في المناسبات التي كانوا يتعرضون فيها للقول، ويتركون فيها القريض بكل حرية.

ولا شك أن حسان بن ثابت كان أولى منه بالرد على قيس بن الخطيم وغيره من الشعراء والمعارضين، ولذلك كان شعر حسان أكثر وأقوى في هذا الموضوع وشعر ابن رواحة أقل وألين بحيث لا يمكن أن يمثل شخصيته الشعرية في عصر الجاهلية قوية واضحة.

وسنتحدث في الصفحات الآتية - بإذن الله تعالى - عن شعره الإسلامي، وإن كان ذلك أيضاً لا يضارع شعر حسان بن ثابت - رضي الله تعالى عنه - في الكثرة والقوة، إلا أنه يعطي صورة لبعض جوانبه الشعرية، ويمثل شيئاً من خصائص قريضه وعناصره الأدبية والإيمانية التي أكرمه الله بها، لا سيما وقد كان رسول الله ﷺ يحبه ويعتبره من شعراء الإسلام الذين يدافعون عن حِماه، ويذبُّون عن حوزته، ولا يتركون فرصة إلا وينتهزونها لتعزيز موقف الإسلام من بناء الحياة والمجتمع.

مكانته الشعرية الممتازة:

لم يحفظ لنا التاريخ من شعر ابن رواحة الإسلامي إلا نزراً يسيراً، أما بالنسبة إلى شعره الجاهلي فهو كثير دون شك، ولكن عوامل الحفظ والتدوين لم تتوافر لشعره الجاهلي مثل ما توافرت لشعر حسان بن ثابت، ولولاما ذكر لكان لشعره دوي كبير في تاريخ الأدب الجاهلي، وكان ثروة شعرية تعتبر زيادة في الشعر

العربي ، ذاك أن الجزء الموجود من شعره الذي تفجرت ينابيعه بمناسبة الذكريات والآثار الحزينة التي خلفتها حروف قومه الطويلة ، يدل بوضوح على علو كعبه في هذا المجال والمادة الشعرية الغزيرة التي كان يتمتع بها .

شعره في الإسلام :

مكانته الشعرية في الإسلام معترف بها ، فقد قرض الشعر في مناسبات متعددة وقام بالدفاع عن النبي الكريم ﷺ ودعوته بكلام قوي ذي تأثير عميق ، ولكن السبب الكبير في قلة شعره الإسلامي أنه شغل بخدمة الدعوة والمشاركة في الغزوات الإسلامية ، حيث إنه لم يتمكن من التفرغ لقول الشعر والقريض ، ولم يستطع أن يركز عليه تركيزاً كاملاً ، غير أن ذلك لا يعني أن شعره ليس بقوي أو أنه لا يتبوأ مكانة شعرية ممتازة ، بل الواقع أنه كان من شعراء الإسلام المعدودين المعروفين ، وهم ثلاثة : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقد شهد بذلك فيه ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب» وقال :

«هو أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول الله ﷺ وفيه وفي صاحبيه حسان وكعب بن مالك نزلت : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ . الآية[1] [الشعراء : ٢٢٧] .

لم تسمح له مشاركته في الغزوات والمشاهد الإسلامية فرصة لكي يتفرغ للقريض ، فقد كان «أول خارج إلى الغزو وآخر قافل» لذلك لم يقل من الشعر بعد الإسلام إلا قليلاً ، والذي حفظه التاريخ ووصل إلى الناس إنما هو أقل ، إذ إن عدد أبياته التي قالها في مناسبات إسلامية وسجلتها صفحات التاريخ الإسلامي لا يربو على مائة وخمسة وستين بيتاً ، ومعظمها يغلب عليه طابع الرجز .

شعره الإسلامي عند خروجه إلى مؤتة :

شهد عبد الله بن رواحة مشهد العقبة ، والغزوات المهمة من بدر وأحد والخندق والحديبية ، وعمرة القضاء ، وكانت غزوة مؤتة آخر الغزوات التي شهدها وحمل فيها الراية بعد جعفر بن أبي طالب وقاتل حتى قُتل .

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٣/ ٨٩٨.

«ذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير ، قال : لما تودع عبد الله بن رواحة في حين خروجه إلى مؤتة ، دعا له المسلمون ولمن معه أن يردهم الله سالمين ، فقال ابن رواحة :

لكنَّنِيْ أسْألُ الرَّحمَنَ مَغْفِرةً ... وضَرْبةً ذاتَ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبَدا
أو طَعْنَةً بيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزةً ... بحَرْبَةٍ تُنفِذُ الأحشَاءَ والكَبِدا
حتَّى يَقُوْلوا إذا مَرُّوا علَى جَدَثِيْ ... يا أرْشَدَ اللهُ مَنْ غَازَ وقَدْ رَشَدا

وذكر عبد الرزاق عن ابن عيينة قال : وقال ابن رواحة يوم مؤتة يخاطب نفسه :

أقْسَمْتُ بالله لَتَنْزِلنَّهْ ... طَائِعَةً ، أو لَتُكْرَهِنَّهْ
فطَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمئنَّةْ ... جَعْفَرُ ما أطْيَبَ رِيْحَ الجنةْ

وروى هشام عن قتادة قال : جعلوا يودعون عبد الله بن رواحة حين توجه إلى مؤتة ويقولون : ردَّك الله سالماً ، فجعل يقول :

لكنَّنِيْ أسْألُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرةً

فذكر الأبيات الثلاثة ، فلما كان عند القتال ، قال :

أقْسَمْتُ بالله لَتَنْزِلنَّهْ ... طَائِعَةً ، أو لَتُكْرَهِنَّهْ
ما لِيْ أرَاكِ تَكْرَهِيْنَ الجَنَّةْ ... وقَبْلَ ذا مَا كُنْتِ مُطمَئنَّةْ

وفي رواية ابن هشام زيادة :

إنْ أجْلَبَ النَّاسُ وشَدُّوا الرَّنَّةْ ... هَلْ أنْتِ إلا نُطْفَةٌ فِيْ شَنَّةْ

قال ، وقال أيضاً :

يا نَفْسُ إنْ لم تُقْتَلِيْ تَمُوْتِيْ ... هذَا حِمَامُ المَوْتِ قَدْ صَلِيْتِ
ومَا تَمَنَّيْتِ فقَدْ أُعطِيْتِ ... إنْ تَفْعَلِيْ فِعْلَهُمَا هُدِيْتِ

يعني صاحبيه زيداً وجعفراً ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ[1] .

شعره في رثاء سيد الشهداء :

شهد ابن رواحة ـ رضي الله تعالى عنه ـ غزوة أحد مع رسول الله ﷺ وأبلى فيها

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر ، القسم الثالث ، ص/ ٨٩٨ ـ ٨٩٩ ، وإن كان كلامه هذا قد مرّ في سياق الحديث عنه ولكن المناسبة اقتضت إعادته من غير نسيان .

بلاءً حسناً ، وكتب الله الشهادة لعم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب ، وكان المشركون قد مثلوه وبقروا عن بطنه وأخرجوا كبده ولاكوه ، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ حزن عليه حزناً شديداً حتى عزاه الله ـ عز وجل ـ وأنزل فيه ما أنزل من قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وما كان النبي الكريم ﷺ متفرداً بهذا الحزن ، إنما حزن معه جميع أصحابه ، وخاصة في الظروف التي أقيمت حوله بعد مقتله من المثلة الشنيعة والقسوة الظالمة التي لم يكن لهم بها عهد في الحروب والغزوات ، والسرور الذي تظاهر به العدو ، ولكن أراد الله سبحانه أن يخفف عنه ﷺ وعن الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ شدة الحزن ، ووطأة الهموم ، ويعزي قلوبهم فألهم شعراء الصحابة أن يَرْثُوه بشعرهم القوي وبعاطفة مكلومة ، مع العلم بأن النبي الكريم ﷺ كان قد واجه في هذه الغزوة ما واجه مِن أذى وجروح ولكن الله سلَّم وانتصر له من عدوه ، فانتهز حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة هذه المناسبة لإبداء عواطفهم بالشعر الذي فيه رد على المشركين وتعزية لرسول الله ﷺ وثناء عليه ، وفخر بالشجاعة والسخاء والكرم وهجاء للعدو بالنكاية والهزيمة والفرار.

قصيدة عبد الله بن رواحة اللامية:

جاشت قريحته بالشعر اللائق برثاء حمزة بن عبد المطلب فأبدى فيه أسفه الشديد ، وحزنه البالغ ، وصلى به عليه ودعا له ، وهدد المشركين بحرب أشد ، وواقعة أهول ، وعيرهم بالهزيمة النكراء التي لاقوها في بدر ، يقول:

بَكَتْ عَيْنِي وحُقَّ لها بُكَاهَا ... وما يُغْنِي البُكَاءُ ولا العَوِيلُ
على أَسَدِ الإلَهِ غَداةَ قَالُوا ... أَحَمْزَةُ ذاكُمُ الرَّجُلُ القَتِيلُ
أُصِيبَ المُسلِمونَ بِهِ جَمِيعاً ... هُنَاكَ وقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ
أَبَا يَعْلى! لَكَ الأَرْكَانُ هُدَّتْ ... وأَنْتَ المَاجِدُ البَرُّ الوَصُولُ[1]
عليكَ سَلامُ ربِّكَ فِي جِنَانٍ ... مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لا يَزُولُ

(١) أبو يعلى: كنية حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله تعالى عنه ـ الماجد: الكريم الشريف ، الوصول بفتح الواو: صيغة المبالغة: بمعنى كثير الصلة ، أي: العطاء.

ألا يَا هَاشِمَ الأَخْيَارِ صَبْراً ... فكُلُّ فِعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ
رَسُولُ اللهِ مُصْطَبِرٌ كَرِيمٌ ... بِأَمْرِ اللهِ يَنطِقُ إذ يَقُولُ
ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي لُؤَيّاً ... فبَعْدَ اليَومِ دَائِلَةٌ تَدُولُ[1]
وقبلَ اليَومِ ما عَرَفُوا وذَاقُوا ... وقَائِعَنَا بِها يُشْفَى الغَلِيلُ[2]
نَسِيتُمْ ضَرْبَنَا بقَلِيبِ بَدْرٍ ... غَداةَ أَتَاكُمُ المَوْتُ العَجِيلُ[3]
غَداةَ ثَوَى أبو جَهْلٍ صَرِيعاً ... عَلَيْهِ الطَّيرُ حائِمَةٌ تَجُولُ[4]
عُتْبَةُ وابنُهُ خَرَّا جمِيعاً ... وشَيْبَةُ عَضَّهُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ
ومَتْرَكُنَا أميَّةُ مُجْلَعِبّاً ... وفِي حَيْزُومِهِ لَدِنٌ نَبِيلُ[5]
وهَامَ بَنِي رَبِيْعَةَ سَائِلُوهَا ... ففِيْ أَسْيَافِنا منْهَا فُلُولُ[6]
ألا يَا هِنْدُ فابْكِيْ لا تَمَلِّي ... فأَنْتِ الوَالِهُ العَبْرَى الهَبُولُ[7]
ألا يا هِنْدُ لا تُبْدِي شَمَاتاً[8] ... بحَمْزَةَ ، إنَّ عِزَّكُمُ ذَلِيلُ[9]

ابن رواحة يرد على هبيرة بن أبي وهب:

كان هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم شاعراً قرشيّاً شديد العداوة لله ولرسوله ﷺ ، وقد تجلت هذه العداوة في قصيدته التي قالها يوم أحد ، وبدأها بقوله:

ما بَالُ هَمِّ عَمِيْدٍ باتَ يَطْرُقُنِيْ ... بالوُدِّ مِنْ هِنْدٍ إذ تَغْدُو عَوادِيْها

(١) دائلة: بمعنى الحرب.
(٢) الغليل: حرارة العطش وشدة الحزن ، وقائع: جمع وقيعة: بمعنى صدمة الحرب والقتال.
(٣) القليب: البئر القديمة ، يؤنث ، وقد يذكر ، الموت العجيل: الموت السريع.
(٤) حائمة: من حام الطير يحوم حول الماء ، إذا استدار حوله ، تجول: بمعنى تذهب وتجيء.
(٥) متركنا: مصدر ميمي: بمعنى تركنا ، مجلعباً: ممتداً على الأرض ، والحيزوم: أسفل الصدر ، اللدن: الرمح اللين ، النبيل: العظيم.
(٦) الفلول: جمع فل: الكسر أو الثلمة في حد السيف.
(٧) الواله: المرأة التي تفقد ولدها فتحزن عليه حزناً شديداً حتى كاد يذهب عقلها ، العبرى: الكثيرة الدموع والبكاء ، الهبول: المرأة الثكول التي تواجه فقد أولادها بكثرة.
(٨) الشمات: فرح الرجل ببلية تنزل بغيره.
(٩) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ١٧١ ـ ١٧٢.

تعرّض فيها للمسلمين بالتعبير والإهانة وسخر منهم ، وافتخر بشجاعة قومه ، وبمكانتهم العالية ومجدهم التليد ، يقول مثلاً :

نَحنُ الفَوارسُ يومَ الجرِّ[1] من أُحُدٍ ... هـابَـتْ مَعَـدُّ فقُلْنَـا نَحْـنُ نَـأْتِيْهـا
ثَمَّـتَ رُحْنَـا كـأنَّـا عَـارِضٌ بَـرِدٌ ... وقـامَ هـامُ بَنِـي النجَّـارِ يَبْكِيْهَـا
كـأنَّ هَـامَهُـمْ عنـدَ الـوَغَـى قَلَـقٌ ... مِـنْ قَيْـضِ رُبْـدٍ[2] نَفَتْـهُ عـن أدَاحِيْهـا
أو حَنْظَلٍ دَغْدَغَتْهُ الرِّيحُ في غُصُنٍ ... بـالٍ تَعَـاوَرَهُ مِنْهـا سَـوَافِيهَـا[3]

حتى أكملها بثلاثة وعشرين بيتاً ، فتصدى له حسان بن ثابت وردّ عليه بشعر مثله ، ونهض كعب بن مالك يرد عليه بقصيدة عينية قوية وطويلة احتوت على (٤٨) بيتاً من الشعر الجيد القوي الرصين ، بدأها بقوله :

ألا هَـلْ أتَـى غَسَّـانَ عنَّـا ودُونَهُـمُ ... مِـنَ الأرْضِ خَـرْقٌ سَيْـرُهُ مُتَنَعْنِـعُ[4]

وجاء في غضون أبيات هذه القصيدة بيتان هما لعبد الله بن رواحة كما تشير إليه روايات تاريخية ذكرها بعض المؤرخين واللغويين ، وقد تحقق لدى النُّقاد أن شعر عبد الله بن رواحة قد اختلط كثيراً بشعر كعب بن مالك ، نظراً إلى قلة شعره ، ثم انشغاله بالغزوات وانصرافه عن القريض ، وقد رد بذينك البيتين على هبيرة بن أبي وهب ولكنهما انضما إلى أبيات كعب بن مالك لأسباب أدبية منها :

١ ـ لأنهما مماثلان أبيات كعب بن مالك في الرديف والقافية .

٢ ـ لأنهما لم ينالا مكاناً متفرداً بإزاء القصائد الطويلة والأبيات الكثيرة التي فاضت بها قرائح الشعراء المسلمين في هذه المناسبة ، ولعل عبد الله بن رواحة قال هذين البيتين ثم شُغل عنهما باهتماماته الدينية الأخرى ، وهما كالآتي :

فَسِـرْنَـا إليهِـمْ جَهْـرَةً فـي رِحَـالِهِـمْ ... ضُحَيَّـاً علَيْنَـا البِيْـضُ لا نَتَخَشَّـعُ

(١) الجر : أصل الجبل .
(٢) القيض : قشر البيض الأعلى ، والربد : المراد بها النعام ، أداحي : جمع أدحى : المكان الذي تبيض فيه النعام .
(٣) السوافي : جمع سافية ، الريح التي تقلع التراب والرمل من الأرض .
(٤) الخرق : الفلاة الواسعة التي تخرق الأرض فيها الرياح ، متنعنع : مضطرب .

فَجِئْنـا إلـى مَـوْجٍ مـنَ البَحْـرِ وَسْطَـهُ ... أحَـابِيْـشُ منهُـمْ حـاسِـرٌ ومُقَنَّـعُ[1]

ويرثي نافع بن بُديل :

لما بعث رسول الله ﷺ أصحاب بئر معونة في شهر صفر على رأس أربعة أشهر من أحد ، كان من ضمن من غدرَ بهم عامر بن الطفيل ، نافعُ بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، فرثاه عبد الله بن رواحة ببيتين من الشعر ، وقال :

رَحِـمَ اللهُ نَـافِـعَ بـنَ بُـدَيْـلٍ ... رَحْمَـةَ المُبْتَغِـيْ ثَـوابَ الجِهَـادِ
صَـابِـرٌ صَـادِقٌ وَفِـيٌّ إذا مَـا ... أكْثَـرَ القَـومُ قـالَ قَـوْلَ السَّـدَادِ[2]

شعره في مناسبة إجلاء بني النضير :

تم إجلاء بني النضير من المدينة وقتل كعب بن الأشرف اليهودي في سنة أربع ، وكان في هذه المناسبة تبادُلُ شعر بين المسلمين واليهود ، ومن خلال ذلك ما قاله عباس بن مرداس السلمي يمدح رجال بني النضير الذين تم إجلاؤهم من المدينة ، بدأه بقوله :

لَـوْ أنَّ أهْـلَ الـدَّارِ لَـمْ يَتَصَـدَّعُـوا ... رَأيْـتَ خِـلالَ الـدَّارِ مَلْهـىً وملْعَبَـاً

فأجابه خوَّات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف بأبيات مماثلة ، أولها :

تَبْكِـيْ علَـى قَتْلـى يَهُـودَ وقَـدْ تَـرَى ... مِـنَ الشَّجْـوِ لَـوْ تَبكِـي أحَـبَّ وأقْـرَبَـا

فرد عليه عباس بن مرداس السلمي بأبيات من الشعر ، فقال :

هَجَـوْتَ صَـرِيْـحَ الكـاهِنَيْـنِ وفِيْكُـمْ ... لَهُمْ نِعَمٌ كانَتْ منَ الدَّهْرِ تَرْتُبَا[3]

إلى أن قال :

فَـإنَّـكَ لَـوْ لاقَيْتَهُـمْ فـي دِيَـارِهِـمْ ... لأُلْفِيْـتَ عمَّـا قَـدْ تَقُـولُ مُنكِّبـاً
سِرَاعٌ إلى العَلْيَا كِرامٌ لَدَى الوَغَى ... يُقَـالُ لبَـاغِـيْ الخَيْـرِ أهْـلاً ومَـرْحَبـاً

فأجابه عبد الله بن رواحة بأبيات مماثلة لها في الرديف والقافية يقول :

(١) أحابيش : بمعنى الجماعات التي تتجمع من القبائل .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٣/ ١٩٨ .
(٣) الصريح : يريد به خالص النسب ، والكاهنان : قبيلتان من يهود المدينة ويزعمون أنهم من ولد هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ ترتب : بمعنى ثابت .

لعَمْريْ لقَدْ حكَّتْ رَحَى الحَرْبِ بَعْدَما ... أطارَتْ لُؤَياً قَبْلُ شَرْقاً ومَغْرِبَا
بَقيَّةَ آلِ الكَاهِنَيْنِ وعِزَّهَا ... فَعَادَ ذَلِيلاً بَعْدَما كانَ أَغْلَبَا[1]
فطَاحَ سَلامٌ وابنُ سَعْيَةَ عَنْوَةً ... وقِيْدَ ذليْلاً للمَنَايا ابنُ أَخْطَبَا[2]
وأَجْلَبَ يبغي العزَّ والذلَّ يبتغي ... خلافُ يديه ما جنى حين أجلبا[3]
كتاركِ سَهْلِ الأَرْضِ والحَزْنُ هَمُّهُ ... وقَدْ كانَ ذا في النَّاسِ أَكْدَى وأَصْعَبَا[4]
وشَأسٌ وعَزَّالٌ وقد صَلِيَا بها ... وما غُيِّبا عن ذلك فيمن تَغَيَّبَا[5]
وعَوفُ بنُ سَلْمى وابنُ عَوْفٍ كِلاهُما ... وكَعْبٌ رَئيسُ القَومِ حانَ وخُيِّبَا[6]
فَبُعْداً وسُحْقاً للنَّضِيْرِ ومِثْلِها ... إنِ أُعقِبَ فَتْحٌ أو إنِ اللهُ أعْقَبا[7]

ابن رواحة في غزوة بدر الآخرة:

خرج رسول الله ﷺ في شعبان سنة أربع إلى بدر حيث أقام ثماني ليال ينتظر أبا سفيان لوعده الذي كان قد نادى به حين انصرافه عن أحد ، قال: «موعد بيننا وبينكم بدر الصفراءُ رأسَ الحولِ نلتقي فيه فنقتتل» وخرج أبو سفيان تحقيقاً لوعده ووصل إلى مِجنَّة من ناحية الظهران ثم بدا له في الرجوع ، وكان رسول الله ﷺ مقيماً ينتظر أبا سفيان إذ مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي وقد رأى مكان رسول الله ﷺ ، وناقته تهوي به فانطلق سريعاً إلى مكة ، وقال:

قَدْ نَفَرتْ مِنْ رُفقَتِي مُحمَّدِ ... وعَجْوةٍ مِنْ يَثْرِبَ كالعَنْجَدِ

(١) الأغلب: الغليظ الرقبة ، الشديد القوة.
(٢) طاح: بمعنى هلك ، العنوة: القهر والذلة ، يشير إلى سلام بن أبي الحُقيق وابن أخطب بن سعية وحيي بن أخطب ، وكلهم كانوا من أشد أعداء رسول الله ﷺ في اليهود.
(٣) أجلب إذا كان بالجيم فهو بمعنى: جمع وصاح ، وإذا كان بالحاء المهملة فمعناه أيضاً جمع ، ولكن دون صياح.
(٤) الحزن ، الأرض الغليظة العالية ، أكدى: بمعنى خاب في سعيه ، يقال: أكدى الرجل في سعيه ، إذا لم ينجح.
(٥) شأس: اسم ابن قيس اليهودي من يهود بني قينقاع ، عزال: اسم ابن سموأل اليهودي وهو من بني قينقاع أيضاً ، صليا: بمعنى دخلا نار الحرب.
(٦) حان: بمعنى هلك.
(٧) فبعداً وسحقاً: دعاء عليهم ، أو إن الله أعقبا: يعني أن الله جاء بالنصر عليهم.

تَهْوِي علَى دِيْنِ أبِيْها الأتلَدِ ... قد جَعَلَتْ ماءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدِي
وماءَ سجنانَ لَهَا ضُحَى الغَدِ

ابن رواحة يقول الشعر:

فقال عبد الله بن رواحة شعراً يوجه فيه اللوم والعار إلى أبي سفيان على ما ظهر منه من الجبن والفرار من لقاء رسول الله ﷺ:

وَعَدْنَا أبا سُفْيانَ بَدْراً فلَمْ نَجِدْ ... لمِيْعادِهِ صِدْقاً وما كانَ وافِيَا
فأُقسِمُ لو وافَيْتَنَا فلَقِيْتَنَا ... لأُبْتَ ذَمِيْماً وافتقَدْتَ المُوَالِيَا
تَرَكْنَا بهِ أوْصَالَ عُتْبةَ وابنِهِ ... وعَمْرَاً أبا جَهْلٍ تَرَكْنَاهُ ثَاوِياً
عَصَيْتُمْ رَسُولَ الله أُفَّ لدِيْنِكُم ... وأمْرُكم السَّيِّئ الذِي كانَ غَاوِياً
وإنِّي وإنْ عَنَّفْتمونِيْ لَقَائِلٌ ... فِدىً لرَسُولِ الله أهْلِي ومَالِيَا
أطَعْناهُ لم نَعْدِلْهُ فينَا بغَيْرِهِ ... شِهاباً لنَا في ظُلْمةِ اللَّيْلِ هَادِياً[1]

رجزه في غزوة الخندق:

ولعبد الله بن رواحة رجز مثير أثناء حفر الخندق ، حينما كان المسلمون ورسول الله ﷺ معهم ، يحفرون الخندق ، وينقلون التراب:

اللهُمَّ لَوْلا أنتَ ما اهْتَدَيْنا ... ولا تصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا
إنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوا علَيْنا ... وإنْ أرَادوا فِتْنةً أبَيْنَا
فَأنْزِلَنْ سَكِيْنةً علَيْنا ... وثَبِّتِ الأقْدَامَ إنْ لاقَيْنا

ويزاد فيه في بعض الروايات:

إنَّا إذا صِيْحَ بِنَا أتَيْنَا ... وبالصِّيَاحِ عَوَّلُوا علَيْنا
فاغفِرْ فِداءً لكَ ما اقْتَفَيْنَا ... ونَحْنُ عن فَضْلِكَ ما استَغْنَيْنا

ويروى له بعض الرجز في هذه المناسبة:

هَذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خَيْبَرِ ... هذا أَبَرُّ رَبَّنَا وأَطْهَرُ
اللهُمَّ لا عَيْشَ إلا عيْشُ الآخِرَةْ ... فارْحَمِ الأنْصَارَ والمُهَاجِرَةْ

(١) لقد مر بيان هذا الشعر في الحديث عن الغزوات التي شارك فيها عبد الله بن رواحة ، وخاصة في ذكر غزوة بدر الآخرة من هذا الكتاب.

ويروى غير ذلك أيضاً في مناسبة حفر الخندق.

شعره في حسان وأصحابه:

سبق أن ذكرنا أن ثابت بن قيس بن الشماس وثب على صفوان بن المعطل السلمي حين ضرب حسان وأصحابه في الفرية التي رموا بها أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وفي ذلك قال عبد الله بن رواحة أبياتاً من الشعر يذكر فيها شناعة الأمر الذي استباحوه في قصة الإفك، وسببوا سخط الله تعالى بإيذائهم رسول الله ﷺ، يقول في حسان وصاحبيه حمنة ومسطح:

لَقَدْ ذاقَ حَسَّانُ الَّذِيْ كانَ أَهْلَهُ ... وحَمْنَةُ إذْ قَالُوا هُجَيْراً ومِسْطَحُ
تَعَاطَوا برَجْمِ الغَيْبِ زَوْجَ نبيِّهِمْ ... وسَخْطَةَ ذِيْ العَرْشِ الكرِيْمِ فأُترِحُوا[1]
وآذَوا رَسُولَ الله فيهَا فجَلَّلُوا ... مَخَازيَ تَبْقَى ، عَمَّمُوهَا وفُضِّحوا
وصُبَّتْ علَيهِمْ مُحْصَدَاتٌ كأنَّها ... شَآبِيْبُ قَطْرٍ مِنْ ذُرَى المُزْنِ تُسْفَحُ[2]

شعره في مدح النبي الكريم ﷺ:

وجاء فيما رواه ابن حجر العسقلاني في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» حيث تحدث فيه عن عبد الله بن رواحة ومدحه لرسول الله ﷺ فقال: ومن أحسن ما مدح به النبي الكريم ﷺ قوله:

لَوْ لَمْ تكُنْ فيه آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... كانَتْ بَدِيهَتُهُ تُنْبِيْكَ بالخَبَرِ
فثَبَّتَ اللهُ ما آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ ... قَفَوْتَ عِيْسَى بإذْنِ اللهِ والقَدَرِ

وتعجب رسول الله ﷺ أن يكون ابن رواحة يقول الشعر فدعاه وأجلسه بين يديه، وقال له: كيف تقول الشعر إذا قلت؟ فقال: أنظر في ذلك ثم أقول، قال: فعليك بالمشركين، قال: فلم أكن أعددت شيئاً فأنشدته، فلما قلت:

(١) أترحوا: بالبناء على المجهول، من الترح وهو الحزن، ويروى: فأبرحوا من البرح وهو المشقة والشدة.

(٢) محصدات: أسياط محكمة الفتل، شآبيب: جمع شؤبوب، الدفعة من المطر، الذرى: الأعالي، المزن: السحاب، تسفح: تسيل.

فَخَبِّرُونِي أَثْمَانَ العَبَاءِ، مَتَى ... كُنْتُمْ بَطَارِيقَ أو دَانَتْ لَكُمْ مُضَرُ[1]

قال: فكأني عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهة أن جعلت قومه أثمان العباء، فقلت:

نُجَالِدُ الناسَ عن عُرْضٍ فَنَأْسِرُهُمْ ... فِينَا النَّبِيُّ، وفِينَا تَنْزِلُ السُّوَرُ
وقد عَلِمْتُمْ بأَنَّا ليسَ غالِبَنَا ... حيٌّ منَ الناسِ، إنْ عَزُّوا وإنْ كَثُروا
يا هاشمَ الخَيْرِ إنَّ الله فضَّلَكُمْ ... على البَرِيَّةِ فَضْلاً ما لَهُ غِيَرُ[2]
إنِّي تفرَّسْتُ فيكَ الخَيْرَ أعرِفُهُ ... فِراسَةً خالَفَتْهُمْ في الَّذِي نَظَرُوا
ولَوْ سألْتَ أو استَنْصَرْتَ بعضَهُمُ ... في جُلِّ أَمْرِكَ ما آوَوا وما نَصَرُوا
فثَبَّتَ اللهُ ما آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبيتَ مُوْسى ، ونَصْراً كالَّذي نُصِرُوا

قال: فأقبل عليَّ (رسولُ الله ﷺ) مبتسماً ثم قال: «وإياك فثبَّتَ الله» ويزاد في رواية «الاستيعاب» لابن عبد البر البيت التالي:

أنتَ النَّبِيُّ ومَنْ يُحْرَمْ شَفَاعَتَهُ ... يومَ الحِسَابِ فقَدْ أَزْرَى بهِ القَدَرُ

وفي رواية ابن هشام هكذا:

إنِّي تَفَرَّسْتُ فيكَ الخَيْرَ نافِلَةً ... فِراسَةً خالَفَتْ فيكَ الَّذي نَظَروا
أنتَ النَّبِيُّ ومَنْ يُحرَمْ نَوافِلَهُ ... والوَجْهَ منكَ فقَدْ أَزْرَى بهِ القَدَرُ

شعره لزوجته:

ومن قصته أنه خلا ليلة بأمة له فبصرت به زوجته فلامته، فجحدها، فقالت له: إن كنت صادقاً فاقرأ القرآن الكريم فإن الجنب لا يقرأ القرآن الكريم، فقال الأبيات التالية:

شَهِدْتُ بأَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... وأنَّ النَّارَ مَثْوى الكافِرِيْنا
وأنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ حَقٌّ ... وفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العالَمِيْنا
وتَحْمِلُهُ مَلائِكَةٌ غِلاظٌ ... مَلائِكَةُ الإلَهِ مُسَوِّمِيْنا

(١) وهو بهذا يهجو بني عمرو بن مخزوم وغيرهم من قريش، وجعله إياهم أثمان العباء (الكساء) مثال في الخسة.

(٢) الغير: بمعنى المصدر، التغيير والتغير، وهو اسم ليس له مفرد.

فقالت امرأته: صدق اللهُ وكذبَتْ عيني ، وكانت لا تحفظ القرآن الكريم ولا تقرؤه[1].

وتختلف الروايات عن الأبيات التي قالها في هذه المناسبة ، ففي رواية أنه أنشد الأبيات الآتية:

وفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كتَابَهُ ... إذا انْشَقَّ مَعْروفٌ منَ الصُّبْحِ سَاطِعُ
أرَانَا الهُدَى بعدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوْقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ واقِعُ
يَبِيْتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عن فِرَاشِهِ ... إذا استَثْقَلَتْ بالكَافِرِينَ المَضَاجِعُ
وأَعْلَمُ عِلْماً ليسَ بالظَّنِّ أَنَّنِي ... إلى اللهِ مَحْشُورٌ هُنَاكَ ورَاجِعُ

وإليه ينسب الشعر التالي في المناسبة نفسها:

شَهِدْتُ ـ بإذنِ الله ـ أنَّ مُحمَّداً ... رَسُولُ الذي فوقَ السَّمواتِ مِنْ عَلُ
وأنَّ أبَا يَحْيَى[2] ويَحْيَى كِلَيهِمَا ... لَهُ عَمَلٌ في دِيْنِهِ مُتَقَبَّلُ
وأنَّ التي بالجِزْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ ... ومَنْ دَانَهَا فِلٌّ منَ الخَيْرِ مَعْزِلُ[3]
وأنَّ الذي عادَى اليَهُودُ ابنُ مَرْيَمٍ ... رَسُولٌ أتى مِنْ عندِ ذِيْ العَرْشِ مُرْسَلُ
وأنَّ أخَا الأحقَافِ إذ يَعْدِلُونَهُ ... يُجَاهِدُ في ذاتِ الإلَهِ ويَعْدِلُ[4]

شعره في عمرة القضاء:

لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء سنة سبع ، كان عبد الله بن رواحة يمشي بين يديه آخذاً زمام ناقته ، ويقول وهو يخاطب الكفار:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيْلِهِ ... خَلُّوا ، فكُلُّ الخَيْرِ في رَسولِهِ
قَدْ أنزلَ الرَّحمنُ في تَنْزِيْلِهِ ... في صُحُفٍ تُتْلَى علَى رَسُولِهِ
بأنَّ خيرَ القَتْلِ في سَبِيْلِهِ ... يا رَبِّ إنِّي مُؤمِنٌ بقِيْلِهِ

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البرج/ ٣ ، ص/ ٩٠٠ ـ ٩٠١.
(٢) يريد بأبي يحيى زكريا ـ عليه الصلاة والسلام ـ.
(٣) الجزع: اسم موضع بالقرب من الطائف ، بطن نخلة: كذلك موضع بين مكة والطائف ، الفل بكسر الفاء: الخالي ، معزل: بعيد منقطع.
(٤) أخو الأحقاف: هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأحقاف: موضع على مقربة من عمان ، أو بين عمان وحضرموت.

أعرِفُ حقَّ اللهِ في قَبُولِهِ ... نَحنُ ضَرَبْنَاكُمْ على تَأوِيلِهِ
كمَا ضَرَبْنَاكُمْ على تَنْزِيْلِهِ ... ضَرْباً يُزِيلُ الهَامَ عن مَقِيلِهِ
ويُذهِلُ الخَليلَ عن خَلِيْلِهِ ... أو يَرْجِعَ الحقُّ إلى سَبِيْلِهِ

وفي غزوة مؤتة:

لما توجه عبد الله بن رواحة إلى مؤتة وكان قد حمل زيد بن أرقم على حقيبة رحله ، وكان هو يتيماً في حجره ، فخرج به غازياً إلى مؤتة فسمعه زيد من الليل يتمثل بأبياته التي تنبأ فيها بشهادته:

إذا أدْنَيتِنِي وحَمَلْتِ رَحْلِي ... مَسِيْرَةَ أرْبَعٍ بعدَ الحِسَاءِ
فشَأنُكِ فانعَمِي وخَلاكِ ذَمٌّ ... ولا أرْجِعْ إلى أهْلِي وَرَائِي
وجَاءَ المُؤمِنونَ وغَادَرُونِي ... بأرْضِ الشَّامِ مَشْهُورَ الثَّوَاءِ
ورَدَّكِ كُلَّ ذي نَسَبٍ قَرِيْبٍ ... إلى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعُ الإخَاءِ
هُنَالِكَ لا أُبَالِيْ طَلْعَ بَعْلٍ ... ولا نَخْلٍ أسَافِلُهَا رِوَاءِ

ويخاطب زيد بن أرقم في البيتين التاليين:

يا زيدُ زيدَ اليَعْمُلاتِ الذُّبَّلِ ... تطَاولَ الليْلُ هُدِيْتَ فانْزِلِ[1]

وفي رواية هكذا:

يا زيدُ زيدَ اليَعْمُلاتِ الذُّبَّلِ ... وزَيْدُ داريُّ الفَلاةِ المَجْهَلِ
تطَاولَ الليْلُ هُدِيْتَ فانْزِلِ ... فانْقَضَّ زَيْدٌ كانْقِضَاضِ الأَجْدَلِ

شعره عند وداعه القوم إلى مؤتة:

وبكى عبد الله بن رواحة لدى توديعه إلى مؤتة ، فسأله الناس: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة إليها ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلست أدري كيف بالصَّدَر بعد الورد ، فقال المسلمون: صحبكم الله وردكم إلينا صالحين ، ورفع إليكم ، فقال ابن رواحة:

(١) اليعملات: جمع يعملة وهي الناقة السريعة ، الذبل: جمع ذابل وذابلة ، الضامرة التي أذبلها السير السريع.

لكنَّنِـيْ أسْـألُ الـرَّحمـنَ مَغْفِـرةً ... وضَـرْبـةً ذاتَ فَـرْغٍ تَقْـذِفُ الـزَّبَـدا
أو طَعْنَـةً بِيَـدَيْ حَـرَّانَ مُجْهِـزَةً ... بِحَـرْبَـةٍ تُنْفِـذُ الأَحْشَـاءَ والكَبِـدا
حتَّـى يَقُـوْلـوا إذا مَـرُّوا علَـى جَـدَثِـيْ ... يـا أرْشَـدَ اللهُ مِـنْ غَـازٍ وقَـدْ رَشَـدا[1]

وفي رواية لابن هشام:

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم ، حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خَلَـفَ السَّـلامُ علـى امْـرِئٍ وَدَّعْتُـهُ ... فـي النَّخْـلِ خَيْـرَ مُشَيِّـعٍ وخَلِيْـلِ

يخاطب نفسه بعد مقتل جعفر بن أبي طالب:

حينما كتب اللهُ الشهادةَ لجعفرَ بن أبي طالب دعا الناسُ عبدَ الله بن رواحة لكي يتسلم اللواء وكان في جانب العسكر فتقدم فقاتل ، وهو يخاطب نفسه:

يـا نَفْـسُ إلا تُقْتَلِـيْ تَمُـوتِـيْ ... هَـذا حِيَـاضُ المَـوتِ قَـدْ ملِيْـتِ
ومَـا تَمَنَّيْـتِ فَقَـدْ لَقِيْـتِ ... إنْ تَفْعَلِـيْ فِعْلَهُمـا[2] هُـدِيـتِ
وإنْ تأخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيْتِ

وفي بعض الروايات زيادة البيتين التاليين:

هَـلْ أنْـتِ إلاَّ إصْبَـعٌ دَمِيْـتِ ... وفِـي سَبِيْـلِ اللهِ مَـا لَقِيْـتِ
إنْ تَسْلَمِـي اليَـومَ فلَـنْ تَفُـوتِـي ... أو تُبْتَلِـي فطَـالمَـا عُـوفِيْـتِ

ثم قال: يا نفسُ إلى أي شيء تَتُوقِين؟ إلى فلانةٍ ـ امرأتِه ـ فهي طالق ، وإلى فلان وفلان ـ غلمانٍ له ـ فهم أحرار ، وإلى مُعْجَفٍ ـ حائطٍ له ـ فهو لله ولرسوله ، ثم قال:

يـا نَفْـسُ مـالَـكِ تَكْـرهِيْـنَ الجَنَّـةْ ... أُقْسِـمُ بـاللهِ لَتَنْـزِلَنَّـهْ
طَـائِعَـةً ، أو لَتُكْـرَهِنَّـهْ ... فطَـالَمَـا قَـدْ كُنْـتِ مُطْمَئِنَّـةْ

وفي رواية كما يأتي:

أقْسَمْـتُ يـا نَفْـسُ لَتَنْـزِلَنَّـهْ ... لَتَنْـزِلَـنَّ أو لَتُكْـرهِنَّـهْ

(١) وفي الاستيعاب لابن عبد البر (من فاز) بدل (من غاز).
(٢) يريد بهما زيداً وجعفراً.

هَـلْ أنْـتِ إلا نُطْفَـةٌ فـي شَنَّـةْ ... جَعْفَـرُ مـا أطْيَـبَ رِيْـحَ الجَنَّـةْ

وفي رواية:

إن أَجْلَـبَ النَّـاسُ وشَـدُّوا الـرَّنَّـةْ ... مـالِـيْ أرَاكِ تَكْـرهِيْـنَ الجَنَّـةْ

قصته في يوم مؤتة:

لما مضى عبد الله بن رواحة مع المسلمين إلى أرض مؤتة ونزل معانَ من أرض الشام ، بلغهم أن هرقل قد نزل مآبَ من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، انضم إليهم من لخم وجَذْمَ واليقينَ وبهراءَ وبليٍّ مائةُ ألف منهم ، عليهم رجل من بليٍّ يقال له: مالك بن زافلة ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، قال: فشجعَ الناسَ عبدُ الله بن رواحة ، وقال: يا قوم! والله إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون ـ أي الشهادة ـ وما نقاتل الناس بمدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة ، قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس ، فقال عبد الله بن رواحة في محبسهم ذلك:

جَلَبْنَـا الخَيْـلَ مِـنْ أَجَـإٍ وفَـرْعٍ ... تُغَـرُّ مـنَ الحَشِيْـشِ لهَـا العُكُـومُ[1]
حَـذَوْنَـاهَـا مِـنَ الصَّـوَّانِ سِبْتَـاً ... أَزَلَّ كـأنَّ صَفْحتَـهُ أَدِيْـمُ[2]
أقـامَـتْ لَيْلتَيـنِ علَـى مَعَـانٍ ... فـأعْقِـبَ بعـدَ فَتْـرَتِهـا جُمُـومُ[3]

(١) أجأ: بفتح الهمزة والجيم وآخره همزة: أحد جبلي طيئ ، وفرع: بالعين ، ويروى بالغين: اسم موضع، وتغر: أي تطعم شيئاً بعد شيء ، يقال: غررت الطائر ، إذا أطعمته ، العكوم: الجنوب.
(٢) حذوناها: أي جعلنا لها حذاء ، والصوان: بتشديد الواو ، واحدتها صوانة: وهي الحجارة الملساء ، والسبت بكسر السين: النعال التي تصنع من الجلد المدبوغ ، أزل: أملس ، ظاهر الصفحة ، الأديم: الجلد.
(٣) الجموم: استراحة الفرس في الحرب لتجديد النشاط.

فـرُحْنـا والجِيَـادُ مُسَـوَّمَـاتٌ ... تَنَفَّسُ فـي مَنَـاخِـرِهـا السَّمُـومُ[1]

فَـلا وأبِـيْ مَـآبُ لَنَـأْتِيَنَّهَـا ... وإنْ كـانَـتْ بهـا عَـرَبٌ ورُوْمُ[2]

فَعَبَّـأْنَـا أَعِنَّتَهَـا فَجَـاءَتْ ... عَـوَابِسَ والغُبَـارُ لهَـا بَـرِيْـمُ[3]

بِـذِيْ لَجَـبٍ كـأنَّ البَيْـضَ فيـه ... إذا بَـرزَتْ قَـوانِسُهـا النُّجُـومُ[4]

فَـراضِيَـةُ المَعِيشَـةِ طَلَّقَتْهَـا ... أَسِنَّتُهَـا فَتَنْكِـحُ أو تَئِيْـمُ[5]

قال ابن هشام ويروى:

جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنْ آجَامِ قُرْحِ

وقرح: اسم موضع كذلك[6].

شعره في مدح أبي الهيثم:

مما يروى أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ خرجوا ذات ليلة، وما أخرجهم إلا الجوع، فذهبوا إلى منزل أبي الهيثم ـ رضي الله تعالى عنه ـ ونزلوا عنده، فرحب بهم وفرح بقدومهم وأكرمهم أي إكرام، وقدم إليهم طعاماً ورطباً وماءً بارداً، فقال رسول الله ﷺ: هذا ـ والذي نفسي بيده ـ من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة، ولعله أشار إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] وفي هذه المناسبة مدحه ابن رواحة بالشعر الآتي:

فلَـمْ أرَ كـالإسْـلامِ عِـزّاً لأُمَّـةٍ ... ولا مِثْـلَ أَضْيَـافِ الأَرَاشِـيِّ مَعْشَـراً

نَبـيٌّ وصِـدِّيْـقٌ وفَـارُوقُ أُمَّـةٍ ... وخَيْـرُ بَنِـيْ حَـوَّاءَ فَـرْعَـاً وعُنْصُـراً

فَـوَافَـوا لمِيْقَـاتٍ وقَـدْرِ قَضِيَّـةٍ ... وكـانَ قضَـاءُ الله قَـدَراً مُقَـدَّراً

إلـى رَجُـلٍ نَجْـدٍ يُبَـارِي بِجُـودِهِ ... شُموسَ الضُّحَى جُوْداً ومَجْداً ومَفْخَراً

(١) مسومات: معلمات، السموم: الريح الحارة.
(٢) مآب: اسم موضع.
(٣) البريم: هو في الأصل الخيط الذي تنظمه المرأة ثم تشده على وسطها، ولكن المراد هنا: الحزام.
(٤) اللجب: كثرة الأصوات واختلاطها، والمراد بذي اللجب: الجيش، قوانس: جمع قونس، وهو الجزء الأعلى من البيضة.
(٥) تئيم: بمعنى تبقى بغير زوج، من آمت المرأة إذا لم تتزوج.
(٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٤٢٩ ـ ٤٣١، وانظر تاريخ الطبري، ذكر غزوة مؤتة.

وفـارِسِ خَلْـقِ الله فـي كُـلِّ غَـارةٍ ... إذا لَبِـسَ القَـومُ الحَـدِيْـدَ المُسَمَّـرَا

فَفَـدَّى وحَيَّـا ثـمَّ أدْنَـى قِـرَاهُـمُ ... فلـم يُقْـرِهِـمْ إلا سَمِينـاً مُتَمَّـراً[1]

خاتمة البحث:

ويسعدني أن اكتفي بهذا القدر من نماذج الشعر الذي قاله ابن رواحة في الإسلام وقد سبق أن أشرنا إلى أنه شاعر مُقِلٌّ في الإسلام بوجه خاص، ذاك لأنه شُغل عن الكلام وقرض الشعر وزهد في هذا الجانب الأدبي.

أولاً: لِمَا قد قَرَع سمعه قول الله تعالى في الشعراء، وما وصفوا به في كتاب الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ رغم أن شعراء الإسلام ورسول الإسلام الثلاثة، وهم حسان بن ثابت الأنصاري، وكعب بن مالك الأنصاري، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، كانوا بعيدين عن حكم الآية، وما كانوا يقولون إلا في الأغراض الدعوية والمناسبات الإسلامية الخالصة كما ورد في الآيات التالية للآيات السابقة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، ولكن طبيعة ابن رواحة انصرفت عن الشعر والقريض إلا في حاجات خاصة وأغراض لازمة، ومناسبات دينية خالصة، تخدم الدعوة وتدافع عن الإسلام ورسول الله ﷺ.

ثانياً: لأن اهتماماته بالجهاد والحضور في الغزوات الإسلامية كانت عائقاً كبيراً عن الشعر، والاشتغال بالقريض، لذلك لم يكن عدد أبياته التي قالها في الإسلام إلا قليلاً.

أما بالنسبة إلى المستوى الشعري الذي لمسناه في الأبيات التي سجلناها فليس ذلك أقل من مستوى الشعراء الذين أدركوا الإسلام، وقد كان ابن رواحة موفقاً فيما قاله في الإسلام ومؤيداً من الله تعالى، وهو في شعره الإسلامي داعية مخلص إلى الإسلام ومنافح غيور عن حبيبه وصاحبه المصطفى ﷺ ودعوته وجهاده، فإذا كانت

(١) المتمر: المقطع، وكان أبو الهيثم قد ذبح لهم شاة سمينة، والقرى: ما يقدم للضيف من الطعام.

فنية الكلام مختفية عن العيون في بعض المناسبات فما هو إلا لأن واجب الدعوة والطاعة والدفاع يغلب على العاطفة والوجدان أحياناً ، ويبدو أن الكلام مجرد عن سمات الفن ، على أن الوضع ليس كذلك في الواقع .

فلندرس شعره من خلال هذه العوامل ، مع الاهتمام بالبحث عن جوانبه الفنية والوجدانية ، حتى لا نعدو طريق الإنصاف الأدبي ، ولا نبخس حقه من براعته الشعرية الأصيلة .

* * *

الباب الرابع

كعب بن زهير بن أبي سُلمى

كعب بن زهير بن أبي سُلمى

كعب بن زهير ومكانته في الشعر المخضرم:

يتجمل تاريخ الأدب المخضرم بذكر كعب بن زهير وشعره الخصب ، وهو من أسرة لها في الشعر العربي القديم مكانة عالية ، وأصالة عرق قلما تتفق للشعراء وأصحاب القريض ، فقد كان أبوه زهير أشعر الشعراء ومن فحول الجاهلية ، وهو من أصحاب المعلقات الذين يتفق النُّقاد على عُلُوِّ كعبهم في الشعر العربي ، وكان زهيرُ راويةَ أوسِ بن حجر ، ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: أنشدوني لأشعر شعرائكم ، قيل: ومن هو؟ قال: زهير ، قيل: وبمَ صار كذلك؟ قال: كان لا يُعاظِل[1] بين القول ولا يتبع وحشيَّ الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه ، وهو القائل:

إذا ابْتَدَرَتْ قَيْسُ بنُ عَيْلانَ غَايةً ... مِنَ المَجْدِ مَنْ يسبِقْ إليهَا يَسُودُ
سَبَقْتَ إليهَا كلَّ طَلْقٍ مُبَرَّزٍ ... سَبُوقٍ إلى الغَاياتِ غَيْرِ مُخَلَّدِ[2]

وفي رواية أخرى: قال عمر بن الخطاب لابن عباس: أنشدني لشاعر الشعراء الذي لم يُعاظِل بين القوافي ، ولم يتبع وحشيَّ الكلام ، قال: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير ، فلم يزل ينشده إلى أن برق الصبح[3].

قال عبد الملك (بن مروان) لقوم من الشعراء: أيُّ بيت أمدحُ ، فاتفقوا على بيت زهير:

تَرَاهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كأنَّكَ تُعْطيهِ الَّذي أَنْتَ سَائِلُهْ[4]

---

(١) عاظل الكلام: عقّده ، ووالى بعضه فوق بعض وكرره ، وعاظل الشاعر في القافية: ضمّن.
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ، ص ٥١.
(٣) المصدر السابق: ص ٥٤ ، طبع دار الكتب العلمية - بيروت.
(٤) المصدر السابق ، ص ٥١.

ميزته الشعرية الفائقة:

لقد فاق كعب بن زهير على أبيه الشاعر في غزارة مادته وبديهة كلامه ، يدل على ذلك ما قد رواه أبو الفرَج الأصفهاني من قصته مع أبيه في قرض الشعر ، قال: أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي قالا: حدثنا عمر بن شبّة قال: حدثنا علي بن الصباح ، عن هشام ، عن إسحاق بن الجصاص قال: قال زهير بيتاً ونصفاً ثم أكدى ، فمر به النابغة (الذبياني) فقال له: أبا أمامة ، أَجِزْ ، فقال: وما قلت؟ قال: قلت:

تَـزِيـدُ الأرضُ إمَّـا مِـتَّ خِفًّـا وتَحْيـا إن حَيِيْـتَ بهـا ثَقِيْـلا

نَزَلْتَ بمستقرِّ العَرْضِ منها

أجِزْ ، قال: فأكدى والله النابغة ، وأقبل كعب بن زهير ، وإنه لغلام ، فقال أبوه: أجِزْ يا بني ، فقال: وما أجيز؟ فأنشده ، فأجاز النصف بيت فقال:

«وتَمْنَعُ جانِبَيْها أن يَزُولا»

فضمّه زهير إليه ، وقال: أشهد أنك ابني[1].

وقال ابن الأعرابي: قال حماد الراوية: تحرك كعب بن زهير وهو يتكلم بالشعر، فكان زهير ينهاه مخافة أن يكون لم يستحكم شعره فيروي له ما لا خير فيه ، فكان يضربه في ذلك ، فكلما ضربه يَزيدُ فيه فغلَبه فطال عليه ذلك فأخذه فحبسه ، فقال: والذي أحلف به لا تتكلم ببيت شعر إلا ضربتك ضرباً ينكلك عن ذلك ، فمكث محبوساً عدة أيام ، ثم أُخبر أنه يتكلم به ، فدعاه فضربه ضرباً شديداً ثم أطلقه، وسرحه في بَهْمِه وهو غُليّم صَغير ، فانطلق فرعى ثم راح عشية وهو يرتجز:

كـأَنَّمَـا أحْـدُو بِبَهْمِـيَ عِيْـرَاً مِـنَ القُـرَى مُـوقَّـرَةً شَعِيْـرا

فخرج إليه زهير وهو غضبان ، فدعا بناقته فكفلها بكسائه ثم قعد عليها حتى انتهى إلى ابنه كعب ، فأخذه بيده فأردفه خلفه ثم خرج فضرب ناقته ، وهو يريد أن يبعث ابنه كعباً ، ويعلم ما عنده من الشعر ، فقال زهير حين برز إلى الحي:

إنِّـي لتُعْـدِنِنِـيْ علـى الحَـيِّ جَسْـرَةٌ تَخُـبُّ بـوَصَّـالٍ صَـرُوْمٍ وتُعْنِـقُ

(١) كتاب الأغاني: ١٧/ ٨٣ ، طبع مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت.

ثم ضرب كعباً وقال له: أجز يالُكَعُ ، فقال كعب:

كَبُنيـانَـةِ القَـرْنِـيِّ مَـوضِـعُ رَحْلِهـا وآثـارُ نِسْعَيْهَـا مِـنَ الـدَّفِّ أبلَـقُ

فقال زهير:

علـى لاحِـبٍ مثـلِ المَجـرَّةِ خِلْتُـهُ إذا ما عَلا نَشْزاً منَ الأرضِ مُهْرَقُ[1]

أجز يا لُكَعُ ، فقال كعب:

مُنِيْـرٍ هَـداهُ ليلُـهُ كنَهـارِهِ جَمِيـعٌ إذا يَعْلُـو الحَـزُوْنَـةَ أَفْـرَقُ

قال فتبدى زهير في نَعْتِ النعام وتَرْكِ الإبل يتعسَّفه عمداً ليعلم ما عنده ، وقال:

وظَـلَّ بـوَعْسَـاءِ الكَثِيْـبِ كـأَنَّـهُ خِبَـاءٌ علَـى صَقْبَـى بَـوانٍ مُـرَوَّقِ

«صقبى بوان» عمود من أعمدة البيت ، فقال كعب:

تَـراخَـى بـهِ حُـبُّ الضَّحـاءِ وقَـدْ رأى سَمَـاوةَ قَشْـراءَ الـوَظِيْفَيـنِ عَـوْهَـقِ[2]

فقال زهير:

تحِـنُّ إلـى مثـلِ الحَبـابِيْـرِ جُثَّـمٍ لـدَى مُنتِـجٍ مـن قَيْضِهـا المُتفلِّـقِ[3]

الحبابير: جمع حبارى ، وتجمع أيضاً حباريات ، فقال كعب:

تَحَطَّـمَ عنهـا قَيْضُهـا عـن خَـرَاطِـمٍ وعـن حَـدَقٍ كـالنَّبْـخِ لـم يَتَفَتَّـقِ

الخراطم هنا: المناقير ، والنبخ: الجدري ، شبه أعين ولد النعامة به ، قال: فأخذ زهير بيد ابنه كعب ثم قال له: قد أذنت لك في الشعر يا بنيّ ، فلما نزل كعب وانتهى إلى أهله وهو صغير يومئذ قال:

أبِيْـتُ أهْجُـو الصَّـديـقَ ومَـنْ يَبِـعْ بعِـرْضِ أبيـهِ فـي المَعـاشِـرِ يُنْفِـقِ

قال: وهي أول قصيدة قالها[4].

وقد مال بعض الأدباء والنقاد إلى أن كعب بن زهير أشعر من أبيه ، وقد سُئل

(١) اللاحب: الطريق الواضح ، مهرق: أملس.
(٢) تراخى: بمعنى تطاول ، الضحاء للإبل مثل الفداء للناس ، الوظيفين: الساقين ، عوهق: طويلة العنق.
(٣) القيض: القشرة العليا للبيضة.
(٤) كتاب الأغاني: ١٧/ ٨٥.

خلف الأحمر: زهير أشعر أم ابنه كعب؟ قال: لولا أبيات لزهير[1] أَكْبَرَها الناسُ لقلت: إن كعباً أشعر منه[2].

أسرته الشاعرة الممتازة:

كان كعب بن زهير من أسرة لها اتصال قوي بالشعر، فقد كان أبوه من فحول الجاهلية وفي الطبقة الأولى منها، وجده أبو سلمى كان شاعراً مجيداً، وهو الذي قال في خاله أسعد المري وابنه كعب بن أسعد، وكان حمل أمّه وفارقهما:

لَتُصْرَفَنَّ إِبِلٌ مُحَبَّبَةٌ ... مِنْ عندِ أَسْعَدَ وابنِهِ كَعْبِ
الآكِلَيْنِ صَرِيحَ قَومِهِمَا ... أَكْلَ الحُبَارى بُزْعُمَ الرُّطْبِ

يقول ابن قتيبة: يقال: إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير[3]، فقد أجمع المؤرخون على أن الشعر لم يتصل في ولد أحد من فحول الشعراء في الجاهلية كما اتصل في ولد زهير، فكعب وأبوه زهير وجده أبو سلمى، وعمتاه سلمى والخنساء، وخال أبيه بشامة بن الغدير، وابنا عمته تَمَاضُر، وأخوها صخر، وابنا بنته سلمى العوتبان وقريض، وأخوه بجير، وولده عقبة وحفيده العوام بن عقبة، كلهم شعراء[4].

قال أبو عمر ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: «كان كعب بن زهير شاعراً مجوداً، كثير الشعر مقدماً في طبقته هو وأخوه بجير، وكعب أشعرهما»[5].

---

(١) قصيدة يمدح فيها هرم بن سنان المري، ومطلعها:
لمن الديار بقنّة الحجرِ ... أقوَين من حججٍ ومن دَهَرِ

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة، ترجمة زهير بن أبي سُلمى، ص ٧٣، طبع دار إحياء العلوم ـ بيروت.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٣.

(٤) انظر الأعلام: ٥/ ٢٢٦، الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص ٦٧، وخزانة الأدب للبغدادي: ٤/ ١١ ـ ١٢.

(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، القسم الثالث، ص ١٣١٥.

شهادة الأصفهاني له:

وقد روى الأصفهاني في «الأغاني» قال: أخبرنا أبو خليفة، عن محمد بن سلام، وأخبرني محمد بن الحسن بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة قالا: أتى الحطيئةُ[1] كعب بن زهير، وكان الحطيئةُ راويةَ زهير وآل زهير، فقال له: يا كعب، قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك، فقال أبو عبيدة في خبره: تبدأ بنفسك فيه وتثنّي بي، فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال كعب:

فمَنْ للقوافِيْ شَانَها مَنْ يَحُوكُها ... إذا ما ثَوَى كَعْبٌ وفَوَّزَ[2] جَرْوَلُ
يَقولُ فلا تَعْبَأ بشَيءٍ يَقولُهُ ... ومِن قَائِليها مَنْ يُسِيءُ ويَعْجَلُ
كفَيْتُكَ لا تَلْقى من النَّاسِ واحِداً ... تَنَخَّلَ منها مثلَ ما يُتنخَّلُ
يُثَقِّفُها حَتَّى تَلِيْنَ مُتُونُهَا ... فَيَقْصُرَ عنها كلُّ ما يَتَمَثَّلُ[3]

لما استجاب كعب لطلب الحطيئة وذكره في شعره: «فمَنْ للقوافي شانها من يَحوكها» لم يذكر مزرد بن ضرار غضب هذا الأخير، وقال أبياتاً في كعب منها:

فَبِاسْتِكَ إذ خَلَّفْتَنِي خَلْفَ شَاعِرٍ ... مِنَ النَّاسِ لم أُكْفِيءْ ولم أتنَخَّلِ

فقال كعب هذه القصيدة في معرض الرد عليه:

أتَعْرِفُ رَسْماً بينَ رَهْمَانَ فالرَّقَمْ ... إلى ذِي مَرَاهِيْطٍ كما خُطَّ بالقَلَمْ[4]
عَفَتْهُ رِيَاحُ الصَّيفِ بَعْدي بِمُورِها ... وأَنْدِيَةُ الجَوْزَاءِ بالوَبْلِ والدِّيَمْ[5]

---

(١) اسمه جرول بن أوس.

(٢) فوّز: بمعنى مات.

(٣) الأغاني: ١٧/ ٨٢ ـ ٨٣، الطبعة المذكورة.

(٤) رهمان: وادٍ في ديار عبد الله بن غطفان، الرقم: جبال دون مكة بديار غطفان وتنسب إليها السهام الرقميات، ويوم الرقم من أيامهم، معروف لغطفان على عامر، (معجم البلدان: ٣/ ٨) ذو مراهيط، وفي معجم البلدان «ذو مراهط» وهو موضع بعينه، عن الأزهري يقول: إن هذا المنزل قد عفا أثره فلم يبق منه إلا كما يخط الكاتب بالقلم في صَحيفته.

(٥) عفته: محته، المورد: الرياح تذرو التراب، وقوله: أندية الجوزاء: يريد بها الأمطار، يقول: محت آثار المنزل رياح الصيف التي تثير الغبار والتراب، وتهاطُل الأمطار الغزيرة الدائمة.

دِيَارُ التي بَتَّتْ قِوانا وصَرَّمَتْ ... وكنتُ إذا ما الحَبْلُ من خُلَّةٍ صَرَمْ(١)

فَزِعَتْ إلى وجْنَاءَ حَرْفٍ كأنَّها ... بأقْرَابها قارٌ إذا جِلْدُها اسْتَحَمْ(٢)

ألا أبْلِغَا هذا المُعَرِّضَ أنَّهُ ... أيَقْظَانَ قالَ القولَ إذ قالَ أمْ حَلِمْ(٣)

فإنْ تسألِ الأقوامَ عنِّي فإنَّني ... أنا ابنُ أبي سُلْمى على رَغْمِ مَنْ رَغِمْ

أنا ابنُ الذي قد عاشَ تِسْعينَ حَجَّةً ... فلم يُخْزَ يوماً في مَعَدٍّ ولم يُلَمْ(٤)

وأكرَمَهُ الأكْفَاءُ في كُلِّ مَعْشَرٍ ... كِرامٍ فإن كَذَّبْتَنِي فاسألِ الأُمَمْ

أتى العُجْمَ والآفاقَ منه قصَائدٌ ... بَقِيْنَ بقاءَ الوَحْيِ في الحَجَرِ الأَصَمْ(٥)

أنا ابنُ الذي لم يُخْزِني في حَيَاتِهِ ... ولم أُخْزِه حتى تَغَيَّبَ في الرَّجَمْ(٦)

فأُعطِيَ حتَّى ماتَ مالاً وهِمَّةً ... ووَرَّثَني إذ وَدَّعَ المَجْدَ والكَرَمْ(٧)

وكانَ يُحامِي حينَ تَنْزِلُ لَزْبَةٌ ... منَ الدَّهرِ في ذُبيانَ إنْ حوضُها انْهَدَمْ(٨)

أقولُ شَبيهاتٍ بما قالَ عَالِماً ... بهنَّ ومَنْ يُشبِهْ أباهُ فما ظَلَمْ(٩)

وأشبهْتُهُ مِن بين مَنْ وَطِئَ الحصَى ... ولم ينتَزِعْني شِبْهُ خَالٍ ولا ابنُ عَمْ(١٠)

---

(١) بتت قوانا: قطعت حبال مودتنا ، صرّمت: قطعت ، الخلّة: الصديقة.

(٢) فزعت: ألجأت ، الوجناء: الشديدة الغليظة ، الحرف: الناقة الضامرة الصلبة ، شبهت بحرف الجبل في شدتها وصلابتها ، الأقراب: الخواصر ، القار: القطران ، استحم: عَرق ، أراد كأن بها قاراً من شدة عرقها.

(٣) أبلغا: قيل: خاطب صاحبيه ، وقيل: بل خاطب واحداً وأخرج الكلام مُخرج الخطاب مع الاثنين ، لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع ، وإنما فعلت العرب ذلك لأن الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين: راعي إبله وراعي غنمه ، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة ، فجرى خطاب الاثنين على الواحد لتعوّد ألسنتهم عليه.

(٤) المعروف أن زهيراً ولد في نجد نحو (٥٣٠ م) وتوفي نحو (٦٢٧ م) ، معد: جدّ جاهلي منه بعض القبائل العربية التي نشأت في شمالي جزيرة العرب.

(٥) الوحي: الكتاب ، أراد أن قصائده ذاع صيتها وطبقت الآفاق شهرة ، فأصبحت على كل شفة ولسان.

(٦) الرجم: القبر اللحد.

(٧) ودَّع هنا: مات.

(٨) اللزبة: الشدة ، وقوله: إن حوضها انهدم: أي إن نالها سوء أو ألمت بها نائبة.

(٩) الشبيهات هنا: القصائد ، ولعله أراد القوافي ، العالم: أبو زهير بن أبي سلمى.

(١٠) يقول: نزعت بشبهي إلى أبي ، وربما أراد أنه ابن فحل من الرجال ، وقد زعم بعضهم أن الشهوة=

إذا شِئْتُ أعْلَكْتُ الجَمُوحَ إذا بَدَتْ ... نَواجِذُ لَحْيَيْهِ بأغلَظَ ما عَجَمْ(١)

أعَيَّرْتَني عِزاً عَزيْزاً ومَعْشَراً ... كِراماً بَنَوا ليَ المجدَ في باذِخِ أَشَمْ(٢)

همُ الأصْلُ منِّي حيثُ كنتُ وإنَّني ... منَ المُزَنِيِّينَ المُصَفَّينَ بالكَرَمْ(٣)

همُ ضَربُوكمْ حينَ جُرْتُمْ عن الهُدَى ... بأسيافِهِمْ حتَّى استقَمْتُم على القِيَمْ(٤)

وساقَتْكَ منهُمْ عُصْبَةٌ خِنْدفِيَّةٌ ... فمَالكَ فيهِمْ قَيْدُ كَفٍّ ولا قَدَمْ(٥)

هُمُ مَنَعُوا حَزْنَ الحِجازِ وسَهْلَهُ ... قَديماً وهُمْ أَجْلَوا أباكَ عن الحَرَمْ(٦)

همُ الأسْدُ عندَ البأسِ والحَشْدُ في القِرى ... وهُمْ عند عَقْدِ الجَارِ يُوفُونَ بالذِّمَمْ(٧)

فكَمْ فيهِمُ من سيِّدٍ مُتَوَسِّعٍ ... ومن فاعِلٍ للخيرِ إنْ هَمَّ أو عَزَمْ

متى أُدْعَ في أوْسٍ وعُثمانَ يأتِني ... مَساعِيرُ حَرْبٍ كُلُّهُمْ سَادةٌ دِعَمْ(٨)

= عند الجماع إن سبقت من المرأة خرج الولد يشبهها ، وإن سبقت من الرجل خرج الولد يشبهه ، وإن اجتمعت الشهوتان وتساوتا خرج الولد يشبه أعمامه وأخواله.

(١) أعلكت: أمضغت ، وأعلكته اللجام: دسسته في فيه ، وقوله: إذا بدت نواجذ لحييه ، أي إذا فتح فاه ، والنواجذ: أقصى الأضراس.

(٢) ويروى صدر هذا البيت: «أعيرتني عزاً قديماً وسادة» الباذخ الأشم: الشامخ الرافع الرأس.

(٣) ويروى: «هل الأصل مني حيثما كنت أنني» المزنيون: نسبة إلى مزينة إحدى قبائل مضر ، المصفون: الذين يتصفون.

(٤) القيم: الطريق السوي الذي لا عوج فيه.

(٥) خندفية: نسبة إلى خندف ، امرأة إلياس بن مضر بن نزار واسمها ليلى بنت حلوان غلبت على نسبة أولادها منه ، وذكروا أن إبل إلياس انتشرت ليلاً ، فخرج مدركة في بغائها فردها فسمي مدركة ، وخندفت الأم في أثره (أي هرولت) فسميت خندف ، وأما قوله: «فمالك فيهم قيد كفّ ولا قدم» إنما أراد لا كف له يقود بها أزمتهم ولا قدم له في رياستهم.

(٦) الحزن: ما غلظ من الأرض ، أجلوا: انكشفوا عن مواضعهم ، أراد تذكيره بأن عزهم قديم وتليد.

(٧) يقول: إنهم كالأسود الضارية عند احتدام الوغى ، وكالرياح في إقراء الضيوف ، يوفون بعهودهم لمن يستجير بهم.

(٨) أوس وعثمان: ولدا عمرو بن أدّ ، وأمهما مزينة بنت كلب بن وبرة ، المساعير: الذين يوقدون الحرب ويسعرونها ، الدعم: الواحدة دعامة: ما يدعم بها البيت والبناء ، أراد أنهم يؤكل إليكم جليل الأعمال وعظيمها ، انظر الديوان ، ص٦٨ ـ ٧٤.

نماذج من شعره:

وقد كان لكعب سبق إلى المعاني الشعرية تحدث فيها عن شيء فقلده الشعراء في ذلك، ومما سبق إليه كعب بن زهير فأخذه الشعراء منه كذي الرمة، والطِّرماح بن حكيم، ما كان في قصيدته الطويلة التي مطلعها:

ألا بَكَرَتْ عِرْسِي تَلُومُ وتَعْذِلُ ... وغَيْرُ الَّذي قَالَتْ أَعَفُّ وأَجْمَلُ

وهنا نذكر قصيدته الكاملة، حتى يتبين ما قد سبقه كعب إلى المعاني الشعرية التي تركها مثالاً للشعراء:

ألا بَكَرَتْ عِرْسِي تَلُومُ وتَعْذِلُ ... وغيرُ الَّذي قَالَتْ أَعَفُّ وأَجْمَلُ(١)

ولمَّا رَأَتْ رأسِيْ تَبَدَّلَ لَوْنُهُ ... بَيَاضاً عَنِ اللونِ الَّذي كانَ أَوَّلُ

أرنَّتْ من الشَّيبِ العَجيبِ الذي رَأَتْ ... وهل أنتِ منِّي وَيْبَ غَيْرِكِ أَمْثَلُ(٢)

كِلانَا عَلَتْهُ كَبْرَةٌ فكأَنَّمَا ... رَمَتْهُ سِهَامٌ في المَفَارِقِ نُصَّلُ(٣)

وقد أَشْهَدُ الكأسَ الرَّوِيَّةَ لاهِياً ... أُعَلُّ قُبَيْلَ الصُّبْحِ منها وأُنْهَلُ(٤)

يُنَازِعُنِيهَا لِيِّنٌ غيرُ فَاحِشٍ ... مُبَادِرُ غَايَاتِ التِّجَارِ مُعَذَّلُ(٥)

إذا غَلَبَتْهُ الكأسُ لا مُتَعَبَّسٍ ... حَصُورٌ ولا مِنْ دُوْنِهَا يَتَبَسَّلُ(٦)

وليسَ خَلِيلِي بالمَلُولِ ولا الَّذي ... يَلُومُ على البُخْلِ البَخيلَ ويَبْخَلُ

لنا حاجَةٌ في صَرْحَةِ الحَيِّ بعدَما ... بَدَا لهُمْ أن يَظْعَنُوا فتَحمَّلُوا(٧)

---

(١) ويروى: «علام غدت عرسي» والعرس: الزوجة.

(٢) أرنت: أظهرت الخوف والجزع، يقول: لست بأمثل مني فقد أصابك ما أصابني من الشيب والكبر، ويب: دعاء يفيد الذم والسب.

(٣) شبه الشيب بسهام لا نصال لها وقد ألبسه خماراً أبيض وذهب بسواد شعره.

(٤) الروية: المملوءة، أعل وأنهل: أُسْقَى منها المرة بعد المرة، أراد أنه ما زال يلهو ويتعاطى الخمرة شأن الشباب.

(٥) ينازعني: من المنازعة: المجاذبة، المعاطاة، وقوله: غير فاحش: أي دمث الخلق لين الطباع، المبادر: الذي يبادر إلى الشراب لئلا يسبقه إليه غيره، وهو أيضاً الذي يبادر لابتياع ما يختاره من الخمر قبل الناس، والمعذل: الملوم.

(٦) أراد أنه لا يعبس في وجود ندمائه إذا أخذت فيه الكأس، وقال بعضهم: معناه أنه لا يسادم ولا يعبس ولا يعربد، والحصور: الضيق الخلق، الممسك البخيل.

(٧) صرحة الحي: ساحته، يظعنون: يرحلون.

نَشَاوَى نَديمُ الكأسِ منها مُرَنَّحٌ ... وعِيْسٌ مُنَاخَاتٌ عَليهِنَّ أَرْحُلُ(١)

وجَحْلٌ سَلِيمٌ قد كَشَفْنا جِلالَهُ ... وآخرُ في أَنْضَاءِ مِسْحٍ مُسَربَلُ(٢)

وصَرْماءَ مِذكَارٍ كأنَّ دَوِيَّهَا ... بُعَيْدَ جَنَانِ اللَّيلِ مما يُخَيَّلُ(٣)

حَديثُ أَنَاسِيٍّ فلمَّا سَمعتُهُ ... إذا ليسَ فيهِ ما أَبِيْنُ فأعقِلُ(٤)

قطَعتُ يُماشِيني بها مُتَضَائِلٌ ... منَ الطُّلْسِ أَحْيَاناً يَخُبُّ ويَعْسِلُ(٥)

يُحِبُّ دُنُوَّ الإنسِ منهُ وما بِهِ ... إلى أحدٍ يوماً منَ الإنسِ مَنْزِلُ(٦)

تَقَرَّبَ حتَّى قلتُ لم يَدْنُ هكَذا ... منَ الإنسِ إلا جاهلٌ أو مُضَلَّلُ(٧)

مَدَى النَّبْلِ تَغْشَاني إذا ما زَجَرتُهُ ... قُشَعْرِيرَةٌ مِنْ وَجْهِهِ وهو مُقْبِلُ(٨)

إذا ما عَوَى مُستقبِلُ الرِّيحِ جاوَبَتْ ... مَسامِعُهُ فَاهٌ على الزَّادِ مَعْوَلُ(٩)

كَسُوبٌ إلى أَنْ شَبَّ من كَسْبِ واحدٍ ... مُحَالِفُهُ الإقْتَارُ لا يَتَمَوَّلُ(١٠)

---

(١) العيس: الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف، المناخات: البارکات.

(٢) الجحل: الزق، وخص بعضهم به العظيم منها، وسقاء جحل: ضخم عظيم، الجلال: الغطاء، أنضاء: خلقان، المسح: الكساء من الشعر.

(٣) الصرماء: الأرض التي لا نبت فيها ولا ماء، المذكار: التي لا يسلكها إلا الذكور من الرجال، الدوي: الصوت أو ما يصدر عن الجن من عزيف، جنان الليل: ظلمته.

(٤) أراد أنه يسمع همهمة لا تفهم، وذلك لأن المكان خال، وقال بعضهم: إنما المراد كأن عزيف الجن حديث أناسي.

(٥) الطلس: في لونه غبرة إلى الاسوداد، يعسل: مسرعاً ويضطرب في عدوه وهزّ رأسه، أراد أنه قطع هذه الفلاة الموحشة فلم يجد فيها غير الذئب يماشيه ويباريه.

(٦) المنزل هنا: النزول.

(٧) ورواية الأصمعي: «تقرب حتى قلت ما كان كائناً» أراد أنه ما من جاهل أو ضال يتقدم هذا التقدم، لأنه أصبح على مرمى النبل.

(٨) ويروى: «مدى الرمح» و«مدى الصوت».
يقول: إنه مكّنني من نفسي، فهو بمقدار طول الرمح أو كقدر رمية السهم، وقد غشيتني قشعريرة عندما رأيته كاشراً وهو مقبل نحوي.

(٩) يقول: إذا قابل الريح مصوتاً دخلت في فمه ثم خرجت من مسامعه لخلوّ جوفه من الزاد.

(١٠) المراد: إنه كسوب للمعدوم الذي يتعسر على غيره، وقد زعموا أن كعباً كان في غنيمات له فأولع الذئب بها حتى أتى على أكثرها وأفناها، فقال: مِنْ كَسْبِ واحد، أي: مما اكتسبت أنا، ثم وصف نفسه بالإقتار ومحالفة الفقر له.

كأنَّ دُخانَ الرِّمْثِ خالَطَ لَوْنَهُ ... يُغَلُّ بهِ مِنْ باطنٍ ويُجَلَّلُ[1]

بَصِيْرٌ بأدْغالِ الضِّراءِ إذا خَدا ... يَعِيْلُ ويَخْفى بالجَهادِ ويَمْثُلُ[2]

تَراهُ سَمِيْناً ما شَتَا وكأنَّهُ ... خَمِيٌّ إذا ما صافَ أو هوَ أهْزَلُ[3]

كأنَّ نَساهُ شِرْعَةٌ وكأنَّهُ ... إذا ما تَمَطَّى وِجْهَةَ الرِّيحِ محْمَلُ[4]

وحَمْشٌ بصيرُ المُقلَتَيْنِ كأنَّهُ ... إذ ما مَشَى مُسْتكرِهَ الرِّيحِ أقْزَلُ[5]

يَكادُ يَرى ما لا تَرى عينُ واحدٍ ... يُثِيْرُ لهُ ما غَيَّبَ التُّرْبَ مِعْوَلُ[6]

إذا حَضَرانِي قلتُ لو تَعْلمانِهِ ... ألَمْ تَعْلَمَا أنِّي منَ الزَّادِ مُرْمِلُ[7]

غُرابٌ وذئبٌ يَنْظُرانِ متَى أرَى ... مُناخَ مَبِيْتٍ أو مَقيْلاً فأنْزِلُ[8]

أغَارا على ما خَيَّلَتْ وكِلاهُما ... سَيُخْلِفُهُ مِنِّي الَّذي كانَ يَأْمَلُ[9]

كأنَّ شُجَاعَيْ رَمْلَةٍ درَجَا معاً ... فمَرَّا بنا لَوْلا وقُوفٌ ومَنْزِلُ[10]

---

(١) الرمث: نبات يرعى، من الحمض، كثير في بادية الشام شبهه بدخان الرمث لأنه أبيض تشوبه غبرة هائلة إلى الزرقة، يغل به: يدخل في آباطه وقوائمه.

(٢) الأدغال: الواحد دغل: الشجر الكثير الملتف، الضراء: الاستخفاء، يقال: «هو يمشي الضراء» إذا مشى مستخفياً في ما يواريه من الأشجار، خدا: أسرع وزج بقوائمه، يعيل: لعله من عال في الأرض: ضرب فيها وذهب ودار، الجهاد بفتح الجيم: الأرض الغليظة الصلبة المستوية لا نبات فيها، يقال: أرض جهاد، وفي الحديث: نزل رسول الله ﷺ بأرض جهاد، وثمر الأراك أيضاً، يمثل: يظهر ويبين.

(٣) وصَفه بالسمن في الشتاء لأنه يأكل من الأشلاء، وبالضمور في الصيف، وهذا شأن السباع.

(٤) النَّسا: عرق في الساق من الورك، الشرعة: الوتر، شبه نساه بالوتر لضموره وهزاله.

(٥) الحمش: دقيق الساقين، مستكره الريح: أي إذا استقبل الريح ترده لضعفه، الأقزل: الأعرج.

(٦) ويروى «عين ناظر» مكان «عين واحد»، أراد أنه يرى ما لا تراه عين أحد، وذلك لمدّه بصره، فهو ليستخرج مما غيبه التراب وطواه الثرى.

(٧) المرمل: الذي نفد زاده، قال بعضهم: توجه بخطابه للذئب والغراب فقال: إنكما طمعتما في غير مطمع.

(٨) ويروى عجزه: «مقيل نهار أو مبيتاً فأنزل» والمبيت يكون ليلاً، أما المقيل فيكون في الهاجرة، أي في منتصف النهار.

(٩) على ما خيلت: أي على ما شبه لهما.

(١٠) الشجاعان: مثنى الشجاع وهي الحية، شبه زمامي ناقته عندما مدت عنقها بشجاعين يتلويان في الرمال.

فلَمْ يَجِدا إلا مُناخَ مَطِيَّةٍ ... تَجافَى بها زَوْرٌ نَبيلٌ وكَلْكَلُ[1]

ومَضْرِبَهَا تحتَ الحصَى بجِرَانِها ... ومَثْنَى نَوَاجٍ لم يَخُنْهُنَّ مَفْصِلُ[2]

وأتْلَعُ يُلْوَى بالجَدِيْلِ كأنَّهُ ... عَسِيْبٌ سقَاهُ من سُمَيْحَةَ جَدْوَلُ[3]

ومَوْضِعَ طُولِيٍّ وأحْنَاءَ قاتِرٍ ... يَئِطُّ إذا ما شُدَّ بالنَّسْعِ مِنْ عَلُ[4]

وسُمْرٌ ظِمَاءٌ واتَرَتْهُنَّ بعدَما ... مضَتْ هَجْعَةٌ من آخرِ الليلِ ذُبَّلُ[5]

سَفَى فوقَهُنَّ التُّرْبَ ضَافٍ كأنَّهُ ... على الفَرْجِ والحَاذَيْنِ قِنْوٌ مُذَلَّلُ[6]

ومُضْطَمِرٌ من خَاشِعِ الطَّرفِ خائِفٌ ... لِمَا تَضَعُ الأرضُ القَوَاءُ وتَحمِلُ[7]

أنَخْتُ قَلُوصِي واكتلأتُ بِعَيْنِها ... وآمَرْتُ نَفْسِي أيَّ أمْرَيَّ أفعَلُ[8]

أأكلؤُها خَوْفَ الحَوادثِ أنَّها ... تَرِيْبُ على الإنسَانِ أم أتَوَكَّلُ[9]

---

(١) تجافى: تنحّى ولم يلزم مكانه، الزور: ملتقى أطراف عظام الصدر، النبيل: الفخم الجسيم، الكلكل: الصدر أو ما بين الترقوتين.

(٢) المضرب: العظم الذي فيه مخ، الجران: باطن العنق، وهو ما ولي التراب من عنقها، وقوله: مثنى نواج: يريد إنها ثنت قوائمها، أي: عطفت يديها ورجليها عند البروك.

(٣) الأتلع: الطويل العنق، الجديل: الزمام، العسيب: جريد النخل الذي كشط خوصه، سميحة: موضع، وقيل: بئر بالمدينة، وقيل: بئر بناحية قديد. وقال نصر: سميحة بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء، معجم البلدان: ٣/ ٢٥٥.

(٤) الطوليّ: لعله الحبل الطويل، الزمام، القاتر: اللطيف اللين من الرحال الذي يقي ظهر الناقة ولا يجرحه، الأحناء: عيدان الرحل، يئط: يصوّت، النسع: حبل طويل عريض تشد به الرحال.

(٥) السمر: البعر، الظمأ: اليابسات، واترتهنّ: تابعتهن، أراد أنه مضى على ناقته أيام لم تشرب الماء فخرجت بعراتها يابسة متتابعة، ولو كانت رطبة لجاءت معاً.

(٦) سَفَى الترب: ذراه وبدده، الضافي: الذنب الطويل، الحاذان: مثنى الحاذ: وهو مؤخر الفخذ، القنو المذلل: العذق المهيأ المستوي.

(٧) المضطمر من الاضطمار: الانضمام، خاشع الطرف: منكسره من الإعياء، القواء: القفر التي لا نبت فيها، وقوله: «لما تضع الأرض» أي هو خائف أن يقع إلى الأرض من على ظهر الناقة، لما ترفع وتضع من سبع وحية.

(٨) القلوص: الناقة الشابة، اكتلأت بعينها: أي جعلتها تحرمني، ورواية صدر البيت في لسان العرب: «أنخت بعيري واكتلأت بعينه» أراد: شاورت نفسي ماذا أفعل، أأنام محترساً بعينها لأنها إذا رأت شيئاً ذعرت فأستيقظ لفزعها أم أرحل متوكلاً على الله؟

(٩) أأكلؤها: أأحفظها، تريب: تأتي بريب، والريب هنا ما يحدث لك من أذى.

فأقسَمْتُ بالرَّحمنِ لا شيءَ غيرُه ... يمينَ امرِئٍ بَرٍّ ولا أَتحلَّلُ[1]
لأستَشْعِرَنَّ أعلَى دَرِيْسَيَّ مُسْلِمَاً ... لِوَجْهِ الَّذي يُحْيي الأنامَ ويَقْتُلُ[2]
هوَ الحافِظُ الوَسْنانُ بالليلِ مَيِّتاً ... على أنَّهُ حَيٌّ منَ النَّومِ مُثْقَلُ[3]
منَ الأَسْودِ السَّارِيْ وإن كانَ ثائِراً ... على حَدِّ نَابَيْهِ السِّمَامُ المُثَمَّلُ[4]
فلمَّا استَدارَ الفَرْقَدانِ زَجَرْتُها ... وهَبَّ سِمَاكٌ ذُوْ سِلاحٍ وأعْزَلُ[5]
فحَطَّتْ سَرِيْعاً لم يَخُنْهَا فُؤادُها ... ولا عَينُها من خَشْيةِ السَّوطِ تَغْفُلُ[6]
يُقَطِّعُ سَيْرَ النَّاعِجاتِ ذَمِيْلُها ... نَجَاءً إذا اختَبَّ النَّجَاءُ المُعَوَّلُ[7]
مُنَفَّجَةُ الدِّفَّيْنِ طُيِّنَ لَحْمُهَا ... كما طُيِّنَ بالضَّاحِي منَ اللِّبْنِ مِجْدَلُ[8]
ودَفٌّ لها مِثْلُ الصَّفَاةِ ومِرْفَقٌ ... عَنِ الزَّوْرِ مَفْتُولُ المُشَاشَةِ أَفْتَلُ[9]

(١) بر: غير آثم ، لا أتحلل: لا أستثني.

(٢) أستشعر: ألبس ، الدريس: الثوب الخلق البالي ، يقول: أتوكل على الله وأنام مسلماً وجهي له إنه يفعل ما يشاء وهو الذي يحيي ويميت.

(٣) ورواية صدر البيت أيضاً: «هو الكالئ الوسنان ليلاً وقلبه» الوسنان: النائم ، أو من أخذه ثقل النوم واشتد نعاسه.

(٤) الأسود الساري: الحية التي تأتي ليلاً ، الثائر: الذي يطلب بثأره ، المثمّل: المجمع ، يقول: الله الحافظ من هذه الأشياء المهلكة.

(٥) الفرقدان: مثنى فرقد ، نجم قريب من القطب الشمالي يهتدى به ، السماك: وهما سماكان ، أحدهما السماك الأعزل ، والآخر السماك الرامح ، والذي هو من منازل القمر وبه ينزل القمر وهو شآم ، وسُمّي أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعزل الذي لا رمح له ، ويقال: سمي أعزل لأنه إذا طلع لا يكون في أيامه ريح ولا برد ، وهو أعزل منها ، والرامح وليس هو من المنازل ، ولا نوء له وهو إلى جهة الشمال ، انظر لسان العرب: ١٠/ ٤٤٤.

(٦) حطت: اعتمدت في الزمام على أحد شقيها.

(٧) الناعجات: الإبل ، الذميل: ضرب من مسير الإبل ، وقيل: هو السير اللين ، النجاء: السرعة في السير ، اختب: راوح بين يديه ورجليه ، أي قام على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة «إما خبت وإما بركت» المعول: المحمّل.

(٨) المنفجة: التي خرجت خواصرها ، أو الواسعة الجنبين ، الدفان: مثنى دف: الجنب ، الضاحي: الظاهر للشمس ، المجدل: القصر المشرف لوثاقة بنائه ، ومنه قول الأعشى:

في مجدل شدّد بنيانه ... يزل عنه ظفر الطائر

(لسان العرب: ١١/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٩) الصفاة: الصخرة الملساء ، الزور: الصدر ، المشاشة: رأس العظم اللين الذي يمكن مضغه ، =

وسَالِفَةٌ رَيَّا يُبَلُّ جَدِيْلُهَا ... إذا ما عَلاَها مَاؤُهَا المُتَبَزِّلُ[1]
وصَافِيَةٌ تَنفي القَذَاةَ كأنَّها ... على الأَيْنِ يَجْلُوها جِلاءٌ وتُكْحَلُ[2]
فمَنْ للقَوَافِيْ شَانَهَا مَنْ يَحُوكُها ... إذا ما ثَوى كعبٌ وفَوَّزَ جَرْولُ[3]
يَقُولُ فلا يَعْيَا بشَيءٍ يَقولُهُ ... ومِنْ قائِلِيْها مَنْ يُسِيءُ ويَعْمَلُ[4]
يُقَوِّمُها حتَّى تَقُومَ مُتُونُها ... فَيَقْصُرُ عنها كُلُّ ما يَتَمَثَّلُ[5]
كَفَيتُكَ لا تَلْقَى منَ النَّاسِ شاعِراً ... تَنَخَّلَ منها مِثْلَ ما أتَنخَّلُ[6]

ومما يستجاد لكعب بن زهير شعره الذي قاله في مقتل جُؤَيِّ بن عائذٍ من مزينة ، ومن قصته أنه مر على الأوس والخزرج وهم يقتتلون فأصيب ، فمر به ثابت أبو حسان بن ثابت الشاعر ، فقال: يا أخا مزينة! ما طرحك هذا المطرح؟ فقال جؤي وهو يجود بنفسه: أعطي الله عهداً ليُقْتَلَنَّ بي منكم خمسون ، ليس فيهم أعور ولا أعرج.

وسارت كلمة جؤي حتى أتت عَمَقَ (موضع قرب المدينة) وهي بلاد مزينة ،

= وجعلها فتلاً لئلا تمس مرافقها زورها فيصيبها انفتاق أو ورم في إبطها.

(١) السالفة: صفحة العنق عند معلق القرط ، الرّيا: الكثيرة اللحم ، الناعمة ، الجديل: الزمام ، الماء هنا: العرق ، المتبزل: المتقطر.

(٢) الصافية: العين ، وقد جعل الصفة مكان الموصوف ، تنفي القذاة: تنحي ما يقع في عينها ، وليس هذا المراد ، إنما معناه أنها لم تُقَذْ قط ، الأين: التعب والنصب ، الجلاء: الكحل.

(٣) ثوى: هلك ، فوّز: مات ، وبشأن هذا البيت وما يليه قيل: إن الحطيئة قال لكعب بن زهير: قد علمتم روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعدك ، فإن الناس أروى لأشعاركم ، فقال كعب: فمن للقوافي.. (الأبيات) انظر الشعر والشعراء ، ص ٦٩. والأغاني: ٢/ ١٦٥.

ومنه قول الكميت:

ومـا ضـرّهـا أن كعبـاً ثـوى ... وفَـوَّزَ مـن بعـده جـرولُ

(لسان العرب: ١٤/ ١٢٦).

(٤) ورواية صدر البيت: «نقول فلا نعيا بشيء نقوله». وقوله يعمل: يريد يتصنع ويتكلف.

(٥) ويروى: «حتى تلين متونها» أراد أنه يقوّم القوافي كما تقوّم السهام فيقصر دونها كل ما يضرب مثلاً.

(٦) تنخّل: اصطفى واختار.

فثاروا يريدون الخزرج طالبين بدم جؤي ، والتقى جمعان بيثرب فاقتتلوا فقتل من الخزرج عدة ، وأسر ثابت بن منذر ، فأقسم مقرن (رئيس بني مزينة) لا يأخُذُ فداءَه إلا تيساً أسودَ لا قرن له ، ولما رأوا أنه لا بدّ من ذلك جاء تيس أسود أجمّ ، فذبحه مقرن بسوق عكاظ وأطعم الناس لحمه : وقال ابن الكلبي : إنما كان ذلك ببعاث ، المأسور هو حسان ، وليس ثابتٌ أبوه ، وزاد بقوله : ولما حلف مقرن أنه لا يقبل الفداء إلا تيساً أسود أجمّ ، أتوا حسان فقالوا : ما ترى؟ وغضبوا ، فقال : ما لكم تغضبون؟ ! ادفعوا إلى القوم أخاهم ، وخذوا منهم أخاكم ، وإليكم شعره :

لَقَـدْ ولَّـى أَلِيَّتَـهُ جُـؤَيٌّ ... مَعـاشِـرَ غَيْـرَ مَطْلُـولٍ أخُـوهـا[1]
فـإنْ تَهْلِـكْ جُـؤَيٌّ فكُـلُّ نَفْـسٍ ... سَيَجْلُبُهَـا لِـذَلِـكَ جَـالِبُـوهـا
وإنْ تَهْلِـكْ جُـؤَيٌّ فـإنَّ حَـرْبـاً ... كظَنِّـكَ كـانَ بَعْـدَكَ مُـوقِـدُوهـا[2]
ومـا سـاءت ظنونُـكَ يـوم تـولـي ... بـأرمـاحٍ وَفَـى لَـكَ مُشْـرِعُـوهَـا[3]
كـأنَّـكَ كنـتَ تعلَـمُ يـومَ بُـزَّتْ ... ثيـابُـكَ ، مـا سَيَلْقَـى سَـالِبُـوهـا[4]
لنَـذْرِكَ والنُّـذُورُ لهَـا وَفَـاءٌ ... إذا بلَـغَ الخَـزَايَـةَ بـالِغُـوهَـا[5]
صَبَحْنَـا الخَـزْرَجِيَّـةَ مُـرْهَفَـاتٍ ... أبَـادَ ذَوِيْ أرُومَتِهَـا ذَوُوْهـا[6]
فمَـا عُتِـرَ الظِّبـاءُ بحَـيِّ كَعْـبٍ ... ولا الخَمْسـونَ قصَّـرَ طـالِبُـوهـا[7]
فمَـا قُلْنـا لهُـمْ نَفْـسٌ بنَفْـسٍ ... أقِيْـدُونـا بهـا إنْ لـم تَـدُوهـا[8]

(١) الألية : الحلفة ، يقول : لقد ولى جؤي يمينه قوماً لا تذهب دماؤهم باطلاً .
(٢) قوله : كظنك : أي كان موقدوها بعدك كظنك ، فجعلها خبر كان .
(٣) تولي : تقسم ، يقول : ما ساء ظنك يوم اقتسمت بأرماح وفى لك مسددوها فصدقوا ظنك بهم .
(٤) بزّت : سلبت .
(٥) الخزاية : الهوان والذل ، يقول : لقد استرسل أهل الخزي بغيهم فوجب الوفاء لنذرك .
(٦) المرهفات : الواحد مرهف : السيف الرقيق الحد ، أباد : أهلك ، قوله : «أباد ذوي أرومتها ذووها» كأنما أراد أن الذين صنعوا هذه السيوف مَهَرُوها بأسماء الملوك الذين ضربت لهم .
(٧) ما عتر الظباء : يشير إلى عادة عند العرب وهي أن الرجل منهم إذا نزلت بماله جائحة كان ينذر أو يحلف لئن ردّها الله ليذبحنّ منها لنسكه ، لكنه كان يبخل بعد ذلك فيصيد ظبياً ويذبحه ويسميه : العيرة ، الخمسون : يريد الذين أعطى جؤيٌّ ثابت بن المنذر عهداً بقتلهم وليس فيهم أعور أو أعرج ، يقول : لسنا ظالمين لأحد ، وسوف لا نقتل إلا من حلف جؤي أن نقتله .
(٨) لم تدوها : لم تدفعوا ديتها ، والدية : حق القتيل .

ولَكنَّـا دَفَعْنـاهَـا ظِمَـاءً ... فَـرَوَّاهـا بـذِكْـرِكَ مُنْهِلُـوهَـا[1]
ولَـوْ بلَـغَ القتيـلَ فِعَـالُ حَـيٍّ ... لسَـرَّكَ مـن سُيـوفِـكَ مُنْتَضُـوهـا[2]

ويوصى الشباب بالحلم والعلم ويدعوهم إلى الأخلاق الفاضلة :

صَمُـوتٌ وقَـوَّالٌ فلِلْحِلـمِ صَمتُـهُ ... وبالعلمِ يَجْلُو الشَّكَّ مَنْطقُه الفضلُ
فتىً لم يَدَعْ رُشْدَاً ولم يأتِ مُنْكَراً ... ولم يَذْرِ من فَضْلِ السَّماحةِ ما البُخلُ
بـه أَنْجَبَـتْ للبَـدرِ شَمْـسٌ مُنيْـرةٌ ... مبـاركَـةٌ يَنْمـي بهـا الفَـرعُ والأصـلُ
إذا كـانَ نَجْـلُ الفَحْـلِ بيـن نَجِيْبَـةٍ ... وبيـنَ هِجَـانٍ مُنْجِـبٍ كَـرُمَ النَّجْـلُ

ويقول في حياة المرء وما يسعى إليه ويهتم به ويتطلع إليه والقدر يخبئ له غير ما يريد ، يقول :

لو كنتُ أعجَبُ من شَيءٍ لأعْجَبَنِي ... سَعْـيُ الفَتـى وهْـوَ مَخْبـوءٌ لـهُ القَـدَرُ
يَعْيَـى الفتَـى لأمـورٍ ليـسَ يُـدْرِكُهـا ... والنَّفْـسُ واحـدةٌ والهَـمُّ منتَشِـرُ
والمَـرءُ مـا عـاشَ مَمْـدودٌ لـهُ أمـلٌ ... لا تَنْتَهـي العينُ حتَّـى ينتَهِـيْ الأثَـرُ[3]

ومما يستجاد له كذلك قوله :

إنْ كنـتَ لا تَـرْهَـبُ ذَمِّـيْ لِمـا ... تَعْـرِفُ مـن صَفْحِـيْ عـنِ الجَـاهـلِ
فـاخْـشَ سُكـوتِـيْ إذ أنـا مُنْصِـتٌ ... فيـكَ لمَسْمُـوعِ خَنَـا القَـائـلِ
فـالسَّـامـعُ الـذَّامُّ شَـريـكٌ لـهُ ... ومُطْعِـمُ المَـأكـولِ كـالآكِـلِ
مَقَـالَـةُ السُّـوءِ إلـى أهلِهَـا ... أسْـرَعُ مـن مُنْحـدَرٍ سَـائـلِ
ومَـنْ دَعـا النَّـاسَ إلـى ذَمِّـهِ ... ذَمُّـوهُ بـالحـقِّ والبَـاطـلِ[4]

ويروى البيتان التاليان كذلك :

وليـس لمـن لـم يـركـبِ الهَـوْلَ بُغْيَـةً ... وليـس لـرحْـلٍ حَطَّـهُ اللهُ حـامِـلُ

(١) دفعناها : الهاء عائدة إلى السيوف ، يقول : شرعنا سيوفنا ظمأى فرواها قاتلوك بدمائهم .
(٢) يقول : لو بلغك أيها القتيل أفعال قومك من بعد لسرّك ما فعلوا ولعجبت بصنيعهم ، والغاية أنهم وفوا بما أقسم به ، وما خيبوا له ظناً .
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ق/ ٣ ، ص/ ١٣١٥ ، ويروى عجز البيت : و«لا تنتهي العين ما لم ينته الأثر» يعني أمله مبسوط له ، وإنما يأتيه ما قُدر له ، ومن ورائه الموت .
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٣/ ١٣١٥ .

إذا أنتَ لم تُقْصِرْ عنِ الجَهْلِ والخَنَا ... أصَبْتَ حَلِيْماً أو أصَابكَ جَاهِلُ[1]

إسلامه ومشاركته في الغزوات:

وتأخر إسلام كعب بن زهير عن أخيه بجير بن زهير الذي أتى النبي الكريم ﷺ بعدما بُعث، فأسلم ثم رجع إلى بلاد قومه يدعوهم إلى الإسلام، وكان في قومه بعض الخلاف، فأسلم ناس كثيرون، وهنالك قال هذه القصيدة:

رحَلْتُ إلى قَوْمي لأدعُوَ جُلَّهُمْ ... إلى أمرِ حَزْمٍ أحكَمَتْهُ الجَوَامِعُ[2]
ليُوفُوا بما كَانُوا عليهِ تَعاقَدوا ... بخَيْفِ مِنًى واللهُ رَاءٍ وسامِعُ[3]
وتُوْصَلَ أرحامٌ ويُفْرَجَ مُغْرَمٌ ... وترجِعَ بالوُدِّ القَديمِ الرَّوَاجِعُ[4]
فأبلِغْ بها أفْنَاءَ عُثْمانَ كلَّها ... وأوْسَاً فبلِّغها الَّذي أنا صانِعُ[5]
سأدْعُوهُمُ جَهْدي إلى البِرِّ والتُّقى ... وأمْرِ العُلا ما شايَعَتْني الأصَابِعُ[6]
فكُوْنُوا جمِيْعاً ما استطَعْتُم فإنَّهُ ... سَيَلْبَسُكُمْ ثوبٌ منَ اللهِ واسِعُ[7]
وقُوْموا فآسُوا قومَكُمْ فاجْمَعُوهُمُ ... وكُوْنوا يَداً تَبْنِي العُلا وتُدافِعُ[8]
فإنْ أنتُمُ لم تَفْعَلوا ما أَمَرْتُكُمْ ... فأوْفُوا بها، إنَّ العُهودَ ودَائِعُ[9]
لَشتَّانَ مَنْ يَدْعو فيُوْفِي بعَهْدِهِ ... ومَنْ هُوَ للعَهْدِ المُؤكَّدِ خالِعُ[10]

---

(١) ديوانه، ص ٨٠.
(٢) جلهم: سادتهم وعظامهم، جوامع الأمور: وثائقها ومجتمعها.
(٣) ليوفوا: ليبروا بوعدهم، تعاقدوا: تواثقوا، الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من منى (معجم البلدان: ٢/ ٤١٢).
(٤) المغرم هنا: الأسير.
(٥) الأفناء: الأخلاط، يقال: رجل من أفناء القبائل أي: لا يدري من أي قبيلة هو، أوس وعثمان: ولدا عمرو بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر، من عدنان، وأمهما مزينة بنت كلب بن وبرة، من نسلها كعب بن زهير وكثيرون (جمهرة الأنساب، ص ١٩٠ ـ ١٩٢).
(٦) ويروى: «سأدعوهم جهراً» وقوله: ما شايعتني الأصابع، أي ما دمت حياً.
(٧) ورواية عجزه أيضاً: «سيشملكم ثوب من العز واسع».
(٨) آسوا قومكم: أصلحوا شؤونكم.
(٩) ورواية عجزه أيضاً: «فأوفوا بعهد والعهود ودائع».
(١٠) يقول: شتان بين من يبر بعهده، وبين من لا يفي به ولا يرعى له ذماماً.

إلَيْكَ أبا نَصْرٍ أجَازَتْ نَصِيحَتِي ... تُبَلِّغُهَا عنِّي المَطِيُّ الخَواضِعُ[1]
فأوْفِ بما عاهَدْتَ بالخَيْفِ من مِنًى ... أبا النَّصْرِ إذ سُدَّتْ عليكَ المَطَالِعُ
فنحنُ بَنُو الأشيَاخِ قد تَعْلَمونَهُ ... نُذَبِّبُ عن أحسَابِنا ونُدافِعُ[2]
ونَحْبِسُ بالثَّغْرِ المَخُوفِ مَحَلُّهُ ... لِيُكْشَفَ كَربٌ أو لِيُطْعَمَ جائعُ[3]

ولما هاجر النبي الكريم ﷺ أتاه بالمدينة، وشهد مع الرسول الكريم ﷺ غزوة حنين وغزوة الطائف ويوم خيبر، وشهد فتح مكة، وقال في ذلك:

نَفَى أهلَ الحَبَلَّقِ يَومَ وَجٍّ ... مُزَينَةُ جَهْرَةً وبَنُو خُفَافِ[4]
صَحِبْناهُمْ بألفٍ مِنْ سُلَيْمٍ ... وألفٍ مِنْ بَني عُثْمانَ وَافِ[5]
حَدَوا أكتَافَهُمْ ضَرْباً وطَعْناً ... ورَمْياً بالمُرَيَّشَةِ اللِّطَافِ[6]
رَمَيْناهُمْ بشُبَّانٍ وشِيْبٍ ... تُكَفْكِفُ كلَّ مُمْتَنِعِ العِطَافِ[7]
تَرى بينَ الصُّفوفِ لهُنَّ رَشْقاً ... كما انْصَاعَ الفُواقُ عنِ الرِّصَافِ[8]
تَرى الجُرْدَ الجِيَادَ تَلُوحُ فِيهِمْ ... بأرمَاحٍ مُقَوَّمَةِ الثِّقَافِ[9]

---

(١) الخواضع: الجادة في سيرها.
(٢) نذبّب عن أحسابنا: ندافع عن شرفنا وعن عريق أصلنا.
(٣) الثغر: كل موضع قريب من أرض العدو، كأنه مأخوذ من الثغر، وهي الفرجة في الحائط، وهو في مواضع كثيرة، منها: ثغر شام، وثغر أسفيجات، وثغر فرادة وغيرها، انظر معجم البلدان: ٢/ ٨٠ ـ ٨١.
(٤) الحبلّق: الغنم الصغار، وجاء في الروض الأنف: «الحبلق»: أرض تسكنها قبائل من مزينة وقيس، وجّ: الطائف، وقيل: سميت وجّاً بوجّ بن عبد الحق من العمالقة.
(٥) بنو عثمان: من مزينة، الوافي: التام.
(٦) ورواة هذا البيت في الأغاني:
وفي أكنافهم طعن وضرب ... ورشق بالمريّشة اللطاف
المريَّشة: السهام، حدوا: تبعوا.
(٧) العطاف، الواحد عطف: جانبا الرجل من رأسه إلى وركيه.
(٨) ورد في صدر البيت: «لها حفيفاً» بدل: «لهن رشقاً»، انصاع: خرج من موضعه، الفواق: يقول السهيلي في الروض الأنف: أراد بالفواق الفوق وهو غريب، الرصاف: عقب يُشد على الفوق.
(٩) الجرد: الخيول القصيرة الشعر، مقومة الثقاف: أي مقومة التثقيف. والثقاف حديدة يقوّم بها الشيء المعوج.

ورُحْنا غَانِمينَ بما أَرَدْنا ... ورَاحُوا نادِمينَ على الخِلافِ[1]
وأعْطَيْنا رسولَ الله منَّا ... مَوَاثيقاً على حُسْنِ التَّصَافي[2]
فجُزْنا بَطْنَ مكَّةَ وامتَنَعْنا ... بتَقْوى الله والبِيْضِ الخِفَافِ[3]
وحَلَّ عَمودُنا حَجَرَاتِ نَجْدٍ ... فَأَلْيَةَ فالقُدُوسَ إلى شَرافِ[4]
أرادُوا اللاَّتَ والعُزَّى إلَهاً ... كفَى باللهِ دونَ اللاَّتِ كَافِ[5]

هذا ما رواه الأصفهاني في «الأغاني» ، وتحدث ابن هشام في «السيرة» فقال:

«فلما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف بعد القتال والحصار ، قال بجير بن أبي سلمى يذكر حنيناً والطائف»:

كانَتْ عُلالَةُ يومَ بَطْنِ حُنَيْنِ ... وغَداةَ أَوْطَاسٍ ويومَ الأَبْرَقِ[6]
جَمَعَتْ بإِغْواءِ هَوَازِنُ جَمْعَهَا ... فتَبَدَّدوا كالطَّائرِ المُتمزِّقِ
لم يَمْنَعوا منَّا مَقاماً واحِداً ... إلا جِدارَهُمُ وبَطْنَ الخَنْدَقِ
ولقَدْ تعَرَّضْنا لكَيْمَا يَخْرُجوا ... فتَحصَّنُوا منَّا ببَابٍ مُغْلَقِ
تَرْتَدُّ حَسْراناً إلى رَجْرَاجَةٍ ... شَهْبَاءَ تَلمَعُ بالمَنَايَا فَيلَقِ[7]

---

(١) أراد: غنمنا من محاربتهم الأجر والثواب ، أما هم فراحوا نادمين على مخالفتهم لرسول الله ﷺ.
(٢) المواثيق: العهود ، التصافي: الألفة والمحبة ، وقد تلا هذا البيت في السيرة ، بيت يقول فيه:
وقد سمعوا مقالتنا فهموا ... غداة الروع منا بانصراف
(٣) جزنا: قطعنا ، البيض الخفاف: السيوف السريعة التأثير والعمل.
(٤) العمود: خباء طويل يضرب على الأعمدة فيقال لأهله: عليكم بأهل ذلك العمود ، أليةُ: ماء من مياه بني سليم ، القدوس: إنما أراد قدس أوارة ، وقدس أوارة جبلان ، يقال: لهما القُدسان: قُدس الأبيض وقُدس الأسود ، شراف: ماء بنجد له ذكر كثير في آثار الصحابة كابن مسعود وغيره.
(٥) اللات: صخرة مربعة شاعت عبادتها في الطائف ، العزّى: إحدى آلهة الجاهلية عبدها العرب قبل الإسلام إلى جانب اللات ومناة.
(٦) أراد من قوله: (علالة) تكرار القتال ، ومعناها في الأصل: الشرب بعد الشرب ، أوطاس: اسم واد في ديار بني هوازن: كانت فيه وقعة حنين.
(٧) حسرى: جمع حسير: بمعنى الكليل ، أو يكون جمع حاسر ، وهو الذي لا درع عليه ، الرجراجة: الكتيبة الضخمة.

ملمُومَةِ الخَضراءِ لو قَذَفُوا بهَا ... حَضَناً لَظَلَّ كأَنَّهُ لم يُخْلَقِ[1]
مَشْيَ الضِّراءِ على الهَرَاسِ كأَنَّها ... قُدْرٌ تفَرَّقَ في القِيادِ وتَلْتَقِي[2]
في كلِّ سَابغَةٍ إذا ما استَحْصنَتْ ... كالنَّهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ المُتَرَقْرِقِ[3]
جُدُلٌ تَمَسُّ فُضُولُهُنَّ نِعَالَنا ... مِنْ نَسْجِ دَاودٍ وآلِ مُحَرِّقِ[4]

زهير بن أبي سلمى يوصي أولاده باللحوق بالنبي الكريم ﷺ:

ذلك لأن زهير بن أبي سلمى كان قد أوصى بَنِيه باللحوق بنبي آخر الزمان الذي سيظهر بعد موته ، وأمرهم بالإيمان به ، كما قد روى الأصفهاني في كتابه «الأغاني» من خبر زهير بن أبي سُلمى ، فقال: إن زُهَيْراً كان نظَّاراً متوقياً ، وأنه رأى في منامه آتياً أتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يمسها بيده ، ثم تركه فَهَوى إلى الأرض ، فلما احتضر قصَّ رؤياه على ولده وقال: إني لا أشك أنه كائنٌ من خبر السماء بعدي شيء ، فإن كان تمسكوا به وسارعوا إليه ، فلما بُعث النبي الكريم ﷺ خرج إليه بُجَيْرٌ بالمدينة وكان من خيار المسلمين ، وشهد يوم الفتح مع رسول الله ﷺ ويوم خيبر ويوم حنين[5].

وذكر البغدادي في «خزانة الأدب» هذا الخبر فزاد فيه بعد قول زهير لبنيه: فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه (ثم توفي قبل المبعث بسنة) وقال: «فلما بُعث النبي الكريم ﷺ ، خرج إليه ولده كعب بقصيدته (بانت سعاد) وأسلم»[6].

ولكن هذه الرواية التي فيها اسم كعب بدلاً من بجير تعارض ما قد رواه أصحاب التراجم ومؤرخو الأدب العربي قديماً وحديثاً ، فإن كعب بن زهير أسلم في سنة

---

(١) ملمومة: مجتمعة: يريد بها الجيش ، حضن: اسم جبل بأعلى نجد.
(٢) ضراء: جمع ضارٍ: المراد بها الوحوش الضواري من الكلاب والأسود ، الهراس: اسم نبات له أشواك.
(٣) النهي: الغدير من الماء ، المترقرق: المتحرك ، صفة للنهي.
(٤) جدل: جمع جدلاء وهي الدرع المحكمة النسج ، محرق: عمرو بن هند ملك الحيرة ، (السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ١٢٩ ـ ١٣٠).
(٥) الأغاني: ١٧/ ٨٥.
(٦) خزانة الأدب للبغدادي: ٢/ ٢٩٣.

ثمانٍ من الهجرة بعد منصرَفِ رسول الله ﷺ من غزوة الطائف وقدم إليه قصيدته التي كان قد صنعَها كمدحة للنبي الكريم ﷺ.

يشهد على ذلك ما جاء في «الاستيعاب» لابن عبد البر يقول في ترجمة كعب بن زهير: «قدم كعب بن زهير على النبي الكريم ﷺ بعد انصرافه من الطائف، فأنشده قصيدته التي أولها: (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول)».

بجير بن زهير يحثُّ أخاه على قبول الإسلام:

ويؤيد ذلك ما رواه ابن هشام في «سيرته» عن أمر كعب بن زهير:

«لما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة، ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وإن من بقي من شعراء قريش، ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب، وقد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك[1] من الأرض وكان كعب بن زهير قد قال:

ألا أبْلِغَا عنِّي بُجَيْراً رِسالَةً ... فهَلْ لكَ فيما قُلْتَ ويْحَكَ هَلْ لَكا؟[2]
فَبَيِّنْ لنَا إن كنتَ لستَ بفَاعلٍ ... على أيِّ شَيْءٍ غيرِ ذلكَ دَلَّكَا[3]
على خُلُقٍ لم أُلْفَ يَوْماً أباً لهُ ... عليهِ وما تُلْفِي عليهِ أباً لَكا
فإنْ أنتَ لم تفعَلْ فلسْتُ بآسِفٍ ... ولا قَائلٍ إمَّا عَثَرْتَ: لعَاً لَكَا[4]
سقَاكَ بها المَأْمُونُ كأساً رَوِيَّةً ... فأنْهَلَكَ المَأمونُ منْهَا وعَلَّكَا[5]

(١) إلى نجائك: أي إلى محل ينجيك منه.
(٢) أبلغا: خطابٌ لاثنين والمراد الواحد، أو خطاب لواحد مؤكد بنون توكيد خفيفة قُلبت ألفاً في الوصل على نية الوقف.
(٣) فبين لنا: أي اذكر لنا مرادك من بقائك على دينك.
(٤) لعاً لك: كلمة تقال للعاثر وهي دعاء له بالإقالة من عثرته، و«إمّا» في الأصل: إن ما، قُلبت النون ميماً وأُدغمت، و«ما» زائدة.
(٥) روية: فعيلة: بمعنى مفعلة، بضم الميم وكسر العين، أي مُروية: والنهل: الشرب الأول والعَلُّ: الشرب الثاني، والمأمون: يعني النبي الكريم ﷺ، كانت قريش تسميه به وبالأمين قبل النبوة، قال الزرقاني: وفي رواية غير ابن إسحاق: «المحمود» وهو من أسمائه ﷺ.

قال ابن هشام: ويروى «المأمور» وقوله: «فبين لنا»: عن غير ابن إسحاق، وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر وحديثه:

مَنْ مُبْلِغٌ بُجَيْراً رِسالَةً ... فهلْ لكَ فيْمَا قُلتُ بالخَيْفِ هَلْ لَكا[1]
شَرِبْتَ معَ المَأمونِ كأساً رَوِيَّةً ... فأنهَلَكَ المأمونُ منهَا وعَلَّكَا
وخالفْتَ أسبابَ الهُدَى واتَّبَعْتَه ... على أيِّ شيءٍ وَيْبَ غَيْرِك دَلَّكَا[2]
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أمَّاً ولا أباً ... عليهِ ولَمْ تُدْرِكْ عليهِ أخاً لَكا[3]
فإنْ أنتَ لم تفعَلْ فلَسْتُ بآسِفٍ ... ولا قَائلٍ إمَّا عثَرْتَ: لعَاً لَكَا

قال: وبعث بها إلى بجير، فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها، فقال رسول الله ﷺ لما سمع: «سقاك بها المأمون»: صدق وإنه لكذوب، أنا المأمون، ولما سمع: «على خلق لم تُلف أماً ولا أباً عليه» قال: أجل، لم يُلف عليه أباه ولا أمه[4].

ثم قال بجير لكعب:

مَنْ مُبْلِغٌ كَعْباً فهَلْ لكَ في الَّتي ... تَلُومُ عليْهَا بَاطِلاً وهْيَ أحزَمُ
إلَى اللهِ (لا العُزَّى ولا اللاَّتِ) وَحْدَهُ ... وتَنْجُو إذا كانَ النَّجَاءُ وتُسْلِمُ
لَدَى يومَ لا يَنْجُو وليسَ بِمُفْلِتٍ ... منَ النَّاسِ إلا طاهِرُ القَلْبِ مُسْلِمُ
فَدِينُ زُهَيْرٍ وهْوَ لا شَيءَ دِيْنُهُ ... ودِينُ أبِي سُلْمَى عليَّ مُحرَّمُ

قال ابن إسحاق:

وإنما يقول كعب: «المأمون» ويقال: «المأمور» في قول ابن هشام لقول قريش الذي كانت تقوله لرسول الله ﷺ.

(١) يريد به خيف منى.
(٢) ويب غيرك: أي هلكت هلاك غيرك، وهو بالنصب على إضمار الفعل.
(٣) قال السهيلي: «إنما قال ذلك لأن أمهما واحدة، وهي كبشة بنت عمار السحمية، فيما ذكر عن ابن الكلبي».
(٤) زاد الزرقاني نقلاً عن ابن الأنباري أن النبي الكريم ﷺ قال: «من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله».

قال ابن إسحاق:

فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأَرجَفَ به[1] من كان في حاضره[2] من عدوّه فقالوا: هو مقتول.

ولعله قال في هذه المناسبة شعره الذي ورد في «أمالي السيد المرتضى»:

«تَعلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ مُدْرِكِيْ وأنَّ وَعِيْداً منكَ كالأَخْذِ باليَدِ»

فلما لم يجد من شيء بداً، قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة كما ذكر لي، فغدَا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، وصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله فقُمْ إليه فاسْتَأمِنْهُ، فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: إنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدوَّ الله أضرِبْ عنقه، فقال رسول الله ﷺ: دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً (عما كان عليه) قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبه، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال في قصيدته التي قالها حين قدم على رسول الله ﷺ وهذا مطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فقَلْبِي اليَومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لم يُفْدَ مَكْبُولُ[3]

(١) أرجف به: خاض في أمره بما يسوءه ويفزعه.

(٢) حاضره: حيّه.

(٣) بانت: فارقت فراقاً بعيداً، وسعاد: اسم امرأة، وقيل: (كما في الزرقاني) هي امرأته وبنت عمه، خصها بالذكر لطول غَيْبته عنها، لهروبه من النبي ﷺ، ومتبول: يعني أسقمه الحب وأضناه، ومتيم: ذليل ومستعبد، ولم يُفدَ: لم يُخلّص من الأسر، ويروى: «لم يُجز» و«لم يُشف» ومكبول: مقيد، يريد الشاعر أن محبوبته فارقته، فصار قلبه في غاية الضنى والسقم والذل والأسر، لا يجد من قيده فكاكاً، ولا يستطيع من سجنه خلاصاً.

وجاء في آخر القصيدة:

يَمْشونَ مَشْيَ الجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمهُمْ ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُودُ التَّنَابِيلُ

وهو يعرِّض في هذا البيت بالأنصار لما ظهر منهم من الشدة والجفاء عند حضوره إلى رسول الله ﷺ مسلماً تائباً.

إنكار كعب وتهديد رسول الله ﷺ له:

ويروي أصحاب التاريخ أن بجيراً وكعباً كليهما كانا قد خرجا بعد بعثة النبي الكريم ﷺ إليه لكي يُسلما، ثم بدا لكعب فتأخر عن الذهاب ورجع إلى أهله، وتقدم أخوه بجير وسمع كلام رسول الله ﷺ وأسلم، الأمر الذي لم يعجب أخاه كعباً، فبقي على الشرك ما أراد الله أن يبقى، ولما هاجر النبي الكريم ﷺ إلى المدينة لحقه أخوه بجير وشهد معه عدة غزوات، وأراد أن يستدعي أخاه كعباً إلى رسول الله ﷺ، فعرض عليه أن يلحق بالنبي الكريم ﷺ، فأنكر ذلك كعب وأجابه بالأبيات التي مطلعها:

ألا أبْلِغَا عنِّيْ بُجَيْراً رِسَالَةً فهَلْ لكَ فِيما قلتَ وَيْحَكَ هَلْ لَكَا

فبلغ رسولَ الله ﷺ شعرُه هذا فتوعده وهدر دمه، فكتب بجير إلى كعب يخبره بأن رسول الله ﷺ قتل رجالاً ممن كانوا يؤذونه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فاقدَمْ عليه فإنه لا يقتل أحداً أتاه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج بنفسك.

أما الرواية التي تقول: إن كعباً وأخاه بجيراً قد خرجا إلى رسول الله ﷺ حتى بلغا أبرق العزَّاف[1]، فقال كعب لبجير: الْقَ هذا الرجل وأنا مقيم لك ههنا، فإن جميع الشواهد تدل على أنها تتعلق بالخروج الأول حينما كانا قد خرجا بعد بعثة النبي الكريم ﷺ، ثم بدا لكعب فتأخّر ورجع إلى أهله، وتقدم بجير فذهب إلى النبي الكريم ﷺ.

ينشرح قلبه للحضور إلى النبي الكريم ﷺ:

وظل كعب على الشرك حتى كانت الهجرة وتم فتح مكة، فكتب إليه أخوه بجير

(١) ماء لبني أسد بن خزيمة، وهو في طريق من يسلك من البصرة إلى المدينة، وفي رواية: أبرق العراق، وهو تحريف.

وكان قد شهد حنيناً والطائف وخيبر ، وشهد فتح مكة الذي أعز الله به الإسلام وأذلّ به الشرك والمشركين ، وبعد منصرفه من الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سُلمى إلى أخيه كعب يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاء إليه تائباً ، وكان كعب قد قال الأبيات التي أهدر النبي الكريم ﷺ دمه من أجلها ، ووقع هذا الكلام في نفس كعب بن زهير وأشفق على نفسه وخاف أن يقتل ، فصنع قصيدته التي يعتذر فيها إلى رسول الله ﷺ ويمدحه :

بَـانَـتْ سُعـادُ فقَلْبِـي اليَـومَ مَتْبُـولُ مُتَيَّـمٌ إثْـرَهـا لـم يُفْـدَ مَكْبُـولُ

يتحدث أبو الفرج الأصفهاني عن وصولِ كعب إلى المدينة وحضوره إلى الرسول الكريم ﷺ فيقول : «ثم أقبل حتى أناخ راحلته بباب مسجد رسول الله ﷺ ، وكان مجلسه من أصحابه مكان المائدة من القوم ، حلقة ثم حلقة ثم حلقة وهو وسطهم ، فيقبل على هؤلاء يحدثهم ، ثم على هؤلاء ثم على هؤلاء ، فأقبل كعب حتى دخل المسجد ، فتخطى حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله! الأمان ، قال : ومن أنت؟ قال : كعب بن زهير ، قال : أنت الذي يقول : كيف . . . قال : يا أبا بكر![1] فأنشده حتى بلغ إلى قوله :

سَقَـاكَ أبُـو بَكْـرٍ بكَـأسٍ رَوِيَّـةٍ وأنْهلَـكَ المَـأمُـونُ مِنْهـا وعَلَّكَـا

فقال رسول الله ﷺ : مأمون والله . ثم أنشده ، يعني كعباً :

«بَانَتْ سُعادُ فقَلْبِي اليومَ مَتْبولُ»

كعب بن زهير يمدح بقصيدته اللامية رسول الله ﷺ :

قال عمر بن شبّة : فحدثني الحزامي ، قال : حدثني محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، وأخبرني بمثل ذلك أحمد بن الجعد ، قال : حدثنا محمد إسحاق المسيبي ، قال : حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، قال : أنشدها رسولَ الله ﷺ في مسجده ، فلما بلغ إلى قوله :

إنَّ الـرَّسُـولَ لَسَيْـفٌ يُسْتَضَـاءُ بـهِ مُهنَّـدٌ مِـن سُيُـوفِ اللهِ مَسْلُـولُ

(١) لم يكن النبي ﷺ ينشد الشعر لذلك طلب من أبي بكر رضي الله عنه أن ينشده كلام كعب بن زهير .

فـي فِتْيـةٍ مـن قُـرَيـشٍ قـالَ قـائِلُهُـمْ بِبَطْـنِ مكَّـةَ لمَّـا أسلَمُـوا زُوْلُـوا
زَالُـوا ، فمَـا زَال أنْكَـاسٌ ولا كُشُـفٌ عِـنِ اللِّقَـاءِ ولا خَـوْرٌ[1] مَعَـازِيـلُ

أشار رسول الله ﷺ إلى الحِلَقِ أن يسمعوا شعر كعب بن زهير ، قال الحزامي : قال علي بن المديني : لم أسمع قط في خبر كعب بن زهير حديثاً أتمَّ ولا أحسنَ من هذا ، ولا أبالي أن لا أسمع من خبره غير هذا[2] .

وفي رواية الأصفهاني عن عمر بن شبّة : إن كعباً نزل برجل من جهينة ، فلما أصبح أتى النبي الكريم ﷺ فقال : يا رسول الله! أرأيت إن أتيتك بكعب بن زهير مسلماً أتؤمِنهُ؟ قال : نعم ، قال : فأنا كعب بن زهير ، فتواثبت الأنصار تقول : يا رسول الله! ائذن لنا فيه ، فقال : وكيف وقد أتاني مسلماً؟! وكف عنه المهاجرون ولم يقولوا شيئاً ، فأنشد رسول الله ﷺ قصيدته :

«بَانَتْ سُعادُ فقَلْبِي اليَومَ مَتْبولُ»

حتى انتهى إلى قوله :

لا يقَـعُ الطَّعْـنُ إلا فِـي نُحُـورِهِـمُ ومَـا بِهِـمْ مِـنْ حِيـاضِ المَـوتِ تَهْليـلُ

هكذا في رواية عمر بن شبّة ، ورواية غيره : «تعليل» .

فعند ذلك أومأ رسول الله ﷺ إلى الحِلَق حوله : أَنْ تسمعَ منه ، قال : وعرّض بالأنصار في قصيدته في عدة مواضع ، منها قوله :

كـانَـتْ مَـواعِيْـدُ عُـرْقُـوبٍ لهَـا مَثَـلاً ومـا مَـوَاعِيْـدُهـا إلا الأبَـاطِيْـلُ

وعرقوب : رجل من الأوس ، فلما سمع المهاجرون بذلك قالوا : ما مدَحَنا من هَجَا الأنصار ، فأنكروا قوله ، وعوتب على ذلك فقال :

مَـنْ سَـرَّهُ كَـرَمُ الحَيـاةِ فَـلا يَـزَل فـي مِقْنَـبٍ مِـنْ صَـالِحِـيْ الأنصَـارِ[3]

وجاء في «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي في ترجمة كعب بن زهير عن قدومه إلى رسول الله ﷺ يقول :

(١) خور : جمع أخور : بمعنى الضعفاء ، ويروى مِيل : جمع أميل .
(٢) الأغاني : ١٧/ ٨٠ .
(٣) الأغاني : ١٧/ ٨٥ ـ ٨٦ .

قدم كعب متنكراً حين بلغه عن النبي الكريم ﷺ ما بلغه[1] ، فأتى أبا بكر ، فلما صلى الصبح أتى به وهو متلثم بعمامته ، فقال: يا رسول الله! رجل يبايعك على الإسلام ، وبسط يده وحسر عن وجهه ، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، هذا مكان العائذ بك ، أنا كعب بن زهير ، فتهجمته الأنصار وغلظت عليه ، لما ذكر به رسول الله ﷺ ، ولانت له قريش وأحبوا إسلامه وإيمانه[2] ، فأمّنه رسول الله ﷺ ، فأنشد مدحته التي يقول فيها:

بـانَـتْ سُعـادُ فقَلْبِـي اليَـومَ مَتْبُـولُ ... مُتَيَّـمٌ إثْـرَهـا لـم يُفْـدَ مَكْبُـولُ

حتى انتهى إلى قوله:

وقَـالَ كُـلُّ خَلِيـلٍ كُنْـتُ آمَلُـهُ ... لا أُلْفِينَّـكَ ، إنِّـي عنـكَ مَشْغـولُ
فقُلْـتُ خَلُّـوا سَبِيْلِـي لا أبَـا لَكُـمُ ... فكُـلُّ مـا وعَـدَ الـرَّحمَـنُ مَفْعـولُ
كلُّ ابنِ أُنثَى - وإنْ طالَتْ سَلامَتُه ... يَـومـاً علـى آلَـةٍ حَـدْبـاءَ مَحْمُـولُ
نُبِّئْـتُ أنَّ رَسُـولَ الله أوْعَـدَنِـيْ ... والعَفْـوُ عنـدَ رَسُـولِ اللهِ مَـأمُـولُ
إنَّ الـرَّسُـولَ لَسَيْـفٌ يُستَضـاءُ بـهِ ... مُهنَّـدٌ مـن سُيُـوفِ الله مَسْلُـولُ
فـي فِتْيَـةٍ مـن قُـرَيْـشٍ قـالَ قَـائِلُهُـمْ ... ببَطْـنِ مكَّـةَ لمَّـا أسْلَمُـوا زُوْلُـوا
زَالُـوا ، فمَـا زالَ أنْكَـاسٌ ولا كُشُفٌ ... يَـوْمَ اللقَـاءِ ولا سُـوْدٌ مَعَـازِيْـلُ
لا يقَـعُ الطَّعْـنُ إلا فـي نُحُـورِهِـمُ ... ومـا بِهِـمْ عـن حِيَـاضِ المَـوتِ تَهْلِيـلُ

فنظر النبي الكريم ﷺ مَنْ عنده من قريش أن اسمعوا ، حتى قال:

يَمْشُونَ مَشْيَ الجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ... ضَـرْبٌ إذا عَـرَّدَ السُّـودُ التَّنَـابِيْـلُ

يعرّض بالأنصار لغلظتهم التي كانت عليه ، فأنكرتْ قريشُ ما قال ، وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم ولم يقبلوا ذلك حتى قال:

مَـنْ سَـرَّهُ كَـرَمُ الحَيـاةِ فَـلا يَـزَلْ ... فـي مِقْنَـبٍ مِـنْ صَـالِحِـي الأنْصَـارِ
البَـاذِلِيْـنَ نُفُـوسَهُـمْ لنَبِيِّهِـمْ ... يَـومَ العِيَـاجِ وسَطْـوَةِ الجَبَّـارِ
يَتَطَهَّـرُونَ - كـأنَّـهُ نُسُـكٌ لَهُـمْ - ... بـدِمَـاءِ مَـنْ عَلِقُـوا مِـنَ الكُفَّـارِ

(١) يعني ما أنذره به أخوه بجير في كتابه إليه.
(٢) المراد من إيمانه هنا: إعطاؤه الأمن.

صَـدَمُـوا عَلِيّـاً يـومَ بَـدْرٍ صَـدْمَـةً ... ذَلَّـتْ لِـوَقْعَتِهَـا جَمِيـعُ نِـزَارِ

يعني بني عليِّ بن مسعود، وهم بنو كِنَانَة[1].

فكساه النبي الكريم ﷺ بردة اشتراها معاوية من آل كعب بن زهير بمال كثير ، فهي البردة التي يلبسها الخلفاء في العيدين ، زعم ذلك أبان[2][3].

ولقد تحدث ابن هشام عن قصة حضور كعب بن زهير إلى المدينة ، وإنشاده مدحته للنبي الكريم ﷺ كما سبق ذكره ، وقال في آخر كلامه عنه روايةً عن ابن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة:

«فلما قال كعب: «إذا عَرَّدَ السُّودُ التَّنابِيْلُ» وإنما يريدنا معشرَ الأنصار لما كان صاحبُنا صنع به ما صنع[4] وخص المهاجرين من قريش من أصحاب رسول الله ﷺ بمِدْحته ، غضب عليه الأنصار ، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ، ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ ، وموضعهم من اليُمن ، وإليكم القصيدة بكاملها:

مَـنْ سَـرَّهُ كَـرَمُ الحَيـاةِ فـلا يَـزَلْ ... فـي مِقْنَـبٍ مـن صَـالِحِـيْ الأنصَـارِ[5]
وَرِثُـوا المَكـارِمَ كَـابِـراً عـن كَـابِـرٍ ... إنَّ الخِيَـارَ هُـمْ بَنُـو الأخيَـارِ
تَـزِنُ الجِبـالَ رَزانَـةً أحْـلامُهُـمْ ... وأكُفُّهُـمْ خَلَـفٌ مـنَ الأمطَـارِ
المُكْـرِهِيْـنَ السَّمْهَـرِيَّ بـأذْرُعٍ ... كصَـوَاقِـلِ الهِنْـدِيِّ غَيْـرِ قِصَـارِ[6]
والنَّـاظِـرِيـنَ بـأعْيُـنٍ مُحْمَـرَّةٍ ... كـالجَمْـرِ غَيْـرِ كَلِيْلَـةِ الإبصَـارِ[7]

(١) كنانة: هم بنو علي بن مسعود يعني بني عبد مناة بن كنانة أخو النضر بن كنانة جد قريش ، وإنما سموا علياً لأن عبد مناة بن كنانة كان له أخ لأمه هو علي بن مسعود الغساني.
(٢) هو أبان بن عثمان البجلي.
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ، ص ٨٣ ـ ٨٧.
(٤) إشارة إلى رجل من الأنصار كان قد وثب عليه حينما قال لرسول الله ﷺ: «أنا يا رسول الله كعب بن زهير ، وقال ذلك الرجل الأنصاري: يا رسول الله ، دعني وعدو الله أضرب عنقه».
(٥) في الشعر والشعراء: «شرف الحياة» والمقنب: الجماعة من الخيل تجتمع للغارة.
(٦) السمهري: ضرب من القنا ، صواقل الهندي: السيوف القاطعة ، شبه أيديهم بالقنا لقوتها ، أو بصواقل الهندي لمضائها.
(٧) الأعين المحمرة: كناية عن الغضب والغيظ والتشوق للقاء الأعداء ، الكليلة: الضعيفة.

والـذَّائِـدِيـنَ النَّـاسَ عـن أدْيَـانِهِـمْ ... بـالمَشْـرِفِـيِّ وبـالقَنَـا الخَطَّـارِ(١)

والبَـاذِلِيـن نُفُـوسَهُـمْ لِنَبِيِّهِـمْ ... يـومَ الهِيـاجِ وقُبَّـةِ الجَبَّـارِ(٢)

دَرِبُـوا كمَـا دَرِبَـتْ أُسُـودٌ خِفْيَـةً ... غُلْبُ الرِّقابِ منَ الأُسُودِ ضَوَارِي(٣)

وهُـمْ إذا خَـوَتِ النُّجـومُ فـإنَّهُـمْ ... للطَّـائِفِيْـنَ السَّـائِلِيْـنَ مَقَـاري(٤)

وهُـمُ إذا انْقَلَبُـوا كـأنَّ ثِيَـابَهُـمْ ... منهَـا تَضَـوُّعُ فَـأرَةِ العَطَّـارِ(٥)

والمُطعِمُـونَ الضَّيـفَ حيـنَ يَنُـوبُهـمْ ... مـن لحْـمِ كُـوْمٍ كـالهِضَـابِ عِشَـارِ(٦)

والمُنْعِمُـونَ المُفْضِلُـونَ إذا شَتَـوا ... والضَّـارِبُـونَ عِـلاوةَ الجَبَّـارِ(٧)

رُمِيَـتْ نَطَـاةُ مِـنَ الـرَّسُـولِ بفَيْلَـقٍ ... شَهبَـاءَ ذاتِ منـاكِـبٍ وفَقَـارِ(٨)

بـالمُـرْهَفَـاتِ كـأنَّ لَمْـعَ ظُبَـاتِهَـا ... لَمْـعُ السَّـوَارِي فـي العَبيْـرِ السَّـارِي(٩)

---

(١) المشرفيّ: في الأصل المشرفية: السيوف نسبت إلى قرى من أرض اليمن ، وقيل: من أرض العرب تدنو من الريف ، (لسان العرب: ٩/ ١٧٤) الخطّار: الذي اشتد اهتزازه ، وقيل: الذي إذا هزّ تتابع مقدمه ومؤخره.

(٢) رواية ابن قتيبة: «يوم العياج وسطوة الجبار» وفي ابن الأثير: «الباذلين نفوسهم ودماءهم» ، وفي رواية ابن هشام في السيرة:

والبـائعيـن نفـوسهـم لنبيهـم ... للمـوت يـوم تعـانـق وكـرار

والهياج: الحرب ، وقبة الجبار: أي بيت الله الحرام.

(٣) دربوا: اعتادوا ، من الدربة وهي العادة ، خفية: أجمة في سواد الكوفة بينها وبين الرحبة بضعة عشر ميلاً وينسب إليها الأسود ، معجم البلدان: ٣/ ٣٨٠ ـ ٣٨١ ، غلب الرقاب: غِلاظها.

(٤) ويروى: «للطالبين النازلين» وقوله: خوت النجوم: إذا لم يكن لها مطر ، المقاري: الذين يقرون الضيوف ، وروايته في لسان العرب: «للطارقين النازلين مقاري».

(٥) ويروى: «قوم إذا برزوا كأن ثيابهم» ، وقوله: إذا انقلبوا: أي رجعوا ، تضوّع: تفوح وتنتشر ، فأرة العطار: نافجة المسك؛ أي وعاؤه.

(٦) ينوبهم: يأتيهم ، ينتابهم ، الكوم ، الواحدة كوماء: الناقة الضخمة السنام ، العشار: الواحدة عشراء: التي أتت عليها عشرة أشهر من حملها.

(٧) شتوا: دخلوا في الشتاء ، قال أبو منصور: والعرب تسمي القحط شتاءً لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد ، لأنهم يلتزمون البيوت ولا يخرجون للانتجاع ، العلاوة: العنق ، الجبار: الشديد القوي.

(٨) نطاة: بالفتح ، وآخره تاء: هو اسم لأرض خيبر ، وقال الزمخشري: نطاق حصن بخيبر ، وقيل: عين ماء بقرية من قرى خيبر ، معجم البلدان: ٥/ ٢٩١ ، الفيلق: الجيش العظيم.

(٩) المرهفات: السيوف ، الظبة: مضرب السيف ، سواري: السحب التي تأتي ليلاً لأن =

لا يَشتَكُـونَ المَـوتَ إنْ نـزَلَـتْ بِهِـمْ ... شَهْبـاءُ ذاتُ مَعَـاقِـمٍ وأُوَارِ(١)

وإذا نَـزلْـتَ لَيَمْنَعُـوكَ إليْهِـمُ ... أصبَحْـتَ عنـدَ مَعـاقِـلِ الأغفَـارِ(٢)

وَرِثُـوا السِّيـادةَ كَـابِـراً عـن كَـابِـرٍ ... إنَّ الكِـرَامَ هُـمْ بَنُـو الأخيَـارِ(٣)

للصُّلْـبِ مـن غَسَّـانَ فـوقَ جَـراثِـمٍ ... تَنْبُـو خَـوالِـدُهَـا عـنِ المِنْقَـارِ(٤)

لـو يَعْلَـمُ الأحيَـاءُ عِلْمِـي فِيهِـمُ ... حَقّـاً لَصَـدَّقَنـي الَّـذيـنَ أُقَـارِي

صَـدَمُـوا عَلِيّـاً يـومَ بَـدرٍ صَـدْمَـةً ... دَانَـتْ عَلـيٌّ بَعْـدَهَـا لِنِـزَارِ(٥)

يَتَطَهَّـرونَ كـأنَّـهُ نُسُـكٌ لَهُـمْ ... بـدِمَـاءِ مَـنْ عَلِقُـوا مـنَ الكُفَّـارِ(٦)

وإلَيْهِـمُ استَقْبَلْـتُ كـلَّ وَدِيقَـةٍ ... شَهْبَـاءَ يَسْفَـعُ حَـرُّهَـا كـالنَّـارِ(٧)

= برقها يكون أشد لمعاناً ، العبير: السحاب الأبيض.

(١) الشهباء: الكتيبة التي يلمع سلاحها ، المعاقم: الهلاك ، الأوار: شدة الحرب وضراوتها ، ولعله أراد الغبار الذي يثور من وقع حوافر الخيل.

(٢) المعاقل: الحصون ، وهي ههنا أعالي الجبال ، الأغفار الواحد غفر: ولد البقرة ، قيل: ولد الأروية ، ولا يكون الغفر إلا في الجبال وقليلاً ما يكون في السهل.

(٣) ويروى: «إن الخيار هم بنو الأخيار» كابراً عن كابرٍ: أي كبيراً شريفاً عن كبيرٍ شريفٍ.

(٤) الصلب: الجد الأعظم ، غسان: ماء بسد مأرب باليمن ، وإليه تنسب القبائل المشهورة. معجم البلدان: ٤/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ، الجراثم: أصول الشجر يجتمع إليها التراب فتكون أرفع مما حولها ، وقد ضرب مثلاً للعز والشرف والمنعة ، الخوالد: الجبال ، المنقار: آلة حادة تقطع بها الحجارة ، أراد: أن من رامهم امتنعوا عليه كما تمتنع رواسخ الجبال على تلك الآلات ، ورواية البيت في الجمهرة للقرشي:

فـالعـز مـن غسـان فـي جـرثـومـة ... أعيـت محـافـرهـا علـى المنقـار

(٥) ويروى في الجمهرة:

صـالـوا علينـا يـوم بـدر صـولـة ... دانـت لـوقعتهـا جميـع نـزار

وقيل: علي هو علي بن بكر بن وائل ، وقيل: علي أخو عبد مناة بن كنانة بن خزيمة من أمه ، وفي ذلك أقوال كثيرة ، والله أعلم ، بدر: ماء مشهورة بين مكة والمدينة ، وبهذا الماء كانت الواقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة ، معجم البلدان: ١/ ٣٥٨ ، دانت: خضعت وذلت.

(٦) النسك: ما يذبح في الحرام ، علقوا: وقعوا في الشباك ، وعلق الشيء علقاً: لزمه ، وعلقت نفسه الشيء: لهجت به.

(٧) الوديقة: شدة الحر ، يسفع: يلفح الوجوه.

ومَـرِيضَـةٍ مَـرَضَ النُّعَـاسِ ذَعَـرْتُهَـا ... بـادَرْتُ عِلَّـةَ نَـوْمِهَـا بغِـرَارِ(١)

وعَلِمْـتُ أنِّـي مُصْبِـحٌ بمَضِيعَـةٍ ... غَبْـراءَ تَعْـزِفُ جِنُّهَـا مِـذْكَـارِ(٢)

وكَسَـوتُ(٣) كـاهِـلَ حَـرَّةٍ مَنْهُـوكـةٍ ... بـالفَجْـرِ(٤) حَـارِيَّـاً عَـدِيـمَ شِـوَارِ(٥)

سَلِسَـتْ عَـراقِيْـهِ فكُـلُّ قَبِيْلَـةٍ ... مِـن حِنْـوِهِ قَلِقَـتْ إلـى مِسْمَـارِ(٦)

وسَـدَتْ مُهَمْلَجَـةً عُـلالَـةَ مُـدْمَـجٍ ... مِـن فَـالِـقٍ حَصِـدٍ مِـنَ الإمْـرَارِ(٧)

حتَّـى إذا اكتَسَـتِ الأَبَـارِقُ نُقْبَـةً ... مثلَ المُـلاءِ مِـنَ السَّـرابِ الجَـارِي(٨)

ورَضِيْـتُ عنهـا بـالـرِّضـا لمَّـا أتَـتْ ... مِـن دُونِ عُسْـرَةِ ضِغْنِهـا بيَسَـارِ(٩)

تَنْجُـو بهَـا عُنُـقٌ كِنَـازٌ لَحْمُهـا ... حَفَـزَتْ فِقَـاراً لاحِقـاً بفِقَـارِ(١٠)

---

(١) ويروى:

ومَـرِيضَـةٍ مَـرَضَ النعَـاسِ حميتهـا ... طعَـمَ الـرُّقَـادِ إليهمـا بغَـرار

يقول: لم أتركها تنام إنما بادرتها بالرحيل، والغرار: قلة النوم.

(٢) المضيعة: القفر الخالي، غبراء: إشارة إلى جدبها وقلة خيرها، تعزف: تصوت، المذكار: ذات هول وفزع، وقيل: التي لا يسلكها إلا الذكور من الرجال.

(٣) وفي منتهى الطلب: «فكسوت».

(٤) ويروى في منتهى الطلب: «كالفحل».

(٥) المنهوكة: التي أجدَّها السير، الحاري: المنسوب إلى الحيرة، وعديم شوار: أي: تخرق ما عليه لطول السفر، وقال بعضهم: «عديم شوار» أي: رحل لا نظير له.

(٦) سلست: قويت واستحكمت، العراقي: العيدان التي في مؤخر الرحل، الحنو: خشب الرحل، ويروى: علقت على مسمار.

(٧) الهملجة: ضرب من العدو، العلالة: بقية كل شيء، المدمج: السوط، من فالق: يعني سوطاً من فيلق العنق، ويروى: «من بازل» الحصد: الشديد الفتل، وكذلك إلامرار فهو إحكام الفتل وشده.

(٨) الأبارق: الواحد أبرق: مرتفع من الأرض غليظ كثير الحجارة والطين، النقبة: ستار من السراب، الملاء: ثوب يلبس على الفخذين، الجاري: المترقرق.

(٩) ويروى في منتهى الطلب: «بالرضاء وسامحت» ويروى أيضاً: «ورضيت عنها بالنجاء وسامحت»، والضغن: الاشتياق إلى الوطن، اليسار: اليسر واللين، أراد أنها كانت تتباطأ في سيرها لأنها تسلك طريقاً غير طريق وطنها ثم تياسرت بعد ذلك.

(١٠) ويروى في صدر البيت: «عجز» مكان «عنق»، تنجو: تسرع في سيرها، كناز لحمها: أي مكتنزة اللحم، حفزت: دفعت، الفقار: خرز الصلب والعنق والذنب.

فـي كَـاهِـلٍ وَشَجَـتْ إلـى أَطْبَـاقِـهِ ... دَأَيَـاتُ مُنْتَفِـخٍ مِـنَ الأَزْوَارِ(١)

وتُـدِيـرُ للخَـرْقِ البعِيْـدِ نِيَـاطُـهُ ... بَعْـدَ الكَـلالِ وبَعْـدَ نَـوْمِ السَّـارِي(٢)

عَيْنـاً كَمِـرآةِ الصَّنَـاعِ تُـدِيْـرُهـا ... بـأَنَـامِـلِ الكفَّيْـنِ كُـلَّ مُـدَارِ(٣)

بجِمَـالِ مَحْجَـرِهـا وتَعْلَـمُ مـا الَّـذِيْ ... تُبْـدِي لِنَظْـرةِ زَوْجِهـا وتُـوَارِي(٤)

قال ابن هشام: ويقال: إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده «بانَتْ سعُادُ فقَلْبِي اليومَ مَتْبُولُ»: لولا ذكرتَ الأنصارَ بخير، فإنهم لذلك أهل! فقال كعب هذه الأبيات، في هذه القصيدة:

قال ابن هشام: وذكر لي عن علي بن زيد بن جدعان أنه قال:

أنشد كعب بن زهير رسول الله ﷺ في المسجد:

«بانَتْ سُعادُ فقَلْبِي اليومَ مَتْبُولُ»(٥)

وقال إبراهيم: حدثني محمد بن الضحاك بن عثمان، عن أبيه، قال: عنى كعب بن زهير بقوله: «في فِتْيةٍ من قُريشٍ قالَ قَائلُهمْ».

عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ(٦).

وإلى القارئ الكريم القصيدة بطولها:

---

(١) وشجت: دخلت، والأطباق والدأيات واحد: وهي فقار العنق، وقيل: ضلوع الصدر، الأزوار الواحد زور: الصدر.

(٢) الخرق: الفرجة تكون في الثوب وغيره، وقال المؤرخ: كل بلد واسع تتخرق به الرياح فهو خرق، الكلال: الإعياء، الساري: الذي يسير ليلاً، أراد أن سير الليل وشدة الإعياء لا تنال منها.

(٣) الصناع: المرأة الحاذقة بالعمل لأن مرآتها تظل مجلوة حسنة بعكس مرآة الخرقاء فهي صدئة لأنها لا تتعهدها بالعناية.

(٤) المحجر: ما يحيط بالعين من خارجها، فقد شبه عين الناقة بمرآة تلك المرأة في صفائها وحسنها، لأن الصناع لا تهمل مرآتها فهي تكثر النظر إلى وجهها وتتزين لزوجها وتصلح ما يكرهه منها.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٦) الأغاني: ١٧/ ٨٥.

بـانَـتْ سُعَـادُ فقَلْبِـي اليَـومَ مَتْبـولُ ... مُتَيَّـمٌ إثْـرهَـا لـم يُفْـدَ[1] مَكْبُـولُ[2]

ومـا سُعـادُ غـداةَ البَيْـنِ إذ رَحَلُـوا[3] ... إلا أغَنُّ غَضِيْضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ[4]

هَيْفـاءُ مُقْبِلـةً عَجْـزَاءُ مُـدْبِـرَةً ... لا يُشتَكَـى قِصَـرٌ منهـا ولا طُـوْلُ[5]

تَجْلُو عَوارِضَ ذِيْ ظَلْمٍ إذا ابتَسمَتْ ... كـأنَّـهُ مُنْهَـلٌ بـالـرَّاحِ مَعْلُـولُ[6]

شُجَّـتْ بِـذِيْ شَبَـمٍ مـن مـاءِ مَحْنِيَـةٍ ... صَافٍ بأبْطَحَ أضْحَى وهْوَ مَشْمُولُ[7]

تَنْفِـي الـرِّيـاحُ القَـذَى عنـهُ وأفْـرَطَـهُ ... مـن صَـوْبِ غـادِيَـةٍ بِيْـضٌ يَعَـالِيْـلُ[8]

---

(١) كذا في الأصل ، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ، أما في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي فقد ورد: «لم يفد».

(٢) بانت: فارقت فراقاً بعيداً ، متبول: مَنْ أسقمه الحب وأضناه ، متيم: مذلل بالحب ، لم يفد: لم يجد من يفديه ، ويروى: لم يجز ، مكبول: أسير مقيد.

(٣) وفي رواية: «إذ برزت».

(٤) الأغن هنا: الظبي الصغير الذي في صوته غنة ، وهي صوت يخرج من الخياشيم ، وغضيض الطرف: فاتره ، ومكحول: من الكحل (بتحريك الحاء المهملة) وهو سواد يعلو جفون العين من غير اكتحال ، شبه محبوبته وقت الفراق بالظبي الموصوف بغنة الصوت ، وغض الطرف ، والكحل ، وهي من صفات الجمال.

(٥) هيفاء: صفة مشبهة من الهيف (بالتحريك) وهو ضمور البطن ، ودقة الخاصرة ، ومقبلة: حال ، وعجزاء: صفة أيضاً ، أي كبيرة العجز ، وهو الردف ، ولا يشتكى قصر: أي لا يشتكي الرائي عند رؤيتها قِصَراً فيها ، يريد أن هذه المحبوبة يحسن منظرها في كل حال ، فإذا أقبلت فهي هيفاء ، وإذا أدبرت فهي عجزاء ، وهي متوسطة بين الطول والقصر ، وهذا البيت ساقط.

(٦) تجلو: تصقل وتكشف ، والعوارض: جمع عارض أو عارضة ، وهي الأسنان كلها ، أو الضواحك خاصة ، أو هي من الأنياب ، والظَّلْم (بفتح الظاء وسكون اللام): ماء الأسنان وبريقها ، أو هو رقتها وبياضها ، والمنهل (بزنة اسم المفعول): المسقي ، من أنهله ، إذا سقاه النهل (بفتحتين) وهو الشرب الأول ، وبالراح: متعلق بمنهل ، والراح: الخمر ، ومعلول: من العلل (بالفتح) ، وهو الشرب الثاني ، يريد أن سعاد إذا ابتسمت كشفت عن أسنان ذات ماء وبريق ، أو ذات بياض ورِقَّة ، وكأن ثغرها لطيب رائحته قد سقي بالراح مرة بعد مرة.

(٧) شجت: مزجت حتى انكسرت سورتها ، وهو مجاز ، لأن الأصل: في الشج الكسر ، وذو شبم: ماء شديد البرد ، والمَحْنِية (بفتح فسكون فكسر): منعطف الوادي ، وخصه لأن ماءه أصفى وأبرد ، والأبطح: المسيل الواسع الذي فيه دقاق الحصى ، وماء الأباطح عندهم معروف بصفائه ، وأضحى: أخذ في وقت الضحى قبل أن يشتد حر الشمس ، والمشمول: الذي ضربته ريح الشمال حتى برد ، وهي أشد تبريداً للماء من غيرها.

(٨) القذى: ما يقع في الماء من تبن أو عود أو غيره مما يشوبه ويكدره ، وأفرطه: سبق إليه وملأه ، =

فيَـا لَهـا خُلَّـةً لـو أنَّهـا صَـدَقَـتْ ... بـوَعْـدِهـا أوْ لَـوَ أنَّ النُّصْحَ مَقْبـولُ[1]

لكنَّهـا خُلَّـةٌ قـد سِيْـطَ مـن دَمِهَـا ... فَجْـعٌ وَوَلْـعٌ وإخْـلافٌ وتَبْـديـلُ[2]

فمَـا تَـدُومُ[3] علـى حَـالٍ تكُـونُ بِهَـا ... كمَـا تَلَـوَّنُ فـي أثْـوَابِهـا الغُـولُ[4]

ومـا[5] تَمَسَّكُ[6] بالعَهْدِ الَّذي زَعَمَتْ ... إلا كَمَـا يُمْسِـكُ المَـاءَ الغَـرابِيْـلُ

فـلا يَغُـرَّنَّـكَ مـا مَنَّـتْ ومـا وعَـدَتْ ... إنَّ الأمَـانـيَّ والأحْـلامَ تَضْلِيـلُ[7]

= والصوب: المطر ، والغادية: السحابة تمطر غدوة ، ويروى: «سارية» وهي السحابة تأتي ليلاً ، واليعاليل: الحَباب الذي يعلو وجه الماء ، وقيل: المراد بالبيض اليعاليل: الجبال الشديدة البياض ينحدر عليها ماء المطر ، ثم يسيل إلى الأباطح ، يريد أن الرياح تزيل القذى عن ذلك الماء الذي مزج به الراح ، حتى لم يبق فيه ما يكدره ، وأن ذلك الأبطح ملأته الفقاقيع البيض التي نشأت من مطر السحابة الغادية.

(١) الخلة (بالضم): الصديقة ، يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد وغيره ، يريد أنها صديقة كريمة ، ولو أنها صدقت في الوعد وقبلت النصح لكانت على أتم الخلال ، وأكمل الأحوال ، ويروى هذا البيت: «ويلمها . . . بوعدها ولو أن . . .».

(٢) سيط: أي خلط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة في البيت ، ويروى: شيط (بالشين المعجمة) وهو بمعناه ، والفجع: الإصابة بالمكروه كالهجر ونحوه ، والولع والولعان: الكذب ، والإخلاف: خلف الوعد ، يريد أن محبوبته متصفة بهذه الأخلاق ، حتى صارت كأنها ممتزجة بدمها.

(٣) وفي رواية: «فما تقوم».

(٤) الغول: ساحرة الجن ، في زعمهم ، يزعمون أن الغول تُرى في الفلاة بألوان شتى ، فتأخذ جانباً عن الطريق فيتبعها من يراها ، فيضل عن الطريق فيهلك ، يريد أن هذه المحبوبة لا تدوم على حال تكون عليها ، بل تتغير من حال إلى حال ، فتتلون بألوان شتى ، وترى في صور مختلفة ، كما تتلون الغول في أثوابها بألوان كثيرة.

(٥) وفي رواية: «ولا».

(٦) تمسك ، يروى بفتح التاء ، على أنه مضارع حذفت إحدى تائيه ، أو بضم التاء وفتح الميم وكسر السين المشددة ، «ولا تمسك» ، يشبه تمسكها بالعهد بإمساك الغرابيل للماء ، مبالغة في النقض والنكث وعدم الوفاء بالعهد ، لأن الماء بمجرد وضعه في الغربال يسقط منه.

(٧) ما منت: ما منتك إياه ، وحملتك على تمنيه ، أو ما كذبت عليك فيه ، يقول: لا تغتر بما حملتك على تمنيه منها ، أو بما كذبت عليك فيه من الوصل ، وما وعدتك به من ترك الهجر ، فإن الأماني التي يتمناها الإنسان ، والأحلام التي يراها في منامه سبب في الضلال ، وضياع الزمان.
وهذا البيت متأخر في رواية عن البيتين التاليين له.

كانَتْ مَوَاعيدُ عُرْقُوبٍ لها مَثَلاً ... وما مَواعِيدُها إلا الأَبَاطِيلُ(١)

أرجُوْ وآمَلُ أن تَدْنُو مَوَدَّتُها ... وما إخَالُ لَدَيْنا منكِ تَنْوِيلُ(٢)

أمسَتْ سُعادُ بِأَرْضٍ لا يُبَلِّغُها ... إلا العِتَاقُ النَّجِيبَاتُ المَرَاسِيلُ(٣)

ولَنْ يُبَلِّغَهَا إلا عُذَافِرَةٌ ... لها على الأَيْنِ إرْقَالٌ وتَبْغِيلُ(٤)

مِنْ كلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ ... عُرْضَتُها طَامِسُ الأعْلامِ مَجْهُولُ(٥)

تَرْمِي النِّجَادَ بعَيْنَيْ مُفْرَدٍ لَهَقٍ ... إذا تَوَقَّدَتِ الحُزَّانُ والمِيلُ(٦)

---

(١) كانت: صارت ، وعرقوب (بضم العين وإسكان الراء وضم القاف): رجل اشتهر عند العرب بإخلاف الوعد ، فضرب به المثل في الخلف ، والأباطيل: جمع باطل ، على غير قياس.

(٢) التنويل: العطاء والمراد به (هنا): الوصل ، يريد أني مع اتصافها بالجفاء وإخلاف الوعد ، وعدم الوفاء بالعهد ، لا أقطع الرجاء من مودتها ، ولا أيأس من وصلها ، بل أرجو وآمل أن تقرب مودتها ، وإن كان في ذلك بُعدٌ ، ويروى هذا البيت:

أرجُو وآمَلُ أن يعجلْن في أبَدٍ ... وما إخَالُ لهُن الدهرَ تعجيلُ

(٣) العتاق: الكرام ، الواحد: عتيق ، والنجيبات: جمع نجيبة ، وهي القوية الخفيفة ، ويروى: «النجيات» أي: السريعات ، والمراسيل: جمع مرسال (بالكسر) وهي السريعة ، يريد أن محبوبته صارت بأرض بعيدة لا يوصله إليها إلا الإبل الكرام الأصول ، القوية السريعة.

(٤) العذافرة: الناقة الصلبة العظيمة ، والأين: الإعياء والتعب ، والإرقال والتبغيل: ضربان من السير السريع ، يقول: لا يبلغ تلك الأرض إلا ناقة صلبة عظيمة قوية على السير ، ويروى في الشطر الثاني: «فيها على الأين....».

(٥) النضاخة: الكثيرة رشح العرق ، والذفرى: النقرة التي خلف أذن الناقة ، وهي أول ما يعرق منها ، وعرضتها: همتها ، وطامس الأعلام: الدارس المتغير من العلامات التي تكون في الطريق ليهتدى بها ، يريد أن هذه الناقة كثيرة العرق ، وذلك لا يكون إلا مع اشتداد في السير ، وجهد نفسها فيه ، وأنها عارفة للطريق الدارس الأعلام ، المجهول المسالك ، لكثرة أسفارها وسلوكها المفازات.

(٦) في رواية: ترمي الغيوب: يعني آثار الطريق التي غابت معالمها عن العيون ، والمُفْرَدُ: الثور الوحشي الذي تفرد في مكان ، وشبه عينيها بعينيه لأنه ألف البراري وخَبِرَها ، ولكونه من أحدّ الوحوش نظراً ، واللهق (بفتح الهاء وكسرها): الأبيض ، والحزان (بضم الحاء وكسرها وتشديد الزاي): الأمكنة الغليظة الصلبة تكثر فيها الحصباء ، وهي جمع حزيز ، والميل (بالكسر): جمع ميلاء بالفتح ، وهي العقدة الضخمة من الرمل. يريد أن هذه الناقة في غاية من حدة البصر ، فتبصر ما غاب من آثار الطريق عن العيون بعينيها=

ضَخْمٌ مُقَلَّدُهَا فَعْمٌ مُقَيَّدُهَا ... في خَلْقِها عن بَناتِ الفَحْلِ تَفْضِيلُ(١)

غَلْبَاءُ وجْنَاءُ عُلْكُومٌ مُذَكَّرَةٌ ... في دَفِّهَا سَعَةٌ قُدَّامَها مِيلُ(٢)

وجِلْدُهَا من أَطُومٍ ما يُؤَيِّسُهُ ... طِلْحٌ بضَاحِيَةِ المَتْنَيْنِ مَهْزُولُ(٣)

حَرْفٌ أخُوْهَا أَبُوْهَا من مُهَجَّنَةٍ ... وعَمُّها وخَالُها قَوْدَاءُ شِمْلِيلُ(٤)

يَمْشِي القُرَادُ عليْها ثمَّ يُزْلِقُهُ ... مِنْها لُبَانٌ وأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ(٥)

= الشبيهتين بعيني الثور الوحشي الأبيض وقت اشتداد الحر ، في الأمكنة الغليظة الصلبة ، والرمال المتقدة الضخمة.

ويروى هذا البيت: «ترمي النجاد... إلخ».

(١) المقلد: موضع القلادة في العنق ، وفعم: ممتلئ ، ويروى: «عبل» وهو بمعناه ، والمقيد: موضع القيد ، يريد قوائمها ، وبنات الفحل: الإناث من الإبل المنسوبة للفحل المعدّ للضراب ، يصف الناقة بضخامة العنق ، وذلك مؤذن بضخامة جميع هامتها ، وبعظم القوائم ، وذلك دليل على قوتها في السير ، وطاقتها على ثقل الحمل ، وبتفضيلها على غيرها في عظم الخلقة ، وحسن التكوين.

(٢) غلباء: غليظة العنق ، وجناء: عظيمة الوجنتين ، أو هي من الوجين ، وهو ما صلب من الأرض ، وعلكوم: شديدة ، ومذكرة: عظيمة الخلقة تشبه الذكران من الأباعر ، وفي دفها سعة: أي هي واسعة الجنبين ، وهو كناية عن عظم الخلقة ، وقدامها ميل: كناية عن طول عنقها ، أو سعة خطوها.

(٣) الأطوم (بفتح الهمزة): سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، وقيل: هي الزرافة ، ويؤيّسه: يذلله ولا يؤثر فيه ، والطلح (بالكسر): القراد ، دويبة معروفة تلزق بالدابة ، والضاحية من كل شيء: ناحيته البارزة للشمس. والمتنان: ما يكتنف صلبها عن يمين وشمال من عصب ولحم ، وإنما خص ضاحية المتنين ، لأن القراد في الشمس تقوى همته ، وتكثر حركته ، ويشتد امتصاصه للدم ، ومهزول: صفة لطلح ، أي: قراد مهزول من الجوع ، يريد أن جلد هذه الناقة في غاية الغلظة والملاسة ، فلا يؤثر فيه القراد المهزول من الجوع فيما برز للشمس من ناحيتي صلبها عن يمين وشمال.

(٤) الحرف (في الأصل): القطعة الخارجة من الجبل ، شبّه الناقة بها في القوة والصلابة ، والحرف (أيضاً): الناقة الضامرة ، وأخوها أبوها.. إلخ: يريد أنها مداخلة النسب في الكرم ، لم يدخل في نسبها غير أقاربها ، والمهجّنة: الكريمة الأبوين من الإبل ، والقوداء: الطويلة الظهر والعنق ، وهي من صفات الإبل التي تمدح بها ، والشمليل: الخفيفة السريعة.

(٥) يزلقه: من الإزلاق ، أي يسقطه ، ومنها: أي عنها ، واللبان (بالفتح): الصدر ، وقيل: وسطه ، والأقراب (بالفتح): جمع قرب: الخواصر ، والمراد بالجمع هنا المثنى ، والزهاليل: الملس ، جمع زهلول ، يريد أن هذه الناقة لملاستها لا يثبت القراد عليها.

عَيْرَانَةٌ قُذِفَتْ بالنَّحْضِ عن عُرُضٍ ... مِرْفَقُها عن بَنَاتِ الزُّوْرِ مَفْتُولُ[1]

كأنَّ ما فاتَ عَيْنَيها ومَذْبَحَها ... من خَطْمِها ومِنَ اللَّحْيَينِ بِرْطِيلُ[2]

تَمُرُّ مثلَ عَسِيْبِ النَّخْلِ ذا خُصَلٍ ... في غَارِزٍ لم تَخَوَّنْهُ الأَحَالِيلُ[3]

قَنْوَاءُ في حَرَّتَيْها للبَصِيْرِ بها ... عِتْقٌ مُبِيْنٌ وفي الخَدَّيْنِ تَسْهِيلُ[4]

تَخْدِي على يَسَرَاتٍ وهْيَ لاحِقَةٌ ... ذَوابِلٌ مَسُّهُنَّ الأَرْضَ تَحْلِيلُ[5]

(١) العيرانة: الناقة المشبهة عير الوحش في سرعته ونشاطه وصلابته ، وهذا مما يستحسن في أوصاف الإبل ، النحض: اللحم ، عن: بمعنى من ، عرض (بضمتين أو بضم فسكون): جانب ، والمراد هنا العموم ، يريد أنها رميت باللحم من كل جانب من جوانبها ، المرفق: يريد المرفقين ، والزور: الصدر ، وقيل: وسطه ، وبنات الزور: ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها ، يريد أن مرفق تلك الناقة مصروف عما حوالي الصدر من الأضلاع وغيرها ، فتكون مصونة عن الضغط ، لبعد مرفقها عن أضلاعها ، فلا يصطك بها لخفتها ونشاطها.

(٢) الخطم: الأنف وما حوله ، اللحيان: العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلي من الإنسان وغيره ، البرطيل (بالكسر): حجر مستطيل ، يريد أن وجهها من خطمها ومن اللحيين يشبه الحجر المستطيل ، وفي رواية: «كأنما قاب . . إلخ»: القاب: المقدار ، والمراد: المسافة من وجهها إلى عينيها ، كأنما قدر وجهها المنتهي إلى عينيها من خطمها قدر برطيل في الاستطالة.

(٣) عسيب النخل: جريده الذي لم ينبت عليه الخوص ، فإن نبت عليه سمي سعفاً ، ذا خصل: يريد ذيلاً له لفائف من الشعر ، في غارز: أي على ضرع ، لم تخونه: لم تنقصه ، الأحاليل: مخارج اللبن ، جمع إحليل (بالكسر) ، يريد أن هذه الناقة تُمر ذنباً مثل جريدة النخل في الغلظ والطول ، كثير الشعر ، على ضرع لم تنقصه مخارج اللبن ، لكونها لا تحلب ، فيكون ذلك أقوى لها على السير.

(٤) القنواء: المحدودبة الأنف ، ويروى: «وجناء» ، وقد عد الشاعر هذا من صفات المدح مع أن المنقول عن العرب أن القنا عيب في الإبل والخيل ، الحرتان: الأذنان ، العتق (بالكسر): الكرم ، المبين: الظاهر ، تسهيل: سهولة ولين لا خشونة ولا حزونة ، يريد أن هذه الناقة محدودبة الأنف ، يظهر للعارف بالإبل الكرام كرم ظاهر في أذنيها ، لحسنهما وطولهما ، ونجابة في خديها: سهولة وليونة ، وقد ورد هذا البيت في رواية متقدماً على البيتين السابقين له.

(٥) تخدي: تسرع ، ويروى: «تخذي» بمعجمتين ، أي تسترخي ، وهذا أبلغ في المدح ، لأنها مع استرخائها في السير تلحق النوق السوابق ، فكيف لو أسرعت ، وفي رواية: «تهوي» وهي بمعنى الأولى ، يسرات: القوائم الخفاف ، وهي لاحقة: أي والحال أنها لاحقة بالنوق السابقة عليها ، أو بالديار البعيدة عنها ، وفي رواية: «وهي لاهية» أي غافلة عن السير ، وهي تسرع فيه من غير اكتراث ومبالاة ، كأن ذلك سجية لها ، وقد فسر ابن هشام «اللاحقة» بالضامرة فيكون مرجع الضمير «هي» لليسرات ، الذوابل: جمع ذابل ، وهو الرمح الصلب اليابس شبه قوائمها بها في=

سُمْرُ العُجَايَاتِ يَتْرُكْنَ الحَصَى زِيَماً ... لم يَقِهِنَّ رُؤُوسَ الأُكْمِ تَنْعِيلُ[1]

كأَنَّ أَوْبَ ذِراعَيْها وقد عَرِقَتْ ... وقَدْ تَلَفَّعَ بالقُوْرِ العَسَاقِيلُ[2]

يَوْماً يظَلُّ بهِ الحِرْبَاءُ مُصْطَخِداً ... كأنَّ ضَاحِيَهُ بالشَّمسِ مَمْلُولُ[3]

وقالَ للقَوْمِ حادِيْهِمْ ، وقَدْ جَعَلَتْ ... وُرْقُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَا: قِيْلُوا[4]

= الصلابة والشدة ، ومسهن: أي مس تلك اليسرات للأرض أو وقعهن عليها ، وتحليل: أي قليل لم يبالغ فيه ، يريد أن هذه الناقة سريعة في السير بقوائمها ، سريعة الرفع عن الأرض ، كأنها لا تمسها إلا تحلّة للقسم ، فهي في غاية الإسراع في سيرها.

(١) العجايات: الأعصاب المتصلة بالحافر ، وقيل: اللحمة المتصلة بالعصب المنحدر من ركبة البعير إلى الفرسن ، يشبه عصبها أو لحم قوائمها بالرماح السمر لقوته وصلابته ، زيماً: متفرقاً ، الأكم: هي الأراضي المرتفعة ، والتنعيل: شد النعل على ظفر الدابة ليقيها الحجارة ، يريد أن أعصاب قوائم هذه الناقة شديدة كالرماح السمر ، ولشدة وطئها الأرض تحمل الحصى متفرقاً ، ولصلابة خفافها لا تحتاج إلى تنعيل يقيها الحجارة التي تكون في رؤوس الأكم ، فلا تحفى ولا ترق قدمها.

(٢) الأوب (بالفتح): سرعة التقلب والرجوع ، عرقت: أي وقْتَ عرقها لا لتعب ولا لإعياء ، لما تقدم من وصفها بالقوة والصلابة ، بل لشدة الحر ، تلفع: اشتملَ والتَحَفَ ، القور: (بضم القاف): جمع قارة ، وهي الجبل الصغير ، والعساقيل: السراب ، يصف سرعة ذراعي ناقته في وقت الهاجرة وانتشار السراب فوق صغار الجبال ، وسيأتي ذكر المشبه به في البيت الثالث بعد هذا ، وهو خبر كأن ، وهذا البيت متأخر عن البيتين التابعين له.

(٣) الحرباء (بالكسر): ضرب من العظاء ، يستقبل الشمس حيثما دارت ، ويتلون بألوان الأمكنة التي يحل فيها ، ومصطخداً: محترقاً بحرّ الشمس ، ويروى: «مصطخماً» أي: منتصباً قائماً ، كما يروى: «مرتبئا» أي: مرتفعاً ، وضاحيه: ما برز للشمس منه ، ومملول: موضوع في الملة ، وهي الرماد الحار ، يريد أن الجبال الصغار تلفعت بالسراب في يوم يصير فيه الحرباء محترقاً بالشمس ، كأن البارز للشمس في أوب ذلك اليوم من ذلك الحيوان خبز معمول بالملة.

(٤) الحادي: السائق للإبل ، والورق: جمع أورق أو ورقاء ، وهو الأخضر الذي يضرب إلى السواد ، وقيل: الورقة: لون يشبه لون الرماد ، والجنادب: جمع جندب (بضم الدال وتفتح): ضرب من الجراد ، وقيل: الجراد الصغير ، وإنما يكون هذا الصنف في القفار الموحشة القوية الحرارة ، البعيدة من الماء ، ويركضن الحصى: يحركنه بأرجلهن لقصد النزول ، بسبب الإعياء عن الطيران ، من شدة الحر ، وقيلوا: أمر من قال يقيل قيلولة ، وهي الاستراحة في وقت شدة الحر ، والمراد أن هذا اليوم أشد حراً حتى إن الحادي الذي من شأنه أن ينشط الإبل قال للقوم: قيلوا واستريحوا.

شَـدَّ النَّهـارِ ذِراعـاً عَيْطَـلٍ نَصَـفٍ ... قـامَـتْ فجَـاوَبَهـا نَكْـدٌ مَثَـاكِيْـلُ(١)

نَـوَّاحـةٌ رِخْـوةُ الضَّبْعَيْـنِ ليـسَ لَهـا ... لمَّـا نَعَـى بِكْـرَهـا النَّـاعُـونَ مَعْقـوْلُ(٢)

تَفْـرِي اللَّبَـانَ بكَفَّيْهـا ومِـدْرَعُهَـا ... مُشَقَّـقٌ عـن تَـراقِيهَـا رَعَـابِيْـلُ(٣)

تَسْعـى الغُـوَاةُ جَنَـابَيْهَـا وقَـوْلُهُـمُ: ... إنَّـكَ يـا ابْـنَ أبـي سُلْمَـى لَمَقْتُـولُ(٤)

وقَـالَ كـلُّ صَـدِيـقٍ كُنْـتُ آمُلُـهُ: ... لا أُلْهِينَّـكَ إنِّـي عَنْـكَ مَشْغـولُ(٥)

---

(١) شد النهار: وقت ارتفاعه، وهو مبالغة في شدة الحر، والعيطل: الطويلة، والنصف: المتوسطة في السنّ، وذلك حين استكمال قوتها، وبلوغ أشدها، فتكون أسرع في الحركة، وأمكن في القوة، والنكد: جمع نكداء، وهي التي لا يعيش لها ولد، والمثاكيل: جمع مثكال بالكسر، وهي الكثيرة الثكل، في هذا البيت والبيت السابق الذي أوله «كأن» يشبه سرعة حركة يدي هذه الناقة بسرعة حركة يدي المرأة الطويلة المتوسطة في السنّ؛ في اللطم على وجهها لشدة حزنها على ولدها، يجاوبها نسوة لا يعيش أولادهن، فيشتد فعلها، ويقوى ترجيع يديها عند النياحة، لرؤية حزن غيرها، وشدة لطمهن.

ويروى الشطر الأول من هذا البيت: «أوب يدي فاقدٍ شمطاء مُعْوِلةٍ».

والفاقد: التي فقدت ولدها، والشمطاء: التي خالطها الشيب، والمعولة: الرافعة صوتها بالبكاء.

(٢) النواحة: الكثيرة النوح على ميتها، ورخوة الضبعين: مسترخية العضدين، والبكر بالكسر: أول الأولاد، والناعون: المخبرون بالموت، النادبون له، والمعقول (هنا): العقل، وهو من المصادر التي جاءت على «مفعول» كمعسور وميسور ومفتون، يريد أن هذه المرأة كثيرة النوح على ميتها، مسترخية العضدين، فيداها سريعتان في الحركة، ولما أخبرها الناعون بموت أول أولادها لم يبق لها عقل، فهي لا تحس بالإعياء والتعب، شأن هذه الناقة أنها لا تحس بإعياء ولا تعب في سيرها.

(٣) تفري: تقطع، واللبان: الصدر، والمدرع: القميص، ورعابيل: قطع متفرقة، وهو جمع رعبول، يريد أن هذه المرأة تقطع مدرعها بأناملها لذهاب عقلها، فقميصها مشقوق عن عظام صدرها قطعاً كثيرة، يشبه الناقة بهذه المرأة في أن كلاً منهما مسلوب الإدراك، فلا يحس بما يلاقي من مشقة وشدة.

(٤) الغواة: المفسدون، جمع غاو، جنابيها: حواليها، تثنية جناب (بفتح الجيم)، ومقتول: أي متوعد بالقتل، لأن النبي الكريم ﷺ كان قد أهدر دمه، ويُروى هذا البيت: «تمشي الغواة بجنبيها وقولهم... إلخ».

(٥) آمله: أؤمل خيره وأترجى إعانته لي في الملمات، وألهينك: أشغلك و«لا» فيها: نافية، والتوكيد قليل مع النفي، والمعنى: لا أشغلك عما أنت فيه من الخوف والفزع، بأن أسهله عليك وأسليك، فاعمل لنفسك، فإني لا أغني عنك شيئاً، وقد يكون الكلام مثبتاً، واللام فيه =

فَقُلْـتُ: خَلُّـوا سَبِيْلـي لا أبَـالَكُـمُ ... فكُـلُّ مـا قَـدَّرَ الـرَّحمَـنُ مَفعُـولُ(١)

كـلُّ ابـنِ أنْثَـى وإنْ طـالَـتْ سَلامتُـهُ ... يَـوْمـاً علـى آلَـةٍ حَـدْبـاءَ مَحْمُـولُ(٢)

نُبِّئْـتُ أنَّ رَسُـولَ الله أوْعَـدَنِـيْ ... والعَفْـوُ عنـدَ رَسـولِ اللهِ مَـأمُـولُ(٣)

مَهْلاً هدَاكَ الَّذي أعطَاكَ نافِلةَ الـ.. ... ..ـقُـرآنِ فيهـا مَـواعِيْـظٌ وتَفْصِيـلُ(٤)

لا تـأخُـذَنِّـي بـأقْـوَالِ الـوُشَـاةِ ولَـمْ ... أُذْنِـبْ ولـو كَثُـرَتْ فـيَّ الأقَـاوِيـلُ(٥)

لقَـدْ أقُـوْمُ مَقـامـاً لَـوْ يَقُـومُ بـهِ ... أرَى وأسْمَـعُ مـا لَـوْ يَسْمَـعُ الفِيْـلُ(٦)

لظَـلَّ يُـرْعَـدُ إلا أنْ يَكُـونَ لَـهُ ... مـنَ الـرَّسُـولِ بـإذْنِ اللهِ تَنْـوِيـلُ(٧)

= للقسم، أي والله لأجعلنك مشغولاً عني، فلا تطلب مني نصرة أو معونة، ويُروى هذا البيت: «وقال كل خليل .... إلخ».

(١) خلوا سبيلي: اتركوه، وقوله: لا أبا لكم: ذم لهم، لكونهم لم يغنوا عنه شيئاً، أو مدح لهم على سبيل التهكم والاستهزاء.

(٢) الآلة الحدباء: النعش الذي يحمل عليه الميت، يقول: كل إنسان صائر إلى الموت طالت سلامته أو قصرت، فلا يشمت بي أحد إذا هلكت.

(٣) نبئت: أخبرت، ويروى: «أنبئت»، وأوعدني: تهددني بالقتل، ومأمول: مرجو ومطموع فيه.

(٤) هداك: زادك هدى، أو هداك الله للصفح والعفو عني، فيكون على هذا داعياً لنفسه. والنافلة: الزيادة بمعنى الجائزة هنا، وسمي القرآن الكريم نافلة لأنه عطية زائدة على النبوة.

(٥) هذا البيت من تتمة الاستعطاف والتلطف في القول، فلا وإن كانت ناهية بحسب وضعها، لكن المراد منها التضرع والتذلل، والمعنى: لا تستبح دمي بسبب أقوال الوشاة الساعين بيني وبينك بالإفساد والكذب والبهتان.

(٦) لقد أقوم: معناه: والله لقد أقوم مقاماً، فهو جواب قسم محذوف، ويروى: «إني أقوم مقاماً» والأولى أبلغ للقسم، والمقام (هنا) مجلس النبي الكريم ﷺ، والمراد بالقيام فيه حضوره، والمعنى على الماضي، أي: لقد حضرت مجلساً.

(٧) يرعد: تأخذه الرعدة، ويصح بناؤه للمفعول، والتنويل: التأمين، والمعنى: لصار الفيل يضطرب ويتحرك من الفزع، وإنما خصه بذلك لأنه أراد التعظيم والتهويل، والفيل أعظم الدواب جثة وشأناً، إلا أن يكون له من الرسول - بإذن الله تعالى - تأمين يسكن به روعه، وتثبت به نفسه، ويُروى هذا البيت:

لظـل تـرعـد مـن وجـدٍ بـوادره ... إن لـم يكـن مـن رسـول الله تنـويـل

والوجد: شدة الحزن، والبوادر: اللحم الذي بين العنق والكتف.

وجاء في رواية بعد هذا البيت:

مـا زلـت أقتطـع البيـداء مـدّرعـاً ... جنـح الظَّـلام وثـوب الليـل مسبـول

حتَّى وَضَعْتُ يَمِيْنِي ما أُنَازِعُهُ ... فِي كَفِّ ذِيْ نَقِمَاتٍ قِيْلُهُ القِيْلُ(١)

فَلَهْوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إذ أُكَلِّمُهُ ... وقِيْلَ إنَّكَ مَنْسُوبٌ ومَسْؤولُ(٢)

مِنْ ضَيْغَمٍ بِضِرَاءِ الأَرْضِ مُخْدَرُهُ ... فِي بَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دونه غِيلُ(٣)

يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُما ... لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيْلُ(٤)

إذا يُسَاوِرُ قِرْنَاً لا يَحِلُّ لَهُ ... أَنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إلا وهْوَ مَفْلُولُ(٥)

مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعُ الجَوِّ نَافِرَةً ... ولا تُمَشِّيْ بِوَادِيْهِ الأَرَاجِيْلُ(٦)

---

(١) حتى وضعت: أي فوضعت، وخص اليمين لأن الأشياء الشريفة تفعل باليمين، ولا أنازعه: أي حال كوني طائعاً له، راضياً بحكمه فيَّ، غير منازع له ولا مخالف، والنقمات (بفتح فكسر): جمع نقمة، والمراد بصاحب النقمات: النبي الكريم ﷺ، لأنه كان ينتقم من الكفار، فكان شديد السطوة والإغلاظ فيهم، وقيله: قوله، والمراد أن قوله معتد به لكونه نافذاً ماضياً، يشير بالبيت إلى حاله مع النبي الكريم ﷺ حين قدم عليه وهو في المسجد، ووضع يده في يده يستأمنه.

(٢) أخوف: أشد إخافة وإرهاباً، ومنسوب: أي إلى أمور صدرت منك، كقولك لأخيك بجير: «سقاك بها المأمون... إلخ» ومسؤول: أي عن سببها، أو مسؤول عن نسبك، فكأنه يقول: من قبيلتك التي تجيرك مني؟ ومن قومك الذين يعصمونك مني؟ قد تبرؤوا منك، وتخلوا عنك، ويروى: «لذاك أهيبُ» و«فذاك أهيبُ» و«لكان أهيبُ» و«فلهو أخوفُ» ويروى: «أرهبُ» مكان «أهيبُ».

(٣) ضيغم: أسد، وضراء الأرض: الأرض التي فيها شجر، والمخدر: غابة الأسد، وعثر (بفتح العين وتشديد المثلثة): اسم مكان مشهور بكثرة السباع، والغيل: الشجر الكثير الملتف، وغيل دونه غيل: أي أجمة تجاورها أجمة أخرى، فتكون أسدها أشد توحشاً، وأقوى ضراوة، يريد أن رسول الله ﷺ أهيبُ من أسود عثر في آجامها، وفي رواية: «من خادر»، والخادر: الأسد الداخل في خدره، وهو حينئذ يكون أشد قوة وبأساً.

(٤) يغدو: يخرج في أول النهار يتطلب صيداً لشبليه، وفي رواية: «يغذو» بالذال، أي يطعم، ويلحم: يطعمهما اللحم، والضرغام: الأسد، ويريد بالضرغامين شبليه، ومعفور: ملقى في العفر، وهو التراب، ووصفه بذلك لكثرته وعدم اكتراثه به لشبعه، وخراديل: قطع صغار، يصف هذا الأسد بكثرة الافتراس، وعظم الاصطياد.

(٥) يساور: يواثب، والقرن (بكسر القاف): المقاوم في الشجاعة، وفي ذكر القرن إشارة إلى أن هذا الأسد لا يساور ضعيفاً ولا جباناً، وإنما يساور مقاومه في الشجاعة، ومساويه في القوة، والمفلول: المكسور المهزوم.

(٦) الجو: اسم موضع، أو هو ما اتسع من الأودية، أو ما بين السماء والأرض، ونافرة: بعيدة، ويروى: «ضامزة» والضامز: الذي يمسك جَرَّته بفيه ولا يجتر، ويروى: «ضامرة» أي جياعاً لعدم قدرتها على الاصطياد، والأراجيل: الجماعات من الرِّجال، وهو جمع أرجال، وأرجال: جمع =

ولا يَـزَالُ بِـوَادِيْـهِ أَخُـوْ ثِقَـةٍ ... مُضَـرَّجُ البَـزِّ والـدِّرْسَـانِ مَـأْكُـولُ(١)

إنَّ الـرَّسُـولَ لَنُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بِـهِ ... مُهَنَّـدٌ مِـن سُيُـوفِ اللهِ مَسْلُـولُ(٢)

فِي عُصْبَةٍ مِن قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّـةَ لَمَّـا أَسْلَمُـوا زُوْلُـوا(٣)

زَالُـوا فَمَـا زَالَ أَنْكَـاسٌ ولا كُشُـفٌ ... عِنْـدَ اللِّقَـاءِ ولا مِيْـلٌ مَعَـازِيْـلُ(٤)

شُـمُّ العَـرَانِيـنِ أبطَـالٌ، لَبُـوسُهُـمُ ... من نَسْجِ دَاوُدَ في الهَيْجَا سَرَابِيلُ(٥)

بِيْضٌ سَوَابِغُ قد شُكَّتْ لهَا حَلَقٌ ... كَـأَنَّهَـا حَلَـقُ القَفْعَـاءِ مَجْـدُولُ(٦)

= رجل، ورجل: اسم جمع لراجل، يصف هذا الأسد بالقوة، حتى خافته السباع والناس.

(١) أخو ثقة: الشجاع الواثق بشجاعته، ومضرج: مخضب بالدماء، ويروى: «مطروح»، أي مطروح، والبز: السلاح، والدِّرسان (بضم الدال): أخلاق الثياب، الواحد دريس، ومأكول: أي طعام لذلك الأسد، يريد أنه لا يمر بوادي هذا الأسد شجاع إلا أكله وطرح ثيابه التي مزقها، فلا يولع إلا بالشجعان، ولا يلتفت لغيرهم.

(٢) يستضاء به: يهتدي به إلى الحق، ويروى: «السيف» في مكان «النور» وقد كانت عادة العرب إذا أرادوا استدعاء من حولهم من القوم أن يشهروا السيف الصقيل، فيبرق، فيظهر لمعانه من بعد، فيأتون إليه مهتدين بنوره، مؤتمين بهديه، شبه الرسول ﷺ بذلك، والمهند: السيف المطبوع في الهند، وسيوف الهند قديماً أحسن السيوف، ومن سيوف الله: أي من سيوف عظمها الله بنيل الظفر والانتقام، والمسلول: المستخرج من غمده.

(٣) العصبة: الجماعة، ويروى: «في فتية» جمع فتى، وهو السخي الكريم، وزولوا: فعل أمر من زال التامة، أي: تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة.

(٤) الأنكاس: جمع نكس (بالكسر): وهو الرجل الضعيف، والكشف (بضم فسكون وحرك للشعر): جمع أكشف، وهو الذي لا ترس معه، أو هم الشجعان الذين لا ينكشفون في الحرب، أي لا ينهزمون، والميل: جمع أميل، وهو الذي لا سيف له، أو هو الذي لا يحسن الركوب، فيميل عن السرج، والمعازيل: الذين لا سلاح معهم، واحدهم معزال (بكسر الميم).

(٥) شم: جمع أشم، وهو الذي في قصبة أنفه علو، مع استواء أعلاه، والعرانين: جمع عرنين، وهو الأنف، وصفهم بهذا الوصف إما على الحقيقة؛ لأن ارتفاع الأنف من الصفات المحمودة في خلق الإنسان، وإما على المجاز، يريد ارتفاع أقدارهم، وعلو شأنهم، واللبوس: ما يلبس من السلاح، ونسج داود: أي منسوجة، وهو الدروع، والهيجا (بالقصر هنا): الحرب، والسرابيل: جمع سربال، وهو القميص أو الدرع، ووصفها بأنها من نسج داود دليل على مناعتها.

(٦) بيض: مجلوة صافية مصقولة، لأن الحديد إذا استعمل لم يركبه الصدأ، والسوابغ: الطوال السوابل، ويلزم من طول الدروع قوة لابسيها، إذ حملها مع طولها يدل على القوة والشدة، =

لَيْسوا مَفَارِيحَ إنْ نالَتْ رِمَاحُهُمُ ... قَوْماً وليسوا مَجَازِيعاً إذا نِيْلُوا[1]
يَمْشونَ مَشْيَ الجِمَالِ الزُّهْرِ يَعصِمُهُم ... ضَرْبٌ إذا عَرَّد السُّودُ التَّنابيلُ[2]
لا يَقَعُ الطَّعنُ إلا في نُحورِهِمُ ... ومالَهُمْ عن حِياضِ المَوتِ تَهْليلُ[3]

ولكعب بن زهير أبيات قالها في خليفة الإسلام الثالث أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

«أتَرْجُو اعْتِذارِيْ يا ابنَ أرْوَى ورَجْعَتي ... عنِ الحقِّ قِدْماً غَالَ حِلْمَكَ غُولُ
وإنَّ دُعائِيْ كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ ... عَلَيْكَ بما أسْدَيتَهُ لَطَويلُ
وإنَّ اغْتِرابِيْ في البِلادِ وجَفْوَتِيْ ... وشَتْمِيَ في ذاتِ الإلَهِ قَلِيْلُ»

وهذه قصيدة تتضمن (٢٨) بيتاً، قالها في مدح سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وإن كان هناك ناس ينهون عن روايتها ونسبتها إلى شعر كعب ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

هَلْ حَبْلُ رَمْلَةَ قبلَ البَيْنِ مَبْتُورُ ... أم أنتَ بالحِلْمِ بعدَ الجَهْلِ مَعْذورُ[4]
ما يَجْمعُ الشَّوقُ إنْ دارٌ بِنا شَحَطَتْ ... ومِثْلُهَا في تَدَانِيْ الدَّارِ مَهْجُورُ[5]
نَشْفَى بِهَا وهْيَ داءٌ لو تُصَاقِبُنَا ... كما اشْتَفَى بِعِيَادِ الخَمْرِ مَخْمُورُ[6]

= وشُكت: أدخل بعضها في بعض، ويروى: «سكت» بمعنى ضيقت، والقفعاء: ضرب من الحسك، وهو نبات له شوك ينبسط على وجه الأرض، تشبه به حلق الدروع، ومجدول: محكم الصنعة.

(١) مفاريح: كثيرو الفرح، جمع مِفراح على وزن مِفعال، صيغة المبالغة، وكذلك: مجازيع ونالوا: أصابوا، ومجازيع: كثيرو الجزع، ويروى: «لا يفرحون... إلخ».

(٢) الزهر: البيض، يصفهم بامتداد القامة، وعظم الخلق، والرفق في المشي، وبياض البشرة، وذلك دليل على الوقار والسؤدد، ويعصمهم: يمنعهم ضرب يقومون به، وعرد: فرّ وأعرض عن قرنه وهرب عنه، والتنابيل: جمع تِنبال، وهو القصير.

(٣) وقوع الطعن في نحورهم: دليل على أنهم لا ينهزمون حتى يقع الطعن في ظهورهم، وحياض الموت: موارد الحتف، يريد بها ساحات القتال، وتهليل: بمعنى التأخّر، ويروى: «فمالهم عن حياص الموت» بالصاد المهملة، جمع حوض: بمعنى مضايقه وشدائده.

(٤) البين: الفرقة، المبتور: المقطوع، والحبل كناية عن المودة والوصل.

(٥) شحطت: نأت، بعدت.

(٦) تصاقبنا: تدانينا، اشتفى: برئ من دائه، عياد الخمر: العودة إليها.

ما رَوْضةٌ من رِياضِ الحُزْنِ باكَرَها ... بالنَّبْتِ مُخْتَلِفِ الألْوَانِ مَمْطُورُ[1]
يَوْماً بأطْيَبَ مِنْها نَشْرَ رائحَةٍ ... بعدَ المَنَامِ إذا حُبَّ المَعَاطِيرُ[2]
ما أنْسَ لا أنسَها والدَّمعُ منسَرِبٌ ... كأنَّهُ لُؤْلُؤٌ في الخدِّ مَحْدُورُ[3]
لمَّا رأيتُهُمُ زُمَّتْ جِمَالُهُمُ ... صَدَّقْتُ ما زَعَمُوا والبَيْنُ مَحْذورُ[4]
يَحْدُو بِهِنَّ أخُوْ قَاذُورةٍ حَذِرٌ ... كأنَّه بجَمِيْعِ النَّاسِ مَوْتُورُ[5]
كأنَّ أظعَانَهُمْ تُحْدَى مُقَفِّيَةً ... نَخْلٌ بعَيْنينِ مُلْتَفٌّ مَوَاقِيرُ[6]
غُلْبُ الرِّقابِ سَقَاها جَدْوَلٌ سَرِبٌ ... أو مَشْعَبٌ من أتِيِّ البَحْرِ مَفْجورُ[7]
هَلْ تُبَلِّغَنِّي عَلِيَّ الخَيْرِ ذِعْلِبَةٌ ... حَرْفٌ تَزَلَّلَ عن أصْلابِها الكُوْرُ[8]
مِنْ خَلْفِها قُلُصٌ تَجْرِي أزِمَّتُهَا ... قد مَسَّهُنَّ مع الإدْلاجِ تَهْجيرُ[9]
يَخْبِطْنَ بالقَوْمِ أنْضَاءَ السَّرِيْحِ وقَدْ ... لاذَتْ منَ الشَّمسِ بالظِّلِ اليَعَافيرُ[10]
حتَّى إذا انْتَصَبَ الحِرْباءُ وانتقلَتْ ... وحانَ إذ هَجَّروا بالدَّوِّ تَغْويرُ[11]

(١) الحزن: طريق بين المدينة وخيبر، وقال أبو عمر: الحزن الغليظ من الأرض، باكرها ممطور: انصب عليها المطر في الصباح الباكر.

(٢) المعاطير: الواحد معطار: الذي من عادته أن يتعهد نفسه بالطيب.

(٣) (ما) هنا: شرطية، محدور: منحدر.

(٤) زمّت: ربطت وشدت، وزمّ الجمال: خطمها.

(٥) القاذورة: الناقة التي تبرك ناحية منها، وتستبعد، وتنافرها عند الحلب.

(٦) الأظعان: الواحدة ظعينة: المرأة ما دامت في الهودج، عينان: قرية بالبحرين كثيرة النخل، المواقير: التي كثر حملها.

(٧) غلب الرقاب: غليظة الأعناق، المشعب: الطريق.

(٨) عليّ الخير: أراد علي بن أبي طالب، الذعلبة: الناقة السريعة، الحرف: الناقة الضامرة الصلبة، الكور: الرحل.

(٩) القلص: الواحدة قلوص: الشابة من الإبل، الأزمة: الواحد زمام: العنان، الإدلاج: السير في أول الليل، التهجير: السير في الهاجرة، أي منتصف النهار.

(١٠) أنضاء، من نضى: هزل، السريح: السير الذي يشبه الخدمة فوق رسغ البعير، اليعافير: الواحد يعفور: الظبي الذي لونه كلون التراب.

(١١) الحرباء: دويبة تستقبل الشمس برأسها، وتكون معها كيف دارت، وتتلون ألواناً بحرّها، الدو: المفازة، التغوير: النزول في القائلة.

قالوا تَنَحَّوا فمَسُّوا الأرض فاحْتَوَلُوا ... ظِـلاً بمُنْخَـرقٍ تَهْفُـو بـه المُـوْرُ[1]

ظَلُّـوا كـأنَّ علَيْهِـمْ طَـائِـراً عَلِقَـاً ... يَهْفُـو إذا انسَفَـرتْ عنـهُ الأعـاصِيرُ[2]

لـوِجْهَـةِ الـرِّيْـحِ منـهُ جـانِـبٌ سَلِـبٌ ... وجـانِـبٌ بـأكُـفِّ القَـوْمِ مَضْبُـورُ[3]

حتَّـى إذا أبـرَدُوا قَـامُـوا إلـى قُلُـصٍ ... كـأنَّهُـنَّ قِسِـيُّ الشَّـوحَـطِ الـزُّورُ[4]

عَـوَاسِـلٌ كَـرَعِيْـلِ الـرُّبْـدِ أفـزَعَهـا ... بـالسِّـيِّ مـن قَـانِـسٍ شَـلٌّ وتَنْفيـرُ[5]

حتَّى سَقَى الليلُ سَقْيَ الجِنِّ فانغَمسَتْ ... فـي جَـوْزِهِ إذْ دجَـا الآكـامُ والقُـوْرُ[6]

غطَّـى النَّشَـازَ مـعَ الآكَـامِ فـاشْتَبَهَـا ... كِـلاهُمـا فـي سَـوادِ اللَّيْـلِ مَغْمـورُ[7]

إنَّ عليَّـاً لَمَيْمـونٌ نقِيْبَتُـهُ ... بالصَّالحاتِ منَ الأفعَالِ مَشْهورُ[8]

صِهْـرُ النَّبـيِّ وخيـرُ النَّـاسِ مُفْتَخَـراً ... فكُـلُّ مـنَ رامَـهُ بـالفَخْـرِ مفخُـورُ

صلَّـى الطَّهُـورُ مـعَ الأُمِّـيِّ أوَّلَهُـمْ ... قَبْـلَ المَعَـادِ ورَبُّ النَّـاسِ مَكْفُـورُ[9]

---

(١) احتولوا: احتوشوا وأحاطوا به ، المنخرق: مكان تتخرق فيهم الريح ، أي تهب ، المور: التراب الذي تثير الرياح.

(٢) الطائر العلق: الذي يعلق في الحبالة ، أي الفخ ، يهفو: يطير ، انسفرت: انكشفت ، الأعاصير: الواحد إعصار: الريح ترتفع بتراب بين السماء والأرض كأنها عمود.

(٣) السلب: السريع ، ورجل سلب اليدين بالضرب والطعن: خفيفهما ، ورمح سلب: طويل ، المضبور: المجتمع الحلق الأملس.

(٤) أبردوا: دخلوا في العشي ، القلص: الواحدة قلوص: الشابة الفتية من الإبل ، الشوحط: ضرب من النبع تتخذ منه القسي ، الزور: الواحدة زوراء: القوس المنعطفة.

(٥) العواسل: المضطربة في سيرها لخفّتها ونشاطها ، الرعيل: الجماعة ، الربد: النعام ، أو ما كان لونها بلون الرماد ، السيّ: موضع مبين ذات عرق إلى وجرة على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة ، دون ركية على يسار طريق مكة ، لمن يخرج من ضرية ، الشل: الطرد ، وكذلك التنفير.

(٦) جوز الليل: وسطه ومعظمه ، دجا: أظلم ، الآكام الواحدة أكمة: وهي ما ارتفع من القف وصعد في السماء ، القور: جُبيل مستدق ملموم طويل في السماء.

(٧) النشاز: ما ارتفع من الأرض ، أراد أن السير قد امتد بهم إلى وسط الليل ، وكان شديد الظلمة ، فاشتبهت عليهم الآكام والقور.

(٨) النقيبة: السجية والطبيعة.

(٩) الطهور: أراد علياً عليه السلام ، الأمي: النبي الكريم محمد ﷺ ، أراد أن علياً كان أول السابقين إلى الإسلام.

مُقـاوِمٌ لِطُغَـاةِ الشِّـركِ يَضْـرِبُهُـمْ ... حتَّـى استَقَـامُـوا ودِيْـنُ اللهِ مَنْصـورُ[1]

بـالعَـدْلِ قـامَ أمِيْنـاً حيـنَ خَـالَفَـهُ ... أهـلُ الهَـوى وذَوُو الأَهْـوَاءِ والـزُّورُ

يـا خيـرَ مَـنْ حَمَلَـتْ نَعْـلاً لـهُ قَـدَمٌ ... بعـدَ النَّبـيِّ لـدَيْـهِ البَغْـيُ مَهْجـورُ

أعطَـاكَ ربُّـكَ فَضْـلاً لا زَوالَ لَـهُ ... مِـنْ أيـنَ أنَّـى لـهُ الأيَّـامَ تَغْيِيـرُ[2]

وهذه قصيدة طويلة من البحر المتقارب تتجلى فيها عبقريته الشعرية وإبداعه الفني ، يتحدث فيها عن الدِّمن والأطلال ، ويصف فيها الناقة ، ويذكر رعاة الإبل والغنم ، ويشير إلى ما له ولقومه من مكانة وشهرة في الحروب والقتال ، يقول:

أَمِـن دِمْنَـةِ الـدَّارِ أَقْـوَتْ سِنِينَـا ... بَكَيْـتَ فَظَلْـتَ كَئِيْبـاً حَـزِينـا[3]

بهَـا جَـرَّتِ الـرِّيـحُ أذيَـالَهـا ... فلَـمْ تُبْـقِ مِـن رَسْمِهـا مُسْتَبِينَـا[4]

وذكَّـرَنِيْهـا علـى نَـأْيِهَـا ... خَيَـالٌ لهَـا طـارِقٌ يَعْتـرِينَـا[5]

فلَمَّـا رأيْـتُ بـأنَّ البُكَـاءَ ... سَفَـاهٌ لـدَى دِمَـنٍ قـد بَلِيْنـا[6]

زَجَـرْتُ علـى مـا لَـدَيَّ القُلُـو ... صَ مِـنْ حَـزَنٍ وعَصَيْـتُ الشُّؤُونـا[7]

وكُنْـتُ إذا مـا اعتَـرَتْنِـي الهُمـومُ ... أكلِّفُهَـا ذاتَ لَـوْثٍ أَمُـونَـا[8]

عُـذَافِـرَةً حُـرَّةَ اللِّيْـطِ لا ... سَقُـوطَـاً ولا ذاتَ ضِغْـنٍ لَجُـونَـا[9]

---

(١) حتى استقاموا: أي ثابوا إلى رشدهم.

(٢) انظر ديوان كعب بن زهير ، طبع دار الكتب العلمية - بيروت ، ص ٣٩ - ٤١.

(٣) الدمنة: آثار الدار ، ما اختلط من البعر والطين عند الحوض ، فتلبد ، أقوت: خلت من ساكنيها.

(٤) أراد أن الريح لعبت بها ، فلم تترك أثراً بارزاً منها.

(٥) النأي: البعد ، يعترينا: يعادونا ، يأتينا.

(٦) السفاه: الطيش ، يقول: لما أيقن أن البكاء على تلك الدمن سفاه وطيش ، لأنها بليت ، وعفت الريح آثارها ، وخلت من ساكنيها.

(٧) القلوص: الناقة الطويلة القوائم ، الشؤون: مجاري الدمع ، يتابع شرح البيت السابق ، فيقول: عندها زجرت ناقتي وحبست دموعي.

(٨) اللوث: القوة والشدة ، الأمون: الناقة الوثيقة الخلق ، قد أمنت أن تكون ضعيفة ، وهي التي أمنت العثار والإعياء.

(٩) العذافرة: الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة الظهيرة وهي الأمون ، الليط: اللون ، وقوله: لا ذات ضغن: يريد أنها ليس لها هوى سوى هوى راكبها ، اللجون: الحرون ، الثقيلة المشي.

كـأنّـي شَـدَدْتُ بـأنسَـاعِهـا ... قُـوَيْـرِحَ عـامَيْـنِ جَـأْبـاً شَنُـونـا[1]

يُقَلِّـبُ حُقْبَـاً تَـرَى كُلَّهُـنْ ... ـنَ قـد حَمَلَـتْ وأَسَـرَّتْ جَنِيْنـا[2]

وحَـلأَهُـنَّ وخَـبَّ السَّفَـا ... وهَيَّجَهُـنَّ فَلَمَّـا صَـدِيْنَـا[3]

وأَخْلَفَهُـنَّ ثِمَـادَ الغِمَـارِ ... ومـاكُـنَّ مِـنْ ثَـادِقٍ يَحْتَسِيْنَـا[4]

جَعَلْـنَ القَنَـانَ بـإِبْـطِ الشِّمَـالِ ... ومـاءَ العُنَـابِ جَعَلْـنَ اليَمِيْنـا[5]

وبَصْبَصْـنَ بيـنَ أَدَانِـي الغَضَـا ... وبيـنَ عُنَيْـزَةَ شَـأْوَاً بَطِيْنـا[6]

فـأَبْقَيـنَ منـهُ وأَبْقَـى الطِّـرا... ... ـدُ بَطْنـاً خَمِيْصـاً وصُلْبـاً سَمِيْنـا[7]

وعُـوْجَـاً خِفَـافـاً سِـلامَ الشَّظَـى ... ومِيْظَـبَ أُكْـمٍ صَلِيْبـاً رَزِيْنـا[8]

إذا مَـا انتحَـاهُـنَّ شُـؤْبُـوبُـهُ ... رَأَيْـتَ لِجَـاعِـرَتَيْـهِ غُضُـونَـا[9]

---

(١) الأنساع: حبال طويلة عريضة تشد بها الرحال ، القويرح: تصغير القارح: وهو بمنزلة البازل من الإبل ، يقال: قرح الفرس يقرح قروحاً ، إذا انتهت أسنانه ، وإنما تنتهي في خمس سنين ، لأنه في السنة الأولى حولي ، ثم جذع ثم ثني ، ثم رباع ، ثم قارح ، وقيل: هو في الثانية فلو ، وفي الثالثة جذع ، الجأب: الغليظ ، الشنون: ما كان بين السمين والمهزول.

(٢) يقلب حقباً: أي يصرف الأتن كيف يشاء ، والأتن جمع الأتان: بمعنى الحمارة.

(٣) حلأهن: منعهن الورد ، خب: جرى ، وفي حديث مفاخرة رعاء الإبل والغنم: هل تخبون أو تصيدون؟ أراد أن رعاء الغنم لا يحتاجون أن يخبوا في آثارها ، ورعاء الإبل يحتاجون إليه إذا ساقوها إلى الماء ، السفا: شوك البهمي والسنبل ، وكل شيء له شوك ، صدين: عطشن.

(٤) الثماد: الحفر التي يقل ماؤها ، الغمار: اسم واد بنجد (معجم البلدان: ٩٤/ ٢٠) ثادق: اسم واد في ديار عقيل فيه مياه (معجم البلدان: ٢/ ٧٠).

(٥) القنان: جبل فيه ماء يدعى العسيلة ، وهو لبني أسد ، وقال الأزهري: قنان جبل بأعلى نجد (معجم البلدان: ٤/ ٤٠١) ، العناب: جبل في طريق مكة ، وقيل: العناب طريق المدينة من فيد ، وقال السكري: العناب جبل أسود بالمروت (معجم البلدان: ٤/ ١٥٩).

(٦) بصبصن: حركن ، الغضا: أرض في ديار بني كلاب ، والغضا أيضاً واد بنجد ، عنيزة: موضع بين البصرة ومكة ، (معجم البلدان: ٤/ ١٦٣) الشأو: البعد ، البطين: الواسع البعيد.

(٧) الخميص: الضامر: الصلب: الظهر.

(٨) العوج: القوائم الطوال ، سلام الشظى: لم تغب عظيماتها اللاصقة ببطن الذراع ، الميظب: من المواظبة ، يقول: إنه مواظب أبداً على الأكم ، فهو يعلوها باستمرار.

(٩) الشؤبوب: الدفعة ، الوثبة ، الجاعران: حرفا الوركين المشرفان على الفخذين ، الغضون: التثني ، واحدها غضن ، وهو تشنج في الجلد.

يُعْضِضُهُـنَّ عَضِيْـضَ الثِّقَـا... ... ...فِ بـالسَّمْهَـرِيَّـةِ حتَّـى تَلِيْنـا[1]

ويَكْـدِمُ أَكْفَـالَهَـا عَـابِسـاً ... فبـالشَّـدِّ مِـنْ شَـرِّهِ يتَّقِيْنـا[2]

إذا مَـا انْتَحَـتْ ذاتُ ضِغْـنٍ لـهُ ... أَصَـرَّ فَقَـدْ سَـلَّ مِنْهـا ضُغُـونـا[3]

لـهُ خَلْـفَ أَدْبَـارِهَـا أَزْمَـلٌ ... مكَـانَ الـرَّقِيْـبِ مـنَ اليَـاسِـرِيْنَـا[4]

يُحَشْـرِجُ مِنْهُـنَّ قِيْـدَ الـذِّرَاعِ ... ويَضْـرِبْـنَ خَيْشُـومَـهُ والجَبِيْنـا[5]

فـأَوْرَدَهـا طـامِيَـاتِ الجِمَـامِ ... وقَـدْ كـنَّ يَـأْجِـنَّ أو كُـنَّ جُـوْنَـا[6]

يُثِـرْنَ الغُبَـارَ علَـى وَجْهِـه ... كلَـوْنِ الـدَّوَاخِيْـنِ فـوقَ الإرِيْنَـا[7]

ويَشْـرَبْـنَ مِـنْ بَـارِدٍ قـد عَلِمْـ ... ـنَ أَنْ لا دِخَـالَ وأَنْ لا عُطُـونَـا[8]

---

(١) الثقاف: الحديدة التي تقوم بها الرماح ، السمهرية: القناة الصلبة ، ويقال: هي منسوبة إلى سمهر اسم رجل كان يقوّم الرماح بالخط.

(٢) يكدم: يعض ، الأكفال ، الواحد كفل: العجز ، وقيل: ردف العجز ، وقيل: القطن يكون للإنسان والدابة ، الشد: العدو.

(٣) ذات الضغن: ذات الحقد ، أصر أذنه: سواها ونصبها للاستماع ، يقال: جاءت الخيل مصرة آذانها ، أي محددة آذانها رافعة لها ، وإنما تفعل ذلك إذا جدَّت في السير.

(٤) ورد في صدر البيت في لسان العرب: «خلف أذنابها» الأزمل: الصوت المختلط ، وكل صوت من أصوات الناس والدواب إذا سمعته مختلطاً فهو أزمل ، الرقيب: هو أمين أصحاب الميسر ، وقيل: هو الرجل الذي يقوم خلف الحرضة في الميسر ، وفي التهذيب: الرقيب اسم السهم الثالث من قداح الميسر ، أراد أن هذا العير قريب من الأتان كقرب الرقيب من الياسر.

(٥) يحشرج من الحشرجة: تردد صوت النفس ، وفي الجوهري: الحشرجة الغرغرة عند الموت وتردد النفس ، قيد الذراع: مقداره ، الخيشوم: أقصى الأنف.

(٦) الطاميات: المرتفعات ، الجمام الواحد جمة: معظم الماء ، يَأْجِنَّ: يَأْسِنَّ ، أي يتغير طعمها ولونها وريحها ، الجون هنا: الكدرة والتغير.

(٧) الدواخين: الدخان ، الإرين ، لعله أراد السحاب ، وقد شبه الغبار الثائر بالدخان المنتشر.

(٨) ورواية صدر البيت أيضاً: «ويشرعن في بارد قد علمن» يقول: هذه قطعان لا تحتاج إلى دخال ولا عطون ، والدخال: أن تورد إبل فيكون البعير العزيز النفس أو ذو العلة يمتنع من أن يشرب ولا يدخل فإذا علم ذلك منه أدخل بين بعيرين ، مما لم يشرب فيهتاج بشربهما للشرب ، ولا يفعلون ذلك إلا بالناقة الكريمة عليهم ، والعطون: أن تشرب الإبل الماء ، ثم تبرك قريباً منه ، فذلك المبرك هو العطن ، هذا ما نصه الأحول في شرح هذا البيت ، ولعله أراد أن تلك العير راحت تشرب شرب من يعلم أن لا رجعة له إلى الماء.

وتَنْفِي الضَّفَادِعُ أنفَاسَهَا ... فهُنَّ فُوَيْقَ الرَّجَا يَرتَقِينَا(١)
فصَادَفْنَ ذا حَنَقٍ لاصِقٍ ... لُصُوقَ البُرَامِ يَظُنُّ الظُّنُونَا(٢)
قَصِيرَ البَنَانِ دقِيقَ الشَّوَى ... يَقُولُ أَيَأتِينَا أمْ لا يَجِينَا(٣)
يَؤُمُّ الغَيَابَةَ مُسْتبشِراً ... يُصِيبُ المَقَاتِلَ حَتْفاً رَصِينَا(٤)
فجِئْنَ فأوجَسْنَ من خَشْيَةٍ ... ولم يَعْتَرِفْنَ لنَفْرٍ يَقِينَا(٥)
وتَلْقَى الأكَارِعَ في بارِدٍ ... شَهِيٍّ مَذَاقَتُهُ تَحْتَسِينَا(٦)
يُبَادِرْنَ جَرْعَاً يُوَاتِرْنَهُ ... كقَرْعِ القُلَيْبِ حَصَى القَاذِفِينا(٧)
فأمْسَكَ يَنْظُرُ حتَّى إذا ... دَنَوْنَ من الرِّيِّ أو قد رَوِينَا(٨)
تَنَحَّى بصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعَةٍ ... على الكَفِّ تَجْمَعُ أَزْزاً ولِينَا(٩)
مُعِدَّاً على عَجْسِهَا مُرْهَفَاً ... فَتِيقَ الغِرَارَيْنِ حَشْراً سَنِينَا(١٠)

(١) تنفي: تبعد وتنحي ، الرجا: حافة البئر وجانبها ، يرتقين: يصعدن ، أراد أن هذه الإبل إذا تنفست في الماء تنحّت الضفادع ، وارتقت جانب البئر.
(٢) ذو حنق: الصائد الذي لبث في مكمنه ، البرام: القراد ، قوله: يظن الظنونا: أي يتردد في قوله: ويتوجس بين ورودها الماء وعدم ورودها ، وبين صواب الرمي وخطئه.
(٣) الشوى: ما كان غير مقتل من الأعضاء ، اليدان والرجلان والأطراف ، وقوله ، لا يجينا: مسهل لا يجئنا.
(٤) يؤم: يقصد ، الغيابة: الشجر الكثيف ، وغيابة كل شيء: ما سترك منه كالجب والوادي وغيرهما ، الحتف: الموت ، الرصين: المحكم.
(٥) أوجسن: أحسسن بالخوف ، النفر: الارتياع والذعر.
(٦) الأكارع الواحد كراع: هو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس وهو مستدق الساق ، وقيل: هو من الدواب ما دون الكعب ، ومن الإنسان ما دون الركبة من مقدم الساق.
(٧) يقول الأحول في شرح هذا البيت: شبه جَرْعَ هذه الحمير الماء وصوته في حلوقهن بصوت الحصا يُحذَف في الماء.
(٨) أمسك: يريد الصائد ، دنون: قاربن ، وقوله: روين أي: شربن حتى اكتفين.
(٩) الصفراء: القوس إذا طال بها الدهر اصفرت ، وربما كويت بالنار فاصفرت ، النبعة: شجر أصفر العود ، رزينة: ثقيلة في اليد ، وإذا تقادم احمرَّ ، وكل القسي إذا ضمت إلى قوس النبع كرمتها قوس النبع ، لأنها أجمع القسي للأرز واللين (والأرز الشدة) ولا يكون العود كريماً حتى يكون كذلك.
(١٠) العجس: شدة القبض على الشيء ، وعجس القوس: مقبضها الذي يقبضها الرامي منها ، وقيل: هو موضع السهم منها ، فتيق الغرارين: أي واسع الحدين ، الحشر: القائم الذي ليس بمستو ، =

فأرسَلَ سَهْماً على فُقْرَةٍ ... وهُنَّ شَوَارِعُ ما يَتَّقِينا(١)
فَمُرَّ على نَحْرِه والذِّراعِ ... ولَمْ يَكُ ذَاكَ له الفِعْلُ دِينَا(٢)
فلَهَّفَ مِنْ حَسْرةٍ أُمَّهُ ... وَوَلَّيْنَ مِنْ رَهَجٍ يَكْتَسِينا(٣)
تُهَادِي حَوَافِرُهُنَّ الحصَى ... وصُمُّ الصُّخورِ بها يَرْتَمِينا(٤)
فقَلْقَلَهُنَّ سَراةَ العِشَا ... ...ءِ أَسْرعَ من صَدَرَ المُصْدِرِينا(٥)
يَزُرُّ ويَلْفِظُ أوْبَارَها ... ويَقْرُو بِهِنَّ حُزُوناً حُزُونا(٦)
وتَحسَبُ في البَحْرِ تَعْشِيرَهُ ... تَغَرُّدَ أهْوَجَ في مُنْتَشِينا(٧)
فأصْبَحَ بالجِزْعِ مُسْتَجْذِلاً ... وأصبَحْنَ مُجْتَمِعَاتٍ سُكُونَا(٨)

وقصيدة أخرى:

هنا قصيدة أخرى قالها بعدما توفي والده وقد كان ذا رفاهية وعيش رغيد ، فلما مات أصيب بفقر وشدة ، وتوتّرت العلاقة بينه وبين زوجته التي كانت لا تزال تلومه

= وهو المحدد ، وقيل: اللطيف القد ، وقوله: سنين أي مسنون ، ماضي الحد.
(١) الفقرة: مكان الفقار: شوارع الواحد شارع: كل دان من شيء فهو شارع ، أراد أن ذلك الصائد أرسل سهماً من سهامه على تلك الأتن ، وقد دنت من الماء آمنة ، لا تخاف شراً يصيبها.
(٢) الدين: الخلق والعادة ، يقول: لقد مر السهم على نحر العير وذراعه ، ولعله أراد أنه أخطأه ، وما كان ذلك من عادته.
(٣) الرهج: الفتنة والشغب ، الغبار ، أراد أن العير الذي أصابه السهم ترك أمه في لهفة بعد أن ولت الأتن هاربة تستتر بالغبار المثار من شدة عدوها.
(٤) وقوله: تهادي حوافرهن الحصى: أي تنجل الحصى بحوافرها.
(٥) ورد في صدر البيت «سراة الضحاء» أراد قلقل الفحل العانة ، السراة: ارتفاع النهار ، المصدرون: العائدون عن الماء ، وهي عكس «الواردون».
(٦) يزر: يعض ، يلفظ: يقذف ما في فيه ، يقرو: يتبع ، الحزون الواحد حزن: ما غلظ من الأرض.
(٧) البحر هنا: لعله الريف ، التعشير: من عشر الحمار ، إذا نهق عشر نهقات ، ووالى بين عشر ترجيعات في نهيقه ، التغريد: الصوت فيه شبه بالتطريب ، المنتشون: السكارى.
(٨) الجزع: انحناء الوادي ، المستجذل: الجذل ، الفرح ، وقد أفلت من شباك الصائد ، ومما كان يخاف ، وقوله: مجتمعات سكوناً ، أي يترددون إلى المرعى ، ويرتعن فيه مطمئنات (انظر ديوان كعب بن زهير ، طبع دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ، ص ٩٣ ـ ٩٨).

على مكانه من الفقر وسوء الخلق ، فقال هذه القصيدة التي تُعتبر من أجمل القصائد تعبيراً وبلاغةً:

بكَرَتْ علَيَّ بسَحْرَةٍ تَلْحَانِيْ ... وكَفَى بها جَهْلاً وطَيْشَ لِسَانِ(١)
ولقَدْ حَفِظْتُ وَصاةَ مَنْ هوَ ناصِحٌ ... لِيْ عالِمٌ بمَآقِطِ الخُلَّانِ(٢)
حتَّى إذا بَرَتِ العِظَامَ زَجَرْتُها ... زَجْرَ الضَّنِيْنِ بعِرْضِه الغَضْبانِ(٣)
فرَأيتُها طَلَحَتْ مخَافةَ نَهْكَةٍ ... مِنِّي وبادِرَةٍ وأيِّ أوانِ(٤)
ولقَدْ عَلِمتُ وأنتِ غيرُ حَلِيْمةٍ ... ألا يُقَرِّبُنِي هَوًى لِهَوانِ(٥)
هَبِلَتْكِ أمُّكَ هل لَدَيكِ فتُرشِدِي ... في آخِرِ الأيَّامِ مِنْ تِبْيانِ(٦)
أرْعَى الأمَانةَ لا أَخونُ ولا أرَى ... أبداً أُدَمِّنُ عَرْصَةَ الخَوَّانِ(٧)
وتَنكَّرَتْ لِي بعدَ وُدٍّ ثابتٍ ... أنَّى تَجامُعُ وَصْلِ ذِيْ الأَلوَانِ(٨)
يَوْماً طِوَاعُكَ في القِيادِ وتارةً ... تَلْقاكَ تُنكِرُهَا مِنَ الشَّنآنِ(٩)
طَوْراً تُلاقِيهِ أَخَاكَ وتارةً ... تَلْقَاهُ تحسَبُهُ مِنَ السُّودانِ(١٠)

---

(١) السحرة: ما قبل انصداع الفجر ، تلحاني: تلومني.
(٢) المآقط ، الواحد مأقط: المجمع وملتقى الحرب ، وقال الأصمعي: المآقط: الأيام.
(٣) برت العظام: مثل يقال عند شدة الشيء وعدم احتماله ، أراد: بلغت في لومها كل ما يشقّ علي ، فلما فعلت ذلك زجرتها زجر الضنين بعرضه ، أي: أقصيتها وباعدتها.
(٤) طلحت: كلّت وأعيت ، النهكة: العقوبة ، البادرة: الغضب ، وقوله: «أي أوان» أي جاءت تعذلني عند الكبر وسوء الحال ، وهذا ليس أوان العذل واللوم (انظر الديوان ، ص ٩٨ ـ ١٠١).
(٥) يقول: لقد علمت مني أيام الطيش والشباب أن الذل والهوان يباعدني عن التتيّم والهوى ، فما بالك عند الكبر والحلم والوقار؟.
(٦) هبلتك: ثكلتك ، أراد: هذا أوان رشد ، فهلا ترشدين في آخر الأزمان وترجعين عن غيّك.
(٧) أرعى الأمانة: أحفظها ، أدمّن: أتخذ منزلاً فأقيم فيه أياماً كثيرة ، العرصة: فجوة متسعة ما بين البيوت.
(٨) تنكرت: ساء خلقها ، أنى: بمعنى كيف ، يقول: كيف يدوم ودّ المتلوّن الذي لا يدوم على حال من الأحوال.
(٩) طواعك: سهلة الانقياد لك ، رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره: «هي طواعك» ، الشنآن: البغض (انظر الديوان ، ص ٩٨ ـ ١٠١).
(١٠) شبّهها بالأسود من الحيّات ، وذلك أن هذه الحيّة تعيش أكثر دهرها قليلة الأذى ، ثم تهيج وقتاً من السنة ، فلا تلدغ شيئاً إلا قتلته وأهلكته (انظر الديوان ، ص ٩٨ ـ ١٠١).

ومَرِيضَةٍ قَفْرٍ يُحَاذَرُ شَرُّهَا ... من هَوْلِها قَمِنٌ مِنَ الحَدَثَانِ(١)
غَبْراءَ خاضِعَةِ الصُّوَى جاوَزْتُها ... لَيْلاً بكَاتِمَةِ السُّرى مِذْعَانِ(٢)
حَرْفٍ تَمُدُّ زِمَامَها بعُذَافِرٍ ... كالجِذْعِ شُذِّبَ لِيْفُهُ الرَّيَّانِ(٣)
غَضْبَى لمَنْسِمِها صِيَاحٌ بالحصَى ... وَقْعَ القَدُومِ بغَضْرَةِ الأفنَانِ(٤)
تَسْتَشْرِفُ الأشْبَاحَ وهْيَ مُشِيْحَةٌ ... بِبَصِيْرةٍ وحشيَّةِ الإنسَانِ(٥)
خَوْصَاءَ صَافِيَةٍ تَجُودُ بمَائِها ... وَسْطَ النَّهَارِ كنُطْفَةِ الحَرَّانِ(٦)
تَنْفِي الظَّهِيْرةَ والغُبَارَ بحَاجِبٍ ... كالكَهْفِ صِينَتْ دُونَهُ بِصِيَانِ(٧)
زَهْرَاءُ مُقْلَتُهَا تَرَدَّدَ فَوْقَهَا ... عندَ المُعَرَّسِ مُدْلَجُ القِرْدَانِ(٨)
أَعْيَتْ مَذَارِعُهَا علَيْهِ كَأَنَّمَا ... تَنْمِي أَكَارِعُهُ على صَفْوانِ(٩)

---

(١) المريضة: الأرض لا نبت فيها ولا ماء فيتعذّر على السالك سلوكها ، وقيل: الأرض تتفرق فيها الريح فتضعف لسعتها وطولها ، قمن: خليق ، جدير ، الحدثان: نوائب الدهر وصروفه.
(٢) الخاضعة: الخاشعة المذللة ، الصوى: الأعلام تجعل على الطريق فيُهتدى بها ، كاتمة السرى: لا ترغو ، المذعان: الذليلة ، أراد أن الأرض التي قطعها بعيدة الأطراف فترى أعلامها كأنها قد خشعت ، ثم وصف الناقة التي سار عليها في هذه الفلاة ، فقال: هي كاتمة السرى لا ترغو ، وسهلة الانقياد مذعنة.
(٣) الحرف: التي تشبه حرف الجبل من شدّتها ، العذافر: العنق ، شذب عنه ليفه: ألقي عنه ، شبّه عنقها بالجذع الريّان لطوله ولينه وانعطافه.
(٤) غضبى: كأن بها من مرحها ونشاطها غضباً ، المنسم: طرف الخف. القدوم: الفأس ، الغضرة: اللينة الرخصة ، الأفنان: الواحد فنن: الغصن الرطب.
(٥) تستشرف الأشباح: أي تتأمل الأشخاص الذين يظهرون من بعيد ، المشيحة: المحاذرة ، البصيرة: العين البصيرة ، قيل في شرحه: إنما أراد أنها تنظر بعين وحشية ، وذلك أن الوحش أشد إبصاراً من سائر الحيوان.
(٦) الخوصاء: الغائرة العيون ، تجود بمائها: تهمل عينها للتعب ، الحرّان: العطشان.
(٧) تنفي الظهيرة: أي تقطع الغبار ، وقوله: «صينت دونه بصوان» أراد أن العين الخوصاء صينت بحاجب يمنعها كل مكروه.
(٨) الزهراء: الصافية ، المعرّس: الموضع يعرّس فيه القوم أي ينزلون للاستراحة ، يقول: إنما القراد يتردّد فوقها فلا يثبت عليها لاكتناز لحمها وامّلاس جسمها.
(٩) المذارع ، الواحد مذراع: القائمة التي تذرع بها الأرض ، وقيل: هو من رسغ البعير إلى مرفقه ، تنمي: تصعد ، الأكارع ، الواحد كراع: هو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس =

فَتَعَجْرَفَتْ وتعَرَّضَتْ لِقَلائِصٍ ... خُوْصِ العُيونِ خَواضِعِ الأَذْقَانِ[1]

شَبَّهْتُهَا لَهِقَ السَّرَاةِ مُلَمَّعاً ... منهُ القَوائِمُ طَاوِيَ المُصْرَانِ[2]

فغَدا بمُعْتَدِلَيْنِ لم يَسْلُبْهُمَا ... لا فِيْهِما عِوَجٌ ولا نَقْدانِ[3]

وكِلاهُمَا تحتَ الضَّبَابِ كأَنَّمَا ... دَهَنَ المُثَقَّفُ لِيْطَهُ بِدِهَانِ[4]

وغَدا بسَامِعَتَيْ وَأَى أَعْطَاهُمَا ... حَذَراً وسَمْعَاً خَالِقُ الآذانِ[5]

كلمة آخر الكتاب:

هذا آخر ما أردنا أن نعرضه من شعر هؤلاء المسلمين من كبار الشعراء المخضرمين ممن أكرمهم الله بالإسلام ووفقهم للدفاع عن الإسلام وعن نبيه ﷺ، يوم كان الإسلام حديث العهد لم تألفه القلوب، وتألبت عليه قوى الكفر والطغيان وقام شعراء القبائل الفحول بالهجوم على رسالة الإسلام وحَطِّ شأن النبي الكريم ﷺ بسلاح حاد من الشعر البليغ وسهام من الكلام المؤثر القوي.

وقيَّض الله سبحانه وتعالى للرد عليهم وردِّ نبالهم الكلامية في وجوههم بالقريض الجاد والشعر الأخَّاذ، ثم الانتصار عليهم، حتى وجد الإيمانُ سبيلاً إلى قلوبهم ودخلوا في كنف النبي الكريم ﷺ وعاشوا حياة الجد والورع والعفاف، وقاموا بدور رائع في أداء الواجب وتوسعة رقعة الإسلام وتعريفه إلى الناس، واستبشروا

= وهُوَ مستدق الساق، وقيل: هو من الدواب ما دون الكعب، ومن الإنسان ما دون الركبة من مقدم الساق، الصفوان: الحجارة الملساء.

(١) تعجرفت: استعصت على صاحبها، القلائص، الواحدة قلوص: الفتية من الإبل، الطويلة القوائم، خوص العيون: أي غائرات العيون، خواضع: مادَّة أعناقها، الأذقان: أطراف اللحي.

(٢) اللهق: الأبيض، السراة: الظهر، الملمع: الذي اختلفت ألوانه وخالطتها خطوط سود، طاوي المصران: أي خميص البطن ضامره.

(٣) المعتدلان ههنا: القرنان، وقوله: «لا فيهما عوج ولا نقدان» أي: مستقيمان لا اعوجاج فيهما ولا تأكلاً.

(٤) يقول: إن القرنين يظهران من خلال الضباب الكثيف لمعاناً ووشياً كالرمح قوّمه المثقف وقشره.

(٥) الوأى: السريع المشدّد الخلق، وفي التهذيب: الفرس السريع المشدّد الخلق (انظر الديوان: ص/٩٨ ـ ١٠١).

بما قَبِلَ الله من توبتهم وجعلهم من الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظُلموا[1]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٧].

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

* * *

(١) وأي ظلم أظلم من حالة الكفر.

فهرس المراجع

القرآن الكريم.
أدباء العرب ـ لبطرس البستاني.
أدب الكاتب ـ لابن قتيبة.
أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ لابن الأثير الجزري.
الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر.
الإصابة في معرفة الصحابة ـ للعسقلاني.
الأعلام ـ للزركلي.
الأغاني ـ للأصفهاني.
إمتاع الأسماع ـ للمقريزي.
أيام العرب في الجاهلية ـ محمد أحمد ، علي أحمد.
بلوغ الأرب في أحوال العرب ـ لمحمود شكري.
البيان والتبيين ـ للجاحظ.
تاج العروس ـ للزبيدي.
تاريخ الأدب العربي ـ لعمر فروخ.
تاريخ الأدب العربي ـ للزيات.
تاريخ الأدب العربي ـ لشوقي ضيف.
تاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمان.
تاريخ آداب العرب ـ لمصطفى صادق الرافعي.
تاريخ الطبري ـ للطبري.
تهذيب التهذيب ـ لابن حجر العسقلاني.

جمهرة أشعار العرب ـ لابن أبي الخطاب القرشي.
خزانة الأدب ـ للبغدادي.
دلائل الإعجاز ـ لعبد القاهر الجرجاني.
ديوان حسان بن ثابت ـ دار صادر ـ بيروت.
ديوان عبد الله بن رواحة وتاريخ النقائض.
ديوان قيس بن الخطيم.
ديوان كعب بن زهير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
الروض الأنف ـ للسهيلي.
سير أعلام النبلاء ـ للذهبي.
سيرة ابن هشام ـ لابن هشام.
شرح ديوان حسان ـ للدكتور محمد طاهر درويش.
شرح ديوان حسان ـ دكتور سيد حنفي حسني.
شرح ديوان حسان ـ للبرقوقي.
الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة.
الصحاح الستة.
طبقات ابن سعد ـ لابن سعد.
طبقات الشعراء ـ لابن المعتز.
طبقات فحول الشعراء ـ لابن سلام الجمحي.
الطبقات الكبرى.
العقد الفريد ـ لابن عبد ربه.
القاموس المحيط ـ للفيروزآبادي.
الكامل ـ للمبرد.
الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير.
كتاب الاستيعاب ـ للذهبي.
كتاب الصناعتين ـ للعسكري.
لسان العرب ـ لابن منظور.
مسند الإمام أحمد بن حنبل.

معجم الأدباء ـ لياقوت .
معجم البلدان ـ لياقوت الحموي .
الموازنة بين أبي تمام والبحتري ـ للآمدي .

* * *

فهرس الكتاب

تقديم الكتاب : بقلم : سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ٥
كلمة تعريف : لسعادة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي مدير جامعة ندوة العلماء ٩
كلمة المؤلف ١٣
مقدمة حول : أدب المخضرمين في تاريخ آداب اللغة العربية ١٧
الشعر الجاهلي ١٨
الشعر المخضرم ١٩
المخضرم لُغَةً ومُصْطَلَحاً ١٩
الشعر في الإسلام ٢٢
ثلاثةٌ من الشعراء المخضرمين ٢٣
موقفُ الإسلام من الشعر ٢٨

الباب الأول : كعب بن مالك الأنصاري ٣٣
النثر مع الشعر في الجاهلية ٣٣
بعض الجاهليين ممن جمعوا بين النثر والشعر ٣٣
كعبُ بن مالك من هو؟ ٣٤
إسلامه ٣٦
حديث خروجه إلى مكة مع البراء بن مَعْرُورٍ ٣٧
العباس يتوثق للنبي الكريم ﷺ ٣٩
عهد الرسول عليه الصلاة والسلام على الأنصار ٤٠

شعرُ كعب في حصر النُّقَباء ٤١
في غزوة أحد ٤٢
إسهامه في حفر الخندق مع رسول الله ﷺ ٤٢
في فتح مكة ٤٣
إسلام أبي سفيان بن الحارث ٤٣
موقف كعب بن مالك من هجاء أبي سفيان قبل إسلامه ٤٤
غزوة تبوك وكعب بن مالك ٤٤
كعب بن مالك يسأل رسول الله ﷺ عن رأيه في الشعر ٤٨
كعب بن مالك الأنصاري ونموذج من شعره ٤٨
مؤهلاته الشعرية في الدفاع عن الإسلام ٤٩
معارضته لقريش بمثل قولهم ٤٩
شعره في المغازي ، غزوة بدر ٥١
شعره في عبيدة بن الحارث ٥٢
يهدد أبا سفيان ويتنبأ بفتح مكة ٥٣
مشاركته في غزوة أحد ٥٤
شعره في الرد على شعر هُبَيرة بن أبي وهب ٥٤
رده على عمرو بن العاص يوم أحد ٥٨
شهوده في الموقف الحزين في هذه الغزوة ٥٩
شعره في رثاء حمزة بن عبد المطلب ٦٠
شعره في الرد على شعراء المشركين ٦١
قصيدته في رثاء سيد الشهداء ٦٤
يحث صفية بنت عبد المطلب على بكائها حمزة ـ رضي الله عنه ـ ٦٦
قصائده في يوم أحد ٦٧
قصيدة أخرى يخاطب بها قريشاً ٦٩
قصيدة أخرى في الرثاء ٧٠
شعره بمناسبة حادث بئر معونة ٧٢
قصيدته في غزوة بني النضير ٧٣

كعب بن مالك يرد على ضرار بن الخطاب ٧٤
شعره في يوم الخندق والرجيع ٧٦
وهذه قصيدة أخرى له في يوم الخندق ٧٨
وقال أبياتاً أخرى في يوم الخندق وهي من قصيدة له ٧٩
وهذه قصيدة غراء يتحدث فيها عن انطباعاته نحو يوم الخندق ٧٩
أبيات قالها في غزوة بني لَحْيان ٨١
شعره في غزوة ذي قرد وخيبر ٨٢
وقال كعب بن مالك أبياتاً في يوم خيبر ٨٣
قصيدته في غزوة مؤتة ٨٣
وفي غزوة الطائف ٨٥

الباب الثاني : حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ

شعر حسان في الجاهلية ٩١
قدومه على عمرو بن الحارث ٩١
مكانته الشعرية في الجاهلية ٩٢
حسان مع قيس بن الخطيم ٩٣
شعره في بعض أيام الجاهلية ٩٥
أسرة حسان ٩٦
حسان يستبشر بالإسلام ٩٧
إسلامه ٩٨
صفحة جديدة في تاريخ الدفاع عن الإسلام ٩٨
قريش تحاول أن تنتقم من حسان ١٠٤
أول شعر يقوله حسان في الإسلام ١٠٥
انتصار حسان لرسول الله ﷺ ١٠٧
دور حسان في مفاخرة وفد بني تميم ١٠٩
شعره الجاهلي يمثل شخصيته القوية ١١٤
الفخر هو اللون الغالب على شعره الجاهلي ١١٤
نماذج من شعره الجاهلي ١١٦

قصيدة أخرى ١٢٠
وقصيدة أخرى شهيرة ١٢٤
قصيدته المخضرمة ١٢٧
قصيدة جاهلية أخرى ١٣٢
قصيدته الرائية الجاهلية المشهورة ١٣٦
قصيدته الطائية ١٤٠
يوم الفضاء ١٤١
أبيات أخرى في حرب الأوس والخزرج ١٤٢
قصيدة قالها يوم بعاث ١٤٤
وجاء فيما رواه هشام بن محمد الكلبي ١٤٧
قصيدته رداً على قصيدة أبي قيس الأسلت ١٥٠
قصيدته الميمية في الجاهلية ١٥٢
قصيدته اللامية الجاهلية ١٥٥
آخر قصائده الجاهلية ١٦٠
شعره الإسلامي والدفاع عن الإسلام ١٦٩
شاعر إسلامي فَذٌّ ١٦٩
شعره الإسلامي حافل بالروح والتأثير ١٦٩
مكانة حسان لدى النبي الكريم ﷺ ١٧٠
أول شعر قاله في الإسلام ١٧١
حسان يمدح المطعم بن عدي ويرثيه ١٧٢
حسان مع أبي أزيهر الدوسي ١٧٣
وجاء في سيرة ابن هشام برواية ابن إسحاق ١٧٤
شعره في الغزوات الإسلامية ١٧٤
أبيات أخرى في يوم بدر ١٧٧
يرد على كعب بن الأشرف ١٧٩
قصيدته الميمية الغراء ١٨٠
أبيات أخرى بهذه المناسبة ١٨٣

إسلام الحارث بن هشام ١٨٤
أبيات في قتلى بني عبد العزى ١٨٥
في مدح رسول الله ﷺ وجيش المسلمين يوم بدر ١٨٦
أبيات أخرى يخاطب بها قريشاً ١٨٦
ما قاله في مناسبة غزوة أحد ١٨٨
قصيدة ميمية أخرى ، يوم أحد ١٩٠
يهجو عتبة بن أبي وقاص ١٩٢
شعره في الرد على هبيرة بن أبي وهب المخزومي ١٩٦
شعره بعد غزوة أحد ١٩٦
قصيدته اللامية في الرد على ابن الزبعرى ١٩٧
يحث ابن الزبعرى على الإسلام ٢٠٠
شعره بعد استشهاد حمزة ـ رضي الله تعالى عنه ـ ٢٠١
يمدح الشباب المؤمنين ٢٠٣
قصيدة أخرى في رثاء سيد الشهداء ٢٠٥
يوم الرجيع بعد غزوة أحد ٢٠٧
قصة حَبْس خبيب بن عدي ٢٠٧
كيف صلبوه وقتلوه ٢٠٨
شعره الذي قاله في هذه المناسبة ٢٠٨
يهجو قبيلة هذيل ٢١٠
قصيدة أخرى في هجوها ٢١٢
قصيدة أخرى يهجو فيها هذيلاً ولحيان ٢١٣
شعره في وقعة بئر معونة ٢١٥
حسان يرثي شهداءها ٢١٥
غزوة بدر الآخرة وحسان ٢١٦
يهجو عكرمة بن أبي جهل ٢١٨
قصيدته يوم الخندق ٢١٩
شعره في مقتل عمرو بن عبد وُدّ ٢٢٠

أبيات أخرى في مقتله ٢٢١
حسان يرثي سعد بن معاذ ٢٢١
قصيدة أخرى في رثائه والشهداء الآخرين ٢٢٢
قصيدته في بني قريظة ٢٢٣
أبيات له في غزوة بني قريظة ٢٢٤
يرد على جبل بن جوال ٢٢٤
أبيات في قتل ابن أبي الحُقيق وابن الأشرف ٢٢٥
شعر حسان في غزوة ذي قرد ٢٢٥
أبيات أخرى في يوم ذي قرد ٢٢٧
غزوة بني المصطلق وحسان ٢٢٨
حسان يعتذر ٢٢٩
شعره في يوم خيبر ٢٣٠
رثاء حسان لشهداء مؤتة ٢٣٠
يرثي جعفر بن أبي طالب ٢٣٢
قصيدته في رثاء عبد الله بن رواحة ٢٣٣
شعره بمناسبة المسير إلى مكة قبل الفتح ٢٣٣
قصيدته المخضرمة قبل فتح مكة ٢٣٤
شعره في غزوة الفتح ٢٣٥
حسان يفتخر بنفسه وقومه ٢٣٦
قصيدة أخرى في الفخر بقومه ٢٣٧
شعر حسان في عام الوفود ٢٣٧
حسان يمدح النبي الكريم ﷺ ٢٣٨
مصيبة المسلمين التي لا تعادلها مصيبة ٢٤٠
حسان يرثي رسول الله ﷺ بقصيدة طويلة ٢٤١
قصيدة أخرى في الرثاء ٢٤٦
يا أفضل الناس إني كنت في نهر ٢٤٨
حزن لا مثيل له ٢٥٠

دعمه لموقف الخليفة الأول من فتنة الردة ٢٥٠
يمدح الزبير بن العوام ٢٥١
شعره في مدح أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ٢٥٢
حسان وعمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ٢٥٣
شعره في ابن جفنة ٢٥٤
يمدح عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ٢٥٥
حسان يرد على النجاشي الشاعر ٢٥٦
وأبيات أخرى يُلقيها على الحارث بن معاذ ٢٥٧

الباب الثالث: عبد الله بن رواحة الأنصاري

شاعر كبير مرتجل ٢٦١
مدحه لرسول الله ﷺ ٢٦٢
منزلته في الجاهلية ٢٦٣
مكانته في الإسلام ٢٦٤
مجالس الإيمان ٢٦٥
شدة ورعه وطاعته لله والرسول الكريم ﷺ ٢٦٦
في ميدان الجهاد والقتال ٢٦٧
عبد الله بن رواحة يبايع رسول الله ﷺ ٢٦٨
المؤاخاة بين عبد الله بن رواحة والمقداد ٢٦٩
صلته القريبة المخلصة برسول الله ﷺ ٢٧٠
في غزوة بدر ٢٧٠
خطبة رسول الله ﷺ يوم بدر ٢٧١
عبد الله بن رواحة يشير على النبي الكريم ﷺ ٢٧٢
مبارزته مع سادة قريش ٢٧٢
عبد الله بن رواحة يحمل بشرى بدر ٢٧٣
غزوة أحد وعبد الله بن رواحة ٢٧٤
موتوا على ما مات عليه النبي ﷺ ٢٧٤

نساء الأنصار يبكين على حمزة ٢٧٥
في مناسبة غزوة بدر الآخرة ٢٧٦
أبو سفيان يكره الخروج إلى الموعد ٢٧٦
رسول الله ﷺ يستخلف عبد الله بن رواحة على المدينة ٢٧٧
شعر عبد الله بن رواحة في المناسبة ٢٧٧
عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع ٢٧٨
ابن رواحة يطرق أهله ليلاً ٢٧٨
لا تطرقوا النساء ليلاً ٢٧٨
غزوة الخندق وابن رواحة ٢٧٩
رسول الله ﷺ يرتجز برجْزِ عبد الله بن رواحة ويحفر ٢٨٠
أيام شدة ومجاعة وأسرة ابن رواحة ٢٨٠
دور عبد الله بن رواحة في إنقاذ صفوان بن المعطل ٢٨١
سرية عبد الله بن رواحة ٢٨٢
عبد الله بن رواحة يخرص النخل في خيبر ٢٨٣
عبد الله بن رواحة في عمرة القضاء ٢٨٤
ابن رواحة يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ ٢٨٤
رسول الله ﷺ يعلم ابن رواحة دعاءه في الطواف ٢٨٥
غزوة مؤتة ، وعبد الله بن رواحة ٢٨٥
وداع جيش مؤتة ووصيته الأمراء ٢٨٦
من خبر عبد الله بن رواحة ٢٨٧
عبد الله بن رواحة يشجع المسلمين ٢٨٨
مقتل ابن رواحة ٢٨٩
عبد الله بن رواحة يتمثل بأبيات من الشعر ٢٩١
ابن رواحة يودعه القوم إلى مؤتة ٢٩١
عبد الله يخاطب نفسه بعد مقتل جعفر بن أبي طالب ٢٩٢
تحققت أمنية الشهادة ٢٩٣
مكانة ابن رواحة الشعرية في الجاهلية ٢٩٣

الأوس والخزرج ، من هم؟ ومتى لقبوا بالأنصار؟ ٢٩٤
الأوس والخزرج في يثرب ٢٩٤
أول حرب بين الأوس والخزرج ٢٩٥
شعر درهم بن يزيد ٢٩٥
شعراء القبيلتين والإسلام ٢٩٦
يوم الفضاء ٢٩٧
قصيدة عبد الله بن رواحة ٢٩٧
حرب حاطب الشهيرة ٣٠٠
يوم البقيع وما قيل فيه من شعر ٣٠٠
يوم معبس ومضرس ٣٠١
شعر قيس بن الخطيم في هذه المناسبة ٣٠٢
يوم فجار الأول ٣٠٢
حرب بعاث ، هي الأخيرة ٣٠٣
قصيدة عبد الله بن رواحة ٣٠٤
شعر آخر في حرب بعاث ٣٠٤
مكانته الشعرية الممتازة ٣٠٧
شعره في الإسلام ٣٠٨
شعره الإسلامي عند خروجه إلى مؤتة ٣٠٨
شعره في رثاء سيد الشهداء ٣٠٩
قصيدة عبد الله بن رواحة اللامية ٣١٠
ابن رواحة يرد على هبيرة بن أبي وهب ٣١١
ويرثي نافع بن بديل ٣١٣
شعره في مناسبة إجلاء بني النضير ٣١٣
ابن رواحة في غزوة بدر الآخرة ٣١٤
ابن رواحة يقول الشعر ٣١٥
رجزه في غزوة الخندق ٣١٥
شعره في حسان وأصحابه ٣١٦
شعره في مدح النبي الكريم ﷺ ٣١٦

شعره لزوجته ٣١٧
شعره في عمرة القضاء ٣١٨
وفي غزوة مؤتة ٣١٩
شعره عند وداعه القوم إلى مؤتة ٣١٩
وفي رواية لابن هشام ٣٢٠
يخاطب نفسه بعد مقتل جعفر بن أبي طالب ٣٢٠
قصته في يوم مؤتة ٣٢١
شعره في مدح أبي الهيثم ٣٢٢
خاتمة البحث ٣٢٣

الباب الرابع : كعب بن زهير بن أبي سُلمى

كعب بن زهير ومكانته في الشعر المخضرم ٣٢٧
ميزته الشعرية الفائقة ٣٢٨
أسرته الشاعرة الممتازة ٣٣٠
شهادة الأصفهاني له ٣٣١
نماذج من شعره ٣٣٤
إسلامه ومشاركته في الغزوات ٣٤٢
زهير بن أبي سلمى يوصي أولاده باللحوق بالنبي الكريم ﷺ ٣٤٥
بجير بن زهير يحثُّ أخاه على قبول الإسلام ٣٤٦
وجاء في آخر القصيدة ٣٤٩
إنكار كعب وتهديد رسول الله ﷺ له ٣٤٩
ينشرح قلبه للحضور إلى النبي الكريم ﷺ ٣٤٩
كعب بن زهير يمدح بقصيدته اللامية رسول الله ﷺ ٣٥٠
وقصيدة أخرى ٣٧٥
كلمة آخر الكتاب ٣٧٨
فهرس المراجع ٣٨٠
فهرس الكتاب ٣٨٣

* * *

مكتبة الصفاء
أبوظبي - ص.ب ٥٢٦٦
هاتف: ٦٤٤٥٠٥٢ - فاكس: ٦٤٤٥٦٢٥
الإمارات العربية المتحدة